

تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تأليف

القاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي

المتوفى سنة ٩٨٢ هـ

تحقيق

خالد عبد الغني محفوظ

الجزء الخامس

المحتوى:

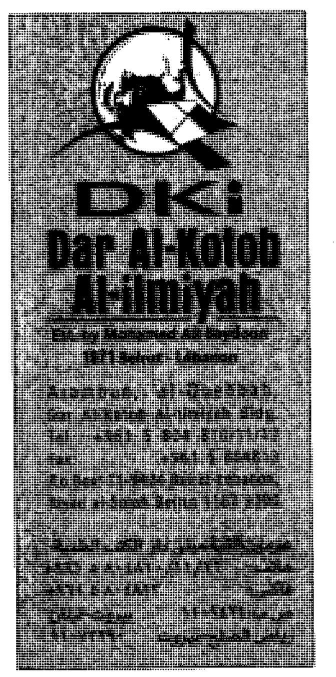
أول سورة إبراهيم - آخر سورة الأنبياء

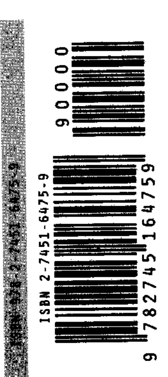


أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title :	**THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN**	**تفسير أبي السعود**	**الكتاب** :
Classification:	Exegesis of The Qur'an	: تفسير قرآن	**التصنيف**
Author	: Al-qāḍi Abu al-Suᶜūd al-ᶜImādi	:أبو السعودمحمد بن محمد العمادي	**المؤلف**
Editor	: Ḫālid Abdul-Ǧani Maḥfūẓ	: خالد عبد الغني محفوظ	**المحقق**
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	: دار الكتب العلميـــة – بيروت	**الناشر**
Pages	: 4160 (8 volumes)	4160 : (8 أجزاء)	**عدد الصفحات**
Size	: 17*24	24*17 :	**قياس الصفحات**
Year	: 2010	2010 :	**سنة الطباعة**
Printed in	: Lebanon	: لبنـــان	**بلد الطباعة**
Edition	: 1st	: الأولى (لونان)	**الطبعة**




ISBN 2-7451-6475-9

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

عليه السلام مكيّة وهي ثنتان وخمسون آية

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ
عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا
عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ
فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ
أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن
كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ
لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ
أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ
فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ
إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ
﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا
كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا
نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ
لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

القرآن نور للعالمين

﴿آلر﴾ مر الكلامُ فيه وفي محله غيرَ مرة وقوله تعالى: **﴿كتاب﴾** خبرٌ له على تقدير كون آلر مبتدأً أو لمبتدإٍ مضمرٍ على تقدير كونه خبرًا لمبتدأ محذوف، أو مسرودًا على نمط التعديد، ويجوز أن يكون خبرًا ثانيًا لهذا المبتدأ المحذوف، وقوله تعالى: **﴿أنزلناه إليك﴾** صفةٌ له وقوله تعالى: **﴿لتخرج الناس﴾** متعلقٌ بأنزلناه أي لتخرجَهم كافةً بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحةِ عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفةِ عن العقائد الحقةِ[١]، وقرئ[٢] (ليخرُجَ الناس) **﴿من الظلمات﴾** أي ليُخرج به الناسَ من عقائد الكفر[٣] والضلال التي كلُّها ظلماتٌ محضةٌ وجهالاتٌ صِرْفة **﴿إلى**

---

(١) في خ: الخفية.

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٥).

(٣) إشارة إلى أن الآية من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية حيث استعار الظلمات للكفر والنور للإيمان، وقد مضى الحديث عن هذه الاستعارة.

=

النور﴾ إلى الحق الذي هو نورٌ بحتٌ لكن لا كيفما كان، فإنك لا تهدي من أحببت بل ﴿**بإذن ربهم﴾** أي بتيسيره وتوفيقِه وللإنباء عن كون ذلك منوطًا بإقبالهم إلى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ويهدي إليه من أناب﴾ [الرعد، الآية ٢٧] استُعير له الإذنُ الذي هو عبارةٌ عن تسهيل الحجابِ لمن يقصِد الورودَ، وأضيف إلى ضميرهم اسمُ الربِّ المفصحِ عن التربية التي هي عبارةٌ عن تبليغ الشيءِ إلى كماله المتوجّه إليه، وشمولُ الإذنَ بهذا المعنى للكل واضحٌ وعليه يدور كونُ الإنزال لإخراجهم جميعًا. وعدمُ تحققِ الإذن بالفعل في بعضهم، لعدم تحققِ شرطِه المستند إلى سوء اختيارِهم، غيرُ مخلٍ بذلك والباء متعلقةٌ بـ (تخرج) أو[1] بمضمر وقع حالًا من مفعوله أي ملتبسين بإذن ربِّهم، وجعله حالًا من فاعله يأباه إضافةُ الربِّ إليهم لا إليه، وحيث كان الحقُّ مع وضوحه في نفسه وإيضاحه لغيره موصلًا إلى الله عز وجل استُعير له النورُ تارة والصراطُ أخرى، فقيل: ﴿**إلى صراط العزيز الحميد﴾** على وجه الإبدالِ بتكرير العامل كما في قوله تعالى: ﴿للذين استُضعِفوا لمن آمن منهم﴾ [الأعراف، الآية ٧٥] وإخلالُ البدل والبيانِ بالاستعارة إنما هو في الحقيقة لا في المجاز كما في قوله سبحانه: ﴿حتى يتبينَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر﴾ [البقرة، الآية ١٨٧] وقيل: هو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال، كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد، وإضافةُ الصراط إليه تعالى لأنه مقصِدُه أو المبينُ له، وتخصيصُ الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه من الأمن والعاقبةِ الحميدة ﴿**الله﴾** بالجر عطفُ بيان للعزيز الحميد لجريانه مَجرى الأعلامِ الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم في الثريا. وقرئ[2] بالرفع على [تقدير] هو الله، أي العزيز الحميد الذي أضيف إليه صراط الله ﴿**الذي له﴾** مُلكًا ومِلكًا ﴿**ما في السموات وما في الأرض﴾** أي ما وُجد فيهما داخلًا فيهما أو خارجًا عنهما متمكنًا فيهما كما مر في آية الكرسي، ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فخامة شأنِ الصراط وإظهارٌ لتحتم سلوكه على الناس قاطبةً، وتجويزُ الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرًا مبناه الغفولُ عن هذه النكتة وقوله عز وجل: ﴿**وويل للكافرين﴾** وعيدٌ لمن كفر

= ينظر: تلخيص المفتاح مع مختصر السعد التفتازاني عليه (٢٩٥)، وشروح التلخيص (٤/ ٦٠) وما بعدها، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤).

(١) في خ: و.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٦٩)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٣٩).

بالكتاب ولم يخرجْ به من الظلمات إلى النور بالويل، وهو نقيضُ الوال وهو النجاةُ، وأصله النصبُ كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلامٌ عليك ﴿من عذاب شديد﴾ متعلق بـ (ويل) على معنى يولّون ويضِجون منه قائلين: يا ويلاه، كقوله تعالى: ﴿دعَوا هنالك ثُبورًا﴾ [الفرقان، الآية ١٣].

﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا﴾ أي يؤثرونها استفعالٌ من المحبة فإن المؤثرَ للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبَّ إليها وأفضلَ عندها من غيره ﴿على الآخرة﴾ أي الحياة الآخرةِ الأبدية ﴿ويصدون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ التي بين شأنُها، والاقتصارُ على الإضافة إلى الاسم الجليلِ المنطوي على كل وصفٍ جميلٍ لرَوْمِ الاختصار، وهو من صدّه صدًا وقرئ[1] يُصِدّون من أصدّ المنقولِ من صد[2] صدودًا إذا نكَب وهو غيرُ فصيح كأوقف فإن في صدّه ووقفه لمندوحة عن تكلف[3] النقل ﴿ويبغونها﴾ أي يبغون لها فحذف الجارّ وأوصل الفعل إلى الضمير أي يطلبون لها ﴿عوجًا﴾ أي زيغًا واعوجاجًا وهي أبعدُ شيء من ذلك أي يقولون لمن يريدون صدَّه وإضلاله: إنها سبيلٌ ناكبةٌ وزائغة غيرُ مستقيمة، ومحلُّ موصول هذه الصلاتِ الجرُّ على أنه بدلٌ من الكافرين أو صفةٌ له فيعتبر كلُّ وصف من أوصافهم بإزاء ما يناسبه من المعاني المعتبرةِ في الصراط، فالكفرُ المنبئ عن الستر بإزاء كونه نورًا واستحبابُ الحياة الدنيا الفانيةِ المفصحةِ عن وخامة العاقبةِ بمقابلة كونِ سلوكه محمودَ العاقبة والصدُّ عنه بإزاء كونه مأمونًا، وفيه من الدلالة على تماديهم في الغي ما لا يخفى. أو النصبُ على الذم أو الرفعُ على الابتداء والخبر قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾ وعلى الأول جملةٌ مستأنفة وقعت معلّلةً لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدًا لما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول أي أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورةِ من استحباب الحياةِ الدنيا على الآخرة وصدِّ الناس عن سبيل الله المستقيمةِ ووصفها بالاعوجاج وهي منه بنزه في ضلال عن طريق الحق بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ، والبعدُ وإن كان من أحوال الضالّ إلا أنه قد وُصف به وصفُه مجازًا للمبالغة كجدّ جدُّه وداهيةٌ دهياءُ، ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد أو فيه بُعدٌ، فإن الضالّ قد يضِل عن الطريق مكانًا قريبًا وقد يضل بعيدًا، وفي جعل الضلال

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧١)، والبحر المحيط (٥/ ٤٠٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٦).

(٢) في خ: أصد.

(٣) في خ: تكليف.

محيطًا بهم إحاطةَ الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة.

وظائف الرسل

﴿وما أرسلنا﴾ أي في الأمم الخاليةِ من قبلك كما سيذكر إجمالًا ﴿من رسولٍ إلا﴾ ملتبسًا ﴿بلسان قومه﴾ متكلمًا بلغة من أُرسل إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواءٌ بعث فيهم أو لا، وقرئ[١] بِلِسْنِ وهو لغة فيه كريش ورياش وبلُسُنْ[٢] بضمتين وضمة وسكون[٣] كعُمُد وعُمْد ﴿ليبين لهم﴾ ما أمروا به فيتلقَّوه منه بيُسر وسُرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ممن لم يُؤمر به، وحيث لم يكن مراعاةُ هذه القاعدة في شأن سيدنا محمدٍ ﷺ وعليهم أجمعين لعموم بعثتِه للثقلين كافةً على اختلاف لغاتِهم وكان تعددُ نظم الكتاب المنزل إليه حسب تعددِ ألسنة الأممِ أدعى إلى التنازع واختلافِ الكلمة وتطَرّقِ أيدي التحريف، مع أن استقلال بعضٍ من ذلك بالإعجاز دون غيره مَئِنّةٌ[٤] لقدح القادحين واتفاقَ الجميع فيه أمرٌ قريب من الإلجاء وحصرِ البيانِ بالترجمة والتفسير، اقتضت الحكمةُ اتحادَ النظمِ المنبئ عن العزة وجلالةِ الشأن المستتبعِ لفوائدَ غنيةٍ عن البيان، على أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعددِ إذ لا بد لكل أمةٍ من معرفة توافق الكلِّ وتحاذيه حذوَ القُذّة بالقذة من مخالفة ولو في خَصلة فذّة، وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدًا أو متعددًا وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناعَ، ثم لما كان أشرفَ الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومُه الذين بعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات نزل الكتابُ المتين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامُه فيما بين الأمم أجمعين، وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ، فإنه تعالى أنزل الكتب كلَّها عربيةً[٥] ثم ترجمها جبريلُ عليه الصلاة والسلام، أو كلٌّ من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم، ويرده قوله تعالى: ﴿ليبين لهم﴾ [فإنه][٦] ضميرُ القوم وظاهرٌ أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب. وفي رَجْعه إلى قوم كل نبي، كأنه قيل: وما أرسلنا من رسول إلا

---

(١) قرأ بها: أبو السمال، وأبو الجوزاء، وأبو عمران الجوني.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤٠٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٩).

(٢) قرأ بها: أبو رجاء، وأبو المتوكل، والجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٧).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠٥).

(٤) في خ: سنة.

(٥) في خ: غربية.

(٦) سقط في خ.

بلسان قومِ محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسولُ لقومه الذين أرسل إليهم، ما لا يخفى من التكلف ﴿فيضل الله من يشاء﴾ إضلالَه أي يخلق فيه الضلالَ لمباشرة أسبابِه المؤدية إليه أو يخذله ولا يلطُف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الإلطاف ﴿ويهدي﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿من يشاء﴾ هدايتَه لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، والالتفاتُ بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنِهما وترشيح مناطِ كلٍّ منهما، والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى: ﴿فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ [الشعراء، الآية ٦٣] كأنه قيل: فبيّنوه لهم فأضل الله منهم من شاء إضلالَه لما لا يليق إلا به وهدى من شاء هدايتَه لاستحقاقه لها، والحذفُ للإيذان بأن مسارعة كلِّ رسول إلى ما أمر به وجريانَ كلٍّ من أهل الخذلان والهدايةِ على سنته أمرٌ محققٌ [غنيٌّ][(١)] عن الذكر والبيانِ. والعدولُ إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على التجدد والاستمرارِ حسب تجدد البيانِ من الرسل المتعاقبةِ عليهم السلام، وتقديمُ الإضلال على الهداية إما لأنه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان ألا تأثيرَ للتبيين والتذكير من قبل الرسلِ، وأن مدارَ الأمر إنما هو مشيئتُه تعالى بإيهام أن ترتبَ الضلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتب الاهتداءِ وهذا محقِّقٌ لما سلف من تقييد الإخراجِ من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغالَب في مشيئته ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل شيئًا من الإضلال والهداية إلا لحكمة[(٢)] بالغةٍ، وفيه أن ما فُوِّض إلى الرسل إنما هو تبليغُ الرسالة وتبيينُ طريقِ الحقِّ، وأما الهدايةُ والإرشادُ إليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

من حديث موسى عليه السلام

﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ شروعٌ في تفصيل ما أجمل في قوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ الآية ﴿بآياتنا﴾ أي: ملتبسًا[(٣)] بها وهي معجزاتُه التي أظهرها لبني إسرائيلَ ﴿أن أخرج قومك﴾ بمعنى أي أخرِجْ لأن الإرسالَ فيه معنى[(٤)] القول أو بأن أخرِجْ كما في قوله تعالى: ﴿وأن أقِمْ وجهك﴾ [يونس، الآية ١٠٥] فإن صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواءٌ، وهو المدارُ في صحة الوصل والمرادُ بذلك إخراجُ بني إسرائيلَ بعد مهلِك فرعون ﴿من الظلمات﴾ من

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: بحكمة.
(٣) في خ: متلبسًا.
(٤) في خ: بمعنى.

الكفر والجهالاتِ التي أدتهم إلى أن يقولوا: يا موسى اجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة **﴿إلى النور﴾** إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائرِ ما أُمروا به **﴿وذكرهم بأيام الله﴾** أي بنعمائه وبلائِه كما ينبئ عنه قوله: **﴿اذكروا نعمةَ الله عليكم﴾** [إبراهيم، الآية ٦] لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الأمم في الأيام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم﴾** الآيات [إبراهيم، الآية ٩]، أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى: **﴿إذ أنجاكم﴾** [إبراهيم، الآية ٦] والالتفاتُ من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنِها والإشعارِ بعدم اختصاصِ ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومِه كما تُوهمه[(١)] الإضافةُ إلى ضمير المتكلم أي عظْهم بالترغيب والترهيب والوعدِ الوعيد، وقيل: أيامُ الله وقائعُه التي وقعت على الأمم قبلهم، وأيامُ العرب وقائعُها وحروبُها (وملاحمها)[(٢)] أي أنذرهم وقائعَه التي دهمت الأممَ الدارجة، ويردّه ما تصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثالِ من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك.

﴿إن في ذلك﴾ أي في التذكير بها أو في مجموع تلك النعماءِ والبلاءِ أو في أيامها[(٣)] **﴿لآيات﴾** عظيمةً أو[(٤)] كثيرةً دالةً على وحدانية الله تعالى وقدرتِه وعلمه وحكمته، فهي على الأول عبارةٌ عن الأيام سواءٌ أريد بها أنفسُها أو ما فيها من النعماء والبلاءِ، ومعنى ظرفية التذكيرِ لها كونُه[(٥)] مناطًا لظهورها، وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر، وأما على الثاني وهو كونُه إشارةً إلى مجموعِ النعماءِ فعن كل واحدة من تلك النعماء والمشارُ إليه المجموعُ المشتمل عليها من حيث هو مجموعٌ، وكلمةُ (في) تجريديةٌ مثلُها في قوله تعالى: **﴿لهم فيها دارُ الخلد﴾** [فصلت، الآية ٢٨] **﴿لكل صبار﴾** على بلائه **﴿شكور﴾** لنعمائه، وقيل: لكل مؤمنٍ، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشعار[(٦)] بأن الصبرَ والشكرَ عنوانُ المؤمن أي لكل مَن يليقُ بكمال الصبرِ والشكر أو الإيمان ويصير أمرَه إليها، لا لمن اتصف بها بالفعل لأنه تعليلٌ للأمر بالتذكير المذكور السابقِ على التذكر المؤدّي إلى تلك المرتبة، فإن من تذكّر ما فاض أو نزل عليه أو على مَنْ قبله من النعماء والبلاءِ وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها، وتخصيصُ الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لا

---

(١) في خ: يوهمه.
(٢) في خ: ملاحمه.
(٣) في خ: فأمامها.
(٤) في خ: أي.
(٥) في خ: كونها.
(٦) في خ: الإشعار.

لأنها خافيةٌ عن غيرهم، فإن التبيينَ حاصلٌ بالنسبة إلى الكل، وتقديمُ الصبار على الشكور لتقدم متعلَّقِ الصبر، أعني البلاءَ، على متعلّق الشكر، أعني النعماء، وكون الشكر عاقبة الصبر.

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ شروعٌ في بيان تصدّيه عليه الصلاة والسلام لما أُمر به من التذكير للإخراج المذكورِ، وإذ منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مر سرُّه غيرَ مرة أي اذكر لهم وقت قولِه عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبلُ وهي إليه أميلُ، والظرفُ متعلّقٌ بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا أو بمحذوف وقع حالًا منها إن جعلت اسمًا أي اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم، وكذلك كلمةُ إذْ في قوله تعالى: ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائِه إياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمةَ الله مستقرةً عليكم وقت إنجائِه إياكم منهم أو بدلُ اشتمال من (نعمةَ لله) مرادًا بها الإنعامُ والعطية ﴿يسومونكم﴾ يبغونكم، مِنْ سامه خَسفًا إذا أولاه ظلمًا، وأصلُ السَّوم الذهابُ في طلب الشيء ﴿سوء العذاب﴾ السوءُ مصدر ساء يسوء والمرادُ به جنسُ العذاب السيّئ أو استعبادهم[١] واستعمالُهم في الأعمال الشاقة والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك مما لا يحصر، ونصبُه على أنه مفعولٌ لـ(يسومونكم) ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد، وإنما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة إنه سيولد منهم مَنْ يذهب بملكه[٢] فاجتهدوا في ذلك فلم يُغن عنهم من [قضاء][٣] الله شيئًا.

﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يُبقونهن [في][٤] الحياة مع الذل والصَّغار ولذلك عد من جملة البلاء. والجملُ أحوالٌ من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعًا لأن [فيها][٥] ضميرَ كلٍّ منهما ﴿وفي ذلكم﴾ أي فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿بلاء من ربكم﴾ أي ابتلاء منه (لا أن)[٦] البلاء عينُ تلك الأفعال [اللهم][٧] إلا أن تجعل[٨] (في) تجريديةً فنسبتُه إلى الله تعالى إما من حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين

---

(١) في خ: استبعادهم.
(٢) في خ: بملك.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.
(٦) في خ: لأن.
(٧) سقط في خ.
(٨) في خ: يجعل.

﴿عظيم﴾ لا يطاق، ويجوز أن يكون المشارُ إليه الإنجاء من ذلك، والبلاءُ الابتلاءُ بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرضُ لوصف الربوبية، وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاءُ أو باعتبار أن بلاءَ المؤمن تربيةٌ له.

﴿وإذ تأذن ربكم﴾ من جملة مقالِ موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوفٌ على (نعمةَ الله) أي اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذّن ربكم أي آذن إيذانًا بليغًا لا تبقىٰ معه شائبةٌ[1]، لِما في صيغة التفعّل من معنى التكلّف المجعولِ[2] في حقه سبحانه على غايته التي هي الكمالُ، وقيل: هو معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿إذ أنجاكم﴾، أي اذكروا نعمتَه تعالى في هذين الوقتين فإن هذا التأذنَ أيضًا نعمةٌ من الله تعالى عليهم ينالون بها خيري الدنيا والآخرة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: (وإذ قال ربكم). ولقد ذكّرهم عليه الصلاة والسلام أولًا بنعمائه تعالى عليهم صريحًا وضمنّه تذكيرَ ما أصابهم قبل ذلك من الضراء، ثم أمرهم ثانيًا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة (على تقدير)[3] الشكر والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر، والمرادُ بتذكير الأوقات تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث مفصلةً إذ هي محيطةٌ بذلك فإذا ذُكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهَدٌ معايَن ﴿لئن شكرتم﴾ يا بني إسرائيلَ ما خوّلتُكم من نعمة الإنجاء وإهلاكِ العدوّ وغير ذلك من النعم والآلاءِ الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لأزيدنكم﴾ نعمةً إلى نعمة ﴿ولئن كفرتم﴾ ذلك وغمصتموه[4] ﴿إن عذابي لشديد﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم، ومن عادة الكرام التصريحُ بالوعد والتعريضُ بالوعيد فما ظنُّك بأكرم الأكرمين؟ ويجوز أن يكون المذكورُ تعليلًا للجواب المحذوفِ أي لأعذبنكم واللام في الموضعين موطئةٌ للقسم وكلٌّ من الجوابين سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم، والجملةُ إما مفعولٌ لتأذن لأنه ضرْبٌ من القول أو لقول مقدر بعده، كأنه قيل: وإذ تأذن ربكم فقال... الخ.

﴿وقال موسى إن تكفروا﴾ نِعمَه تعالى ولم تشكروها ﴿أنتم﴾ يا[5] بني إسرائيلَ ﴿ومن في الأرض﴾ من الخلائق ﴿جميعًا فإن الله لغني﴾ عن شكركم وشكرِ غيرِكم ﴿حميد﴾ مستوجِبٌ للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وإن لم يحمَدْه أحد، أو

---

(١) في خ: شبهة.
(٢) في خ: المحمول.
(٣) في خ: تقرير.
(٤) غَمَصَه غَمْصاً: حقَّره واستصغره ولم يره شيئاً.
(٥) في خ: أي.

محمودٌ يحمَده الملائكةُ بل كلُّ[(١)] ذرةٍ من ذرات العالم ناطقةٌ بحمده، والحمدُ حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كماله سبحانه، وهو تعليلٌ لما حُذف من جواب إن، أي إن تكفروا لم يرجِعْ وبالُه إلا عليكم فإن الله تعالى لغنيٌّ عن شكر الشاكرين، ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله عندما عاين منهم دلائلَ العِناد ومخايلَ الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيبُ ولا التعريضُ بالترهيب، أو قاله غِبَّ تذكيرِهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقًا لمضمونه وتحذيرًا لهم من الكفران ثم شرَع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال:

تذكير الكفار بمن قبلهم

﴿**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم**﴾ ليتدبروا ما أصاب كلَّ واحد من حزبي المؤمن والكافر فيُقلعوا عما هم عليه من الشر ويُنيبوا إلى الله تعالى، وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ من الله تعالى خطابًا للكفرة في عهد النبي ﷺ فيختصّ تذكيرُ موسى عليه الصلاةُ والسلام بما اختص ببني إسرائيلَ من السراء والضراء، والأيامُ بالأيام الجاريةِ عليهم فقط، وفيه ما لا يخفى من البعد، وأيضًا لا يظهر حينئذ وجهُ تخصيصِ تذكيرِ الكفار الذين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوةٌ لهم في الخلوّ قبل هؤلاء ﴿**قوم نوح**﴾ بدل من الموصول أو عطفُ بيان ﴿**وعاد**﴾ معطوفٌ على قوم نوح ﴿**وثمود والذين من بعدهم**﴾ أي من بعد هؤلاء المذكورين عطفٌ عامٌ على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى: ﴿**لا يعلمهم إلا الله**﴾ اعتراضٌ أو الموصولُ مبتدأٌ و(لا يعلمهم) إلى آخره خبرُه، والجملةُ [اعتراضٌ][(٢)]، والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددَهم إلا الله سبحانه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يُعرفون[(٣)]. وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا قرأ هذه الآية قال: كذَب النسّابون[(٤)] يعني أنهم يدّعون علم الأنساب وقد نفى الله تعالى علمَها عن العباد ﴿**جاءتهم رسلهم**﴾ استئنافٌ لبيان نَبئِهم ﴿**بالبينات**﴾ بالمعجزات الظاهرةِ والبيناتِ الباهرة فبيّن كلُّ رسول لأمته طريقَ الحق وهداهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿**فردوا أيديهم في**

(١) في خ: بكل. (٢) سقط في خ.
(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن (٣/٥١٨).
(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٥٦)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٥٣٠) برقم (٢٠٥٩٢).

أفواههم﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدُر عنها من المقالة اعتناءً منهم بشأنها[١] وتنبيهًا للرسل على تلقّيها والمحافظةِ عليها وإقناطًا لهم عن التصديق والإيمان بإعلام ألا جوابَ سواه.

﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي على زعمكم وهي البيناتُ التي أظهروها حجةً على صحة رسالاتِهم كقوله تعالى: ﴿ولقد إرسلنا موسى بآياتنا﴾ [هود، الآية ٩٦]، ومرادُهم بالكفر بها الكفرُ بدِلالتها على صحة رسالاتِهم، أو [فعضّوها][٢] غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى: ﴿عضّوا عليكم الأناملَ من الغيظ﴾ [آل عمران، الآية ١١٩] أو وضعوها عليها تعجبًا منه واستهزاءً به كمن غلبه الضحكُ أو إسكاتًا للأنبياء عليهم السلام وأمرًا لهم بإطباق الأفواه، أو رَدّوها في أفواه الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقًا أو تمثيلًا، أو جعلوا أيديَ الأنبياء في أفواههم تعجبًا من عُتوّهم وعِنادهم كما ينبئ عنه تعجّبهم بقولهم: ﴿أفي الله شك﴾، وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي عبر بها عن مواعظهم

(١) هذا ما اختاره الشيخ أبو السعود، وقد تأول العلماء عدة تأويلات لهذا التركيب أولاً: إن كان المراد باليد والفم الجارحتين ففيه ثلاثة أوجه، فإن كان الضمير عائدًا إلى الكفار في ﴿أيديهم﴾ فللمعنى أربعة أوجه: الأول: أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم، فعضوها من الغيظ. الثاني: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء ضحكوا سخرية، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كمن غلبه الضحك. الثالث: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إلى الأنبياء بالسكوت. الرابع: أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما تكلموا به. الوجه الثاني: أن يكون الضمير راجعًا إلى الرسل، والمعنى على ذلك: إما أن يكون أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم، وإما أن يكون أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فعل من ذكر كلامًا عند قوم وأنكروه فخافهم. الوجه الثالث: أن يكون الضمير في (أيديهم) راجعًا إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل، والمعنى على ذلك إما أن يكون أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبًا لهم، وإما أن يكون الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء منعًا لهم عن الكلام على سبيل المبالغة، وإذا كان المراد باليد المجاز، فتكون اليد مجازًا عن الحجة باعتبارها نعمة، ولما كان القبول تلقيًا بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًا في الأفواه أو أنه مجاز عن سكوتهم عن الجواب ورد هذا الوجه بجوابهم بالتكذيب، واستحسن ابن عاشور أن يكون المعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاءً لشدة الضحك من كلام الرسل، كراهية أن تظهر دواخل نفوسهم وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل، وقد قال رحمه الله: وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن.

ينظر: مفاتيح الغيب (٩/ ٢٩٤) وما بعدها، والبحر المحيط (٥/ ٤٠٨)، والتحرير والتنوير (١٣/ ١٩٦).

(٢) سقط في خ.

ونصائِحهم وشرائِعهم التي هي مدارُ النعم الدينية والدنيوية لأنهم لما كذّبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردّوها إلى حيث جاءت منه ﴿وإنا لفي شك﴾ عظيم ﴿مما تدعوننا إليه﴾ من الإيمان بالله والتوحيد فلا ينافي شكُّهم في ذلك كفرَهم القطعيَّ بما أرسل به الرسل من البينات فإنهم كفروا بها قطعًا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا: فأتونا بسلطان مبين، وقرئ[1] تدعونّا بالإدغام ﴿مريب﴾ مُوقعٍ في الريبة من أرابه، أو ذي ريبة من أراب الرجلُ وهي قلقُ النفس وعدم اطمئنانها بالشيء.

﴿قالت رسلهم﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل: فماذا قالت لهم رسلُهم؟ فأجيب بأنهم قالوا منكرِين عليهم ومتعجّبين من مقالتهم الحمقاءِ: ﴿أفي الله شك﴾ بإدخال الهمزةِ على الظرف للإيذان بأن مدارَ الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعُه فيما لا يكادُ يتوهّم فيه الشكّ أصلًا، منقادين عن تطبيق الجوابِ على كلام الكفرةِ بأن يقولوا: أأنتم في شك مريب من الله تعالى؟ مبالغةً في تنزيه ساحةِ السّبحان عن شائبة الشك وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدتِه ووجوبِ الإيمان به وحده شك وهو أظهرُ من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قِبله في شك مريب، وحيث كان مقصِدُهم الأقصى[2] الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد وكان إظهارُ البينات وسيلةً إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرةِ: إنا كفرنا بما أرسلتم به، واقتصروا على بيان ما هو الغايةُ القصوى ثم عقّبوا[3] ذلك الإنكارَ بما يوجبه من الشواهد الدالّةِ على انتفاء المنكَر فقالوا: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي مُبدعُهما وما فيها من المصنوعات على نظام أنيقٍ شاهد بتحقق ما أنتم منه في شك، وهو صفةٌ للاسم الجليل أو بدلٌ منه وشكٌّ مرتفعٌ بالظرف لاعتماده على الاستفهام، وجعلُه مبتدأً على أن الظرف خبرُه يُفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفةِ بالأجنبي، أعني المبتدأَ والفاعلَ ليس بأجنبي مِنْ رافعه وقد جوز ذلك أيضًا ﴿يدعوكم﴾ إلى الإيمان بإرساله إيانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسِنا كما يوهمه قولُكم مما تدعوننا إليه ﴿ليغفر لكم﴾ بسببه أو يدعوكم لأجل المغفرة، كقولك: دعوتُه ليأكلَ معي ﴿من ذنوبكم﴾ أي بعضَها وهو ما عدا المظالمَ مما بينهم وبينه تعالى فإن الإسلام يجُبّه، قيل: هكذا وقع في جميع

---

(١) قرأ بها: طلحة.

ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠٩)، والكشاف للزمخشري ص (٣٦٩)، وتفسير الرازي (١٩/ ٥٠).

(٢) في خ: الأقضى. (٣) في خ: عنوا.

القرآنِ في وعد الكفرةِ دون وعد المؤمنين تفرقةً بين الوعدين، ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرةِ مرتبةً على محض الإيمان وفي شأن المؤمنين مشفوعةً بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروجَ من المظالم، وقيل: المعنى ليغفرَ لكم بدلًا من ذنوبكم ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعمارِكم على تقدير الإيمان.

﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم ﴿إلا بشر مثلنا﴾ [من][1] غير فضل يؤهّلكم لما تدّعونه من النبوة ﴿تريدون﴾ صفةٌ ثانية لـ (بشرٌ) حملًا على المعنى كقوله تعالى: ﴿أبشرٌ يهدوننا﴾ [التغابن، الآية ٦] أو كلامٌ مستأنفٌ أي تريدون بما تتصدَّوْن له من الدعوة والإرشاد ﴿أن تصدونا﴾ بتخصيص العبادةِ بالله سبحانه ﴿عما كان يعبد آباؤنا﴾ أي عن عبادة ما استمر آباؤُنا على عبادته من غير شيءٍ يوجبه وإلا ﴿فأتونا﴾ أي وإن لم يكن الأمرُ كما قلنا بل كنتم رسلًا من جهة الله تعالى كما تدّعونه فأتونا ﴿بسلطان مبين﴾ يدل على فضلكم واستحقاقِكم لتلك الرتبة، أو على صحة ما تدّعونه من النبوة حتى نترُك ما لم نزل نعبُده أبًا عن جد. ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرةِ والبينات الباهرة ما تخرّ له صُمّ الجبال، ولكنهم إنما يقولون من العظائم مكابرةً وعِنادًا وإراءةً لمن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطانُ المبين.

﴿قالت لهم رسلهم﴾ مجاراةً معهم في أول مقالتِهم وإنما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامُهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوعِ الشكِّ في الله سبحانه فإن ذلك عامٌ وإن اختص بهم ما يعقُبه ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ كما تقولون ﴿ولكن الله يمن﴾ بالنبوة ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعنون أن ذلك عطيةٌ من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضلِ والامتنان من غير (داعيةٍ توجبه)[2]، قالوه تواضعًا وهضمًا للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشرٌ مثلُكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس، ولكن الله يمن بالفضائل والكمالاتِ والاستعدادات على من يشاء المنَّ بها وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقه لها، وتلك الفضائلُ والكمالاتُ والاستعدادات هي التي يدور عليها فلكُ الاصطفاء للنبوة ﴿وما كان﴾ وما صح وما استقام ﴿لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ أي بحجة من الحجج فضلًا عن السلطان المبين بشيء من الأشياء وسببٍ من الأسباب ﴿إلا بإذن الله﴾ فإنه أمرٌ يتعلق بمشيئته تعالى إن [شاء][3] كان وإلا فلا ﴿وعلى الله﴾ وحده دون ما عداه مطلقًا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: واعية توجه.
(٣) سقط في خ.

أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكل و[١] مقصودُهم حملُ أنفسِهم عليه آثرَ ذي أثيرٍ، ألا يُرى إلى قوله عز وجل: ﴿**وما لنا**﴾ أيُّ عذرٍ لنا ﴿**ألا نتوكل على الله**﴾ أي في ألا نتوكل عليه، ولإظهار النشاطِ بالتوكل عليه والاستلذاذِ بذكر اسمِه تعالى وتعليلِ التوكل ﴿**وقد هدانا**﴾ أي والحالُ أنه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا ﴿**سبلنا**﴾ أي أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجَه الذي شرَع له وأوجب عليه سلوكهَ في الدين، وحيث كانت أذيةُ الكفار مما يوجب القلقَ والاضطرابَ القادح في التوكل، قالوا على سبيل التوكيد[٢] القسميِّ مظهرين لكمال العزيمة: ﴿**ولنصبرن على ما آذيتمونا**﴾ بالعِناد واقتراحِ الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿**وعلى الله**﴾ خاصة[٣] ﴿**فليتوكل المتوكلون**﴾ فليثبُت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل، والمرادُ هو المرادُ مما سبق من إيجاب التوكلِ على أنفسهم، والمرادُ بالمتوكّلين المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق ذكرِ اتصافِهم به ويجوز أن يُرادَ وعليه فليتوكل مَنْ توكل دون غيره.

﴿**وقال الذين كفروا**﴾ لعل هؤلاء القائلين بعضُ المتمردين العاتين الغالين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نُقِلت مقالاتُهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيبٍ وأضرابِهم ولذلك لم يُقل وقالوا ﴿**لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُن في ملتنا**﴾ لم يقنَعوا بعصيانهم الرسلَ ومعاندتهم الحقَّ بعد ما رأوا البيناتِ الفائتةَ للحصر حتى اجترأوا على مثل هاتيك العظيمةِ التي لا يكاد يحيط بها دائرةُ الإمكانِ فحلفوا على أن يكون أحدُ المُحالَيْن، والعَودُ إما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليبِ المؤمنين على الرسل، وقد مر في الأعراف وسيأتي في الكهف ﴿**فأوحى إليهم**﴾ أي إلى الرسل ﴿**ربهم**﴾ مالك أمرهم عند تناهي كفرِ الكفرة وبلوغِهم من[٤] العتو إلى غاية لا مطمَعَ بعدها في إيمانهم ﴿**لنهلكن الظالمين**﴾ على إضمار القولِ أو على إجراء الإيحاءِ مُجراه لكونه ضربًا منه ﴿**ولنسكننكم الأرض**﴾ أي أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم: لنُخرجَنّكم من أرضنا كقوله تعالى: ﴿وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها﴾ [الأعراف، الآية ١٣٧] ﴿من بعدهم﴾ أي من بعد إهلاكِهم، وقرئ ليُهلكَن[٥] وليُسكِنَنّكم[٦] بالياء اعتبارًا لأوحىٰ، كقولهم: حلف زيد ليخرُجَنّ غدًا

---

(١) زاد في خ: لو.
(٢) في خ: التأكيد.
(٣) في خ: خاصمت.
(٤) في خ: في.
(٥) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٠)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٠٠).
(٦) قرأ بها: أبو حيوة.

=

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى الموحىٰ به وهو إهلاكُ الظالمين وإسكانُ المؤمنين ديارَهم أي ذلك الأمرُ محققٌ ثابت ﴿لمن خاف مقامي﴾ موقفي، وهو الموقفُ الذي يقف فيه العبادُ [يوم][١] يقومُ الناسُ لرب العالمين، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله، وقيل: لفظُ المقام مُقحَمٌ[٢] ﴿وخاف وعيد﴾ وعيدي بالعذاب أو عذابيَ الموعودَ للكفار، والمعنى أن ذلك حقٌّ للمتقين كقوله: ﴿والعاقبةُ للمتقين﴾ [الأعراف، الآية ١٢٨].

﴿واستفتحوا﴾ أي استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى: ﴿إن تستفتِحوا فقد جاءكم الفتحُ﴾ [الأنفال، الآية ١٩] أو استحكموا وسألوه القضاءَ بينهم من الفتاحة وهي الحكومةُ كقوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومِنا بالحق﴾ [الأعراف، الآية ٨٩] فالضميرُ للرسل، وقيل للكفرة، وقيل: للفريقين فإنهم سألوا أن يُنصَر المحِقُّ ويهلَك المبطل، وهو معطوفٌ على أوحىٰ إليهم وقرئ[٣] بلفظ الأمرِ عطفًا على لنهلكن الظالمين، أي أوحىٰ إليهم ربهم لنُهلِكَنّ، وقال لهم: استفتِحوا ﴿وخاب﴾ أي خسِر وهلك ﴿كل جبار عنيد﴾ متّصفٍ بضد ما اتصف به المتقون، أي فنُصروا عند استفتاحِهم وظفِروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيد، وهم قومُهم المعاندون فالخيبةُ بمعنى مطلقِ الحِرمان عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعُمون أنهم على الحق، أو استفتح الكفارُ على الرسل وخابوا ولم يُفلحوا، وإنما قيل: وخاب كلُّ جبار عنيد ذمًا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعِناد لا أن بعضَهم ليسوا كذلك وأنه لم يُصبْهم الخيبةُ، أو استفتحوا جميعًا فنُصر الرسلُ وأُنجِز لهم الوعدُ وخاب كلّ عاتٍ متمردٍ، فالخيبةُ بمعنى الحرمان غِبَّ الطلب[٤]، وفي إسناد الخيبةِ إلى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة ﴿من ورائه جهنم﴾ أي بين يديه فإنه مُرصَدٌ لها واقفٌ على شفيرها في الدنيا مبعوثٌ إليها في الآخرة، وقيل: من وراء حياتِه وحقيقتِه ما توارى عنك ﴿ويسقى﴾ معطوف على مقدر جوابًا عن سؤال سائلٍ، كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يلقى فيها ويُسقى ﴿من ماء﴾ مخصوصٍ لا كالمياه المعهودة ﴿صديد﴾ وهو قيحٌ أو دمٌ (مختلط بمِدّة)[٥] يسيل[٦] من الجرح، قال

= ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٠)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٠٠).

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: مفخم.

(٣) قرأ بها: ابن محيصن، ومجاهد، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧١)، الإملاء للعكبري (٢/ ٣٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤١٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧١) والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٠٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٩).

(٤) في خ: المطلب.

(٥) المدَّة (بكسر الميم): القَيْح.

(٦) في خ: يختلط.

مجاهد وغيره: هو ما يسيل من أجساد أهلِ النار، وهو عطفُ بيانٍ لما أُبهم أولًا ثم بُيّن بالصديد تهويلًا لأمره، وتخصيصُه بالذكر من بين عذابِها يدور على أنه من أشدّ أنواعِه.

﴿يتجرّعه﴾ قيل: هو صفةٌ لماءٍ أو حالٌ منه والأظهر أنه استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال، كأنه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرعه، أي يتكلف جَرْعه مرة بعد أخرى لغلبة العطشِ واستيلاء الحرارة عليه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة بل يغَصّ به فيشربُه بعد اللتيا والتي، جرعةً [غِبَّ جَرْعةٍ][1] فيطول عذابُه تارةً بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحالِ، فإن السَّوغَ انحدارُ الشراب في الحلق بسهولة وقَبولِ نفس، ونفيُه لا يوجب نفيَ ما ذكر جميعًا، وقيل: لا يكاد يدخُله في جوفه، وعبّر عنه بالإساغة لما أنها المعهودةُ في الأشربة وهو حالٌ من فاعل يتجرّعه أو من مفعوله أو منهما جميعًا ﴿ويأتيه الموت﴾ أي أسبابُه من الشدائد ﴿من كل مكان﴾ ويُحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعرِه وإبهامِ رجله ﴿وما هو بميت﴾ أي والحالُ أنه ليس بميت كما هو الظاهرُ من مجيء أسبابِه لا سيما من جميع الجهاتِ حتى لا يتألمُ بما غشِيه من أصناف المُوبقات ﴿ومن ورائه﴾ من بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ يستقبل كلَّ وقت عذابًا أشدَّ وأشق مما كان قبله، ففيه دفعُ ما يُتوهم من الخِفّة بحسب الاعتيادِ كما في عذاب الدنيا، وقيل: هو الخلودُ في النار، وقيل: هو حبسُ الأنفاس، وقيل: المرادُ بالاستفتاح والخيبةِ استسقاءُ أهلِ مكةَ في سِنيهم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم في ذلك، وقد وعَد لهم بدلَ ذلك صديدَ أهل النار.

﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ أي صفتُهم وحالُهم العجيبةُ الشأنِ التي هي كالمثل في الغرابة، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿أعمالهم كرماد﴾ كقولك: صفةُ زيدٍ عرضُه مهتوكٌ ومالُه منهوب، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال من قال: ما بالُ أعمالِهم التي عمِلوها في وجوه البرِّ من صلة الأرحامِ، وإعتاقِ الرقاب، وفداءِ الأسارى، وإغاثةِ الملهوفين، وقِرىٰ الأضياف، وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرُهم إلى هذا المآل؟ فأجيب بأن ذلك كرماد ﴿اشتدت به الريح﴾ حملتْه وأسرعتْ الذهاب به ﴿في يوم عاصف﴾ العصْفُ اشتدادُ الريح وصف به زمانُها مبالغةً، كقولك: ليلةٌ ساكرةٌ[2] وإنما السكورُ لريحها شُبّهت صنائعُهم المعدودةُ لابتنائها على غير أساسٍ من

---

(١) سقط في ط.

(٢) في خ: شاكرة.

معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجّه بها إليه تعالى برماد طيّرته الريحُ العاصفةُ، أو استئنافٌ مسوقٌ لبيان أعمالِهم للأصنام، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ كما هو رأيُ سيبويه أي فيما يتلى عليك مَثلُهم، وقوله: أعمالُهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كيت وكيت، سواء إن أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم، وقيل: أعمالهم بدلٌ من مَثَلُ الذين، وقوله: كرماد خبرُه ﴿لا يقدرون﴾ أي يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من تلك الأعمال ﴿على شيء﴾ ما، أي لا يرَوْن له أثرًا من ثواب أو تخفيفِ عذابٍ كدأب الرماد المذكور، وهو فذلكةُ التمثيل[1]، والاكتفاءُ ببيان عدمِ رؤيةِ الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أن لها عقوباتٍ هائلةً، للتصريح ببطلان اعتقادِهم وزعمِهم أنها شفعاءُ لهم عند الله تعالى وفيه تهكّمٌ بهم ﴿ذلك﴾ أي ما دل عليه التمثيلُ دَلالةً واضحةً من ضلالهم مع حُسبانهم أنهم على شيء ﴿هو الضلال البعيد﴾ عن طريق الحق والصواب أو عن نيل الثواب.

دلائل ملك الله تعالى

﴿ألم تر﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمرادُ به أمتُه، وقيل: لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى: ﴿يذهبْكم﴾ والرؤيةُ رؤيةُ القلب وقوله تعالى: ﴿أن الله خلق السموات والأرض﴾ سادٌّ مسدَّ مفعوليها، أي ألم تعلمْ أنه تعالى خلقهما ﴿بالحق﴾ ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحِق أن تخلَقَ عليه، وقرئ (خالقُ السموات والأرض)[2] ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يُعدمْكم بالمرة ﴿ويأت بخلق جديد﴾ أي يخلُق

---

(١) يشير الشيخ إلى أن الآية من قبيل التشبيه التمثيلي، وقد ذكر الرماني أن المشبه والمشبه به هنا اجتمعا في الهلاك وعدم الانتفاع، والعجز عن الاستدراك لما فات، وذكر الفخر الرازي أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال: أن الريح العاصف نظير الرماد وتفرق أجزائه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر. وهو تشبيه تمثيلي عند البلاغيين؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد عقلي، فهو تمثيل على مذهب عبد القاهر والسكاكي والخطيب ومعه الجمهور، والغرض من هذا التمثيل هو تقرير حالة المشبه في ذهن السامع.
ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٨٢)، ومفاتيح الغيب (٢٠/ ١٠٧)، والكشاف (٢/ ٣٧١، ٣٧٢)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٥٢٠)، والفرق بين التشبيه والتمثيل: العمدة (٣/ ١٨٧)، وأسرار البلاغة (٥٠، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ١٨٧)، وشروح التلخيص (٣/ ١١١) وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي (١٤٠ - ١٥١)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٥٧ - ٥٩).
(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والحسن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤١٦)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٨٦)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٦٢).

بدلكم خلقًا آخرَ [مستأنَفًا][(١)] لا علاقة بينكم وبينهم، رتب قدرتَه تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والأرض على هذا النمط البديع إرشادًا إلى طريق الاستدلالِ فإن من قدَر على خلق مثلِ هاتيك الأجرام العظيمةِ كانَ على تبديل خلق آخرَ بهم أقدر ولذلك قال: ﴿وما ذلك﴾ أي إذهابُكَم والإتيانُ بخلق جديد مكانكم ﴿على الله بعزيز﴾ بمتعذر أو متعسر فإنه قادرٌ بذاته على الممكِنات لا اختصاصَ له بمقدور دون مقدورٍ، ومَنْ هذا شأنُه حقيقٌ بأن يؤمَنَ به ويُرجىٰ ثوابُه ويُخشى عقابه.

﴿وبرزوا لله جميعًا﴾ أي يبرُزون يوم القيامة، وإيثارُ صيغة الماضي للدَّلالة على تحقق وقوعِه كما في قوله سبحانه: ﴿ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النار﴾ [الأعراف، الآية ٤٤] أو لأنه لا مُضِيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه، والمرادُ بروزُهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابِهم الفواحشَ سرًا أنها تخفىٰ على الله سبحانه، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسِهم ﴿فقال الضعفاء﴾ الأتباعُ جمع ضعيف، والمرادُ ضعفُ الرأي، وإنما كتب بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة ﴿للذين استكبروا﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغوَوْهم ﴿إنا كنا﴾ في الدنيا ﴿لكم تبعًا﴾ في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراضِ عن نصائحهم، وهو جمعُ تابع كغيب في جمع غائب، أو مصدر نُعت به مبالغةً، أو على إضمار أي ذوي تبع ﴿فهل أنتم مغنون﴾ دافعون ﴿عنا﴾ والفاء للدلالة على سببية الاتباعِ للإغناء، والمرادُ التوبيخُ والعتابُ والتقريعُ والتبكيت ﴿من عذاب الله من شيء﴾ من الأولى للبيان واقعةٌ موقعَ الحال، والثانية للتبعيض واقعةٌ موقعَ المفعول، أي بعضُ الشيء الذي هو عذابُ الله تعالى ويجوز كونُهما[(٢)] للتبعيض أي بعضَ شيءٍ هو بعضُ[(٣)] عذاب الله، والإعراب كما سبق، ويجوز أن تكون الأولى مفعولًا والثانية مصدرًا أي فهل أنتم مغنون عنا [بعضَ][(٤)] العذاب بعضَ الإغناء، ويعضُد الأولَ قوله تعالى: ﴿فهل أنتم مُغنون عنا نصيبًا من النار﴾ [غافر، الآية ٤٧].

﴿قالوا﴾ أي المستكبرون جوابًا عن معاتبة الأتباع واعتذارًا عما فعلوا بهم ﴿لو هدانا الله﴾ أي للإيمان ووفّقنا له ﴿لهديناكم﴾ ولكن ضَلَلْنا فأضللناكم أي اخترنا لكم

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: كونها.
(٣) في خ: نقص.
(٤) سقط في خ.

ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريقَ النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرّضناكم له، ولكن سُدّ دوننا طريقُ الخلاص ولاتَ حينَ مناص ﴿**سواء علينا أجزعنا**﴾ مما لقِينا ﴿**أم صبرنا**﴾ على ذلك أي مستوٍ علينا الجزَعُ والصبرُ في عدم الإنجاء، والهمزةُ وأم لتأكيد التسويةِ كما في قوله تعالى: ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تنذِرْهم﴾ [البقرة، الآية ٦] وإنما أسندوهما ونسبوا استواءَهما إلى ضمير المتكلم المنتظِم للمخاطبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنهم شركاءُ لهم فيما ابتُلوا به وتسليةً لهم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿سواء علينا﴾ . . . إلخ، من كلام الفريقين على مِنوال قوله تعالى: ﴿ذلك ليَعلم أني لم أخُنْه بالغيب﴾ [سورة يوسف ٥٢] ويؤيده ما روي (أنهم يقولون: تعالَوا نجزَعْ فيجزعون خمسَمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالَوا نصبِرْ فيصبِرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك)، ولما كان عتابُ[1] الأتباع من باب الجزَعِ ذيّلوا جوابَهم ببيان ألا جدوى في ذلك فقالوا: ﴿**ما لنا من محيص**﴾ من منجى ومهربٍ من العذاب، من حاص الحمارُ إذا عدل بالفرار، وهو إما اسمُ مكان كالمبيت والمَصيف، أو مصدرٌ كالمغيب والمشيب وهي جملةٌ مفسِّرة لإجمال ما فيه الاستواءُ فلا محل لها من الإعراب، أو حالٌ مؤكدة، أو بدلٌ منه.

الشيطان يخذل أولياءه

﴿**وقال الشيطان**﴾ الذي أضل كِلا الفريقين واستتْبعَهما عندما عتَباه بما قاله الأتباعُ للمستكبرين ﴿**لما قضي الأمر**﴾ أي أُحكم و(فُرغ)[2] منه، وهو الحسابُ ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ خطيبا في محفِلِ الأشقياء من الثقلين ﴿**إن الله وعدكم وعد الحق**﴾ أي وعدًا من حقه أن يُنجَز فأنجزه، أو وعدًا أنجزه وهو الوعدُ بالبعث والجزاء ﴿**ووعدتكم**﴾ أي وعْدَ الباطلِ وهو ألا بعثَ ولا جزاء، ولئن كان فالأصنامُ شفعاؤُكم ولم يصرِّح ببطلانه لما دل عليه قولُه: ﴿**فأخلفتكم**﴾ أي موعدي على حذف المفعولِ الثاني أي نقضتُه، جَعل خُلفَ وعده كالإخلاف منه كأنه كان قادرًا على إنجازه وأنّىٰ له ذلك ﴿**وما كان ليَ عليكم من سلطان**﴾ أي تسلّطٍ أو حجةٍ تدل على صدقي ﴿**إلا أن دعوتكم**﴾ إلا دعائي إياكم إليه وتسويلُه، وهو وإن لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه في مبروزه على طريقة: [الوافر]

. . . . تـحـيـة بـيـنِـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[3]

---

(١) في خ: عقاب.
(٢) في خ: فزع منه.
(٣) تقدم.

مبالغةً في نفي السلطان عن نفسه كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطانٌ إذا كان مجردُ الدعاء من بابه، ويجوز كونُ الاستثناء منقطعًا ﴿فاستجبتم لي﴾ فأسرعتم إجابتي ﴿فلا تلوموني﴾ بوعدي إياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والإلجاءِ كما يدل عليه الفاء، وقرئ[١] بالياء على وجه الالتفاتِ كما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرَيْن بهم﴾ [يونس، الآية ٢٢] ﴿ولوموا أنفسكم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم حين دعوتُكم بلا حجةٍ ولا دليل بمجرد تزيينٍ وتسويل ولم تستجيبوا ربكم إذْ دعاكم دعوةَ الحق المقرونةَ بالبينات والحجج، وليس مرادُه التنصّلَ عن توجه اللائمةِ إليه بالمرة بل بيانُ أنهم أحقُّ بها منه وليس فيه دَلالةٌ على استقلال العبدِ في أفعاله كما زعمت المعتزلة[٢]، بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرته الكاسبةِ التي عليها يدور فلكُ التكليف مدخلٌ فيه، فإنه سبحانه إنما يخلُق أفعالَه حسبما يختاره وعليه تترتب السعادةُ والشقاوة، وما قيل من أنه يستدعي أن يقال: فلا تلوموني ولا أنفسَكم فإن الله قضى عليكم الكفرَ وأجبركم عليه مبنيٌّ على عدم الفرق بين مذهب أهلِ الحقِّ وبين مسلك الجبرية ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي بمُغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ﴿وما أنتم بمصرخِيَّ﴾ مما أنا فيه، وإنما تعرّض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمالِ مبالغةً في بيان عدم إصراخِه إياهم وإيذانًا بأنه [أيضًا][٣] مبتلىً بما ابتُلوا به ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف [من إصراخِ][٤] الغير، ولذلك آثرَ الجملةَ الاسميةَ فكأن ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعِهم، وهذا جوابٌ عن استغاثتهم واستعانِتهم به في استدفاع ما دهِمهم من العذاب وقرئ[٥] بكسر الياء.

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤١٩).

(٢) اختلفوا في أن أفعال العباد هل هي مخلوقة لله تعالى أو للعباد أو لهما جميعا. فذهب أكثر أهل الحق إلى أنها مخلوقة لله تعالى إبداعا واختراعاً وإنما للعباد كسبها ومقارنة قدرتهم إياها، واتفقت الفلاسفة والمعتزلة على أنها مخلوقة للعباد مستندة إليهم، ثم اختلفوا فذهب الفلاسفة إلى أنها إنما يصدر عنهم على سبيل الوجوب بحيث يمتنع التخلف، وتبعهم أبوالحسين البصري من المعتزلة وإمام الحرمين

فالمعتزلة يرون أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم هم المحدثون لها، وقرر القاضي عبد الجبار أن خلاف المعتزلة فى هذا الأصل مع الجهمية والأشعرية.

ينظر: الأربعين (١/ ٣٠٩)، والمطالب العالية (٩/ ٨)، وشرح الأصول الخمسة (٣٢٣)، والمحيط بالتكليف (١/ ٤٣٠).

(٣) سقط في خ.

(٤) سقط في خ.

(٥) قرأ بها: حمزة، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمران بن أعين، وسليمان بن مهران.

=

﴿إني كفرت﴾ اليوم ﴿بما أشركتمون من قبل﴾ أي بإشراككم إياي بمعنى تبرأتُ منه واستنكرتُه كقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرُون بشِرْككم﴾ [فاطر، الآية ١٤] يعني أن إشراكَكم لي بالله سبحانه هو الذي يَطمِعكم في نُصرتي لكم بأن كان لكم عليّ حقٌّ حيث جعلتموني معبودًا وكنت أوَد ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرتُ بذلك ولم أحمَدُه ولم أقبله منكم بل تبرأتُ منه ومنكم فلم يبقَ بيني وبينكم علاقةٌ، أو كفرتُ من قبل حين أبيتُ السجودَ لآدمَ بالذي أشركتمونيه وهو الله تعالى كما في قوله: سبحان ما سخركن لنا، فيكون تعليلًا لعدم إصراخِه فإن الكافرَ بالله سبحانه بمعزل من الإغاثة والإعانة سواءٌ كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة، وأما جعلُه تعليلًا لعدم إصراخِهم إياه فلا وجهَ له إذ لا احتمالَ له حتى يُحتاج إلى التعليل، ولأن تعليلَ عدم إصراخِهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانعُ من جهته.

﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ تتمةُ كلامِه، أو ابتداءُ كلامٍ من جهة الله عز وجل وفي حكاية أمثالِه لطفٌ للسامعين وإيقاظٌ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبّروا عواقبَهم. ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم﴾ أي بأمره أو بتوفيقه وهدايته، وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيدِ اللطفِ بهم والمُدْخِلون هم الملائكةُ عليهم السلام، وقرئ[1] على صيغة المتكلم فيكون قوله تعالى: ﴿بإذن ربهم﴾ متعلقًا بقوله تعالى: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ أي يحيّيهم[2] الملائكةُ بالسلام بإذن ربهم.

مثل كلمة التوحيد وكلمة الكفر

﴿ألم تر﴾ الخطابُ للرسول ﷺ وقد عُلّق بما بعده من قوله تعالى: ﴿كيف ضرب الله مثلًا﴾ أي كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به ﴿كلمة طيبة﴾ منصوبٌ بمضمر أي جعل كلمةً طيبة هي كلمةُ التوحيد أو كلَّ كلمة حسنةٍ كالتسبيحة والتحميدة والاستغفارِ والتوبة والدعوة ﴿كشجرة طيبة﴾ أي حكَم بأنها مثلُها لا أنه تعالى صيّرها

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٨٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤١٩)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٥٧).

(١) قرأ بها: الحسن، وعمرو بن عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٢)، الإملاء للعكبري (٢/ ٣٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣١٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٦١)، وتفسير الرازي (١٩/ ١١٦).

(٢) في خ: تحيهم.

مثلَها في الخارج وهو تفسير لقوله: ﴿ضرب الله مثلًا﴾ كقولك: شرّف الأميرُ زيدًا كساه حُلةً وحمله على فرس، ويجوز أن يكون (كلمة) بدلًا من مثلًا وكشجرة صفتُها، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هي كشجرة وأن يكون أولَ مفعوليْ ضرب إجراءً له مُجرى جعل قد أُخّر عن ثانيهما، أعني مثلًا لئلا يبعُد عن صفته التي هي كشجرة، وقد قرئت[(١)] بالرفع على الابتداء ﴿أصلها ثابت﴾ أي ضارب بعُروقه في الأرض، وقرأ[(٢)] أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه كشجرة طيبة ثابتٍ أصلُها، وقراءةُ الجماعة أقوى سبكًا وأنسبُ بقرينته أعني قوله تعالى: ﴿وفرعها﴾ أي أعلاها ﴿في السماء﴾ في جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعُها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع.

﴿تؤتي أكلها﴾ تعطي ثمرَها ﴿كل حين﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿بإذن ربها﴾ بإرادة خالقِها، والمرادُ بالشجرة المنعوتةِ إما النخلةُ كما روي مرفوعًا أو شجرة في الجنة ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ لأن في ضربها زيادةَ إفهام وتذكير، فإنه تصويرٌ للمعاني بصور المحسوسات[(٣)] ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ هي كلمةُ الكفر والدعاءِ إليه، أو تكذيبُ الحق، أو ما يعم الكل، أو كلُّ كلمةٍ قبيحة ﴿كشجرة خبيثه﴾ أي كمثل شجرة خبيثةٍ، قيل: هي كلُّ شجرةٍ لا يطيب ثمرُها كالحنظل والكشوث[(٤)] ونحوهما، وتغييرُ الأسلوب للإيذان بأن ذلك غيرُ مقصود الضرب والبيان وإنما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كل أحد ﴿اجتثت﴾ استُؤصِلت وأُخذت جثّتُها بالكلية ﴿من فوق الأرض﴾ لكون عروقها قريبةً منه ﴿ما لها من قرار﴾ استقرارٍ عليها.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكّن في

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢١).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٦٢).

(٣) يشير إلى فضيلة من فضائل التمثيل، وهو ما عبر عنه عبد القاهر بقوله: وذلك أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم... ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والروية، فهو إذًا أمس بها رحمًا وأقوى لديها ذممًا وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة...
ينظر: أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر (١٠٨) وما بعدها.

(٤) الكشوث والكشوثى والكشوثاء: نبات مجتث مقطوع الأصل أصفر يتعلق بأطرق الشوك. ينظر: العين (٥/ ٢٩٠).

قلوبهم وهو الكلمةُ الطيبةُ التي ذُكرت صفتُها العجيبة ﴿في الحياة الدنيا﴾ فلا يُزالون عنه إذا افتُتِنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحابُ الأخدود ﴿وفي الآخرة﴾ فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تُدهشُهم أهوالُ القيامة أو عند سؤال القبر. روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكَر قبضَ روحِ المؤمن فقال: «**ثم يُعاد روحُه في جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه في قبره، فيقولان: مَنْ ربك وما دينُك ومن نبيُّك؟ فيقول: ربي اللهُ وديني الإسلامُ ونبيّي محمد عليه الصلاة والسلام، فينادي منادٍ من السماء أنه صدق عبدي**» فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾[1] وهذا مثالُ إيتاءِ الشجرةِ المذكورة أُكُلَها كل حين. قال الثعلبي في تفسيره: أخبرني أبو القاسم بن حبيب في سنة ستٍ وثمانين وثلاثمائة، قال: سمعت أبا الطيب محمدَ بن علي الخياط يقول: سمعت (سهلَ بن عمار العملي) يقول: رأيت (يزيدَ بن هارون) في منامي بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أتاني في قبري ملكان فظّان فقالا: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاءِ، فقلت لهما: ألمِثلي يقال هذا، وقد علّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنة؟ فذهبا[2].

﴿**ويضل الله الظالمين**﴾ أي يخلق فيهما الضلالَ عن الحق الذي ثبّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارِهم، والمرادُ بهم الكفرةُ بدليل ما يقابله ووصفُهم بالظلم إما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعِه وإما باعتبار ظلمِهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرةَ الله التي فطر الناسَ عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابتِ، أو كلُ من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراضِ عن البينات الواضحة فلا يتثبّت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق، فالمرادُ بالذين آمنوا حينئذ المخلصون في الإيمان والراسخون في الإيقان كما ينبئ عنه التثبيتُ لكنه يوهم كونَ كلمة التوحيد، إذا كانت لا عن إيقان، داخلةً تحت ما لا قرارَ له من الشجرة المضروبة مثلًا ﴿**ويفعل الله ما يشاء**﴾ من تثبيت بعضٍ وإضلالِ آخرين حسبما توجبه مشيئتُه التابعةُ للحِكم البالغة المقتضيةِ لذلك، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة وتربيةِ المهابة ما لا يخفى، مع ما فيه من الإيذان بالتفاوت في مبدأ التثبيتِ والإضلال فإن مبدأ صدورِ كلٍّ منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العُلا غيرُ ما هو مبدأ صدور الآخر.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥٢) كتاب السنة، باب: المسألة في القبر وعذاب القبر، برقم (٤٧٥٣)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٥/ ٣١٨).

وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

من أعاجيب صنع الكفار

﴿ألم تر﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرةُ من الأباطيل التي لا تكاد تصدُر عمن له أدنى إدراك، أي ألم تنظُر ﴿إلى الذين بدلوا نعمة الله﴾ أي شكرَ نعمته تعالى بأن وضعوا موضعَه ﴿كفرًا﴾ عظيمًا وغمْطًا لها أو بدلوا نفسَ النعمة

كفرًا، فإنهم لما كفروها سُلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرًا كأهل مكةَ حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمَه الآمنَ الذي يُجبىٰ إليه ثمراتُ كل شيء وجعلهم قِوامَ بيته وشرّفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك، فقُحطوا سبع سنين وقُتلوا وأُسروا يوم بدر، فصاروا أذلاءَ مسلوبي النعمة باقين بالكفر بدلها. عن عمر وعلي رضي الله عنهما (هم الأفجران من قريش: بنو المغيرةِ وبنو أمية أما بنو المغيرة فكُفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فَمُتِّعوا إلى حين)[1]. كأنهما يتأولان ما سيتلى من قوله عز وجل: ﴿قل تمتعوا﴾ [إبراهيم: ٣٠] الآية ﴿وأحلوا﴾ أي أنزلوا ﴿قومهم﴾ بإرشادهم إياهم إلى طريقة الشرك والضلالِ، وعدمُ التعرض لحلولهم لدلالة الإحلالِ عليه إذ هو فرْعُ الحلول كقوله تعالى: ﴿يقدُم قومَه يوم القيامة فأوردهم النارَ﴾ [هود، الآية ٩٨] ﴿دار البوار﴾ دارَ الهلاك الذي لا هلاكَ وراءه. ﴿جهنم﴾ عطفُ بيان لها، وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿يصْلَونها﴾ حال منها أو من قومهم أي داخلين فيها مُقاسِين لحرّها، أو استئنافٌ لبيان كيفيةِ الحلولِ أو مفسر لفعل يقدر ناصبًا لجهنم، فالمرادُ بالإحلال المذكورِ حينئذ تعريضُهم للهلاك بالقتل والأسرِ لكن قوله تعالى: ﴿قل تمتعوا فإن مصيرَكم إلى النار﴾ [إبراهيم، الآية ٣٠] أنسبُ بالتفسير الأول ﴿وبئس القرار﴾ على حذف المخصوصِ بالذم أي بئس المقرُّ جهنمُّ أو بئس القرار قرارُهم فيها، وفيه بيان أن حلولهم وصِلِيَّهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وجعلوا﴾ عطفٌ على أحلوا وما عطف عليه داخلٌ معهما في حيز الصلة وحكمِ التعجيب[2] أي جعلوا في اعتقادهم وحكمِهم ﴿لله﴾ الفردِ الصمدِ الذي ليس كمثله شيءٌ وهو الواحد القهار ﴿أندادًا﴾ أشباهًا في التسمية أو في العبادة ﴿ليضلوا﴾ قومَهم الذين يشايعونهم[3] حسبما ضلوا ﴿عن سبيله﴾ القويم الذي هو التوحيدُ ويوقعوهم في ورطة الكفرِ والضلال، ولعل تغييرَ الترتيب مع أنَ مقتضى ظاهرِ النظمِ أن يُذكر كفرانُهم نعمةَ الله تعالى، ثم كفرُهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم إضلالهم لقومهم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار، لتثنية التعجيبِ وتكريرِه والإيذانِ بأن كل واحد من وضع الكفر موضعَ الشكر وإحلالِ القوم دارَ البوار، واتخاذِ الأنداد للإضلال أمرٌ يقضي منه العجبَ، ولو سيق النظمُ على نسق الوجود لربما فُهم التعجيب من مجموع الهَنات[4] الثلاثِ كما في قصة البقرة، وقرئ (لَيَضلوا)[5] بالفتح، وأيًا ما كان فليس

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/٦، ٩). (٢) في خ: التعجب.

(٣) في خ: يتابعوهم. (٤) في خ: الهيئات.

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، وابن محيصن، واليزيدي.

=

ذلك غرضًا حقيقيًا لهم من اتخاذ الأندادِ لكن لما كان ذلك نتيجةً له شُبّه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية[١].

﴿قل﴾ تهديدًا لأولئك الضالين المُضلين ونعيًا عليهم وإيذانًا بأنهم، لشدة إبائِهم قبولَ الحق وفرْطِ إنهماكِهم في الباطل وعدمِ ارعوائهم عن ذلك بحال، أحقاءُ بأن يُضرب عنهم صفحًا ويُعطَفَ عنهم عِنانُ العِظة ويُخَلّوا وشأنَهم ولا يُنهَوْا عنه بل يؤمَروا بمباشرته مبالغةً في التخلية والخِذلان ومسارعةً إلى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم: ﴿تمتعوا﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التي جملتها كفرانُ النعم العظامِ واستتباعُ الناسِ في عبادة الأصنام ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ليس إلا، فلا بد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هي في الحقيقة صورةٌ لدخولها ومثالٌ له حسبما يلوح به قولُه سبحانه: ﴿وأحلوا قومهم دار البوار﴾ [إبراهيم، الآية ٢٨] . . . إلخ، فهو تعليلٌ للأمر المأمورِ، وفيه من التهديد الشديدِ والوعيدِ الأكيد ما لا يوصف، أو قل لهم تصويرًا لحالهم وتعبيرًا عما يُلجئهم إلى ذلك: تمتعوا، إيذانًا بأنهم لفرْط انغماسِهم في التمتع بما هم فيه من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم مأمورون بذلك من قِبل آمر الشهوة مذعِنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمورٍ ساعٍ في خدمة آمرٍ مُطاع.

فليس قوله تعالى: ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ [إبراهيم، الآية ٣٠] حينئذٍ تعليلًا للأمر بل هو جوابُ شرطٍ ينسحب عليه الكلام، كأنه قيل: هذه حالُكم فإن دمتم عليه فإن مصيركم إلى النار وفيه التهديدُ والوعيد لا في الأمر.

وصايا المؤمنين

﴿قل لعبادي الذين آمنوا﴾ خصهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم وتنبيهًا على أنهم

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٢)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢٥)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٦)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٢٣).

(١) يشير الشيخ إلى أن الاستعارة وقعت في الحرف، وقوله تبعية هو ما عليه الخطيب من أن الاستعارة في الحروف استعارة تبعية تصريحية، فهي تابعة عنده للتشبيه في متعلقاتها من مجروراتها ونحوها أما رأي الجمهور فعلى أن متعلقات الحروف هي معانيها الكلية، فيجري التشبيه فيها أولا ثم تبنى عليه الاستعارة منها، ويرى العلامة ابن يعقوب المغربي أن الاستعارة في الحروف مكنية وذلك مبني على تشبيه مدخول الحرف بما حقه أن يدخل عليه تشبيهًا مضمرًا في النفس ثم تستعير المشبه به للمشبه، ثم تحذف المشبه به وترمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحرف.
ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

المقيمون لوظائفِ العبودية الموفون بحقوقها، وتركُ العاطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالِهما باعتبار المقول تهديدًا وتشريفًا، والمقولُ هاهنا محذوفٌ دل عليه الجوابُ أي قل لهم أقيموا وأنفقوا ﴿**يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم**﴾ أي يداوموا على ذلك، وفيه إيذانٌ بكمال مطاوعتِهم الرسولَ ﷺ وغايةِ مسارعتِهم إلى الامتثال بأوامره، وقد جوّزوا أن يكون المقولُ يقيموا وينفقوا بحذف لام الأمرِ عنهما، وإنما حسُن ذلك دون الحذف في قوله: [الوافر]

محمدُ [تَفدِ][1] نفسَك كلُّ نفس إذا ما خِفْتَ من أمر تَبالا[2]

لدلالة قل عليه، وقيل: هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مُقامهما وليس بذاك ﴿**سرًّا وعلانية**﴾ منتصبان على المصدرية من الأمر المقدرِ لا من جواب الأمر المذكور أي أنفقوا إنفاق سرٍّ وعلانية، والأحبُّ في الإنفاق إخفاءُ المتطوَّع به وإعلانُ الواجب، والمرادُ حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والماليةِ وتركِ التمتع بمتاع الدنيا والركونِ إليها كما هو صنيعُ الكفرة ﴿**من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه**﴾ فيبتاعَ المقصِّر ما يتلافىٰ به تقصيرَه أو يفتدي به نفسَه، والمقصودُ نفيُ عقدِ المعارضة بالمرة، وتخصيصُ البيعِ بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقدِ إذ انتفاءُ البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغِ وجهٍ، وانتفاؤُه ربما يتصور مع تحقق الإيجابِ من قبل البائع ﴿**ولا خلال**﴾ ولا مخالّةٌ فيشفعَ له خليلٌ أو يسامحَه بمال يفتدي به نفسه أو من قبل أن يأتي يومٌ لا أثرَ فيه لما لهَجوا بتعاطيه من البيع والمخالّة ولا انتفاعَ بذلك، وإنما الانتفاعُ والارتفاقُ فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه، والظاهرُ أن من متعلقة بـ(أنفِقوا) وتذكيرُ إتيانِ ذلك اليوم لتأكيد مضمونِه كما في سورة البقرة من حيث إن كلاً من فقدان الشفاعةِ وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرعًا، وانقطاعُ آثار البيع والخِلالِ الواقعَيْن في الدنيا وعدمُ الانتفاع بهما من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقىٰ عوائدُه وتدوم فوائدُه من الإنفاق في سبيل الله عز وجل، أو من حيث إن ادخارَ

---

(١) سقط في خ.

(٢) البيت لأبي طالب في شرح شذور الذهب ص (٢٧٥)، وله أو للأعشى في خزانة الأدب (٩/ ١١)، وللأعشى أو لحسان أو لمجهول في الدرر (٥/ ٦١)، وبلا نسبة في أسرار العربية ص (٣١٩، ٣٢١)، والإنصاف (٢/ ٥٣٠)، والجنى الداني ص (١١٣)، ورصف المباني ص (٢٥٦)، وسر صناعة الإعراب (١/ ٣٩١)، وشرح الأشموني (٣/ ٥٧٥)، وشرح شواهد المغني (١/ ٥٩٧)، وشرح المفصل (٧/ ٣٥، ٦٠، ٦٢، ٩/ ٢٤)، والكتاب (٣/ ٨)، واللامات ص (٩٦)، ومغني اللبيب (١/ ٢٢٤)، والمقاصد النحوية (٤/ ٤١٨)، والمقتضب (٢/ ١٣٢)، والمقرب (١/ ٢٧٢)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٥).

المال وتركَ إنفاقِه إنما يقع غالبًا للتجارات والمُهاداة فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجهَ لادّخاره إلى وقت الموت، وتخصيصُ التأكيد بذلك لميل الطباعِ إلى المال وكونها مجبولةً على حبه والضَّنةِ به، ولا يبعُد أن يكون تأكيدًا لمضمون الأمرِ بإقامة الصلاة أيضًا من حيث إن تركَها كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمُخالاّت كما في قوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهوًا انفضّوا إليها﴾ [الجمعة، الآية ١١] وقرئ[١] بالفتح فيهما على إرادة النفي [العام][٢] ودَلالةِ الرفعِ على ذلك باعتبار خطابيٍّ هو وقوعُه في جواب هل فيه بيعٌ أو خلال؟

من دلائل عظمة الله تعالى

﴿الله﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿الذي خلق السموات﴾ وما فيها من الأجرام العلوية ﴿والأرض﴾ وما فيها من أنواع المخلوقاتِ. لمّا ذكر أحوالَ الكافرين لنعم الله تعالى وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعةِ شكرًا لنعمه شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام، والمثابرةِ على الشكر والطاعة من النعم العِظام والمنن الجِسام حثًا للمؤمنين عليها وتقريعًا للكفرة المُخلّين بها الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصيَ، وفي جعل المبتدإ الاسمَ الجليلَ والخبرَ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيلِ العظيمة من خلق هذه الأجرامِ العظام وإنزال الأمطارِ وإخراجِ الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبةِ ما لا يخفى من تربية المهابةِ والدِلالة على قوة السلطان ﴿وأنزل من السماء﴾ أي السحابِ فإن كلَّ ما علاك سماءٌ، أو من الفَلَك فإن المطر منه يبتدىء إلى السحاب ومنه إلى الأرضِ على ما دلت عليه ظواهرُ النصوص أو من أسباب سماويةٍ تثير الأجزاءَ الرطبةَ من أعماق الأرض إلى الجو فينعقد سحابًا ماطرًا، وأيًا ما كان فمن ابتدائيةٌ ﴿ماء﴾ أي نوعًا منه هو المطرُ، وتقديمُ المجرورِ على المنصوب إما باعتبار كونِه مبدأ لنزوله أو لتشريفه كما في قولك: أعطاه السلطانُ من خزانته مالًا، أو لما مرّ مرارًا من التشويق إلى المؤخّر ﴿فأخرج به﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ الفائتة للحصر، إما لأن (صيغَ الجموعِ)[٣] يتعاور بعضُها موضعَ بعض، وإما لأنه أريد بمفردها جماعةُ الثمرة التي في قولك: أدركت ثمرة بستانِ فلان ﴿رزقًا لكم﴾ تعيشون به وهو بمعنى

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٢)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢٧)، والتيسير للداني ص (٨٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٦)، والكشف للقيسي (١/ ٣٠٥).
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: صنيع المجموع.

المرزوق شاملٌ للمطعوم والملبوس مفعولٌ لـ (أخرج) ومن للتبيين كقولك: أنفقت من الدراهم ألفًا، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولًا ورزقًا حالًا منه، أو مصدرًا من أخرج بمعنى رزَق، أو للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فأخرجنا به ثمراتٍ﴾ [فاطر، الآية ٢٧] كأنه قيل: أنزل من السماء بعضَ الماء فأخرج به بعضَ الثمرات ليكون بعضَ رزقكم إذ لم ينزل من السماء كلَّ الماء ولا أخرج بالمطر كلَّ الثمار ولا جعل كلَّ الرزق ثمرًا، وخروجُ الثمرات وإن كان بمشيئته عز وجل وقدرتِه لكن جرت عادتُه تعالى بإفاضة صورِها وكيفياتها على المواد الممتزجةِ من الماء والتراب وأودع في الماء قوةً فاعلةً وفي الأرض قوةً قابلةً يتولد من اجتماعهما أنواعُ الثمار، وهو قادرٌ على إيجاد الأشياء بلا أسباب [ولا][1] موادَّ كما أبدع نفوسَ الأسباب كذلك[2] لما أن له تعالى في إنشائها مدرّجًا من طَور إلى طور صنائعَ وحِكمًا يجدّد فيها لأولي الأبصار عِبَرًا وسكونًا إلى عظيم قدرتِه ليس ذلك في إبداعها دفعةً، وقوله: لكم، صفةٌ لقوله: رزقًا، إن أريد به المرزوقُ، ومفعولٌ به إن أريد به المصدرُ كأنه قيل: رزقًا إياكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالِها بما ألهمكم كيفيةَ ذلك ﴿لتجري في البحر﴾ جريًا تابعًا لإرادتكم ﴿بأمره﴾ بمشيئته التي نيط بها كلُّ شيء، وتخصيصُه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمالِ واستعمالِ الآلاتِ كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿وسخر لكم الأنهار﴾ إن أريد بها المياهُ العظيمة الجاريةُ في الأنهار العظامِ كما يومئ إليه ذكرُها عند البحر فتسخيرُها جعلُها مُعدّةً لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداولَ يسقوُن منها زروعَهم وجِنانَهم وما أشبه ذلك، وإن أريد بها نفسُ الأنهار فتسخيرُها تيسيرُها لهم. ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافةً وإصلاحِهما لما نيط بهما صلاحُه من المكوّنات ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خِلْفةً لمنامكم ومعاشِكم ولعقد الثمار وإنضاجِها، ذكر سبحانه وتعالى أنواعَ النعم الفائضةِ عليهم وأبرز كلَّ واحدة منها في جملة مستقلةٍ تنويهًا لشأنها وتنبيهًا على رفعة مكانِها وتنصيصًا على كون كل منها نعمةً جليلةً مستوجبةً للشكر، وفي التعبير[3] عن التصريف المتعلّق بما ذُكر من الفلك والأنهارِ والشمسِ والقمر[4] والليل والنهار بالتسخير، من الإشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزةِ المنال والدِلالة على عِظَم السلطان وشدّة المِحال، ما

---

(١) سقط في ط.
(٢) في خ: ذلك.
(٣) في ط: التعيير.
(٤) في ط: وللقمر.

لا يخفى، وتأخيرُ تسخيرِ الشمس والقمرِ عن تسخير ما تقدمه من الأمور المعدودةِ مع ما بينه وبين خلقِ السموات من المناسبة الظاهرةِ لاستتباع ذكرِها لذكر الأرض المستدعي لذكر إنزالِ الماءِ منها إليها الموجبِ لذكر إخراجِ الرزقِ الذي من جملته ما يحصُل بواسطة الفَلَك والأنهار أو للتفادي عن توهم كون الكل أعني خلقَ السمواتِ والأرض وتسخيرَ الشمس والقمر نعمةً واحدةً كما مر في سورة البقرة.

﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾ أي أعطاكم بعضَ جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئتُه التابعةُ للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه: ﴿من كان يريد العاجلةَ عجّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد﴾ [الإسراء، الآية ١٨] أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ونيط به انتظامُ أحوالِكم على الوجه المقدّرِ فكأنكم سألتموه، أو كلَّ ما طلبتموه بلسان الاستعدادِ أو كلَّ ما سألتموه، على أن (من) للبيان وكلمةُ كل للتكثير، كقولك: فلان يعلم كلَّ شيء وأتاه كلُّ الناس وعليه قوله عز وجل: ﴿فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء﴾ [الأنعام، الآية ٤٤] وقيل: الأصلُ وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحُذف الثاني لِدلالة ما أُبقيَ على ما أُلقيَ، وقرئ[1] بتنوين (كلٍّ) على أن ما نافية ومحل سألتموه النصبُ على الحالية أي آتاكم من كلٍّ غيرَ سائليه.

﴿**وإن تعدوا نعمة الله**﴾ التي أنعم بها عليكم ﴿**لا تحصوها**﴾ لا تُطيقوا بحصرها ولو إجمالًا فإنها غيرُ متناهيةٍ، وأصل الإحصاءِ أن الحاسبَ إذا بلغ عَقدًا معينًا من عقود الأعدادِ وضع حصاةً ليحفظ بها، ففيه إيذان بعدم بلوغِ مرتبةٍ معتدٍّ بها من مراتبها فضلًا عن بلوغ غايتِها، كيف لا وما من فرد من أفراد الناسِ وإن كان في أقصى مراتبِ الفقرِ والإفلاس مَمنوًّا بأصناف العنايا مبتلىً بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملتَه ألفيتَه متقلّبًا في نِعم لا تحدّ ومننٍ لا تحصى ولا تعدّ كأنه قد أعطيَ كلَّ ساعة وآنٍ من النعماء ما حواه حِيطةُ الإمكان، وإن كنت في ريب من ذلك فقدِّرْ أنه ملَك مِلك أقطار العالم، ودانت له كافةُ الأمم، وأذعنت لطاعته السَّراةُ، وخضعت لهيبته رُقابُ العُتاة، وفاز بكل مرام، ونال كل منالٍ، وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الأموالِ من غير نِدّ يزاحمه، ولا شريك يساهمُه، بل قدِّر أن جميع ما فيها من حجر ومدَرٍ يواقيتُ

---

(١) قرأ بها: نافع، ويعقوب، والحسن، والأعمش، وابن عباس، والضحاك، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد، وعمرو بن فائد، وقتادة، وسلام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢٨)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٣٢)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٧٦).

غاليةٌ ونفائسُ دُررٍ، ثم قدِّر أنه قد وقع مِنْ فقْد مشروبٍ أو مطعوم في حالة بلغت نفسُه الحلقومَ، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع مالِه من الملك والمال لُقمةً تنجّيه عن رِواه، أو شربةً ترويه من ظَماه، أم يختار الهلاك فتذهبَ الأموالُ والأملاك بغير بذل يبقى عليه ولا نفع يعود إليه؟ كلا، بل يبذُل لذلك كلَّ ما تحويه اليدان كائنًا ما كان وليس في صفقته شائبةُ الخُسران، فإذن تلك اللقمةُ والشَّرْبةُ خيرٌ مما في الدنيا بألف رتبةٍ مع أنهما في طرف الثمام[1] ينالهما متى شاء من الليالي والأيام، أو قدّر أنه قد احتبس عليه النفَسُ فلا دخلَ منه ما خرَج ولا خرَج منه ما ولَج، والحينُ قد حان وأتاه الموتُ من كل مكان أما يعطي ذلك كلَّه بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامدٌ، فإذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برُمّتها مع أنه قد أبيح له كل آنٍ من آنات الليالي والأيام حالَ اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء، وإن رمت العثورَ على حقيقة الحقِّ والوقوفَ على كل ما جل من السرِّ ودق فاعلم أن الإنسانَ بمقتضى حقيقتِه الممكنةِ بمعزل عن استحقاق الوجودِ وما يتبعه من الكمالات اللائقةِ والملكاتِ الرائقةِ بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايةِ الإلٰهية من العلاقة لما استقر له القَرار ولا اطمأنت به الدار إلا في مطمورة العدم والبوار، ومهاوي الهلاك والدمار لكن يَفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدّس في كل زمان يمضي وكل آن يمرّ وينقضي من أنواع الفيوضِ المتعلقة بذاته ووجودِه وسائرِ صفاتِه الروحانيةِ والنفسانية والجُسمانية ما لا يحيط به نطاقُ التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير.

وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجودَ ابتداءً لا يستحقه بقاءً وإنما ذلك من جانب المبدأ الأول عز وجل، فكما لا يتصور وجودُه ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميع أنحاءِ عدمِه الأصلي لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققِه بعلّته ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاءِ عدمه الطارئ لأن الاستمرار والدوامَ من خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجودُه من الأمور الوجودية التي هي عللُه وشرائطُه وإن وجب كونُها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود لكن الأمور العدميةَ التي لها دخلٌ في وجوده ليست كذلك إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحد موانعُ غيرُ متناهية، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود فارتفاعُ تلك الموانع التي لا تتناهى، أعني بقاءَها على العدم مع إمكان وجودِها في أنفسها في كل آن من آنات

(١) هو منك على طرف الثُّمام: أي قريب سهل التناول.

وجودِه، نعمٌ غيرُ متناهية حقيقة لا ادعاءً وكذا الحال في وجودات علله وشرائطِه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً وكذا في كمالاته التابعةِ لوجوده فاتضح أنه يَفيض عليه كلَّ آن نعمٌ لا تتناهى من وجوه شتى، فسبحانك سبحانك ما أعظمَ سلطانَك لا تلاحظك العيونُ بأنظارها ولا تطالعك العقولُ بأفكارها شأنُك لا يضاهىٰ وإحسانُك لا يتناهى ونحن في معرفتك حائرون وفي إقامة مراسم شكرِك قاصرون نسألك الهدايةَ إلى مناهج معرفتِك والتوفيقَ لأداء حقوقِ نعمتك لا نحصي ثناءً عليك لا إلٰه إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك ﴿إن الإنسان لظلوم﴾ يظلِم النعمةَ بإغفال شكرِها أو بوضعه إياها في غير موضعِها أو يظلم نفسَه بتعريضها للحرمان ﴿كفار﴾ شديدُ الكفران.

وقيل: ظلومٌ في الشدة يشكو ويجزع، كفّارٌ في النعمة يجمع ويمنع، واللام في الإنسان للجنس ومصداقُ الحكم بالظلم والكفران بعضُ مَنْ وُجد فيه من أفراده ويدخُل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرًا . . . إلخ دخولًا أوليًّا.

دعوة إبراهيم عليه السلام

﴿وإذ قال إبراهيم﴾ أي واذكر وقتَ قوله عليه الصلاة والسلام، والمقصودُ من تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل، والمرادُ به تأكيدُ ما سلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فنٍ آخرَ من جناياتهم حيث كفروا بالنعم العامة وعصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لإقامة الصلاةِ والاجتنابِ عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى، وسأله تعالى أن يجعله بلدًا آمنًا ويرزقَهم من الثمرات وتهوي قلوبُ الناس إليهم من كل أَوب سحيقٍ فاستجاب الله تعالى دعاءَه وجعله حرمًا آمنًا تجبىٰ إليه ثمراتُ كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادًا وفعلوا ما فعلوا ﴿رب اجعل هذاَ البلد﴾ يعني مكةَ شرفها الله سبحانه ﴿آمنًا﴾ أي ذا أمْنٍ أو آمنًا أهلُه بحيث لا يُخاف فيه، على ما مر في سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله: ﴿رب اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ [البقرة، الآية ١٢٦] أن المسؤولَ هناك البلديةُ والأمنُ معها، وهاهنا الأمنُ فقط حيث جُعل هو المفعولَ الثانيَ للجعل وجُعل البلد صفةً للمفعول الأول، فإن **حُمل** على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولًا كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخر الآخرُ إلى وقته المقدّر لما يقتضيه من الحكمة الداعيةِ إليه، ثم كَرّر السؤالَ كما هو المعتاد في الدعاء والابتهالِ، أو كان المسؤولُ أولًا مجردَ الأمنِ المصحِّح للسكن كما في سائر البلاد وقد أجيب إليه، [وثانيًا الأمنَ المعهودَ أو كان

هو المسؤولَ فيهما وقد أجيب إليه][1] أيضًا لكن السؤالَ الثانيَ للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنه المقصودُ الأصلي أو لأن المعتادَ في البلدية الاستمرارُ بعد التحقق بخلاف الأمن، وإن **حمل** على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادرُ فالظاهرُ أن المسؤول كِلا الأمرين، وقد حكي أولًا واقتُصر هاهنا على حكاية سؤال الأمنِ لا لمجرد أن نعمةَ الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر فذِكرُه أنسبُ بمقام تقريع الكفرة على إغفاله كما قيل بل لأن سؤال البلدية قد حكي بقوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم﴾ [إبراهيم، الآية ٣٧] إذ المسؤولُ هُوِيّتُها إليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عينُ سؤال البلدية قد حكي بعبارة أخرى وكان ذلك أولَ ما قدم عليه السلام مكةَ.

كما روى سعيدُ بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسماعيلَ وهاجرَ هناك وعاد متوجهًا إلى الشام تبِعتْه هاجرُ وجعلت تقول: إلى من تكِلُنا في هذا البلقع؟ وهو لا يرد عليها جوابًا حتى قالت: آلله أمرك بهذا؟ فقال: نعم، قالت: إذًا لا يضيّعنا فرضِيَت، ومضى حتى إذا استوى على ثنية كَداء[2] أقبل على (الوادي)[3] فقال: ﴿ربنا إني أسكنت﴾ [إبراهيم:٣٧] الآية، وإنما فصل ما بينهما تثنية للامتنان وإيذانًا بأن كلاً منهما نعمةٌ جليلةٌ مستتبعة لشكر كثير[4].

﴿**واجنبني وبني**﴾ بعِّدني وإياهم ﴿**أن نعبد الأصنام**﴾ واجعلنا منها[5] في جانب بعيد أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام، وقرئ[6] [و][7] أجنبْني من الإفعال، وهما لغةُ أهلِ نجد، يقولون: جنّبني شرَّه وأجنبْني شرَّه، وأما أهلُ الحجاز فيقولون: جنّبني شره وفيه دليل على أن عصمةَ الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى، والظاهرُ أن المراد ببنيه أولادُه الصلبية فلا احتجاجَ به لابن عيينة رضي الله عنه على أن أحدًا من أولاد إسماعيلَ عليه السلام لم

---

(١) سقط في خ.

(٢) كدَّاء: بلا نبات، أو أبطأ نباتها.

(٣) في ط: ربه.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٥٨) برقم (٤٠٦٤).

(٥) في خ: منهم.

(٦) قرأ بها: الجحدري، وعيسى الثقفي، وأبو الهجهاج.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٣١)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٦٣).

(٧) سقط في خ.

يعبُد الصنم وإنما كان لكل قومٍ حجرٌ نصبوه، وقالوا: هو حجرٌ والبيتُ حجر، فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار، فاستُحب أن يقال: طاف بالبيت [ولا يقال دار بالبيت][1]، وليت شعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم من قوارعَ تنعي على قريش عبادةَ الأصنام على أن فيما ذكره كرًّا على ما فر منه ﴿**رب إنهن**﴾ أي الأصنامَ ﴿**أضللن كثيرًا من الناس**﴾ أي تسبّبن له كقوله تعالى: ﴿وغرتهم الحياةُ الدنيا﴾ [الأنعام، الآية ٧٠ و١٣٠] وهو تعليلٌ لدعائه وإنما صدّره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ورغبةً في استجابته ﴿**فمن تبعني**﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملةِ الإسلام ﴿**فإنه مني**﴾ أي بعضي، قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصِه به، أو متصلٌ بي لا ينفك عني في أمر الدين ﴿**ومن عصاني**﴾ أي لم يتبعْني، والتعبيرُ عنه بالعصيان للإيذان بأن عليه السلام مستمرُّ الدعوة وأن عدم اتباعِ من لم يتبعْه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلُغْه الدعوة ﴿**فإنك غفور رحيم**﴾ قادر على أن تغفِرَ له وترحَمه ابتداءً أو بعد توبتِه، وفيه أن كل ذنبٍ فلله تعالى أن يغفرَه حتى الشرك خلا أن الوعيدَ قضى بالفرق بينه وبين غيره.

﴿**ربنا**﴾ آثر عليه السلام ضمير الجماعةِ لا لما قيل من تقدم ذكرِه وذكرِ بنيه وإلا لراعاه في قوله: ربِّ إنهن . . . إلخ، بل لأن الدعاء المصدّرَ به وما أورده بصدد تمهيدِ مبادي إجابتِهِ من قوله: ﴿**إني أسكنت**﴾ الآية، متعلقٌ بذريته فالتعرضُ لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول وإجابةِ المسؤول ﴿**من ذريتي**﴾ أي بعضهم أو ذريةً من ذريتي فحُذف المفعولُ وهو إسماعيلُ عليه السلام وما سيولد له فإن إسكانَه حيث كان على وجه الاطمئنانِ متضمِّنٌ لإسكانهم. روي أن هاجرَ أمَّ إسماعيلَ عليه السلام كانت لسارة فوهبتْها من إبراهيمَ عليه السلام فلما ولدت له إسماعيلَ عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يُخرجَهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكةَ فأظهر الله تعالى عينَ زمزم ﴿**بواد غير ذي زرع**﴾ لا يكون فيه زرع أصلًا وهو وادي مكةَ شرفها الله تعالى ﴿**عند بيتك**﴾ ظرف لـ (أسكنتُ)، كقولك: صليت بمكةَ عند الركنِ، لا أنه صفةٌ لوادٍ أو بدل منه، إذ المقصودُ إظهارُ كونِ ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقربِ إلى الله تعالى والالتجاءِ إلى جواره الكريم كما ينبئ عنه التعرّضُ لعنوان الحرمةِ المؤذِنِ بعزة الملتجأ وعصمتِه عن المكاره في قوله تعالى: ﴿**المحرم**﴾ حيث حُرّم التعرضُ له والتهاونُ به أو لم يزل معظّمًا ممنّعًا يهابه الجبابرةُ في كل عصر، أو مُنع منه الطوفان فلم يستولِ عليه ولذلك سميَ عتيقًا، وتسميتُه إذ ذاك بيتًا

---

(١) سقط في خ.

ولم يكن له بناءٌ، وإنما كان نشْزًا مثلَ الرَّابية تأتيه السيول فتأخذ ذاتَ اليمين وذات الشمال، ليست باعتبار ما سيؤول إليه الأمرُ من بنائه عليه السلام فإنه ينزِع إلى اعتبار عنوانِ الحرمة أيضًا كذلك بل إنما هي باعتبار ما كان من قبل فإن تعدد بناءِ الكعبةِ المعظمةِ مما لا ريب فيه وإنما الاختلافُ في كمية عددِه وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله تعالى.

﴿**ربنا ليقيموا الصلاة**﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به، وهو متعلقٌ بأسكنتُ وتخصيصُها بالذكر من بين سائر شعائرِ الدينِ لفضلها، وتكريرُ النداءِ وتوسيطُه لإظهار كمالِ العنايةِ بإقامة الصلاةِ والاهتمامِ بعرضِ أن الغرضَ من إسكانهم بذلك الوادي البلقعِ ذلك المقصدُ الأقصى والمطلَب الأسنى، وكلُّ ذلك لتمهيد مبادئ إجابة دعائِه وإعطاء مسؤولِه الذي لا يتسنى ذلك المرامُ إلا به، ولذلك أُدخل عليه الفاء فقال: ﴿**فاجعل أفئدة من الناس**﴾ أي أفئدةً من أفئدتهم، فمن للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: أفئدةَ الناسِ لازدحمت عليهم[(١)] فارسُ والروم، وأما ما زيد عليه من قولهم: ولَحجت اليهودُ والنصارى فغيرُ مناسب للمقام إذ المسؤولُ توجيهُ القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهُها إلى البيت للحج، وإلا لقيل: تهوي إليه، فإنه عينُ الدعاء بالبلدية قد حكي بعبارة أخرى كما مر، أو لابتداء الغاية كقولك: القلبُ منّي سقيمٌ، أي أفئدةَ ناسٍ، وقرئ (آفدةً)[(٢)] على القلب كآدر في أدؤر أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أي عجِلت أي جماعةً من الناس وأفِدَةً بطرح الهمزة من الأفئدة أو[(٣)] على النعت من أفد ﴿**تهوي إليهم**﴾ تسرع إليهم شوقًا ووِدادًا، وقرئ[(٤)] على البناء للمفعول من أهواه غيرُه وتهوَىٰ من باب علم أي تحبّ، وتعديته بإلى لتضمُّنه معنى الشوقِ والنزوعِ، وأولُ [آثارِ][(٥)] هذه الدعوة ما روي أنه مرت رِفقةٌ من جُرهم تريد الشامَ فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل فقالوا: إن هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فإذا هم بهاجر، فقالوا لها: إن شئت كنا معك وآنسناك والماءُ ماؤك فأذِنت لهم وكانوا معها إلى أن شبّ إسماعيلُ عليه السلام وماتت هاجرُ فتزوج إسماعيلُ منهم كما هو المشهور.

---

(١) في خ: فيه.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٠).
(٣) في خ: و.
(٤) قرأ بها: علي بن أبي طالب، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ومجاهد. ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٠)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٦٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٧٨).
(٥) سقط في خ.

﴿وارزقهم﴾ أي ذريتي الذين أسكنتُهم هناك أو مع من ينحاز إليهم من الناس. وإنما لم يخصَّ الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله: ﴿وارزُقْ أهلَه من الثمرات من آمن منهم بالله واليومِ الآخر﴾ [البقرة، الآية ١٢٦] اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة ﴿من الثمرات﴾ من أنواعها بأن يَجعلَ بقرب منه قُرى يحصُل فيها ذلك أو يُجبىٰ إليه من الأقطار الشاسعةِ[١] وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يوم واحد، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الطائفَ كانت من أرض فلسطين فلما (دعا)[٢] إبراهيمُ عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها [حيث وضعها][٣] رزقًا للحرَم. وعن الزهري رضي الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشامِ فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيمَ عليه السلام[٤] ﴿لعلهم يشكرون﴾ تلك النعمَةَ بإقامة الصلاةِ وأداءِ سائر مراسمِ العبودية، وقيل: اللامُ في (ليقيموا) لامُ الأمرِ والمرادُ أمرُهم بإقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء في قوله تعالى: ﴿فاجعل﴾ إلخ، وفي دعائه عليه السلام [من مراعاة حسنِ الأدبِ والمحافظة على قوانين الضَّراعةِ وعرضِ الحاجة واستنزالِ الرحمةِ واستجلابِ الرأفة ما لا يخفى، فإنه عليه السلام][٥] بذكر كونِ الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيّن كمالَ افتقارِهم إلى المسؤول، وبذكر كونِ إسكانِهم عند البيت المحرم أشار إلى أن جِوارَ الكريم يستوجب إفاضةَ النعيم، وبعرض كونِ ذلك الإسكانِ مع كمال إعوازِ مرافقِ المعاش لمحض إقامةِ الصلاةِ وأداء حقوقِ البيت مهّد جميعَ مبادي إجابةِ السؤال، ولذلك قُرنت دعوتُه عليه السلام بحُسنِ القبول.

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ من الحاجات وغيرِها، والمرادُ بما نُخفي ما يقابل ما نعلن سواءٌ تعلق به الإخفاءُ أو لا، أي تعلم ما نظهره وما لا نظهره فإن علمَه تعالى متعلّقٌ بما لا يخطُر بباله مما فيه من الأحوال الخفية فضلًا عن إخفائه، وتقديمُ ما نخفي على ما نعلن لتحقيق المساواةِ بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجهٍ فكأن تعلقه بما يخفىٰ أقدمُ منه بما يُعلن، أو لأن مرتبة السرِّ والخفاءِ متقدمةٌ على مرتبة العلن إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو قبل ذلك خفيٌّ فتعلقُ علمِه سبحانه بحالته الأولى أقدمُ من تعلقه بحالته الثانية، وقصدُه عليه السلام أن إظهارَ هذه الحاجات وما

---

(١) في خ: الشامية.
(٢) في خ: حكى.
(٣) سقط في خ.
(٤) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٣٠) برقم (١٢٢١).
(٥) سقط في خ.

هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غيرَ معلومةٍ لك، بل إنما هو لإظهار العبوديةِ والتخشّعِ لعظمتك، والتذلّل لعزتك، وعرضِ الافتقارِ إلى ما عندك، والاستعجالِ لنيل أياديك. وتكريرُ النداءِ للمبالغة في الضراعة والابتهال، وضميرُ الجماعة لأن المرادَ ليس مجردَ علمِه تعالى بسرِّه وعلنه بل بجميع خفايا المُلك والملَكوت وقد حققه بقوله، على وجه الاعتراض: ﴿**وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء**﴾ لما أنه العالمُ بالذات فما من أمر يدخُل تحت الوجود كائنًا ما كان في زمان من الأزمان إلا ووجودُه في ذاته علمٌ بالنسبة إليه سبحانه، وإنما قال: وما يخفي على الله إلخ، دون أن يقول: ويعلم ما في السموات والأرض تحقيقًا لما عناه بقوله: تعلم ما نخفي من أن علمَه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبةُ خفاءٍ بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقاتِ، وكلمةُ في متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لشيءٍ، أي من شيء كائنٍ فيهما، أعمُّ من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على (وجه الجزئيةِ)[1] منهما أو بيخفىٰ، وتقديمُ الأرض على السماء، مع توسيط لا بينهما، باعتبار القربِ والبعدِ منا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا، والالتفاتُ من الخطاب إلى اسم الذاتِ المستجمعةِ للصفات لتربية المهابةِ والإشعارِ بعلة الحُكم على نهج قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾ [الملك، الآية ١٤] والإيذانِ بعمومه لأنه ليس بشأنِ يُختص به أو بمن يتعلق به، بل شاملٌ لجميع الأشياء فالمناسبُ ذكرُه تعالى بعنوان مصحِّحٍ لمبدإ[2] الكلّ، وقيل: [هو][3] من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل، الآية ٣٤] ومن للاستغراق على الوجهين.

﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر**﴾ أي مع كِبَري ويأسي عن الولد، قيّد الهبةَ به استعظامًا للنعمة وإظهارًا لشكرها ﴿**إسمعيل وإسحق**﴾ رُوي أنه وُلد له إسماعيلُ وهو ابنُ تسعٍ وتسعين سنة، وولد له إسحاقُ وهو ابن مائةٍ واثنتي عشرة سنة أو مائة وسبعَ عشرة سنة. ﴿**إن ربي**﴾ ومالكَ أمري ﴿**لسميع الدعاء**﴾ لمجيبُه، من قولهم: سمِع الملكُ كلامَه إذا اعتدّ به، وهي من أبنية المبالغةِ العاملة عمَلَ الفعل أُضيف إلى مفعولِه أو فاعلِه بإسناد السماعِ إلى دعاء الله تعالى مجازًا، وهو مع كونه من تتمة الحمدِ والشكر [إذ][4] هو وصفٌ له تعالى بأن ذلك الجميلَ سنّته المستمرّةُ تعليلٌ على طريقة التذييل للهبة المذكورة، وفيه إيذانٌ بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد

---

(١) في خ: الجليلية.
(٢) في خ: لمبدئية.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ.

الدعاءِ بقوله: ﴿رب هبْ لي من الصالحين﴾ [الصافات، الآية ١٠٠] فاقترنت الهبةُ بقبول الدعوةِ، وتوحيدُ ضمير المتكلم وإن كان عَقيبَ ذكرِ هبتهما لما أن نعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعَم عليهم **﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾** مثابرًا[1] عليها معدّلًا لها، وتوحيدُ ضمير المتكلم مع شمول دعوتِه لذريتِه أيضًا حيث قال: **﴿ومن ذريتي﴾** أي بعضِهم من المذكورين ومن يسير سيرتَهما من أولادهما للإشعار بأنه المقتدىٰ في ذلك وذرّيتُه أتباعٌ له وإن ذكَرهم بطريق الاستطراد، لا كما في قوله: ﴿ربنا إني أسكنتُ﴾ . . . إلخ، فإن إسكانَه مع عدم تحققِه بلا ملابسةٍ لمن أسكنه إنما هو مذكورٌ بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوصٌ بذريته وإنما خَصّ هذا الدعاءَ ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضًا منهم لا يكون مقيمَ الصلاة كقوله تعالى: ﴿ربنا واجعلنا مسلِمَيْن لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك﴾ [البقرة، الآية ١٢٨] **﴿ربنا وتقبل دعاءِ﴾** أي دعائيَ هذا المتعلِّقَ بجعلي وجعلِ بعض ذرّيتي مقيمي [الصلاةِ][2] ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنامِ، ولذلك جيء بضمير الجماعة.

﴿ربنا اغفر لي﴾ أي ما فرَطَ مني من ترك الأَولى في باب الدين وغيرَ ذلك مما لا يسلم منه البشر **﴿ولوالدي﴾** وقرئ[3] بالتوحيد ولـ (أبوي)[4]، وهذا الاستغفارُ منه عليه السلام إنما كان قبل تبيّن الأمرِ له عليه السلام، وقيل: أراد بوالديه آدمَ وحواءَ، وقيل: بشرط الإسلام ويردّه قوله تعالى: ﴿إلا قولَ إبراهيم﴾ الآية [الممتحنة، الآية ٤] وقد مر في سورة التوبة نوعُ تحقيقٍ للمقام سيأتي تمامه في سورة مريم بفضل الله تعالى **﴿وللمؤمنين﴾** كافة من ذريته وغيرهم وللإيذان باشتراك الكلِّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة **﴿يوم يقوم الحساب﴾** أي يثبُت ويتحقق محاسبةُ أعمالِ المكلفين على وجه العدل، استُعير له [من][5] ثبوت القائمِ على الرجل بالاستقامة، ومنه قامت الحربُ على ساق، والمرادُ تهويلُه، وقيل: أسنَد إليه قيامُ أهلِه مجازًا أو حذف المضاف كما في ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف، الآية ٨٢] واعلم أن ما حكي عنه

---

(١) في خ: جابرًا.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: سعيد بن جبير.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٦٥).
(٤) قرأ بها: أبي بن كعب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٢).
(٥) سقط في خ.

عليه السلام من الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المَحْكيِّ ولا على وجه المعيّة، بل صدر عنه في أزمنة متفرّقةٍ حُكي مرتبًا للدلالة على سوء حال الكفرةِ بعد ظهور أمرِه في الملة وإرشادِ الناس إليها والتضرّعِ إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنيوية.

تذكير بأيام الله

﴿**ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون**﴾ خطاب لرسول الله ﷺ والمرادُ تثبيتُه على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك، نحو قوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ [الأنعام، الآية ١٤] ونظائرِه، مع [ما][1] فيه من الإيذان بكونه واجبَ الاحتراز عنه في الغاية حتى نُهي عنه من لا يمكن تعاطيه، أو نهيُه عليه السلام عن حُسبانه تعالى تاركًا لعقابهم على طريقة العفو، والتعبيرُ عنه بذلك للمبالغة في النهي والإيذان بأن ذلك الحسبانَ بمنزلة حسبانِه تعالى غافلًا عن أعمالهم إذ العلمُ بذلك مستوجبٌ لعقابهم لا محالة فتركُه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ ووعدٌ له أكيدٌ ووعيد للكفرة وسائرِ الظالمين شديدٌ، أو لكل أحدٍ ممن يستعجل عذابَهم أو يتوهّم إهمالَهم[2] للجهل بصفاته تعالى والاغترارِ بإمهاله، وقيل: معناه لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملةَ الغافل عما عمِلوا بل معاملةَ من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرًا وقِطْميرًا[3]، والمرادُ بـ (الظالمين) أهلُ مكةَ ممن عُدّت مساويهم من تبديل نعمةِ الله تعالى كفرًا وإحلالِ قومهم دارَ البوار واتخاذِ الأندادِ كما يؤذن به التعرّضُ لحكمة التأخيرِ المنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قل تمتعوا﴾ الآية [إبراهيم: ٣٠] أو جنسُ الظالمين وهم داخلون في الحكم دخولًا أوليًا.

﴿**إنما يؤخرهم**﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد، وهو استئنافٌ وقع تعليلًا للنهي السابق أي دُم على ما كنت عليه من عدم حُسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم ولا تحزَنْ بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم، إذ تأخيرُه للتشديد والتغليظ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركًا لعقوبتهم لما[4] ترى من تأخيرها إنما ذلك لأجل هذا، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملةَ الغافل ولا يؤاخذُهم بما

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: أعمالهم.
(٣) النقير والقطمير: كناية عن الشيء الهيّن الحقير.
(٤) في خ: كما.

عملوا لما ترى من التأخير، إنما هو لهذه الحكمة وقرئ بالنون[١]، وإيقاعُ التأخيرِ عليهم مع أن المؤخرَ إنما هو عذابُهم لتهويل الخطْب وتفظيعِ الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مُرصَدون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم، وللدَّلالة على أن حقَّهم من العذاب هو الاستئصالُ بالمرة وألا يبقىٰ منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأن المؤخرَ له من جملة العذاب وعنوانه، ولو قيل: إنما يؤخر عذابَهم . . .إلخ لما فهم ذلك ﴿**ليوم**﴾ هائل ﴿**تشخص فيه الأبصار**﴾ ترتفع أبصارُ أهلِ الموقف فيدخل في زمرتهم الكفرةُ المعهودون دخولًا أوليًا، أي تبقى مفتوحةً لا تتحرك أجفانُهم من هول ما يرَونه، واعتبارُ عدم قرارِها في أماكنها إما باعتبار الارتفاعِ الحسيِّ في جِرْم العين وإما بجعل الصيغةِ مِنْ شخَص من بلد إلى بلد وسار في ارتفاع. ﴿**مهطعين**﴾ مسرعين إلى الداعي مُقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يُقلعون عنه ولا يطرِفون هيبة وخوفًا، وحيث كان إدامةُ النظر هاهنا بالنظر إلى الداعي قيل: ﴿**مقنعي رءوسهم**﴾ أي رافعيها مع إدامة النظر من[٢] غير التفاتٍ[٣] إلى شيء كذا قاله العتبي[٤] وابن عرفة، أو ناكسيها ويقال: أقنع رأسَه أي طأطأها ونكَسها فهو من الأضداد وهما حالان مما دل عليه الأبصارُ من أصحابها، أو الثاني حالٌ متداخلةٌ من الضمير في الأول، وإضافتُه غير حقيقية فلا ينافي الحالية ﴿**لا يرتد إليهم طرفهم**﴾ أي لا يرجِع إليهم تحريكُ أجفانِهم حسبما كان يرجِع إليهم كلّ لحظة[٥] بل تبقىٰ أعينُهم مفتوحةً لا تطرِف أو لا ترجع إليهم أجفانُهم التي هي آلةُ الطرْفِ، فيكون إسنادُ الرجوعِ إلى الطرف مجازيًا أو هو نفسُ الجفن[٦]. قال الفيروز آبادي: الطرفُ العينُ لا يجمع لأنه مصدر في الأصل أو اسمٌ جامع للعين. أو لا يرجع نظرُهم إلى أنفسهم فضلًا عن أن يرجِع إلى شيء آخر فيبقون مبهوتين، وهو أيضًا حالٌ أو بدلٌ من مقنعي . . . إلخ، أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الأبصار، وتأخيرُه عما هو تتمته من الإهطاع والإقناع، مع

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، والحسن، والسلمي، والأعرج، وعباس بن الفضل، ورويس، وهارون العتكي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٩)، والبحر المحيط (٥/ ٤٣٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٠٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٧٦)، والسبعة لابن مجاهد (٣٦٣).

(٢) في خ: في.

(٣) في خ: التفاوت.

(٤) في خ: العيني.

(٥) في خ: بخرة.

(٦) في خ: الجزم.

ما بينه وبين الشخوص المذكورِ من المناسبة، لتربية هذا المعنى ﴿**وأفئدتهم هواء**﴾ خاليةٌ من العقل والفهم لفرْط الحَيرة والدهَش، كأنها نفسُ الهواءِ الخالي من كل شاغلٍ، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبُه هواءٌ أي لا قوة ولا رأيَ [فيه](١)، واعتبارُ خلوِّها عن كل خير لا يناسب المقام وهو إما حالٌ عاملُها لا يرتد مفيدةٌ لكون شخوص أبصارِهم وعدم ارتدادِ طرفِهم بلا فهمٍ ولا اختيار أو جملةٌ مستقلةٌ.

إنذار بالعذاب

﴿**وأنذر الناس**﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ بعد إعلامِه أن تأخيرَهم لماذا، وأمرٌ له بإنذارهم وتخويفِهم منه، والمرادُ بالناس الكفارُ المعبّرُ عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهرُ إتيانِ العذاب، والعدولُ إليه من الإضمار للإشعار بأن المرادَ بالإنذار هو **الزجرُ** عما هم عليه من الظلم شفقةً عليهم لا التخويفُ للانزعاج والإيذاء، فالمناسبُ عدمُ ذكرِهم بعنوان الظلم، أو **الناسُ** جميعًا فإن الإنذارَ عام للفريقين كقوله تعالى: ﴿إنما تُنذر من اتبعَ الذِكرَ﴾ [يس، الآية ١١] والإتيانُ يُعمّهما من حيث كونُهما في الموقف وإن كان لحوقُه بالكفار خاصةً، أي أنذِرهم وخوِّفهم ﴿**يوم يأتيهم العذاب**﴾ المعهودُ وهو اليوم الذي وُصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلةِ أعني يومَ القيامة، وقيل: هو يومُ موتِهم معذَّبين بالسكَرات ولقاءِ الملائكة بلا بشرى، أو يومُ هلاكِهم بالعذاب العاجلِ، ويأباه القصرُ السابق ﴿**فيقول الذين ظلموا**﴾ أي فيقولون، والعدولُ عنه إلى ما عليه النظمُ الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بأن ما لقُوه من الشدة إنما هو لظلمهم، وإيثارُه على صيغة الفاعل حسبما ذكر، أولًا للإيذان بأن الظلمَ في الجملة كافٍ في الإفضاء إلى ما ذكر من الأهوال من غير حاجةٍ إلى الاستمرار عليه كما ينبئ عنه صيغةُ الفاعلِ، وعلى تقدير كونِ المرادِ بالناس مَنْ يعمّ المسلمين أيضًا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفارُ، أو يقول: كلُّ من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذَرين وغيرِهم من الأمم الخاليةِ فإن إتيانَ العذاب يعُمهم كما يشعر بذلك وعدُهم باتباع الرسل.

﴿ربنا **أخرنا**﴾ رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿**إلى أجل قريب**﴾ إلى أمد وحدٍّ من الزمان قريب ﴿**نجب دعوتك**﴾ أي الدعوةَ إليك وإلى توحيدك أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسلِ، ففيه إيماءٌ إلى أنهم صدّقوهم في أنهم مرسَلون من عند الله تعالى ﴿**ونتبع الرسل**﴾ فيما جاءونا به أي نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة الدعوةِ واتّباع الرسل،

---

(١) سقط في خ.

والجمعُ إما باعتبار اتفاقِ الجميعِ على التوحيد وكونِ عصيانهم للرسول ﷺ عصيانًا لهم جميعًا، وإما باعتبار أن المحْكيَّ ظالمو[1] الأمم جميعًا والمقصودُ بيانُ وعدِ كل أمة باتباع رسولِها، ﴿**أولم تكونوا أقسمتم من قبل**﴾ على إضمار القولِ معطوفًا على (فيقول) أي فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: ألم تؤخِّروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطرًا وشرًا وجهلًا وسفهًا ﴿**ما لكم من زوال**﴾ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مَشيدًا وأمّلتم بعيدًا ولم تحدّثوا أنفسكم[2] بالانتقال منها إلى هذه الحالة، وفيه إشعارٌ بامتداد زمانِ التأخير وبُعد مداه أو ما لكم من زوال من هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهدَ أيْمانِهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: ٣٨] [وصيغةُ الخطاب][3] في جواب القسم لمراعاة حالِ الخطاب في أقسمتم كما في قوله: حلف بالله (ليخرُجَن، وهو أدخلُ)[4] في التوبيخ من أن يقال: ما لنا مراعاةً لحال المُقسِم. ذكر البيهقيُّ عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: لأهل النار خمسُ دعَوات يجيبهم الله تعالى في أربع منها فإذا كانت الخامسةُ لم يتكلموا بعدها أبدًا يقولون: ﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتَنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ [غافر: ١١] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دُعيَ الله وحده كفرتم وإن يشرَك به تؤمنوا فالحكم لله العليّ الكبير﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿ربنا أبصَرْنا وسمِعنا فارجِعْنا نعملْ صالحًا إنا موقنون﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم الله تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاءَ يومِكم هذا﴾ الآية [السجدة: ١٤]، ثم يقولون: ﴿ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب نُجبْ دعوتَك ونتبعِ الرسل﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ثم يقولون: ﴿ربنا أخرِجنا نعملْ صالحًا غيرَ الذي كنا نعمل﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أولم نعمِّرْكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ [فاطر: ٣٧] فيقولون: ﴿ربنا غلبت علينا شِقْوتُنا وكنا قومًا ضالين﴾ [المؤمنون، الآية ١٠٦] فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ﴾ [المؤمنون، الآية ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبدًا[5]، إن هو إلا زفيرٌ وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤُهم وأقبل بعضهم ينبَح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنمُ، اللهم إنا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارُك وجل ثناؤُك ولا إلٰهَ غيرُك.

---

(١) في خ: كلام ظالم.
(٢) في خ: ألسنتكم.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: وهو داخل.
(٥) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٢/ ١٢٨)، وفي الأسماء والصفات (٢/ ١٥).

﴿وسكنتم﴾ من السُّكنى بمعنى التبوّء والإيطان، وإنما استُعمل بكلمة في حيث قيل: ﴿في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ جريًا على الأصل لأنه منقولٌ عن مطلق السكون الذي حقُّه التعديةُ بها أو من السكون واللُّبث، أي قررْتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غيرَ محدّثين لأنفسكم بما لقُوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقِه فيما سلفه إيذانٌ بأن غائلةَ الظلم آيلةٌ إلى صاحبه، والمرادُ بهم إما جميعُ مَنْ تقدّم من الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاصِ الاستمهال، والخطابُ السابقُ بالمنذرين، وإما أوائلُهم من قوم نوحٍ وهود على تقدير عمومِهما للكل، وهذا الخطابُ وما يتلوه باعتبار حالِ أواخرهم.

﴿وتبين لكم﴾ بمشاهدة الآثار وتواترِ الأخبار ﴿كيف فعلنا بهم﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد، وكيف منصوبٌ بما بعده من الفعل وليست الجملةُ فاعلًا لتبيّن كما قاله بعضُ الكوفيين، بل فاعله ما دلت هي عليه دَلالةً واضحةً أي فعلنا العجيبَ بهم، وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال: ما فعلنا بهم كما مر في قوله تعالى: ﴿ليسجننه﴾ [يوسف: ٣٥] وقرئ[١] ونُبَيِّنُ ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي بينا لكم في القرآن العظيم، على تقدير اختصاصِ الخطاب بالمنذَرين أو على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام على تقدير عمومِه لجميع الظالمين، صفاتِ ما فعلوا وما فُعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لكل ظالم، لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالَكم على أعمالهم ومآلَكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجلِ إلى حلول العذابِ الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي، أو بيّنا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاقِ العذاب، والجملُ الثلاثُ في موقع الحال من ضمير أقسمتم، أي أقسمتم بالخلود والحالُ أنكم سكنتم في مساكن المهلَكين بظلمهم وتبين لكم فعلُنا العجيبُ بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثالِ.

وقوله عز وجل: ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ حال من الضمير الأول في فعلنا بهم أو من الثاني أو منهما جميعًا، وإنما قُدّم عليه قوله تعالى: ﴿وضربنا لكم الأمثالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] لشدة ارتباطِه بما قبله أي فعلنا، والحالُ أنهم قد مكروا في إبطال الحقِّ وتقديرِ الباطل مكرَهم العظيمَ الذي استفرغوا في عمله المجهودَ وجاوزوا فيه

(١) قرأ بها: السلمي، وعمر بن الخطاب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٧٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٣)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٤٣).

كل حد معهود، بحيث لا يقدِر عليه غيرُهم، فالمرادُ بيانُ تناهيهم في استحقاق ما فُعل بهم أو قد مكروا مكرَهم المذكورَ في ترتيب مبادئِ البقاءِ ومدافعةِ أسبابِ الزوالِ، فالمقصودُ إظهارُ عجزهم واضمحلالُ قدرتِهم وحقارتُها عند قدرة الله تعالى ﴿وعند الله مكرهم﴾ أي جزاءُ مكرِهم الذي فعلوه، على أن المكرَ مضافٌ إلى فاعله، أو أخذُه تعالى بهم على أنه مضاف إلى مفعوله، وتسميتُه مكرًا لكونه بمقابلة مكرِهم وجودًا وذِكرًا أو لكونه في صورة المكرِ في الإتيان[١] من حيث لا يشعرون، وعلى التقديرين فالمرادُ به ما أفاده قوله عز وجل: ﴿كيف فعلنا بهم﴾ [إبراهيم: ٤٥] لا أنه وعيدٌ مستأنفٌ، والجملةُ حالٌ من الضمير في مكروا أي مكروا مكرَهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظمُ منه، والمقصودُ بيانُ فسادِ رأيِهم حيث باشروا فعلًا مع تحقق ما يوجب تركَه ﴿وإن كان مكرهم﴾ في العِظَم والشدة ﴿لتزول منه الجبال﴾ أي وإن كان مكرُهم في غاية المتانةِ والشدةِ، وعبّر عن ذلك بكونه مسوًّى ومُعدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها لكونه مثلًا في ذلك، والجملةُ المصدرةُ بأن الوصليةِ معطوفةٌ على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاءُ مكرهم أو المكرُ الذي يحيق بهم إن لم يكن مكرُهم لتزولَ منه الجبال وإن كان إلخ، وقد حُذف ذلك حذفًا مطردًا لدِلالة المذكور عليه دَلالةً واضحةً فإن الشيء إذا تحقق عند وجودِ المانعِ القويِّ فلأن يتحققَ عند عدمِه أولى، وعلى هذه النكتة يدور ما في أن الوصليةِ من التأكيد المعنوي، والجواب محذوفٌ دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى: ﴿وعند الله مكرهم﴾ وقيل: إنْ نافية واللامُ لتأكيدها كما في قوله تعالى: ﴿وما كان الله لِيعذّبهم﴾ [الأنفال: ٣٣] وينصره قراءة[٢] ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكرُهم، فالجملة حينئذ حالٌ من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى: ﴿وعند الله مكرهم﴾ أي مكروا مكرَهم، والحالُ أن مكرهم لم يكن لتزولَ منه الجبال على أنها عبارةٌ عن آيات الله تعالى وشرائعِه ومعجزاتِه الظاهرة على أيدي الرسلِ السالفةِ عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبالِ الراسياتِ في الرسوخ، وأما كونُها عبارةً عن أمر النبيﷺ وأمرِ القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له إذ الماكرون هم المهلَكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين

---

(١) إشارة إلى أن الكلام جاء على طريق المجاز المرسل بعلاقة السببية حيث ذكر السبب في موضع المسبب وفيه إيجاز وبلاغة عظمى...
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٦٨) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ٨٧) وما بعدها ومفتاح العلوم (٥٣) و ما بعدها.

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٣).

وإن خُصّ الخطاب بالمنذرين، وقيل: هي مخففةٌ من إنّ، والمعنى إنه كان مكرُهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات مما ذكر في الآيات والشرائع والمعجزات والجملةُ كما هي حال من ضمير مكروا أي مكروا مكرَهم المعهودَ وإنّ الشأنَ كان مكرُهم لإزالة الآياتِ والشرائعِ على أنه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكرٌ كذلك، وكان شأنُ الآياتِ والشرائعِ مانعًا من مباشرة المكرِ لإزالته، وقد قرأ[1] الكسائي (لَتزولُ) بفتح اللام على أنها الفارقة، والمعنى تعظيمُ مكرِهم فالجملةُ حالٌ من قوله تعالى: ﴿وعند الله مكرهم﴾ أي عنده تعالى جزاءُ مكرهم أو المكرُ بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبالُ أي في غاية الشدة، وقرئ[2] بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي وقرئ[3] (وإن كاد مكرهم) هذا هو الذي يقتضيه النظمُ الكريم وينساق إليه الطبعُ السليم.

وقد قيل إن الضمير في (مكروا) للمنذَرين والمرادُ بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل: ﴿وإذ يمكُر بك الذين كفروا ليُثْبِتوك أو يقتُلوك أو يُخرجوك﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]، وغيرُه من أنواع مكرهم برسول الله ﷺ، ولعل الوجهَ حينئذ أن يكون قوله تعالى: ﴿وقد مكروا﴾ إلخ، حالًا من القول المقدر أي فيقال لهم ما يقال والحالُ أنهم، مع ما فعلوا من الإقسام المذكورِ[4]، مع ما ينافيه من السكون في مساكن المهلَكين وتبيّن أحوالُهم وضرْبُ الأمثال، قد مكروا مكرَهم العظيم أي لم يكن الصادر عنهم مجردَ الإقسام الذي وُبِّخوا به بل اجترأوا على مثل هذه العظيمة، وقوله تعالى: ﴿وعند الله مكرهم﴾ [إبراهيم: ٤٦] حالٌ من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل، وقوله تعالى: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبالُ﴾ مسوقٌ لبيان عدم تفاوتِ

---

(١) قرأ بها أيضًا: ابن محيصن، وعمر، وعلي، وأبي، وعبد الله، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو إسحاق السبيعي، وزيد بن علي، وابن عباس، ومجاهد، وابن وثاب، وابن جريج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٨٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤٣٧)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٠٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٦٣)، والمعاني للفراء (٢/ ٧٩).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٨).

(٣) قرأ بها: عمر، وعلي، وأبي، وعبد الله، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، وأبو إسحاق السبيعي، وزيد بن علي، وابن عباس، وعمرو بن دينار.
ينظر الإعراب للنحاس (٢/ ١٨٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤٣٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٠٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٨٠)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٢٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٦٥).

(٤) في خ: المذكورة.

الحال في تحقيق الجزاءِ بين كون مكرِهم قويًا أو ضعيفًا كما مر هناك وعلى تقدير كون إنْ نافيةً فهو حال من ضمير مكروا، والجبالُ عبارةٌ عن أمر النبي ﷺ أي وقد مكروا، والحالُ أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائعُ والآياتُ التي هي في القوة كالجبال، وعلى تقدير كونها مخففةً من الثقيلة واللامُ مكسورةٌ يكون حالًا منه أيضًا على معنى أن ذلك المكرَ العظيم منهم كان لهذا الغرض، على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكرٌ كذلك المكر لِما أن شأنَ الشرائع أعظم من أن يمكُرَ بها ماكرٌ، وعلى تقدير فتح اللام فهو حالٌ من قوله تعالى: ﴿وعند الله مكرهم﴾ كما ذكرنا من قبل فليُتأمل.

﴿فلا تحسبن الله مخلفَ وعده رسلَه﴾ لم يرَدْ به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى: ﴿إنا لننصُر رسلنا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقولِه: ﴿كتب الله لأغلبَنّ أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١] كما قيل فإنه لا اختصاصَ له بالتعذيب لا سيما الأخرويُّ، بل ما سلف آنفًا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى: ﴿إنما يؤخرهم﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢]، كما يُفصح عنه الفاءُ الداخلة على النهي الذي أريد به تثبيتُه عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقّن بإنجاز وعدِه المذكور المقرونِ بالأمر بإنذارهم يوم إتيانِ العذاب المتضمِّنِ لذكر تعذيبِ الأممِ السالفة، بسبب كفرِهم وعصيانِهم رسلَهم بعد ما وعدهم بذلك كما فُصّلت قصةُ كلِ منهم في القرآن العظيم، فكأنه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة، وأخبرناك بما يلقَوْنه من الشدائد، وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا، وبما أجَبْناهم به وقرَعناهم بعدم تأملِهم في أحوال من سبَقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلَهم بإهلاكهم، فدُمْ على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافِنا رسلَنا وعدَنا **﴿إن الله عزيز﴾** غالبٌ لا يماكَر وقادرٌ لا يقادَر **﴿ذو انتقام﴾** لأوليائه من أعدائه، والجملةُ تعليلٌ للنهي المذكور وتذييلٌ له، وحيث كان الوعدُ عبارةً عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيَّل بأن يقال: إن الله لا يخلف الميعاد، بل تعرض لوصف العزة والانتقامِ المُشعِرَين بذلك، والمرادُ بالانتقام ما أشير إليه بالفعل وعبّر عنه بالمكر.

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ ظرفٌ لمضمر مستأنفٌ ينسحب عليه النهيُ المذكور أي ينجزه يوم إلخ، أو معطوفٌ عليه نحو وارتقب يومَ تبدّل الأرض غيرَ الأرض، أو الانتقام وهو يوم يأتيهم العذابُ بغتة ولكن له أحوالٌ جمّة يُذكر كلَّ مرة بعنوان مخصوص، والتقييدُ به مع عموم انتقامِه للأوقات كلها للإفصاح عما هو المقصودُ من

تعذيب الكفرة المؤخرِ[١] إلى ذلك اليوم بموجب الحكمةِ الداعيةِ إليه، وقيل: بدلٌ من ﴿يومَ يأتيهم العذاب﴾ [إبراهيم، الآية ٤٤] أو نُصب بـ (اذكرْ) أو إضمارِ لا يخلف وعده يوم تبدل إلخ، وفيه أيضًا ما في الوجه الثالث من الحاجة إلى الاعتذار.

ولا يجوز أن ينتصب بقوله: مخلَف وعدِه لأن ما قبل إنّ لا يعمل فيما بعده، وقيل: هو غيرُ مانع لأن قوله تعالى: ﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾ جملةٌ اعتراضية فلا يبالىٰ بها فاصلًا.

واعلم أن التبديلَ قد يكون في الذات كما في: بدلتُ الدراهمَ دنانيرَ وعليه قوله عز وجل: ﴿بدلناهم جلودًا غيرها﴾ [النساء: ٥٦] وقد يكون في الصفات كما في قولك: بدلتُ الحلْقةَ خاتمًا إذا غيّرتَ شكلها ومنه قوله تعالى: ﴿يبدل الله سيئاتِهم حسنات﴾ [الفرقان: ٧٠] على بعض الأقوال، والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين. فعن علي رضي الله عنه: «تبدل أرضًا من فضة وسمواتٍ من ذهب»[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاءَ نقيةٍ لم يُسفك فيها دمٌ ولم يعمَلْ عليها خطيئة»[٣] وعن ابن عباس رضي الله عنهما[٤]: «هي تلك الأرضُ وإنما تُغيّر صفاتُها» وأنشد: [الطويل]

وما الناسُ بالناس الذين عهِدتهم وما الدارُ بالدار التي كنت تعلمُ[٥]

وتبدّلُ السموات بانتثار كواكبها وكسوفِ شمسِها وخسوفِ قمرِها وانشقاقها وكونها أبوابًا[٦]، ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**تبدل الأرضُ غيرَ الأرض فتبسطُ وتمد مدَّ الأديمِ العُكَاظِيِّ لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا**»[٧] ﴿**والسموات**﴾ أي وتبدل السمواتُ غيرَ السموات حسبما مر من التفصيل، وتقديمُ تبديلِ الأرض لقربها منا ولكون تبديلها أعظمَ أثرًا بالنسبة إلينا.

﴿**وبرزوا**﴾ أي الخلائق أو الظالمون المدلولُ عليهم بمعونة السياق، والمرادُ

---

(١) في خ: المدخر.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٤٨) بلفظ: الأرض من فضة، والجنة من ذهب.

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأهوال، ص (٢١٧).

(٥) ينظر البيت في: مجالس ثعلب (١/ ٤٩)، وروح المعاني (١٣/ ٢٥٤)، والكشاف (٢/ ٣٨٤)، والبحر المحيط (٥/ ٤٢٧)، والعقد الفريد (٢/ ١٤٨)، والدر المصون (٤/ ٢٨١).

(٦) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٥٣٠).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأهوال ص (٦٧)، والطبري (١٧/ ٤٩)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٩٩) برقم (١٧٠٣٧).

=

بروزُهم من أجداثهم التي في بطون الأرضِ أو ظهورُهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرًّا ويزعُمون أنها لا تظهر، أو يعملون عمل من يزعمُ ذلك، ولعل إسنادَ البروز إليهم مع أنه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكال تناسبها، وهو معطوفٌ على تبدل، والعدولُ إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعِه، أو حالٌ من الأرض بتقدير قد والرابطُ بينها وبين صاحبِها الواو ﴿لله الواحد القهار﴾ للحساب والجزاء، والتعرُّضُ للوصفين لتهويل الخطبِ وتربيةِ المهابة وإظهار بطلانِ الشركِ، وتحقيقُ الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونِه ظرفًا له، وتحقيقُ إتيان العذاب الموعودِ على تقدير كونِه بدلًا من يوم يأتيهم العذاب فإن الأمرَ إذا كان لواحد غلاّبٍ لا يعار وقادر لا يُضارّ ولا يغار كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة.

﴿وترى المجرمين﴾ عطف على برزوا، والعدولُ إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على الاستمرار، وأما البروزُ فهو دفعيٌّ لا استمرار فيه وعلى تقدير حاليةِ برزوا فهو معطوفٌ على تبدل ويجوز عطفُه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونِه ينجزه ﴿يومئذ﴾ يومَ إذ برزوا له عز وجل أو يوم إذ تبدل الأرضُ أو يوم يُنجِز وعدَه ﴿مقرّنين﴾ قُرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر، أو قُرنوا مع الشياطين الذين أغوَوْهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملَكات الردِيّة والأعمال السيئة غِبَّ تصور كلٍّ منها وتشكلهما بما يناسبهما من الصور الموحشة والأشكال الهائلة، أو قرنت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم وهو حال من المجرمين ﴿في الأصفاد﴾ في القيود أو الأغلال، وهو إما متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿مقرّنين﴾ أو حال من ضميره أي مصفّدين ﴿سرابيلهم﴾ أي قُمصانهم ﴿من قطِران﴾ جملةٌ من مبتدإٍ وخبر محلُّها النصبُ على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمتُه فوه إلى فيَّ، أو مستأنفة، والقطران ما ينحلب من الأبهل[1] فيطبخ فتُهنَأُ[2] به الإبلُ الجَرْبىٰ فيحرق الجرَبَ بما فيه من الحِدّة الشديدة، وقد تصل حرارتُه إلى الجوف وهو أسودُ منتِنٌ يسرع فيه اشتعالُ النار يُطلىٰ به جلودُ أهل النار حتى يعودَ طلاؤُه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الألوانُ الأربعة من العذاب لذعُه وحرقتُه وإسراعُ النار في جلودهم واللونُ الموحش والنتَنُ على أن

=

والأَمْت: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً، ورقّة وصلابة. والأديم العكاظي: المحمول إلى سوق عكاظ للبيع.

(١) الأبهل: شجيرة مستديمة الخضرة من عاريات البذور، من المخروطيات، تشبه العرعر.

(٢) تُهْنأ: تُطْلَى.

التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادَر قدرُه فكأن ما نشاهده منهما أسماءُ مسمَّياتِها في الآخرة، فبِكَرمه العميمِ نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ، ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلًا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديةِ والهَنات الوحشية[١] فتجلُب إليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطِرانُ المذكور عينَ ما لابسوه في هذه النشأة وجعلوا شعارًا لهم من العقائد الباطلة والأعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعةِ لاشتداد العذاب عصَمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولُطفه، وقرئ[٢] قطرآنٍ أي نحاس مُذابٍ مُتناهٍ حرُّه.

﴿وتغشى وجوههم النار﴾ أي تعلوها وتحيط بها النارُ التي تمس جسدَهم المسَرْبلَ بالقطِران، وتخصيصُ الوجوه بالحكم المذكورِ مع عمومه لسائر أعضائِهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها كقوله تعالى: ﴿أفمن يتقي بوجهه سوءَ العذاب يوم القيامة﴾ [الزمر: ٢٤] . . . إلخ، ولكونها مجمعَ المشاعرِ والحواسّ التي خُلقت لإدراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره، كما أن الفؤادَ أشرفُ الأعضاء الباطنةِ ومحلُّ المعرفة وقد ملأوها بالجهالات، ولذلك قيل: ﴿تطّلعُ على الأفئدة﴾ [الهمزة: ٧] أو لخلوّها عن القطِران المغني عن ذكر غشيانِ النار لها، ولعل تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشافِ اللهب أحيانًا ويتضاعف عذابُهم بالخزي على رؤوس الأشهاد، وقرئ[٣] تَغَشَّى أي تتغشى بحذف إحدى التاءين، والجملةُ نصبٌ على الحالية لا على أن الواو حاليةٌ لأنه مضارعٌ مثبَتٌ بل [على][٤] أنها معطوفةٌ على الحال قاله أبو البقاء ﴿ليجزي الله﴾ متعلقٌ بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزِيَ ﴿كل نفس﴾ مجرمةٍ ﴿ما كسبت﴾ من أنواع الكفرِ والمعاصي جزاءً موافقًا لعملها، وفيه إيذانٌ بأن جزاءَهم مناسبٌ لأعمالهم، أو بقوله: برزوا على تقدير كونِه معطوفًا على تُبدّل، والضمير للخلق، وقوله: وترى المجرمين. . . إلخ، اعتراضٌ بين المتعلِّق والمتعلَّق به أي برزوا للحساب ليجزيَ الله كلَّ نفس مطيعةٍ أو عاصية ما كسبت من خير أو شر، وقد اكتُفي بذكر عقاب العُصاة تعويلًا على شهادة الحال لا سيما مع

---

(١) في خ: الموحشة.

(٢) قرأ بها: علي، وأبو هريرة، وابن عباس، وعكرمة، وابن جبير، وابن سيرين، والحسن، وسنان بن سلمة، وزيد بن علي، وقتادة، وأبو صالح.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٩)، والبحر المحيط (٥/ ٤٤٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣١١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٤١).

(٤) سقط في خ.

ملاحظة سبق الرحمةِ الواسعة ﴿إن الله سريع الحساب﴾ إذ لا يشغَله شأنٌ عن شأن فيُتمُّه في أعجل ما يكون من الزمان فيوفّي الجزاءَ بحسبه، أو سريعُ المجيء يأتي عن قريب، أو سريعُ الانتقام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وهو سريع الحساب﴾ [الرعد: ٤١].

﴿هذا﴾ أي ما ذكر من قوله سبحانه: ﴿ولا تحسبن الله غافلًا﴾ إلى قوله: ﴿سريع الحساب﴾ ﴿بلاغ﴾ كفايةٌ في العظة والتذكيرِ من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورةُ الكريمة أو كلُّ القرآن المجيدِ من فنون العظات والقوارع ﴿للناس﴾ للكفار خاصةً على تقدير اختصاصِ الإنذار بهم في قوله تعالى: ﴿وأنذر الناسَ﴾ أو[1] لهم وللمؤمنين كافةً على [تقدير][2] شمولِه لهم أيضًا وإن كان ما شرح مختصًا بالظالمين ﴿ولينذروا به﴾ عطفٌ على مقدر واللامُ متعلقةٌ بالبلاغ أي كفاية لهم في أن يُنصَحوا وينذَروا به، أو هذا بلاغٌ لهم ليفهموه ولينذَروا به، على أن البلاغَ بمعنى الإبلاغ كما في قوله تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ [النور، الآية ٥٤. والعنكبوت، الآية ١٨] أو متعلقة بمحذوف أي ولينذَروا به أُنزل أو تُليَ، وقرئ (لِيَنْذَروا)[3] به من نذر بالشيء إذا علِمه وحذِره واستعدّ له.

﴿وليعلموا﴾ بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحةِ هي إهلاكُ الأمم وإسكانُ آخرين [في][4] مساكنهم، وغيرُهما مما سبق ولحِق ﴿أنما هو إله واحد﴾ لا شريكَ له، وتقديمُ الإنذار لأنه الداعي إلى التأمل المؤدّي إلى ما هو غايةٌ له من العلم المذكور والتذكر في قوله تعالى: ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبلُ من التوحيد وغيرِه من شؤون الله عز وجل ومعاملتِه مع عباده فيرتدعوا عما يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفارُ ويتدرعوا بما يُحظيهم من العقائد الحقةِ والأعمال الصالحةِ، وفي تخصيص التذكرِ بأولي الألباب تلويحٌ باختصاص العلم بالكفار ودَلالةٌ على أن المشارَ إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المَسوقةِ لشأنهم لا كلُّ السورةِ المشتملةِ عليها على ما سيق للمؤمنين أيضًا، فإن فيه ما يفيدهم فائدةً جديدةً، وحيث كان ما يفيده البلاغُ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة

---

(١) في خ: و.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: يحيى بن عمارة، وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٤١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٥).
(٤) سقط في خ.

إلى الكفرة أمرًا حادثًا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثباتَ على ذلك حسبما أُشير إليه عن الأول بالعلم وعن الثاني بالتذكر، ورُوعيَ ترتيبُ الوجودِ مع ما فيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم.. ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته في الأولى والعقبى آمين.

عن النبي ﷺ: «**من قرأ سورةَ إبراهيمَ أعطيَ من الأجر عشرَ حسناتٍ بعدد مَنْ عبدَ الأصنامَ ومن لم يعبُدْ**»[1] والحمد لله وحده.

---

(١) تقدم.

سورة الحجر

مكِّيَّة [إلا آية ٨٧ فمدنية][1] وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿الر﴾ قد مر الكلام فيه وفي محله في مطلع سورة الرعدِ وأخواتِها ﴿تلك﴾ إشارةٌ إليه أي تلك السورةُ العظيمةُ الشأن ﴿آياتُ الكتاب﴾ الكاملِ المعهود الغنيِّ عن الوصف به المشهورُ بذلك من بين الكتب الحقيقُ باختصاص اسمِ الكتاب به على الإطلاق، أي بعضٌ منه مترجمٌ مستقلٌّ باسم خاصٍّ فهو عبارةٌ عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزَلِ إذ ذاك إذ هو المتسارِعُ إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق وعليه يترتب فائدةُ وصف الآياتِ بنعت ما أضيفت إليه من نعوت الكمالِ لا على جعله عبارةً عن السورة، إذ هي في الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبةِ من الشهرة حتى يُستغنىٰ عن التصريح بالوصف على أنها عبارةٌ عن جميع آياتها، فلا بد من جعل (تلك) إشارةٌ إلى كل واحد[2] منها، وفيه من التكلف ما لا يخفى كما ذكر في سورة الرعد ﴿وقرآن﴾ أي: قرآن عظيمِ الشأن ﴿مبين﴾ مظهر لما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام أو لسبيل

(١) سقط في ط.

(٢) في خ: واحدة.

الرشدِ والغيِّ أو فارقٍ بين الحق والباطل والحلالِ والحرام، ولقد فُخّم شأنه العظيم مع ما جُمع فيه من (وصفي الكتابية)[1] والقرآنية على الطريقتين، إحداهما اشتمالُه على صفات كمالِ جنس الكتبِ الإلٰهيةِ فكأنه كلُّها، والثانيةُ طريقةُ كونِه ممتازًا عن غيره نسيج وحده بديعًا في بابه خارجًا عن دائرة البيانِ، وأُخّرت الطريقة الثانية لما أن الإشارةَ إلى امتيازه عن سائر الكتبِ بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه من الكتب أدخلُ في المدح كي لا يُتوَهّم من أول الأمرِ أن امتيازَه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصةٍ به من غير اشتمالٍ على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة، وهكذا الكلامُ في فاتحة سورةِ النمل خلا أنه قُدّم فيها القرآنُ على الكتاب لما سيذكر هناك.

ولمّا بين كون السورة الكريمةِ بعضًا من الكتاب والقرآنِ لتوجيه المخاطَبين إلى حُسن تلقّي ما فيها من الأحكام والقِصص والمواعظ شُرع في بيان ما تتضمّنه فقيل:

﴿ربما﴾ بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحةِ، وقرئ[2] بالتشديد وبفتح الراء مخففًا وبزيادة التاء مشددًا، وفيه ثماني لغات: فتح الراء وضمها مشددًا ومخففًا وبزيادة التاء[3] أيضًا مشددًا ومخففًا، ورُبّ حرفُ جر لا يدخُل إلا على الاسم، وما كافةٌ مصحّحةٌ لدخوله على الفعل وحقُّه الدخولُ على الماضي، ودخولُه على قوله تعالى: ﴿يود الذين كفروا﴾ لما أن المترقَّب في أخباره تعالى كالماضي المقطوعِ في تحقيق الوقوع، فكأنه قيل: ربما وَد الذين كفروا، والمرادُ كفرُهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى ﴿لو كانوا مسلمين﴾ منقادين لحكمه ومذعِنين لأمره، وفيه إيذانٌ بأن كفرَهم إنما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه من عند الله تعالى، وتلك الوَدادةُ يومَ القيامة أو عند موتهم أو عند معاينةِ حالِهم وحال المسلمين، أو عند رؤيتهم خروجَ عصاةِ المسلمين من النار. روى أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه أنه قال النبي ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة واجتمع أهلُ النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله تعالى من أهل القِبلة قال لهم الكفارُ: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامُكم وقد صِرتم**

---

(١) في خ: وضع الكتابة.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، والأعمش، وخلف، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ٤٤٤)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣١٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٤)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٢٦).

(٣) أي: رُبَّتَما ورُبَتَما. وقال ابن هشام في مغني اللبيب: «وفي ربَّ ست عشرة لغة: ضم الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف. والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة، ومع التجرد منها، فهذه اثنتا عشرة. والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف».

معنا إلى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأُخِذْنا بها، فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأْمر بكل من كان من أهل القِبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يوَدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين»[١].

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا يزال الربُّ يرحم ويُشفع إليه حتى يقول مَنْ كان من المسلمين فليدخُل الجنة، فعند ذلك يتمنَّوْن الإسلام[٢].

والحقُّ أن ذلك محمولٌ على شدة وَدادتِهم وأما نفسُ الودادةِ فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هي مقرَّرة مستمرّةٌ في كل آن يمر عليهم، وأن المراد بيانُ ذلك على ما هو عليه من الكثرة وإنما جيء بصيغة التقليلِ جريًا على سنن العرب فيما يقصِدون به الإفراط فيما يعكسون عنه، تقول لبعض قوادِ العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: ربَّ فارسٍ عندي، أو لا تعدمُ[٣] عندي فارسًا وعنده مقانب جمّةٌ من الكتائب، وقصدُه في ذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه يريد إظهارَ براءته من التزيد وإبرازَ أنه ممن يقلل، لعلو الهمة، كثيرَ ما عنده فضلًا عن تكثير القليل، وهذه طريقةٌ إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبةُ ريب فيُصار إليه هضمًا للحق، فدل النظمُ الكريم على وَدادةِ الكافرين للإسلام في كل آن من آنات اليومِ الآخر، وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جيء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادةَ مع كثرتها في نفسها مما يُستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياءِ، وهذا هو الموافقُ لمقام بيانِ حقارةِ شأنِ الكفارِ وعدمِ الاعتدادِ بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا﴾ الآية، أو ذهابًا إلى الإشعار بأن من شأن العاقلِ إذا عنّ له أمرٌ يكون مظنونَ الحمد، أو قليلًا ما يكون كذلك ألا يفارقَه ولا يقارِفَ ضدّه، فكيف إذا كان متيقن الحمد؟ كما في قولهم: لعلك ستندم على ما فعلت، وربما ندِم الإنسان على ما فعل، فإن المقصودَ ليس بيانَ كونِ الندم مرجوَّ الوجود بلا تيقن به، أو قليلَ الوقوع بل التنبيهُ على أن العاقلَ لا يباشر ما يرجىٰ فيه الندم أو يقِلّ وقوعُه فيه، فكيف بقطعيّ الوقوع؟ وأنه يكفي قليلُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٥) كتاب التفسير، باب: قراءات النبي ﷺ، والبيهقي في البعث والنشور (١/ ٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه هناد بن السري في الزهد (١/ ١٤٣)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٦٢، ٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٨٤)، والبيهقي في البعث والنشور (١/ ٧٦) من قول ابن عباس.

(٣) في خ: يعدم.

الندم في كونه حاجزًا عن ذلك الفعلِ، فكيف كثيرُه؟ والمقصودُ من سلوك هذه الطريقة إظهارُ الترفع والاستغناءِ عن التصريح بالغرض بناءً على ادعاء ظهورِه فالمعنى لو كانوا يودون الإسلامَ مرة واحدة لوجب عليهم أن يفارقوه، فكيف وهم يودّونه كل آن؟ وهذا أوفقُ بمقام استنزالِهم عما هم عليه من الكفر، وهذان طريقان متمايزانِ ذاتًا ومقامًا فمن ظنَّهما واحدًا فقد نأىٰ عن توفية المقام حقَّه.

تهديد الكفار

﴿**ذرهم**﴾ دعْهم عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة إذ لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك، وبالِغْ في تخليتهم وشأنَهم بل مُرْهم بتعاطي ما يتعاطَوْنه ﴿**يأكلوا ويتمتعوا**﴾ بدنياهم، وفي تقديم الأكل إيذانٌ بأن تمتعَهم إنما هو من قبيل تمتعِ البهائم بالمآكل والمشارب، والمرادُ دوامُهم على ذلك لا إحداثُه، فإنهم كانوا كذلك، أو تمتعُهم بلا استماعِ ما ينغص عيشَهم من القوارع والزواجر، فإن التمتعَ على ذلك الوجه أمرٌ حادث يصلُح أن يكون مترتبًا على تخليتهم وشأنَهم ﴿**ويلههم**﴾ ويَشْغَلْهم عن اتباعك أو عن التفكر فيما هم يصيرون إليه أو عن الإيمان والطاعة، فإن الأكلَ والتمتعُ يفضيان إلى ذلك ﴿**الأمل**﴾ والتوقعُ لطول الأعمارِ وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال وألا يَلْقَوا في العاقبة والمآل إلا خيرًا، فالأفعالُ الثلاثة مجزومةٌ على الجوابية للأمر حسبما عرفتَ من تضمن الأمرِ بالترك للأمر بها على طريقة المجاز، أو على أن يكون المرادُ بالأفعال المرقومة مباشرَتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غيرَ سامعين لسوء مَغَبَّتها أصلًا، ولا ريب في ترتب ذلك على الأمر بالترك فإن النهيَ عما هم عليه من ارتكاب القبائحِ مما يشوّش عليهم تمتعَهم وينغّص عليهم عيشَهم فأُمر عليه السلام بتركه ليتمرّغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهَمَهم[1] وهم عنه غافلون ﴿**فسوف يعلمون**﴾ سوءَ صنيعهم أو وخامةَ عاقبته أو حقيقةَ الحال التي ألجأتْهم إلى التمني المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك، وهو مع كونه وعيدًا أيّما وعيدٍ وتهديدًا غِبَّ تهديدٍ، تعليلٌ للأمر بالترك فإن علمَهم ذلك علةٌ لترك النهي والنصيحةِ لهم، وفيه إلزامٌ للحجة ومبالغةٌ في الإنذار إذ لا يتحقق الأمرُ بالصد إلا بعد تكررِ الإنذارِ وتقرّرِ الجحود والإنكار، وكذلك ما ترتب عليه من الأكل والتمتع والإلهاء.

﴿**وما أهلكنا**﴾ شروعٌ في بيان سرِّ تأخيرِ عذابهم إلى يوم القيامة وعدمِ نظمِهم في سلك الأمم الدارجةِ في تعجيل العذاب أي ما أهلكنا ﴿**من قرية**﴾ من القرى بالخَسف

---

(١) زاد في خ: ما يدهمهم.

بها وبأهلها كما فُعل ببعضها أو بإخلائها عن أهلها غِبَّ إهلاكِهم كما فُعل بآخرين ﴿إلا ولها﴾ في ذلك الشأن ﴿كتاب﴾ أي أجلٌ مقدرٌ مكتوبٌ في اللوح واجبُ المراعاة بحيث لا يمكن تبديلُه لوقوعه حسب الحكمةِ المقتضيةِ له ﴿معلوم﴾ لا يُنسى ولا يُغفل عنه حتى يُتصورَ التخلفُ عنه بالتقدم والتأخر، فكتابٌ **مبتدأٌ** خبرُه الظرفُ، والجملةُ حالٌ من (قرية) فإنها لعمومها، لا سيما بعد تأكّدِه بكلمة مِنْ، في حكم الموصوفة كما أشير إليه، والمعنى ما أهلكنا قريةً من القرى في حال من الأحوال إلا حالَ أن يكون لها كتابٌ أي أجلٌ موقتٌ لمهلِكها قد كتبناه لا نُهلكها قبل بلوغِه، معلومٌ لا يُغفل عنه حتى يمكنَ مخالفتُه بالتقدم والتأخر، أو **مرتفعٌ** بالظرف والجملةُ كما هي حال، أي ما أهلكنا قريةً من القرى في حال من الأحوال إلا وقد كان لها في حق هلاكِها كتابٌ أي أجلٌ مقدّرٌ مكتوبٌ في اللوح معلومٌ لا يُغفل عنه، أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التي هي بدلٌ من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونِه صفةً للمذكورة، أي ما أهلكنا قريةً من القرى إلا قريةً لها كتابٌ معلوم كما في قوله تعالى: ﴿ليس لهم طعامٌ إلا من ضريع لا يُسمن﴾ [الغاشية: ٦ و٧] فإن قوله تعالى: ﴿لا يسمن﴾ صفةٌ لكن لا للطعام المذكورِ لأنه إنما يدلّ على انحصار طعامِهم الذي لا يُسمن في الضريع، وليس المرادُ ذلك بل للطعام المقدر بعد [إلا][1]، أي ليس لهم طعامٌ من شيء من الأشياء إلا طعامٌ لا يُسمن، فليس فيه فصلٌ بين الموصوف والصفة بكلمة إلا كما تُوُهم، وأما توسيطُ الواو بينهما وإن كان القياسُ عدمَه فللإيذان بكمال الالتصاقِ بينهما من حيث إن الواوَ شأنُها الجمعُ والربطُ، فإن ما نحن فيه من الصفة أقوى لُصوقًا بالموصوف منها به في قوله تعالى: ﴿وما أهلكْنا من قرية إلا لها مُنْذِرون﴾ [الشعراء: ٢٠٨] فإن امتناعَ الانفكاك والإهلاكِ عن الأجل المقدرِ عقليٌّ، وعن الإنذار عاديٌّ، جرى عليه السنةُ الإلٰهيةُ.

ولما بيّن أن الأممَ المهلَكة كان لكل منهم وقتٌ معين لهلاكهم وأن هلاكَهم لم يكن إلا حسبما كان مكتوبًا في اللوح، بيّن أن كلَّ أمةٍ من الأمم منهم ومن غيرهم لها كتابٌ لا يمكن التقدمُ عليه ولا التأخر عنه فقيل:

﴿ما تسبق من أمة﴾ من الأمم المهلَكة وغيرِهم ﴿أجلها﴾ المكتوبَ في كتابها، أي لا يجيء هلاكُها قبل مجيءِ كتابِها، أو لا تمضي أمةٌ قبل مُضيِّ أجلها، فإن السبْقَ إذا كان واقعًا على زمانيّ فمعناه المجاوزةُ[2] والتخليف، فإذا قلت: سبق زيدٌ عمْرًا،

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: المحاورة.

فمعناه أنه جاوزه وخلّفه وراءه، وإذا كان واقعًا على زمان كان الأمرُ بالعكس، والسرُّ في ذلك أن الزمانَ يعتبر فيه الحركةُ والتوجّه إلى المتكلم فما سبَقه يتحقق قبل تحققِه، وأما الزمانيُّ فإنما يعتبر فيه الحركةُ والتوجّه إلى ما سيأتي من الزمان، فالسابقُ ما تقدم إلى المقصِد، وإيرادُه بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن إيرادَه بعنوان الكتابِ المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك ﴿وما يستأخرون﴾ أي وما يتأخرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له، وإيثارُ صيغةِ المضارع في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي، لأن المقصودَ بيانُ دوامِهما واستمرارِهما فيما بين الأمم الماضية والباقية، وإسنادُهما إلى الأمة بعد إسنادِ الإهلاكِ إلى القرية لما أن السبقَ والاستئخارَ حالُ الأمةِ دون القرية مع ما في الأمة من العموم لأهل تلك القرى وغيرِهم ممن أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة، وتأخيرُ ذكر عدمِ تأخرهم مع ذكر عدم سبقِهم مع كون المقام مقامَ المبالغةِ في بيان تحققِ عذابِهم، إما باعتبار تقدّم السبقِ في الوجود وإما باعتبار أن المرادَ بيانُ سرِّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم لذَلك، وإيرادُ الفعل على صيغة جمع المذكرِ للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصلِ[1]، ولذلك حُذف الجار والمجرور، والجملةُ مبينة لما سبق والمعنى أن تأخيرَ عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما أشير إليه ببيان وَدادتِهم للإسلام إذ ذاك، وبالأمر بتركهم وشأنَهم إلى أن يعلموا حقيقةَ الحال إنما هو لتأخّر أجلِهم المقدرِ لما يقتضيه من الحِكَم البالغةِ، ومن جملتها ما علم الله تعالى من إيمان بعضٍ من يخرُجُ منهم إلى يوم القيامة.

---

(١) قوله: «ولرعاية الفاصلة» ورعاية الفاصلة من الأمور المختلف فيها بين أهل العلم، بين موافق ومخالف المخالفون يرفضون أن يراعي القرآن الفاصلة فيقدم ويؤخر لأجلها، وابن الأثير لم يجد حرجًا في تغيير السبك ومخالفة الأصل في ترتيب الألفاظ من أجل حسن النظم السجعي فقد قال في قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أن التقديم جاء لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال: نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن، وكذلك الفراء يبيح تغيير النظم للمشاكلة بين المقاطع، والحق أننا لا ننكر ما للسجع والازدواج من أجراس شاجية تكسب الكلام أناقة وحلاوة، وتجعل له وقعًا نديًا على السمع والقلب، ولكنا لا نستطيع بحال أن ننزله هذه المنزلة الخطيرة التي يستباح معها الخطأ في الكلام، والتي تسحب ذيل الإغفال والإهمال على كل غرض آخر وخاصة حينما يتصل الأمر بكلام الله وكلام رسوله ﷺ. وهذه هي النظرة المعتدلة إلى فواصل القرآن.

ينظر: نقد الشعر لقدامة (١٦٥)، والإتقان للسيوطي (٢/ ١٠٥)، والمثل السائر (٢/ ٢١٢)، ومعاني القرآن (٣/ ٢٦٠)، وصور البديع وفن الأسجاع (٩٩).

مفتريات الكفار

﴿**وقالوا**﴾ شروعٌ في بيان كفرِهم بمن أنزل عليه الكتابُ بعد بيانِ كفرهم بالكتاب وما يؤول إليه حالُهم، والقائلون مشركو مكةَ لغاية تماديهم في العتوّ والغي ﴿**يا أيها الذي نزل عليه الذكر**﴾ خاطبوا به رسولَ الله ﷺ لا تسليمًا لذلك واعتقادًا [له][1]، بل استهزاءً به عليه الصلاة والسلام وإشعارًا بعلة حكمِهم الباطل في قولهم: ﴿**إنك لمجنون**﴾ كدأب[2] فرعونَ إذ قال: ﴿إنَّ رسولَكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء: ٢٧] يعنون يا من يدّعي مثل هذا الأمر البديعِ الخارقِ للعادات، إنك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدّعي أنه ينزلَ عليك لمجنون، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على القائم مَقامَ الفاعل لأن إنكارهم متوجِّهٌ إلى كون النازل ذِكْرًا من الله تعالى، لا إلى كون المنزَّلِ عليه رسولَ الله بعد تسليم كون النازلِ منه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿لولا نُزّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] فإن الإنكارَ هناك متوجهٌ إلى كون المنزَّلِ عليه رسولَ الله تعالى، وإيرادُ الفعل على صيغة المجهولِ لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعلٌ أو لتوجيه الإنكارِ إلى كون التنزيلِ عليه لا إلى استناده إلى الفاعل ﴿**لوما تأتينا**﴾ كلمة لو عند تركّبها مع (ما) تفيد ما تفيده عند تركبها مع (لا) من معنى امتناعِ الشيء لوجود غيرِه ومعنى التحضيض، خلا أنه عند إرادتِه لا يليها إلا فعلٌ ظاهرٌ أو مضمرٌ، وعند إرادةِ المعنى الأول لا يليها إلا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدر عند البصريين، والمرادُ هاهنا هو الثاني أي هلا تأتينا ﴿**بالملائكة**﴾ يشهدون بصحة نبوتِك ويعضدونك في الإنذار كقوله تعالى: ﴿لولا أُنزل عليه ملكٌ فيكونَ معه نذيرًا﴾ [الفرقان: ٧] أو يعاقبونا على التكذيب كما تأتي الأممُ المكذّبة لرسلهم ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ في دعواك، فإن قدرةَ الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرِك فإنا لا نصدقك بدون ذلك، أو إن كنت من جملة تلك الرسلِ الصادقين الذين عُذّبت أممهم المكذبة لهم.

﴿**ما ننزل الملائكة**﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل، وقرئ[3] من الإنزال، وقرئ[4] تُنَزّل مضارعًا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول، ومن التنزّل

---

(١) سقط في خ. (٢) زاد في خ: آل.

(٣) قرأ بها: ابن محيصن. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤).

(٤) قرأ بها: عاصم، ويحيى بن وثاب، وشعبة.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤)، والبحر المحيط (٥/ ٤٤٦)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣١٩)، والتيسير للداني ص (١٣٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٦٦).

بحذف إحدى التاءين، وماضيًا منه ومن التنزيل ومن الثلاثي، وهو كلامٌ مسوق إلى النبي ﷺ جوابًا لهم عن مقالتهم المَحْكية وردًا لاقتراحهم الباطلِ، ولشدة استدعاءِ ذلك للجواب قُدّم ردُّه على ما هو جوابٌ عن أولها أعني قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ الآية [الحجر: ٩]، كما فُعل في قوله تعالى: ﴿قال إنما يأتيكم به الله﴾ [هود: ٣٣] فإنه مع كونه جوابًا عن قولهم: ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ [هود: ٣٢] قُدّم على قوله: ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الآية [هود: ٣٤]، مع كونه جوابًا عن أول كلامِهم الذي هو قولُهم: ﴿يا نوحُ قد جادلتنا﴾ [هود: ٣٢] لِما ذُكر من شدة اقتضائِه للجواب وليكونَ أحدُ الجوابين متصلًا بالسؤال، وفي العكس يلزَم انفصالُ كلٍّ من الجوابين عن سؤاله، والعدولُ عن تطبيقه لظاهر كلامِهم بصدد الاقتراحِ وهو أن يقال: ما تأتيهم بهم للإيذان بأنهم قد أخطأوا في التعبير حسبما أخطأوا في الاقتراح، وأن الملائكةَ لعلوّ رتبتهم أعلى من أن يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشاملِ للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها، بل من الأسفل إلى الأعلى وأن يكون مقصِدُ حركاتهم أولئك الكفرةَ وأن يدخلوا تحت ملكوتِ أحدٍ من البشر، وإنما الذي يليق بشأنهم النزولُ من مقامهم العالي وكونُ ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل ﴿**إلا بالحق**﴾ أي ملتبسًا بالوجه الذي يحِق ملابسةُ التنزيل به مما تقتضيه الحكمةُ وتجري به السنةُ الإلٰهية كقوله سبحانه: ﴿وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحق﴾ [الحجر: ٨٥] والذي اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هُمْ ومنزلتُهم في الحقارة والهوانِ منزلتُهم، مما لا يكاد يدخل تحت الصِّحة والحِكمة أصلًا، فإن ذلك من باب التنزيلِ بالوحي الذي لا يكاد يُفتح على غير الأنبياء الكرام من أفراد كُمَّلِ المؤمنين، فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام؟ وإنما الذي يدخُل في حقهم تحت الحكمةِ في الجملة هو التنزيلُ للتعذيب والاستئصالِ كما فُعل بأضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة.

﴿**وما كانوا إذًا منظرين**﴾ جزاءُ الشرط مقدّرٌ وفيه إيذانٌ بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبِهم كما في قوله تعالى: ﴿وإذًا لا يلبَثون خلافَك إلا قليلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]. قال صاحب النظم: لفظةُ إذن مركبةٌ من إذ وهو اسمٌ بمعنى الحين، تقول: أتيتُك إذ جئتني أي حين جئتني ثم ضُمّ إليه أنْ فصار إذْ أن ثم استثقلوا الهمزةَ فحذفوها، فمجيءُ لفظة أن دليلٌ على إضمار فعلٍ بعدها والتقدير وما كانوا، إذ أَنْ كان ما طلبوه منظَرين، والمعنى لو نزّلناهم ما كانوا مؤخَّرين كدأب سائرِ الأممِ المكذبة المستهزِئة، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلمُ القضاء بتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما

أُجمل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلههم الأمل﴾ [الحجر: ٣] إلخ، وحال حائلُ الحكمةِ بينهم وبين استئصالِهم لتعلق العلمِ والإرادة بازديادهم عذابًا بإيمان بعضِ ذراريهم، وأما نظمُ إيمانِ بعضهم في سِمْطَ الحكمةِ فيأباه مقامُ بيانِ تماديهم في الكفر والفساد ولَجاجِهم في المكابرة والعِناد، هذا هو الذي يستدعيه إعجازُ التنزيلِ الجليل، وأما ما قيل في تعليل عدمِ موافقةِ التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدّقين عن اضطرار، أو أنه لا حكمةَ في أن تأتيَكم بصور[(١)] تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لَبسًا[(٢)]، أو أن إنزالَ الملائكة لا يكون إلا بالحق وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفارِ أنه لو أنزل إليهم الملائكةَ لبقُوا مُصرّين على كفرهم فيصير إنزالُهم عبثًا[(٣)] باطلًا ولا يكون حقًّا، فمع إخلال كلٍّ من ذلك بقطعية الباقي لا يلزَم من فرض وقوع شيءٍ من ذلك تعجيلُ العذاب الذي يفيده قوله تعالى: ﴿**وما كانوا إذًا منظرين**﴾ هذا على تقدير كونِ اقتراحِهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة، أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم (فا)[(٤)] لمعنى إنا ما نُنزل الملائكةَ للتعذيب إلا تنزيلًا ملتبسًا بالحق الذي تقتضيه الحِكمةُ وتستدعيه المصلحة حتمًا، بحيث لا محيد[(٥)] عنه، ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيلُ ملتبسًا بمقتضى الحِكمة[(٦)] الموجبةِ لتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة، لا رفقًا بهم بل تشديدًا عليهم كما مر من قبل، وحيث كان في نسبة تنزيلِهم للتعذيب إلى عدم موافقتِه الحكمةَ نوعُ إيهامٍ لعدم استحقاقِهم التعذيب عُدِل عما يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظم الكريم، فكأنه قيل: لو نزلناهم ما كانوا منظَرين وذلك غيرُ موافقٍ للحكمة الموجِّهة[(٧)] لتأخير عذابِهم لتشديد عقابِهم، وقيل: المرادُ بالحق الوحيُ، وقيل: العذاب فتدبر.

﴿**إنا نحن نزلنا الذكر**﴾ ردٌّ لإنكارهم التنزيلَ واستهزائِهم برسول الله ﷺ بذلك وتسليةٌ له، أي: [نحن][(٨)] بعِظَم شأنِنا وعلوِّ جنابنا نزلنا ذلك الذكرَ الذي أنكروه وأنكروا نزولَه عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعَمَّوا منزله، حيث بنَوا الفعلَ للمفعول إيماءً إلى أنه أمرٌ لا مصدرَ له وفعلٌ لا فاعلَ له ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ من كل ما لا يليق به، فيدخل فيه تكذيبُهم له واستهزاؤُهم به دخولًا أوليًا فيكون وعيدًا

---

(١) في خ: تصور.
(٢) في خ: كبسًا.
(٣) في خ: غبنًا.
(٤) في خ: و.
(٥) في خ: يحد.
(٦) زاد في خ: وتستدعيه المصلحة.
(٧) في خ: الموجبة.
(٨) سقط في خ.

للمستهزئين، وأما الحفظُ عن مجرد التحريفِ والزيادة والنقصِ وأمثالِها فليس بمقتضى المقام، فالوجهُ الحملُ على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلةِ في حقّيته، ويجوزُ أن يراد[1] حفظُه بالإعجاز دليلًا على التنزيل من عنده تعالى إذ لو كان من عند غير الله لتطرّق[2] عليه الزيادةُ والنقصُ والاختلاف، وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياءِ والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل ما لا يخفى، وفي إيراد الثانيةِ بالجملة الاسمية دلالةٌ على دوام الحفظِ والله سبحانه أعلم، وقيل: الضمير المجرورُ للرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿والله يعصِمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧] وتأخيرُ هذا الكلام وإن كان جوابًا عن أول كلامِهم الباطلِ، وردًا له لما ذكر آنفًا ولارتباطه بما يعقُبه من قوله تعالى:

﴿**ولقد أرسلنا**﴾ أي رسلًا، وإنما لم يُذكر لدلالة ما بعده عليه ﴿**من قبلك**﴾ متعلقٌ بأرسلنا أو بمحذوف[3] هو نعتٌ للمفعول المحذوفِ أي رسلًا كائنةً من قبلك ﴿**في شيع الأولين**﴾ أي فِرَقِهم وأحزابهم[4] جمع شيعة، وهي الفِرقةُ المتّفقة على طريقة ومذهب، من شاعه إذا تبِعه، وإضافتُه إلى الأولين من إضافة الموصوفِ إلى صفته عند الفرّاء، ومن حذف الموصوف عند البصريين أي شيعِ الأممِ الأولين، ومعنى إرسالِهم فيهم جعلُ كل منهم رسولًا فيما بين طائفةٍ منهم ليتابعوه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين ﴿**وما يأتيهم من رسول**﴾ المرادُ نفيُ إتيانِ كل رسولٍ لشيعته الخاصة به لا نفيُ إتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيعِ جميعًا، أو على سبيل البدلِ، وصيغةُ الاستقبال لاستحضار الصورةِ على طريقة [حكايةِ][5] الحالِ الماضية، فإن (ما) لا تدخل في الأغلب على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال، أي ما أتى شيعةً من تلك الشيعِ رسولٌ خاصٌّ بها ﴿**إلا كانوا به يستهزءون**﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرةُ، والجملة في محل النصب على أنها حال مقدّرة من ضمير المفعول في (يأتيهم) إذا كان المرادُ بالإتيان حدوثَه، أو في محل الرفع على أنها صفةُ رسول فإنه محلَّه الرفعُ على الفاعلية[6]، أي إلا رسولٌ كانوا به يستهزئون، وأما الجرُّ على أنها صفةٌ باعتبار لفظِه فيُفضي إلى زيادة (من) الاستغراقيةِ في الإثبات ويجوز أن يكون منصوبًا على الوصفية بأن يقدَّر الموصوفُ منصوبًا على الاستثناء وإن كان المختارُ الرفعَ على البدلية. وهذا كما ترى تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأن

(١) في خ: يرد.
(٢) في خ: الطرق.
(٣) في خ: محذوف.
(٤) في خ: أضرابهم.
(٥) سقط في خ.
(٦) في خ: الحالية.

هذه عادةُ الجهال مع الأنبياء عليهم السلام، وحيث كان الرسولُ مصحوبًا بكتاب من عند الله تعالى تضمّن ذكرُ استهزائِهم بالرسول استهزاءَهم بالكتاب ولذلك قيل: ﴿كذلك﴾ إشارةٌ إلى ما دل عليه الكلام السابقُ من إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء، [أي][(١)] مثلَ ذلك السَّلْكِ الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاءوا به من الكتب ﴿نسلكه﴾ أي الذكرَ ﴿في قلوب المجرمين﴾ أي أهل مكةَ أو جنس المجرمين، فيدخلون فيه دخولًا أوليًا، ومحلُّه النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أو حالٌ منه، أي نسلكه سَلْكًا مثلَ السلك أو نسلك السَّلْكَ حال كونِه مثلَه أي مقرونًا بالاستهزاء، غيرَ مقبول لما تقتضيه الحكمةُ فإنهم من أهل الخِذلان ليس لهم استحقاقٌ لقبول الحقِّ، وصيغةُ المضارع لكون المشبَّه به مقدمًا في الوجود[(٢)] وهو السِّلك الواقعُ في الأمم السالفة، أو للدلالة على استحضار الصورةِ، والسَّلْكُ إدخالُ الشيء في آخرَ، يقال: سَلكتُ الخيطَ في الإبرة والرمحَ في المطعون ﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالذكر، حالٌ من ضمير نسلكه أي غيرَ مؤمَنٍ به، أو بيانٌ للجملة السابقة فلا محل لها، وقد جُعل الضميرُ للاستهزاء فيتعين البيانيةُ إلا أن يُجعل الضميرُ المجرورُ أيضًا له، على أن الباء للملابسة أي نسلك الاستهزاءَ في قلوبهم حالَ كونِهم غيرَ مؤمنين بملابسته، والحالُ إما مقدّرةٌ أو مقارنة للإيذان بأن كفرَهم مقارِنٌ للإلقاء كما في قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرَفوا كفروا به﴾ [البقرة، الآية ٨٩] ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أي قد مضت طريقتهم التي سنها الله تعالى في إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاءِ، وهو استئنافٌ جيء به تكملةً للتسلية وتصريحًا بالوعيد والتهديد.

﴿ولو فتحنا عليهم﴾ أي على هؤلاء المقترِحين المعاندين ﴿بابًا من السماء﴾ أي بابًا ما، لا بابًا من أبوابها المعهودة [كما قيل][(٣)]، ويسرنا لهم الرُّقيَّ والصعودَ إليه ﴿فظلوا فيه﴾ في ذلك الباب ﴿يعرجون﴾ بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عِيانًا كما يفيده الظلول، أو فظل الملائكةُ الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون في ذلك

---

(١) سقط في خ.

(٢) يشير الشيخ إلى أن في الآية استعارة أي مثل السلك الذي سنصفه نسلك الذكر في قلوب المجرمين أي هكذا نولج القرآن في عقول المشركين، فإنهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم ويدركون خصائصه، وجملة ﴿لا يؤمنون به﴾ بيان للسلك المشبه به أو حال من المجرمين أي تعيه عقولهم ولا يؤمنون به.
ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٤/ ٢٤، ٢٥).

(٣) سقط في خ.

الباب وهم يرَونه عيانًا مستوضحين طولَ نهارهم ﴿لقالوا﴾ لفرط عنادِهم وغلوِّهم في المكابرة وتفاديهم عن قَبول الحق ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ أي سُدّت من الإحساس من السُكر كما يدل عليه القراءةُ بالتخفيف[١]، أو حُيِّرت كما يعضُده قراءة[٢] من قرأ (سكرت) أي حارت.

﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ قد سحَرنا محمدﷺ كما قالوه عند ظهورِ سائرِ الآياتِ الباهرة، وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالةٌ على أنهم يبتون[٣] القولَ بذلك، وأن[٤] ما يرَونه لا حقيقةَ له وإنما هو أمر خُيِّل إليهم بالسحر، وفي اسميةِ الجملة الثانيةِ دَلالةٌ على دوام مضمونِها، وإيرادُها بعد تسكير الأبصارِ لبيان إنكارِهم لغير ما يرونه بعيونهم، فإن[٥] عروجَ كل منهم [إلى السماء][٦] وإن كان مرئيًّا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدانِ مع قطع النظرِ عن الإبصار، فهم يدعون أن ذلك نوعٌ آخرُ من السحر غيرُ تسكير الأبصار.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

من دلائل عظمة الله

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجًا﴾ قصورًا ينزلها السيارات، وهي البروجُ الاثنا عشر المشهورةُ[٧] المختلفةُ الهيئاتِ والخواصِّ حسبما يدل عليه الرصْدُ والتجرِبة مع [ما][٨] اتفق عليه [الجمهور من بساطة][٩] السماء، والجعلُ إن جُعل بمعنى الخلق

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، والحسن، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ٤٤٨)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٢٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٢٩).

(٢) قرأ بها: الزهري.
ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٢٩).

(٣) في خ: يقون.

(٤) في خ: وأنهم.

(٥) في خ: وإنما.

(٦) سقط في خ.

(٧) في خ: المشهورات.

(٨) سقط في خ.

(٩) في خ: من سباط.

والإبداع، وهو الظاهرُ، فالجار متعلقٌ به، وإن جعل بمعنى التصيير فهو مفعولٌ ثانٍ له متعلقٌ بمحذوف أي جعلنا بروجًا كائنة في السماء ﴿وزيناها﴾ أي السماء بتلك البروجِ المختلفةِ الأشكال والكواكب سياراتٍ كانت أو ثوابتَ ﴿للناظرين﴾ إليها، فمعنى التزيينِ ظاهرٌ، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدّرها وحكمةِ مدبرّها، فتزيينُها بترتيبها على نظام بديع مستتبعٍ للآثار الحسنة.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ مَرْميٍّ[1] بالنجوم فلا يقدر أن يصعَدَ إليها ويوسوسَ في أهلها ويتصرّفَ فيها ويقفَ على أحوالها ﴿إلا من استرق السمع﴾ محلُّه النصبُ على الاستثناء المتصل إنْ فسّر الحِفظُ بمنع الشياطين عن التعرّضِ لها على الإطلاق والوقوفِ على ما فيها في الجملة، أو المنقطع إن فُسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها. عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما وُلد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سموات، ولما ولد النبي ﷺ مُنِعوا من السموات كلِّها»[2]، واستراقُ السمعِ اختلاسُه سرًّا، شُبّه به خَطفتُهم اليسيرةُ من قُطّان السمواتِ بما بينهم من المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال من الأوضاع ﴿فأتبعه﴾ أي تبعه ولحِقه ﴿شهاب﴾ لهبٌ محرق وهو شعلةُ نارٍ ساطعةٌ، وقد يطلق[3] على الكواكب والسِّنان لما فيهما من البريق ﴿مبين﴾ ظاهرٌ أمرُه للمبصرين. قال معمر: قلت لابن شهاب الزهري: أكان يرمىٰ بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، وإن النجم ينقضّ ويُرمىٰ به الشيطانُ فيقتلُه أو يخبِلُه لئلا يعود إلى استراق السمع، ثم يعود إلى مكانه، قال: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وأنا كنا نقعُد منها مقاعدَ للسمع﴾ الآية [الجن، الآية ٩]، قال: غُلّظت وشُدّد أمرُها حين بعث رسولُ الله ﷺ. قال ابن قتيبة: إن الرجمَ كان قبل مبعثِه عليه الصلاة والسلام، ولكن لم يكن في شدة الحِراسة كما بعدَ مبعثِه عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الشياطينَ يركَبُ بعضُهم بعضًا إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ من الملائكة، فيُرمَون بالكواكب فلا يخطِئ أبدًا، فمنهم من يُحرق وجهُه وجنبُه ويدُه حيث يشاء الله تعالى، ومنهم من يخبِلُه فيصير غُولًا فيُضل الناس في البوادي[4]. قال القرطبي: اختلفوا في

(١) في خ: ترمي.
(٢) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٥٣٧).
(٣) في خ: تطلق.
(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/ ٤٦).

أن الشهاب هل يقتُل أم لا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يجرَح ويحرِق ويخبِلُ ولا يقتُل، وقال الحسن وطائفةٌ: يقتل، قال: والأول أصح[١].

﴿والأرض مددناها﴾ بسطناها، وهو بالنصب على الحذف على شريطة[٢] التفسير، ولم يُقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية، أعني قوله تعالى: ﴿ولقد جعلنا﴾ إلخ، وليوافِقَ ما بعده، أعني قوله تعالى: ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ أي جبالًا ثوابتَ، وقد مر بيانه في أول الرعد ﴿وأنبتنا فيها﴾ أي في الأرض أو فيها وفي رواسيها ﴿من كل شيء موزون﴾ بميزان الحِكمة ذاتًا وصفةً ومقدارًا، وقيل: ما يوزن من الذهب والفضة وغيرِهما أو من كل شيءٍ مستحسَنٍ مناسب، [أو][٣] ما يوزن ويُقدَّر من أبواب النعمة ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ ما تعيشون به من المطاعم والملابسِ وغيرِهما مما يتعلق به البقاءُ، وهي بياء[٤] صريحة، وقرئ[٥] بالهمزة تشبيهًا له بالشمائل ﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش أو على محل لكم، كأنه قيل: جعلنا لكم معايشَ وجعلنا لكم مَنْ لستم برازقيه من العِيال والمماليك والخدَم والدوابِّ وما أشبهها على طريقة التغليب، وذِكرُهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يَكْفون مؤوناتِهم، ولتحقيق أن الله تعالى هو الذي يرزقهم وإياهم، أو وجعلنا لكم فيها معايشَ ولمن لستم له برازقين.

﴿وإن من شيء﴾ إن للنفي ومن مزيدة للتأكيد وشيءٍ في محل الرفع على الابتداء، أي ما من شيء من الأشياء الممكنةِ، فيدخُل فيه ما ذكر دخولًا أوليًا ﴿إلا عندنا خزائنه﴾ الظرفُ خبرٌ للمبتدأ، وخزائنُه مرتفعٌ به على أنه فاعله لاعتماده، أو خبر له، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والخزائنُ جمع الخِزانة وهي ما يحفظ فيه نفائسُ الأموال لا غيرُ، غلَب في العرف على ما للملوك والسلاطينِ من خزائن أرزاقِ الناس، شُبِّهت مقدوراتُه تعالى الفائتةُ للحصر[٦] المندرجةُ تحت قدرتِه الشاملة في

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ١١).
(٢) في خ: شرطية.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ.
(٥) قرأ بها: نافع، وخارجة، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٩).
(٦) نعم الخزائن تمثيل لصلاحية القدرة على نهج الاستعارة التمثيلية، فقد شبه هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريق التمثيلية المكانية ورمز إلى الهيئة المشبه بها بما هو من لوازمها وهو الخزائن، وشمل ذلك الأشياء المتفرقة في العالم التي تصل إلى الناس بدوافع وأسباب تتسبب في أحوال مخصوصة، أو بتركيب شيء مع شيء مثل نزول البرد من السحاب وانفجار العيون من الأرض بقصد أو على وجه المصادفة، وذكر الكرخي: أن الخزائن تمثيل لكمال =

كونها مستورةً عن علوم العالمين ومصونةً عن وصول أيديهم مع [كمال][(١)] افتقارِهم إليها ورغبتِهم فيها، وكونِها [مهيأةً][(٢)] متأتّيةً لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلقت الإرادةُ بوجودها وُجدت بلا تأخر بنفائس الأموالِ المخزونةِ في الخزائن السلطانيةِ فذكرُ الخزائن على طريقة الاستعارةِ التخييلية ﴿وما ننزله﴾ أي ما نُوجِد وما نكوّن شيئًا من تلك الأشياء ملتبسًا بشيء من الأشياء ﴿إلا بقدر معلوم﴾ أي إلا ملتبسًا بمقدار معينٍ تقتضيه الحِكمةُ وتستدعيه المشيئةُ التابعة لها، لا بما تقتضيه القدرةُ فإن ذلك غيرُ متناهٍ، فإن تخصيصَ كل شيء بصفة معينةٍ وقدرٍ معين ووقتٍ محدود دون ما عدا ذلك، مع استواء الكلِّ في الإمكان واستحقاقِ تعلّقِ القدرة به، لا بد له من حكمة تقتضي اختصاصَ كلٍّ من ذلك بما اختص به، وهذا البيانُ سرُّ عدمِ تكوينِ الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في خزائن القدرة، وهو إما عطفٌ على مقدر أي ننزله وما ننزله... [إلخ، أو حالٌ مما سبق أي عندنا خزائنُ كل شيءٍ، والحال أنا ما ننزِّله][(٣)] إلا بقدر معلوم، فالأول لبيان سعةِ القدرةِ والثاني لبيان بالغِ الحِكمة، وحيث كان إنشاءُ ذلك بطريق التفضّل من العالم العلويِّ إلى العالم السفلي كما في قوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواج﴾ [الزمر: ٦] وكان ذلك بطريق التدريج عبّر عنه بالتنزيل، وصيغةُ المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وأرسلنا الرياح﴾ عطفٌ على ﴿جعلنا لكم فيها معايشَ﴾، وما بينها اعتراضٌ لتحقيق ما سبق وترشيحِ ما لحِق أي أرسلنا الرياح ﴿لواقحَ﴾ أي حواملَ، شُبّهت الريحُ التي تجيء بالخير من إنشاء سحابٍ ماطرٍ بالحامل كما شُبّه بالعقيم ما لا يكون كذلك، أو ملقِّحاتٍ بالشجر والسحابِ، ونظيره الطوائحُ بمعنى المُطيحات في قوله: [الطويل]

= قدرته، شبه قدرته على كل شيء بالخزائن المودعة منها الأشياء المعدة لإخراج كل شيء بحسب ما اقتضته حكمته تعالى، وقد ذكر أبو حيان أن الخزائن وهي ما يحفظ فيه الأشياء مستعارة من المحسوس الذي هو الجسم إلى المعقول. وقال قوم: المراد بالخزائن حقيقة، وهي التي تحفظ فيها الأشياء، وأن للريح مكانًا وللمطر مكانًا ولكل مكان ملك وحفظة، فإذا أمر الله بإخراج شيء منه أخرجته الحفظة، وعليه فلا تمثيل في الآية.

ينظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥١)، والكشاف (٢/ ٣٨٩)، والفتوحات الإلهية للشيخ الجمل (٢/ ٥٤٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٣/ ١٤٣) وما بعدها.

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.

.... ومختبطٌ مما تُطيح الطوائحُ[١]

أي المهلِكات[٢]، وقرئ[٣] وأرسلنا الريحَ على إرادة الجنس ﴿**فأنزلنا من السماء**﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياحِ سحابًا ماطرًا ﴿**ماء فأسقيناكموه**﴾ أي جعلناه لكم سُقيًا وهو أبلغُ من سقيناكموه، لما فيه من الدِلالة على جعل الماءِ معدًا لهم ينتفعون به متى شاءوا ﴿**وما أنتم له بخازنين**﴾ نفىٰ عنهم ما أثبته لجنابه بقوله: ﴿**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**﴾ كأنه قيل: نحن القادرون على إيجاده وخزْنِه في السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين، وقيل: ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه في الغُدران والآبارِ والعيون، بل نحن نخزنُه فيها لنجعلَها سقيًا لكم مع أن طبيعةَ الماء تقتضي الغَوْر.

﴿**وإنا لنحن نحيي**﴾ بإيجاد الحياةِ في بعض الأجسام القابلةِ لها ﴿**ونميت**﴾ بإزالتها عنها، وقد يُعمِّم الإحياءُ والإماتة لما يشمل الحيوانَ والنباتَ، وتقديمُ الضميرِ للحصر، وهو إما تأكيدٌ للأول أو مبتدأٌ خبرُه الفعلُ، والجملةُ خبرٌ لإنا، ولا يجوز كونُه ضميرَ الفصل لا لأن اللام مانعةٌ من ذلك كما قيل، فإن النحاة جوزوا دخولَ لام التأكيدِ على ضمير الفصل كما في قوله تعالى: ﴿إن هذا لهو القصصُ الحقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] بل لأنه لم يقع بين اسمين ﴿**ونحن الوارثون**﴾ أي الباقون بعد فناءِ

---

(١) عجز بيت وصدره:

لِيُبْكَ يزيد ضارع لخصومةٍ ....

والبيت للحارث بن نهيك في خزانة الأدب (١/ ٣٠٣)، وشرح شواهد الإيضاح ص(٩٤)، وشرح المفصل (١/ ٨٠)، والكتاب (١/ ٢٨٨)، وللبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه ص (٣٦٢)، ولنهشل ابن حري في خزانة الأدب (١/ ٣٠٣)، ولضرار بن نهشل في الدرر (٢/ ٢٨٦)، ومعاهد التنصيص (١/ ٢٠٢)، وللحارث بن ضرار في شرح أبيات سيبويه (١/ ١١٠)، ولنهشل، أو للحارث، أو لضرار، أو لمزرد بن ضرار، أو للمهلهل في المقاصد النحوية (٢/ ٤٥٤)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٤٥)، (٧/ ٢٤)، وأمالي ابن الحاجب ص (٤٤٧، ٧٨٩)، وأوضح المسالك (٢/ ٩٣)، وتخليص الشواهد ص (٤٧٨)، وخزانة الأدب (٨/ ١٣٩)، والخصائص (٢/ ٣٥٣، ٤٢٤)، وشرح الأشموني (١/ ١٧١)، وشرح المفصل (١/ ٨٠)، والشعر والشعراء ص (١٠٥، ١٠٦)، والكتاب (١/ ٣٦٦، ٣٩٨)، ولسان العرب (طوح)، والمحتسب (١/ ٢٣٠)، ومغني اللبيب ص (٦٢٠)، والمقتضب (٣/ ٢٨٢)، وهمع الهوامع (١/ ١٦٠).

(٢) في خ: الهلكات.

(٣) قرأ بها: حمزة، وخلف، وطلحة، ويحيى بن وثاب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥١)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨٩).

الخلقِ قاطبةً، المالكون للملك عند انقضاءِ زمان المُلك المجازيِّ، الحاكمون[١] الكلَّ أولًا وآخرًا، وليس لهم إلا التصرفُ الصُّوريُّ والملكُ المجازي، وفيه تنبيهٌ على أن المتأخّرَ ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ مَنْ تقدّم منكم ولادةً وموتًا ﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾ من تأخر ولادةً وموتًا أو من خرج من أصلاب الآباءِ ومن لم يخرُجْ بعدُ، أو مَنْ تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر في ذلك، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم، وهو بيانٌ لكمال علمِه بعد الاحتجاج على كمال قدرتِه، فإن ما يدل عليها دليلٌ عليه، وفي تكرير قوله تعالى: ﴿ولقد علمنا﴾ ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيدِ، وقيل: رغّب رسول الله ﷺ في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت، وقيل: إن امرأةً حسناءَ كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فتقدم بعضُ الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليرَوْها فنزلت، والأول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى:

﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ أي للجزاء، وتوسيطُ ضميرِ العظمةِ للدلالة على أنه هو القادرُ على حشرهم والمتولّي له لا غيرُ، لأنهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه[٢] ويقولون: مَنْ يحيي العظامَ وهي رميم، أي هو يحشرهم لا غير، وفي الالتفات والتعرض لعنوان الربوبيةِ إشعارٌ بعلة الحكم، وفي الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دَلالةٌ على اللطف به عليه الصلاة والسلام ﴿إنه حكيم﴾ بالغُ الحكمة متقِنٌ في أفعاله، فإنها عبارةٌ عن العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والإتيانِ بالأفعال على ما ينبغي ﴿عليم﴾ وسِع علمُه كل شيء، ولعل تقديمَ صفةِ الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ

(١) زاد في خ: في.
(٢) في خ: وينكرونه.

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

خلق آدم وحسد إبليس

﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ أي هذا النوعَ بأن خلقنا أصلَه وأول فرد من أفراده خلقًا بديعًا منطويًا على خلق سائرِ أفرادِه انطواء إجماليًا كما مر تحقيقُه في سورة الأنعام ﴿من صلصال﴾ من طين يابسٍ غيرِ مطبوخ، يُصلصل أي يصوّت عند نقرِه، قيل[١]: إذا توهّمْتَ في صوته مدًّا فهو صليلٌ، وإن توهمت فيه ترجيعًا فهو صلصلةٌ، وقيل: هو تضعيفُ صلَّ إذا أنتن ﴿من حمإ﴾ [من طين][٢] تغيّر [واسودّ][٣] بطول مجاورةِ الماء، وهو[٤] صفةٌ لصلصال، أي صلصالٍ كائنٍ من حمإ ﴿مسنون﴾ أي مصوَّرٍ، من سنة الوجه وهي صورتُه، أو مصبوبٍ، من سنّ الماءَ صبّه أي مفرَّغ على هيئة الإنسان كما تُفرَّغ الصورُ من الجواهر المذابة في القوالب، وقيل: منتِنٌ فهو صفةٌ لهما، وعلى الأولين حقُّه أن يكون صفةً لصلصال وإنما أُخّر عن حمأ تنبيهًا على أن ابتداءَ مسنونيّتِه ليس في حال كونِه صلصالًا، بل في حال كونِه حَمأً، كأنه سبحانه أفرغَ الحَمأَ فصوّر من ذلك تمثالَ إنسانٍ أجوفَ فيبِس حتى إذا نُقر صوَّتَ ثم غيّره إلى جوهر آخرَ فتبارك الله أحسنُ الخالقين ﴿والجانَّ﴾ أبا الجنِّ، وقيل: إبليس، ويجوز أن يُراد به الجنسُ كما هو الظاهرُ من الإنسان لأن تشعّب الجنس لمّا[٥] كان من فرد واحد مخلوقٍ من مادة واحدة كان الجنسُ بأسره مخلوقًا منها، وقرئ[٦] بالهمزة وانتصابُه بفعل يفسره ﴿خلقناه﴾ وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية ﴿من قبل﴾ من قبل خلقِ الإنسان، ومن هذا يظهر جوازُ كونِ المراد بالمستقدِمين أحدَ الثقلين وبالمستأخِرين الآخرَ، والخطابُ بقوله: منكم للكل ﴿من نار السَّموم﴾ من نار الحرِّ الشديد النافذ

---

(١) في خ: قل.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: هي.
(٥) في خ: كما.
(٦) قرأ بها: الحسن، وعمرو بن عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٩٤)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٠).

في المَسامّ، ولا امتناعَ من[١] خلق الحياة في الأجرام البسيطةِ كما لا امتناعَ من خلقها في الجواهر المجرَّدة، فضلًا عن الأجساد المؤلفة التي غالبُ أجزائِها الجزءُ الناريُّ، فإنها أقبلُ لها من التي غالبُ أجزائِها الجزءُ الأرضيُّ، وقوله تعالى: ﴿من نار﴾ باعتبار الغالبِ كقوله تعالى: ﴿خلقكم من تراب﴾ [الروم، الآية ٢٠] ومساقُ الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرةِ الله تعالى وبيانِ بدءِ خلقِ الثقلين، فهو للتنبيه على المقدمة[٢] الثانية التي يتوقّفُ عليها إمكانُ الحشرِ وهو قَبولُ الموادِّ للجمع والإحياء.

﴿**وإذ قال ربك**﴾ نُصب بإضمار اذكُر، وتذكيرُ الوقت لما مر مرارًا من أنه أدخلُ في تذكير ما وقع فيه من الحوادث، وفي التعرّض لوصف الربوبيةِ المُنبئةِ عن تبليغ الشيءِ إلى كماله اللائقِ به شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعارٌ بعلة الحكم وتشريفٌ له عليه الصلاة والسلام، أي اذكرْ وقتَ قولِه تعالى ﴿**للملائكة إني خالق**﴾ فيما سيأتي، وفيه ما ليس في صيغة المضارعِ من الدلالة على أنه تعالى فاعلٌ له ألبتةَ من غير صارفٍ [يَثنيه ولا][٣] عاطفٍ يَلويه ﴿**بشرًا**﴾ أي إنسانًا، قيل: ليس هذا عينَ العبارةِ الجارية وقتَ الخطاب، بل الظاهرُ أن يكون قد قيل لهم: إني خالقٌ خلقًا من صفته كيتَ وكيت، ولكن اقتُصر عند الحكايةِ على الاسم، وقيل: جسمًا كثيفًا يلاقي ويباشر، وقيل: خلقًا باديَ البشَرِ بلا صوف[٤] ولا شعر ﴿**من صلصال**﴾ متعلقٌ بخالقٌ أو بمحذوف وقع صفةً لمفعوله أي بشرًا كائنًا من صلصال كائنٍ ﴿**من حمإ مسنون**﴾ تقدم تفسيرُه، ولا ينافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص من قوله: ﴿بشرًا من طين﴾ فإن عدمَ التعرضِ عند الحكاية لوصف الطينِ من التغيُّر [والاسودادِ][٥] ولِما ورد عليه من آثار التكوين، لا يستلزم عدمَ التعرض لذلك عند وقوع المحْكيِّ، غايته أنه لم يتعرضْ له هناك اكتفاءً بما شرح هاهنا ﴿**فإذا سويته**﴾ أي صوّرتُه بالصورة الإنسانية والخِلْقة البشرية أو سويتُ أجزاءَ بدنه بتعديل طبائعِه ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ النفخُ إجراءُ الريح إلى[٦] تجويف جسم صالحٍ لإمساكها والامتلاء بها، وليس ثمة نفخٌ ولا منفوخٌ وإنما هو تمثيلٌ لإفاضة ما به الحياةُ[٧] بالفعل على المادة القابلةِ لها، أي فإذا كمّلتُ استعداده وأفضتُ عليه ما

---

(١) في خ: في.
(٢) في خ: المتقدمة.
(٣) في خ: يتغيه يلويه.
(٤) في خ: صوت.
(٥) في خ: والأسود.
(٦) في خ: على.
(٧) يشير إلى أنه استعارة تمثيلية وذلك لأن النفخ: حقيقته إخراج الهواء مضغوطًا بين الشفتين مضمومتين =

يحيا به من الروح التي هي من أمري ﴿فقعوا له﴾ أمرٌ من وقع يقع، وفيه دليلٌ على أنْ ليس المأمورُ به مجردَ الانحناءِ كما قيل، أي اسقُطوا له ﴿ساجدين﴾ تحية له وتعظيمًا، أو اسجُدوا لله تعالى على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القِبلة حيث ظهر فيه تعاجيبُ آثار قدرتِه تعالى وحكمتِه، كقول حسان رضي الله عنه: [البسيط]

أليس أولَ مَنْ صلى لقبلتكم وأعلمَ الناس بالقرآن والسننِ[(١)]

﴿فسجد الملائكة﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكةُ ﴿كلهم﴾ بحيث لم يشِذّ منهم أحد ﴿أجمعون﴾ بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد، ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيدُ أيضًا، فإن الاشتقاقَ الواضحَ يرشد إلى أن فيه معنى الجمعِ والمعيةِ بحسب الوضع، والأصلُ في الخطاب التنزيلُ على أكمل أحوالِ الشيء، ولا ريب في أن السجودَ معًا أكملُ أصنافِ السجود، لكنْ شاع استعمالُه تأكيدًا وأقيم مُقامَ كلٍّ في إفادة معنى الإحاطةِ من غير نظر إلى الكمال، فإذا فهمتَ[(٢)] الإحاطة من لفظ آخرَ لم يكن بدٌّ من مراعاة الأصل صونًا للكلام عن الإلغاء، وقيل: أُكّد بتأكيدين مبالغةً في التعميم. هذا وأما سجودهم هذا هل ترتب على ما حُكي من الأمر التعليقيّ كما تقتضيه هذه الآيةُ الكريمة والتي في سورة ص، أو على الأمر التنجيزيِّ كما يستدعيه ما في غيرهما فقد خرَجنا بفضل الله عز وجل عن عُهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة ﴿إلا إبليس﴾ استثناءٌ **متصل** إما لأنه كان جنّيًا مفردًا مغمورًا بألوف من الملائكة فعُدّ منهم تغليبًا، وإما لأن من الملائكة جنسًا يتوالدون وهو منهم، وقوله تعالى: ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء، فإن مطلقَ عدم السجودِ قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الإباء والاستكبار، أو **منقطع** فيتصل به ما بعده، أي لكنْ إبليسُ أبى أن يكون معهم، وفيه دَلالةٌ على كمال ركاكةِ رأيه حيث أَدمج في معصية واحدة ثلاثَ معاصٍ: **مخالفةَ** الأمر **والاستكبارَ** مع تحقير آدمَ عليه الصلاة

= كالصفير. واستعير هنا لوضع قوة لطيفة السريان قوية التأثير دفعة واحدة. ولكن ما يدرينا بعالم الغيب لعل هناك نفخًا بهيئة لا نعلمها فالله أعلم.
ينظر في الاستعارة التمثيلية: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، وأسرار البلاغة للخفاجي (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٢١)، ودلائل الإعجاز (١٠٧)، والمطول (٣٠٦)، والتحرير والتنوير (١٤/ ٤٤).

(١) ينظر: التفسير الكبير للرازي (٢/ ١٩٥)، والتفسير البيضاوي (١/ ٢٩٣)، وروح المعاني (١/ ٢٢٩).

(٢) في خ: أقيمت.

والسلام **ومفارقةَ** الجماعة والإباءِ عن الانتظام في سلك أولئك المقربين الكرام.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال مَنْ قال: فماذا قال تعالى عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿**يا إبليس ما لك**﴾ أي أيُّ سبب لك، لا[1] أيُّ غرضٍ لك كما قيل لقوله تعالى: ما منعك ﴿**ألا تكون**﴾ في ألا تكون ﴿**مع الساجدين**﴾ لآدم مع أنهم هم ومنزلتُهم في الشرف منزلتُهم، وما كان التوبيخُ عند وقوعِه لمجرد تخلّفه عنهم بل لكلٍّ من المعاصي الثلاثِ المذكورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قال ما منعك ألا تسجُدَ إذ أمرتُك﴾ [الأعراف: ١٢] وفي سورة ص: ﴿قال يا إبليسُ ما منعك أن تسجُدَ لما خلقْتُ بيديَّ﴾ [ص: ٧٥] ولكن اقتُصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاءً بما ذكر في موطن آخرَ، وإشعارًا بأن كل واحدةٍ من تلك المعاصي الثلاث كافيةٌ في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه، وقد تُركت حكايةُ التوبيخ رأسًا في سورة البقرة وسورةِ بني إسرائيلَ وسورةِ الكهف وسورة طه.

﴿**قال**﴾ أي إبليسُ، وهو أيضًا استئنافٌ مبني على السؤال الذي ينساق إليه الكلام ﴿**لم أكن لأسجد**﴾ اللام لتأكيد النفي، أي ينافي حالي ولا يستقيم مني لأني مخلوقٌ من أشرف العناصرِ وأعلاها أن أسجد ﴿**لبشر**﴾ أي جسم كثيف ﴿**خلقته من صلصال من حمأ مسنون**﴾ اقتُصر هاهنا على الإشارة الإجمالية إلى ادّعاء الخيريةِ وشرفِ المادة اكتفاءً بما صرّح به حين قال: أنا خيرٌ منه خلقتَني من نار وخلقتَه من طين، ولم يكتف اللعينُ بمجرد ذكر كونِه عليه الصلاة والسلام من التراب الذي هو أخسُّ العناصر وأسفلُها، بل تعرّض لكونه مخلوقًا منه في أخس أحوالِه من كونه طينًا متغيِّرًا، وقد اكتُفي في سورة الأعرافِ وسورة ص بما حُكي عنه هاهنا فاقتُصِر على حكاية تعرّضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين، وكذا في سورة بني إسرائيلَ حيث قيل: ﴿أأسجُد لمن خلقت طينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وفي جوابه دليلٌ على أن قوله تعالى: ﴿ما لك﴾ ليس استفسارًا عن الغرض بل هو استفسارٌ عن السبب، وفي عدوله عن تطبيق جوابِه على السؤال رَوْمٌ للتفصّي[2] عن المناقشة وأنى له ذلك، كأنه قال: لم أمتنِعْ عن امتثال الأمرِ ولا عن الانتظام في سلك الملائكةِ، بل عما لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول، ولقد جرى، خذله الله تعالى، على سَنن قياسٍ عقيم وزلّ عنه أن ما يدور عليه فَلكُ الفضل والكمالِ هو التحلّي بالمعارف الربانية والتخلّي عن الملكات الرّديّة،

---

(١) في خ: و.

(٢) تفصَّى: (بالفاء الموحدة) من الشيء وعنه: تخلَّص منه.

التي أقبحُها التكبرُ والاستعصاءُ على أمر ربِّ العالمين جل جلاله.

﴿قال فاخرج منها﴾ أي من زُمرة الملائكةِ المعزّزين لا من السماء، فإن وسوسته لآدمَ عليه الصلاة والسلام في الجنة إنما كانت بعد هذا الطرد، وقوله تعالى: ﴿فاهبِطْ منها﴾ [الأعراف: ١٣] ليس نصًّا في ذلك، فإن الخروجَ من بين الملإ الأعلى هبوطٌ وأيُّ هبوط، أو من الجنة على أن وسوستَه كانت بطريق النداءِ من بابها كما رُوي عن الحسن البصْري، أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسّل إليه بالحيّة كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا ينافي هذا طردَه على رؤوس الأشهاد لما يقتضيه من الحِكَم البالغة ﴿فإنك رجيم﴾ مطرودٌ من كل خير وكرامةٍ، فإن من يُطرَدْ يُرجَمْ بالحجارة، أو شيطان يُرجَمُ بالشهب وهو وعيدٌ يتضمن الجوابَ عن شبهته، فإن مَن عارض النصَّ بالقياس فهو رجيم ملعون.

﴿وإن عليك اللعنة﴾ الإبعادَ عن الرحمة، وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وإن كان جاريًا على ألسنة العبادِ، قيل: في سورة ص ﴿وإن عليك لعنتي﴾ [ص: ٧٨] ﴿إلى يوم الدين﴾ إلى يوم الجزاء والعقوبةِ، وفيه إشعارٌ بتأخير عقابِه وجزائِه إليه، وأن اللعنة مع كمال فظاعتِها ليست جزاءً لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ، وفيه من التهويل ما لا يوصف، وجعلُ ذلك [أقصى أمدِ][1] اللعنة ليس لأنها[2] تنقطع هنالك، بل لأنه عند ذلك يعذَّب بما يَنسى به اللعنة من أفانين العذابِ، فتصير هي كالزائل. وقيل: إنما حدت[3] به لأنه أبعدُ غاية يُضَرّ بها الناسُ كقوله تعالى: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ [هود: ١٠٧] وحيث أمكن [كونُ][4] تأخير العقوبةِ مع الموت كسائر من أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة من الكفرة، طلب اللعينُ تأخيرَ موتِه كما حُكي عنه بقوله تعالى: ﴿قال ربِّ فأنظرني﴾ أي أمهلني وأخِّرْني ولا تُمِتْني، والفاء متعلقٌ بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي إذْ جعلتني رجيمًا فأمهلني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي آدمُ وذريتُه للجزاء بعد فنائِهم، وأراد بذلك أن يجد فُسحة لإغوائهم ويأخذَ منهم ثأرَه وينجوَ من الموت لاستحالته بعد يوم البعث.

﴿قال فإنك من المنظرين﴾ ورودُ الجوابِ بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يُؤذِنُ بكون السائلِ تبعًا لهم في ذلك، دليلٌ على أنه إخبارٌ بالإنظار المقدر لهم أزلًا، لا إنشاءٌ لإنظار خاصٍّ به وقع إجابةً لدعائه، أي إنك من

---

(١) في خ: أفضى أمر.
(٢) زاد في خ: لا.
(٣) في خ: حدث.
(٤) سقط في خ.

جملة الذين أُخّرت آجالُهم أزلًا حسبما تقتضيه حكمةُ التكوين، فالفاءُ ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار بل لربط الإخبارِ المذكور به، كما في قوله: [الوافر]

فـإن تـرحـم فـأنـت لـذاك أهـل ....[1]

فإنه لا إمكان لجعل الفاءِ فيه لربط ما فيه تعالى من الأهلية القديمةِ للرحمة بوقوع الرحمةِ الحادثة، بل هي لربط الإخبار بتلك الأهليةِ للرحمة بوقوعها، وأن استنظاره كان طلبًا لتأخير الموتِ إذ به يتحقق كونُه من جملتهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل، ونظمه في ذلك في سلك من أُخِّرت عقوبتُهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحِق من الثقلين لا يلائم مقامَ الاستنظار مع الحياة، ولأن ذلك التأخيرَ معلومٌ من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث كما عرفته، وفي سورة الأعراف: ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾ [الأعراف: ١٤ و١٥] بترك التوقيتِ والنداءِ، والفاء في الاستنظار والإنظارِ تعويلًا على ما ذكر هاهنا، وفي سورة ص، فإن إيراد كلامٍ واحد على أساليبَ متعددةٍ غيرُ عزيزٍ في الكتاب العزيز، وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لا بد أن يكون له مقامٌ يقتضيه مغايرٌ لمقام غيره، وأن ما حُكي من اللعين إنما صدر عنه مرة ولذا جوابُه لم يقع إلا دَفعةً، فمقامُ المجاورة إن اقتضى أحدَ الأساليبِ المذكورة فهو المطابقُ لمقتضى الحال والبالغُ إلى طبقة الإعجاز وما عداه قاصرٌ عن رتبة البلاغة فضلًا عن الارتقاء إلى معالم الإعجازِ، فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الأعراف.

﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وهو وقتُ النفخة الأولى التي علم أنه يَصْعَق عندها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله تعالى، ويجوز أن يكون المرادُ بالأيام واحدًا، والاختلافُ في العبارات لاختلاف الاعتباراتِ، فالتعبيرُ بيوم البعث لأن غرض اللعين يتحقق، وبيوم الدين لما ذُكر من الجزاء، وبيوم الوقت المعلومِ لما ذُكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلاًّ من هلاك الخلق جميعًا وبعثهم وجزائِهم في يوم واحد، يموت اللعينُ في أوله ويُبعث في أواسطه ويعاقب في بقيته. يُروى أن بين موتِه وبعثه أربعين سنةً من سِني الدنيا مقدارَ ما بين النفختين، ونقل عن الأحنف بن

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.... وإن تـطـرد فـمـن يـرحـم سـواكـا

ينظر: معاهد التنصيص (١/ ١٧٠)، وروح المعاني (١٤/ ٤٨).

قيس رحمه الله تعالى أنه قال: قدِمتُ المدينة أريد أميرَ المؤمنين عمرَ رضي الله تعالى عنه، فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعبُ الأحبار فيها يحدث الناس وهو يقول: لما حضر آدمَ عليه الصلاة والسلام الوفاةُ قال: يا رب سيشمت بي عدوي إبليسُ إذا رآني ميتًا وهو مُنْظَرٌ إلى يوم القيامة، فأجيب أنْ يا آدمُ إنك سترِد إلى الجنة ويؤخَّر اللعينُ إلى النظرة ليذوقَ ألمَ الموتِ بعدد الأولين والآخِرين، ثم قال لملك الموت: صِفْ كيف تذيقه الموتَ، فلما وصفه قال: يا رب حسبي. فضجّ الناسُ وقالوا: يا أبا إسحاقَ كيف ذلك؟ فأبىٰ، فألحّوا فقال: يقول الله سبحانه لملك الموت عقِبَ النفخةِ الأولى: «**قد جعلت فيك قوةَ أهلِ السموات السبع، وأهلِ الأرضينَ السبعِ، وإني ألبستُك اليوم أثوابَ السخط والغضب كلَّها، فانزِلْ بغضبي وسطوتي على رجيمي إبليسَ فأذِقْه الموتَ واحمِلْ عليه فيه مرارةَ الأولين والآخِرين من الثقلين أضعافًا مضاعفةً، وليكن معك من الزبانية سبعون ألفًا قد امتلأوا غيظًا وغضبًا، وليكن مع كل منهم سلسلةٌ من سلاسل جهنم وغُلٌّ من أغلالها، وأنزل روحَه المُنتنَ بسبعين ألفَ كلاب من كلاليبها، ونادِ مالكًا ليفتح أبواب النيران**»، فينزل ملكُ الموت بصورة لو نظر إليها أهلُ السموات والأرضين لماتوا بغتةً من هولها، فينتهي إلى إبليس فيقول: قف لي يا خبيثُ لأُذيقنّك الموت كم من عمر أدركتَ وقرونٍ أضللتَ وهذا هو الوقتُ المعلوم، قال: فيهرُب اللعين إلى المشرِق فإذا هو بملك الموت بين عينيه، فيهرُب إلى المغرِب فإذا هو به بين عينيه، فيغوص البحارَ فتنز منه البحارُ فلا تقبله، فلا يزال يهرُب في الأرض ولا محيصَ له ولا ملاذ، ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدمَ ويتمرغ في التراب من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، حتى إذا كان في الموضع الذي أهبط فيه آدمُ عليه الصلاة والسلام، وقد نَصبت له الزبانية الكلاليبَ وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب، ويبقى في النزع والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى، ويقال لآدمَ وحواءَ: اطَّلِعا اليوم إلى عدوكما كيف يذوق الموت، فيطّلعان فينظران إلى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان: ربنا أتممتَ علينا نعمتك.

﴿**قال رب بما أغويتني**﴾ الباء للقسم وما مصدريةٌ والجواب ﴿**لأزينن لهم**﴾ أي أقسم بإغوائك إيايَ لأزينن لهم المعاصيَ ﴿**في الأرض**﴾ أي في الدنيا التي هي دارُ الغرور كقوله تعالى: ﴿أخلد إلى الأرض﴾ [الأعراف: ١٧٦] وإقسامُه بعزة الله المفسَّرةِ بسلطانه وقهره لا ينافي إقسامَه بهذا، فإنه فرْعٌ من فروعها وأثرٌ من آثارها، فلعله أقسم بهما جميعًا فحكى تارة قسمُه بهذا وأخرى بذاك، أو للسببية، وقوله: لأزينن، جوابُ قسمٍ محذوف، والمعنى بسبب تسبُّبِك لإغوائي أقسم لأفعلن بهم مثلَ ما فعلت بي من

التسبيب لإغوائهم بتزيين المعاصي وتسويلِ الأباطيل، والمعتزلةُ أوّلوا الإغواءَ بالنسبة إلى الغيّ أو التسبب له لأمره إياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام، واعتذروا عن إمهال الله تعالى وتسليطِه له على إغواء بني آدم بأنه تعالى قد علِم منه وممن تبِعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار، أُمهل أم لم يُمهَل، وأن في إمهاله تعويضًا لمن خالفه لاستحقاق مزيدِ الثواب ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ لأحمِلنّهم على الغواية ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ الذين أخلصتَهم لطاعتك وطَهَّرتَهم من الشوائب، فلا يعملُ فيهم كيدي، وقرئ[1] بكسر اللام، أي الذين أخلصوا نفوسَهم لله تعالى ﴿قال هذا صراط﴾ أي حقٌّ ﴿عليّ﴾ أن أراعيَه ﴿مستقيم﴾ لا اعوجاج فيه، والإشارةُ إلى ما تضمّنه الاستثناءُ وهو تخلّصُ المخْلَصين من إغوائه، أو الإخلاصُ على معنى أنه طريقٌ يؤدي إلى الوصول من غير اعوجاج وضلالٍ، والأظهرُ أن ذلك لِما وقع في عبارة إبليسَ حيث قال: ﴿لأقعُدنّ لهم صراطَك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم [الأعراف: ١٦ و١٧] ﴾ الآية، وقرئ عَليٌّ[2][3] من علو الشرف.

﴿إن عبادي﴾ وهم المشار إليهم بالمخلَصين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ تسلطٌ وتصرفٌ بالإغواء ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ وفيه، مع كونه تحقيقًا لما قاله اللعين، تفخيمٌ لشأن المخلَصين وبيانٌ لمنزلتهم ولانقطاع مخالبِ الإغواء عنهم وأن إغواءَه للغاوين ليس بطريق السلطانِ بل بطريق اتباعِهم له بسوء اختيارِهم.

﴿وإن جهنم لموعدهم﴾ أي موعدُ المتبعين أو الغاوين، والأولُ أنسبُ وأدخلُ في الزجر عن اتباعه، وفيه دلالةٌ على أن جهنم مكانُ الوعد وأن الموعودَ مما لا يوصف في الفظاعة ﴿أجمعين﴾ تأكيدٌ للضمير أو حالٌ، والعامل فيها الموعِدُ إن جعل مصدرًا على تقدير المضاف، أو معنى الإضافة إن جعل اسم مكان ﴿لها سبعة أبواب﴾ يدخلونها لكثرتهم، أو سبعُ طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغَواية والمتابعة، وهي: جهنم ثم لَظَى ثم الحُطمة ثم السعير ثم سقرُ ثم الجحيمُ ثم الهاوية ﴿لكل باب

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٤)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٤)، والتيسير للداني ص (١٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٨٩)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٨٨).

(٢) قرأ بها: يعقوب، والحسن، والضحاك، وإبراهيم، وأبو رجاء، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، وقيس ابن عبادة، وحميد، وعمرو بن ميمون، وعمارة بن أبي حفصة، وأبو شرف، وأبو عبد الله.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٢٧٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠١).

(٣) في ط: «على» مهملة.

منهم﴾ من الأتباع أو الغواة ﴿جزء مقسوم﴾ حزبٌ معينٌ مُفرَزٌ من غيره حسبما يقتضيه استعدادُه، فأعلاها للموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار، والحُطَمةُ لعبدة الأصنام، وسقَرُ لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحّدين[١]، ولعل حصرها في السبع لانحصار المهلِكات في المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضياتِ القوة الشهوية والغضبية، وقرئ[٢] بضم الزاي وبحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل، ومنهم حال، من جزء أو من ضميره في الظرف لا في مقسوم، لأن الصفة لا تعمل في ما تقدم موصوفَها.

﴿إن المتقين﴾ من اتباعه في الكفر والفواحش فإن غيرها مكفر ﴿في جنات وعيون﴾ أي مستقرون فيها خالدين، لكل واحد منهم جنةٌ وعينٌ، أو لكل منهم عدةٌ منهما كقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربِّه جنتانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وقرئ[٣] بكسر العين حيث وقع في القرآن العظيم ﴿ادخلوها﴾ على إرادة القول أمرًا من الله تعالى لهم بالدخول، وقرئ[٤] ادخِلوها أمرًا منه تعالى للملائكة بإدخالهم، وقرأ[٥] الحسن: أُدخِلوها مبنيًا للمفعول على صيغة الماضي من الإدخال ﴿بسلام﴾ ملتبسين بسلام أي سالمين أو مسلَّمًا عليكم ﴿آمنين﴾ من الآفات والزوال ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي حقدٍ كان في الدنيا، وعن علي رضي الله تعالى عنه: أرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين[٦] ﴿إخوانًا﴾ حال من

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٥٤٢).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٩).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٦)، والتيسير للداني ص (١٣٦)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٦).

(٤) قرأ بها: يعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥٦).

(٥) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤١)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٦).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٢٩)، وأحمد في فضائل (٢/ ٦١٨) برقم (١٠٥٧)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ٨٥) برقم (١٩٤)، وابن أبي شيبة في أخبار المدينة (٢/ ٢٠٠) برقم (١٩٧٧)، والطبري (٨/ ١٨٣).

الضمير في قوله تعالى: ﴿في جنات﴾، أو من فاعل ادخلوها، أو من الضمير في آمنين، أو الضمير المضاف إليه والعامل فيه معنى الإضافةِ، وكذلك قوله تعالى: **﴿على سرر متقابلين﴾** ويجوز كونُهما صفتين لإخوانًا أو حالين من ضميره، لأنه بمعنى متصافِّين، وكونُ الثاني حالًا من المستكنّ في الأول. وعن مجاهد: تدور بهم الأسرّةُ حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم **﴿لا يمسهم فيها نصب﴾** أي تعب بألا يكونَ لهم فيها ما يوجبه من الكدّ في تحصيل ما لا بُدّ لهم منه، لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولةِ عملٍ أصلًا، أو بألا يعتريَهم ذلك وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوتِهم، وهو استئنافٌ أو حالٌ بعد حال من الضمير في متقابلين **﴿وما هم منها بمخرجين﴾** أبدَ الآباد لأن تمام النعمة بالخلود.

۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

﴿نبئ عبادي﴾ وهم الذين عبر عنهم بالمتقين **﴿أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** فذلكةٌ[1] لما سلف من الوعد والوعيد وتقريرٌ له، وفي ذكر

---

(١) في خ: فذلك.

المغفرةِ إشعارٌ بأن ليس المرادُ بالمتقين مَن يتقي جميعَ الذنوب كبيرَها وصغيرَها، وفي وصف ذاتِه تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب إيذانٌ بأنهما مما يقتضيهما الذاتُ وأن العذاب إنما يتحقق بما يوجبه من خارج.

عبرة في رسالة إبراهيم عليه السلام

﴿ونبئهم﴾ عطفٌ على (نبئ عبادي)، والمقصود اعتبارُهم بما جرى على إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى في تضاعيف الخوفِ، وبما حل بقوم لوطٍ من العذاب ونجاتِه عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له في ضمن الخوف، وتنبيهُهم بحلول انتقامِه تعالى من المجرمين وعلمُهم بأن عذاب الله هو العذاب الأليم ﴿عن ضيف إبراهيم﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أنهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام وملكانِ معه»[1]، وقال محمد بن كعب: «وسبعةٌ معه»، وقيل: «جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم الصلاة والسلام»[2]، وقال الضحاك: «كانوا تسعةً»، وعن السدي: «كانوا أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم»، وعن مقاتلٍ: «أنهم كانوا اثنيْ عشَرَ ملَكًا»، وإنما لم يتعرض لعنوان رسالتِهم لأنهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بل إلى قوم لوطٍ حسبما يأتي ذكرُه ﴿إذ دخلوا عليه﴾ نُصب بفعلٍ مضمر معطوفٍ على (نبئ)، أي واذكر وقت دخولِهم عليه، أو خبر مقدر مضاف إلى ضيف، أي خبر ضيف إبراهيمَ حين دخولهم عليه، أو بنفس ضيف على أنه مصدرٌ في الأصل ﴿فقالوا﴾ عند ذلك ﴿سلامًا﴾ أي نسلّم سلامًا أو سلّمنا أو سَلِمْتَ سلامًا.

﴿قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، فإن الوجلَ اضطرابُ النفس لتوقع مكروهٍ، قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ما قرّبه إليهم من العجل الحنيذ، لِما أن المعتاد عندهم أنه إذا نزل بهم ضيفٌ فلم يأكلْ من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير، لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى: ﴿فلما رأى أيديَهم لا تصِل إليه نكِرَهم وأوجسَ منهم خِيفة﴾ [هود: ٧٠]، فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولِهم بغير إذن ولا بغير وقت، إذ لو كان كذلك لأجابوا حينئذ بما أجابوا، ولم يتصدَّ عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام إليهم، وإنما لم يذكر هاهنا اكتفاءً بما بيّن في غير هذا الموضع، ألا يرى إلى أنه لم يُذكر هاهنا ردُّه عليه الصلاة والسلام لسلامهم.

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٣٨٦).

(٢) ينظر المرجع السابق.

﴿قالوا لا توجل﴾ لا تخف، وقرئ لا تاجل[1] ولا تُوجلْ[2] من أوجله أي أخافه، ولا تُواجلْ[3] من واجله بمعنى أوجله ﴿إنا نبشرك﴾ استئنافٌ لتعليل النهي عن الوجل، فإن المبشَّر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوفٌ ولا حزن، كيف لا وهو بشارةٌ ببقائه وبقاءِ أهله في عافية وسلامة زمانًا طويلًا ﴿بغلام﴾ هو إسحاقُ عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحقَ﴾ [هود، الآية ٧١]، ولم يتعرض هاهنا لبشارة يعقوبَ عليه الصلاة والسلام اكتفاءً بما ذكر في سورة هود ﴿عليم﴾ إذا بلغ، وفي موضع آخرَ بغلام حليم ﴿قال أبشرتموني﴾ بذلك ﴿على أن مسني الكبر﴾ وأثر في تعجبه عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد في حالة مباينة للولادة، وزاد في ذلك فقال: ﴿فبم تبشرون﴾ أي بأي أعجوبةٍ تبشرونني، فإن البشارة بما لا يُتصور وقوعُه عادة بشارةٌ بغير شيء، أو بأي طريقةٍ تبشرونني، وقرئ[4] بتشديد النون المكسورة على إدغام نون الجمع في نون الوقاية ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ أي بما يكون لا محالة، أو باليقين الذي لا لَبْسَ فيه، أو بطريقة هي حقٌّ وهو أمرُ الله تعالى، وقوله: ﴿فلا تكن من القانطين﴾ من الآيسين من ذلك، فإن الله قادر على أن يخلق بشرًا بغير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وقرئ[5] من القَنِطين، وكان مقصِدُه عليه الصلاة والسلام استعظامَ نعمتِه تعالى عليه في ضمن التعجب العادي المبنيِّ على سنة الله تعالى المسلوكةِ فيما بين عباده، لا استبعادَ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قولُ الملائكة: فلا تكن من القانطين، دون أن يقولوا: من الممترين أو نحوه.

﴿قال ومن يقنط﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ أي لا يقنط ﴿من رحمة ربه إلا الضالون﴾

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٢)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٩٦).
(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٨)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٩٦).
(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٢)، وتفسير الرازي (١٩/ ١٩٦).
(٤) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٨)، والتيسير للداني ص (١٣٦)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٧).
(٥) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٩٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٩)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤).

المخطِئون طريقَ المعرفة والصوابِ، فلا يعرِفون سعةَ رحمتِه وكمالَ علمه وقدرتِه كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿لا ييأسُ من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]، ومرادُه نفيُ القنوط عن نفسه على أبلغ وجهٍ، أي ليس بي قنوطٌ من رحمته تعالى، وإنما الذي أقول لبيان منافاةِ حالي لفيضان تلك النعمةِ الجليلة عليّ، وفي التعرضِ لوصف الربوبيةِ والرحمةِ ما لا يخفى من الجزالة، وقرئ بضم النون[١]، وبكسرها[٢] من قنَط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضةُ من الملائكة مع إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام خاصة، بل مع سارَةَ أيضًا حسبما شُرح في سورة هود، ولم يُذكر ذلك هاهنا اكتفاءً بما ذكر هناك كما أنه لم يُذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر هاهنا.

﴿قال﴾ أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتوسيطُه بين قوله السابقِ وبين قوله: ﴿فما خطبكم﴾ أي أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذي لأجله أُرسلتم سوى البشارةِ ﴿أيها المرسلون﴾ صريحٌ في أن بينهما مقالةً مطويةً لهم أشير به إلى مكانها كما في قوله تعالى: ﴿قال أأسجُد لمن خلقتَ طينًا * قال أرأيتَك هذا الذي كرمْتَ عليّ﴾ [الإسراء: ٦١ و٦٢] الآية، فإن قوله الأخيرَ ليس موصولًا بقوله الأول، بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فاخرُجْ منها فإنك رجيم﴾ [الحجر: ٣٤] فإن توسيطَ قال بين قوليه للإيذان بعدم اتصالِ الثاني بالأول وعدم ابتنائِه عليه بل على غيره، ثم خطابُه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابقُ مجردًا عن ذلك مع تصديره بالفاء، دليلٌ على أن مقالتهم المطويةَ كانت متضمنةً لبيان أن مجيئَهم ليس لمجرد البشارةِ، بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام: وإن لم يكن شأنُكم مجردَ البشارة فماذا هو؟ فلا حاجة إلى الالتجاء إلى أن علمَه عليه الصلاة والسلام بأن كلَّ المقصود ليس البشارةَ بسبب أنهم كانوا ذوي عدد، والبِشارةُ لا تحتاج إلى عدد ولذلك اكتُفي بالواحد في زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم، ولا إلى أنهم بشروه في تضاعيف الحالِ لإزالة الوجل ولو كانت تمامَ المقصود لابتدأوا بها فتأمل.

﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ هو قومُ لوط، لكن وُصفوا بالإجرام وجيء

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي، والأشهب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥٩)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف، واليزيدي، والحسن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٩٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٢)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٦٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٧).

بهم بطريق التنكيرِ ذمًّا لهم واستهانةً بهم ﴿**إلا آل لوط**﴾ استثناءٌ **متصلٌ** من الضمير في مجرمين، أي إلى قوم أجرموا جميعًا إلا آلَ لوط، فالقومُ والإرسالُ شاملان للمجرمين وغيرِهم، والمعنى إنا أرسلنا إلى قوم أجرَم كلُّهم إلا آلَ لوط لنُهلِك الأولين ونُنجِّيَ الآخرين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**إنا لمنجوهم**﴾ أي لوطًا وآلَه ﴿**أجمعين**﴾ أي مما يصيب القومَ، فإنه استئنافٌ للإخبار بنجاتهم لعدم إجرامِهم، أو لبيان ما فُهم من الاستثناء من مطلق عدم شمولِ العذاب لهم، فإن ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين، أو لتعليله، فإن مَنْ تعلّق بهم التنجيةُ بمنْجى من شمول العذاب. أو **منقطعٌ** من قوم وقوله تعالى: ﴿إنا لمنجوهم﴾ متصلٌ بآلَ لوطٍ جارٍ مَجرى خبر لكنّ، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**إلا امرأته**﴾ استثناءٌ من آلَ لوط أو من ضميرهم، وعلى الأول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يُجعل إنا لمنجوهم اعتراضًا، وقرئ[1] بالتخفيف ﴿**قدرنا إنها لمن الغابرين**﴾ الباقين مع الكفرة لتُهلَك معهم، وقرئ[2] قدَرْنا بالتخفيف، وإنما عُلّق فعلُ التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوبِ لتضمُّنه معنى العلم، ويجوز حملُه على معنى قلنا لأنه، بمعنى القضاء، قولٌ وأصلُه جعلُ الشيء على مقدار غيرِه، وإسنادُهم له إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لِما لهم من الزلفىٰ والاختصاص ﴿**فلما جاء آل لوط المرسلون**﴾ شروع في بيان كيفيةِ إهلاكِ المجرمين وتنجيةِ آل لوط حسبما أُجمل في الاستثناء ثم فُصّل في التعليل نوعَ تفصيل، ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والتنجية، وليس المرادُ به ابتداءَ مجيئهم بل مطلقُ كينونتهم عند آل لوط، فإن ما حُكي عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿**قال إنكم قوم منكرون**﴾ إنما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي حين ضاقت عليه الحيلُ وعيَّتْ به العللُ لمّا لم يشاهِدْ من المرسلين، عند مقاساته الشدائدَ ومعاناته المكايدَ من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون، ما هو المعهودُ والمعتاد من الإعانة والإمداد فيما يأتي ويذر عند [تجشّمِه][3] في تخليصهم إنكارًا لخذلانهم له، وتركِ نصرته في مثل تلك المضايقة

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٥)، والبحر المحيط (٥/ ٤٦٠)، والتيسير للداني ص (١٣٦)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٧).

(٢) قرأ بها: عاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٢)، والبحر المحيط (٥/ ٤٦٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٤٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٧).

(٣) في خ: تجسمه.

المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعةِ والممانعة حتى ألجأتْه إلى أن قال: ﴿لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد﴾ [هود: ٨٠] حسبما فصل في سورة هود، لا أنه قاله عند ابتداء ورودِهم له خوفًا أن يطرُقوه بشرٍّ كما قيل، كيف لا وهم بجوابهم المحكيّ بقوله تعالى:

﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به فيمترون به ويكذبونك، قد [قشَروا العصا][(١)] وبيّنوا له عليه الصلاة والسلام جليةَ الأمر، فأني[(٢)] يمكن أن يعتريَه بعد ذلك المساءةُ وضيقُ الذَّرْع، وليست كلمةُ بل إضرابًا عن موجب الخوفِ المذكور على معنى ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله بل بما يسرك وتقَرّ به عينُك، بل هي إضرابٌ عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرةِ له، والمعنى ما خذلناك وما خلّينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمّرهم من العذاب الذي كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به، ولعل تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهلِ المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارةِ لوطٍ عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومِه وتنجيةِ آله عَقيبَ ذكر بشارةِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بهما، وحيث كان ذلك مستدعيًا لبيان كيفية النجاةِ وترتيبِ مباديها أُشير إلى ذلك إجمالًا، ثم ذُكر ما فَعل القوم وما فُعل بهم ولم يُبالَ بتغيير الترتيب الوقوعيّ ثقةً بمراعاته في مواقعَ أُخَرَ؛ ونسبةُ المجيء بالعذاب إليه عليه الصلاة والسلام [مع أنه نازلٌ بالقوم بطريق تفويض][(٣)] أمرِه إليه لا بطريق نزوله عليه، كأنهم جاؤوه به وفوّضوا أمره إليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعّدهم به ﴿وأتيناك بالحق﴾ أي باليقين الذي لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابُهم، عبر عنه بذلك تنصيصًا على نفي الامتراءِ عنه، أو المرادُ بالحق الإخبارُ بمجيء العذابِ المذكور، وقوله تعالى: ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيدٌ له، أي أتيناك فيما قلنا بالخبر الحقِّ أي المطابق للواقع، وإنا لصادقون في ذلك الخبرِ أو في كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه، وعلى الأول تأكيدٌ إثرَ تأكيدٍ، وقوله تعالى: ﴿فأسر بأهلك﴾ شروعٌ في ترتيب مبادي النجاةِ، أي اذهبْ بهم في الليل، وقرئ[(٤)] بالوصل وكلاهما من السُّرىٰ وهو السيرُ في الليل، وقرئ[(٥)] فسِرْ من

---

(١) في خ: فسروا القضاء.
(٢) في خ: فأين.
(٣) سقط في خ.
(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٦)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٤)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
(٥) قرأ بها: اليماني.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ٢٠١).

السير ﴿بِقِطْع من الليل﴾ بطائفة منه أو من آخره قال: [الخفيف]

افتحي الباب وانظُري في النجومِ كم علينا من قِطْع ليلٍ بهيم[١]

وقيل: هو بعد ما مضى منه شيءٌ صالح ﴿واتبع أدبارهم﴾ وكن على أثرهم تذودُهم وتسرع بهم وتطّلع على أحوالهم، ولعل إيثارَ الاتباعِ على السَّوْق مع أنه المقصودُ بالأمر للمبالغة في ذلك، إذ السَّوْقُ ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزَمه عادةً الغفلةُ عن حال المتأخر، والالتفاتُ المنهيُّ عنه بقوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم﴾ أي منك ومنهم ﴿أحد﴾ فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه، أو يصيبه ما أصابهم، أو ولا ينصرفْ منكم أحدٌ ولا يتخلفْ لغرض فيصيبه العذاب، وقيل: نُهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلّفوه، أو هو للإسراع في السير فإن الملتفتَ قلما يخلو عن أدنى وقفة، وعدمُ ذكر استثناء المرأةِ من الإسراء والالتفات لا يستدعي عدم وقوعِه، فإن ذلك لما[٢] عرفت مرارًا للاكتفاء بما ذكر في مواضعَ أُخَرَ ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمُضيّ إليه وهو الشام أو مصر، وحذفُ الصلتين على الاتساع[٣] المشهور، وإيثارُ المضيِّ إلى ما ذكر على الوصول[٤] إليه واللُّحوق به للإيذان بأهمية النجاةِ ولمراعاة المناسبةِ بينه وبين ما سلف من الغابرين.

﴿وقضينا﴾ أي أوحينا ﴿إليه﴾ مقْضيًّا ولذلك عُدِّيَ بإلى ﴿ذلك الأمر﴾ مبهمٌ يفسره ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ على أنه بدلٌ منه، وإيثار اسم الإشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحةِ التي هي مدارُ ثبوت الحكم، أي دابرَ هؤلاء المجرمين، وإيرادُ صيغة المفعول بدلَ صيغة المضارع لكونها أدخلَ في الدلالة على الوقوعِ، وفي لفظ القضاءِ والتعبيرِ عن العذاب بالأمر والإشارةِ إليه بذلك وتأخيرِه عن الجار والمجرور وإبهامِه أولًا ثم تفسيره ثانيًا، من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعتِه، ما لا يخفى. وقرئ[٥] بالكسر على الاستئناف، والمعنى أنهم يُستأصَلون عن آخرهم حتى لا يبقى [منهم][٦] أحدٌ ﴿مصبحين﴾ داخِلين في الصُّبح، وهو حال

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (قطع)، وتاج العروس (قطع)، وديوان الأدب (١/ ١٨)، وكتاب العين (١/ ١٣٩).

(٢) في خ: كما.

(٣) في خ: اتساع.

(٤) في خ: الرسول.

(٥) قرأ بها: الأعمش، وزيد بن علي.

ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٩٥)، وتفسير الرازي (١٩/ ٢٠).

(٦) سقط في خ.

من هؤلاء أو من الضمير في مقطوعٌ [وجمعه][(١)] للحمل على المعنى فإن دابر هؤلاء بمعنى مدبري هؤلاء.

﴿وجاء أهل المدينة﴾ شروعٌ في حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفِهم على مكان الأضيافِ من الفعل والقول وما ترتب عليه بعدما أشير إلى ذلك إجمالًا حسبما نبه عليه، أي جاء أهلُ سدومَ منزلَ لوط عليه الصلاة والسلام ﴿يستبشرون﴾ أي مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعًا فيهم ﴿قال إن هؤلاء ضيفي﴾ الضيفُ حيث كان مصدرًا في الأصل أُطلق على الواحد والمتعددِ والمذكرِ والمؤنث، وإطلاقُه على الملائكة بحسب اعتقادِه عليه الصلاة والسلام لكونهم في [زِيّ][(٢)] الضيف، والتأكيدُ ليس لإنكارهم بذلك بل لتحقيق اتِّصافِهم به وإظهارِ اعتنائه بشأنهم وتشمُّره لمراعاة حقوقِهم وحمايتهم من السوء، ولذلك [قال][(٣)]: ﴿فلا تفضحونِ﴾ أي عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدْرٌ وحرمة، أو لا تفضحونِ بفضيحة ضيفي فإن من أُسيء إلى ضيفه فقد أُسيءَ إليه، يقال: فضحَه فضحًا وفضيحةً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار ﴿واتقوا الله﴾ في مباشرتكم لما يسوؤني ﴿ولا تخزون﴾ أي لا تُذِلوني ولا تُهينوني بالتعرض، لمن أجَرْتُهم، بمثل تلك الفَعْلةِ الخبيثة. وحيث كان التعرضُ لهم - بعد أن نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله: فلا تفضحونِ، أكثرَ تأثيرًا في جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلبَ للعار إليه، [إذ][(٤)] التعرّضُ للجار قبل شعورِ المُجير بذلك ربما يُتسامَح فيه، وأما بعد الشعورِ به والمناصبةِ لحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظمُ العار، [عبّر][(٥)] عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من [جهتهم][(٦)] بعد النهي المذكورِ بسبب لجاجِهم ومُجاهرتِهم بمخالفته بالخِزي وأمرَهم بتقوى الله تعالى في ذلك، وإنما لم يصرحْ بالنهي [عن][(٧)] نفس تلك الفاحشةِ لأنه كان يعرِف أنه لا يفيدهم ذلك، وقيل: المرادُ تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشةِ، ولا يساعده توسيطُه بين النهيَيْن عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام، وكذلك قوله تعالى:

﴿قالوا أولم نَنْهك عن العالمين﴾ أي عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتِهم،

---

(١) في خ: جميعه.
(٢) في خ: رأي.
(٣) في ط: فإن.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: عبر عنه.
(٦) في خ: جهته.
(٧) في خ: من.

والهمزةُ للإنكار والواو للعطف على مقدر، أي ألم نتقدمْ إليك ولم ننْهَكَ عن ذلك فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحدٍ من الغرباء بالسوء، وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وُسعِه وكانوا قد نهَوْه عليه الصلاة والسلام عن أن يُجير أحدًا، فكأنهم قالوا: ما ذكرتَ من الفضيحة والخِزي إنما جاءك من قِبَلك لا من قِبَلنا إذ لولا تعرضُك لما نتصدَّى له لَما اعتراك تلك الحالةُ. ولمّا رآهم لا يُقلِعون عما هم عليه ﴿قال هؤلاء بناتي﴾ يعني نساءَ القومِ، فإن نبيَّ كلِّ أمةٍ بمنزلة أبيهم، أو بناتِه حقيقةً، أي فتزوجوهن، وقد كانوا من قبلُ يطلبُونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدمِ كفاءتِهم، لا لعدم مشروعية المُناكحةِ بين [المسلمات](١) والكفار وقد فُصّل ذلك في سورة هود. ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي قضاءَ الوطر أو ما أقول لكم.

﴿لعمرك﴾ قسمٌ من الله تعالى بحياة النبي عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوطٍ عليه الصلاة والسلام والتقديرُ لعَمرُك قسمي، وهي لغة [في](٢) العُمُر يختص به القسم إيثارًا للخِفة لكثرة دورَانِه على الألسنة ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ غَوايتهم أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولَهم وتمييزَهم بين الخطإ والصواب ﴿يعمهون﴾ يتحيّرون ويتمادَوْن فكيف يسمعون النصح؟ وقيل: الضميرُ لقريش والجملةُ اعتراض ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ أي الصيحةُ العظيمة الهائلة، وقيل: صيحةُ جبريلَ عليه الصلاة والسلام ﴿مشرقين﴾ داخلين في وقت شروق الشمس ﴿فجعلنا عاليها﴾ عاليَ المدينة أو عاليَ قُراهم، وهو المفعولُ الأول لجعلنا وقوله تعالى: ﴿سافلها﴾ مفعول ثانٍ له وهو أدخلُ في الهول والفظاعة من العكس كما مر ﴿وأمطرنا عليهم﴾ في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلابِ ﴿حجارة﴾ كائنة ﴿من سجيل﴾ من طين متحجّر أو طينٍ عليه كتاب، وقد فصل ذلك في سورة هود. ﴿إن في ذلك﴾ أي فيما ذكر من القصة ﴿لآيات﴾ لعلاماتٍ يُستدل بها على حقيقة الحق ﴿للمتوسمين﴾ أي المتفكّرين المتفرّسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرِفوا حقيقة الشيء بسَمْته ﴿وإنها﴾ أي المدينة أو القرى ﴿لبسبيل مقيم﴾ أي طريق ثابتٍ يسلُكه الناس ويرَوْن آثارها.

﴿إن في ذلك﴾ فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمرأىً من الناس يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم ﴿لآية﴾ عظيمةً ﴿للمؤمنين﴾ بالله ورسولِه، فإنهم الذين يعرِفون أن ما حاق بهم [من] العذاب الذي ترك ديارَهم بلاقعَ إنما حاق بهم لسوء صنيعهم، وأما غيرُهم فيحمِلون ذلك على الاتفاق أو الأوضاع الفلَكية، وإفرادُ الآية

(١) في خ: المسلمين.
(٢) سقط في خ.

بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهدَ هاهنا بقيةُ الآثارِ لا كلُّ القصة كما فيما سلف.

عبرة في رسالات الأنبياء

﴿**وإن كان**﴾ إنْ مخففةٌ من إنّ، وضميرُ الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ واللام هي الفارقةُ أي وإن الشأن كان ﴿**أصحاب الأيكة**﴾ وهم قومُ شعيب عليه الصلاة والسلام، والأيكةُ والليكة الشجرةُ الملتفةُ المتكاثِفة، وكان عامة شجرِهم المقل[١] وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى إليهم ﴿**لظالمين**﴾ متجاوزين عن الحد ﴿**فانتقمنا منهم**﴾ بالعذاب. روي أن الله تعالى سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام، ثم بعث سحابة فالتجأوا إليها يلتمسون الرَّوْحَ، فبعث الله تعالى عليهم منها نارًا فأحرقتهم، فهو عذابُ يوم الظلة ﴿**وإنهما**﴾ يعني سدوم والأيكة، وقيل: والأيكة ومدينَ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثًا إليهما فذِكرُ أحدهما منبّهٌ على الآخر ﴿**لبإمام مبين**﴾ لبطريق واضح، والإمام اسمُ ما يؤتمُّ به سُمِّيَ به الطريقُ ومطمر البناء واللوحُ الذي يكتب فيه لأنهاً مما يؤتم به ﴿**ولقد كذب أصحاب الحجر**﴾ يعني ثمود ﴿**المرسلين**﴾ أي صالحًا، فإن مَنْ كذب واحدًا من الأنبياء عليهم السلام فقد كذب الجميعَ لاتفاقهم على التوحيد والأصولِ التي لا تختلف باختلاف الأممِ والأعصار، وقيل: المراد صالحٌ ومن معه من المؤمنين، كما قيل: الخُبيبون لخَبيب بن عبدِاللّه بن الزبير وأصحابه، والحجر [وادٍ][٢] بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ﴿**وآتيناهم آياتنا**﴾ وهي الآياتُ المنزلة على نبيهم، أو المعجزاتُ من الناقة وسَقْيها وشِرْبها ودرّها، أو الأدلةُ المنصوبة لهم ﴿**فكانوا عنها معرضين**﴾ إعراضًا كليًّا، [بل][٣] كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا.

﴿**وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين**﴾ من الانهدام ونقْب اللصوص وتخريبِ الأعداء لوثاقتها، أو من العذاب لحُسبانهم أن ذلك يحميهم منه. عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر فقال: «**لا تدخُلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبَكم مثلُ ما أصاب هؤلاء**»، ثم زجر رسولُ الله ﷺ راحلته فأسرع حتى خلّفها[٤] ﴿**فأخذتهم الصيحة مصبحين**﴾

---

(١) المُقل: حمل الدَّوْم، وهو يشبه النخل.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٦) كتاب الزهد والرقائق، باب: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين»، برقم (٣٩/ ٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهكذا وقع في سورة هود، قيل: صاح بهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام، وقيل: أتتهم من السماء صيحةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ وصوتُ كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم، وفي سورة الأعراف ﴿فأخذتهم الرجفةُ﴾ [الأعراف: ٧٨ و٩١] أي الزلزلةُ ولعلها من روادف الصيحة المستتبِعةِ لتموّج الهواء تموجًا شديدًا يفضي إليها كما مر في سورة هود ﴿فما أغنى عنهم﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوتِ الوثيقة والأموالِ الوافرة والعُدد المتكاثرة، وفيه تهكمٌ بهم، والفاء لترتيب عدم الإغناء الخاصِّ بوقت نزول العذابِ حسبما كانوا يرجونه لا عدمِ الإغناءِ المطلق فإنه أمرٌ مستمر.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي إلا خلقًا ملتبسًا بالحق والحكمةِ والمصلحةِ بحيث لا يلائم استمرارَ الفساد واستقرارَ الشرور، ولذلك اقتضت الحكمةُ إهلاكَ أمثال هؤلاء دفعًا لفسادهم وإرشادًا لمن بقيَ إلى الصلاح، أو إلا بسبب العدل والإنصافِ يوم الجزاءِ على الأعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وإن الساعة لآتية﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك ﴿فاصفح﴾ أي أعرض عنهم ﴿الصفح الجميل﴾ إعراضًا جميلًا وتحمَّلْ أذِيَّتهم ولا تعجَلْ بالانتقام منهم، وعامِلْهم معاملةَ الصَّفوح الحليم، وقيل: هي منسوخةٌ بآية السيف ﴿إن ربك﴾ الذي يبلّغك إلى غاية الكمال ﴿هو الخلاق﴾ لك ولهم ولسائر الموجوداتِ على الإطلاق ﴿العليم﴾ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها فلا يخفىٰ عليه شيءٌ مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيقٌ بأن تكِل جميع الأمورِ إليه ليحكُم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلِم تفاصيلَ أحوالِكم وقد علم أن الصفحَ اليوم أصلحُ إلى أن يكون السيفُ أصلحَ، فهو تعليلٌ للأمر بالصفح على التقديرين. وفي مصحف عثمانَ وأُبيّ رضي الله تعالى عنهما (هو

الخالق)[١] وهو صالح للقليل والكثير والخلاقُ مختصٌّ بالكثير.

إنعام الله على رسوله ﷺ

﴿ولقد آتيناك سبعًا﴾ آياتٍ وهي الفاتحةُ، وعليه عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعود وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم، والحسنُ وأبو العالية ومجاهدٌ والضحاكُ وسعيدُ بن جبير وقَتادة رحمهم الله تعالى. وقيل: سبعُ سورٍ وهي الطوالُ التي سابعتُها الأنفالُ والتوبة فإنهما في حكم سورةٍ واحدة، ولذلك لم يُفصَلْ بينهما بالتسمية. وقيل: يونسُ أو الحواميم السبعُ. وقيل: الصحائفُ السبعُ وهي الأسباع. ﴿من المثاني﴾ بيانٌ للسبع من التثنية وهي التكريرُ، فإن كان المرادُ الفاتحةَ وهو الظاهرُ، فتسميتُها المثاني لتكرر قراءتِها في الصلاة، وأما تكررُ قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارًا للتسمية ولأنها تثنّىٰ بما يقرأ بعدها في الصلاة، وأما تكررُ نزولها فلا يكون وجهًا للتسمية لأنها كانت مسماةً بهذا الاسم قبل نزولها الثاني إذ السورةُ مكيةٌ بالاتفاق، وإن كان المرادُ غيرَها من السور فوجهُ كونِها من المثاني أن كلاً من ذلك تُكرّر قراءتُه وألفاظُه أو قصصه ومواعظُه، أو من الثناء لاشتماله على ما هو ثناءٌ على الله واحدتها مَثْناةٌ أو مَثْنيةٌ صفة للآية، وأما الصحائفُ وهي الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القِصص والمواعظ والوعدِ والوعيد وغيرِ ذلك، ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تُثْني عليه سبحانه بأفعاله وصفاتِه الحسنى، ويجوز أن يراد بالمثاني القرآنُ لما ذكر أو لأنه مُثْنَى عليه بالإعجاز، أو كتبُ الله تعالى كلُّها فمن للتبعيض، وعلى الأول للبيان ﴿والقرآن العظيم﴾ إن أريد بالسبع الآياتُ أو السورُ فمِنْ عطف الكلِّ على البعض أو العام على الخاص، وإن أريد به الأسباعُ أو كلُّ القرآن فهو عطفُ أحدِ الوصفين على الآخر.

كما في قوله: [المتقارب]

إلى الملكِ القَرْم وابنِ الهُمامِ   وليثِ الكتائبِ في المزدَحَمْ[٢]

أي ولقد أتيناك ما يقال له السبعُ المثاني والقرآنَ العظيم ﴿لا تمدن عينيك﴾ لا تطمَحْ ببصرك طُموحَ راغب ولا تُدِمْ نظرك ﴿إلى ما متعنا به﴾ من زخارفِ الدنيا وزينتها ومحاسنِها وزَهْرتِها ﴿أزواجًا منهم﴾ أصنافًا من الكفرة فإن ما في الدنيا من

---

(١) قرأ بها: المطوعي، وزيد بن علي، والجحدري، والأعمش، ومالك بن دينار، وأُبي، وعثمان. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦).

(٢) تقدم.

أصناف الأموالِ والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَرٌ لا يُعبأ به أصلًا، وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه: «مَنْ أوتيَ القرآنَ فرأىٰ أن أحدًا أوتيَ أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيمًا وعظّم صغيرًا»[(١)] وروي (أنه وافَتْ من بُصرىٰ وأذْرِعاتَ سبعُ قوافلَ ليهود بني قُريظةَ والنَّضِير فيها أنواعُ البَزِّ والطيب والجواهر وسائرُ الأمتعة فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا لتقوَّيْنا بها وأنفقناها في سبيل الله، فقيل لهم: قد أُعطِيتم سبعَ آياتٍ وهي خير من هذه القوافل السبْع) ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظِموا أتباعك في سلك ليتقوى بهم ضعفاءُ المسلمين، وقيل: أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فإن تمتّعهم به لا يكون مدارًا للحزن عليهم ﴿**واخفِض جناحك للمؤمنين**﴾ أي تواضَعْ لهم وارفُق بهم وألِنْ جانبك لهم وطِبْ نفسًا من إيمان الأغنياء ﴿**وقل إني أنا النذير المبين**﴾ أي المنذِرُ المُظْهِر لنزول عذاب الله وحلولِه.

﴿**كما أنزلنا على المقتسمين**﴾ قيل: إنه متعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك﴾ [الحجر، الآية ٨٧] إلخ، أي أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب ﴿**الذين جعلوا القرآن عِضين**﴾ أي قسَموه إلى حق وباطل، حيث قالوا عِنادًا وعدوانًا: بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً حيث كان يقول بعضُهم: سورةُ البقرة لي، وبعضُهم: سورةُ آلِ عمران لي وهكذا، أو قسموا ما قرأوا من كتبهم وحرّفوه فأقرّوا ببعضه وكذبوا ببعضه، وحُمل توسيطُ قوله تعالى: ﴿لا تمدن عينيك﴾ [الحجر، الآية ٨٨] على إمداد ما هو المرادُ بالكلام من التسلية، وعُقّب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه، ولقد أوتيَ عليه الصلاة والسلام ما لم يؤتَ أحدٌ قبله ولا بعده مثلَه، وقيل: إنه متعلق بقوله: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ فإنه في قوة الأمرِ بالإنذار، كأنه قيل: أنذِرْ قريشًا مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين، يعني اليهودَ، وهو ما جرى على بني قريظةَ والنضير بأن جُعل المتوقَّعُ كالواقع وقد وقع كذلك، وأنت خبيرٌ بأن ما يُشبَّه به العذابُ المنذَرُ لا بد أن يكون محققَ الوقوعِ معلومَ الحالِ عند المنذَرين إذ به تتحققُ فائدةُ التشبيهِ، وهي

---

(١) غريب من حديث أبي بكر رضي الله عنه، وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢/ ٢١٧) من طريق إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن المهاجر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال:
«من أُعطي القرآن، فرأى أن أحدًا قد أُعطِيَ أفضل مما أُعطِيَ فقد عظم ما صغر الله، وصغر ما عظم الله... الحديث.
وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٢٢) برقم (٢٥٩٠)، من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما- موقوفًا عليه.

تأكيدُ الإنذار وتشديدُه، وعذابُ بني قريظةَ والنضير مع عدم وقوعِه إذ ذاك لم يسبِقْ به وعدٌ ووعيد فهم منه في غفلة محضةٍ وشك مُريب، وتنزيلُ المتوقَّع منزلةَ الواقع له موقعٌ جليلٌ من الإعجاز لكن إذا صادف مقامًا يقتضيه كما في قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ [الفتح، الآية ١] ونظائرِه. على أن تخصيصَ الاقتسام باليهود بمجرد اختصاصِ العذاب المذكور بهم مع شِرْكتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقة والمخالفة، وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشاملِ للكتابين بل تخصيصُ العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيصٌ من غير مخصِّص، وقد جُعل الموصولُ مفعولًا أولَ لأنذر أي أنذر المُعَضِّين الذين يجزّئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطيرَ، مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشرَ الذين اقتسموا مداخلَ مكة أيام الموسم فقعد كل منهم في مدخل لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ يقول بعضُهم: لا تغترّوا بالخارج منا فإنه ساحرٌ، ويقول الآخر: كذابٌ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه، مع ما فيه من الاشتراك لما سبق في عدم كون العذابِ الذي شُبه به العذابُ المنذَرُ واقعًا ولا معلومًا للمنذَرين ولا موعودَ الوقوع، أنه لا داعيَ إلى تخصيص وصفِ التعضِيةِ بهم وإخراجِ المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك، فإن وصفهم لرسول الله ﷺ بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرعٌ على وصفهم للقرآن بذلك، وهل هو إلا نفسُ التعضيةِ، ولا إلى إخراجهم من حكم الإنذارِ على ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يُشبه به عذابُ غيرِهم ولا مخصوصًا بهم، بل عامًّا لكلا الفريقين وغيرِهم مع أن بعضَ المنذَرين كالوليد بنِ المغيرةَ والعاصِ بن وائل والأسودِ بن المطلب قد هلكوا قبل مهلِك أكثرِ المقتسمين يوم بدر، ولا إلى تقديم المفعول الثاني على الأول كما ترى، وقيل: إنه وصفٌ لمفعول النذيرِ أقيمَ مُقامه والمقتسمون هم القاعدون في مداخل مكة كما حرر.

وفيه مع ما مر أن قوله تعالى: ﴿كما أنزلنا﴾ [الحجر، الآية ٩٠] صريحٌ في أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام، والاعتذارُ بأن ذلك من باب ما يقوله بعضُ خواصِّ المَلِك أُمرْنا بكذا وإن كان الآمرُ هو الملكَ حسبما سلف في قوله تعالى: ﴿قدَّرْنا إنها لمن الغابرين﴾ [الحجر، الآية ٦٠] تعسُّفٌ لا يخفى، وأن إعمالَ الوصفِ الموصوف مما لم يجوِّزْه البصريون فلا بد من الهرب إلى مسلك الكوفيين، أو المصير إلى جعله مفعولًا غيرَ صريح أي أنا النذيرُ المبين بعذاب مثلِ عذاب المقتسمين، وقيل: المراد بالمقتسمين الرهطُ الذين تقاسموا على أن يبيّتوا صالحًا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى، وأنت تدري أن عذابَهم حيث كان

متحققًا ومعلومًا للمنذرين حسبما نطق به القرآنُ العظيم صالحٌ لأن يقعَ مشبَّهًا به العذابُ المنذَر، لكن الموصولَ المذكورَ عَقيبَه حيث لم يمكن كونُه صفةً للمقتسمين حينئذ، فسواء جعلناه مفعولًا أول للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان [التعضية في حيز الصلة ولا لعنوان][(١)] الاقتسام بالمعنى المذكور في حيز المفعول الثاني فائدة، لما أن ذلك إنما يكون للإشعار بعلّية الصلة والصفةِ للحكم الثابتِ للموصول والموصوف، فلا يكون هناك وجهُ شبَهٍ يدور عليه تشبيهُ عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكِهم في السبب فإن المُعَضّين بمعزل من التقاسم على التبييت الذي هو السبب لهلاك أولئك، كما أن أولئك بمعزل من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء، ولا علاقة بين السببين مفهومًا ولا وجودًا تصحّح وقوعَ أحدِهما في جانب والآخرِ في جانب، واتفاقُ الفريقين على مطلق الاتفاقِ على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذي هو التبييت المدلولُ عليه بالتقاسم غيرُ مفيد إذ لا دِلالةَ لعنوان التعضيةِ على ذلك وإنما يدل عليه اقتسامُ المداخِلِ، وجعلُ الموصولِ مبتدأً على أن خبرَه الجملةُ [القَسَميةُ][(٢)] لا يليق بجزالة التنزيلِ وجلالة شأنِه الجليل.

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأقربَ من الأقوال المذكورةِ أنه متعلّق بالأول، وأن المرادَ بالمقتسمين أهلُ الكتابين، وأن الموصولَ مع صلته صفةٌ مبينة لكيفية اقتسامِهم، ومحلُّ الكاف النصبُ على المصدرية، وحديثُ جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظرِ الجليل، والمعنى لقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثلًا لإنزال الكتابين على أهلهما، وعدمُ التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرضَ بيانُ المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلَّقيهما، والعدولُ عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه بأن يقال: كما آتينا المقتسِمين حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ [الأنعام، الآية ٢٠] إلخ، للتنبيه على ما بين الإيتاءين من [التنائي][(٣)] فإن الأول على وجه التكرِمة والامتنان [وشتان][(٤)] بينه وبين الثاني.

ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبَّهًا به، فإن ذلك إنما هو لمُسلَّميته عندهم وتقدمِ وجوده على المشبه زمانًا لا لمزيةٍ تعود إلى ذاته كما في الصلاة الخليلية، فإن التشبيه

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: الاسمية.
(٣) في ط: التنائي.
(٤) في خ: فشتان.

فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضةِ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتمَّ وأكملَ مما فاض على النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما ذلك للتقدم في الوجود والتنصيصِ عليه في القرآن العظيم، فليس في التشبيه شائبةُ إشعار بأفضلية المشبَّه به من المشبه، فضلًا عن إيهام أفضليةِ ما تعلق به الأولُ مما تعلق به الثاني، وإنما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكارًا لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الإنزال المذكورِ، وإيذانًا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب إيمانِهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراكِ في العلة والاتحادِ في الحقيقة التي هي مطلقُ الوحي، وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿لا تمدَنّ﴾ [الحجر، الآية ٨٨] إلخ، لكمال اتصالِه بما هو المقصودُ من بيان حالِ ما أوتيَ النبي عليه الصلاة والسلام، ولقد بُيِّن أولًا علوُّ شأنِه ورفعة مكانِه بحيث يستوجب اغتباطَه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءَه به عما سواه، ثم نُهي عن الالتفات إلى زَهرة الدنيا، وعُبّر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المنْبئ عن وشك زوالِها عنهم ثم عن الحزَن بعدم إيمانِ المنهمكين فيها، وأُمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاءِ بهم عن غيرهم وبإظهار قيامِه بمواجب الرسالة ومراسمِ النذارة حسبما فُصّل في تضاعيف ما أوتي من القرآن العظيم، ثم رُجع إلى كيفية إيتائه على وجه أُدمج فيه ما يُزيح شُبَهَ المنكِرين ويستنزِلهم عن العِناد من بيان مشاركتِه لما لا ريب لهم في كونه وحيًا صادقًا فتأمل، والله عنده علم الكتاب. هذا وقد قيل: المعنى وقل إني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيرًا، على أن المقتسِمين أهلُ الكتاب انتهى.

يريد أن ما في (كما) موصولةٌ، والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقةُ وهي مع ما في حيزها في محل النصبِ على الحالية من مفعول قل، أي قل هذا القولَ حالَ كونِه كما أنزلنا على أهل الكتابين أي موافقًا لذلك، فالأنسبُ [حينئذ][1] حملُ الاقتسام على [التحريف][2] ليكون وصفُهم بذلك تعريضًا بما فعلوا من تحريفهم وكِتمانهم لنعت النبيِّ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿عِضين﴾ جمعُ عِضة وهي الفِرقة، أصلها عِضْوَةٌ، فِعْلة من عضَّى الشاةَ تعضيةً إذا جعلها أعضاءً، وإنما جُمعت جمع السلامةِ جبرًا للمحذوف كسنينَ وعِزينَ، والتعبيرُ عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريقُ الأعضاء من ذوي الروح المستلزم لإزالة حياتِه وإبطالِ اسمِه دون مطلق التجزئةِ والتفريق اللذَيْن ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيضُ من المِثليات، للتنصيص على كمال قبحِ ما فعلوه بالقرآن العظيم، وقيل: هي فِعلة من عضهتُه إذا بهتُّه. وعن

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: التجريف.

عكرِمةَ: العضة السحرُ بلسان قريشٍ[(١)]، فنقصانها على الأول واو وعلى الثاني هاء.

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ أي لنسألن يوم القيامة أصنافَ الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤالَ توبيخٍ وتقريع ﴿عما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من قول وفعل وترْكٍ، فيدخُل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضيةِ دخولًا أوليًا، ولنجزينهم بذلك جزاء موفورًا، وفيه من التشديد و[تأكيدِ][(٢)] الوعيدِ ما لا يخفى، والفاءُ لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذكر بعضها، وفي التعرض لوصف الربوبيةِ مضافًا إليه عليه الصلاة والسلام [إظهارُ اللطف][(٣)] به عليه الصلاة والسلام.

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به، من صَدَع بالحجة إذا تكلم بها جِهارًا[(٤)]، أو افرُق بين الحق والباطل، وأصلُه الإبانةُ والتمييزُ، وما مصدرية أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي ما تؤمر به من الشرائع المودعة في تضاعيف ما أوتيتَه من المثاني السبع والقرآنِ العظيم ﴿وأَعرض عن المشركين﴾ أي [لا][(٥)] تلتفت إلى ما يقولون ولا تبالِ بهم ولا تتصدَّ للانتقام [منهم][(٦)].

﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ بقمعهم وتدميرهم، [قيل][(٧)]: (كانوا خمسةً من أشراف قريش: الوليدُ بن المغيرة، والعاص بنُ وائل، والحارثُ بن قيس بن الطَلاطِلةَ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والأسودُ بنُ المطلب، يبالغون في إيذاءِ النبي ﷺ والاستهزاء به، فنزل جبريلُ عليه الصلاة والسلام فقال: قد أُمرت أن أكفيكَهم، فأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ بنِبال، فتعلق بثوبه سهمٌ، فلم ينعطف تعظمًا لأخذه، فأصاب عِرقًا في عَقِبه، فقطعه، فمات، وأومأ إلى إخمَص العاص، فدخلت فيه شوكةٌ، فقال: لُدغتُ، وانتفخت رجلُه حتى صارت كالرّحى، فمات، وأشار إلى عيني الأسودِ بن المطلب،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٥١)، والطبري (١٧/ ١٤٨).
(٢) سقط في خ. (٣) في خ: العطف.
(٤) قال الخطيب القزويني: وأما استعارة محسوس لمعنوي فكقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فإن المستعار منه صدع الزجاجة وهو كسرها وهو حسي، وعلق الشيخ عبد المتعال الصعيدي على قوله وهو حسي بقوله: لتعلقه بحسي، وقال الخطيب: والمستعار له تبليغ الرسالة، وقال الشيخ الصعيدي: واعترض على هذا بأنه حسي يدرك بالسمع، فالأولى أن يجعل المستعار له إظهار الدين؛ لأنه لا يلزم أن يكون بطريق حسي، وقال الخطيب: والجامع لها التأثير وهما عقليان، وكأنه قيل: أبن الأمر إبانة لا تخفى كما لا يلتئم صدع الزجاجة، والمهم أن في الآية استعارة تبعية كما ذكر الزمخشري وغيره. ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٤)، والكشاف (٢/ ٣٩٩)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٥٥٥).
(٥) في خ: ما. (٦) سقط في خ.
(٧) في خ: كما.

فعمِيَ، وإلى أنف الحارث، فامتخط قيحًا، فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوثَ وهو قاعدٌ في أصل شجرةٍ، فجعل ينطح برأسه الشجرةَ ويضرب وجهه بالشوك حتى مات) ﴿الذين يجعلون مع الله إلٰهًا آخر﴾ وصفهم بذلك تسليةً لرسوله ﷺ وتهوينًا للخطب عليه بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام، بل اجترأوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله سبحانه ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبةَ ما يأتون ويذرون ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ من كلمات الشِّرك والطعنِ في القرآن والاستهزاء به وبك، وتحليةُ الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيقِ ما تتضمنه من التسلية، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرارِ العلم حسب استمرارِ متعلَّقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة ﴿فسبح بحمد ربك﴾ فافزَع إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدرِ والحرَج بالتسبيح والتقديس ملتبسًا بحمده، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من إظهار اللطفِ به عليه الصلاة والسلام والإشعارِ بعلة الحُكم، أعني الأمرَ بالتسبيح والحمد ﴿وكن من الساجدين﴾ أي المصلّين يكفِك ويكشِفِ الغمَّ عنك، أو فنزِّهْه عما يقولون ملتبسًا بحمده على أنْ هداك للحق المبين، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حزَبه أمرٌ [فزِع][1] إلى الصلاة

﴿واعبد ربك﴾ دُمْ على ما أنت عليه من عبادته تعالى، [وإيثارُ][2] الإظهار بالعنوان السالف آنفًا لتأكيد ما سبق من إظهار اللطفِ به عليه الصلاة والسلام والإشعارِ بعلة الأمرِ بالعبادة. ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أي الموتُ، فإنه مُتيقَّنُ اللحوق بكل حي مخلوق، وإسنادُ الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجِّهٌ إلى [الحيّ][3] طالبٌ للوصول إليه، والمعنى دم على العبادة ما دمت حيًّا من غير إخلالٍ بها لحظة.

عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورةَ الحِجْر كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد المهاجِرين والأنصارِ والمستهزئين بمحمد ﷺ**»[4].

(١) في خ: فرع.
(٢) في خ: وإبقاء.
(٣) في خ: الحق.
(٤) تقدم تخريجه.

سورة النحل

مكية إلا ﴿وإن عاقبتم﴾ [النحل: ١٢٦] إلى آخرها وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

﴿أتى أمر الله﴾ أي الساعةُ أو ما يعُمها وغيرَها من العذاب الموعود للكفرة، عبّر

عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققَه في نفسه وإتيانِه [منوطٌ][(١)] بحكمه النافذِ وقضائِه الغالب، وإتيانُه عبارةٌ عن دنوّه واقترابِه على طريقة نظمِ المتوقَّعِ في سلك الواقع، أو عن إتيان مباديه القريبةِ على نهج إسنادِ حال الأسبابِ إلى المسببات. وأيًا ما كان ففيه تنبيهٌ على كمال قربِه من الوقوع واتصالِه به وتكميلٌ لحسن موقع التفريعِ في قوله عز وجل: ﴿فلا تستعجلوه﴾ فإن النهيَ عن استعجال الشيءِ وإن صح تفريعُه على قرب وقوعِه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعِه على وقوعه، إذ بالوقوع يستحيل الاستعجالُ رأسًا لا بما ذكر من قرب وقوعِه ووقوعِ مباديه، والخطابُ للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءةُ على صيغة نهي [الغائبِ][(٢)]، واستعجالُهم وإن كان بطريق الاستهزاءِ، لكنه حُمل على [الحقيقة][(٣)] ونُهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين، سواء أريد بأمر الله ما ذُكر أو العذابُ الموعود [للكفرة][(٤)] خاصة، أما الأولُ فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجالُ الساعة أو ما يعمها وغيرَها[(٥)] من العذاب حتى يعمهم النهيُ عنه، وأما الثاني فلأن استعجالَهم [له][(٦)] بطريق الحقيقةِ واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاءِ كما عرَفْته فلا ينتظمُهما صيغةٌ واحدة، والالتجاءُ إلى إرادة معنىً مجازيٍّ يعمهما معًا من غير أن يكون هناك رعايةُ نكتة [سرّية][(٧)] تعسفٌ لا يليق بشأن التنزيلِ الجليلِ، وما روي من أنه لما نزلت ﴿اقتربت الساعةُ﴾ [القمر: ١] ، قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعُم أن القيامة قد قرُبت، فأمسِكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائنٌ، فلما تأخّرت قالوا: ما نرى شيئًا فنزلت ﴿اقترب للناس حسابُهم﴾ [الأنبياء: ١] فأشفقوا وانتظروا قُربها، فلما امتدت الأيامُ قالوا: يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوفنا به فنزلت ﴿أتى أمرُ الله﴾ فوثب رسولُ الله ﷺ فرفع الناسُ رؤوسَهم فلما نزل ﴿فلا تستعجلوه﴾ اطمأنوا، فليس فيه دِلالةٌ على عموم الخطاب كما قيل لا لما تُوهم من أن التصديرَ بالفاء يأباه، فإنه بمعزل عن إبائه حسبما تحققْتَه بل لأن مناطَ اطمئنانِهم إنما هو وقوفُهم، على أن المرادَ بالإتيان هو الإتيانُ الادّعائي لا الحقيقيُّ الموجبُ لاستحالة الاستعجالِ المستلزمةِ لامتناع النهي عنه، لِما أن النهيَ عن الشيء يقتضي إمكانَه في الجملة، ومدار ذلك الوقوف إنما هو النهي عن الاستعجال المستلزمِ لإمكانه المقتضي لعدم

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: الغالب.
(٣) في خ: الحالية.
(٤) في خ: للكفر.
(٥) زاد في خ: أو ما يعمها.
(٦) سقط في خ.
(٧) في خ: سوية.

وقوعِ المستعجَل بعدُ، ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجِل كائنًا مَنْ كان بل فيه دَلالةٌ واضحة على عدم العمومِ لأن المراد بأمر الله إنما هو الساعةُ، وقد عرفت استحالةَ صدور استعجالِها عن المؤمنين، نعم يجوز تخصيصُ الخطاب بهم على تقدير كونِ أمر الله عبارةً عن العذاب الموعودِ للكفرة خاصة، لكن الذي يقضي به الإعجازُ التنزيليُّ أنه خاصٌّ بالكفرة كما ستقف عليه، ولمّا كان استعجالُهم ذلك من نتائج إشراكِهم المستتبعِ لنسبة الله عز وجل إلى ما لا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير، واعتقادِ أن أحدًا يحجُزه عن إنجاز وعدِه وإمضاء وعيدِه، وقد قالوا في تضاعيفه: إن صح مجيءُ العذاب فالأصنامُ تخلّصنا عنه بشفاعتها، رُدَّ ذلك فقيل بطريق الاستئناف: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه وتقدّس بذاته وجل[١] عن إشراكهم المؤدِّي إلى صدور أمثالِ هذه الأباطيلِ عنهم، أو عن أن يكون له شريكٌ فيدفعَ ما أراد بهم بوجه من الوجوه، وصيغةُ الاستقبالِ للدلالة على تجدد إشراكِهم واستمرارِه، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء ذكرِ قبائحِهم للإعراض عنهم وطرحِهم عن رتبة الخطاب، وحكايةِ شنائعهم لغيرهم، وعلى تقدير تخصيصِ الخطابِ بالمؤمنين [تفوت][٢] هذه النُّكتةُ كما يفوت ارتباطُ [المنهيِّ][٣] عنه[٤]، وقرئ[٥] على صيغة الخطاب.

﴿ينزل الملائكة﴾ بيانٌ لتحتم التوحيدِ حسبما نُبّه عليه تنبيهًا إجماليًا ببيان تقدّس جنابِ الكبرياءِ وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبةُ أن يشاركه شيءٌ في شيء، [وإيذانٌ][٦] بأنه دينٌ أجمع عليه جمهورُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام وأُمروا بدعوة الناسِ إليه مع الإشارة إلى سر البعثةِ والتشريعِ وكيفية إلقاءِ الوحي، والتنبيهِ على طريق علمِ[٧] [الرسول][٨] عليه الصلاة والسلام [بإتيان ما][٩] أوعدهم به وباقترابه إزاحةً لاستبعادهم اختصاصَه عليه الصلاة والسلام بذلك، وإظهارًا لبُطلان رأيهم في الاستعجال والتكذيب، وإيثار صيغةِ الاستقبال للإشعار بأن ذلك عادةٌ مستمرةٌ له

---

(١) زاد في خ: عز وجل.
(٢) في خ: يفوت.
(٣) في خ: النهي.
(٤) زاد في خ: بالمد المتنزه عنه.
(٥) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وأبو العالية، وطلحة، وأبو عبد الرحمن، وابن وثاب، والجحدري، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والتيسير للداني ص (١٢١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).
(٦) في خ: وإيذانًا.
(٧) زاد في خ: له كونه.
(٨) سقط في خ.
(٩) في خ: بإتيانه بما.

سبحانه، والمرادُ بالملائكة إما جبريلُ عليه السلام، قال الواحدي: يسمَّى الواحدُ بالجمع إذا كان رئيسًا [أو][١] هو ومَنْ معه من حفَظَة الوحي بأمر الله تعالى، وقرئ[٢] يُنْزِل من الإنزال وتَنَزَّلُ[٣] [بحذف إحدى][٤] التاءين وعلى صيغة المبني للمفعول[٥] من التنزيل ﴿بالروحِ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآنُ على نهج الاستعارةِ، فإنه يحيي القلوبَ الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقامَ الروح في الجسد، والباء متعلقةٌ بالفعل أو بما هو حالٌ من مفعوله أي ملتبسين بالروح ﴿من أمره﴾ بيان للروح الذي أريد به الوحي، فإنه أمرٌ بالخير أو حال منه أي حالَ كونِه ناشئًا ومبتدأً منه، أو صفةٌ له على رأي من جوّز حذفَ الموصول مع بعضِ صلته أي بالروح الكائن من أمره الناشئ منه، أو متعلقٌ بـ (ينزّل) و(مِنْ) للسببية كالباء مثلُ (ما) في قوله تعالى: [﴿مما خطيئاتهم﴾][٦] [نوح، الآية ٢٥] أي ينزلهم بأمره [﴿على من يشاء من عباده﴾][٧] أي ينزِّلَهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهّلهم لذلك[٨] ﴿أن أنذروا﴾ بدلٌ من الروح، أي ينزّلهم ملتبسين بأن أنذِروا أي بهذا القول، والمخاطَبون به الأنبياءُ الذين نزلت الملائكةُ عليهم، والآمرُ هو الله سبحانه والملائكةُ نَقَلةٌ للأمر[٩] كما يُشعر به الباء في المبدَل منه، و(أنْ) إما مخففةٌ من أنّ وضميرُ[١٠] الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ، أي ينزلهم ملتبسين بأن الشأنَ أقول لكم: أنذِروا، أو مفسّرةٌ على أن تنزيلَ الملائكة بالوحي[١١] فيه معنى القولِ، كأنه قيل: يقول بواسطة الملائكةِ لمن يشاء من

---

(١) في خ: و.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، ورويس، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٢).

(٣) قرأ بها: عاصم، والكسائي، والمفضل، والحسن، وأبو العالية، والأعرج، ويعقوب، وروح، وشعبة، وزيد، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٢).

(٤) في خ: محذوفة.

(٥) قرأ بها: عاصم، والكسائي، وشعبة، وزيد بن علي، والأعمش.
ينظر: الحجة لابن خالويه ص (٢٠٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧٠) والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩).

(٦) في خ: على من يشاء من عباده.

(٧) سقط في خ.

(٨) في خ: بذلك.

(٩) في خ: بالأمر.

(١٠) في خ: ضميره.

(١١) في خ: ما يوحى.

عباده[١]: أنذروا فلا محل لها من الإعراب، أو مصدريةٌ لجواز كون صلتِها إنشائيةً كما في قوله تعالى: ﴿وأن أقِمْ وجهَك﴾ [يونس، الآية ١٠٥] حسبما ذكر في أوائل سورة هودٍ فمحلُّها الجرُّ على البدلية أيضًا، والإنذارُ الإعلام خلا أنه مختصٌّ بإعلام المحذورِ من نذر بالشيء إذا علمه فحذِرَه، وأنذره بالأمر إنذارًا أي أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه كذا في القاموس[٢] أي أعلِموا الناس ﴿أنه لا إلٰه إلا أنا﴾ فالضمير للشأن، ومدارُ وضعِه[٣] موضعَه ادعاءُ شهرتِه المغنيةِ عن التصريح به، وفائدةُ تصديرِ الجملة به الإيذانُ من أول الأمر بفخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريرٍ له في الذهن، فإن الضميرَ لا يفهم منه ابتداءً إلا شأنٌ مبهمٌ[٤] له خطر، فيبقى الذهنُ مترقبًا لما يعقُبه فيتمكن لديه عند وروده فضلُ تمكن، كأنه قيل: أنذروا أن الشأنَ الخطير هذا، وإنباءُ مضمونِه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصافُ المنذَرين بما يضادُّه من الإشراك وذلك كافٍ في كون إعلامِه إنذارًا، وقوله سبحانه: ﴿فاتقون﴾ خطابٌ للمستعجِلين على طريقة الالتفاتِ، والفاءُ فصيحةٌ أي إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادتِه تعالى بتنزيل الملائكةِ على الأنبياء عليهم السلام وأمرِهم بأن ينذِروا الناسِ أنه لا شريك له في الألوهية، فاتقون في الإخلال بمضمونه ومباشرةِ ما ينافيه من الإشراك وفروعِه التي من[٥] جملتها الاستعجالُ والاستهزاءُ. وبعد تمهيدِ الدليل السمعيِّ للتوحيد شُرِع في تحرير الأدلة العقلية فقيل:

من دلائل توحيده تعالى

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي أوجدهما على ما هما عليه من الوجه الفائق والنمطِ اللائق ﴿تعالى﴾ وتقدّس بذاته لا سيما بأفعاله التي من جملتها إبداعُ هذين المخلوقين ﴿عما يشركون﴾ عن إشراكهم المعهودِ أو عن شركة ما يشركونه به من الباطل الذي لا يُبدئ ولا يعيد، وبعد ما نبّه على صنعه الكليِّ المنطوي على تفاصيل مخلوقاتِه شرَع في تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالأنفس فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ أي هذا النوعَ غيرَ الفرد[٦] الأول منه ﴿من نطفة﴾ جماد[٧] لا حسَّ له ولا حَراكَ، سيالٍ لا يحفظ شكلًا ولا وضعًا ﴿فإذا هو﴾ بعد الخلق ﴿خصيم﴾

---

(١) زاد في خ: أن.

(٢) المراد في «القاموس المحيط» للفيروزبادي.

(٣) في خ: وصفه.

(٤) في خ: الإتيان منهم.

(٥) في خ: في.

(٦) في خ: المفرد.

(٧) في خ: حماة.

مِنطيقٌ[١] مجادِلٌ عن نفسه مكافِحٌ للخصوم ﴿مبين﴾ لحجته لقِنٌ بها، وهذا أنسبُ بمقام الامتنانِ بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدتِه، أو مخاصمٌ لخالقه منكِرٌ له قائلٌ: ﴿من يحيي العظامَ وهي رميم﴾ [يس: ٧٨] [وهذا أنسبُ بمقام تعداد هَناتِ الكفرة. روي أن أُبيَّ بنَ خلفٍ الجُمَحي أتى النبيَّ عليه السلام بعظم رميم][٢] فقال: يا محمد أترى الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رمّ فنزلت[٣] ﴿والأنعام﴾ وهي الأزواجُ الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعَزِ، وانتصابُها[٤] بمضمر يفسره قوله تعالى: ﴿خلقها﴾ أو بالعطف على الإنسان، وما بعده بيانُ ما خُلق لأجله والذي بعده تفصيلٌ[٥] لذلك، وقوله تعالى: ﴿لكم﴾ إما متعلقٌ بخلَقها، وقوله: ﴿فيها﴾ خبرٌ مقدم، وقوله: ﴿دفء﴾ مبتدأٌ وهو ما يُدفأ به فيقي من البرد، والجملةُ حالٌ من المفعول أو الظرفُ الأول خبرٌ للمبتدأ المذكور، وفيها حال من دفء إذ لو تأخر لكان صفة ﴿ومنافع﴾ هي دَرّها ورُكوبها وحملُها والحِراثة بها وغيرُ ذلك، وإنما عبّر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم، وتقديمُ الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى ﴿ومنها تأكلون﴾ أي تأكُلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغيرِ ذلك، وتغييرُ النظم للإيماء إلى أنها لا تبقىٰ عند الأكل كما في السابق واللاحقِ، فإن الدفءَ والمنافعَ والجَمال يحصل منها وهي باقيةٌ على حالها، ولذلك جُعلت محالَّ لها بخلاف الأكل، وتقديمُ الظرف للإيذان بأن الأكلَ منها هو المعتادُ المعتمدُ في المعاش لأن الأكلَ مما عداها من الدجاج والبط وصيد البرِّ والبحرِ من قبيل التفكّه مع أن فيه مراعاةً للفواصل، ويحتمل أن يكون معنى الأكلِ منها أكلَ ما يحصل بسببها فإن الحبوبَ والثمارَ المأكولة تُكتسب بإكراء الإبلِ وبإثمار نِتاجها وألبانها وجلودها.

﴿ولكم فيها﴾ مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية ﴿جمال﴾ أي زينةٌ في أعين الناس ووَجاهةٌ عندهم ﴿حين تُريحون﴾ ترُدّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿وحين تسرحون﴾ تخرِجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها، فالمفعول محذوفٌ من كلا الفعلين لرعاية الفواصل، وتعيينُ الوقتين لأن ما يدور عليه أمرُ الجمال من تزين الأفنية والأكنافِ بها وبتجاوب ثُغائها ورُغائها إنما هو عند ورودِها وخطورها في ذينك الوقتين، وأما عند كونِها في المراعي فينقطع إضافتُها الحسية إلى أربابها، وعند

---

(١) في خ: مطبق. (٢) سقط في خ.
(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٧)، (٨/ ١٣٧) عن قتادة.
(٤) في خ: انقضائها. (٥) في خ: تفسير.

كونِها في الحظائر لا يراها راءٍ ولا ينظر إليها ناظرٌ، وتقديمُ الإراحةِ على السَّرْح لتقدم الورودِ على الصدور ولكونها أظهرَ منه في استتباع ما ذُكر من الجمال وأتمَّ في استجلاب الأنسِ والبهجة إذ فيها حضورٌ بعد غَيبة وإقبالٌ بعد إدبار على أحسن ما يكون ملأى البطونِ مرتفعةَ الضلوع حافلةَ الضروع، وقرئ (حينًا تريحون وحينًا تسرحون)[1] على أن كِلا الفعلين وصفٌ لـ (حينًا)، بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه ﴿**وتحمل أثقالكم**﴾ جمع ثقل وهو متاعُ المسافر، وقيل: أثقالكم أجرامكم ﴿**إلى بلد**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أريد به اليمنُ ومصرُ والشامُ، ولعله نظر إلى أنها متاجرُ أهل مكة، وقال عكرمة: أريد به مكةُ، ولعله نظر إلى أن أثقالَهم وأحمالهم عند القُفول من متاجرهم أكثرُ، وحاجتُهم إلى الحمولة أمسُّ، والظاهرُ أنه عام لكل بلد سحيق ﴿**لم تكونوا بالغيه**﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الإبل ﴿**إلا بشق الأنفس**﴾ فضلًا عن استصحابها معكم، وقرئ[2] بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكُلفة والمشقة، وقيل: المفتوحُ مصدرٌ من شق الأمرُ عليه شقًا، وحقيقتُه راجعة إلى الشِق الذي هو الصَّدْع والمكسورُ النصفِ كأنه يُذهب نصفَ القوة لما يناله من الجهد، فالإضافة إلى الأنفس مجازيةٌ، أو على تقدير مضاف أي إلا بشق قُوى الأنفس، وهو استثناءٌ مفرّغٌ من أعم الأشياء أي لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس، ولعل تغييرَ النظم الكريم السابقِ الدال على كون الأنعام مدار للنعم السابقة إلى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للإشعار بأن هذه النعمةَ ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق، وفي الشمول للأوقات والاطّراد في الأحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فإنها بحسب المنشأ وخاصة بالإبل وبحسب المتعلق بالضاربين في الأرض المَتقلبين فيها للتجارة وغيرِها في أحايينَ غيرِ مطّردة، وأما سائرُ النعم المعدودةِ فموجودةٌ في جميع أصناف الأنعام وعامةٌ لكافة المخاطبين دائمًا، أو في عامة الأوقات ﴿**إن ربكم لرءوف رحيم**﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعمَ الجليلةَ ويسّر لكم الأمورَ الشاقة.

﴿**والخيلَ**﴾ هو اسمُ جنس للفرس لا واحد له من لفظه، كالإبل وهو عطفٌ على الأنعام أي خلق الخيل ﴿**والبغال والحمير لتركبوها**﴾ تعليلٌ بمعظم منافعها وإلا

---

(١) قرأ بها: عكرمة، والضحاك، والجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠١).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، واليزيدي، ومجاهد، والأعرج، وعمرو بن ميمون، وابن أرقم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٦٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٢).

فالانتفاعُ بها بالحمل أيضًا مما لا ريب في تحققه ﴿وزينة﴾ عطفٌ على محل لتركبوها، وتجريدُه عن اللام لكونه فعلًا لفاعل الفعل المعلل دون الأولِ، وتأخيرُه لكون الركوبِ أهمَّ منه، أو مصدرٌ لفعل محذوفٍ، أي وتتزيّنوا بها زينةً، وقرئ[1] بغير واو أي خلقها زينةً لتركبوها، ويجوز أن يكون مصدرًا واقعًا موقعَ الحال من فاعل تركبوها أو مفعولِه أي متزيّنين بها ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ أي يخلق في الدنيا غيرَ ما عُدد من أصناف النعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهَه وكيفيةَ خلقِه، فالعدولُ إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجددِ أو لاستحضار الصورة، أو يخلق لكم في الجنة غيرَ ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا تعلمون أي ما ليس من شأنكم أن تعلموه، وهو ما أشير إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمِعت ولا خطَر على قلب بشر**»[2] ويجوز أن يكون هذا إخبارًا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علمَ لنا به دَلالةً على قدرته الباهرة الموجبةِ للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن عن يمين العرش نهرًا من نور مثلَ السمواتِ السبع والأرضين السبع والبحارِ السبعة، يدخل فيه جبريلُ عليه السلام كل سَحَر فيغتسل فيزداد نورًا إلى نور وجمالًا إلى جمال وعِظمًا إلى عظم، ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألفَ ملَك، فيدخل منهم كل يوم سبعون ألفَ ملكٍ البيتَ المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة[3].

﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ القصدُ مصدر بمعنى الفاعل.

يقال: سبيل قصْد وقاصد، أي مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج إسنادِ حال سالكِه إليه، كأنه يقصِد الوجهَ الذي يؤمه السالكُ لا يعدِل عنه[4]، أي حقٌّ عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعدِه المحتوم بيانُ الطريق المستقيمِ الموصلِ لمن

---

(١) قرأ بها: قتادة، وأبو عياض، وابن عباس.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٣)، والبحر المحيط (٥/ ٤٧٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٦٥) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤) أول كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢/ ٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٩) من رواية مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس.

(٤) في خ: عليه.

يسلكه إلى الحق الذي هو التوحيدُ بنصب الأدلةِ وإرسالِ الرسل وإنزال الكتبِ لدعوة الناس إليه، أو مصدرٌ بمعنى الإقامة والتعديل [كذا][١] قاله أبو البقاء، أي عليه عز وجل تقويمُها وتعديلها أي جعلُها بحيث يصل سالكُها إلى الحق، لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفةً عنه بل إبداعُها ابتداءً كذلك على نهج قوله: سبحان من صغّر البعوضَ وكبّر الفيل.

وحقيقتُه راجعةٌ إلى ما ذكر من نصب الأدلةِ، وقد فعَل ذلك حيث أبدع هذه البدائعَ التي كلُّ واحد منها لاحبٌ[٢] يُهتدىٰ بمناره وعلَمٌ يُستضاء بناره، وأَرسل رسلًا مبشرين ومنذرين وأَنزل عليهم كتبًا من جملتها هذا الوحيُ[٣] الناطقُ بحقيقة الحقِّ الفاحص عن كل ما جلّ من الأسرار ودقّ، الهادي إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلةِ المفضية إلى معالم الهدى، المنْجية عن فيافي الضلالة ومهاوي الردىٰ، ألا يرى[٤] كيف بيّن أولًا تنزُّهَ جنابِ الكبرياء وتعاليَه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبةُ توهمِ الإشراك، ثم أوضح سرَّ إلقاءِ الوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفيةَ أمرِهم بإنذار الناس ودعوتِهم إلى التوحيد ونهيِهم عن الإشراك، ثم كرّ على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعالِ مرشدًا إلى طريقة الاستدلالِ فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجُسماني ومركزِه بقوله تعالى: ﴿خلق السمواتِ والأرضَ بالحق تعالى عما يشركون﴾ [النحل: ٣]، ثم فصّل أفعالَه المتعلقةَ بما بينهما فبدأ بفعله المتعلّق بأنفس المخاطَبين، ثم ذكر ما يتعلق بما لا بد لهم منه في معايشهم، ثم بين قدرتَه على[٥] خلق ما لا يحيط به علمُ البشر بقوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل، الآية ٨]، وكلُّ ذلك كما ترى بيانٌ لسبيل التوحيد غِبَّ بيانٍ وتعديلٌ له أيَّما تعديلٍ، فالمرادُ بالسبيل على الأول الجنسُ بدليل إضافة القصدِ إليه وقوله تعالى: **﴿ومنها﴾** في محل الرفع على الابتداء، إما باعتبار مضمونِه وإما بتقدير الموصوف كما في قوله تعالى: ﴿ومِنّا دون ذلك﴾ [الجن، الآية ١١] وقد مر في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ [البقرة، الآية ٨] إلخ، أي بعضُ السبيل أو بعضٌ من السبيل فإنها تؤنث وتذكر **﴿جائر﴾** أي مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه لا يوصِل سالكَه إليه، وهو طرقُ الضلال التي لا يكاد يُحصىٰ عددُها المندرجُ كلُّها تحت الجائر، وعلى الثاني نفسُ السبيل المستقيم والضميرُ في منها راجع إليها بتقدير المضاف أي ومن جنسها

---

(١) سقط في خ.
(٢) لحب الطريق لحوباً: وضح.
(٣) في خ: النوحي.
(٤) في خ: ترى.
(٥) في خ: في.

لما عرفتَ من أن تعديلَ السبيل وتقويمَه إبداعُه ابتداءً على وجه الاستقامةِ والعدالةِ لا تقويمُه بعد انحرافِه. وأيًا ما كان فليس في النظم الكريم تغييرُ[١] الأسلوب رعايةً لأمر مطلوب كما قيل، فإن ذلك إنما يكون فيما اقتضى الظاهرُ سبكًا معينًا ولكن يُعدل عن ذلك لنُكتة أهمَّ منه كما في قوله سبحانه: ﴿الذي يُطعمني ويسْقينِ وإذا مرِضْتُ فهو يشفينِ﴾ [الشعراء، الآية ٧٩] فإن مقتضىٰ الظاهرِ أن يقال: والذي يُسقِمني ويشفينِ[٢]، و[لكن][٣] غُيِّر إلى ما عليه النظم الكريم تفاديًا[٤] عن إسناد ما تكرهه النفسُ إليه سبحانه، وليس المرادُ ببيان قصدِ السبيل مجردَ إعلامِ أنه مستقيمٌ حتى يصِحّ إسنادُ أنه جائرٌ[٥] إليه تعالى فيُحتاجَ إلى الاعتذار عن عدم ذلك، على أنه لو أريد ذلك [لم يوجد لتغيير الأسلوبِ نكتةٌ، وقد بُين ذلك][٦] في مواضعَ غير معدودةٍ، بل المرادُ ما مر من نصب الأدلةِ لهداية الناسِ إليه ولا إمكانَ لإسناد مثلِه إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقالَ: وجائرُها حتى يصرفَ ذلك الإسنادُ منه تعالى إلى غيره لنكتة تستدعيه، ولا يتوهمه متوهمٌ حتى يقتضيَ الحالُ دفعَ ذلك بأن يقال: لا جائرُها، ثم يُغير سبكُ النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملةُ الظرفيةُ اعتراضيةٌ جيء بها لبيان الحاجةِ إلى البيان والتعديل وإظهارِ جلالة قدرِ النعمة في ذلك، والمعنى: على الله تعالى بيانُ الطريق المستقيم الموصلِ إلى الحق وتعديلُه بما ذكر من نصب الأدلةِ ليسلُكَه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصِد، وهذا هو الهدايةُ المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب لا الهدايةُ المستلزمةُ للاهتداء ألبتةَ، فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته، بل هو مُخلٌّ بحكمته حيث يستدعي تسويةَ المحسِن والمسيء والمطيع والعاصي بحسب الاستعدادِ وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿**ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾ أي لو شاء أن يهديَكم إلى ما ذكر من التوحيد هدايةً موصلةً إليه ألبتةَ مستلزِمةً لاهتدائكم أجمعين لفعل[٧] ذلك، ولكن لم يشأه لأن مشيئتَه تابعةٌ للحكمة الداعيةِ إليها، ولا حكمة في تلك المشيئةِ لِما أن الذي عليه يدور[٨] فلَكُ [التكليفِ][٩] وإليه ينسحب الثوابُ والعقابُ إنما هو الاختيارُ الجُزئي الذي عليه يترتب الأعمالُ التي بها نيط الجزاءُ. هذا هو الذي يقتضيه المقامُ ويستدعيه حسنُ الانتظام، وقد فُسّر كونُ قصدِ السبيل عليه تعالى بانتهائه إليه

---

(١) في خ: تفسير.
(٢) في خ: يستعين.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: تفاوتا.
(٥) في خ: جائز.
(٦) سقط في خ.
(٧) في خ: بفعل.
(٨) في خ: يدور عليه.
(٩) سقط في خ.

على نهج الاستقامةِ، وإيثارُ حرفِ الاستعلاءِ على أداة الانتهاءِ لتأكيد الاستقامةِ على وجه تمثيليٍّ من غير أن يكون هناك استعلاءٌ لشيء عليه سبحانه وتعالى عنه علوًا كبيرًا كما في قوله تعالى: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ﴾ [الحجر، الآية ٤١] فالقصدُ مصدرٌ بمعنى الفاعل، والمرادُ بالسبيل الجنسُ كما مر في قوله تعالى: ﴿ومنها جائر﴾ معطوفٌ على الجملة الأولى والمعنى أن قصدَ السبيلِ واصلٌ إليه تعالى بالاستقامة وبعضُها منحرفٌ عنه ولو شاء لهداكم جميعًا إلى الأول، وأنت خبيرٌ بأن هذا حقٌّ في نفسه ولكنه بمعزل عن[1] نكتة موجبةٍ لتوسيطه بين ما سبق من أدلة التوحيدِ وبين ما لحِق، ولمّا بُيِّن الطريقُ السمعيُّ للتوحيد على وجه إجماليٍّ وفصِّلَ بعضُ أدلتِه المتعلقة بأحوال الحيواناتِ، وعقب[2] ذلك ببيان السرِّ الداعي إليه بعثًا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثًّا على حسن التلقي لما لحِق أُتبع ذلك ذِكر ما يدل عليه من أحوال [النبات][3] فقيل:

﴿هو الذي أنزل﴾ بقدرته القاهرة ﴿من السماء﴾ أي من السحاب أو من جانب السماء ﴿ماء﴾ أي نوعًا منه وهو المطرُ، وتأخيره عن المجرور لِما مر مرارًا من أن المقصودَ هو الإخبارُ بأنه أنزل من السماء شيئًا هو الماء لا أنه أنزله من السماء، والسرُّ فيما سلف من أن عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ يبقى الذهنُ مترقبًا له مشتاقًا إليه فيتمكّن لديه عند وروده عليه فضلُ تمكن ﴿لكم منه شراب﴾ أي ما تشربونه، وهو إما مرتفعٌ بالظرف الأول أو مبتدأٌ وهو خبرُه والجملةُ صفة لماءً، والظرفُ الثاني نصبَ على الحالية من شراب ومن تبعيضيةٌ وليس في [تقديمه][4] إيهامُ حصر المشروب فيه حتى يفتقر إلى الاعتذار بأنه لا بأس به لأن مياهَ العيون والأبيارِ منه لقوله تعالى: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾ [الزمر، الآية ٢١] وقوله تعالى: ﴿فأسكنّاه في الأرض﴾ [المؤمنون، الآية ١٨] وقيل: الظرفُ الأولُ متعلقٌ بأنزل والثاني خبرٌ لـ (شرابٌ) والجملةُ صفةٌ لماءً، وأنت خبير بأن ما فيه من توسيط المنصوبِ بين المجرورين وتوسيطِ الثاني منهما بين الماء وصفتِه مما لا يليق بجزالة نظمِ التنزيلِ الجليل ﴿ومنه شجر﴾ من ابتدائيةٌ أي ومنه يحصل شجرٌ ترعاه المواشي، والمرادُ به ما ينبُت من الأرض سواءٌ كان له ساق أو لا، أو تبعيضيةٌ مجازًا لأنه لما كان سقيُه من الماء جعل كأنه كقوله [الرجز]:

---

(١) في خ: من.
(٢) في خ: أعقب.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: تعدي.

أَسْنِمَةُ الآبالِ في رَبابِه[١]

يعني به المطرَ الذي ينبت [به][٢] الكلأُ الذي [تأكله][٣] الإبلُ فتسمَن أسنمتُها، وفي حديث عكرِمة: (لا تأكُلوا ثمنَ الشجر فإنه سُحْت) يعني الكلأ ﴿فيه تسيمون﴾ ترون من سامت الماشيةُ وأسامها صاحبها، وأصلُها السُّومة وهي العلامةُ لأنها تؤثر بالرعي علاماتٍ في الأرض.

﴿ينبت﴾ أي الله عز وجل، وقرئ[٤] بالنون ﴿لكم به﴾ بما أنزل من السماء ﴿الزرع والزيتون والنخيل والأعناب﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئنافِ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنتُه الجاريةُ على مر[٥] الدهور، أو لاستحضار صورةِ الإنبات، وتقديمُ الظرفين على المفعول الصريحِ لما مر آنفًا مع ما في تقديم أولهما من الاهتمام به لإدخال المسرّةِ ابتداءً، وتقديمُ الزرعِ على ما عداه لأنه أصلُ الأغذية وعَمودُ المعاش، وتقديمُ الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه إدام من وجه وفاكهة من وجه، وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتِها وبقائها، وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفةِ، وتخصيصُ الأنواعِ[٦] المعدودة [بالذكر][٧] مع اندراجها تحت قولِه تعالى: ﴿ومن كل الثمرات﴾ للإشعار بفضلها وتقديمُ الشجر عليها مع كونه غذاءً للأنعام لحصوله بغير صنع من البشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاقِ فإن مقتضاها أن يكون اهتمامُ الإنسان بأمر ما تحت يده أكملَ من اهتمامه بأمر نفسه، أو لأن أكثرَ المخاطَبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرعٌ ولا ثمرٌ، وقيل: المراد تقديمُ ما يسام لا تقديمُ غذائه فإنه غذاءٌ حيوانيّ للإنسان وهو أشرف الأغذية، وقرئ[٨] يَنبُت من الثلاثي مسندًا إلى الزرع وما عُطف عليه.

---

(١) ينظر البيت في: الكامل (٣/ ٩١)، ومشاهد الإنصاف (٣/ ٤٣٣)، والدر المصون (٣/ ٢٥٤).
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: يأكل منه.
(٤) قرأ بها: عاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٢).
(٥) في خ: ممر.
(٦) في خ: الألوان.
(٧) سقط في خ.
(٨) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٧٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٣).

﴿إن في ذلك﴾ أي في إنزال الماءِ وإنباتِ ما فُصّل ﴿لآية﴾ عظيمةً دالةً على تفرده تعالى بالألوهية لاشتماله على كمال العلمِ والقدرةِ والحكمة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فإن من تفكر في أن الحبةَ أو النواة تقع في الأرضِ وتصِل إليها نداوةٌ تنفُذ فيها فينشق أسفلُها فيخرُج منه عروق تنبسط في أعماق الأرضِ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكِسةً في الوقوع ويخرج منه ساقٌ فينمو ويخرج منه الأوراقُ والأزهارُ والحبوبُ والثمار المشتملةُ على أجسام مختلفةِ الأشكال والألوان والخواصِّ والطبائع، وعلى نواة قابلةٍ لتوليد الأمثالِ على النمط المحرر لا إلى نهاية مع اتحاد الموادِّ واستواءِ نسبة الطبائع السفلية والتأثيراتِ العلوية بالنسبة إلى الكل، علم أن منْ هذه أفعاله وآثاره [لا يمكن][(١)] [أن يشبهه][(٢)] شيءٌ في شيء من صفات الكمال فضلًا عن أن يشاركه أخسُّ الأشياء في أخص صفاتِه التي هي الألوهيةُ واستحقاقُ العبادة تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وحيث افتقر سلوكُ هذه الطريقةِ إلى ترتيب المقدّماتِ الفكرية قطَع الآيةَ الكريمةَ بالتفكر.

﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خِلْفةً لمنامكم ومعاشِكم ولعقد الثمار وإنضاجها ﴿والشمس والقمر﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافةً وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحُه من المكونات التي من جملتها ما فُصّل وأُجْمل، كلُّ ذلك لمصالحكم ومنافعكم، وليس المرادُ بتسخيرها لهم تمكينَهم من تصريفها[(٣)] كيف شاؤوا كما في قوله تعالى: ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا﴾ [الزخرف: ١٣] ونظائرِه، بل هو تصريفُه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعُهم ومصالحُهم كأن ذلك تسخيرٌ لهم وتصرفٌ من قبلهم حسب إرادتِهم، وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماءٌ إلى ما في المسخَّرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على أن ذلك أمرٌ واحدٌ مستمر وإن تجددت آثارُه.

﴿والنجومُ مسخراتٌ بأمره﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، أي: سائرُ النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخراتٌ لله تعالى أو لما خُلقن له بإرادته ومشيئتِه، وحيث لم يكن عَودُ منافعِ النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من المَلَوَين[(٤)] والقمَرَين لم يُنسَبْ تسخيرُها إليهم بأداة الاختصاص بل ذُكر على وجه يفيد

(١) في خ: لا يمكنه. (٢) سقط في خ.
(٣) في ط: تصرفها.
(٤) في خ: اللونين، والملوان: الليل والنهار. وهما من المثنى الذي لا يفرد واحده.

كونَها تحت ملكوتِه تعالى من غير دِلالةٍ على شيء آخرَ ولذلك عُدِل عن الجملة الفعليةِ الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار.

وقرئ برفع الشمس[١] والقمر أيضًا، وقرئ[٢] بنصب النجوم على أنه مفعولٌ أولٌ لفعلٍ مقدر ينبئ عنه الفعلُ المذكور، ومسخراتٌ حالٌ من الكل والعامل ما في (سخّر) من معنى نفعَ أي نفعكم بها حالَ كونها مسخراتٍ لله الذي خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خُلقن له بإيجاده وتقديرِه أو لحكمه، أو مصدرٌ ميميّ جُمع لاختلاف الأنواعِ أي أنواعًا من التسخير، وما قيل من أن فيه إيذانًا بالجواب عما عسى يقال أن المؤثرَ في تكوين النباتِ حركاتُ الكواكب وأوضاعُها بأن ذلك إنْ سَلِم فلا ريب في أنها أيضًا أمورٌ ممكنةُ الذات والصفات، واقعةٌ على بعض الوجوه الممْكِنة فلا بد لها من موجد مخصّصٍ مختار واجبِ الوجود دفعًا للدَّوْر والتسَلْسُل، فمبناه حسبانُ ما ذُكر أدلةً على وجودِ الصانع تعالى وقدرته واختيارِه، وأنت تدري أنْ ليس الأمرُ كذلك فإنه ليس مما ينازَع فيه الخصمُ ولا يتلعثم في قبوله، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمواتِ والأرضَ وسخرَ الشمسَ والقمرَ ليقولُن الله فأنى يؤفكون﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ [من][٣] بعد موتها ليقولُن الله﴾ الآية [العنكبوت ٦٣]، وإنما ذلك أدلةُ التوحيد من حيث إن مَنْ هذا شأنُه لا يتوهم أن يشاركه شيءٌ في شيء فضلًا عن أن يشاركه الجمادُ في الألوهية.

﴿إن في ذلك﴾ أي فيما ذكر من التسخير المتعلّق بما ذكر مُجملًا ومفصلًا ﴿لآيات﴾ باهرةً متكاثرة ﴿لقوم يعقلون﴾ وحيث كانت هذه الآثارُ العلويةُ متعددةً ودلالةُ ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمةِ على الوحدانية أظهرَ، جُمعت الآياتُ وعُلّقت بمجرد العقلِ من غير حاجةٍ إلى التأمل والتفكر، ويجوز أن يكون

---

(١) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والتيسير للداني ص (١٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: التيسير للداني ص (١٣٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٣).

(٣) سقط في خ.

المرادُ لقوم يعقلون ذلك، فالمشار إليه حينئذ تعاجيبُ الدقائق المُودعةِ في العلويات المدلولِ عليها بالتسخير التي لا يتصدَّى لمعرفتها إلا المهَرةُ من أساطين علماءِ الحكمة، ولا ريب في أن احتياجَها إلى التفكر أكثرُ. ﴿وما ذرأ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿والنجوم﴾ رفعًا ونصبًا على أنه مفعولٌ لجعل أي وما خلق ﴿لكم في الأرض﴾ من حيوان ونبات حالِ كونه ﴿مختلفًا ألوانه﴾ أي أصنافُه، فإن اختلافها غالبًا يكون باختلاف اللون مسخرٌ لله تعالى أو لما خُلق له من الخواصّ والأحوال والكيفياتِ، أو جُعل ذلك مختلفَ الألوان أي الأصنافِ لتتمتعوا من ذلك بأي صنف شئتم، وقد عُطف على ما قبله من المنصوبات، وعُقّب بأن ذكرَ الخلق لهم مغنٍ عن ذكر التسخير، واعتُذر بأن الأولَ يستلزم الثانيَ لزومًا عقليًا لجواز [كونِ][1] ما خُلق لهم عزيزَ المرام صعبَ المنال، وقيل: هو منصوبٌ بفعل مقدر أي خلق وأنبت على أن قوله: (مختلفًا ألوانه) حالٌ من مفعوله ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر من التسخيرات ونحوها ﴿لآية﴾ بينةَ الدِلالةِ على أن مَنْ هذا شأنُه واحد لا نِدَّ له ولا ضِدّ ﴿لقوم يذكرون﴾ فإن ذلك غيرُ محتاج إلا إلى تذكرِ ما عسى يُغفَل عنه من العلوم الضرورية، وأما ما يقال من أن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانعٍ حكيم، فمدارُه ما لوّحنا به من حسبان ما ذُكر دليلًا على إثبات الصانعِ تعالى، وقدْ عرفتَ حقيقةَ الحال فإن إيراد ما يدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمالِ ليس بطريق الاستدلالِ عليه، بل من حيث إن ذلك من المقدِّمات المسلَّمةِ جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة وحدانيته تعالى واستحالةُ أن يشاركَه شيء في الألوهية.

﴿وهو الذي سخر البحر﴾ شروعٌ في تعداد النعمِ المتعلقة بالبحر إثرَ تفصيل النعمِ المتعلقة بالبر حيوانًا ونباتًا، أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به للركوبَ والغَوْص والاصطياد ﴿لتأكلوا منه لحمًا طريًا﴾ هو السمك، والتعبيرُ عنه باللحم مع كونه حيوانًا للتلويح بانحصار الانتفاعِ به في الأكل، ووصفُه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيهِ على وجوب المسارعةِ إلى أكله كي لا يتسارع إليه الفسادُ كما ينبئ عنه جعلُ البحر مبتدأَ أكلِه، وللإيذان بكمال قدرتِه تعالى في خلقه عذبًا طريًا في ماء زعاق[2]، ومن إطلاق اللحمِ عليه ذهب مالكٌ والثوري أن مَنْ حلف لا يأكلُ اللحم حنِث بأكله، والجوابُ أن مبنى الأيمان العُرفُ، ولا ريب في أنه لا يُفهم من اللحم عند الإطلاق،

---

(١) في خ: أن يكون.
(٢) زَعُق الماء: كان مرا غليظا لا يُطاق شربه.

ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحمِ فجاء بالسمك لم يكن ممتثلًا بالأمر، ألا يرى إلى أن الله تعالى سمّى الكافرَ دابة حَيث قال: ﴿إن شر الدوابِّ عند الله الذين كفروا﴾ [الأنفال، الآية ٥٥] ولا يحنَث بركوبه من حلَف لا يركب دابة ﴿**وتستخرجوا منه حلية**﴾ كاللؤلؤ والمَرْجان ﴿**تلبسونها**﴾ عبر في مقام الامتنان عن لُبس نسائِهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لُبسِهن لأجلهم ﴿**وترى الفلك**﴾ السفن ﴿**مواخرَ فيه**﴾ جواريَ فيه مُقبلةً ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحَيزومها، من المخْر وهو شقُّ الماء، وقيل: هو صوتُ جَرْي الفلك ﴿**ولتبتغوا**﴾ عطف على تستخرجوا وما عُطف هو عليه، وما بينهما اعتراضٌ لتمهيد مبادي الابتغاءِ ودفعِ توهم كونِه باستخراج الحِلية، أو على علة محذوفة أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، ذكره ابن الأنباري أو متعلقة بفعل محذوفٍ أي وفعَل ذلك لتبتغوا ﴿**من فضله**﴾ من سَعة رزقِه بركوبها للتجارة ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ أي تعرِفون حقوقَ نعمِه الجليلةِ فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد، ولعل تخصيصَ هذه النعمةِ بالتعقيب بالشكر من حيث إن فيها قطعًا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلةٍ في مدة قليلة من غير مزاولةِ أسبابِ السفر، بل من غير حركة أصلًا مع أنها في تضاعيف المهالكِ، وعدمُ توسيط الفوزِ بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معًا.

﴿**وألقى في الأرض رواسي**﴾ أي جبالًا ثوابتَ، وقد مر تحقيقُه في أول سورة الرعد ﴿**أن تميد بكم**﴾ كراهةَ أن تميل بكم وتضطربَ، أو لئلا تميدَ بكم فإن الأرضَ قبل أن تُخلقَ فيها الجبالُ كانت كرةً خفيفةً بسيطةَ الطبع، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاكِ أو تتحركَ بأدنى سبب محرِّك، فلما خُلقت الجبال تفاوتت حافّاتُها وتوجهت الجبالُ بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد، وقيل: لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمورُ فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحدٍ على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿**وأنهارًا**﴾ أي وجعل فيه أنهارًا لأن في ألقى معنى الجعل ﴿**وسبلًا لعلكم تهتدون**﴾ بها إلى مقاصدكم ﴿**وعلامات**﴾ معالمَ يَستدِلّ بها السابلةُ بالنهار من جبل وسهلٍ وريح، وقد نُقل أن جماعة يشمّون الترابَ ويتعرفون به الطرقات ﴿**وبالنجم هم يهتدون**﴾ بالليل في البراري والبحارِ حيث لا علامة غيرُه، والمرادُ بالنجم الجنسُ، وقيل: هو الثريا والفَرْقدان وبناتُ نعش والجدي، وقرئ بضمتين[١] وبضمة[٢] وسكون وهو

---

(١) قرأ بها: ابن وثاب، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والمحتسب لابن جني (٢/٨).

(٢) قرأ بها: الحسن، وابن وثاب.

[جمع][1] كرُهْن ورُهُن، وقيل: الأول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضميرَ لقريش فإنهم كانوا كثيري الترددِ للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم، وصرفُ النظمِ عن سنن الخطاب وتقديمُ النجم وإقحامُ الضمير للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم.

﴿أفمن يخلق﴾ هذه المصنوعاتِ العظيمةَ ويفعل هاتيك الأفاعيلَ البديعة، أو يخلق كلَّ شيء ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئًا أصلًا وهو تبكيتٌ للكفرة وإبطالٌ لإشراكهم وعبادتِهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعدادِ ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرًا، وتعقيبُ الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكارِ إلى توهم المشابهةِ المذكورة على ما فصل من الأمور العظيمة الظاهرةِ الاختصاصِ به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يُؤذِن به ما تلوناه من قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ الآيتين [العنكبوت، الآية ٦١]، والاقتصارُ على ذكر الخلقِ من بينها لكونه أعظمَها وأظهرَها واستتباعِه إياها، أو لكون كلٍّ منها خلقًا مخصوصًا أي أبعدَ ظهورِ اختصاصِه تعالى بمبدئية هذه الشؤونِ الواضحةِ الدَّلالةِ على وحدانيته تعالى وتفرّدِه بالألوهية واستبدادِه باستحقاق العبادةِ، يُتصوّر المشابهةُ بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضيةُ إشراكِكم ومدارها وإن كان على نسبةٍ تقوم بالمنتسبين، اختير ما عليه النظمُ الكريم مراعاةً لحقّ سبْقِ الملَكةِ على العدم وتفاديًا عن توسيط عدمِها بينها وبين جزئياتها المفصّلة قبلها وتنبيهًا على كمال قبحِ ما فعلوه من حيث إن ذلك ليس مجردَ رفعِ الأصنام عن محلها بل هو حطٌّ لمنزلة الربوبيةِ إلى مرتبة الجماداتِ، ولا ريب في أنه أقبحُ من الأول، والمرادُ بمن لا يخلق كلُّ ما هذا شأنُه كائنًا ما كان، والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة، أو العقلاءِ خاصة، ويُعرف منه حالُ غيرهم لدِلالة النص فإن من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاءِ، فما ظنُّك بالجماد! وأيًا ما كان فدخولُ الأصنام في حكم عدمِ المماثلة والمشابهةِ إما بطريق الاندراجِ تحت الموصولِ العام وإما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية، لا بأنها هي المرادةُ بالموصول خاصة ﴿أفلا تذكرون﴾ أي ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك! فإنه لوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨).

(١) سقط في خ.

﴿وإن تعدوا نعمة الله﴾ تذكيرٌ إجمالي لنعمه تعالى بعد تعدادِ طائفة منها، وكان الظاهرُ إيرادَه عقيبَها تكملةً لها على طريقة قوله تعالى: ﴿ويخلُق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨] ولعل فصلَ ما بينهما بقوله تعالى: ﴿أفمن يخلُق كمن لا يخلُق أفلا تذكرون﴾ [النحل، الآية ١٧] للمبادرة إلى إلزام الحجةِ وإلقامِ الحجر إثرَ تفصيلِ ما فُصل من الأفاعيل التي هي أدلةُ الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه إن شاء الله، ودَلالتُها عليها وإن لم تكن مقصورةً على حيثية الخلق ضرورةَ ظهور دلالتِها عليها من حيثية الإنعام أيضًا لكنها حيث كانت مستتبعاتِ الحيثيةِ الأولى، استُغنيَ عن التصريح بها ثم بُين [1]حالها بطريق الإجمال أي إن تعدوا نعمته الفائضةَ عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يُعرب [عنه][2] قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ [البقرة، الآية ٢٩] ﴿لا تحصوها﴾ أي لا تطيقوا حصرَها وضبطَ عددِها ولو إجمالًا، فضلًا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عُهدة تحقيقه في سورة إبراهيمَ بفضل الله سبحانه ﴿إن الله لغفور﴾ حيث يستُر ما فرَط منكم من كفرانها والإخلالِ بالقيام بحقوقها، ولا يعاجلُكم بالعقوبة على ذلك ﴿رحيم﴾ حيث يُفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحِرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفرِ التي من جملتها عدمُ الفرق بين الخالقِ وغيرِه، وكلٌّ من ذلك نعمةٌ وأيُّما نعمة، فالجملة تعليلٌ للحكم بعدم الإحصاءِ وتقديمُ وصفِ المغفرة على نعت الرحمةِ لتقدم التخلية على التحلية.

﴿والله يعلم ما تسرون﴾ تُضمرونه من العقائد والأعمال ﴿وما تعلنون﴾ أي تظهرونه منهما، وحُذف العائد لمراعاة الفواصلِ أي يستوي بالنسبة إلى علمه المحيطِ سرُّكم وعلنُكم، وفيه من الوعيد والدِلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الإلٰهية ما لا يخفى، وتقديمُ السرِّ على العلن لما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هودٍ من تحقيق المساواة بين عِلْميه المتعلِّقَين بهما على أبلغ وجهٍ كأن عِلمَه تعالى بالسرّ أقدمُ منه بالعلن، أو لأن كلَّ شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمرٌ في القلب، فتعلّقُ علمه تعالى بحالته الأولى أقدمُ من تعلقه بحالته الثانية ﴿والذين يدعون﴾ شروع في تحقيق كونِ الأصنام بمعزل من استحقاق العبادةِ وتوضيحُه بحيث لا يبقى فيه شائبةُ ريب بتعديد أوصافِها وأحوالِها المنافية لذلك منافاةً ظاهرةً، وتلك الأحوالُ وإن كانت غنيةً عن البيان لكنها شُرحت للتنبيه على كمال حماقةِ عبدَتِها وأنهم لا يعرفون ذلك إلا

(١) في خ: ما لها.

(٢) سقط في خ.

بالتصريح، أي والآلهةُ الذين يعبدهم الكفار ﴿من دون الله﴾ سبحانه، وقرئ[١] على صيغة المبني للمفعول وعلى الخطاب ﴿لا يخلقون شيئًا﴾ من الأشياء أصلًا أي ليس من شأنهم ذلك، ولما لم يكن بين نفي الخالقية وبين المخلوقية تلازمٌ بحسب المفهومِ وإن تلازما في الصدق أُثبت لهم ذلك صريحًا فقيل: ﴿وهم يخلقون﴾ أي شأنُهم ومقتضىٰ ذاتِهم المخلوقيةُ لأنها ذواتٌ ممكنةٌ مفتقرةٌ في ماهياتها ووجوداتها إلى الموجد، وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضادّ والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين ما نُفي عنهم من وصفي المخلوقية والخالقية، وللإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعلِ لظهور اختصاصِ الفعل بفاعله جل جلاله، ويجوز أن يُجعل الخلقُ الثاني عبارةً عن النحت والتصوير رعايةً للمشاكلة بينه وبين الأول ومبالغةً في كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وإيذانًا بكمال ركاكةِ عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقَهم، وأما جعلُ الأول أيضًا عبارةً عن ذلك كما فعل فلا وجه له، إذ القدرةُ على مثل ذلك الخلقِ ليست مما يدور عليه استحقاقُ العبادة أصلًا، ولِما أن إثباتَ المخلوقية لهم غيرُ مستدعٍ لنفي الحياة عنهم لِما أن بعض المخلوقين أحياءٌ صرح بذلك فقيل: ﴿أموات﴾ وهو خبرٌ ثانٍ للموصول لا للضمير كما قيل، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ. وحيث كان بعضُ الأموات مما يعتريه الحياة سابقًا أو لاحقًا كأجساد الحيوان والنطفِ متى يُنشِئها الله تعالى حيوانًا احتُرز عن ذلك فقيل: ﴿غير أحياء﴾ أي لا يعتريها الحياة أصلًا فهي أمواتٌ على الإطلاق وأما قوله تعالى: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي ما يشعر أولئك الآلهةُ أيان يُبعث عَبَدتُهم فعلى طريقة التهكم بهم لأن شعورَ الجماد بالأمور الظاهرة بديهيُّ الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير! وفيه إيذانٌ بأن البعث من لوازم التكليفِ وأن معرفةَ وقته مما لا بد منه في الألوهية.

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

---

(١) قرأ بها: محمد اليماني.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٥).

ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟
ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ
تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا
مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ
بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم
مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن
تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا
لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ
ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ
يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ
رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

الله واحد لا شريك له

﴿إلٰهكم إلٰه واحد﴾ لا يشاركه شيءٌ في شيء، وهو تصريحٌ بالمدعىٰ وتمحيضٌ للنتيجة غِبَّ إقامةِ الحجة ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأحوالِها التي من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقُبه من الجزاء المستلزِم لعقوبتهم وذِلتهم ﴿قلوبهم منكرة﴾ للوَحدانية جاحدةٌ لها أو للآيات الدالة عليها ﴿وهم مستكبرون﴾ عن الاعتراف بها،

أو عن الآيات الدالة عليها، والفاء للإيذان بأن إصرارَهم على الإنكار واستمرارَهم على الاستكبار وقعَ موقع النتيجة للدلائل الظاهرةِ والبراهينِ الباهرة، والمعنى أنه قد ثبت بما قُرّر من الحجج والبينات اختصاصُ الإلٰهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك إصرارُهم على ما ذكر من الإنكار والاستكبار، وبناءُ الحكم المذكورِ على الموصول للإشعار بكونه معللًا بما في حيّز الصلة، فإن الكفرَ بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاءِ المتنوِّع إلى الثواب على الطاعة والعقابِ على المعصية يؤدِّي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراضِ عن الدلائل السمعية والعقليةِ الموجبِ لإنكارها وإنكارِ مؤدّاها، والاستكبارِ عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقِه، وأما الإيمانُ بها وبما فيها فيدعو لا محالة إلى التأمل في الآيات والدلائلِ رغبةً ورهبة فيورث ذلك يقينًا بالوحدانية وخضوعًا لأمر الله تعالى ﴿**لا جرم**﴾ أي حقًا وقد مر تحقيقُه في سورة هود ﴿**أن الله يعلم ما يسرون**﴾ من إنكار قلوبِهم ﴿**وما يعلنون**﴾ من استكبارهم وقولِهم للقرآن أساطيرُ الأولين وغيرِ ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ﴿**إنه لا يحب المستكبرين**﴾ تعليلٌ لما تضمنه الكلامُ من الوعيد، أي لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالةِ عليها أو لا يحب جنسَ المستكبرين، فكيف بمن استكبر عما ذكر.

﴿**وإذا قيل لهم**﴾ أي لأولئك المنكِرين المستكبرين، وهو بيانٌ لإضلالهم غِبَّ بيانِ ضلالهم ﴿**ماذا أنزل ربكم**﴾ القائلُ: الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعضٌ منهم على طريق التهكم، وماذا منصوبٌ بما بعده أو مرفوع، أي: أي شيءٍ أنزل أو ما الذي أنزله ﴿**قالوا أساطير الأولين**﴾ أي ما تدّعون نزوله، والمنزلُ بطريق السخرية أحاديثُ الأولين وأباطيلهم وليس من الإنزال في شيء، قيل: هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخلَ مكةَ ينفِّرون عن رسول الله ﷺ عند سؤال وفودِ الحاجِّ عما نزل عليه عليه السلام ﴿**ليحملوا**﴾ متعلق بقالوا أي قالوا ما قالوا ليحملوا ﴿**أوزارهم**﴾ الخاصةَ بهم وهي أوزارُ ضلالهم ﴿**كاملة**﴾ لم يكفَّرْ منها شيءٌ بنكبة أصابتهم في الدنيا كما يكفّر بها أوزارُ المؤمنين ﴿**يوم القيامة**﴾ ظرفٌ ليحمِلوا ﴿**ومن أوزار الذين يضلونهم**﴾ وبعضِ أوزارِ مَنْ ضل بإضلالهم وهو وِزرُ الإضلال لأنهما شريكان، هذا يُضله وهذا يطاوعه، فيتحاملان الوزر، واللام للتعليل في نفس الأمر من غير أن يكون غرضًا، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على استمرار الإضلالِ أو باعتبار حال قولِهم لا حالِ الحمل ﴿**بغير علم**﴾ حال **من الفاعل** أي يضلونهم غيرَ عالمين بأن ما يدْعون إليه طريقٌ للضلال، وأما حملُه على معنى غيرَ عالمين بأنهم يحمِلون يوم

القيامة أوزارَ الضلال والإضلال، على أن يكون العاملُ[(١)] في الحال[(٢)] قالوا وتأييدُه بما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وأتاهم العذابُ من حيث لا يشعرون﴾ [النحل، الآية ٢٦] من حيث إن حمل ما ذكر من أوزار الضلالِ والإضلال من قبيل إتيانِ العذاب من حيث لا يشعرون ، فيردُّه أن الحملَ المذكورَ إنما هو يوم القيامة والعذابَ المذكور إنما هو العذابُ الدنيوي، كما ستقف عليه، أو حال **من المفعول** أي يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّلٌ، وفائدةُ التقييد بها الإشعارُ بأن مكرهم لا يرُوج عند ذي لُب، وإنما يتبعهم الأغبياءُ والجهلة، والتنبيهُ على أن جهلَهم ذلك لا يكون عذرًا إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحقِّ الحقيقِ بالاتباع وبين المُبطل ﴿**ألا ساء ما يزرون**﴾ أي بئس شيئًا يزرونه ما ذكر.

﴿**قد مكر الذين من قبلهم**﴾ وعيدٌ لهم برجوع غائلة مكرِهم إلى أنفسهم كدأب مَنْ قبلهم من الأمم الخاليةِ الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجلِ، أي قد سوَّوا منصوباتٍ ليمكروا بها رسلَ الله تعالى ﴿**فأتى الله**﴾ أي أمرُه وحكمُه ﴿**بنيانهم**﴾ وقرئ بيتهم[(٣)] وبيوتهم[(٤)] ﴿**من القواعد**﴾ وهي الأساطينُ التي تعمِده أو أساسُه فضعضَعَتْ أركانه ﴿**فخر عليهم السقف من فوقهم**﴾ أي سقط عليهم سقفُ بنيانهم إذ لا يتصور له القيامُ بعد تهدّم القواعدِ، شُبّهت حالُ أولئك الماكرين في تسويتهم المكايدَ[(٥)]

---

(١) في خ: القائل. (٢) في خ: الحالة.

(٣) قرأ بها: جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٧٠).

(٤) قرأ بها: الضحاك.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨٥).

(٥) إشارة إلى أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية المركبة، وهي عدة استعارات فمعنى ﴿فأتى الله بنيانهم﴾ استعارة بتشبيه القاصد للانتقام بالجائي نحو المنتقم منه، وقوله تعالى: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ تمثيل لحالات استئصال الأمم والبنيان مستعار للقوة والعزة والمنعة، وإطلاق البناء على مثل هذا وارد في فصيح الكلام، والقواعد: الأسس التي تحصل عمدًا للبناء يقام عليها السقف، وهو تخييل أو ترشيح إذ ليس في الكلام شيء يشبه بالقواعد، والخرور: السقوط والهوي، ففعل (خر) مستعار لزوال ما به المنعة، والسقف: حقيقة غطاء الفراغ الذي بين جدران البيت يجعل على الجدران ويكون من حجر ومن أعواد، وهو هنا مستعار لما استعير له البناء، ومن مجموع هذه الاستعارات تتركب الاستعارة التمثيلية، وهي تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة، وأزال تلك العزة بهيئة قوم أقاموا بنيانًا عظيمًا ذا دعائم وأووا إليه فاستأصله الله من قواعده، فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعًا.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨٤، ٤٨٥)، والكشاف (٢/ ٤٠٦، ٤٠٧)، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢/ ١٧٥)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٥٦٧)، والتحرير والتنوير (١٤/ ١٤٣، ١٤٤)، =

والمنصوباتِ التي أرادوا بها الإيقاعَ برسل الله سبحانه، وفي إبطاله تعالى تلك الحيلَ والمكايدَ وجعلِه إياها أسبابًا لهلاكهم بحال قوم بنَوا بنيانًا وعمَدوه بالأساطين فأُتيَ ذلك من قِبل أساطينِه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا، وقرئ[١] (فخر عليهم السُّقُفُ) بضمتين ﴿وأتاهم العذاب﴾ أي الهلاك والدمار ﴿من حيث لا يشعرون﴾ بإتيانه منه بل يتوقعون إتيانَ مقابلِه مما يريدون ويشتهون، والمعنى أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطيرُ الأولين سيأتيهم من العذاب مثلُ ما أتاهم وهم لا يحتسبون، والمرادُ به العذابُ العاجل لقوله سبحانه: ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ فإنه عطفٌ على مقدر ينسحب عليه الكلام، أي هذا الذي فُهم من التمثيل من عذاب هؤلاءِ أو ما هو أعمُّ منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤُهم في الدنيا ويوم القيامة يُخزيهم أي يُذِلهم بعذاب الخِزْي على رؤوس الأشهادِ، وأصلُ الخزي ذُلٌّ يُستحْيىٰ منه، وثم للإيماء إلى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخي الزماني، وتغييرُ السبك، بتقديم الظرف، ليس لقصر الخزي على يوم القيامة كما هو المتبادرُ من تقديم الظرف على الفعل بل لأن الإخبارَ بجزائهم في الدنيا مؤذِنٌ بأن لهم جزاءً أخرويًا فتبقىٰ النفسُ مترقبة إلى وروده سائلةً عنه بأنه ماذا، مع تيقنها بأنه في الآخرة فسيق الكلامُ على وجه يُؤذِن بأن المقصود بالذكر إخزاؤهم لا كونُه يوم القيامة، والضمير إما للمفترين في حق القرآنِ الكريم أو لهم ولمن مُثّلوا بهم من الماكرين كما أشير إليه وتخصيصُه بهم يأباه السِّباقُ والسياق كما ستقف عليه.

﴿ويقول﴾ لهم تفضيحًا وتوبيخًا فهو . . . إلخ، بيان للإخزاء ﴿أين شركائي﴾ أضافهم إليه سبحانه حكاية لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخٌ إثر توبيخ مع الاستهزاء بهم ﴿الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي تخاصمون الأنبياءَ والمؤمنين في شأنهم بأنهم شركاءُ حقًا حين بينوا لكم بطلانَها؟ والمرادُ بالاستفهام استحضارُهم للشفاعة أو المدافعةُ على طريقة الاستهزاء والتبكيتِ، والاستفسارُ عن مكانهم لا يوجب غَيبتَهم حقيقةً حتى يُعتذَرَ بأنهم يجوز أن يُحال بينهم وبين عبدَتِهم حينئذ ليتفقدوها في ساعة علقوا بها الرجاءَ فيها، أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيّب، بل يكفي في ذلك عدمُ حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعُمون أنهم متصفون من عنوان الإلٰهية، فليس هناك شركاءُ ولا أماكنُها، على أن قوله ليتفقدوا ليس بسديد فإنه قد تبين عندهم الأمرُ حينئذ

=

والاستعارة التمثيلية شروح التلخيص (٤/ ١٣٤)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها.

(١) قرأ بها: ابن محيصن، والأعرج (ابن هرمز).
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٧)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٩٧).

فرجعوا عن ذلك الزعم الباطلِ فكيف يتصور منهم التفقد! وقرئ[(١)] بكسر النون أي تشاقّونني على أن مشاقّةَ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لا سيما في شأن متعلق به سبحانه مشاقةٌ له عز وجل ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ من أهل الموقفِ وهم الأنبياءُ والمؤمنون الذين أوتوا علمًا بدلائل التوحيدِ وكانوا يدْعونهم في الدنيا إلى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم، أي: يقولون توبيخًا لهم وإظهارًا [للشماتة][(٢)] بهم[(٣)] وتقريرًا لما كانوا يعِظونهم وتحقيقًا لما أوعدوهم به، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على تحققه وتحتّم وقوعِه حسبما هو المعتادُ في إخباره سبحانه وتعالى كقوله: ﴿ونادى أصحابُ الجنة﴾ [الأعراف، الآية ٤٤] ﴿ونادى أصحابُ الأعراف﴾ [الأعراف، الآية ٤٨] ﴿إن الخزيَ﴾ الفضيحةَ والذل والهوان ﴿اليوم﴾ منصوبٌ بالخزي على رأي من يرى إعمالَ المصدرِ المصدّر باللام، أو بالاستقرار في الظرف، وفيه فصلٌ بين العامل والمعمول بالمعطوف إلا إنه مغتفرٌ في الظروف، وإيرادُه للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزّة وشِقاق ﴿والسوءَ﴾ العذاب ﴿على الكافرين﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله.

﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ بتأنيث الفعل، وقرئ[(٤)] بتذكيره وبإدغام التاء في التاء[(٥)]، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لاستحضار صورةِ توفِّيهم إياهم لما فيها من الهول، والموصولُ في محل الجرِّ[(٦)] على أنه نعتٌ للكافرين أو بدلٌ منه أو في محل النصبِ أو الرفع على الذم، وفائدتُه تخصيصُ الخزي والسوءِ بمن استمر كفرُه إلى حينِ الموت دون مَن آمن منهم ولو في آخر عُمره، أي على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن يتوفاهم الملائكة ﴿ظالمي أنفسِهم﴾ أي حالَ كونهم مستمرين على الكفر فإنه ظلمٌ منهم لأنفسهم وأيُّ ظلم، حيث عرّضوها للعذاب المخلّد وبدّلوا فطرةَ الله تبديلًا ﴿فألقوا السلم﴾ أي فيُلقون، والعدولُ إلى صيغة الماضي للدلالة على

---

(١) قرأ بها: نافع، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٨)، والتيسير للداني ص (١٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢١٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧١)، والنشر لابن الجزري ص (٢/ ٣٠٢).

(٢) سقط في خ.

(٣) زاد في خ: المشامتة.

(٤) قرأ بها: حمزة، وعاصم، والأعمش، وخلف، وحفص.
ينظر: الحجة لابن خالويه (٢١٠)، والحجة لأبي زرعة (٣٨٨)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٣).

(٥) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨٦).

(٦) في خ: الرفع.

تحقق الوقوعِ وهو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿ويقول أين شركائيَ﴾ وما بينهما جملةٌ اعتراضية جيء بها تحقيقًا لما حاق بهم من الخزي على رؤوس الأشهادِ، أي فيُسالمون ويتركون المُشاقّةَ وينزِلون عما كانوا عليه في الدنيا من الكِبْر وشدةِ الشكيمة قائلين: ﴿ما كنا نعمل﴾ في الدنيا ﴿من سوء﴾ أي من شرك، قالوه منكِرين لصدوره عنهم كقولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام، الآية ٢٣] وإنما عبروا عنه بالسوء اعترافًا بكونه سيئًا لا إنكارًا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم، ويجوز أن يكون تفسيرًا للسَّلَم على أن يكون المرادُ به الكلامَ الدالَّ عليه، وعلى التقديرين فهو جوابٌ عن قوله سبحانه: ﴿أين شركائي﴾ [النحل، الآية ٢٧] كما في سورة الأنعام لا عن قول أولي العلمِ ادعاءً لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزي والسوء ﴿بلى﴾ ردٌّ عليهم من قِبل أولي العلم وإثباتٌ لما نفَوْه أي بلى كنتم تعملون ما تعملون ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانُه.

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ أي كلُّ صنف من بابه المعدِّ له، وقيل: أبوابُها أصنافُ عذابها فالدخولُ عبارةٌ عن الملابسة والمقاساة ﴿خالدين فيها﴾ إن أريد بالدخول حدوثُه فالحال مقدّرة، وإن أريد مطلقُ الكون فيها فهي مقارِنة ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ عن التوحيد كما قال تعالى: ﴿قلوبُهم منكرةٌ وهم مستكبرون﴾ [النحل، الآية ٢٢] وذكرُهم بعنوان التكبر للإشعار بعلّيته لثُوائهم فيها، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي جهنم وتأويلُ قولهم: ﴿ما كنا نعمل منْ سوء﴾ [النحل، الآية ٢٨] بأنا ما كنا عاملين ذلك في اعتقادنا رَوْمًا[1] للمحافظة على أن لا كذِبَ ثمة يرده الردُّ المذكور وما في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿انظُر كيف كذَبوا على أنفسهم﴾ [الأنعام: ٢٤].

منطق المؤمنين وجزاؤهم

﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أي المؤمنين، وُصفوا بالتقوى إشعارًا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئٌ عن التقوى ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيرًا﴾ سلكوا في الجواب مسلك السؤالِ من غير تلعثم ولا تغييرٍ في الصورة، والمعنى أي أنزل خيرًا فإنه جوابٌ مطابق للسؤال ولسبك الواقع في نفس الأمر مضمونًا، وأما الكفرةُ فإنهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجوابَ عن نهج الحق الواقعِ الذي ليس له من دافع غيّروا صورتَه وعدَلوا بها عن سَنن السؤال حيث رفعوا الأساطير رَومًا لما مر من إنكار النزول. رُوي أن أحياءَ العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي عليه السلام، فإذا جاء

(١) في خ: دومًا.

الوافد كفّه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا: إن لم تلْقَه كان خيرًا لك، فيقول: أنا شرُّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمرَ محمد وأراه فيلقى أصحابَ النبي ﷺ ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحالِ فهم الذين قالوا خيرًا ﴿للذين أحسنوا﴾ أي أعمالَهم أو فعلوا الإحسانَ ﴿في هذه﴾ الدار ﴿الدنيا حسنة﴾ أي مثوبةٌ حسنةٌ مكافأة فيها ﴿ولدار الآخرة﴾ أي مثوبتُهم فيها ﴿خير﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة أو خيرٌ على الإطلاق فيجوز إسنادُ الخيرية إلى نفس دارِ الآخرة ﴿ولنعم دار المتقين﴾ أي دار الآخرة، حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدَح الله تعالى به المتقين وعدّ جوابَهم المَحْكيَّ من جملة إحسانِهم ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة فلا محل له من الإعراب، أو بدلٌ من خيرًا أو تفسير له أي أنزل خيرًا هو هذا الكلامُ الجامعُ، قالوه ترغيبًا للسائل.

﴿جنات عدن﴾ خبرُ مبتدإٍ محذوف أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي لهم جنات، ويجوز أن يكون هو المخصوصَ بالمدح ﴿يدخلونها﴾ صفةٌ لجناتُ على تقدير تنكيرِ عدنٍ وكذلك ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أو كلاهما حال على تقدير عَلَميته ﴿لهم فيها﴾ في تلك الجنات ﴿ما يشاءون﴾ الظرفُ الأول خبرٌ لما والثاني حالٌ منه والعاملُ ما في الأول، أو متعلق به أي حاصلٌ لهم فيها ما يشاؤون من أنواع المشتَهيات، وتقديمُه للاحتراز عن توهم تعلّقِه بالمشيئة أو لما مر مرارًا من أن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ يوجب ترقبَ النفسِ إليه فيتمكن عند ورودِه عليها فضلَ تمكن ﴿كذلك﴾ مثلَ ذلك الجزاءِ الأوفى ﴿يجزي الله المتقين﴾ اللام للجنس أي كلَّ من يتقي من الشِرْك والمعاصي ويدخُل فيه المتقون المذكورون دخولًا أوليًا، ويكون فيه بعثٌ لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسيرٌ للكفرة ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ نعت للمتقين وقوله تعالى: ﴿طيبين﴾ أي طاهرين عن دنس الظلم لأنفسهم حال من الضمير، وفائدتُه الإيذانُ بأن مَلاكَ الأمر في التقوى هو الطهارةُ عما ذكر إلى وقت توفيهم ففيه حثٌّ للمؤمنين على الاستمرار على ذلك، ولغيرهم على تحصيله، وقيل: فرحين طيِّبي النفوسِ ببشارة الملائكة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحِهم لتوجه نفوسِهم بالكلية إلى جناب القُدس ﴿يقولون﴾ حالٌ من الملائكة أو قائلين لهم: ﴿سلام عليكم﴾ قال القُرَظِيّ رحمه الله: إذا استُدْعيَت نفسُ المؤمن جاءه ملكُ الموت عليه السلام، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله تعالى [يقرأ عليك][1] السلام[2]، وبشّره بالجنة.

---

(١) في خ: يقرئك.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (١٧/ ١٩٨)، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٣/ ٨٩٨) برقم (٤٣٨)، =

﴿ادخلوا الجنة﴾ اللام للعهد أي جناتِ عدن . . . إلخ، ولذلك جُرّدت عن النعت، والمرادُ دخولُهم لها في وقته فإن ذلك بشارةٌ عظيمة وإن تراخىٰ المبشَّرُ به لا دخولُ القبر الذي هو روضةٌ من رياضها إذ ليس في البِشارة به ما في البشارة بدخول نفسِ الجنة ﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب ثباتِكم على التقوى والطاعة أو بالذي كنتم تعملونه من ذلك، وقيل: المرادُ بالتوفّي التوفي للحشر، لأن الأمر بالدخول حينئذ يتحقق.

عودة إلى كفار مكة

﴿هل ينظرون﴾ أي ما ينتظر كفارُ مكةَ المارُّ ذكرُهم ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحِهم بالعذاب، جُعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظارِه لا لأنه يلحقهم ألبتةَ لحوق الأمر المنتظرِ بل لمباشرتهم لأسبابه الموجبةِ له المؤديةِ إليه، فكأنهم يقصِدون إتيانَه ويترصّدون لوروده، وقرئ[1] بتذكير الفعل ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعارٌ[2] بأن إتيانَه لطفٌ به عليه الصلاة والسلام وإن كان عذابًا عليهم، والمرادُ بالأمر العذابُ الدنيويُّ لا القيامةُ[3]، لكن لا لأن انتظارَها بجامع انتظارِ [إتيان][4] الملائكةِ فلا يلائمه العطفُ بأو لأنها ليست نصًّا في العناد إذ يجوز أن يعتبر منعُ[5] الخلوّ ويرادَ بإيرادها كفايةُ كل واحد من الأمرين في عذابهم بل لأن قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلِمون فأصابهم﴾ الآية [النحل، الآية ٣٣]، صريحٌ في أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوي ﴿كذلك﴾ أي مثلَ فعلِ هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿فعل الذين﴾ خلَوا ﴿من قبلهم﴾ من الأمم ﴿وما ظلمهم الله﴾ بما سيُتلى من عذابهم ﴿ولكن كانوا﴾ بما كانوا مستمرين عليه من القبائح

= وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٧)، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٦) برقم (٤٠٢).

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويحيى بن وثاب، وطلحة، والأعمش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٨)، والبحر المحيط (٤/ ٤٨٩)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٧٧)، والتيسير للداني ص (١٣٧)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١٠٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢١٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٧٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٨)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٣).

(٢) في خ: إشعارًا.

(٣) في خ: القيمة.

(٤) سقط في خ.

(٥) في خ: معنى.

الموجبةِ لذلك ﴿**أنفسهم يظلمون**﴾ كان الظاهرُ أن يقال: ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظمُ الكريم لإفادة أن غائلةَ ظلمِهم آيلةٌ إليهم وعاقبتَه مقصورةٌ عليهم مع استلزام اقتصارِ ظلمِ كل أحد على نفسه من حيث الوقوعُ اقتصارَه عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقُه في سورة يونس.

﴿**فأصابهم**﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ [النحل، الآية ٣٣] وما بينهما اعتراضٌ لبيان [أن][١] فعلَهم على ذلك ظلمٌ لأنفسهم ﴿**سيئات ما عملوا**﴾ أي أجزيةُ أعمالِهم السيئة على طريقة تسمية المسبَّب باسم سببِه إيذانًا لفظاعته[٢] لا على حذف المضاف فإنه يوهم أن لهم أعمالًا غيرَ سيئاتهم ﴿**وحاق بهم**﴾ أي أحاط بهم من الحَيق الذي هو إحاطةُ الشر، وهو أبلغ من الإصابة وأفظع ﴿**ما كانوا به يستهزئون**﴾ من العذاب.

﴿**وقال الذين أشركوا**﴾ أي أهلُ مكة، وهو بيانٌ لفن آخرَ من كفرهم والعدولُ عن الإضمار إلى الموصول لتقريعهم بما[٣] في حيز الصلة وذمِّهم بذلك من أول الأمر ﴿**لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء**﴾ أي لو شاء عدم عبادتِنا لشيء غيرِه كما تقول لما عبدنا ذلك ﴿**نحن ولا آباؤنا**﴾ الذين نقتدي بهم في ديننا ﴿**ولا حرمنا من دونه من شيء**﴾ من السوائب والبحائرِ وغيرِها، وإنما قالوا ذلك تكذيبًا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنًا في الرسالة رأسًا متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأْ يمتنع، فلو أنه شاء أن نوحّده ولا نشرِكَ به شيئًا ولا نحرِّمَ مما حرمنا شيئًا كما

---

(١) سقط في خ.

(٢) إشارة إلى أن الآية من قبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية، وفيه جمع بين العقوبة وسببها، والمجاز المرسل باب من أبواب علوم البيان وقد مضى الحديث عنه.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (١/ ٥٧، ٦٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠) وما بعدها، وأسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٦) وما بعدها، والصناعتين (١٥) وما بعدها، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام (٢٨) وما بعدها، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٢٩٩)، والإشارات والتنبيهات للجرجاني (٢٠٣) وما بعدها، والمطول (٣٥٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم (٥٣) وما بعدها، والخصائص لابن جني (٢/ ٤٤٢ - ٤٤٦)، والإحكام للآمدي (١/ ٤٦) وما بعدها، والفوائد (١٠) وما بعدها، وبدائع الفوائد (٤/ ٢٠٥) وما بعدها، والطراز للعلوي (١/ ٦٩ - ٧٣)، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع (١٧٨، ١٧٩)، والحاشية الجديدة على شرح عصام الفريدة (١/ ٣٥١).

(٣) في خ: لما.

يقول[١] الرسلُ وينقُلونه من جهة الله عز وجل لكان الأمرُ كما شاء من التوحيد ونفي الإشراكِ وما يتبعهما[٢]، وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئًا من ذلك، وإنما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل: ﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك الفعلِ الشنيع ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ من الأمم، أي أشركوا بالله وحرموا حِلَّه وردوا رسلَه وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ وهدوهم[٣] إلى الحق.

﴿فهل على الرسل﴾ الذين يبلغون رسالاتِ الله وعزائمَ أمره ونهيِه ﴿إلا البلاغُ المبين﴾ أي ليست وظيفتُهم إلا تبليغَ الرسالة تبليغًا واضحًا أو موضِّحًا وإبانة طريقَ الحق وإظهارَ أحكام الوحي التي من جملتها تحتّمُ تعلقِ مشيئةِ الله تعالى باهتداء مَنْ صَرَف قدرتَه واختيارَه إلى تحصيل الحق لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنَهْدينّهم سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأما إلجاؤهم إلى ذلك وتنفيذُ قولِهم عليهم شاؤوا أو أبَوا كما هو مقتضىٰ استدلالِهم، فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي عليها يدور أمرُ التكليفِ في شيء حتى يُستدلَّ بعدمِ ظهور آثارِه على عدم حقّية الرسلِ أو على عدم تعلقِ مشيئتِه تعالى بذلك، فإن ما يترتب عليه الثوابُ والعقابُ من أفعال العباد لا بد في تعلق مشيئتِه تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختياريةِ له وصرفِ اختيارِهم الجزئيِّ إلى تحصيله وإلا لكان الثواب والعقاب اضطراريَّيْن، فالفاءُ للتعليل كأنه قيل: كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فإن الرسلَ ليس شأنُهم إلا تبليغَ أوامرِ الله تعالى ونواهيه لا تحقيقَ مضمونِهما وإجراءَ موجبهما على الناس قسرًا وإلجاءً، وإيرادُ كلمة (على) للإيذان بأنهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حقٌّ للناس عليهم إيفاؤُه. [بهذا ظهر][٤] أن حملَ قولِهم: ﴿لو شاء الله﴾ [النحل، الآية ٣٥] . . . إلخ، على الاستهزاء لا يلائم الجواب، والله تعالى أعلم بالصواب.

وحدة الرسالات

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا﴾ تحقيقٌ لكيفية تعلقِ مشيئتِه تعالى بأفعال العبادِ بعد بيانِ أن الإلجاءَ ليس من وظائف الرسالةِ ولا من باب المشيئةِ المتعلقةِ بما يدور عليه الثوابُ والعقاب من الأفعال الاختياريةِ لهم، أي بعثنا في كل أمة من الأمم الخالية رسولًا خاصًا بهم ﴿أن اعبدوا الله﴾ يجوز أن تكون (أن) مفسرةً لما في البعث من معنى القول وأن تكون مصدريةً، أي بعثنا بأن اعبدوا الله وحده ﴿واجتنبوا

---

(١) في خ: يقوله.
(٢) في خ: وما بينهما.
(٣) في خ: وهددوهم.
(٤) في خ: وهذا ظاهر.

الطاغوت﴾ هو الشيطانُ وكلُّ ما يدعو إلى الضلالة ﴿فمنهم﴾ أي من تلك الأمم، والفاء فصيحة، أي فبلَّغوا ما بُعثوا به من الأمر بعبادة الله وحده واجتنابِ الطاغوت فتفرقوا فمنهم ﴿من هدى الله﴾ إلى الحق الذي هو عبادتُه واجتنابُ الطاغوت بعد صَرْفِ قدرتهم واختيارِهم الجزئيِّ إلى تحصيله ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي وجبت وثبتت إلى حين الموت لعِناده وإصرارِه عليها وعدم صرفِ قدرته إلى تحصيل الحق، وتغيير الأسلوبِ للإشعار بأن ذلك لسوء اختيارِهم كقوله تعالى: ﴿وإذا مرضْتُ فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٨٠] فلم يكن كلٌّ من مشيئة الهدايةِ وعدمِها إلا حسبما حصل منهم من التوجهُ إلى الحق وعدمِه، لا بطريق القسرِ والإلجاءِ حتى يُستدلَ بعدمهما على عدم تعلقِ مشيئتِه تعالى بعبادتهم له تعالى وحده ﴿فسيروا﴾ يا معشرَ قريش ﴿في الأرض فانظروا﴾ في أكنافها ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من عاد وثمودَ ومن سار سيرتَهم ممن[1] حقت عليهم الضلالةُ لعلكم تَعتبرون حين تشاهدون في منازلهم وديارهم آثارَ الهلاك والعذابِ. وترتيبُ الأمرِ بالسير على مجرد الإخبارِ بثبوت الضلالةِ عليهم من غير إخبارٍ بحلول العذابِ للإيذان بأنه غنيٌّ عن البيان وأنْ ليس الخبرُ كالعِيان، وترتيبُ النظر على السير لما أنه بعده وأن[2] مَلاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيبُ والتعلّلُ بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء.

﴿إن تحرص﴾ خطاب[3] لرسول الله ﷺ، وقرئ[4] بفتح الراء وهي لغة ﴿على هداهم﴾ أي إن تطلب هدايتَهم بجهدك ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهدايةَ جبرًا وقسرًا[5] فيمن يخلق فيه الضلالةَ بسوء اختيارِه، والمرادُ به قريش، وإنما وضع الموصولُ موضعَ الضمير للتنصيص على أنهم ممن حقت عليه الضلالةُ وللإشعار بعلة الحكم، ويجوز أن يكون المذكورُ[6] علةً للجزاء المحذوف، أي إن تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لأن الله لا يهدي [من يُضله وهؤلاء من جملتهم، وقرئ[7] لا يُهدىٰ][8] على بناء المفعول أي لا يقدر أحدٌ على هداية من

(١) في خ: بمن. (٢) زاد في خ: كان.
(٣) في خ: خطابًا.
(٤) قرأ بها: إبراهيم النخعي، والحسن، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩).
(٥) في خ: وقهرًا. (٦) في خ: الذكور.
(٧) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأعرج، ومجاهد، وشيبة، وشبل، ومزاحم الخراساني، والعطاردي، وابن سيرين، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٨)، والتيسير للداني (١٣٧)، والحجة لابن خالويه (٢١٠)، والحجة =

يضله الله تعالى، وقرئ[١] [لا يَهدّي][٢] بفتح الياء وإدغام تاء يهتدي في الدال، ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي، وقرئ[٣] يضل بفتح الياء، وقرئ[٤] لا هاديَ لمن يُضِل و(لمن أضل)[٥] ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم في الهداية [أو][٦] يدفعون العذابَ عنهم، وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية في الضمير فإن مقابلةَ الجمعِ بالجمع يقتضي انقسامَ الآحادِ إلى الآحاد لا لأن المرادَ نفيُ طائفةٍ من الناصرين من كل منهم.

﴿وأقسموا بالله﴾ شروع في بيان فن آخرَ من أباطيلهم وهو إنكارُ البعث ﴿جهد أيمانهم﴾ مصدرٌ في موقع الحال أي جاهدين في أيمانهم ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغَ ردٍّ بقوله الحق ﴿بلى﴾ أي بلى يبعثهم ﴿وعدًا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه بلى، فإن ذلك موعدٌ من الله سبحانه، أو المحذوفِ، أو وعَد بذلك وعدًا ﴿عليه﴾ صفة لوعدًا أي وعدًا ثابتًا عليه إنجازُه لامتناع الخُلفِ في وعده، أو لأن البعثَ من مقتضيات الحِكمة ﴿حقًا﴾ صفةٌ أخرى له أو نصبٌ على المصدرية أي حقَّ حقًا ﴿ولكن أكثر الناس﴾ لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرةِ والحكمة وغيرِها من صفات الكمالِ، وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفِهم على سرّ التكوين والغايةِ القصوى منه، وعلى أن البعثَ مما يقتضيه الحكَمةُ التي جرت عادتُه سبحانه[٧] بمراعاتها ﴿لا يعلمون﴾ أنه يبعثهم فيبْنون[٨] القولَ بعدمه أو أنه وعدٌ [عليه حق][٩] فيكذبونه قائلين: ﴿لقد وُعِدنا نحن وآباؤُنا هذا من قبلُ إنْ هذا

= لأبي زرعة (٣٨٩)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٣٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(٨) سقط في خ.

(١) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٩٧)، والبحر المحيط (٥/ ٤٩٠).

(٢) سقط في خ.

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٩).

(٤) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٩).

(٥) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٩٠)، الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٠٩).

(٦) في خ: و.

(٧) في خ: تعالى.

(٨) في خ: فيثبتون.

(٩) سقط في خ.

إلا أساطيرُ الأولين﴾ [المؤمنون، الآية ٨٣].

﴿ليبين لهم﴾ غايةٌ لما دل عليه بلى[١] من البعث، والضمير لمن يموت إذ التبيينُ يعم المؤمنين أيضًا فإنهم وإن كانوا عالمين بذلك لأنه عند معاينةِ حقيقةِ الحال يتضح الأمرُ فيصل علمُهم إلى مرتبة عينِ اليقين، أي يبعثهم ليبينَ لهم بذلك وبما يحصُل لهم من مشاهدة الأحوالِ كما هي ومعاينتِها بصورها الحقيقيةِ الشأن ﴿الذي يختلفون فيه﴾ من الحق المنتظمِ لجميع ما خالفوه مما جاء به الشرعُ المبين ويدخل فيه البعثُ دخولًا أوليًا ﴿وليعلم الذين كفروا﴾ بالله سبحانه بالإشراك وإنكارِ البعث وتكذيبِ وعده الحق ﴿أنهم كانوا كاذبين﴾ في كل ما يقولون لا سيما في قولهم: لا يبعث الله من يموت، والتعبيرُ عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللإشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلةِ للتبيين وما عُطف عليه وما جعلهما غاية للبعث المشار إليه باعتبار ورودِه في معرِض الردّ على المخالفين، وإبطال مقالةِ المعاندين المستدعي للتعرض لما يردعهم[٢] عن المخالفة ويُلجِئهم إلى الإذعان للحق، فإن الكفرة إذا علِموا أن تحقيقَ البعث إذا كان لتبيين[٣] أنه حق وليعلموا أنهم كانوا كاذبين في إنكاره كان ذلك أزجرَ لهم عن إنكاره وأدعى إلى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمةِ على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلّي: لأصَلينّ رغمًا لأنفك وإظهارًا لكذبك[٤]، ولأن تكررَ الغايات أدلُّ على وقوع الفعل المُغيّا بها وإلا فالغايةُ الأصلية للبعث[٥] باعتباره ذاتَه إنما [هو][٦] الجزاءُ الذي هو الغايةُ القصوى للخلق المُغيّا بمعرفته عز وجل وعبادته، وإنما لم يُذكر ذلك لتكرر ذكرِه في مواضعَ أُخَرَ وشهرتِه، وإنما لم يُدرَج علمُ الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال: وإن الذين كفروا كانوا كاذبين، بل جيء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما[٧] تعلق به التبيينُ الذي هو عبارةٌ عن إظهار ما كان مُبهمًا قبل ذلك بأن يخبرَ به فيُختلفَ فيه، كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون، وأما كذِبُ الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علمٌ ضروريٌّ حاصل لهم من قِبل أنفسِهم، وقد مر تحقيقُه في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ [التوبة: ٤٣] وإنما خُص الإسنادُ بهم حيث لم يقل: (وليعلموا أن الكافرين)، لأن علمَ المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضًا.

---

(١) زاد في خ: بعثا.
(٢) في خ: يروهم.
(٣) في خ: ليتبين.
(٤) في خ: لمكذبك.
(٥) في خ: للأصل.
(٦) سقط في خ.
(٧) في خ: مما ليس.

﴿إنما قولنا﴾ استئناف لبيان كيفية التكوينِ على الإطلاق إبداءً وإعادةً بعد التنبيهِ على آنية البعثِ، ومنه يظهر كيفيتُه، [فما][1] كافةٌ وقولُنا مبتدأ وقوله: ﴿لشيء﴾ أي أيِّ شيءٍ كان مما عز وهان متعلقٌ به، على أن اللامَ للتبليغ كهي في قولك: قلت له قم فقام، وجعلها الزجاجُ سببيةً أي لأجل شيءٍ وليس بواضح، والتعبيرُ عنه بذلك باعتبار وجودِه عند تعلق مشيئتِه تعالى به لا أنه كان شيئًا قبل ذلك ﴿إذا أردناه﴾ ظرفٌ لقولنا أي وقت إرادتِنا لوجوده ﴿أن نقول له كن﴾ خبر للمبتدأ ﴿فيكون﴾ إما **عطفٌ** على مقدر يُفصِحُ [عنه][2] الفاء وينسحب عليه الكلام، أي: فنقول[3] ذلك فيكون كقوله تعالى: ﴿فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ [غافر، الآية ٦٨] وإما **جوابٌ** لشرط[4] محذوف أي فإذا قلنا ذلك فهو يكون، وليس هناك قولٌ ولا مقولٌ له ولا أمرٌ ولا مأمورٌ حتى يقال إنه يلزم منه أحدُ المُحالين إما خطابُ المعدومِ أو تحصيلُ الحاصل، أو يقال إنما يستدعيه انحصار قوله تعالى: ﴿كن﴾ وليس يلزم منه انحصارُ أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقولَ له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢]. فإن المرادَ بالأمر هو الشأنُ الشاملُ للقول والفعل ومن ضرورة انحصارِه في كلمة كن انحصارُ أسبابه على الإطلاق فيه، بل إنما هو تمثيلٌ لسهولة تأتّي المقدورات[5] حسب تعلقِ مشيئتِه تعالى بها وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو عَلَمٌ في ذلك من طاعة المأمورِ المطيعِ لأمر الآمر المُطاع، فالمعنى إنما إيجادُنا لشيء عند تعلق مشيئتِنا به أن نوجدَه في أسرع ما يكون، ولمّا عُبِّر عنه بالأمر الذي هو قولٌ مخصوصٌ وجب أن يُعبّر عن مطلق الإيجادِ بالقول المطلقِ فتأمل، وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالةِ ما يحار فيه العقولُ والألباب، وقرئ[6] بنصب يكون عطفًا على نقول أو تشبيهًا له بجواب الأمر.

﴿والذين هاجروا في الله﴾ أي في شأن الله تعالى ورِضاه وفي حقه ولوجهه ﴿من بعد ما ظلموا﴾ ولعلهم الذين ظلمهم أهلُ مكة من أصحاب رسول الله ﷺ وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا إلى الحبشة ثم بوّأهم الله تعالى المدينةَ حسبما وعد بقوله

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: فيقول.
(٤) في خ: شرط.
(٥) أي من قبيل الاستعارة التمثيلية وقد مضى الحديث عنها في مواضيع متعددة.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها.
(٦) قرأ بها: ابن عامر، والكسائي، وابن محيصن، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٨)، والتيسير للداني (١٣٧)، والحجة لابن خالويه (٢١١)، والحجة لأبي زرعة (٣٨٩)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).

سبحانه: ﴿لنبوّئنهم في الدنيا حسنة﴾ أي مَباءةً حسنةً أو تبوئةً حسنة كما قال قتادة وهو الأنسبُ بما هو المشهورُ من كون السورةِ غيرَ ثلاثِ آياتٍ من آخرها مكيةً. وأما ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنها نزلت في صهيبٍ وبلالٍ وعمارٍ وخبابٍ وعابس وجُبير وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون فجعلوا يعذّبونهم ليردوهم عن الإسلام، فأما صهيبٌ فقال لهم: أنا رجلٌ كبير إن كنت معكم لم أنفعْكم وإن كنت عليكم لم أضركم[1]، فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال: ربح البيعُ يا صهيب، وقال عمر رضي الله عنه: «نعم العبدُ صُهيب لو لم يخفِ الله لم يَعْصِمْه»[2] فإنما يناسب ما حُكي عن الأصم من كون كل السورةِ مدنيةً، وما نقل عن قتادةَ من كون هذه الآية إلى آخر السورةِ مدنيةً فيُحمل ما نقلناه عنه من نزول الآيةِ في أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولُها بالمدينة بين الهجرتين، وأما جعلُ رسول الله ﷺ من جملتهم فلا يساعده نظمُ التنزيلِ ولا شأنُه الجليل، وقرئ[3] لنُثْوِينّهم ومعناه إثواءةً حسنةً أو لنُنزّلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغَلبةُ على من ظلمهم من أهل مكةَ وعلى العرب قاطبةً وأهلِ الشرقِ والغربِ كافة ﴿ولأجر الآخرة﴾ أي أجرُ أعمالِهم المذكورةِ في الآخرة ﴿أكبر﴾ مما يعجّل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطىٰ رجلًا من المهاجرين عطاءً قال له: خُذ بارك الله تعالى لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادّخر في الآخرة أفضلُ[4] ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارين لوافقوهم في الدين، وقيل: للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لَما تألموا لما أصابهم من المهاجَرة وشدائدِها.

﴿الذين صبروا﴾ على الشدائد من أذية الكفار ومفارقةِ الأهل والوطن وغيرِ ذلك، ومحلُّه النصبُ أو الرفع على المدح ﴿وعلى ربهم﴾ خاصة ﴿يتوكلون﴾ منقطعين إليه تعالى معرِضين عما سواه مفوِّضين إليه الأمرَ كلَّه، والجملةُ إما **معطوفةٌ** على الصلة وتقديمُ الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكلِ على الله تعالى وصيغةُ الاستقبال

---

(١) ذكره السمرقندي في تفسيره (١/ ١٦٣).

(٢) ذكره الزركشي في التذكرة ص (١٦٩) وقال: لم أقف له على أصل، وسُئِلَ بعض شيوخنا الحفاظ عنه فلم يعرفوه.

(٣) قرأ بها: علي، وعبد الله بن مسعود، ونعيم، وابن ميسرة، والربيع بن خثيم. ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٩٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٠٦).

للدلالة على دوام التوكل، أو **حالٌ** من ضمير[(١)] صبروا.

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم﴾ وقرئ[(٢)] بالياء مبنيًا للمفعول وهو ردٌّ لقريش حين قالوا: الله أجلُّ[(٣)] من أن يكون له رسولٌ من البشر، كما هو مبْنيٌ[(٤)] قولِهم: ﴿لو شاء الله ما عبَدْنا﴾ [النحل، الآية ٣٥] إلخ، أي جرت السنةُ الإلٰهيةُ حسبما اقتضتْه الحكمةُ بأن لا يَبعَثَ للدعوة العامة إلا بشرًا يوحي إليهم بواسطة الملَك أوامرَه ونواهيَه ليبلّغوها الناس. ولما كان المقصودُ من الخطاب لرسول الله ﷺ تنبيهَ[(٥)] الكفار على مضمونه صُرف الخطاب إليهم فقيل: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ أي أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبار أو كلَّ من يُذكرُ بعلم وتحقيقٍ ليعلّموكم ذلك ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾ حُذف جوابُه لدِلالة ما قبله عليه، وفيه **دَلالةٌ** على أنه لم يُرسِلْ للدعوة العامة ملَكًا، وقولُه تعالى: ﴿جاعلُ الملائكة رسلًا﴾ [فاطر: ١] معناه رسلًا إلى الملائكة أو إلى الرسل، ولا امرأةً ولا صبيًا، ولا ينافيه نبوةُ عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في المهْد لأنها أعمُّ من الرسالة، **وإشارةٌ** إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يُعلم ﴿بالبينات والزبر﴾ بالمعجزات والكتبِ، والباءُ متعلقةٌ **بمقدر** وقع جوابًا عن سؤال من قال: بمَ أُرسلوا؟ فقيل: أرسلوا بالبينات والزبر، أو بما **أرسلنا** داخلًا تحت الاستثناء مع رجالًا عند من يجوّزه، أي ما أرسلنا إلا رجالًا بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيدًا بالسوط، أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناءِ أي ما أرسلنا [من][(٦)] قبلك بالبينات [والزبر إلا رجالًا عند من يجوّز تأخرَ صلةِ ما قبل إلا إلى ما بعده، أو بما وقع صفةً للمستثنى أي إلا رجالًا ملتبسين بالبينات][(٧)] أو بـ (نوحي) على المفعولية أو الحالية من القائم مقامَ فاعل يوحىٰ وهو إليهم على أن قوله تعالى: ﴿فاسألوا﴾ اعتراضٌ أو بقوله ﴿لا تعلمون﴾ على أن الشرطَ للتبكيت كقول الأجير: إن كنت عمِلْتُ لك فأعطِني حقي.

﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي القرآنَ، وإنما سُمّي به لأنه تذكيرٌ وتنبيهٌ للغافلين ﴿لتبين للناس﴾ [كافةً ويدخل فيهم أهلُ مكة دخولًا أوليًا ﴿ما نزل إليهم﴾][(٨)] في ذلك الذكرِ

---

(١) زاد في خ: الذين.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وخلف، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٨)، والتيسير للداني (١٣٧)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٣)، والغيث للصفاقسي (٢٧٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).

(٣) في خ: أحمله.

(٤) في خ: مبين.

(٥) في خ: بتنبيه.

(٦) سقط في خ.

(٧) سقط في خ.

(٨) سقط في خ.

من الأحكام والشرائعِ وغير ذلك من أحوال القرونِ المهلَكة بأفانين العذابِ حسب أعمالِهم الموجبةِ لذلك على وجه التفصيلِ بيانًا شافيًا، كما ينبئ عنه صيغةُ [التفعيل][١] في الفعلين لا سيما بعد ورودِ الثاني أو لا على صيغة الإفعالِ، ولِما أن التبيينَ أعمُّ من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدل عليه دخل تحته القياسُ على الإطلاق سواء كان في الأحكام الشرعية أو في غيرِها، ولعل قوله عز وجل: [﴿ولعلهم يتفكرون﴾][٢] إشارةٌ إلى ذلك أي إرادةَ أن يتأملوا فيتنبّهوا[٣] للحقائق وما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب[٤].

تهديد لمشركي مكة

[﴿أفأمن الذين مكروا السيئات﴾][٥] هم أهلُ مكةَ الذين مكروا برسول الله ﷺ وراموا صدَّ أصحابِه عن الإيمان عليهم الرضوان، لا[٦] الذين احتالوا لهلاك الأنبياءِ كما قيل ولا من يعُمّ الفريقين لِما أن المرادَ تحذيرُ هؤلاء عن إصابة مثلِ ما أصاب أولئك من فنون العذابِ المعدودة، والسيئاتِ نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي مكروا المكَراتِ السيئاتِ التي قصت عنهم، أو مفعولٌ به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أي عمِلوا السيئاتِ، فقوله تعالى: [﴿أن يخسف الله بهم الأرض﴾][٧] مفعولٌ لأمِن أو السيئاتِ صفةٌ لما هو المفعولُ أي أفأمن الماكرون العقوباتِ السيئةَ، وقوله: أن يخسف الله إلخ، بدلٌ من ذلك وعلى كل حال فالفاءُ للعطف على مقدر ينسحب عليه النظمُ الكريم أي أنزلنا إليك الذكرَ لتبين لهم مضمونَه الذي من جملته إنباءُ الأمم المهلَكة بفنون العذاب ويتفكروا في ذلك، ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئاتِ أنَ يخسف الله بهم الأرضَ كما فعل بقارون، على توجيه [الإنكارِ إلى المعطوفين معًا، أو أتفكروا فأمِنوا على توجيهه][٨] إلى المعطوف على أن الأمنَ بعد التفكرِ مما لا يكاد يفعله أحد، وقيل: هو عطفٌ على مقدر ينبئ عنه الصلةُ أي أمكر فأمن الذين مكروا . . . إلخ ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ بإتيانه [أي][٩] في حالة غفلتِهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون إتيانَ ما يشتهون كما حُكي فيما سلف مما نزل بالماكرين.

---

(١) في خ: الفعل.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: فينتبهوا.
(٤) زاد في خ: لعلهم يتفكرون.
(٥) سقط في خ.
(٦) في خ: إلا.
(٧) في خ: أفأمن الذين مكروا السيئات.
(٨) سقط في خ.
(٩) سقط في خ.

﴿أو يأخذهم في تقلبهم﴾ أي في حالة تقلُّبهم في مسائرهم ومتاجرهم، ﴿فما هم بمعجزين﴾ بممتنعين أو فائتين بالهرب والفِرار على ما يوهمه حالُ التقلب[١] والسير، والفاءُ إما لتعليل الأخذِ أو لترتيب عدمِ الإعجاز عليه دلالةً [على][٢] شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام: «**إن الله ليُملَي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته**»[٣] وإيرادُ الجملة الاسميةِ للدلالة على دوام النفي لا نفْيِ الدوام ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي مخافةٍ وحذرٍ عن الهلاك والعذاب بأن يُهلك قومًا قبلهم فيتخوّفوا فيأخذَهم العذابُ وهم متخوّفون، وحيث كانت حالتا التقلّبِ والتخوّف مَظِنةً للهرب عُبّر عن إصابة العذابِ فيهما بالأخذ وعن إصابته حالةَ الغفلة [المنبئةِ][٤] عن السكون بالإتيان، وقيل: التخوّفُ التنقّص، قال قائلهم[٥]: [البسيط]

تخوّفَ [الرحلُ][٦] منها تامكًا قردًا   كما تخوّفَ عودَ النبعة السَّفَنُ[٧]

أي يأخذُهم على أن يَنْقُصَهم شيئًا بعد شيءٍ في أنفسهم وأموالِهم حتى يهلكوا، والمرادُ بذكر الأحوال الثلاثِ بيانُ قدرة الله سبحانه على إهلاكهم بأي وجهٍ كان لا الحصرُ فيها ﴿فإن ربكم لرءوف رحيم﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلُم[٨] عنكم مع استحقاقكم لها.

من دلائل عظمته تعالى

﴿أولم يروا﴾ استفهامٌ إنكاريّ، وقرئ[٩] على صيغة الخِطاب والواو للعطف على

---

(١) في خ: التغليب. (٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٢٥٨) كتاب التفسير، باب: سورة هود، برقم (٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧) كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، برقم (٦١/ ٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) سقط في خ. (٥) في خ: قائل.

(٦) في خ: الرجل.

(٧) البيت لابن مقبل في ملحق ديوانه ص(٤٠٥)، ولسان العرب (خوف)، وتهذيب اللغة (٧/ ٥٩٤، ١٣/ ٤)، ولذي الرمة في ملحق ديوانه ص(١٩١٧)، ولسان العرب (سفن)، ولذي الرمة أو لابن مقبل في تاج العروس (سفن)، ولزهير في أساس البلاغة (خوف)، وليس في ديوانه، ولعبد الله بن عجلان النهدي في تاج العروس (حوف)، ولقعنب ابن أم صاحب في سمط اللآلئ ص (٧٣٨)، وبلا نسبة في المخصص (١٣/ ٢٧٧)، وتاج العروس (خوف)، وأمالي القالي (٢/ ١١٢).

(٨) في خ: يحكم.

(٩) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، والسلمي، والأعرج، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٨)، والتيسير للداني (١٣٧)، والحجة لابن خالويه (٢١١)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٣٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

مقدر يقتضيه المقامُ أي ألم[(١)] ينظروا[(٢)] ولم يرَوا متوجهين ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي من كل شيء ﴿يتفيؤا ظلاله﴾ أي: يرجِع[(٣)] شيئًا فشيئًا حسبما يقتضيه [إرادةُ][(٤)] الخالق تعالى، فإن التفيّؤَ[(٥)] مطاوعُ الإفاءةِ[(٦)]، وقرئ بتأنيث الفعل ﴿عن اليمين والشمائل﴾ أي ألم يرَوا الأشياءَ التي لها ظلالٌ متفيِّئةٌ عن أيْمانها و[(٧)] شمائِلِها أي عن جانبي كل واحد منها، استُعير لهما[(٨)] ذلك من يمين الإنسانِ وشمالِه ﴿سجدًا لله﴾ حالٌ من الظلال كقوله تعالى: ﴿وظِلالُهم بالغدوّ والآصال﴾ [الرعد، الآية ١٥] والمرادُ بسجودها تصرّفُها على مشيئة الله وتأتّيها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلصِ وغيرِهما غيرَ ممتنعةٍ عليه فيما سخرها له، وقوله تعالى: ﴿وهم داخرون﴾ أي صاغرون منقادون، حال من الضمير في ظلاله والجمعُ باعتبار المعنى وإيرادُ الصيغةِ الخاصة بالعقلاء لما أن الدخورَ من خصائصهم، والمعنى ترجِع الظلالُ من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارِها [أو][(٩)] باختلاف مشارقِها ومغاربها فإنها كلَّ يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معينٍ من المدارات اليومية بتقدير العزيزِ العليم، منقادة لما قُدّر لها من [التفيّؤ أو واقعةٌ على الأرض ملتصقةٌ بها على هيئة الساجد، والحالُ أن أصحابها من][(١٠)] الأجرام داخرةٌ منقادةٌ لحكمه تعالى، ووصفُها [بالدخور][(١١)] مغنٍ عن وصف ظلالِها به، أو كلاهما حالٌ من الضمير المشار إليه، والمعنى ترجع ظلالُ تلك الأجرامِ حالَ كونها [منقادةً][(١٢)] لله تعالى داخرةً، فوصفُها بهما مغنٍ عن وصف ظلالِها بهما، ولعل المرادَ بالموصول الجماداتُ من الجبال والأشجارِ والأحجارِ التي لا يظهر لظلالها أثرٌ سوى التفيّؤِ بما ذُكر من ارتفاع الشمسِ وانحدارِها أو اختلافِ مشارقها ومغاربها، وأما الحيوانُ فظلُّه يتحرك بتحركه، وقيل: المرادُ باليمين والشمائل يمينُ الفَلكِ وهو جانبُه الشرقيُّ لأن الكواكبَ منه تظهر آخذةً في الارتفاع والسطوعِ، وشمالُه وهو جانبُه الغربيُّ المقابل له فإن الظلال في أول النهار تبتدئ من الشرق واقعةً على الرُّبع الغربي من الأرض، وعند الزوالِ تبتدئ من الغرب واقعةً على الربع الشرقي منها، وبعد ما بُيّن سجودُ الظلالِ وأصحابها من

---

(١) في خ: لم.
(٢) زاد في خ: أو.
(٣) في خ: ترجع.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: المتفيئ.
(٦) في خ: الإفادة.
(٧) في خ: عن.
(٨) في خ: إليها.
(٩) سقط في خ.
(١٠) سقط في خ.
(١١) سقط في خ.
(١٢) سقط في خ.

الأجرام السفلية الثابتة في أخبارها ودخورُها له سبحانه وتعالى شُرع في بيان سجودِ المخلوقات المتحركة بالإرادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل:

﴿ولله يسجد﴾ أي له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشيء غيرِه استقلالًا أو اشتراكًا، فالقصرُ ينتظم القلبَ والإفراد إلا أن الأنسب بحال المخاطبين قصرُ الإفراد كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين﴾ [النحل، الآية ٥١] ﴿ما في السموات﴾ قاطبة ﴿وما في الأرض﴾ كائنًا ما كان ﴿من دابة﴾ بيانٌ لما في الأرض، وتقديمُه لقلته ولئلا يقعَ بين المبين والمبين فصلٌ، والإفرادُ مع أن المرادَ الجمعُ لإفادة وضوحِ شمولِ السجود لكل فرد من الدواب. قال الأخفش: هو كقولك: «ما أَتَانِي من رَجُلٍ مثلِه وما أتاني من الرجال مثلُه» ﴿والملائكة﴾ عطف على ما في السموات عطفَ جبريلَ على الملائكة تعظيمًا وإجلالًا، أو على أن يراد بما في السموات الخلْقُ الذي يقال له الروح، أو يراد به ملائكةُ السموات، وبقوله: والملائكةُ ملائكةُ الأرض من الحفَظة وغيرِهم ﴿وهم﴾ أي الملائكةُ مع علو شأنِهم ﴿لا يستكبرون﴾ عن عبادته عز وجل والسجود له، وتقديمُ الضمير ليس للقصر، والجملةُ إما حالٌ من ضمير الفاعل في يسجد مسندٌ إلى الملائكة أو استئنافٌ أخبر عنهم بذلك ﴿يخافون ربهم﴾ أي مالكَ أمرِهم [وفيه][(١)] تربيةٌ للمهابة وإشعارٌ بعلة الحكم ﴿من فوقهم﴾ أي يخافونه جل وعلا خوفَ هيبةٍ وإجلالٍ وهو فوقهم بالقهر[(٢)] كقوله تعالى: ﴿وهو القاهرُ فوق عبادِه﴾ [الأنعام، الآية ١٨] أو[(٣)] يخافون أن يرسِل عليهم عذابًا من فوقهم، والجملةُ حالٌ من الضمير في لا يستكبرون أو بيانٌ له وتقريرٌ لأن من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات، وإيرادُ الفعل مبنيًا للمفعول جريٌ على سَنن الجلالة وإيذانٌ بعدم الحاجةِ إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استنادِه إلى غيره سبحانه، وفيه أن الملائكة مكلّفون مُدارون بين الخوف والرجاء، وبعد ما بُيّن أن جميعَ الموجودات يُخَصّون بالخضوع والانقياد الطبعي وما يجري مجراه من عبادة الملائكة؛ حيث لا يتصور منهم عدم الانقياد أصلًا لله عز وجل أُردف ذلك بحكاية نهْيِه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الإشراك فقيل:

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: بالضمير.
(٣) في خ: و.

بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ
عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم
بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ
هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ
ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ
مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ
﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾
ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ
لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى
ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ
مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ
عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

من مفتريات الكفار

﴿وقال الله﴾ عطف على قوله: ولله يسجد، وإظهارُ الفاعل وتخصيصُ لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه متعيِّنُ الألوهية، وإنما المنهيُّ عنه هو الإشراكُ به لا أن المنهيّ عنه مطلقُ اتخاذِ إلٰهين بحيث يتحقق الانتهاءُ عنه برفض أيِّهما كان أي قال

تعالى لجميع المكلفين: ﴿لا تتخذوا إلٰهين اثنين﴾ وإنما ذُكر العددُ مع أن صيغة التثنيةِ مغنيةٌ عن ذلك دلالةً على أن مساقَ النهي هو الاثْنَيْنِيّة وأنها منافيةٌ للألوهية كما أن وصفَ الإلٰه بالوَحدة في قوله تعالى: ﴿إنما هو إلٰه واحد﴾ للدلالة على أن المقصودَ إثباتُ الوحدانية وأنها من لوازم الإلٰهيةِ، وأما الإلٰهيةُ فأمرٌ مسلَّمُ الثبوت له سبحانه وإليه أشير حيث أُسند إليه القول، وفيه التفاتٌ من التكلم إلى الغَيبة على رأي من اكتفىٰ في تحقق الالتفاتِ بكون الأسلوب الملتفَتِ عنه حقَّ الكلام ولم يشترِط سبقَ الذكرِ على ذلك الوجه ﴿فإياي فارهبون﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابةِ وإلقاءِ الرهبة في القلوب ولذلك قدّم المفعولَ وكرر الفعلَ أي إن كنتم راهبين شيئًا فإيايَ فارهبون لا غيرُ فإني[1] ذلك الواحدُ الذي يسجُد له ما في السموات والأرض.

﴿وله ما في السموات والأرض﴾ خلقًا ومُلكًا تقريرٌ لعلة انقيادِ ما فيها له سبحانه خاصة، وتحقيقٌ لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديمُ الظرفِ لتقوية ما في اللام من معنى الاختصاصِ وكذا في قوله تعالى: ﴿وله الدين﴾ أي الطاعةُ والانقياد ﴿واصبًا﴾ أي واجبًا ثابتًا لا زوالَ له لِما تقرّر أنه الإلٰهُ وحده الحقيقُ بأن يُرهَبَ، وقيل: واصبًا من الوصب أي وله الدين ذا كلفة، وقيل: الدينُ الجزاءُ أي وله الجزاءُ الدائمُ بحيث لا ينقطع ثوابُه لمن آمن وعقابُه لمن كفر ﴿أفغير الله تتقون﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياقُ أي أعَقيبَ تقرّرِ الشؤون المذكورةِ من تخصيص جميعِ الموجودات للسجود به تعالى وكونِ ذلك كلِّه له، ونهيِه عن اتخاذ الأندادِ وكونِ الدين له واصبًا المستدعي ذلك لتخصيص التقوىٰ به سبحانه غيرَ الله الذي شأنُه ما ذكر تتقون فتطيعون! ﴿وما بكم﴾ أي أيُّ شيء يلابسكم ويصاحبكم ﴿من نعمة﴾ أية نعمةٍ كانت ﴿فمن الله﴾ فهي من الله، فما شرطيةٌ أو موصولة متضمّنة لمعنى الشرط باعتبار الإخبارِ دون الحصول فإن ملابسةَ النعمةِ بهم سببٌ للإخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ مِساسًا يسيرًا ﴿فإليه تجأرون﴾ تتضرعون في كشفه لا إلى غيره، والجُؤار رفعُ الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى: [المتقارب]

يـراوِحُ مـن صـلَـواتِ الـمـلـيـ ـك طـورًا سـجـودًا وطـورًا جـؤارا[2]

---

(١) في خ: فإن.

(٢) ينظر البيت في: ديوانه ص (٨٦)، والبحر المحيط (٥/ ٤٨٤)، وتفسير الفخر الرازي (٢٠/ ٥٢)، وروح المعاني (١٤/ ١٦٥)، والدر المصون (٤/ ٣٣٦).

وقرئ[١] تَجَرون بطرح الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها، وفي ذكر المِساس المُنْبِئ عن أدنى إصابةٍ وإيرادِه بالجملة الفعلية المعربةِ عن الحدوث [مع][٢] ثم الدالةِ على وقوعه بعد برهةٍ من الدهر وتحليةِ الضُّر بلام الجنس المفيدةِ لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسمُ الجنس، مع إيراد النعمةِ بالجملة الاسميةِ الدالةِ على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة وإيرادِ (ما) المعربةَ عن العموم، ما لا يخفى من الجزالة والفخامة، ولعل إيرادَ إذا دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم﴾ وقرئ[٣] كاشَفَ الضر، وكلمةُ ثم ليست للدلالة على تمادي زمانِ مِساس الضرّ ووقوعِ الكشفِ بعد برهة مديدةٍ[٤] بل للدلالة على تراخي رتبةِ ما يترتب عليه من مفاجأة الإشراك المدلولِ عليها بقوله سبحانه: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ فإنّ ترتبها على ذلك في أبعد غايةٍ من الضلال، ثم إن وُجّه الخطابُ إلى الناس جميعًا فمِن للتبعيض والفريقُ فريقُ الكفرة، وإن وجه إلى الكفرة فمن للبيان، كأنه قيل: إذا فريق كافرون أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مُقتصِد﴾ [لقمان، الآية ٣٢] فمن تبعيضية أيضًا، والتعرضُ لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبحِ ما ارتكبوه من الإشراك والكفران.

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضَهم في الشرك كُفرانَ النعمة وإنكارَ كونها من الله عز وجل ﴿فتمتعوا﴾ أمرُ تهديد، والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان بتناهي السَّخَط، وقرئ[٥] بالياء مبنيًا للمفعول عطفًا على ليكفروا على أن يكون كفرانُ النعمة والتمتعُ غرضًا لهم من الإشراك، ويجوز أن يكون اللامُ لامَ الأمرِ الواردِ للتهديد ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبةَ أمرِكم وما ينزل بكم من العذاب، وفيه وعيدٌ أكيدٌ منبيءٌ عن أخذٍ شديد حيث لم يُذكر المفعولُ إشعارًا بأنه مما لا يوصف.

﴿ويجعلون﴾ لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادًا لجناياتهم أي يفعلون

---

(١) قرأ بها: حمزة، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والغيث للصفاقسي (٢٧٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٠).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: قتادة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤١٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٠).

(٤) في خ: مدة.

(٥) قرأ بها: أبو رافع، ومكحول الشامي.
ينظر: المحتسب لابن جني (٢/ ١١).

ما يفعلون من الجُؤار[١] إلى الله تعالى عند مِساس الضرر ومن الإشراك به عند كشفِه ويجعلون ﴿لما لا يعلمون﴾ أي لما لا يعلمون حقيقتَه وقدرَه الخسيسَ من الجمادات التي يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالةً وسَفاهةً ويزعُمون أنها تنفعهم وتشفعَ لهم، على أن ما موصولةٌ والعائدُ إليها محذوف، أو لما لا علم له أصلًا وليس من شأنه ذلك فما موصولةٌ أيضًا والعائدُ إليها ما في الفعل من الضمير المستكنْ، وصيغةُ جمع العقلاءِ لكون (ما) عبارةً عن آلهتهم التي وصفوها بصفات العقلاءِ، أو مصدريةٌ واللامُ للتعليل أي لعدم علمِهم والمجعولُ له محذوفٌ للعلم بمكانه ﴿نصيبًا مما رزقناهم﴾ من الزرعِ والأنعام وغيرِهما تقربًا إليها ﴿تالله لتُسألن﴾ سؤالَ توبيخٍ وتقريع ﴿عما كنتم تفترون﴾ في الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يُتقرَّب إليها، وفي تصدير الجملةِ بالقسم وصرفِ الكلامِ من الغَيبة إلى الخطاب المنبىءِ عن كمال الغضبِ من شدة الوعيد ما لا يخفى.

﴿ويجعلون لله البنات﴾ هم خُزاعةُ وكِنانةُ الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله ﴿سبحانه﴾ تنزيهٌ وتقديس له عز وجل عن مضمون قولِهم ذلك أو تعجيبٌ من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿ولهم ما يشتهون﴾ من البنين، و(ما) مرفوعةُ المحلِّ على أنه مبتدأٌ والظرفُ المقدمُ خبرُه، والجملةُ حاليةٌ وسبحانه اعتراضٌ في حق موقعِه، وجعلُها منصوبةً بالعطف على البنات، أي يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين، يؤدّي إلى جعل الجعْلِ بمعنى يعمّ الزعمَ والاختيارَ ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى﴾ أي أخبر بولادتها ﴿ظل وجهه﴾ أي صار أو دام النهارَ كلَّه ﴿مسودًا﴾ من الكآبة والحياءِ من الناس، واسودادُ الوجه كنايةٌ عن الاغتمام والتشويش ﴿وهو كظيم﴾ ممتلىءٌ حَنقًا وغيظًا ﴿يتوارى﴾ أي يستخفي ﴿من القوم من سوء ما بشر به﴾ من أجل سوئِه، والتعبيرُ عنها بما لإسقاطها عن درجة العقلاء ﴿أيُمسِكه﴾ أي مترددًا في أمره محدِّثًا نفسَه في شأنه أيمسكه ﴿على هون﴾ ذل، وقرئ[٢] هوانٍ ﴿أم يدسه﴾ يُخفيه ﴿في التراب﴾ بالوأد، والتذكيرُ باعتبار لفظ ما، وقرئ[٣] بالتأنيث ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنُه عندهم من الهوان والحقارة لله المتعالي عن

---

(١) في خ: الجوار.

(٢) قرأ بها: الجحدري، وعيسى.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٠٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١١٧).

(٣) قرأ بها: الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٠٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١١٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤١٤).

الصاحبة والولد، والحالُ أنهم يتحاشَون عنه ويختارون لأنفسهم البنين، فمدارُ الخطأ جعلُهم ذلك لله سبحانه مع إبائهم إياه لا جعلُهم البنين لأنفسهم ولا عدمُ جعلهم له سبحانه، ويجوز أن يكون مدارُه التعكيس لقوله تعالى: ﴿[تلك][١] إذًا قسمةٌ ضِيزىٰ﴾ [النجم، الآية ٢٢].

﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ممن ذكرت قبائحُهم ﴿مثل السوء﴾ صفةُ السَّوْء الذي هو كالمثَل في القبح وهي الحاجةُ إلى الولد ليقوم مقامَهم عند موتهم، وإيثارُ الذكور للاستظهار بهم ووأدُ البنات لدفع العار، وخشيةُ الإملاق المنادي كلَّ ذلك بالعجز والقصورِ والشحِّ البالغ، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأن مدارَ اتصافِهم بتلك القبائح هو الكفرُ بالآخرة ﴿ولله﴾ سبحانه وتعالى ﴿المثل الأعلى﴾ أي الصفةُ العجيبةُ الشأنِ التي هي مثلٌ في العلو مطلقًا، وهو الوجوبُ الذاتيُّ والغِنى المطلقُ والجودُ الواسعُ والنزاهةُ عن صفات المخلوقين، ويدخل فيه علوُّه تعالى عما قالوه علوًا كبيرًا ﴿وهو العزيز﴾ المنفردُ بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل كلَّ ما يفعل بمقتضى الحكمةِ البالغةِ وهذا أيضًا من جملة صفاتِه العجيبة تعالى.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ الكفارَ ﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما [عُدّد][٢] من قبائحهم، وهذا تصريحٌ بما أفاده قوله تعالى: ﴿وهو العزيزُ الحكيم﴾ وإيذانٌ بأن ما أتَوْه من القبائح قد تناهىٰ إلى أمد لا غايةَ وراءَه ﴿ما ترك عليها﴾ على الأرض المدلولِ عليها بالناس وبقوله تعالى: ﴿من دابة﴾ أي ما ترك عليها شيئًا من دابة قطُّ بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلمِ الظالمين كقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تُصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٥] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلًا يقول: إن الظالم لا يضُرُّ إلا نفسَه فقال: «بلى والله حتى إن الحُبارَى لتموت في وَكرها بظلم الظالم»[٣]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «كاد الجُعَلُ يهلِك في جُحره بذنب ابن آدمَ أو من دابة ظالمة»[٤] وقيل: لو أَهْلك الآباءَ لم يكن الأبناءُ، فيلزم ألا يكون في الأرض دابةٌ لِما أنها مخلوقةٌ لمنافعِ البشر لقوله سبحانه: ﴿هو الذي خلقَ

---

(١) سقط في خ. (٢) في خ: تعدد.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٣١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٨) برقم (٣٤٥٦٥)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢٣١)، والحاكم (٢/ ٤٦٤)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٥٤) برقم (٧٤٧٨) دون شطره الأخير من قول ابن مسعود رضي الله عنه قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

لكم ما في الأرض جميعًا﴾ [البقرة، الآية ٢٩] ﴿ولكن﴾ لا يؤاخذهم بذلك بل ﴿يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا ويكثُرَ عذابُهم ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ المسمّى ﴿لا يستأخرون﴾ عن ذلك الأجلِ أي لا يتأخرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له ﴿ساعة﴾ فذَّةً، وهي مثَلٌ في قلة المدة ﴿ولا يستقدمون﴾ أي لا يتقدمون، وإنما تعرضَ لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدامُ عند مجيء الأجلِ مبالغةً في بيان عدمِ الاستئخارِ[١] بنظمه في سلك ما يمتنع، كما في قوله تعالى: ﴿وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إني تُبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفارٌ﴾ [النساء: ١٨] فإن من مات كافرًا، مع أنه لا توبةَ له رأسًا، قد نُظم في سِمْطِ من لم تُقبل توبته للإيذان بأنهما سيان في ذلك وقد مر في تفسير سورة يونس.

﴿ويجعلون لله﴾ أي يُثْبتون له سبحانه وينسُبون إليه في زعمهم ﴿ما يكرهون﴾ لأنفسهم مما ذكر، وهو تكريرٌ لما سبق، تثنيةً للتقريع وتوطئةً لقوله تعالى: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ أي يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو ﴿أن لهم الحسنى﴾ العاقبةَ الحسنى عند الله تعالى كقوله: ﴿ولئن رُجِعْتُ إلى ربي إن لي عنده لَلْحسنى﴾ [فصلت، الآية ٥٠] وقرئ[٢] الكُذُبُ وهو جمع الكَذوب على أنه صفةُ الألسنة ﴿لا جرم﴾ رد لكلامهم ذلك وإثباتٌ لنقيضه أي حقًا ﴿أن لهم﴾ مكان ما أمّلوا من الحسنى ﴿النار﴾ التي ليس وراءَ عذابها عذابٌ وهي عَلَمٌ في السوأى ﴿وأنهم مفرطون﴾ أي مقدَّمون إليها من أفرطتُه أي قدّمتُه في طلب الماء، وقيل: مَنْسيّون من أفرطتُ فلانًا خلفي إذا خلّفتُه ونسِيتُه، وقرئ[٣] بالتشديد وفتح الراء من فرَّطتُه في طلب الماء، وبكسر الراء المشددة[٤] من التفريط في الطاعات، وبكسر[٥] المخففة من الإفراط

---

(١) في خ: الاستيخار.

(٢) قرأ بها: معاذ بن جبل.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١).

(٣) قرأ بها: أبو جعفر، والأعرج.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤١٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٦٨).

(٤) قرأ بها: أبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والتبيان للطوسي (٣٩٥)، وتفسير الطبري (١٤/ ٨٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(٥) قرأ بها: نافع، والكسائي، وابن عباس، وابن مسعود، وأبو رجاء، وشيبة، وقتيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والتيسير للداني (١٣٨)، والحجة لابن خالويه (٢١٢)، والسبعة =

في المعاصي فلا يكونانِ حينئذ من أحوالهم الأخروية كما عطف عليه.

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما يناله من جهالات الكفرةِ ووعيدٌ لهم على ذلك، أي أرسلنا إليهم رسلًا فدعَوْهم إلى الحق فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ القبيحةَ فعكفوا عليها مُصِرّين ﴿فهو وليهم﴾ أي قرينُهم وبئس القرينُ ﴿اليوم﴾ أي يوم زين لهم الشيطانُ أعمالهم فيه على طريق حكايةِ الحال الآتية وهي حالُ كونهم معذبين في النار، والوليُّ بمعنى الناصر أي فهو ناصرهم اليوم لا ناصرَ لهم غيرُه مبالغةً في نفي الناصرِ عنهم، ويجوز أن يكون الضميرُ عائدًا إلى مشركي قريش والمعنى زيّن للأمم السالفة أعمالَهم فهو وليُّ هؤلاء لأنهم منهم وأن يكون على حذف المضافِ أي وليُّ أمثالهم ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ هو عذابُ النار.

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب﴾ أي القرآن ﴿إلا لتبين﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم العلل[1] أي ما أنزلناه عليك لعلّةٍ من العلل إلا لتبين ﴿لهم﴾ أي للناس ﴿الذي اختلفوا فيه﴾ من التوحيد والقدَر وأحكامِ الأفعال وأحوال المعاد[2] ﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبين أي وللهداية والرحمة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وإنما انتصبا لكونهما أثرَيْ فاعلِ الفعل المعلَّل بخلاف التبيين حيث لم ينتصِبْ لفقدان شرطِه، ولعل تقديمَه عليهما لتقدُّمه في الوجود، وتخصيصُ كونهما هدًى ورحمةً بالمؤمنين لأنهم المغتنِمون آثارَه[3].

﴿والله أنزل من السماء﴾ من السحاب أو من جانب السماء حسبما مرّ، وهذا تكرير لما سبق تأكيدًا لمضمونه وتوطئةً لما يعقُبه من أدلة التوحيد ﴿ماء﴾ نوعًا خاصًا من الماء هو المطرُ، وتقديمُ المجرور على المنصوب لما مر مرارًا من التشويق إلى المؤخر ﴿فأحيا به الأرضَ﴾ بما أنبت به فيها من أنواع النباتات ﴿بعد موتها﴾ أي بعد يُبْسها، وما يفيده الفاءُ من التعقيب العاديّ لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة ﴿إن في ذلك﴾ أي في إنزال الماء من السماء وإحياءِ الأرض الميتةِ به ﴿لآية﴾ وأيةَ آيةٍ دالةٍ على وحدته سبحانه وعلمه وقدرتِه وحكمتِه ﴿لقوم يسمعون﴾ هذا التذكيرَ ونظائرَه سماعَ تفكرٍ وتدبُّر فكأن مَنْ ليس كذلك أصمُّ.

= لابن مجاهد (٣٧٤)، والكشف للقيسي (٢/ ٣٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(١) في خ: الفعل.

(٢) في خ: الميعاد.

(٣) في خ: إشارة.

مصادر الاعتبار

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ عظيمةً وأيَّ عبرةٍ تَحار في دركها العقولُ وتهيم في فهمها [ألبابُ][١] الفحول ﴿نسقيكم﴾ استئنافٌ لبيان ما أُبهم أولًا من العبرة ﴿مما في بطونه﴾ أي بطون الأنعامِ، والتذكيرُ هنا لمراعاة جانبِ اللفظِ فإنه اسم جمع ولذلك عدّه سيبويه في المفردات المبنيّة على أفعال كأكباش وأخلاق كما أن تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى، ومَن جعله جمعَ نَعَم جعل الضميرَ للبعض فإن اللبَن ليس لجميعها، أو له على المعنى، فإن المرادَ به الجِنسُ وقرئ[٢] بفتح النون هاهنا وفي سورة المؤمنين ﴿من بين فرث ودم لبنًا﴾ الفرْثُ فُضالةُ ما يبقىٰ من العلف في الكَرِش المنهضمةِ بعضَ الانهضام وكثيفُ ما يبقىٰ في الأمعاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن البهيمةَ إذا اعتلفت وانطبخ العلفُ في كرشها كان أسفلُه فرثًا، وأوسطُه لبنًا، وأعلاه دمًا[٣]. ولعل المرادَ به أن أوسطَه يكون مادةَ اللبن وأعلاه مادةَ الدم الذي يغذو البدنَ لأن عدم تكونهما في الكرشِ مما لا ريب فيه، بل الكبِدُ تجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش ويبقى [ثفلُه][٤] وهو الفرثُ ثم يُمسكها ريثما يهضمها فيُحدثُ أخلاطًا أربعة معها مائيةً فتُميِّز تلك المائيةُ بما زاد على قدر الحاجة من المِرَّتين الصفراءِ والسوداء وتدفعها إلى الكِلْية والمرارة والطّحال، ثم توزِّع الباقي على الأعضاء بحسبها فتُجري على كلٍّ حقَّه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم، ثم إن كان الحيوانُ أنثى زاد أخلاطَها على قدر غذائها لاستيلاء البردِ والرطوبةِ على مزاجها فيندفع الزائدُ أولًا لأجل الجنينِ إلى الرحم فإذا انفصل انصب ذلك الزائدُ أو بعضُه إلى الضروع فيبيض لمجاورته لحومَها الغذوية البِيضِ ويلَذّ طعمُه فيصيرُ لبنًا، ومن تدبر في بدائع صنعِ الله تعالى فيما ذكر من الأخلاط والألبانِ وإعداد مقارّها ومجاريها والأسبابِ المولّدة لها وتسخيرِ القُوى المتصرفة فيها كلَّ وقت على ما يليق به اضطُرّ إلى الاعتراف بكمال علمِه وقدرتِه وحكمتِه وتناهي رأفته ورحمتِه. فمِن الأولى تبعيضيةٌ لما أن اللبن بعضُ ما في بطونه لأنه مخلوقٌ من بعض أجزاءِ الدم

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، واليزيدي، والحسن، والشنبوذي، وابن مسعود، وزيد بن علي، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والتيسير للداني (١٣٨)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٤)، والغيث للصفاقسي (٢٧١)، والكشف للقيسي (٢/ ٣٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢٧).

(٤) في خ: نقله.

المتولّدِ من الأجزاء اللطيفةِ التي في الفرث حسبما فصل، والثانيةُ ابتدائية كقولك: سقَيت من الحوض لأن بين الفرث والدمِ مبدأَ الإسقاء، وهي متعلقةٌ بـ (نُسقيكم) وتقديمه على المفعول لما مر مرارًا من أنَ تقديم ما حقُّه التأخيرُ يبعث للنفس شوقًا إلى المؤخر موجبًا لِفضل تمكّنِه عند ورودِه عليها لا سيما إذا كان المقدمُ متضمنًا لوصف منافٍ لوصف المؤخَّر كالذي نحن فيه، فإن بين وصفَيْ المقدّم والمؤخر تنافيًا و[تنائيًا][1] بحيث لا يتراءى ناراهما، فإن ذلك مما يزيد الشوقَ والاستشرافَ إلى المؤخر كما في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضرِ نارًا﴾ [يس: ٨٠]، أو حالٌ من لبنًا قُدّم عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضعُ العبرة ﴿خالصًا﴾ عن شائبة ما في الدم والفرثِ من الأوصاف ببرزخٍ من القدرة القاهرة الحاجزةِ عن بغي أحدِهما عليه مع كونهما مكتنفين له ﴿سائغًا للشاربين﴾ سهلَ المرور في حلقهم[2]، قيل: لم يغَصَّ أحدٌ باللبن، وقرئ سيِّغًا بالتشديد[3] وبالتخفيف[4] مثل هيْن وهيِّن.

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾ **متعلقٌ** بما يدل عليه الإسقاء من مطلق الإطعامِ المنتظم لإعطاء المطعومِ والمشروبِ فإن اللبن مطعومٌ كما أنه مشروبٌ أي ونطعمكم من ثمرات النخيل ومنَ الأعناب أي من عصيرهما، وقوله تعالى: ﴿تتخذون منه سكرًا﴾ استئنافٌ لبيان كُنه الإطعامِ وكشفِه. أو **بقوله**: تتخذون منه، وتكريرُ الظرفِ للتأكيد، **أو خبر** لمبتدأ محذوفٍ صفَتُه تتخذون أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه، وحَذْفُ الموصوف، إذا كان في الكلام كلمةُ مِنْ، سائغٌ نحو قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقامٌ معلوم﴾ [الصافات: ١٦٤] وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوفِ أعني العصير أو لأن المراد هو الجنسُ والسَّكَر مصدرٌ سُمّي به الخمرُ، وقيل: هو النبيذُ، وقيل: هو الطعم ﴿ورزقًا حسنًا﴾ كالتمر والدبس والزبيب والخلّ، والآية إن كانت سابقةَ النزول على تحريم الخمر فدالّةٌ على كراهتها وإلا فجامعةٌ بين العتاب والمِنّة ﴿إن في ذلك لآيات﴾ باهرةً ﴿لقوم يعقلون﴾ يستعملون عقولَهم في الآيات بالنظر والتأمل.

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أي ألهمها وقذف في قلوبها وعلّمها بوجوه لا يعلمها

---

(١) في خ: تباينًا.

(٢) في خ: خلفهم.

(٣) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٦)، والبحر المحيط (٥/ ٥١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤١٦).

(٤) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥١٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١).

إلا العليمُ الخبير وقرئ[١] بفتحتين ﴿أن اتخذي﴾ أي بأن اتخذي على أنّ أنْ مصدريةٌ ويجوز أن تكون مفسرةً لما في الإيحاء من معنى القول، وتأنيثُ الضمير مع أن النحلَ مذكر للحمل على معنى الجمع أو لأنه جمعُ نحلة، والتأنيثُ لغة أهل الحجاز ﴿من الجبال بيوتًا﴾ أي أوكارًا مع ما فيها من الخلايا، وقرئ[٢] بيوتًا بكسر الباء ﴿ومن الشجر ومما يعرشون﴾ أي يعرِشه الناسُ أي يرفعه من كرْم أو سقف، وقيل: المرادُ به ما يرفعه الناسُ ويبنونه للنحل، والمعنى اتخذي لنفسك بيوتًا من الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب وإلا فاتخذي ما يعرِشونه لك، وإيرادُ حرفِ التبعيض لما أنها لا تُبْنَىٰ في كل جبل وفي كل شجر وكل عرش ولا في كل مكان منها ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ من كل ثمرة تشتهينها حُلوِها ومُرِّها ﴿فاسلكي﴾ ما أكلتِ منها ﴿سبل ربك﴾ أي مسالكَه التي برَأها بحيث يُحيل فيها بقدرته القاهرة النَّوْر[٣] المرَّ عسلًا من أجوافك أو فاسلكي الطرقَ التي ألهمك في عمل العسلِ أو فاسلكي راجعةً إلى بيوتك سبلَ ربك لا تتوعّر عليك ولا تلتبس ﴿ذللًا﴾ جمع ذَلول وهو حال من السبل أي مذللة غيرَ متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك، أو من الضمير في اسلكي أي اسلكي منقادةً لما أُمرتِ به ﴿يخرج من بطونها﴾ استئناف عُدل به عن خطاب النحلِ لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنعِ الله تعالى التي هي موضعُ العبرة بعد ما أُمِرتْ بما أمرتْ ﴿شراب﴾ أي عسل لأنه مشروب، واحتج به وبقوله تعالى: ﴿كُلي﴾ من زعم أن النحلَ تأكلُ الأزهار والأوراقَ العطِرة فتستحيل في بطنها عسلًا ثم تقيءُ ادّخارًا للشتاء، ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاءً قليلةً حُلوة صغيرة متفرقةً على الأزهار والأوراق وتضعها في بيوتها، فإذا اجتمع فيها شيءٌ كثيرٌ يكون عسلًا فسّر البطونَ بالأفواه ﴿مختلف ألوانه﴾ أبيضُ وأسودُ وأصفرُ وأحمرُ حسب اختلاف سنِّ النحل أو الفصلِ أو الذي أخذت منه العسل ﴿فيه شفاء للناس﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجونٌ لا يكون فيه عسلٌ، مع أن التنكيرَ فيه مُشعرٌ بالتبعية، ويجوز كونه للتفخيم، وعن قتادةَ أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي[٤] بطنه، فقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) قرأ بها: يحيى بن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥١١)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤١٧).
(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة، وقالون، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والغيث للصفاقسي (٢٧١).
(٣) النَّوْر: الزهر الأبيض.
(٤) في خ: يشكي.

«**اسقِه العسلَ**» فذهب ثم رجع فقال: قد سقَيتُه فما نفع، فقال: «**اذهبْ فاسقِه عسلًا فقد صدق الله وكذب بطنُ أخيك**»[١] فسقاه فبرِئ كأنما أُنْشِط من عِقال، وقيل: الضميرُ للقرآن أو لِما بين الله تعالى من أحوال النحل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «العسلُ شفاءٌ لكل داء، والقرآنُ شفاء لما في الصدور» «فعليكم بالشفاءَين العسلِ والقرآنِ»[٢] ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرةِ الله تعالى ﴿لآية﴾ عظيمة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فإن من تفكر في اختصاص النحلِ بتلك العلومِ الدقيقة والأفعالِ العجيبةِ المشتملةِ على حسن الصنعةِ وصِحة القسمة التي لا يَقدر عليها حُذّاقُ المهندسين إلا بآلات دقيقةٍ وأدواتٍ أنيقة وأنظار دقيقة، جزم قطعًا بأن له [خالقًا][٣] قادرًا حكيمًا يلهمها ذلك ويهديها إليه جل جلاله.

﴿والله خلقكم﴾ لما ذكر سبحانه من عجائب أحوالِ ما ذَكَر من الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائبِ أحوالِ البشر من أول عمُره إلى آخره وتطوراتِه فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتبَ العمُر في أربع: الأولى سنُّ النشوء والنماء، والثانية سنُّ الوقوف وهي سن الشباب، والثالثة سنُّ الانحطاط القليل وهي سنُّ الكهولة، والرابعة سنُّ الانحطاط الكبير وهي سنُّ الشيخوخة ﴿ثم يتوفاكم﴾ حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على حِكَم بالغةٍ بآجال مختلفة أطفالًا وشبابًا وشيوخًا ﴿ومنكم من يرد﴾ قبل توفّيه أي يعاد ﴿إلى أرذل العمر﴾ أي أخسِّه وأحقرِه وهو خمسٌ وسبعون سنة على ما روي عن علي رضي الله عنه، وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضي الله عنه، وقيل: خمسٌ وتسعون، وإيثارُ الردِّ على الوصول والبلوغِ ونحوهما للإيذان بأن بلوغَه والوصولَ إليه رجوعٌ في الحقيقة إلى الضُّعف بعد القوة كقوله تعالى: ﴿ومن نعمِّرْه ننكّسْه في الخلق﴾ [يس، الآية ٦٨] ولا عمرَ أسوأُ حالًا من عمر الهرِمِ الذي يشبه الطفلَ في نقصان العقل والقوة ﴿لكيلا يعلم بعد علم﴾ كثير

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٢٨٤) كتاب الطب، باب: الدواء بالعسل، برقم (٥٦٨٤)، ومسلم (٤/ ١٧٣٦) كتاب السلام، باب: التداوي بسقي العسل، برقم (٩١/ ٢٢١٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢٩) موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١١٤٢) كتاب الطب، باب: العسل، برقم (٣٤٥٢)، والحاكم (٤/ ٢٢٢) كتاب الطب، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٤٤)، كتاب الضحايا، باب : أدوية النبي ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن».
قال البيهقي: «رفعه غير معروف والصحيح موقوف» ا هـ.

(٣) سقط في خ.

﴿شيئًا﴾ من العلم أو من المعلومات أو لكي لا يعلم شيئًا بعد علم بذلك الشيء، وقيل: لئلا يعقِلَ بعد عقله الأولِ شيئًا ﴿إن الله عليم﴾ بمقادير أعماركم ﴿قدير﴾ على كل شيء يميت الشابَّ النشيطَ ويُبقي الهرِمَ الفانيَ، وفيه تنبيهٌ على أن تفاوتَ الآجالِ ليس إلا بتقدير قادرٍ حكيم ركب أبنيتَهم وعدّل أمزجتَهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوتُ هذا المبلغ.

﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ أي جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضلَ مما أعطى مماليكَكم ﴿فما الذين فضلوا﴾ فيه على غيرهم ﴿برادّي رزقهم﴾ الذي رزقهم الله[1] ﴿على ما ملكت أيمانهم﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤُهم في المخلوقية والمرزوقية ﴿فهم﴾ أي المُلاّك والمماليك ﴿فيه﴾ أي في الرزق ﴿سواء﴾ أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف ويشاركونهم في التدبير، والفاء للدلالة على ترتيب التساوي على الرد أي لا يردونه عليهم ردًّا مستتبعًا[2] للتساوي، وإنما يردون عليهم منه شيئًا يسيرًا فحيث لا يرضَون بمساواة مماليكِهم لأنفسهم، وهم أمثالُهم في البشرية والمخلوقية لله عز سلطانُه، في شيء لا يختصّ بهم بل يعُمهم وإياهم من الرزق الذي هم أُسوةٌ لهم في استحقاقه، فما بالُهم يشركون بالله سبحانه وتعالى، فيما لا يليق إلا به من الألوهية والمعبوديةِ الخاصّة بذاته تعالى لذاته، بعضَ مخلوقاته الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار! وهذا كما ترى مثَلٌ ضُرب لكمال قباحةِ ما فعله المشركون تقريعًا عليهم كقوله تعالى: ﴿هل لكم مما ملكتْ أيمانُكم من شركاءَ فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾ الآية [الروم، الآية ٢٨] ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضةَ عليهم إلى شركائهم ويجحدوا كونَها من عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثالَ هذه الحجج البالغةِ بعد ما أنعم الله بها عليهم، والباء لتضمين الجحودِ معنى الكفر نحوُ ﴿وجحدوا بها﴾ [النمل: ١٤] والفاء للعطف على مقدر وهي داخلةٌ في المعنى على الفعل أي أيشركون به فيجحدون نعمته، وقرئ[3] تجحدون على الخطاب، أو ليس الموالي برادّي رزقهم على مماليكهم بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا يحسبوا أنهم يعطونهم شيئًا وإنما هو رزقي أُجريه على أيديهم فهم جميعًا في ذلك

---

(١) في خ: إياه. (٢) في ط: مستبعدًا.

(٣) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والأعرج، وأبو عبد الرحمن، ورويس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والتيسير للداني (١٣٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧١)، والكشف للقيسي (٢/ ٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

سواءٌ لا مزيةَ لهم على مماليكهم، ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله؟ فهو ردّ على زعم المفضَّلين أو على فعلهم المؤذِن بذلك أو ما المفضَّلون برادّي بعضِ فضلهم على مماليكهم فيتساووا في ذلك جميعًا مع أن التفضيلَ ليس إلا ليبلوَهم أيشكرون أم يكفرون، ألا يعرِفون ذلك فيجحدون نعمةَ الله تعالى؟ كأنه قيل: فلم يردوه عليهم، والجملةُ الاسميةُ للدلالة على استمرارهم على عدم الرد. يحكى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنما هم إخوانُكم فاكسُوهم مما تلبَسون وأطعِموهم مما تَطعَمون**»(١) فما رؤيَ عبدُه بعد ذلك إلا ورداؤُه رداؤُه وإزارُه إزاره من غير تفاوت.

﴿**والله جعل لكم من أنفسكم**﴾ أي من جنسكم ﴿**أزواجًا**﴾ لتأنَسوا بها وتقيموا بذلك جميعَ مصالحِكم ويكون أولادُكم أمثالَكم، وقيل: هو خلقُ حواءَ من ضِلْع آدمَ عليه الصلاة والسلام ﴿**وجعل لكم من أزواجكم**﴾ وضع الظاهرُ موضعَ المضمر للإيذان بأن المرادَ جعلَ لكل منكم من زوجه لا من [زوج](٢) غيره ﴿**بنين**﴾ وبأن نتيجةَ الأزواج هو التوالد ﴿**وحفدة**﴾ جمعُ حافد وهو الذي يسرع في الخِدمة والطاعة، ومنه قولُ القانت: «وإليك نسعى ونحفد» أي جعل لكم خدمًا يسرعون في خدمتكم وطاعتِكم. وقيل: المرادُ بهم أولادُ الأولاد، وقيل: البناتُ عبّر عنهن بذلك إيذانًا بوجه المنة بأنهن يخْدُمن البيوت أتمَّ خدمة، وقيل: أولادُ المرأة من الزوج الأول، وقيل: البنون، والعطفُ لاختلاف الوصفين، وقيل: الأختان على البنات، وتأخيرُ المنصوب في الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديمُ المجرور باللام على المجرور بمن للإيذان من أول الأمر بعَود منفعةِ الجعلِ إليهم إمدادًا للتشويق وتقويةً له، أي جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجًا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبةٍ لكم بنين وحفَدة ﴿**ورزقكم من الطيبات**﴾ من اللذائذ أو من الحلالات، ومن للتبعيض إذ المرزوقُ في الدنيا أنموذجٌ لما في الآخرة ﴿**أفبالباطل يؤمنون**﴾ وهو أن الأصنامَ تنفعهم وأن البحائرَ ونحوها حرامٌ! والفاء في المعنى داخلةٌ على الفعل وهي للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله الذي شأنُه هذا فيؤمنون بالباطل؟ أو أبعد تحقّقِ(٣) ما ذُكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه ﴿**وبنعمة الله**﴾

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١١٤) كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، برقم (٣٠)، ومسلم (٣/ ١٢٨٢) كتاب الإيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس برقم (٣٨/ ١٦٦١).

(٢) سقط في ط.

(٣) في خ: تحقيق.

تعالى الفائضةِ عليهم مما ذكر ومما لا يحيط به دائرةُ البيان ﴿هم يكفرون﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام، وتقديمُ الصلة على الفعل للاهتمام أو لإيهام الاختصاص مبالغةً أو لرعاية الفواصل، والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالِهم للإعراض عنهم وصرفِ الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيبًا لهم مما فعلوه.

﴿ويعبدون من دون الله﴾ لعله عطفٌ على يكفرون داخلٌ تحت الإنكار التوبيخيّ، أي أيكفرون بنعمة الله ويعبدون مِن دونه ﴿ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا﴾ إنْ[١] جُعل الرزقُ مصدرًا فشيئًا نُصب على المفعولية منه أي ما لا يقدر على أن يرزقَهم شيئًا لا من السموات مطرًا ولا من الأرض نباتًا، وإن جُعل اسمًا للمرزوق فنصْبٌ على البدلية منه بمعنى قليلًا، ومن السموات والأرض صفةٌ لرزقًا أي كائنًا منهما ويجوز كونه تأكيدًا لِلا يملك أي لا يملك رزقًا ما شيئًا من الملك ﴿ولا يستطيعون﴾ أن يملكوه إذ لا استطاعةَ لهم رأسًا لأنها مَواتٌ لا حَراك بها، فالضميرُ للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى أنهم مع كونهم أحياءً متصرفين في الأمور لا يستطيعون من ذلك شيئًا فكيف بالجماد الذي لا حِسّ به ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ التفاتٌ إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيئًا، والتعبيرُ عن ذلك بضرب المثَل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون، فإن ضربَ المثلِ مبناه تشبيهُ حالة بحالة وقصةٍ بقصة أي لا تُشَبّهوا بشأنه تعالى شأنًا من الشؤون، واللامُ مَثَلُها في قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأةَ نوح﴾ [التحريم، الآية ١٠] ﴿وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأةَ فرعون﴾ [التحريم، الآية ١١] لا مثلُها في قوله تعالى: ﴿واضرِبْ لهم مثلًا أصحابَ القرية﴾ [يس: ١٣] ونظائرِه، والفاءُ للدلالة على ترتب النهي على ما عدّه من النعم الفائضةِ عليهم من جهته سبحانه، وكونِ ما يشركون به تعالى بمعزل من أن يملِك لهم من إمطار السموات والأرض شيئًا من رزق ما، فضلًا عما فُصّل من نعمة الخلق والتفضيل في الرزق ونعمةِ الأزواج والأولاد ﴿إن الله يعلم﴾ تعليلٌ للنهي المذكور ووعيدٌ على المنهيّ عنه، أي إنه تعالى يعلم كنهَ ما تأتون وما تذرون وأنه في غاية العِظم والقبح ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك وإلا لَما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كُنهَ الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيَكم وقِفوا مواقفَ الامتثالِ لِما ورد عليكم من الأمر والنهي، ويجوز أن يُراد فلا تضرِبوا لله الأمثالَ إن الله يعلم كيف تُضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك

(١) في خ: أي.

فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوي الردىٰ والضلال ثم علمهم كيفيةَ ضرب الأمثال في هذا الباب فقال:

من أمثال القرآن

﴿ضرب الله مثلًا﴾ أي ذكر وأورد شيئًا يُستدل به على تباين الحالِ بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به، وعلى تباعدهما بحيث ينادىٰ بفساد ما ارتكبوه نداء جليًا ﴿عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء﴾ بدلٌ من مثلًا وتفسيرٌ له، والمثَلُ في الحقيقة حالتُه العارضة له من المملوكية والعجزِ التامّ، وبحسَبها ضربُ نفسِه مثلًا، ووصفُ العبد **بالمملوكية** للتمييز عن الحر لاشتراكهما في كونهما عبدين لله سبحانه وقد أُدمج فيه أن الكل عبيدٌ له تعالى، **وبعدم** القدرة لتمييزه عن المكاتَب والمأذون اللّذين لهما التصرّف في الجملة، وفي إبهام المثلِ أولًا ثم بيانِه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة ﴿ومن رزقناه﴾ مَنْ موصوفةٌ معطوفة على عبدًا أي رزقناه بطريق المُلك، والالتفاتُ إلى التكلم للإشعار باختلاف حالَيْ ضرب المثل والرزق ﴿منا﴾ من جنابنا الكبير المتعالي ﴿رزقًا حسنًا﴾ حلالًا طيبًا أو مستحسَنًا **عند** الناس مرضيًا ﴿فهو ينفق منه﴾ تفضّلًا وإحسانًا، والفاءُ لترتيب الإنفاق على الرزق كأنه قيل: ومَنْ رزقناه منا رزقًا حسنًا فأنفق، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسميةِ الفعليةِ الخبر للدلالة على ثبات الإنفاقِ واستمرارِه التجدديّ ﴿سرًّا وجهرًا﴾ أي حالَ السر والجهر أو إنفاقَ سرٍّ وإنفاقَ جهر، والمرادُ بيانُ عمومِ إنفاقِه للأوقات وشمولِ إنعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرًا، والإشارةُ إلى أصناف نعمِ الله تعالى الباطنةِ والظاهرةِ وتقديمُ السر على الجهر للإيذان بفضله عليه، والعدولُ عن تطبيق القرينتين بأن يقال [وحرًّا مالكًا][(١)] للأموال، مع كونه أدلَّ على تباين الحالِ بينه وبين قسيمه، لتوخّي تحقيقِ الحقِّ بأن الأحرارَ أيضًا تحت ربقة عبوديتِه سبحانه وتعالى وأن مالكيتَهم لما يملكونه ليست إلا بأن يرزُقَهم الله تعالى إياه من غير أن يكون لهم مدخلٌ في ذلك مع محاولة المبالغة في الدِلالة على ما قُصد بالمثل من تباينِ الحالِ بين الممثَّلين فإن العبدَ المملوك حيث لم يكن مثلَ العبد المالكِ فما ظنُّك بالجماد ومالكِ المُلك خلاّق العالمين!!!.

﴿هل يستوون﴾ جمعُ الضمير للإيذان بأن المرادَ بما ذكر مَن اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أي هل يستوي العبيد

---

(١) في خ: وحرامًا لكان.

والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيانِ في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ما ينفقه الأحرارُ ليس مما لهم دخلٌ في إيجاده ولا في تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستوِ الفريقان فما ظنُّكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليلَ أذلُّ منه وهو الأصنام ﴿الحمد لله﴾ أي كلُّه له لأنه مولى جميع النعم لا يستحقه أحدٌ غيرُه وإن ظهرت على أيدي بعض الوسايط فضلًا عن استحقاق العبادة، وفيه إرشادٌ إلى ما هو الحقُّ من أنّ ما يظهر على يد مَنْ ينفق مما ذكر راجعٌ إليه سبحانه كما لوح به قوله تعالى: ﴿رزقناه﴾ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ما ذكر فيُضيفون نعمَه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجلها، ونفيُ العلم عن أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وإنما لا يعملون بموجبه عنادًا كقوله تعالى: ﴿يعرِفون نعمةَ الله ثم يُنكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ [النحل: ٨٣].

﴿وضرب الله مثلًا﴾ أي مثلًا آخرَ يدل على ما دل عليه المثلُ السابقُ على وجه أوضحَ وأظهرَ وبعد ما أبهم ذلك لتنتظرَ النفسُ إلى وروده وترقبه حتى يتمكّن لديها عند ورودِه [فضل تمكن] بيّن فقيل: ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ وهو من وُلد أخرسَ ﴿لا يقدر على شيء﴾ من الأشياء المتعلّقةِ بنفسه أو بغيره بحدْس أو فراسة لقِلة فهمِه وسوءِ إدراكِه ﴿وهو كَلٌّ﴾ ثقلٌ وعِيالٌ ﴿على مولاه﴾ على مَن يعوله ويلي أمرَه، وهذا بيانٌ لعدم قدرتِه على إقامة مصالحِ نفسه بعد ذكر عدم قدرتِه على شيء مطلقًا، وقوله تعالى: ﴿أينما يوجهْه﴾ أي حيثُ يرسله مولاه في أمر، بيانٌ لعدم قدرتِه على إقامة مصالحِ مولاه ولو كانت مصلحةً يسيرة، وقرئ على البناء للمفعول[(١)] وعلى صيغة الماضي[(٢)] من التوجه ﴿لا يأت بخير﴾ بنُجْح وكفايةِ مُهمّ ألبتةَ.

﴿هل يستوي هو﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورةِ ﴿ومن يأمر بالعدل﴾ أي مَنْ هو مِنطيقٌ فهِمٌ ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناسَ بحثهم على العدل الجامع لمجامعِ الفضائل ﴿وهو﴾ في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿على صراط مستقيم﴾ ومقابلةُ الصفاتِ المذكورة عدمُ استحقاقِ المأمورية[(٣)]، وملخصُ هذين استحقاقُ كمالِ الأمرية المستتبعِ لحيازة المحاسنِ بأجمعها[(٤)]، وتغييرُ الأسلوب حيث

(١) قرأ بها: يحيى بن وثاب.
ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ١٥٠).
(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٦).
(٣) في خ: الأمرية.
(٤) زاد في خ: كمال.

لم يقل: والآخر آمرٌ بالعدل، لمراعاة الملاءمةِ بينه وبين ما هو المقصودُ من بيان التبايُنِ بين القرينتين. واعلم أن كلاً من الفعلين ليس المرادُ بهما حكايةَ الضربِ الماضي بل المرادُ إنشاؤُه بما ذُكر عَقيبه، ولا يبعُد أن يقال: إن الله تعالى ضرب مثلًا بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقُهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يشركون، فيكون كلٌّ من الفعلين حكايةً للضرب الماضي.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ولله﴾ تعالى خاصةً لا لأحد غيره استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿غيبُ السموات والأرض﴾ أي الأمورُ الغائبةُ عن علوم المخلوقين قاطبةً بحيث لا سبيلَ لهم إليها لا مشاهدةً ولا استدلالًا، ومعنى الإضافةِ إليهما التعلقُ بهما إما باعتبار الوقوع فيهما حالًا أو مآلًا وإما باعتبار الغَيبة عن أهلهما، والمرادُ بيانُ الاختصاصِ به تعالى من حيث المعلوميةُ حسبما ينبئ عنه عنوانُ الغيبية لا من حيث المخلوقيةُ والمملوكيةُ وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر، وفيه إشعارٌ بأن علمه سبحانه حضوريٌّ فإن تحقق

الغيوبِ في أنفسها عِلمٌ بالنسبة إليه تعالى، ولذلك لم يقل: ولله [علمُ][١] غيبِ السموات والأرض ﴿وما أمر الساعة﴾ التي هي أعظمُ ما وقع فيه المماراةُ من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتُها[٢] عن أهلهما أو ظهورُ آثارها فيهما عند وقوعها، فإن وقتَ وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وإن كانت آنيّتُها من الغيوب التي نُصبت عليها الأدلة، أي ما شأنُها في سرعة المجيء[٣] ﴿إلا كلمح البصر﴾ أي كرجع الطرفِ من أعلى الحدَقة إلى أسفلها ﴿أو هو﴾ أي بل أمرُها فيما ذكر ﴿أقرب﴾ من ذلك وأسرعُ زمانًا بأن يقع في بعضٍ من زمانه، فإن ذلك، وإنْ قصُر، حركةٌ آنيةٌ لها هُوِيةٌ اتصاليةٌ منطبقةٌ على زمان له هويةٌ كذلك قابلٌ للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضًا، بل في آن غيرِ منقسم من ذلك الزمان وهو آنُ ابتداءِ تلك الحركةِ، أو ما أمرُها إلا كالشيء الذي يُستقرب ويقال: هو كلمح البصر، أو هو أقرب. وأيًا ما كان فهو تمثيلٌ لسرعة مجيئها حسبما عبّر عنها في فاتحة السورة الشريفة بالإتيان.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومن جملة الأشياء أن[٤] يجيء بها أسرعَ ما يكون فهو قادرٌ على ذلك، أو وما أمرُ إقامةِ الساعة، التي كُنهُها وكيفيتُها من الغيوب الخاصةِ به سبحانه، وهي إماتةُ الأحياءِ وإحياءُ الأمواتِ من الأولين والآخرين، وتبديلُ صورِ الأكوان أجمعين، وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخُل تحت الإمكان في سرعة الوقوعِ وسهولةِ التأتي، إلا كلمح[٥] البصر أو هو أقرب على ما مر من الوجهين، إن الله على كل شيء قدير فهو قادر على ذلك لا محالة، وقيل: غيبُ السموات والأرض عبارةٌ عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائبٌ عن أهلهما، فوضْعُ الساعة موضعَ الضمير لتقوية مضمونِ الجملة ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا﴾

---

(١) سقط في خ. (٢) في خ: غيبتهما.

(٣) إشارة إلى الغرض من هذا التشبيه، ولاحظ هذا التناسب البديع مع أول هذه السورة المفتتحة بقوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ بالمقارنة بالتشبيه الواقع في سورة القمر ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر:٥٠] والتركيب الوارد في سورة النحل أدل على سرعة الوقوع من التركيب الوارد في سورة القمر، وإنما ورد هذان التركيبان المتقاربان في هاتين السورتين تناسبا مع ما افتتحت به كل منهما وللتقارب الشديد بين الاقتراب والإتيان تقارب هذان التشبيهان.
ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن (١٣٩)، والكشاف (٢/ ٤٢٢)، ومسائل الرازي وأجوبتها (٢٤٧)، وراجع مادة (لمح) في اللسان وأساس البلاغة والمصباح المنير.

(٤) زاد في خ: ما.

(٥) قوله «إلا كلمح البصر» جواب «وما أمرُ إقامة الساعة».

[النحل، الآية ٧٢] منتظمٌ معه في سلك أدلةِ التوحيد من قوله تعالى: ﴿والله أنزل من السماء ماءً﴾ [النحل، الآية ٦٥] وقولِه تعالى: ﴿والله خلقَكم﴾ [النحل، الآية ٧٠] وقوله تعالى: ﴿والله فضل بعضَكم على بعض﴾ [النحل، الآية ٧١] والأمهات، بضم الهمزة وقرئ[١] بكسرها أيضًا، جمعُ الأم زيدت الهاء فيه كما زيدت في أهراق من أراق وشذّت زيادتُها في الواحدة، قال: [الرجز]

أُمــهــتــي خِــنــدِفُ والــيــأسُ أبــي[٢]

﴿لا تعلمون شيئًا﴾ في موقع الحال أي غيرَ عالمين شيئًا أصلًا ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ عطف على (أخرجكم) وليس فيه دلالةٌ على تأخر الجمعِ المذكورِ عن الإخراج لما أن مدلولَ الواو هو الجمعُ مطلقًا لا الترتيبُ، على أن أثر ذلك الجعلِ لا يظهر قبل الإخراج أي جعل لكم هذه الأشياءَ آلاتٍ تحصّلون بها العلمَ والمعرفة بأن تُحِسوا بمشاعركم جزئياتِ الأشياء وتُدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساسِ فيحصل لكم علومٌ بديهيةٌ تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلومِ الكسبية. والأفئدة جمع فؤاد وهو وسطُ القلب وهو للقلب كالقلب من الصدر، وهو من جموع القلة التي جرت مَجرى جموعِ الكثرة، وتقديمُ المجرور على المنصوبات لما مر من الإيذان من أول الأمر بكون المَجعول نافعًا لهم وتشويقِ النفس إلى المؤخر ليتمكن عند ورودِه عليها فضلَ تمكن ﴿لعلكم تشكرون﴾ كي تعرِفوا ما أنعم به عليكم طورًا غِبَّ طَورٍ فتشكروه، وتقديمُ السمع على البصر لما أنه طريق تلقي الوحي أو لأن إدراكه أقدمُ من إدراك البصر، وإفرادُه باعتبار كونه مصدرًا في الأصل.

﴿ألم يروا﴾ وقرئ[٣] بالتاء ﴿إلى الطير﴾ جمع طائر أي ألم ينظروا إليها

---

(١) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وابن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٦)، والتيسير للداني (٩٤)، والغيث للصفاقسي (٢٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٢) الرجز لقصيّ بن كلاب في خزانة الأدب (٧/ ٣٧٩)، والدرر (١/ ٨٣)، وسمط اللآلئ ص (٩٥٠)، وشرح شواهد الشافية ص (٣٠١)، ولسان العرب (سلك، أمه)، والمقاصد النحوية (٤/ ٥٦٥)، وديوان الأدب (٤/ ١٧٥)، وتاج العروس (هول، أمم)، وبلا نسبة في: أمالي القالي (٢/ ٣٠١)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ٥٦٤)، وشرح التصريح (٢/ ٣٦٢)، وشرح المفصل (١٠/ ٤)، والمحتسب (٢/ ٢٢٤)، وجمهرة اللغة ص (١٠٨٤).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، وأبو عمرو، وعاصم، وخلف، والحسن، والأعمش، وطلحة، وابن هرمز، وعيسى الثقفي، ويعقوب، ويحيى بن وثاب، وسهل. =

﴿مسخرات﴾ مذلّلاتٍ للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسبابِ المساعدة له، وفيه مبالغةٌ من حيث إن معنى التسخيرِ جعلُ الشيء منقادًا لآخرَ يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفُلك والدوابِّ للإنسان، والواقعُ هاهنا تسخيرُ الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعةِ الطير السقوطَ فسخرها الله تعالى للطيران، وفيه تنبيهٌ على أن الطيرانَ ليس بمقتضى طبعِ الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿في جو السماء﴾ أي في الهواء المتباعدِ من الأرضِ والسكاك[1] واللوح أبعدُ منه، وإضافتُه إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر ولإظهار كمالِ [أجلّ][2] القدرة.

﴿ما يمسكهن﴾ في الجو حين قبْضِ أجنحتهن وبسطِها ووقوفِهن ﴿إلا الله﴾ عز وجل بقدرته الواسعة، فإن ثقلَ جسدها ورِقّةَ قوام الهواء يقتضيان سقوطَها ولا عِلاقةَ من فوقها ولا دِعامة من تحتها، [وهو إما][3] حالٌ من الضمير المستتر في مسخّرات أو من الطير وإما مستأنف ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خِلْقةً تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحةً خفيفة [وأذنابًا كذلك وجعل أجسادها من الخِفة بحيث إذا بسطت أجنحتها][4] وأذنابَها لا يطيق ثقلها يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لأنها لا تلاقيه بحجم كبير ﴿لآيات﴾ ظاهرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا وإنما خص ذلك بهم لأنهم المنتفعون به.

﴿والله جعل لكم﴾ معطوف على ما مر وتقديم لكم على ما سيأتي من المجرور والمنصوب لما مر من الإيذان من أول الأمر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفسِ إلى وروده، وقولُه تعالى: ﴿من بيوتكم﴾ أي: من بيوتكم المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدَر تبيينُ ذلك المجعول المبْهم في الجملة وتأكيدٌ لما سبق من التشويق ﴿سكنًا﴾ فَعَلٌ بمعنى مفعول أي موضعًا تسكنون فيه وقت إقامتِكم أو تسكنون إليه [من غير أن ينتقل من مكانه، أي جعل بعضَ بيوتكم بحيث تسكنون إليه][5] وتطمئنون به ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا﴾ أي بيوتًا أُخَرَ مغايرةً لبيوتكم المعهودةِ هي الخيامُ والقِباب والأخبية والفساطيط.

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والتيسير للداني (١٣٨)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٣)، والغيث للصفاقسي (٢٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(١) في خ: والشكاك.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: وهواها.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.

﴿تستخفونها﴾ تجدونها خفيفةً سهلةَ المأخذ ﴿يوم ظعنكم﴾ وقت تَرحالِكم في النقض والحمل والنقل، وقرئ[١] بفتح العين ﴿ويوم إقامتكم﴾ وقت نزولِكم في الضرب والبناء ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿من جلود﴾ والضمائر للأنعام على وجه التنويع، أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبارِ الإبل وأشعار المعْزِ ﴿أثاثًا﴾ أي متاعَ البيت وأصلُه الكثرةُ والاجتماعُ ومنه شعرٌ أثيثٌ ﴿ومتاعًا﴾ أي شيئًا يُتمتّع به بفنون التمتع ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطارَكم أو إلى أن يبلىٰ ويفنى فإنه في معرض البِلىٰ والفناء، وقيل: إلى أن تموتوا، والكلام في ترتيب المفاعيل مثلُ ما مر من قبل ﴿والله جَعَلَ لكم مما خلق﴾ من غير صنعٍ من قِبلكم ﴿ظلالًا﴾ أشياءَ تستظلون بها من الحر كالغمام والشجرِ والجبل وغيرِها. امتنّ سبحانه بذلك لِما أن تلك الديارَ[٢] غالبةُ الحرارة ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانًا﴾ مواضعَ تسكنون فيها من الكهوف والغِيران[٣] والسُّروب، والكلام في[٤] الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مرَّ غير مرة.

﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع سِربال وهو كل ما يُلبس، أي جعل لكم ثيابًا من القُطن والكَتان والصوف وغيرها ﴿تقيكم الحر﴾ خصّه بالذكر اكتفاءً بذكر أحد الضدّين عن ذكر الآخر أو لأن وقايتَه هي الأهم عندهم لما مر آنفًا ﴿وسرابيل﴾ من الدروع والجواشن ﴿تقيكم بأسكم﴾ أي البأسَ الذي يصل إلى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن، ولقد منّ الله سبحانه علينا حيث ذكر جميعَ نعمِه الفائضةِ على جميع الطوائف فبدأ بما يخُص المقيمين حيث قال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا﴾ [النحل، الآية ٨٠] ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرةٌ على الخيام وأضرابِها حيث قال: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام﴾ إلخ، ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه إلا الظلالُ حيث قال: ﴿وجعل لكم مما خلق ظلالًا﴾ إلخ، ثم بما لا بد منه لأحد حيث قال: ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ إلخ، ثم بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال: ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ ثم قال: ﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٧٩)، والتيسير للداني (١٣٨)، والحجة لابن خالويه (٢١٢)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٥)، والغيث للصفاقسي (٢٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(٢) في خ: الدار.

(٣) في خ: العيران.

(٤) في خ: من.

الإتمامِ البالغِ ﴿يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ أي إرادةَ أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرةِ والباطنةِ [والأنفسيةِ][١] والآفاقية فتعرِفوا حقَّ مُنعمِها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لأمره، وإفرادُ النعمة إما لأن المرادَ [بها][٢] المصدرُ أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياءِ شيءٌ قليل، وقرئ[٣] تَسلمون أي تسلمون من العذاب أو من الشرك، وقيل: من الجراح بلبس الدروع.

﴿فإن تولوا﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات، وصرفُ الخطابِ عنهم إلى رسول الله ﷺ تسليةٌ له أي فإن أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا منك ما ألقيَ إليهم من البينات والعِبر والعظات ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ أي فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هي[٤] البلاغُ الموضح أو الواضح وقد فعلتَه بما لا مزيد عليه فهو من باب وضعِ السببِ موضعَ المسبب ﴿يعرفون نعمة الله﴾ استئنافٌ لبيان أن تولّيَهم وإعراضَهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم بما عُدد من نعم الله تعالى أصلًا فإنهم يعرِفونها و[يعترفون][٥] أنها من الله تعالى ﴿ثم ينكرونها﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غيرَ مُنعمها أو بقولهم: إنها بشفاعة آلهتِنا أو بسبب كذا، وقيل: نعمةُ الله تعالى نبوةُ محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءَهم ثم أنكروها عِنادًا، ومعنى ثم لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة لأن حق مَنْ عرف النعمة الاعترافُ بها لا الإنكارُ، وإسنادُ المعرفة والإنكارِ المتفرِّعِ عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق من باب إسنادِ حالِ البعض إلى الكل كقولهم: بنو فلان قتلوا فلانًا وإنما القاتل واحدٌ منهم، فإن بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه: ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أي المنكرون بقلوبهم غيرُ المعترفين بما ذكر، والحُكم عليهم بمطلق الكفر المؤذِن بالكمال من حيث الكميةُ لا ينافي كمالَ الفِرقة الأولى من حيث الكيفية. هذا وقد قيل: ذكرُ الأكثر إما لأن بعضهم لم يَعرِفوا لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر، أو لم يقُم عليه الحجةُ لأنه لم يبلغ حد التكليف فتدبر.

﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدًا﴾ يشهد[٦] لهم بالإيمان والطاعةِ وعليهم بالكفر

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: ابن عباس، وعكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٢٤)، وتفسير الطبري (١٤/ ١٠٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٢٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١١٢).
(٤) في خ: هو. (٥) في خ: تعرفون.
(٦) في خ: أشهد.

والعصيان وهو نبيها ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار إذ لا عذرَ لهم وثم للدَّلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن[١] الاعتذار المنبئ عن الإقناط الكليِّ، وهو عندما[٢] يقال لهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون، الآية ١٠٨] أشدُّ من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام عليهم وأطمُّ[٣] ﴿ولا هم يستعتبون﴾ يُسترضَون أي لا يقال لهم: ارضُوا ربكم إذ الآخرةُ دارُ الجزاء لا دارُ العمل، وانتصابُ الظرف بمحذوف تقديرُه اذكرْ أو خوِّفْهم يوم نبعث إلخ، أو يوم نبعث [بهم ما][٤] يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب﴾ الذي يستوجبونه[٥] بظلمهم وهو عذابُ جهنم ﴿فلا يخفف عنهم﴾ ذلك ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي يُمهلون كقوله تعالى: ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتهم﴾ [الأنبياء، الآية ٤٠].

﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الأوثانُ أو الشياطينُ الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في الغيّ والضلال ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ أي نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعًا في توزيع العذابِ بينهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه: ﴿فألقَوا﴾ أي شركاؤهم ﴿إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه، وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لأن الأوثانَ ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتَهم لهم كما قالت الملائكةُ عليهم السلام: ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ [سبأ، الآية ٤١] يعنون أن الجنَّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن أو كذبوهم في تسميتهم شركاءَ وآلهةً تنزيهًا لله سبحانه عن الشريك. والشياطينُ وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والإلجاءِ كما قال إبليسُ: ﴿وما كان ليَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢] فكأنهم قالوا: ما عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم ﴿وألقوا﴾ أي الذين أشركوا ﴿إلى الله يومئذ السلم﴾ الاستسلامَ والانقيادَ لحُكمه العزيز الغالب بعد الاستكبارِ عنه في الدنيا ﴿وضل عنهم﴾ أي ضاع وبطل ﴿ما كانوا يفترون﴾ من أن الله سبحانه شركاءَ وأنهم ينصُرون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرأوا منهم ﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر ﴿زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾

---

(١) في خ: عين.
(٢) في خ: عندها.
(٣) في خ: وأعظم.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: يستجيبون.

الذي[١] كانوا يستحقونه بكفرهم، قيل في زيادة عذابهم: حياتٌ أمثالُ البُخْت وعقاربُ أمثالُ البغال تلسَع إحداهن فيجد صاحبها حُمتَها أربعين خريفًا، وقيل: يُخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ متعلق بقوله: زدناهم، أي زدنا[٢] عذابَهم بسبب استمرارِهم على الإفساد وهو الصدّ المذكور.

شهادة النبي ﷺ على الرسل

﴿ويوم نبعث﴾ تكريرٌ لما سبق تثنيةً للتهديد ﴿في كل أمة شهيدًا عليهم﴾ أي نبيًا ﴿من أنفسهم﴾ من جنسهم قطعًا لمعذرتهم وفي قوله تعالى: ﴿عليهم﴾ إشعارٌ بأن شهادةَ أنبيائِهم على الأمم تكون بمحضر منهم ﴿وجئنا بك﴾ إيثارُ لفظ المجيء على البعث لكمال العنايةِ بشأنه عليه السلام، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقق الوقوع ﴿شهيدًا على هؤلاء﴾ الأممِ وشهدائِهم كقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقيل: على أمتك والعاملُ في الظرف محذوفٌ كما مر والمراد يوم القيامة ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ الكاملَ في الكتابية الحقيقَ بأن يُخَص باسم الجنس، وهو إما استئنافٌ أو حال بتقدير قد ﴿تبيانًا﴾ بيانًا بليغًا ﴿لكل شيء﴾ يتعلق بأمور الدين، ومن جملة ذلك أحوالُ الأممِ مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدًا عليهم وكذا من جملته ما أخبر به هذه الآيةُ الكريمة من بعث الشهداءِ وبعثِه عليه السلام شهيدًا عليهم عليهم الصلاة والسلام، والتبيانُ كالتِلقاء في كسر أوله، وكونُه تبيانًا لكل شيء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصًا على بعضها وإحالةً لبعضها على السنة حيث أُمر باتباع النبي عليه السلام وطاعته، وقيل فيه: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] وحثًا على الإجماع وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته باتباع أصحابه حيث قال: «**أصحابي كالنّجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**» وقد اجتهدوا وقاموا ووطّأوا طرقَ الاجتهاد فكانت السنة والإجماعُ والقياسُ مستندةً[٣] إلى تبيان الكتاب ولم يضُرَّ ما في البعض من الخفاء في كونه تبيانًا فإن المبالغةَ باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل في قوله تعالى: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ [ق: ٢٩] إنه من قولك: فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿وهدى ورحمة﴾ للعالمين فإن حرمانَ الكفرة من مغانم آثارِه من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿وبشرى للمسلمين﴾ خاصة أو يكون كلُّ ذلك خاصًا بهم لأنهم المنتفِعون بذلك.

---

(١) في خ: الذين. (٢) في خ: زدناهم. (٣) في خ: مستندين.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

من دستور المؤمنين

﴿**إن الله يأمر**﴾ أي فيما نزّله تبيانًا لكل شيء وهدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجددِ والاستمرار ﴿**بالعدل**﴾ بمراعاة

التوسطِ بين طرفي الإفراطِ والتفريطِ وهو رأسُ الفضائل كلِّها يندرج تحته فضيلةُ[١] القوةِ العقلية الملكية من الحِكمة المتوسطةِ بين الحُرية[٢] والبَلادة، [وفضيلةُ القوةِ الشهوية البهيمية من العِفة المتوسّطة بين الخلاعة والخمود][٣]، وفضيلةُ القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهوُّرِ والجُبن، فمن الحِكم **الاعتقادية** التوحيدُ المتوسطُ بين التعطيل والتشريك. نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن العدلَ هو التوحيدُ» والقولُ بالكسب المتوسّطِ بين الجبر والقدَر، ومن الحِكم **العملية** التعبدُ بأداء الواجبات المتوسطِ بين البَطالة والترهب، ومن الحِكم **الخلُقية** الجودُ المتوسط بين البخل والتبذير ﴿**والإحسان**﴾ أي الإتيانِ بما أمر به على الوجه اللائقِ وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفيةِ كما يشير إليه قولُه ﷺ: «**الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٤] ﴿**وإيتاء ذي القربى**﴾ أي إعطاءِ الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ إثرَ تعميم اهتمامًا بشأنه ﴿**وينهى عن الفحشاء**﴾ الإفراط في مشايعة القوةِ الشهوية كالزنا مثلًا ﴿**والمنكر**﴾ ما يُنكَر شرعًا أو عقلًا من الإفراط في إظهار آثار القوةِ الغضبية ﴿**والبغي**﴾ الاستعلاءُ والاستيلاءُ على الناس والتجبرُ عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانيةِ التي هي حاصلةٌ من رذيلتَيْ القوتين المذكورتين الشهويةِ والغضبية، وليس في البشر شرٌّ إلا وهو مندرجٌ في هذه الأقسام صادرٌ عنه بواسطة هذه القُوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمعُ آيةٍ في القرآن للخير والشر»[٥]، ولو لم يكن فيه غيرُ هذه الآية الكريمة لكفَتْ في كونه تبيانًا لكل شيءٍ وهدى [ورحمة] ﴿**يعظكم**﴾ بما يأمر وينهى، وهو إما استئنافٌ وإما حالٌ من الضميرين في الفعلين ﴿**لعلكم تذكرون**﴾ طلبًا لأن تتعظوا بذلك.

﴿**وأوفوا بعهد الله**﴾ هو البَيعةُ لرسول الله ﷺ فإنها مبايعةٌ لله سبحانه لقوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: ١٠] ﴿**إذا عاهدتم**﴾ أي حافظوا على

---

(١) في خ: فضلة.
(٢) في خ: الجزيرة.
(٣) سقط في خ.
(٤) أخرجه البخاري (١/ ١٥٣) كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩) كتاب الإيمان: باب الإيمان والإسلام والإحسان برقم (٥/ ٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٨) كتاب التفسير باب: تفسير سورة النحل، والبيهقي في شعب الإيمان، (٢/ ٤٧٣) برقم (٢٤٤٠) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسولَ الله ﷺ ﴿ولا تنقضوا الأيمان﴾ التي تحلِفون بها عند المعاهدة ﴿بعد توكيدها﴾ حسبما هو المعهودُ في[1] أثناء العهودِ لا على أن يكون النهيُ مقيدًا بالتوكيد مختصًا به ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا﴾ شاهدًا رقيبًا، فإن الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفول به محافظٌ عليه ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ من نقض الأيمان والعهودِ فيجازيكم[2] على ذلك ﴿ولا تكونوا﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿كالتي نقضت غزلها﴾ أي ما غزلتْه، مصدرٌ بمعنى المفعول ﴿من بعد قوة﴾ متعلق بنقضت أي كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد إبرامه وإحكامِه ﴿أنكاثًا﴾ طاقاتٍ نكثتْ فتلَها جمع نِكْث، وانتصابه على الحالية من غزْلَها أو على أنه مفعولٌ ثانٍ لنقضت فإنه بمعنى صيّرت، والمرادُ تقبيحُ حالِ النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاءِ المعتوهةِ[3]. قيل: هي (رَيْطةُ[4] بنتُ سعد بن تيم) وكانت خرقاءَ اتخذت مِغزلًا قدرَ ذراعٍ وصَنّارةً مثلَ أصبع وفلكةً عظيمةً على قدرها فكانت تغزِل[5] هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقُضْن ما غزَلْن ﴿تتخذون أيمانكم دخَلًا بينكم﴾ حالٌ من الضمير في لا تكونوا أو في الجار والمجرور الواقعِ موقعَ الخبر أي مشابهين لامرأة شأنُها هذا حالَ كونِكم متَّخذين أيمانَكم مفسدةً ودَخَلًا بينكم، وأصلُ الدخَل ما يدخُل الشيء ولم يكن منه ﴿أن تكون أمة﴾ أي بأن تكون جماعة ﴿هي أربى﴾ أي أزيد عددًا وأوفر مالًا ﴿من أمة﴾ من جماعة أخرى أي لا تغدُروا بقوم [لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة][6] مُنابذيهم وقوتهم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائِهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءهم ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي بأن تكون أمةٌ أربى من أمة، أي يعاملكم بذلك معاملةَ من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاءِ بعهد الله وبَيعةِ رسولِه عليه السلام أم تغترّون بكثرة قريشٍ وشوكتِهم وقلةِ المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ﴿وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثوابًا وعقابًا ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئةَ قسرٍ وإلجاءٍ ﴿لجعلكم أمة

---

(١) في خ: من. (٢) في خ: ويجازيكم.

(٣) ومما يزيد من تقبيحهم نهيهم أن يكونوا مضرب مثل معروف في العرب بالاستهزاء وقد جاء النظم على هذا النحو بتعريفها بالموصولية إلماعًا إلى اشتهارها بمضمون الصلة، وهو من التشبيه التمثيلي. ينظر: في الفرق بين التشبيه والتمثيل شروح التلخيص (٣/ ١١١) وما بعدها، والعمدة لابن رشيق (٣/ ١٨٧)، ومفتاح العلوم للسكاكي (١٤٠ - ١٥١)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٥٧ - ٥٩)، وأسرار البلاغة (٥٠، ٨٠، ٨٢)، والتحرير والتنوير (١٤/ ٢٦٤).

(٤) في خ: بنت. (٥) في خ: بمعزل.

(٦) في ط: لكثرتهم.

واحدة﴾ متفقةً على الإسلام **﴿ولكن﴾** لا يشاء ذلك لكونه مزاحِمًا لقضية الحِكمة بل **﴿يضل من يشاء﴾** إضلالَه أي يخلق فيه الضلالَ حسبما يصرِفُ اختيارَه الجزئيَّ إليه **﴿ويهدي من يشاء﴾** هدايته حسبما يصرِف اختيارَه إلى تحصيلها **﴿ولتسألن﴾** جميعًا يوم القيامة **﴿عما كنتم تعملون﴾** في الدنيا، وهذا إشارةٌ إلى ما لُوِّح به من الكسب الذي عليه يدور أمرُ الهداية والضلال.

﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلًا بينكم﴾ تصريحٌ بالنهي عنه بعد التضمين تأكيدًا ومبالغةً في بيان قبحِ المنهيِّ عنه وتمهيدًا لقوله سبحانه: **﴿فتزل قدم﴾** عن مَحجّة الحق **﴿بعد ثبوتها﴾** عليها ورسوخِها فيها بالإيمان، وإفرادُ القدم وتنكيرُها للإيذان بأن زلَلَ قدم واحدة، أيَّ قدمٍ كانت عزّت أو هانت، محذورٌ عظيم فكيف بأقدام كثيرة **﴿وتذوقوا السوء﴾** أي العذابَ الدنيوي **﴿بما صددتم﴾** بصدودكم أو بصدّكم غيرَكم **﴿عن سبيل الله﴾** الذي ينتظم الوفاءَ بالعهود والأيمان، فإن من نقض البَيعةَ وارتدّ جَعل ذلك سنةً لغيره **﴿ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله﴾** أي لا تأخذوا بمقابلة عهدِه تعالى وبَيعةِ رسوله عليه السلام أو آياتِه الناطقة بإيجاب المحافظةِ على العهود والأيمان **﴿ثمنًا قليلًا﴾** أي لا تستبدلوا بها عرَضًا يسيرًا وهو ما كانت قريشٌ يعِدّون ضعفةَ المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حُطام الدنيا **﴿إنما عند الله﴾** عز وجل من النصر والتنعيم والثوابِ الأخرويّ **﴿هو خير لكم﴾** مما يعِدونكم **﴿إن كنتم تعلمون﴾** أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز، وهو تعليلٌ للنهي [على][1] طريقة التحقيقِ كما أن قوله تعالى: **﴿ما عندكم﴾** تعليلٌ للخيرية[2] بطريق الاستئنافِ أي ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وإن جل، بل الدنيا وما فيها جميعًا **﴿ينفد﴾** وإن جمّ عددُه، وينقضي وإن طال أمدُه **﴿وما عند الله﴾** من خزائن رحمتِه الدنيوية والأخروية **﴿باق﴾** لا نفادَ له، أما الأخرويةُ فظاهرةٌ وأما الدنيويةُ فحيث كانت موصولةً بالأخروية ومستتبِعةً لها فقد انتظمت في سِمْط[3] الباقيات.

وفي إيثار الاسمِ على صيغة المضارعِ من الدلالة[4] على الدوام ما لا يخفى، وقوله تعالى: **﴿ولنجزين﴾** بنون العظمة على طريقة الالتفاتِ تكريرُ الوعد المستفادِ من قوله تعالى: ﴿إنما عند الله هو خيرٌ لكم﴾ على نهج التوكيدِ القسميِّ مبالغةٌ في الحمل على الثبات في الدين، والالتفاتُ عما يقتضيه ظاهرُ الحال من أن يقال: ولنجزينكم

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: للخبرية.
(٣) في خ: سلك.
(٤) في خ: الدلائل.

أجركم بأحسن ما كنتم تعملون، للتوسل إلى التعرض لأعمالهم والإشعارِ بعليتها للجزاء أي والله لنجزين ﴿الذين صبروا﴾ على أذية المشركين ومشاقِّ[1] الإسلام التي من جملتها الوفاءُ بالعهود والفقرُ، وقرئ[2] بالياء من غير التفاتٍ ﴿أجرهم﴾ مفعولٌ ثانٍ لنجزين أي لنُعطِينّهم أجرَهم الخاصَّ بهم بمقابلة صبرِهم على ما مُنوا به من الأمور المذكورة ﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكورِ، وإنما أضيف إليه الأحسنُ للإشعار بكمال حسنِه كما في قوله سبحانه: ﴿وحسنَ ثوابِ الآخرة﴾ [آل عمران، الآية ١٤٨] لا لإفادة قصرِ الجزاءِ على الأحسن منه دون الحسَن، فإن ذلك مما لا يخطر ببال أحد، لا سيما بعد قوله تعالى: ﴿أجرهم﴾ و﴿لنجزينهم﴾ بحسب أحسنِ أفرادِ أعمالِهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفردِ الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفردِ الأعلى منها من الأجر الجزيلِ لا أنا نُعطي الأجر بحسب أفرادِها المتفاوتةِ في مراتب الحسن بأن نجزيَ الحسنَ منها بالأجر الحسَنِ والأحسنَ بالأحسن. وفيه ما لا يخفى من العُهدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزَعٍ، ونظمِه في سلك الصبر الجميل، أو لنجزينهم بجزاءٍ أحسنَ من أعمالهم. [وأما التفسيرُ بما ترجح فعلُه من أعمالهم][3] كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركُه أيضًا كالمحرمات والمكروهات دلالةً على أن ذلك هو المدارُ للجزاء دون ما يستوي فعلُه وتركُه كالمباحات، فلا يساعده مقامُ الحثِّ على الثبات على ما هم عليه من الأعمال الحسنةِ المخصوصة والترغيبِ في تحصيل ثمراتها، بل التعرضُ لإخراج بعض أعمالِهم عن مدارية الجزاءِ من قبيل تحجيرِ الرحمةِ الواسعة في مقام توسيعِ حِماها.

﴿من عمل صالحًا﴾ أي عملًا صالحًا أيَّ عملٍ كان، وهذا شروعٌ في تحريض كافةِ المؤمنين على كل عملٍ صالح غِبَّ ترغيبِ طائفةٍ منهم في الثبات على ما هم عليه من عملٍ صالحٍ مخصوصٍ دفعًا لتوهم اختصاصِ الأجر الموفورِ بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ مبالغةٌ في بيان شمولِه للكل ﴿وهو مؤمن﴾

---

(١) في خ: مساق.

(٢) قرأ بها: قنبل، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن ذكوان، وهشام. ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٠)، والتيسير للداني (١٣٨)، والحجة لابن خالويه (٢١٣)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٥)، والغيث للصفاقسي (٢٧٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).

(٣) سقط في خ.

قيّده به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب أو تخفيفِ العذاب لقوله تعالى: ﴿وقدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا﴾ [الفرقان، الآية ٢٣] وإيثارُ إيرادِه بالجملة الاسميةِ الحالية على نظمه في سلك الصلةِ لإفادة وجوبِ دوامه ومقارنتِه للعمل الصالح ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ أما إن كان موسرًا فظاهرٌ وأما إن كان معسِرًا فيطيب عيشُه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقعِ الأجرِ العظيم كالصائم يطيب نهارُه بملاحظة نعيمِ ليلِه بخلاف الفاجر، فإنه إن كان معسرًا فظاهرٌ وإن كان موسرًا فلا يدعه الحِرصُ وخوفُ الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ولنجزينهم﴾ في الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبةُ تكرار، والجمعُ في الضمائر العائدةِ إلى الموصول لمراعاة جانبِ المعنى كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ، وإيثار ذلك على العكس لِما أن وقوعَ الجزاءِ بطريق الاجتماعِ المناسبِ للجمعية ووقوعَ ما في حيز الصلةِ وما يترتب عليه بطريق الافتراقِ والتعاقُب الملائم للإفراد، وإذ قد انتهى الأمرُ إلى أن مدار الجزاءِ المذكورِ وهو صلاحُ العمل وحسنُه رُتّب عليه بإلغاء الإرشاد إلى ما به يحسُن العمل الصالح ويخلُص عن شَوب الفساد فقيل: ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أي إذا أردت قراءتَه عبّر بها عن إرادتها على طريقة إطلاقِ اسم المسبّب على السبب إيذانًا بأن المرادَ هي الإرادةُ المتصلةُ بالقراءة ﴿فاستعذ بالله﴾ فاسأله عز جارُه أن يعيذك ﴿من الشيطان الرجيم﴾ من وساوسه وخطَراتِه كي لا يوسوسَك عند القراءة فإن له هَمّةً بذلك، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّىٰ ألقى الشيطانُ في أُمنيَّته﴾ الآية [الحج: ٥٢]، وتوجيهُ الخطاب إلى رسول الله ﷺ وتخصيصُ قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الأعمال الصالحةِ أهمّ فإنه عليه السلام حيث أُمر بها عند قراءةِ القرآن الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام وفيما عدا القراءةَ من الأعمال! والأمرُ للندب وهذا مذهبُ الجمهور، وعند عطاءٍ للوجوب وقد أخذ بظاهر النظمِ الكريم فاستعاذ عَقيبَ القراءة أبو هريرة رضي الله عنه ومالكٌ وابنُ سيرينَ وداودُ وحمزةُ من القراء، وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: قرأتُ على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال عليه السلام: **«قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريلُ عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ»**[١]

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٦/ ٤٢).

﴿إنه﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ تسلّطٌ وولاية ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي إليه يفوضون أمورَهم وبه يعوذون في كل ما يأتون وما يذرون فإن وسوستَه لا تؤثر فيهم ودعوتَه غيرُ مستجابة عندهم، وإيثارُ صيغةِ الماضي في الصلة الأولى للدلالة على التحقق كما أن اختيارَ صيغةِ الاستقبالِ في الثانية لإفادة الاستمرارِ التجدّدي، وفي التعرض لوصف الربوبية عِدَةٌ كريمةٌ بإعادة المتوكلين، والجملة تعليلٌ للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المنويِّ أي يُعِذْك أو نحوه ﴿إنما سلطانه﴾ أي تسلّطُه وولايتُه بدعوته المستتبعةِ للاستجابة لا سلطانُه بالقسر والإلجاء فإنه مُنتفٍ عن الفريقين لقوله سبحانه حكايةً عنه: ﴿وما كان لِيَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم، الآية ٢٢] وقد أفصح عنه قولُه تعالى: ﴿على الذين يتولونه﴾ أي يتخذونه وليًّا ويستجيبون دعوتَه ويُطيعونه فإن المقسور بمعزل من ذلك ﴿والذين هم به﴾ سبحانه وتعالى ﴿مشركون﴾ أو بسبب الشيطانِ مشركون إذ هو الذي حملهم على الإشراك بالله سبحانه، وقصُر سلطانه عليهم غِبَّ نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليلٌ على ألا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي الشيطان وإن كان بينهما واسطةٌ في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظمُ في سلك مَنْ يتولّى الشيطانَ من حيث لا يحتسب إذ به يتم التعليلُ ففيه مبالغةٌ في الحمل على التوكل والتحذيرِ عن مقابله، وإيثارُ الجملة الفعليةِ الاستقبالية في الصلة الأولى لما مر من إفادة الاستمرارِ التجدّدي كما أن اختيارَ الجملةِ الاسميةِ في الثانية للدلالة على الثبات، وتكريرُ الموصولِ للاحتراز عن توهم كونِ الصلةِ الثانية حاليةً مفيدةً لعدم دخول غيرِ المشركين من أولياء الشيطانِ تحت سلطانِه، وتقديمُ الأولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارَنةِ بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى، ولو رُوعيَ الترتيبُ السابق لانفصل كلٌّ من القرينتين عما يقابلها.

دفاع عن القرآن

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ أي إذا أنزلنا آيةً من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلًا منها بأن نسخناها بها ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ أولًا وآخِرًا وبأن كلاً من ذلك ما نزلت حيثما نزلت إلا حسبما تقتضيه الحِكمةُ والمصلحة، فإن كل وقت له مقتضًى غيرُ مقتضى الآخَر، فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخرَ مفسدةً وبالعكس، لانقلاب الأمورِ الداعية إلى ذلك وما الشرائعُ إلا مصالحُ للعباد في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالحُ، والجملةُ **إما معترضةٌ** لتوبيخ الكفرةِ والتنبيهِ على فساد رأيهم، وفي الالتفات إلى الغَيبة مع إسناد الخبرِ إلى الاسم الجليلِ المستجمِع

للصفات ما لا يخفى من تربيةِ المهابةِ وتحقيقِ معنى الاعتراض **أو حالية** وقرئ[١] بالتخفيف من الإنزال ﴿**قالوا**﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿**إنما أنت مفتر**﴾ أي متقوّلٌ على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهىٰ عنه، وحكايةُ هذا القول عنهم هاهنا للإيذان بأن ذلك كَفْرةٌ ناشئةٌ من نزغات الشيطان وأنه وليُّهم ﴿**بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي لا يعلمون شيئًا أصلًا أو لا يعلمون أن في النسخ حِكَمًا بالغةً، وإسنادُ هذا الحكمِ إلى الأكثر لما أن منهم مَنْ يعلم ذلك وإنما ينكره عِنادًا.

﴿**قل نزله**﴾ أي القرآنَ المدلول عليه بالآية ﴿**روح القدس**﴾ يعني جبريلُ عليه السلام أي الروحُ المطهّر من الأدناس البشرية، وإضافةُ الروحِ إلى القدس وهو الطُهْرُ كإضافة حاتم إلى الجود حيث قيل: حاتمُ الجودِ للمبالغة في ذلك الوصفِ كأنه طبعٌ منه، وفي صيغة التفعيلِ في الموضعين إشعارٌ بأن التدريجَ في الإنزال مما تقتضيه الحِكَمُ البالغة[٢] ﴿**من ربك**﴾ في إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ من الدلالة على تحقيق إفاضةِ آثارِ الربوبية عليه ﷺ ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المبنيةِ على التلقين المحض ﴿**بالحق**﴾ أي ملتبسًا بالحق الثابتِ الموافقِ للحكمة المقتضيةِ له بحيث لا يفارقها إنشاءً ونسخًا، وفيه دَلالةٌ على أن النسخ حق ﴿**ليثبت الذين آمنوا**﴾ على الإيمان بأنه كلامُه تعالى فإنهم إذا سمعوا الناسخَ وتدبّروا ما فيه من رعاية المصالحِ اللائقة بالحال رَسَخت عقائدُهم واطمأنت قلوبُهم، وقرئ[٣] ليُثبت من الإفعال ﴿**وهدى وبشرى للمسلمين**﴾ المنقادين لحُكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتًا وهدايةً وبشارةً، وفيه تعريضٌ بحصول أضدادِ الأمورِ المذكورة لمن سواهم من الكفار.

﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون**﴾ غيرَ ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿**إنما يعلمه**﴾ أي القرآنَ ﴿**بشر**﴾ على طريق البتّ مع ظهور أنه نزّله روحُ القدس عليه الصلاة والسلام، وتحليةُ الجملةِ بفنون التأكيدِ لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرارِ العلم بحسب الاستمرارِ التجدّدي في متعلَّقه فإنهم مستمرون على تفوّه تلك العظيمةِ، يعنون بذلك جبرًا الروميَّ غلامَ عامر بنِ الحضرمي، وقيل: جبرًا ويسارًا كانا يصنعان السيفَ بمكة ويقرآن التوارةَ والإنجيلَ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).

(٢) في خ: المبالغة.

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٣٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٢٩).

وكان الرسولُ عليه الصلاة والسلام يمرّ عليهما ويسمع ما يقرآنه، وقيل: عابسًا غلامَ حويطِب بنِ عبدِ العزّىٰ [كان] قد أسلم وكان صاحبَ كتب، وقيل: سلمانَ الفارسي، وإنما لم يصرَّح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخلَ في ظهور كذبِهم للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبتَه عليه السلام إلى التعلم من شخص معينٍ بل من البشر كائنًا مَنْ كان مع كونه عليه السلام معدِنًا لعلوم الأولين والآخرين ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ﴾ الإلحادُ الإمالةُ، مِنْ ألحد القبرَ إذا أمال حفرَه عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استُعير لكل إمالةٍ عن الاستقامة[1] فقالوا: ألحد فلانٌ في قوله وألحد في دينه، أي لغةُ الرجلِ الذي يُميلون إليه القول عن الاستقامة أعجميةٌ غيرُ بيِّنةٍ، وقرئ[2] بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان[3] ﴿وهذا﴾ أي القرآنُ الكريم ﴿لسان عربي مبين﴾ ذو بيان وفصاحةٍ، والجملتان مستأنَفتان لإبطال طعنهم، وتقرير أن القرآن معجزٌ بنظمه كما أنه معجزٌ بمعناه فإن زعمتم أن بشرًا يعلّمه معناه فكيف يعلّمه هذا النظمَ الذي أعجز جميعَ أهل الدنيا! والتشبثُ في أثناء الطعن بأذيال أمثالِ هذه الخرافاتِ الركيكة دليلٌ على كمال عجزهم.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي لا يصدّقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون، يسمّونها تارة افتراءً وأخرى أساطيرَ معلَّمةً من البشر ﴿لا يهديهم الله﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاةِ هدايةً موصلة إلى المطلوب لما علم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ وهذا تهديدٌ لهم ووعيدٌ على ما هم عليه من الكفر بآياتِ الله تعالى ونسبة رسولِ الله ﷺ إلى الافتراء والتعلم من البشر بعد إماطةِ شبُهتِهم وردّ طعنهم وقوله تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ ردٌّ لقولهم: إنما أنت مفترٍ، وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده

---

(١) وشيء آخر مع الاستعارة هو أن في التعبير باللسان مجازًا مرسلاً علاقته الآلية حيث ذكر الآلة (اللسان) وأراد أثرها وهو (اللغة) وفي ذلك إبلاغ في نفي التلقي عن الغير.
ينظر: مفتاح العلوم (٥٣) وما بعدها، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع (١٧٨ - ١٧٩)، والمطول (٣٥٣).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وعبد الله بن طلحة، والسلمي، والأعمش، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٠)، والتيسير للداني (١٣٨)، والحجة لابن خالويه (٢١٣).

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٢٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٧)، والبحر المحيط (٥/ ٥٣٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٢٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٨٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢).

بتحقيق أنه منزلٌ من عند الله بواسطة روحِ القدس، وإنما وُسّط بينهما قوله تعالى: ﴿ولقد نعلم﴾ الآية [النحل، الآية ١٠٣]، لما لا يخفى من شدة اتصالِه بالرد الأول، والمعنى والله تعالى أعلم أن المفتريَ هو الذي يكذّب بآيات الله ويقول إنه افتراءٌ ومعلَّمٌ من البشر أي تكذيبُها على الوجه المذكور هو الافتراءُ على الحقيقة لأن حقيقتَه الكذبُ، والحكم بأن ما هو كلامُه تعالى ليس بكلامه تعالى في كونه كذبًا وافتراءً كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامُه تعالى، والتصريحُ بالكذب للمبالغة في بيان قُبحِه، وصيغةُ المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارةٌ عنه أعني قوله: لا يؤمنون، وقيل: المعنى إنما يفتري الكذبَ ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لأنه لا يترقب عقابًا عليه ليرتدعَ عنه، وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراءٌ ألبتةَ ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الإيمانِ بآيات الله ﴿هم الكاذبون﴾ على الحقيقة أو الكاملون في الكذب إذ لا كذِبَ أعظمُ من تكذيب آياتِه تعالى والطعنِ فيها بأمثال هاتيك الأباطيلِ، والسرُّ في ذلك أن الكذِبَ الساذَجَ الذي هو عبارةٌ عن الإخبار بعدم وقوعِ ما هو واقعٌ في نفس الأمرِ بخلق الله تعالى أو بوقوعِ ما لم يقعْ كذلك مدافعةٌ لله تعالى في فعله فقط، والتكذيبُ مدافعةٌ له سبحانه في فعلِه وقولِه المنبئ عنه معًا، أو الذين عادتُهم الكذبُ لا يزَعُهم عنه وازعٌ من دين أو مروءةٍ، وقيل: الكاذبون في قولهم: إنما أنت مفتر.

﴿من كفر بالله﴾ أي تلفظ بكلمة الكفر ﴿من بعد إيمانه﴾ به تعالى، وهو ابتداءُ كلام لبيان حالِ من كفر بآيات الله بعدما آمن بها بعد بيان حالِ من لم يؤمن بها رأسًا، ومَنْ موصولةٌ ومحلُّها الرفعُ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ لدِلالة الخبرِ الآتي عليه أو هو خبرٌ لهما معًا، أو النصبُ على الذم ﴿إلا من أكره﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه، وهو استثناءٌ متّصلٌ من حكم الغضبِ والعذاب أو الذمّ لأن الكفرَ لغةً يتم بالقول كما أشير إليه وقوله تعالى: ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ حالٌ من المستثنى والعاملُ هو الكفرُ الواقع بالإكراه، لأن مقارنةَ اطمئنان القلبِ بالإيمان للإكراه لا تجدي[1] نفعًا، وإنما المجدي[2] مقارنتُه للكفر الواقعِ به أي إلا مَنْ كفر بإكراه وإلا من أُكره فكفر، والحالُ أن قلبه مطمئنٌّ بالإيمان لم تتغير عقيدتُه، وإنما [لم][3] يصرَّح به إيماءً إلى أنه ليس بكفر حقيقة، وفيه دليلٌ على أن

(١) في خ: يجري.
(٢) في خ: المجري.
(٣) سقط في خ.

الإيمانَ هو التصديقُ بالقلب ﴿ولكنْ من﴾ لم يكن كذلك بل ﴿شرح بالكفر صدرًا﴾ أي اعتقده وطاب به نفسًا ﴿فعليهم غضب﴾ عظيم لا يُكتنه كُنهه ﴿من الله﴾ إظهارُ الاسم الجليلِ لتربية المهابة وتقويةٌ لعظيم العذاب ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ إذ لا جُرم أعظمُ من جرمهم، والجمعُ في الضميرين المجرورين لمراعاة جانبِ المعنى كما أن الإفراد في المستكنّ في الصلة لرعاية جانبِ اللفظ. روي أن قريشًا أكرهوا عمارًا وأبويه ياسرًا وسُمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سميةَ بين بعيرين ووُجِئت[1] بحربة في قبُلها، وقالوا: إنما أسلمتْ من أجل الرجالِ فقتلوها وقتلوا ياسرًا وهما أولُ قتيلين في الإسلام، وأما عمارٌ فأعطاهم بلسانه ما أكره عليه فقيل: يا رسول الله إن عمارًا كفر، فقال رسولُ الله ﷺ: **«كلا، إن عمارًا مُلئ إيمانًا من قَرنه إلى قدمه واختلط الإيمانُ بلحمه ودمه»**، فأتىٰ عمارٌ رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسولُ الله ﷺ يمسح عينيه وقال: **«ما لك، إن عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت»**[2] وهو دليلُ جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراهِ الملجئ وإن كان الأفضلُ أن يتجنب عنه إعزازًا للدين كما فعله أبواه. وروي أن مسيلِمةَ الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسولُ الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: فأنت أيضًا فخلاَّه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أصمّ، فأعاد جوابه فبلغ رسولَ الله ﷺ، فقال: **«أما الأول فقد أخذ برخصة وأما الثاني فقد صدَع بالحق»**[3] ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان أو إلى الوعيد المذكور ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿استحبوا الحياة الدنيا﴾ آثروها ﴿على الآخرة وأن الله لا يهدي﴾ إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثباتَ عليه هدايةَ قسرٍ وإلجاءٍ ﴿القوم الكافرين﴾ في علمه المحيطِ فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدّي إليه من الغضب والعذابِ العظيم، ولولا أحدُ الأمرين: إما إيثارُ الحياة الدنيا على الآخرة وإما عدمُ هدايةِ الله سبحانه للكافرين هدايةَ قسرٍ بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هدايةَ قسرٍ، لَما كان ذلك لكنّ الثانيَ مخالفٌ للحكمة والأولُ مما لا يدخُل تحت الوقوعِ وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿أولئك﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فأبت عن إدراك الحقِّ والتأمل فيه ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ أي الكاملون في الغفلة إذ لا غفلةَ أعظمُ من الغفلة عن تدبر العواقب. ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ إذْ ضيّعوا

---

(١) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق. ويقال: وجأه باليد والسكين.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣/ ٤٨).

(٣) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٧٣) برقم (٣٣٠٣٧) من حديث الحسن البهري مرسلًا.

أعمارَهم وصرفوها إلى ما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلد ﴿**ثم إن ربك للذين هاجروا**﴾ إلى دار الإسلام وهم عمارٌ وأصحابُه رضي الله عنهم، أي لهم بالولاية والنصرِ لا عليهم كما يوجبه ظاهرُ أعمالِهم السابقةِ، فالجارُّ والمجرور خبرٌ لإن ويجوز أن يكون خبرُها محذوفًا لدلالة الخبرِ الآتي عليه ويجوز أن يكون ذلك خبرًا لها وتكون إن الثانيةُ تأكيدًا للأولى، وثم للدلالة على تباعد رتبةِ حالهم التي يفيدها الاستثناءُ من مجرد الخروجِ عن حكم الغضب والعذابِ بطريق الإشارة، لا عن رتبة حالِ الكفرة ﴿**من بعد ما فتنوا**﴾ أي عُذّبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبِهم بالإيمان، وقرئ[1] على بناء الفاعل أي عذّبوا المؤمنين كالحضْرمي أكره مولاه جبرًا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا ﴿**ثم جاهدوا**﴾ في سبيل الله ﴿**وصبروا**﴾ على مشاقّ الجهاد ﴿**إن ربك من بعدها**﴾ من بعد المهاجِرة والجهاد والصبرِ، فهو تصريحٌ بما أشعر به بناءُ الحُكم على الموصول من علّية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم إخلالِ ذلك بالحكم ﴿**لغفور**﴾ لما فعلوا من قبلُ ﴿**رحيم**﴾ يُنعم عليهم مجازاةً على ما صنعوا من بعد، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ في الموضعين إيماءٌ إلى علة الحكم، وفي إضافة الربِّ إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثرِ في الطائفة المذكورة إظهارٌ لكمال اللطفِ به عليه السلام وإشعارٌ بأن إفاضة آثارِ الربوبيةِ عليهم من المغفرة والرحمةِ بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعًا له.

﴿**يوم تأتي كل نفس**﴾ منصوب برحيم وما رُتِّب عليه، أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناسُ لرب العالمين ﴿**تجادل عن نفسها**﴾ عن ذاتها تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يُهِمّها شأنُ غيرها فتقول نفسي نفسي ﴿**وتوفىٰ كل نفس**﴾ أي تعطىٰ وافيًا كاملًا ﴿**ما عملت**﴾ أي جزاءَ ما عملت بطريق إطلاقِ اسم السبب على المسبَّب إشعارًا بكمال الاتصالِ بين الأجزية والأعمال، وإيثارُ الإظهار على الإضمار لزيادة التقريرِ وللإيذان باختلاف وقتي المجادلةِ والتوفيةِ وإن كانتا في يوم واحد ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ لا يُنقَصون أجورَهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يُزاد في عقابهم على ذنوبهم.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٠)، والتيسير للداني (٣٩٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٦)، والغيث للصفاقسي (٢٧٢)، والكشف للقيسي (٢/ ٤١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).

بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

من أمثال القرآن

﴿وضرب الله مثلًا قريةً﴾ قيل: ضرْبُ المثل صنعُه واعتمالُه، وقد مرَّ تحقيقُه في سورة البقرة، ولا يتعدى إلا إلى مفعول واحدٍ وإنما عُدّيَ لاثنين لتضمينه معنى الجعْل، وتأخيرُ قريةً مع كونها مفعولًا أولًا لئلا يحولَ المفعولُ الثاني بينها وبين صفتِها وما يترتب عليها، إذ التأخيرُ عن الكل مُخِلٌّ بتجاذب أطرافِ النظم وتجاوبها، ولأن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ مما يورث النفسَ ترقبًا لوروده تشوقًا لا سيما إذا كان في المقدَّم ما يدعو إليه، فإن المثلَ مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوالِ ما هو مثلٌ فيتمكن المؤخرُ[1] عند ورودِه لديها فضلَ تمكنٍ[2]، والقريةُ إما محققةٌ في الغابرين، وإما مقدرةٌ أي جعلها مثلًا لأهل مكةَ خاصةً، أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمةُ ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمةً ودخل فيهم أهلُ

(١) في خ: التأخر.
(٢) في خ: لكن.

مكةَ دخولًا أوليًا ﴿كانت آمنة﴾ ذاتَ أمنٍ من كل مَخُوف ﴿مطمئنة﴾ لا يُزعج أهلَها مزعجٌ ﴿يأتيها رزقها﴾ أقواتُ أهلها، صفةٌ ثانية لـ (قريةً) وتغييرُ سبكها[١] عن الصفة الأولى لما أن إتيانَ رزقِها متجددٌ وكونَها آمنةً مطمئنةً ثابتٌ مستمرٌّ ﴿رغدًا﴾ واسعًا ﴿من كل مكان﴾ من نواحيها.

﴿فكفرت﴾ أي كفرَ أهلُها ﴿بأنعم الله﴾ أي بنِعَمه، جمع نعمة على ترك الاعتداد[٢] بالتاء كدِرع[٣] وأدرُع، أو جمع نُعْم كبؤس وأبؤس، والمراد بها نعمةُ الرزقِ والأمن المستمرِّ، وإيثارُ جمعِ القلةِ للإيذان بأن كفرانَ نعمةٍ قليلة حيث أوجب هذا العذابَ فما ظنك بكفران نِعم كثيرة ﴿فأذاقها الله﴾ أي أذاق أهلها ﴿لباس الجوع والخوف﴾ شُبِّه أثرُ الجوعِ والخوفِ وضررُهما المحيطُ بهم باللباس الغاشي للآبس فاستُعير له اسمُه وأُوقِع عليه الإذاقةُ المستعارة لمطلق الإيصالِ المنبئةِ عن شدة الإصابةِ بما فيها من اجتماع إدراكَيْ اللامسةِ والذائقة على نهج التحرير، فإنها لشيوع استعمالِها في ذلك وكثرةِ جرَيانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقةِ كقول كثيِّر: [الكامل]

غَمْرُ الرداءِ إذا تبسم ضاحكًا غلقت لضحكته رقابُ المال[٤]

فإن الغمْرَ مع كونه في الحقيقة من أحوال الماءِ الكثير لمّا كان كثيرَ الاستعمال في المعروف المشبَّهِ بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقةِ فصارت إضافتُه إلى الرداء المستعارِ للمعروف تجريدًا. أو شبّه أثرُهما وضررُهما من حيث الإحاطةُ بهم والكراهةُ[٥] لديهم تارة باللباس الغاشي لِلابس المناسبِ للخوف بجامع الإحاطةِ واللزوم[٦] تشبيهَ معقولٍ بمحسوس فاستُعير له اسمُه استعارةً تصريحيةً، وأخرى بطعم المرِّ البشعِ الملائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة، فأُوميَ إليه بأن أوقع عليه الإذاقةُ المستعارة لإيصال المضارِّ المنبئة عن شدة الإصابة بما فيها من اجتماع إدراكَيْ اللامسة[٧] والذائقة، وتقديمُ [الجوعِ][٨] الناشئ مما ذكر من فقدان الرزقِ [على الخوف المترتب

(١) في خ: سبلها.
(٢) في خ: الاعتداء.
(٣) في خ: بدرع.
(٤) ينظر البيت في: ديوانه ص(٢٨٨)، ولسان العرب (غمر)، (ضحك)، (ردي)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٢٨، ١٤/ ١٦٩)، ومقاييس اللغة (٣/ ٣٠٢، ٤/ ٣٩٣)، وتاج العروس (غمر)، (ضحك)، (ردي)، وبلا نسبة في المخصص (٣/ ٣، ١٦/ ٣٢).
(٥) في خ: الكراهية.
(٦) في خ: الملزوم.
(٧) في خ: الملامسة.
(٨) سقط في خ.

على زوال الأمنِ المقدم فيما تقدم على إتيان الرزق][1] لكونه أنسبَ بالإذاقة أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزقِ، وقد قرئ بتقديم الخوفِ وبنصبه أيضًا عطفًا على المضاف، أو إقامةً له مُقامَ مضافٍ محذوف وأصله ولباسَ الخوف ﴿**بما كانوا يصنعون**﴾ فيما قبلُ أو على وجه الاستمرار وهو الكفرانُ المذكور أسند ذلك إلى أهل القريةِ تحقيقًا للأمر بعد إسنادِ الكفرانِ إليها وإيقاعِ الإذاقة عليها إرادةً للمبالغة، وفي صيغة الصنعة إيذانٌ بأن كفرانَ النعمة صار صنعةً راسخةً لهم وسنةً مسلوكة.

﴿**ولقد جاءهم**﴾ من تتمة المثَل، جيء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمةً منهم لقضية العقلِ فقط بل كان ذلك معارضةً لحجة الله على الخلق أيضًا، أي ولقد جاء أهلَ [تلك][2] القرية ﴿**رسول منهم**﴾ أي من أنفسهم يعرِفونه بأصله ونسبِه فأخبرهم بوجوب الشكرِ على النعمة وأنذرهم سوءَ عاقبة ما يأتون وما يذرون ﴿**فكذبوه**﴾ في رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر، فالفاءُ فصيحةٌ وعدم ذكره للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم ﴿**فأخذهم العذاب**﴾ المستأصِلُ لشأفتهم[3] غِبَّ ما ذاقوا نُبذةً من ذلك ﴿**وهم ظالمون**﴾ أي حالَ التباسهم بما هم عليه من الظلم الذي هو كفرانُ نعم الله تعالى وتكذيبُ رسوله غيرَ مُقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرةِ عنه، وفيه دَلالةٌ على تماديهم في الكفر والعِناد وتجاوزِهم في ذلك كلَّ حدٍّ معتاد. وترتيبُ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد إليه قولُه سبحانه: ﴿وما كنا معذّبين حتى نبعثَ رسولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وبه يتم التمثيلُ فإن حالَ أهل مكةَ، سواءٌ ضُرب المثلُ لهم خاصة أو لمن سار سيرتَهم كافةً، محاذيةٌ لحال أهلِ تلك القريةِ حذوَ القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو في خصلة فَذّة[4]، كيف لا وقد كانوا في حرم آمنٍ ويُتخطف الناسُ من حولهم وما يمر ببالهم طيفٌ من الخوف وكانت تُجبىٰ إليه ثمراتُ كل شيء، ولقد جاءهم رسولٌ منهم وأيُّ رسول، يحار في إدراك سموِّ رتبتِه العقولُ ﷺ [ما اختلف الدبور والقبول[5]، فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام][6] فأذاقهم الله لباسَ الجوعِ والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله: «**اللهمَّ أعِنّي عليهم بسبْعٍ كسبعِ يوسفَ**»[7] ما

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: شأنهم.
(٤) في خ: فذة.
(٥) القبول: ريح الصبا. والدبور: ريح تهب من المغرب. وهما متقابلتان.
(٦) سقط في خ.
(٧) أخرجه البخاري (٥٠٩/٩) كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ برقم (٤٨٠٩)، =

أصابهم من جدب شديدٍ وأزمة خصّت كلَّ شيء حتى اضطرتهم إلى أكل الجِيف والكلابِ الميتة والعظامِ المحرقة والعلهز وهو الوبرُ المعالَجُ بالدم وقد ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت من سرايا رسول الله ﷺ حيث كانوا يُغيرون على مواشيهم وعِيرهم[١] وقوافلهم، ثم أخذهم يومَ بدرٍ ما أخذهم من العذاب.

هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسنُ النظام، وأما ما أجمع عليه أكثرُ أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم﴾ لأهل مكةَ، قد ذُكر حالُهم صريحًا بعد ما ذكر مَثلُهم وأن المرادَ بالرسول محمدٌ رسولُ الله ﷺ وبالعذاب ما أصابهم من[٢] وقعة بدر، فبمعزل من التحقيق. كيف لا وقوله سبحانه: **﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾** مفرّعٌ على نتيجة التمثيل وصدٌّ لهم عما يؤدّي إلى مثل عاقبته، والمعنى [وإذ قد استبان لكم حالُ من كفر بأنعم الله وكذّب رسوله وما حل بهم][٣] بسبب ذلك من اللتيا والتي أولًا وآخِرًا فانتهُوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيبِ الرسول عليه السلام كي لا يحِلَّ بكم [مثلُ][٤] ما حل بهم واعرِفوا حقَّ نِعم الله تعالى وأطيعوا رسولَه عليه السلام في أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه **﴿حلالًا طيبًا﴾** وذروا ما تفترون من تحريم البحائرِ ونحوها **﴿واشكروا نعمة الله﴾** واعرِفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران، والفاءُ في المعنى داخلةٌ على الأمر بالشكر وإنما أُدخلت على الأمر بالأكل لكون الأكل ذريعةً إلى الشكر، فكأنه قيل: فاشكروا نعمةَ الله غِبَّ أكلها حلالًا طيبًا، وقد أُدمج فيه النهيُ عن زعم الحرمة، ولا ريب في أن هذا إنما يُتصوّر حين كان العذابُ المستأصِل متوقَّعًا بعدُ وقد تمهّدت[٥] مباديه، وبعد ما وقع فمن ذا الذي يُحذَّر ومن ذا الذي يُؤمر بالأكل والشكر[٦]؟ وحمْلُ قوله تعالى: **﴿فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾** على الإخبار بذلك قبل الوقوعِ يأباه التصدّي لاستصلاحهم بالأمر والنهي، وتوجيهُ خطاب الأمرِ بالأكل إلى المؤمنين، مع أن ما يتلوه من خطاب النهي متوجّهٌ إلى الكفار، كما فعله الواحديُّ حيث قال: فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم، مما لا يليق بشأن التنزيلِ الجليل **﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾** أي تطيعون أو إن صح زعمُكم أنكم تقصِدون بعبادة الآلهة عبادتَه تعالى.

= ومسلم (٤/ ٢١٥٥) كتاب صفات المنافقين وأحاكمهم، باب: الدخان، برقم (٣٩/ ٢٧٩٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١) في خ: غيرهم.
(٢) زاد في خ: الجذب.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: مهدت.
(٦) في خ: والشرب.

﴿**إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به**﴾ تعليلٌ لحِلّ ما أمرهم بأكله مما رزقهم، أي إنما حرم هذه الأشياءَ دون ما تزعُمون حرمتَه من البحائر والسوائبِ ونحوِها ﴿**فمن اضطر**﴾ بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئًا من ذلك ﴿**غير باغ**﴾ أي على مضطر آخرَ ﴿**ولا عاد**﴾ أي متجاوزٍ قدرَ الضرورة ﴿**فإن ربك غفور رحيم**﴾ أي لا يؤاخذه بذلك، فأُقيم سببُه مُقامه، وفي التعرض لوصف الربوبية إيماءٌ إلى علة الحكمِ وفي الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهارٌ لكمال اللطفِ به عليه السلام.

وتصديرُ الجملة بإنما لحصر المحرماتِ في الأجناس الأربعة إلا ما ضُمّ إليه كالسّباع والحمُر الأهلية، ثم أكّد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم**﴾ اللامُ صلةٌ مِثلُها في قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] أي لا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتُكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم: ﴿ما في بطون هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا﴾ [الأنعام: ١٣٩] من غير ترتب ذلك الوصفِ على ملاحظةٍ وفكر فضلًا عن استناده إلى وحي أو قياس مبنيٍّ عليه ﴿**الكذب**﴾ منتصب بلا تقولوا، وقولُه تعالى: ﴿**هذا حلال وهذا حرام**﴾ بدلٌ منه ويجوز أن يتعلق بتصفُ على إرادة القولِ، أي لا تقولوا لما تصف ألسنتُكم فتقولُ: هذا حلالٌ وهذا حرام، وأن يكون مَقولُ المقدرِ حالًا من ألسنتكم، أي قائلةً هذا حلال إلخ، ويجوز أن ينتصب الكذبَ بتصف ويتعلق هذا حلال إلخ بلا تقولوا، واللامُ للتعليل وما مصدريةٌ، أي لا تقولوا: هذا حلالٌ وهذا حرام لوصف ألسنتِكم الكذبَ أي لا تُحِلوا ولا تحرّموا لمجرد وصفِ ألسنتكم الكذبَ وتصويرِها له بصورة مستحسنة وتزيينِها له في المسامع كأن ألسنتَكم لكونها منشأً للكذب ومنبعًا للزور شخصٌ عالمٌ بكنهه ومحيطٌ بحقيقته يصفه للناس ويعرِّفه أوضحَ وصفٍ وأبينَ تعريف، على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال: وجهُه يصفُ الجمالَ وعينُه تصف السحرَ، وقرئ[1] بالجر صفةً (لما) مع مدخولها كأنه قيل: لوصفها الكذبِ بمعنى الكاذبِ كقوله تعالى: ﴿بدم كذِبٍ﴾ [يوسف، الآية ١٨] والمرادُ بالوصف وصفُها البهائمَ بالحل والحرمة، وقرئ[2] الكُذُبُ جمع كَذوب

(١) قرأ بها: الحسن، وابن يعمر، وطلحة، والأعرج، وابن أبي إسحاق، وابن عبيد، ونعيم بن ميسرة، وعمرو بن نعيم بن ميسرة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٥)، وتفسير الطبري (١٤/ ١٢٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢).

(٢) قرأ بها: معاذ، وابن أبي عبلة، ومسلمة بن محارب.

=

بالرفع صفةٌ للألسنة وبالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلِم الكواذب، أو هو جمعُ الكذاب من قولهم: كذب كذابًا ذكره ابن جني ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ فإن مدارَ الحِلّ والحُرمة ليس إلا أمرُ الله تعالى فالحكمُ بالحل والحرمةِ إسنادٌ للتحليل والتحريم إلى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه، واللامُ لام العاقبة.

﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ في أمر من الأمور ﴿لا يفلحون﴾ لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراءَ للفوز بها ﴿متاع قليل﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي منفعتُهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعةٌ قليلة ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ لا يكتنه كُنهُه.

﴿وعلى الذين هادوا﴾ خاصةً دون غيرِهم من الأولين والآخِرين ﴿حرمنا ما قصصنا عليك﴾ أي بقوله تعالى: ﴿حرمنا كلَّ ذي ظُفُرٍ ومن البقر والغنمِ حرمنا عليهم شحومَهما﴾ [يوسف، الآية ١٨] ﴿من قبل﴾ متعلقٌ بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيقٌ لما سلف من حصر المحرمات فيما فُصّل بإبطال ما يخالفه من فرية اليهودِ وتكذيبهم في ذلك فإنهم كانوا يقولون: لسنا أول من حُرّمت عليه وإنما كانت محرمةً على نوح وإبراهيمَ ومَنْ بعدهما حتى انتهى الأمرُ إلينا ﴿وما ظلمناهم﴾ بذلك التحريم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه حسبما نعىٰ عليهم قولُه تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم﴾ الآية [الأنعام، الآية ١٤٦]، ولقد ألقمهم الحجرَ قولُه تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حرم إسرائيلُ على نفسه من قبلِ أن تُنزَّلَ التوراةُ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران، الآية ٩٣] روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بُهتوا ولم يجسَروا أن يُخرِجوا التوراةَ كيف وقد بُيّن فيها أن تحريمَ ما حُرِّم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبةً وتشديدًا أوضحَ بيانٍ، وفيه تنبيهٌ على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم.

﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي بسبب جهالةٍ أو ملتبسين بها ليعُمَّ الجهلُ بالله وبعقابه، وعدمِ التدبر في العواقب لغلبة الشهوة، والسوءُ يعم الافتراءَ على الله تعالى وغيرَه ﴿ثم تابوا من بعد ذلك﴾ أي من بعد ما عملوا [ما عملوا](١)،

= ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٨٩)، والمعاني للفراء (٢/ ١٠٧).

(١) سقط في خ.

والتصريحُ به مع دَلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة ﴿وأصلحوا﴾ أي أصلحوا أعمالَهم أو دخلوا في الصلاح ﴿إن ربك من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿لغفور﴾ لذلك السوءِ ﴿رحيم﴾ يثيب على طاعته تركًا وفعلًا، وتكريرُ قوله تعالى: ﴿إن ربك﴾ لتأكيد الوعدِ وإظهارِ كمال العناية بإنجازه، والتعرضُ لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثرِ في التائبين للإيماء إلى أن إفاضةَ آثارِ الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه[١] عليه السلام وكونِهم من أتباعه كما أشير إليه فيما مر.

الإسلام وشريعة إبراهيم

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ على حياله[٢] لحيازته من الفضائل البشريةِ ما لا تكاد توجد إلا متفرّقةً في أمة جمّةً حسبما قيل: [السريع]

وليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالَمَ في واحدِ[٣]

وهو رئيسُ أهل التوحيد وقدوةُ أصحابِ التحقيق جادل أهلَ الشرك وألقمهم الحجرَ ببينات باهرةٍ لا تُبقي ولا تذر، وأبطل مذاهبَهم الزائفةَ بالبراهين القاطعة والحُججِ الدامغة، أو لأنه عليه السلام كان مؤمنًا وحده والناسُ كلُّهم كفارٌ. وقيل: هي فُعْلَة بمعنى مفعول كالرُّحلة والنُّخبة، من أمّه إذا قصده أو اقتدىٰ به فإن الناسَ كانوا يقصِدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى: ﴿إني جاعِلُك للناس إمامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وإيرادُ ذكره عليه السلام عَقيبَ تزييفِ مذاهبِ المشركين من الشرك والطعنِ في النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للإيذان بأن حقّيةَ دينِ الإسلام وبطلانَ الشرك وفروعِه أمرٌ ثابت لا ريب فيه ﴿قانتًا لله﴾ مطيعًا له قائمًا بأمره ﴿حنيفًا﴾ مائلًا عن كل دينٍ باطل إلى الدين الحقِّ غيرَ زائلٍ عنه بحال ﴿ولم يك من المشركين﴾ في أمر من أمور دينهم أصلًا وفرعًا صرح بذلك مع ظهوره لا ردًا على كفار قريشٍ فقط في قولهم: نحن على ملة أبينا إبراهيمَ بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم: ﴿عزيرٌ ابنُ الله﴾ [التوبة، الآية ٣٠] في افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ما هم عليه كقوله سبحانه: ﴿ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين﴾ [آل عمران، الآية ٦٧] إذ به ينتظم أمر إيراد التحريم والسبت[٤] سابقًا ولاحقًا.

---

(١) في خ: بتوسط. (٢) في خ: حاله.

(٣) البيت لأبي نواس في ديوانه (١/ ٣٤٩)، وبلا نسبة في شرح قطر الندى ص (١١٤).

(٤) معنى السبت في الأصل هو الانقطاع عن العمل والإخلاد إلى الراحة. ومنه سبت اليهود.

﴿شاكرًا لأنعمه﴾ صفةٌ ثالثة لأُمةً، وإنما أوثر صيغةُ جمعِ القلة للإيذان بأنه عليه السلام كان لا يُخِلُّ بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بيّن ذلك بضرب المثل **﴿اجتباه﴾** للنبوة **﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾** موصلٍ إليه سبحانه وهو ملةُ الإسلام، وليست نتيجةُ هذه الهدايةِ مجردَ اهتدائِه عليه السلام بل مع إرشاد الخلقِ أيضًا بمعونة قرينةِ الاجتباء **﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾** حالةً حسنةً من الذكر الجميل والثناءِ فيما بين الناس قاطبةً حتى إنه ليس من أهل دينٍ إلا وهم يتولَّوْنه، وقيل: هي الخُلّة والنبوةُ، وقيل: قولُ المصلِّي منا كما صليتَ على إبراهيمَ، والالتفاتُ إلى التكلم لإظهار كمالِ الاعتناء بشأنه وتفخيمِ مكانه عليه الصلاة والسلام **﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** أصحابِ الدرجات العالية في الجنة حسبما سأله بقوله: ﴿وألحِقْني بالصالحين واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخِرين واجعلني من ورثة جنةِ النعيم﴾ [الشعراء، الآية ٨٣ و٨٥].

﴿ثم أوحينا إليك﴾ مع علو طبقتك وسموِّ رتبتك **﴿أن اتبع ملة إبراهيم﴾** الملةُ اسمٌ لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياءِ عليهم السلام من أمللتُ الكتابَ إذا أمليتُه، وهو الدينُ بعينه لكنْ باعتبار الطاعة له، وتحقيقُه أن الوضع الإلٰهيَّ مهما نُسب إلى من يؤدّيه عن الله تعالى يسمّى ملةً، ومهما نُسب إلى من يُقيمه دينًا. قال الراغب: الفرقُ بينهما أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه السلام ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله سبحانه وتعالى ولا إلى آحاد الأمة ولا تستعمل إلا في جملة الشرائعِ دون آحادها، والمرادُ بملّته عليه السلام [الإسلامُ](1) الذي عُبّر عنه آنفًا بالصراط المستقيم **﴿حنيفًا﴾** حالٌ من المضاف إليه لما أن المضافَ لشدة اتصالِه به عليه السلام جرى منه مجرى البعضِ فقيّد(2) بذلك، من قبيل: رأيتُ وجهَ هندٍ قائمةً، والمأمورُ به الاتباع في الأصول دون الشرائعِ المتبدّلة بتبدل الأعصار، وما في (ثم) من التراخي في الرتبة للإيذان بأن هذه النعمةَ من أجلّ النعم الفائضةِ عليه عليه السلام **﴿وما كان من المشركين﴾** تكريرٌ لما سبق لزيادة تأكيدٍ وتقريرٍ لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى:

﴿إنما جعل السبت﴾ أي فُرض **تعظيمُه** والتخلي فيه للعبادة وتركُ الصيد فيه تحقيقٌ لذلك النفي الكليِّ وتوضيحٌ له بإبطال ما عسى يُتوهم كونُه قادحًا في كلّيته حسبما سلف في قوله تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا﴾ [الأنعام، الآية ١٤٦] . . . إلخ،

---

(١) سقط في خ. (٢) في خ: فعند.

فإن اليهود كانوا يدّعون أن السبتَ من شعائر الإسلام وأن إبراهيمَ عليه السلام كان محافظًا عليه، أي ليس السبتُ من شرائع إبراهيمَ وشعائرِ ملّته التي أُمرْتَ باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة وإنما شرُع ذلك لبني إسرائيل بعد مدةٍ طويلة، وإيرادُ الفعل مبنيًا للمفعول جَرْيٌ على سنن الكبرياء وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسنادِ إلى الغير، وقد قرئ[1] على البناء للفاعل، وإنما عبّر عن ذلك بالجعل موصولًا بكلمة[2] على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل: إنما جُعل السبت ﴿**على الذين اختلفوا فيه**﴾ للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاءِ المؤدّي إلى العذاب وبكونه معلَّلًا باختلافهم في شأنه قبل الوقوعِ إيثارًا له على ما أمر الله تعالى به واختيارًا للعكس لكن لا باعتبار شمولِ العلّية لطَرفي الاختلاف وعمومِ الغائلةِ للفريقين، بل باعتبار حالِ منشأ الاختلافِ من الطرف المخالفِ للحق، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمرَ اليهودَ أن يجعلوا في الأسبوع يومًا واحدًا للعبادة وأن يكون ذلك يومَ الجمعة فأَبَوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرَغ الله تعالى فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت إلا شرذمةً منهم قد رضُوا بالجمعة فأذِن الله تعالى لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمرَ الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يَصيدون، وأعقابُهم لم يصبِروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردةً دون أولئك المطيعين ﴿**وإن ربك ليحكم بينهم**﴾ أي بين الفريقين المختلفَين فيه ﴿**يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي يفصِل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازي كلّ فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب، وفيه إيماءٌ إلى أن ما وقع في الدنيا من مسخ أحدِ الفريقين وإنجاءِ الآخر بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يعتدّ به. هذا هو الذي يستدعيه الإعجازُ التنزيليُّ. وقيل: المعنى إنما جُعل **وبالُ** السبت وهو المسخُ على الذين اختلفوا فيه أي أحلوا الصيدَ فيه تارةً وحرّموه أخرى، وكان حتمًا عليهم أن يتّفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به، وفسّر الحكمُ بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالِهم بالإحلال تارةً والتحريمِ أخرى، ووجهُ إيرادِه هاهنا بأنه أريد به إنذارُ المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لأوامره، كضرب المثلِ بالقرية

---

(١) قرأ بها: الحسن، والمطوعي، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨١)، والبحر المحيط (٥/ ٥٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٥)، والمعاني للفراء (٢/ ١١٤).

(٢) في خ: الكلمة.

التي كفرت بأنعُم الله تعالى، ولا ريب في أن كلمة (بينهم) تحكم بأن المرادَ بالحكم هو فصلُ ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيطَ حديث المسخِ للإنذار [المذكورِ][١] بين حكاية أمرِ النبيِّ ﷺ باتباع ملة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام وبين أمرِه ﷺ بالدعوة إليها من قبيل الفصل بين الشجر ولِحائِه فتأمل.

أصول الدعوة الإسلامية

﴿ادع﴾ أي مَنْ بُعثتَ إليهم من الأمة قاطبةً فحذف المفعولُ للتعميم أو افعل الدعوةَ كما في قولهم: يعطي ويمنع أي يفعل الإعطاءَ والمنع، فحذفُه للقصد إلى إيجاد نفسِ الفعل إشعارًا بأن عموم الدعوةِ غنيٌّ عن البيان وإنما المقصودُ الأمرُ بإيجاد على وجه مخصوص ﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام الذي عبّر عنه تارةً بالصراط المستقيم وأخرى بملة إبراهيمَ عليه السلام، وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئةِ عن المالكية وتبليغِ الشيء إلى كماله اللائق شيئًا فشيئًا مع إضافة الربِّ إلى ضمير النبي عليه الصلاة والسلام في مقام الأمر بدعوة الأمة على الوجه الحكيم وتكميلِهم بأحكام الشريعةِ الشريفة من الدِلالة على إظهار اللطفِ به عليه الصلاة والسلام والإيماءِ إلى وجه بناءِ الحُكم ما لا يخفى. ﴿بالحكمة﴾ أي بالمقالة المحكمةِ الصحيحة وهو[٢] الدليلُ الموضحُ للحق المزيحُ للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ أي الخطابياتِ المقنعةِ والعِبر النافعةِ على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصِد ما ينفعهم، فالأولى لدعوة خواصِّ الأمةِ الطالبين للحقائق والثانيةُ لدعوة عوامِّهم، ويجوز أن يكون المرادُ بهما القرآنَ المجيد فإنه جامعٌ لكلا الوصفين ﴿وجادلهم﴾ أي ناظِرْ معانديهم ﴿بالتي هي أحسن﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرقِ المناظرةِ والمجادلة من الرفق واللينِ واختيار الوجهِ الأيسرِ واستعمالِ المقدّمات المشهورةِ تسكينًا لشغَبهم وإطفاءً لِلَهبهم كما فعله الخليلُ عليه السلام ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الذي أمرك بدعوة الخلقِ إليه وأعرضَ عن قَبول الحق بعد ما عاين من الحِكم والمواعظ والعبر ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ إليه بذلك، وهو تعليلٌ لما ذُكر من الأمرين، والمعنى والله تعالى أعلم: اسلُكْ في الدعوة والمناظرةِ الطريقةَ المذكورةَ فإنه تعالى هو أعلمُ بحال من لا يرعوي عن الضلال بموجب استعدادِه المكتسَب وبحال من يصير أمرُه إلى الاهتداء لما فيه من خير جليٍّ، فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمةُ فإنه كافٍ في هداية المهتدين وإزالةِ عذر الضالّين أو

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: وهي.

ما عليك إلا ما ذكر من الدعوة والمجادلةِ بالأحسن، وأما حصولُ الهداية أو الضلال والمجازاةُ عليهما فإلى الله سبحانه إذ هو أعلم بمن يَبقىٰ على الضلال وبمن يهتدي إليه فيجازي كلاًّ منهما بما يستحقه. وتقديمُ الضالين لما أن مساقَ الكلامِ لهم، وإيرادُ الضلال بصيغة الفعلِ الدالِّ على الحدوث لما أنه تغييرٌ لفطرة الله التي فطر الناسَ عليها وإعراضٌ عن الدعوة وذلك أمرٌ عارضٌ بخلاف الاهتداء الذي هو عبارةٌ عن الثبات على الفطرة والجرَيانِ على موجب الدعوةِ، ولذلك جيء به على صيغة الاسمِ المنبئ عن الثبات، وتكريرُ (هو أعلمُ) للتأكيد والإشعارِ بتبايُنِ حالِ المعلومَين ومآلهما من العقاب والثواب. وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوةِ بما أمره به من الوجه اللائق عقّبه بخطاب شاملٍ له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال:

﴿**وإن عاقبتم**﴾ أي إن أردتم المعاقبةَ على طريقة قول الطبيبِ للمَحْميِّ: إن أكلتَ فكلْ قليلًا ﴿**فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**﴾ أي بمثل ما فُعل بكم، وقد عبّر عنه بالعقاب على طريقة [إطلاقِ][1] اسمِ المسبَّبِ على السبب نحوُ كما تَدين تُدان أو على نهج المشاكلةِ[2]، والمقصودُ إيجابُ مراعاةِ العدل مع مَنْ يناصبُهم من غير تجاوزٍ حين ما آل الجِدالُ إلى القتال وأدّى النزاعُ إلى القِراع، فإن الدعوةَ المأمورَ بها لا تكاد تنفك عن ذلك، كيف لا وهي موجبةٌ لصرف الوجوهِ عن القبل المعبودةِ وإدخالِ الأعناق في قِلادة غيرِ معهودة قاضيةٍ عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلانِ دينٍ استمرَّ عليه آباؤهم الأولون وقد ضاقت عليهم الحيلُ وعيّت بهم العِللُ وسُدّت عليهم طرقُ المُحاجّة والمناظرة وأُرتجتْ دونهم أبوابُ المباحثةِ والمحاورة. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزةَ رضي الله عنه يوم أُحد قد مُثّل به قال: «**لئن أظفرني**

(١) سقط في خ.
(٢) يشير الشيخ أبو السعود إلى أنه يمكن اعتبار الآية من قبيل المجاز المرسل، ومن الممكن أن تكون من طريق المشاكلة والأولى جعلها من طريق المشاكلة.
ينظر في المجاز المرسل والمشاكلة: شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، (٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠) وما بعدها (٤/ ٢٢)، والمطول (٣٥٣) وما بعدها، والبرهان للزركشي (٢/ ٢٩٩)، والإشارات والتنبيهات، ص (٢٠٣) وما بعدها (٢٦٧)، والمطول (٤٢٣)، وشرح عقود الجمان للسيوطي (١١٠)، وحلية الكسب المضمون على الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهوري (١٣٤)، وأنوار الربيع (٢١٠)، وحسن الصنيع (١٧٣)، والمصباح لبدر الدين بن مالك (٢١) وما بعدها، والفوائد (١٠) وما بعدها، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، وأسرار البلاغة (٣١٩)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٦)، والصناعتين (١٥) وما بعدها، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع (١٧٨ - ١٧٩).

الله بهم لأمثّلنّ بسبعين مكانك» فنزلت[١]، فكفّر عن يمينه وكف عما أراده، وقرئ[٢] وإن عَقّبتم فعقّبوا أي وإن قَفّيْتم بالانتصار فقفّوا بمثل ما فُعل بكم غيرَ متجاوزين عنه، والأمرُ وإن دل على إباحة المماثلة في المُثْلة من غير تجاوزٍ لكن في تقييده بقوله: وإن عاقبتم حثٌّ على العفو تعريضًا، وقد صرّح به على الوجه الآكد فقيل: **﴿ولئن صبرتم﴾** أي عن المعاقبة بالمثل **﴿لهو﴾** أي لَصَبرُكم ذلك **﴿خير﴾** لكم من الانتصار بالمعاقبة، وإنما قيل: **﴿للصابرين﴾** مدحًا لهم وثناءً عليهم بالصبر أو وصفًا لهم بصفة تحصل لهم عند تركِ المعاقبةِ، ويجوز عَودُ الضميرِ إلى مطلق الصبرِ المدلولِ عليه بالفعل فيدخُل فيه صبرُهم كدخول أنفسِهم في جنس الصابرين دخولًا أوليًا، ثم أُمر عليه الصلاة والسلام صريحًا بما ندَب إليه غيرَه تعريضًا من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمورِ لزيادة علمِه بشؤونه سبحانه ووفورِ وثوقِه به فقيل:

﴿واصبر﴾ أي على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلامِ والأذية وعاينتَ من إعراضهم عن الحق بالكلية **﴿وما صبرك إلا بالله﴾** استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأشياء، أي وما صبرُك ملابسًا ومصحوبًا بشيء من الأشياء إلا بالله أي بذكره والاستغراقِ في مراقبة شؤونه والتبتّلِ إليه بمجامع الهِمّة، وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوينِ مشاقِّ الصبرِ عليه وتشريفِه ما لا مزيدَ عليه. أو إلا بمشيئته المبنيّةِ على حِكَم بالغة مستتبِعةٍ لعواقبَ حميدةٍ، فالتسليةُ من حيث اشتمالُه على غايات جميلة، وقيلَ: إلا بتوفيقه ومعونتِه فهي من حيث تسهيلُه وتيسيرُه فقط **﴿ولا تحزن عليهم﴾** أي على الكافرين بوقوع اليأسِ من إيمانهم بك ومتابعتِهم لك نحو **﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾** [المائدة، الآية ٦٨] وقيل: على المؤمنين وما فُعل بهم والأولُ هو الأنسب بجزالة النظمِ الكريم **﴿ولا تك في ضيق﴾** بالفتح، وقرئ[٣] بالكسر وهما

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٥٦) برقم (٢٩٣٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
سكت عنه الحاكم، وتعقبه الذهبي في التلخيص وقال: صالح واه.
قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٧٢): رواه البزار والطبراني وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف.ا.هـ.

(٢) قرأ بها: ابن سيرين.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٨)، والبحر المحيط (٥/ ٥٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨١)، والتيسير للداني (١٣٩)، والحجة لابن خالويه (٢١٣)، والحجة =

لغتان كالقَوْل والقيل، أي لا تكن في ضيق صدرٍ وحرَج، ويجوز أن يكون الأولُ تخفيفَ ضيِّق، كهيْن من هيِّن، أي في أمر ضيِّقٍ ﴿مما يمكرون﴾ أي من مكرهم بك فيما يُستقبل، فالأولُ نهيٌ عن التألم بمطلوبٍ مِنْ قبلهم فاتَ، والثاني عن التألم بمحذور من جهتهم آتٍ، والنهيُ عنهما مع أن انتفاءَهما من لوازم الصبرِ المأمورِ به لا سيما على الوجه الأولِ لزيادة التأكيدِ وإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأن التسليةِ، وإلا فهل يخطُر ببال من توجّه إلى الله سبحانه بشراشرِ نفسِه متنزهًا عن كل ما سواه من الشواغل شيءٌ من مطلوب فيُنهىٰ عن الحزن بفواته أو محذورٍ فكيف عن الخوف من وقوعه ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾ تعليلٌ بما سبق من الأمر والنهي، والمرادُ بالمعية الولايةُ الدائمةُ التي لا تحوم[1] حول صاحبها شائبةُ شيءٍ من الجزَع والحزنِ وضِيق الصدورِ، وما يُشعر به دخولُ كلمة مع من متبوعيّة المتقين إنما هي من حيث إنهم المباشرون للتقوى وكذا الحالُ في قوله سبحانه: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال، الآية ٤٦] ونظائرِهما كافة، والمرادُ بالتقوى المرتبةُ[2] الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك ومرتبةِ التجنّب عن كل ما يؤثِمُ من فعل وترك، أعني التنزّهَ عن كل ما يشغَلُ سِرَّه عن الحق والتبتّلِ إليه بشراشر نفسِه، وهو التقوى الحقيقية المُورِثة[3] لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس، الآية ٦٢] والمعنى أن الله وليُّ الذين تبتلوا إليه بالكلية وتنزّهوا عن كل ما يشغل سرَّهم عنه فلم يخطُرْ ببالهم شيءٌ من مطلوب أو محذور فضلًا عن الحزن بفواته أو الخوفِ من وقوعه وهو المعنيُّ بما به الصبرُ المأمورُ به حسبما أشير إليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما في قوله تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ [هود، الآية ٤٩] على أحد التفسيرين كما حُقق في مقامه وإلا فمجردُ التوقي عن المعاصي لا يكون مدارًا لشيء من العزائم المرخصِ في تركها فكيف بالصبر المشارِ إليه ورديفيه، وإنما مدارُه المعنى المذكورُ فكأنه قيل: إن الله مع الذين صبروا، وإنما أوثر ما عليه النظمُ الكريم مبالغةً في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوتِ الجليلة وروادفِه كما أن قوله تعالى: ﴿والذين هم محسنون﴾ للإشعار بأنه من باب الإحسانِ الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فُصل ذلك حيث قيل:

= لأبي زرعة (٣٩٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٦)، والغيث للصفاقسي (٢٧٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).

(١) في خ: يحوم.

(٢) في خ: الرتبة.

(٣) في خ: الوارث.

﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [هود: ١١٥] وقد نُبّه على أن كلاً من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان في قوله تعالى: ﴿إنه من يتّقِ ويصبِرْ فإن الله لا يضيع أجرَ المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠] وحقيقةُ الإحسان الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ الذي هو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتيِّ، وقد فسّره عليه الصلاة والسلام بقوله: «**أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك**»[١] وتكريرُ الموصولِ للإيذان بكفاية كلٍّ من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمةً للأخرى، وإيرادُ الأولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيرادَ الثانيةِ اسمية لإفادة كونِ مضمونِها شيمةً راسخةً لهم، وتقديمُ التقوى على الإحسان لما أن التخليةَ متقدمة على التحلية، والمرادُ بالموصولَين إما جنسُ المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخلٌ في زمرتهم دخولًا أوليًا، وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه، عبّر عنهم بذلك مدحًا لهم وثناءً عليهم بالنعتين الجميلين، وفيه رمزٌ إلى أن صنيعَه عليه الصلاة والسلام مستتبعٌ لاهتداء الأمةِ به كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما عند التعزية: [الكامل]

اصبِرْ نكنْ بك صابرين فإنما ... صبرُ الرعية عند صبرِ الراسِ[٢]

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضارِ: أوصِ، قال: إنما الوصيةُ من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة النحل لم يحاسبْه الله تعالى بما أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلتَه كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية**»[٣]. والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: روح المعاني (١٤/ ٢٦٠).

(٣) تقدم تخريجه.

سورة بني إسرائيل

مكّيّة إلا الآيات ٢٦ و٣٢ و٣٣ و٥٧ ومن آية ٧٣ إلى آية ٨٠ فمدنية وآياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ

هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾ سبحان علمٌ للتسبيح كعثمانَ للرجل وحيث كان المسمّى معنى لا عينًا، وجنسًا لا شخصًا لم تكن إضافتُه من قبيل ما في: زيدُ المعارك أو حاتمُ طيْءٍ، وانتصابه بفعل متروكِ الإظهار تقديرُه أسبح الله سبحان إلخ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغِ من حيث **الاشتقاقُ** من السبْح الذي هو الذهابُ والإبعادُ في الأرض، ومنه فرسٌ سَبوحٌ أي واسعُ الجري، ومن جهة **النقلِ** إلى التفعيل، ومن جهة **العدولِ** من المصدر إلى الاسم الموضوعِ له خاصة لا سيما وهو علمٌ يشير إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذهن ومن جهة قيامِه مَقام المصدر مع الفعل، وقيل: هو مصدرٌ كغفران بمعنى التنزه، ففيه مبالغةٌ من حيث إضافةُ التنزه إلى ذاته المقدسةِ ومناسبةٌ تامة بين المحذوف وبين ما عُطف عليه في قوله سبحانه وتعالى، كأنه قيل: تنزه بذاته وتعالى. والإسراءُ السيرُ بالليل خاصة كالسُّرى وقوله تعالى: ﴿**ليلًا**﴾ لإفادة قلةِ زمان **الإسراءِ** لِما فيه من التنكير الدالِّ على البعضية من حيث الأجزاءُ دَلالتَه على البعضية من حيث الأفراد، فإن قولك: سِرت ليلًا كما يفيد بعضيةَ زمان سيرِك من الليالي يفيد بعضيتَه من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت: سرتُ الليلَ فإنه يفيد استيعابَ السير له جميعًا، فيكون معيارًا للسير لا ظرفًا له ويؤيده قراءةُ[١] (من الليل) أي بعضِه، وإيثارُ لفظ العبدِ للإيذان بتمحّضه عليه الصلاة والسلام في عبادته سبحانه وبلوغِه في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ ونهايةَ النهاياتِ النائية[٢] حسبما يلوّح به مبدأُ الإسراء ومنتهاه، وإضافةُ التنزيه أو التنزّه إلى الموصول المذكورِ للإشعار بعلّية ما في حيز الصلةِ للمضاف فإن ذلك من أدلة كمالِ قدرتِه وبالغِ حكمتِه ونهايةِ تنزهه عن صفات المخلوقين.

﴿**من المسجد الحرام**﴾ اختُلف في مبدأ الإسراءِ فقيل: هو المسجدُ الحرام بعينه وهو الظاهرُ، فإنه رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظانِ إذْ أتاني جبريلُ عليه الصلاة والسلام**

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وحذيفة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٤٦)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٦).

(٢) في خ: النابية.

بالبُراق»[١] وقيل: هو[٢] دارُ أم هانئ بنتِ أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام الحرمُ لإحاطته بالمسجد والْتباسِه به، أو لأن الحرم كلَّه مسجد، فإنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاءِ فكان ما كان فقصّه عليها، فلما قام ليخرُج إلى المسجد تشبّثتْ بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القومُ، قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن كذبوني**»، فلما خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره ﷺ بحديث الإسراءِ فقال أبو جهل: يا معشر كعبِ بنِ لؤي بنِ غالب، هلُمّ فحدِّثْهم فمن مصفّق وواضعٍ يدَه على رأسه تعجبًا وإنكارًا وارتد ناسٌ ممن كان آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدّقه على ذلك؟ قال: إني أصدقه على أبعدَ من ذلك، فسُمِّيَ الصِّديقُ وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجدَ فجُلِّي له بيتُ المقدس فطفِق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعتُ فقد أصابه. فقالوا: أخبِرْنا عن عِيرنا، فأخبرهم بعدد جمالِها وأحوالها وقال: «**تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمُها جملٌ أورَقُ**»[٣]، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم: هذه والله الشمسُ قد أشرقت، فقال آخرُ: هذه والله العِيرُ قد أقبلت يقدمها جملٌ أورقُ كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون[٤].

واختُلف في وقته أيضًا، فقيل: كان قبل الهجرةِ بسنة، وعن أنس والحسنِ أنه كان قبل البعثة، واختلف أيضًا أنه في اليقظة أو في المنام فعن الحسن أنه كان في المنام، وأكثرُ الأقاويل بخلافه، والحق أنه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها، واختُلف أيضًا أنه كان جُسمانيًا أو روحانيًا، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما فُقِد جسدُ رسولِ الله ﷺ ولكن عُرج بروحه[٥]. وعن معاوية أنه قال: إنما عُرج بروحه[٦]، والحقُّ أنه كان جُسمانيًا على ما ينبئ عنه التصديرُ بالتنزيه وما في ضمنه من

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥٥) كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة عليهم السلام، برقم (٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٩) كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، برقم (٢٦٤/ ١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) سقط في خ.

(٣) الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.

(٤) أخرجه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٤٣٢) برقم (١٠٥٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٧٥)/ رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك كذاب ا.هـ.

(٥) أخرجه محمد بن إسحاق في السيرة (٥/ ٢٧٥) برقم (٤٦٢).

(٦) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٦٠٦).

التعجب، فإن الروحانيَّ ليس في الاستبعاد والاستنكار وخرقِ العادةِ بهذه المثابة، ولذلك تعجبت منه قريشٌ وأحالوه ولا استحالة فيه، فإنه قد ثبت في الهندسة أن قُطرَ الشمس ضِعفُ قطرِ الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفلَ يصل إلى موضع طرفِها الأعلى بحركة الفَلك الأعظم مع معاوقة حركةِ فلكِها لها في أقلَّ من ثانية، وقد تقرر أن الأجسام متساويةٌ في قَبول الأعراضِ التي من جملتها الحركةُ وأن الله سبحانه قادرٌ على كل ما يحيط به حيطة الإمكان فيقدر على أن يخلق تلك الحركةَ بل أسرعَ منها في جسد النبي ﷺ أو فيما يحمِله ولو لم يكن مستبعدًا لم يكن معجزة ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ أي بيتِ المقدس، سُمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجدٌ وفي ذلك من تربية معنى التنزيهِ والتعجّب ما لا يخفى ﴿الذي باركنا حوله﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبِطُ الوحي ومتعبَّدُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ﴿لنريه﴾ غايةٌ للإسراء ﴿من آياتنا﴾ العظيمةِ التي من جملتها ذهابُه في برهة من الليل مسيرةَ شهرٍ، ولا يقدح في ذلك كونُه قبل الوصول إلى المقصِد ومشاهدةِ بيت المقدس وتمثّل الأنبياءِ له ووقوفِه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام، والالتفاتُ إلى التكلم لتعظيم تلك البركاتِ والآياتِ، وقرئ[١] ليريَه بالياء ﴿إنه هو السميع﴾ لأقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن ﴿البصير﴾ بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذِنُ به القصرُ فيكرمُه ويقرّبه بحسب ذلك[٢]، وفيه إيماءٌ إلى أن الإسراءَ المذكورَ ليس إلا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفعِ منزلتِه وإلا فالإحاطةُ بأقواله وأفعاله حاصلةٌ من غير حاجة إلى التقريب، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتربية المهابة.

﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة وفيه إيماءٌ إلى دعوته عليه الصلاة والسلام إلى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعًا بين الأمرين المتّحدين في المعنى، ولم يُذكر هاهنا العروجُ بالنبي عليه السلام إلى السماء وما كان فيه مما لا يُكتنه كنهُه حسبما نطقتْ به سورةُ النجم تقريبًا للإسراء إلى قَبول السامعين، أي آتيناه التوراةَ بعد ما أسرَينا به إلى الطور ﴿وجعلناه﴾ أي ذلك الكتابَ ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يهتدون بما في مطاويه ﴿ألاَّ تتخذوا﴾ [أي: لا تتخذوا نحو كتبت إليه أن افعل كذا، وقرئ[٣]

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٧).

(٢) في خ: تلك.

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعيسى، وأبو رجاء اليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨١)، التيسير للداني (١٣٩)، والحجة لابن خالويه (٢١٤)، والحجة =

بالياء على أنّ أنْ مصدريةٌ، والمعنى آتينا موسى الكتابَ لهداية بني إسرائيلَ][1] لئلا يتخذوا ﴿من دوني وكيلًا﴾ أي ربًّا تكِلون إليه أمورَكم، والإفرادُ لما أن فعيلًا مفردٌ في اللفظ جمعٌ في المعنى ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ نُصب على الاختصاص أو النداءِ على قراءة النهي، والمرادُ تأكيدُ الحملِ على التوحيد بتذكير إنعامِه تعالى عليهم في ضمن إنجاءِ آبائِهم من الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام، أو على أنه أحدُ مفعولَيْ لا تتخذوا على قراءة النفي ومن دوني حالٌ من وكيلًا فيكون كقوله تعالى: ﴿ولا يأمرَكم أن تتخذوا الملائكةَ والنبيين أربابًا﴾ [آل عمران، الآية ٨٠].

وقرئ[2] بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أو بدلٌ من واو لا تتخذوا بإبدال الظاهرِ من ضمير المخاطَب كما هو مذهبُ بعض البغادِدَة، وقرئ[3] ذِرّية بكسر الذال ﴿إنه﴾ أي إن نوحًا عليه الصلاة والسلام ﴿كان عبدًا شكورًا﴾ كثيرَ الشكر في مجامع حالاتِه، وفيه إيذانٌ بأن إنجاءَ مَنْ معه كان ببركة شكرِه عليه الصلاة والسلام وحثٌّ للذرية على الاقتداء به وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكُفرانِ[4].

وقيل: الضمير لموسى عليه السلام.

حضارة اليهود في التاريخ

﴿وقضينا﴾ أي أتممنا وأحكمنا مُنْزلين ﴿إلى بني إسرائيل﴾ أو موحين[5] إليهم ﴿في الكتاب﴾ أي في التوراة فإن الإنزالَ والوحيَ إلى موسى عليه السلام إنزالٌ ووحيٌ إليهم ﴿لتفسدن في الأرض﴾ جوابُ قسم محذوفٍ، ويجوز إجراءُ القضاء المحتومِ مُجرى القسمِ كأنه قيل: وأقسمنا لتفسدنَّ ﴿مرتين﴾ مصدرٌ والعاملُ فيه من غير جنسه. أولاهما مخالفةُ حكم التوراة وقتلُ شعياءَ[6] عليه الصلاة والسلام وحبسُ أرمياءَ حين أنذرهم سخطَ الله تعالى، والثانية قتلُ زكريا ويحيى وقصدُ قتلِ عيسى

= لأبي زرعة (٣٩٦)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(١) سقط في خ.

(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٨)، والبحر المحيط (٦/ ٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٨).

(٣) قرأ بها: زيد بن ثابت، وأبان بن عثمان، وزيد بن علي، ومجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٧)، وتفسير القرطبي (١/ ٢١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٥٦).

(٤) في خ: الكفر.

(٥) في خ: بوحينا.

(٦) في خ: شعيًا.

عليهم الصلاة والسلام ﴿ولتعلنّ علوًّا كبيرًا﴾ لتستكبِرُنّ عن طاعة الله سبحانه، أو لتغلِبُنّ الناسَ بالظلم والعدوان وتفرّطُنّ في ذلك إفراطًا مجاوزًا للحدود ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ أي أولىٰ كرّتَي الإفساد، أي حان وقتُ حلولِ العقاب الموعود ﴿**بعثنا عليكم**﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿**عبادًا لنا**﴾ وقرئ[1] عبيدًا لنا ﴿**أولي بأس شديد**﴾ ذوي قوةٍ وبطش في الحروب، هم سنحاريبُ من أهل نينوىٰ وجنودُه، وقيل: بُخْتَ نَصَّرُ عامل لهراسبَ، وقيل: جالوت ﴿**فجاسوا**﴾ أي تردّدوا لطلبكم بالفساد، وقرئ[2] بالحاء والمعنى واحد، وقرئ[3] فجوّسوا ﴿**خلال الديار**﴾ في أوساطها للقتل والغارة، وقرئ[4] خَلَلَ الديار فقتلوا علماءَهم وكبارَهم وأحرقوا التوراةَ وخربوا[5] المسجد وسبَوْا منهم سبعين ألفًا، وذلك من قبيل تولية بعضِ الظالمين بعضًا مما جرت به السنةُ الإلٰهية ﴿**وكان**﴾ ذلك ﴿**وعدًا مفعولًا**﴾ لا محالة بحيث لا صارفَ عنه ولا مبدِّلَ.

﴿**ثم رددنا لكم الكرة**﴾ أي الدولةَ والغلَبة ﴿**عليهم**﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنةٍ حين تُبتم[6] ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو، قيل: هي قتلُ بُخْت نصّر واستنقاذُ بني إسرائيلَ أُساراهم[7] وأموالَهم ورجوعُ المُلْك إليهم، وذلك أنه لما ورِث بهمنُ[8] بنُ إسفنديارَ المُلكَ من جدّه كشتاسفَ بنِ لهراسب ألقى الله تعالى في قلبه الشفقةَ عليهم فردّ أُساراهم إلى الشام وملّك عليهم دانيال عليه السلام فاستولَوا على من كان فيها من أتباع بُخْت نصّر، وقيل: هي قتلُ داودَ عليه السلام لجالوت[9].

---

(١) قرأ بها: الحسن، وزيد بن علي، وعلي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٨)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٣٩٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤).

(٢) قرأ بها: أبو السمال، وطلحة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٨)، والبحر المحيط (٦/ ١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٨).

(٤) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٢٨١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٣١)، والبحر المحيط (٦/ ١٠).

(٥) في خ: أخربوا.

(٦) في خ: قبلتم.

(٧) في خ: أسراهم.

(٨) في خ: مهمان.

(٩) في خ: جالوت.

﴿وأمددناكم بأموال﴾ كثيرةٍ بعدما نُهبت أموالُكم ﴿وبنين﴾ بعدما سُبيَتْ أولادُكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيرًا﴾ مما كنتم من قبل أو من عدوكم، والنفيرُ مَن ينفِر مع الرجل من قومه، وقيل: جمعُ نفرٍ وهو القومُ المجتمعون للذهاب إلى العدو كالعبيد والمبين[١] ﴿إن أحسنتم﴾ أعمالكم سواءٌ كانت لازمةً لأنفسكم أو متعديةً إلى الغير، أي عمِلتموها على الوجه اللائقِ ولا يُتصور ذلك إلا بعد أن تكون الأعمالُ حسنةً في أنفسها أو إن فعلتم الإحسان ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن ثوابَها لها ﴿وإن أسأتم﴾ أعمالَكم بأن عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوءُ الذاتيُّ أو فعلتم الإساءة ﴿فلها﴾ إذ عليها وبالها، وعن علي كرم الله وجهه: ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها[٢] ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ حان وقت ما وُعد من عقوبة المرة الآخرة ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ متعلقٌ بفعل حُذف لدلالة ما سبق عليه، أي بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهَكم ليجعلوا آثارَ المساءة والكآبةِ باديةً في وجوهكم كقوله تعالى: ﴿سيئت وجوهُ الذين كفروا﴾ [الملك: ٢٧] وقرئ[٣] ليَسوءَ على أن الضمير لله تعالى أو[٤] للوعد أو للبعث، ولنسوءَ[٥] بنون العظمةِ، [و][٦] في قراءة علي رضي الله عنه: لَنَسُوأَنَّ[٧][٨] على أنه جوابُ إذا، وقرئ[٩] لَنَسوءنْ[١٠] بالنون الخفيفة ولَيَسوءَن[١١][١٢] واللام في قوله عز وجل: ﴿وليدخلوا المسجد﴾ عطف على ليسوؤوا

---

(١) في خ: والمعين.

(٢) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٦٠٨).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف، وشعبة، والأعمش، وابن وثاب، وأنس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والتيسير للداني (١٣٩)، والحجة لابن خالويه (٢١٤)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٧)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(٤) في خ: و.

(٥) قرأ بها: الكسائي، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن علي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والتيسير للداني (١٣٩)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٨)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(٦) سقط في خ.

(٧) في ط: لنسون.

(٨) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٩).

(٩) قرأ بها: أُبي بن كعب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٣٢).

(١٠) في خ: نسون.

(١١) في خ: ليسون.

(١٢) قرأ بها: علي بن أبي طالب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٩).

متعلقٌ بما تعلق هو به ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أي في أول مرةٍ ﴿وليتبروا﴾ أي يهلكوا ﴿ما علوا﴾ ما غلبوه واستولَوْا عليه أو مدةَ علوِّهم ﴿تتبيرًا﴾ فظيعًا لا يوصف بأن سلط الله عز[١] سلطانه عليهم الفرسَ فغزاهم ملكُ بابِلَ من ملوك الطوائف اسمُه جودرد، وقيل: جردوس، وقيل: دخل صاحبُ الجيش فذبح قرابينَهم فوجد فيه دمًا يغلي فسألهم عنه، فقالوا: دمُ قربانٍ لم يقبل منا، فقال: لم تصْدُقوني، فقتل على ذلك ألوفًا فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصْدُقوني ما تركت منكم أحد، فقالوا: إنه دمُ يحيى بنِ زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال: لمثل هذا ينتقم منكم ربُّكم، ثم قال: يا يحيى قد علم ربي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أُبقيَ منهم أحدًا، فهدأ.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الآخرة[٢] إن تبتم توبةً أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي ﴿وإن عدتم﴾ إلى ما كنتم فيه من الفساد مرةً أخرى ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الأكاسرةَ ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحوِ ذلك. وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام فهم يُعطون الجزيةَ عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثلُه ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا﴾ أي محبِسًا[٣] لا يستطيعون الخروجَ منها أبد الآبدين، وقيل: بِساطًا كما يبسط الحصيرُ[٤]، وإنما عُدل عن أن يقال: وجعلنا جهنَّمَ لكم تسجيلًا على كفرهم بالعَود وذمًا لهم بذلك وإشعارًا بعلة الحكم.

القرآن هدى للعالم

﴿إن هذا القرآن﴾ الذي آتيناكَهُ ﴿يهدي﴾ أي الناسَ كافةً لا فِرقةً مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿للتي﴾ للطريقة التي ﴿هي أقوم﴾ أي أقومُ الطرائقِ

---

(١) في خ: من.
(٢) في خ: الأخيرة.
(٣) في خ: مجلسًا.
(٤) وهو من جملة أقوال ذكرها المفسرون، ولا يستقيم اعتبار الحصير كالبساط المرمول إلا إذا حمل التشبيه على معنى التهكم والسخرية، وليس في السياق ما يؤيد حمله على معنى التهكم، وكونه بمعنى المحبس أيضًا تشبيه، ويكون وجه الشبه هو الإحكام وعدم الفرار من التعذيب والغرض بيان حال الكافرين في جهنم في إحاطة العذاب بهم.
ينظر: الكشاف (٢/ ٤٣٩)، والبيضاوي (١/ ٥٧٩)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٦١٧)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٦)، ولسان العرب وأساس البلاغة، والمعجم الوسيط مادة حصر والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٩)، وحاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٦/ ١٣).

وأسدُّها[(١)] أعني ملةَ الإسلامِ والتوحيدِ، وتركُ ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخَصلة ونحوِها مما يعبّر به عن المقصد المذكور بل للإيذان بالغِنى عن التصريح بها لغاية ظهورِها لا سيما بعد ذكر الهدايةِ التي [هي][(٢)] من روادفها، والمرادُ بهدايته لها كونُه بحيث يهتدي إليها من يتمسك به لا تحصيلُ الاهتداء بالفعل فإنه مخصوصٌ بالمؤمنين حينئذ ﴿ويبشر المؤمنين﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع، وقرئ[(٣)] بالتخفيف ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التي شرحت فيه ﴿أن لهم﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمالِ﴿أجرًا كبيرًا﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشرَ مرات فصاعدًا.

﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأحكامِها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاءِ، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها مُعظمَ ما أُمروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسبِ بين أعمالهم وجزائِها الذي أنبأ عنه قولُه عز وجل: ﴿أعتدنا لهم عذابًا أليمًا﴾ وهو عذابُ جهنمَ أي أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجودَه من الآخرة عذابًا أليمًا وهو أبلغُ في الزجر لما أن إتيانَ العذابِ من حيث لا يُحتسب أفظعُ وأفجعُ، والجملةُ معطوفة على جملة يبشّر بإضمار يُخبر، أو على قوله تعالى: ﴿أن لهم﴾ داخلةٌ معه تحت التبشير المرادِ به، مجازًا[(٤)]، مطلقُ الإخبار المنتظمِ للإخبار بالخبر السارِّ وبالنبأ الضارّ فيكون ذلك بيانًا لهداية القرآنِ بالترغيب والترهيب، ويجوز كونُ التبشير بمعناه والمرادُ تبشيرُ المؤمنين ببشارتين: تولّيهم وعقابِ أعدائهم. وقوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر﴾ بيانٌ لحال المهتدي إثرَ [بيان][(٥)] حالِ الهادي، وإظهارٌ لما بينهما من التباين، والمرادُ بالإنسان الجنسُ أسند إليه حالُ بعضِ أفراده أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه فالمعنى على الأول أن القرآنَ يدعو الإنسانَ إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه من الأجر الكبيرِ ويحذّر من الشر الذي لا شرَّ وراءه من العذاب الأليم، وهو أي بعضٌ منه وهو الكافرُ يدعو لنفسه بما هو الشرُّ من العذاب المذكور إما بلسانه حقيقةً كدأب مَنْ قال منهم: ﴿اللهمّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾

---

(١) في خ: أشدها. (٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وطلحة، وعبد الله بن مسعود، وابن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والتيسير للداني (٨٧)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).
(٤) في خ: مجازان. (٥) سقط في خ.

[الأنفال، الآية ٣٢] ومن قال: ﴿فائتنا بما تعِدنا إن كنت من الصادقين﴾ [الأعراف، الآية ٧٠] إلى غير ذلك مما حُكي عنهم وإما بأعمالهم السيئة المُفضية إليه الموجبةِ له مجازًا كما هو ديدنُ كلِّهم ﴿**دعاءه بالخير**﴾ أي مثلَ دعائِه بالخير المذكور فرضًا لا تحقيقًا فإنه بمعزل من الدعاء به وفيه رمزٌ إلى أنه اللائقُ بحاله ﴿**وكان الإنسان**﴾ أي مَن أُسند إليه الدعاءُ المذكورُ من أفراده ﴿**عجولًا**﴾ يسارع إلى طلب ما يخطر بباله متعاميًا عن ضرره[1] أو مبالغًا في العجلة يستعجل العذابَ وهو آتيه لا محالة، ففيه نوعُ تهكمٍ به، وعلى تقدير حمل الدعاءِ على أعمالهم تُحمل العَجوليةُ على اللَّجّ[2] والتماديً في استيجاب العذابِ بتلك الأعمال، وعلى الثاني أن القرآنَ يدعو الإنسانَ إلى ما هو خيرٌ وهو في بعضِ أحيانه كما عند الغضبِ يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شرٌّ، وكان الإنسان بحسب جِبِلّته عجولًا ضجِرًا لا يتأسّى[3] إلى أن يزول عنه ما يعتريه. روي أنه عليه الصلاة والسلام دفع إلى سَوْدةَ[4] أسيرًا فأرخت كتافه رحمةً لأنينه بالليل من ألم القيد فهرب فلما أُخبر به النبيُّ عليه الصلاة والسلام قال: «**اللهم اقطع يديها**» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، فقال عليه الصلاة السلام: «**إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي عذابًا رحمةً**»[5] أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرًا، وكان الإنسان عجولًا غيرَ متبصّر لا يتدبر في أموره حقَّ [التدبر ليتحقق][6] ما هو خيرٌ حقيقٌ بالدعاء به وما هو شرٌّ جديرٌ بالاستعاذة منه.

﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين**﴾ شروعٌ في بيان بعضِ وجوه ما ذُكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلالِ بالآيات والدلائلِ الآفاقية التي كلُّ واحدة منها برهانٌ

---

(١) في خ: حذره.
(٢) في خ: اللهج.
(٣) في خ: يتأتى.
(٤) هي سودة بنت زمعة، إحدى أزواج النبي. تزوجها عليه السلام بعد خديجة، وتوفيت في المدينة سنة ٥٤ هـ.
(٥) ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٢٦٠) وقال: غريب من حديث سودة، وأخرجه بإسناده عن عائشة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير فلهت مع نسوة كن عندها، حتى خرج الأسير، فقال لها رسول الله ﷺ: ما لك؟ ودعا عليها ثم خرج، وأمر الناس بطلبه فلم ينشبوا أن جاءوا به، فدخل رسول الله ﷺ وعائشة تقلب يديها فقال: ما لك؟ قالت: قد دعوت عليَّ، فأنا أنتظر متى يكون، فقام عليه السلام فرفع يديه مدا، ثم قال: اللهم إنما أنا بشر آسف وأغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوتك عليه بدعوة فاجعلها عليه زكاة وطهرًا.
(٦) في خ: التدبير ليستحق.

نيِّرٌ لا ريب فيه ومنهاجٌ بيِّنٌ لا يضِلّ من ينتحيه، فإن الجعلَ المذكورَ وما عُطف عليه من محو آيةِ الليل وجعلِ آيةِ النهار مبصرةً، وإن كانت من الهدايات التكوينية، لكن الإخبارَ بذلك من الهدايات القرآنية المنبّهة على تلك الهداياتِ، وتقديمُ الليل لمراعاة الترتيبِ الوجوديِّ إذ منه ينسلخ النهارُ، وفيه تظهرُ غُررُ الشهور، ولو أن الليلةَ أضيفت إلى ما قبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبُها من شهر آخرَ، ولترتيب غايةِ [آيةِ][1] النهار عليها بلا واسطة أي جعلنا الملَوَيْن[2] بهَيْآتهما وتعاقبُهما واختلافِهما في الطول والقِصَر، على وتيرةٍ عجيبة يحار في فهمهما العقولُ، آيتين[3] تدلان على أن لهما صانعًا حكيمًا قادرًا عليمًا وتهديان إلى ما هدى إليه القرآنُ الكريم من ملة الإسلام والتوحيد ﴿**فمحونا آية الليل**﴾ الإضافةُ إما بيانيةٌ كما في إضافة العددِ إلى المعدود أي محونا الآية التي هي الليلُ وفائدتُها تحقيقُ مضمونِ الجملة السابقةِ، ومحوُها جعلُها ممحُوّةَ الضوءِ مطموستَه، لكن لا بعد[4] أن لم تكن كذلك بل إبداعُها على ذلك كما في قولهم: سبحان من صغّر البعوضَ وكبّر الفيل أي أنشأهما كذلك، والفاءُ تفسيريةٌ لأن المحو المذكورَ وما عُطف عليه ليسا مما يحصل عَقيبَ جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعلِ ومُتمّماته ﴿**وجعلنا آية النهار**﴾ أي الآية التي هي النهارُ على نحو ما مر ﴿**مبصرة**﴾ أي مضيئةً يبصَر فيها الأشياءُ وصفًا لها بحال أهلها أو مبصرةً للناس من أبصره فبصره، وإما حقيقة وآية الليلُ والنهار نيِّراهما، ومحوُ القمر إما خلقُه مطموسَ النور في نفسه فالفاء كما ذكروا، وإما نفسُ[5] ما استفاده من الشمس شيئًا فشيئًا إلى المحاق على ما هو معنى المحو، والفاءُ للتعقيب وجعلُ الشمس مبصرةً إبداعُها مضيئةً بالذات ذاتَ أشعة تظهر بها الأشياءُ المظلمة.

﴿**لتبتغوا**﴾ متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿وجعلنا آية النهار﴾ كما أشير إليه أي وجعلناها مضيئة لتطلُبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿**فضلًا من ربكم**﴾ أي رزقًا إذ لا يتسنى ذلك في الليل، وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرضُ لصفة الربوبية المنبئةِ عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا دَلالةٌ على أن ليس[6] في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطلبِ وإنما الإعطاءُ إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلًا بحكم الربوبية ﴿**ولتعلموا**﴾ متعلقٌ بكِلا الفعلين أعني محوَ آية الليل وجعْلَ آيةِ النهار مبصرةً لا بأحدهما فقط إذ لا يكون ذلك بانفراده مدارًا للعلم المذكور، أي

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: التلوين.
(٣) في خ: آيتان.
(٤) في خ: تعدو.
(٥) في خ: نقص.
(٦) زاد في خ: للعبد.

لتعلموا بتفاوت الجديدَين أو نيِّريْهما ذاتًا من حيث الإظلامُ والإضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعِهما وسائرِ أحوالِهما ﴿عدد السنين﴾ التي يتعلق بها غرضٌ علمي لإقامة مصالحِكم الدينية والدنيوية ﴿والحساب﴾ أي الحسابَ المتعلقَ بما في ضمنها من الأوقات أي الأشهرَ والليالِيَ والأيامَ وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققُها مما ينتظمه الحسابُ، وإنما الذي تعلق به العدُّ[1] طائفةٌ منها وتعلقُه في ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثيةَ تحققِها وتحصُّلها من عدة أشهر قد تحصّل كل واحد منها بطائفة من الساعات مثلًا فإن ذلك وظيفةُ الحساب بل من حيث إنها فردٌ من تلك الطائفة المعدودة بعدها أي يُفنيها من غير أن يعتبر في ذلك تحصيلُ شيءٍ معين وتحقيقُه ما مر في سورة يونسَ من أن الحسابَ إحصاءُ ما له كميةٌ منفصلة بتكرير أمثالِه من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حدٌّ معين منه له اسمٌ خاصٌّ وحكمٌ مستقل كما أشير إليه آنفًا، والعدُّ إحصاؤُه بمجرد تكرير أمثالِه من غير أن يتصل منه شيء كذلك، ولما أن السنين لم يعتبر فيها حدٌّ معين له اسمٌ خاصٌّ وحكم مستقلٌّ أُضيف إليها العددُ وعُلّق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصُّل مراتبَ معينةٍ لها أسام خاصة وأحكامٌ مستقلة، وتحصّلُ مراتبِ الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباريٌّ لا يجدي في تحصل المعدودات، وتقديمُ العدد على الحساب مع أن الترتيبَ بين متعلّقَيْهما وجودًا وعدمًا على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحساب ما في تضاعيف السنين من الأوقات أو لأن العلمَ المتعلِّق بعدد السنينَ علمٌ إجماليٌّ بما[2] تعلق به الحساب تفصيلًا، أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصلُ شيءٍ آخرَ منه، حسبما ذكر، نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلةَ البسيط من المركب، أو لأن العلم [المتعلقَ بالأول أقصى][3] المراتب فكان جديرًا بالتقديم في مقام الامتنان والله سبحانه أعلم ﴿وكل شيء﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعادِ سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية، وهو منصوبٌ بفعل يفسره قوله تعالى: ﴿فصلناه تفصيلًا﴾ أي بيناه في القرآن الكريم بيانًا بليغًا لا التباسَ معه كقوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتابَ تبيانًا لكل شيءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فظهر كونُه هاديًا للتي هي أقوم ظهورًا بينًا.

إحصاء عمل الإنسان

﴿وكل إنسان﴾ مكلف ﴿ألزمناه طائره﴾ أي عملَه الصادرَ عنه باختياره حسبما قُدِّر

---

(١) في خ: العدد. (٢) في خ: ما. (٣) في خ: بالأول أفصح.

له كأنه طار إليه من عُشّ الغيب ووَكْر القدر، أو ما وقع له في القسمة الأزلية الواقعةِ حسب استحقاقِه في العلم الأزليِّ من قولهم: طار له سهمٌ كذا ﴿في عنقه﴾ تصويرٌ لشدة اللزوم وكمالِ الارتباط أي ألزمناه عملَه بحيث لا يفارقه أبدًا بل يلزمه لزومَ القِلادة أو الغُلّ للعنق لا ينفك عنه بحال، وقرئ[١] بسكون النون ﴿ونخرج له﴾ بنون العظمة وقد قرئ[٢] بالياء مبنيًا للفاعل[٣] على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول، والضمير للطائر كما في قراءة[٤] يخرُج من الخروج ﴿يوم القيامة﴾ للحساب ﴿كتابًا﴾ مسطورًا فيه ما ذكر من عمله نقيرًا وقِطميرًا وهو مفعول لنُخرجُ على القراءتين الأُوليين أو حالٌ من المفعول المحذوفِ الراجع إلى الطائر وعلى الأخرَيَين حالٌ من المستتر في الفعل من ضمير الطائر ﴿يلقاه﴾ الإنسان ﴿منشورًا﴾ وهما صفتان للكتاب أو الأول صفةٌ والثاني حالٌ منها، وقرئ[٥] يلقاه من لقِيته كذا أي يلقىٰ الإنسانُ إياه. قال الحسن: بُسِطت لك صحيفةٌ ووكّل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ سيئاتِك حتى إذا مُت طُويت صحيفتُك وجُعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة[٦] ﴿اقرأ كتابك﴾ أي قائلين لك ذلك. عن قتادة يقرأ ذلك اليومَ من لم يكن في الدنيا قارئًا[٧]، وقيل: المرادُ بالكتاب نفسُه المنتقشةُ بآثار أعماله فإن كل عمل يصدُر من الإنسان خيرًا أو شرًّا يحدُث منه في جوهر روحِه أمرٌ مخصوصٌ إلا أنه يخفى ما دام الروحُ متعلقًا بالبدن مشتغلًا[٨] بواردات الحواسِّ والقُوى، فإذا

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤١).

(٢) قرأ بها: يحيى بن وثاب، ومجاهد، وأبو جعفر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٥)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٢٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤١)، والمعاني للفراء (٢/ ١١٨).

(٣) في خ: بالفاعل.

(٤) قرأ بها: يعقوب، وابن محيصن، والحسن، ومجاهد، وابن عباس، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٥٥)، وتفسير الطبري (١٥/ ٤٠)، والمعاني للفراء (٢/ ١١٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(٥) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، والحسن، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والتيسير للداني (١٣٩)، والحجة لابن خالويه (٢١٤)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٨)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٧)، والطبري (٢٢/ ٣٤٥).

(٧) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٦١٠).

(٨) في خ: مستقلاً.

انقطعت علاقتُه عن البدن قامت قيامته لأن النفس كانت ساكنةً مستقرة في الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلويِّ فيزول الغطاءُ وتنكشف الأحوالُ ويظهر على لَوح النفس نقشُ كلِّ شيء عمله في مدة عمرِه وهذا معنى الكتابة والقراءة ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا﴾ [أي كفى نفسُك، والباء زائدة واليومَ ظرفٌ لـ (كفى) وحسيبًا][1] تمييزٌ و(على) صلتُه لأنه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسَب عليه كذا. أو بمعنى الكافي، ووُضِع موضعَ الشهيد لأنه يكفي المدعي ما أهمه. وتذكيرُه[2] لأن ما ذكر من الحساب والكفاية مما[3] يتولاه الرجال أو لأنه مبنيٌّ على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جَبَلَةَ[4] بن حريث: [البسيط]

يا نفسُ إنكِ باللذات مسرورُ فاذكرْ فهل ينفعَنْك اليوم تذكيرُ[5]

﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ فذلكةٌ لما تقدم من بيان كونِ القرآن هاديًا لأقوم الطرائقِ ولزومِ الأعمال لأصحابها، أي من اهتدى بهدايته وعمِل بما في تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعةُ اهتدائِه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتدِ ﴿ومن ضل﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فإنما يضل عليها﴾ أي فإنما وبالُ ضلاله عليها لا على من عداه ممّن يباشره حتى يمكن مفارقةُ العمل صاحبَه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ تأكيد للجملة الثانية، أي لا تحمل نفسٌ حاملةٌ للوزر وزرَ نفسٍ أخرى حتى يمكن تخلّصُ النفس الثانية عن وزرها ويختلَّ ما بين العامل وعملِه من التلازم، بل إنما تحمل كلٌّ منها وزرها، وهذا تحقيقٌ لمعنى قوله عز وجل: ﴿وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه في عنقه﴾ [الإسراء، الآية ١٣] وأما ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿من يشفعْ شفاعةً حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها ومن يشفعْ شفاعة سيئة يكن له كِفلٌ منها﴾ [النساء، الآية ٨٥] وقوله تعالى: ﴿ليحمِلوا أوزارَهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلّونهم بغير علم﴾ [النحل: ٢٥] مِن حمْل الغير وزر الغير وانتفاعِه بحسنته وتضرره بسيئته فهو [في الحقيقة انتفاعٌ بحسنة نفسِه وتضرّرٌ بسيئته فإن جزاءَ الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العاملُ لازمٌ له][6].

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: ويذكره.
(٣) في خ: عما.
(٤) في خ: جيلة.
(٥) البيت بلا نسبة في تاج العروس (٩/ ٣٧٢)، وروايته:
يا قلب إنك من أسماء مغرور فاذكر وهل ينفعنك اليوم تذكير
وصدره كما ذكره أبو السعود في روح المعاني للألوسي (٢٦/ ١٨٤).
(٦) سقط في خ.

[وإنما الذي يصل إلى مَنْ يشفع جزاءُ شفاعته لا جزاءُ أصل الحسنة والسيئة][١]، وكذلك جزاءُ الضلال مقصورٌ على الضالين، وما يحمله المُضلون إنما هو جزاءُ الإضلال لا جزاءُ الضلال، وإنما خُص التأكيدُ بالجملة الثانية قطعًا للأطماع الفارغةِ حيث كانوا يزعُمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعةُ على أسلافهم الذين قلدوهم ﴿**وما كنا معذبين**﴾ بيانٌ للعناية الربانية إثرَ بيان اختصاصِ آثارِ الهداية والضلال بأصحابها وعدم حِرمان[٢] المهتدي من ثمرات هدايته وعدمِ مؤاخذة النفس بجناية غيرها، أي وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المَبنيةِ على الحِكَم البالغة أو ما كان في حكمنا الماضي وقضائِنا السابق أن نعذب أحدًا من أهل الضلال والأوزارِ اكتفاءً بقضية العقل ﴿**حتى نبعث**﴾ إليهم ﴿**رسولًا**﴾ يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحججَ ويمهد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزل عليه، والمرادُ بالعذاب المنفيّ إما عذابُ الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله وهو المناسبُ لما بعده، أو الجنسُ الشامل للدنيوي والأخروي وهو من أفراده، وأيًا ما كان فالبعثُ غايةٌ لعدم صحة وقوعِه في وقته المقدر له [لا][٣] لعدم وقوعِه مطلقًا، كيف [لا][٤] والأخرويُّ لا يمكن وقوعُه عَقيبَ[٥] البعث، والدنيويُّ أيضًا لا يحصُل إلا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان، ألا يُرى إلى قوم نوحٍ كيف تأخر عنهم ما حل بهم [زُهاءَ][٦] ألف سنة.

دلائل انهيار الحضارات

وقوله تعالى: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية**﴾ بيانٌ لكيفية وقوعِ التعذيب بعد البعثة التي جُعلت غايةً لعدم صحته، وليس المرادُ بالإرادة تحققَها بالفعل إذ لا يتخلف عنها المرادُ ولا الإرادةَ الأزليةَ المتعلقةَ بوقوع المراد في وقته المقدرِ له إذ لا يقارنه الجزاءُ الآتي، بل دنوُّ وقتها كما في قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل، الآية ١] أي وإذ دنا وقتُ تعلّقِ إرادتِنا بإهلاك قريةٍ بأن نعذب أهلَها بما ذكرنا من عذاب الاستئصالِ الذي بينا أنه لا يصِح منا قبل البِعثةِ أو بنوع مما ذكرنا شأنَه من مطلق العذابِ أعني عذابَ الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصي دنوًا تقتضيه الحِكمةُ من غير أن يكون له حدٌّ معين ﴿**أمرنا**﴾ بواسطة الرسولِ المبعوث إلى أهلها ﴿**مترفيها**﴾ متنعّميها

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: جريان.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: بعد.
(٦) سقط في خ.

وجبّاريها وملوكَها، خصهم بالذكر مع توجه الأمرِ إلى الكل لأنهم الأصولُ في الخطاب والباقي أتباعٌ لهم ولأن توجهَ الأمر إليهم آكدُ. وعدمُ التعرضِ للمأمور به إما لظهور أن المرادَ به الحقُّ والخيرُ لأن الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هدايةِ القرآن لما يهدي إليه، وإما لأن المرادَ وُجد منا الأمرُ كما يقال: فلان يعطي ويمنع **﴿ففسقوا فيها﴾** أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا **﴿فحق عليها القول﴾** أي ثبت وتحقق موجِبُه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم من الفسق والطغيان **﴿فدمرناها﴾** بتدمير أهلها **﴿تدميرًا﴾** لا يُكتنه كُنهُه ولا يوصف. هذا هو المناسبُ لما سبق، وقيل: الأمرُ مجازٌ عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق، وقيل: هو بمعنى التكثير يقال: أمَرْتُ الشيء فأمِرَ أي كثّرته فكثُر، وفي الحديث: «**خيرُ المالِ سِكّةٌ مأبورة ومُهْرَةٌ مأمورة**»[١] أي كثيرةُ النِتاج، ويعضُده قراءة آمَرْنا[٢] وأمّرنا[٣] من الإفعال والتفعيل[٤]، وقد جُعلتا من الإمارة أي جعلناهم أمراءَ وكلٌّ ذلك لا يساعده مقامُ الزجرِ عن الضلال والحثِّ على الاهتداء فإن مؤدَّى ذلك أن طغيانَهم مَنوطٌ بإرادة الله سبحانه وإنعامِه عليهم بنعم وافرةٍ أبطرتْهم، وحملهم على الفسق حملًا حقيقيًا بأن يعبَّر عنه بالأمر به.

﴿وكم أهلكنا﴾ أي وكثيرًا ما أهلكنا **﴿من القرون﴾** بيانٌ لِكَم وتمييزٌ له، والقَرنُ مدةٌ من الزمان يُختَرَم فيها القومُ وهي عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة، وقد أيِّد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال: «**عِشْ قرنًا**» فعاش مائة

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/ ٧٩)، وأحمد (٣/ ٤٦٨)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤٣٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٩١) برقم (٦٤٧٠) من حديث سويد بن هبيرة رضي الله عنه.
قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٥٨): رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات ا.هـ.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، ويعقوب، والحسن، وعلي بن أبي طالب، وابن أبي إسحاق، وأبو رجاء، وعيسى بن عمر، وسلام، وعبد الله بن أبي يزيد، والأعرج، والكلبي، وابن عباس، وقتادة، وأبو العالية، وابن هرمز، وأبو حيوة، وخارجة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٥٨)، وتفسير الطبري (١٥/ ٤٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٠٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(٣) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، والسدي، وابن عباس، وأبو عثمان النهدي، وزيد بن علي، وأبو العالية، وعلي، والحسن، والباقر، ومجاهد، وأبو جعفر، ومحمد بن علي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٤٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٥٨)ن والحجة لابن خالويه (٢١٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥)، والمعاني للفراء (٢/ ١١٩).

(٤) في ط: والتفعل.

سنةٍ أو مائة وعشرين ﴿من بعد نوح﴾ من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعادٍ وثمودَ ومَنْ بعدهم ممن قُصّت أحوالُهم في القرآن العظيم ومَنْ لم تُقَصّ، وعدمُ نظمِ قومه عليه الصلاة والسلام في تلك القرون المهلَكة لظهور أمرِهم، على أن ذكره عليه الصلاة والسلام رمزٌ إلى ذكرهم ﴿وكفى بربك﴾ أي كفى ربُّك ﴿بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها، وتقديمُ الخبير[1] لتقدم متعلَّقِه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادي الأعمالِ الظاهرةِ أو لعمومه حيث يتعلق بغير المُبصَرات أيضًا. وفيه إشارةٌ إلى أن البعثَ والأمر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلمِ بما صدر عنهم من الذنوب فإن ذلك حاصلٌ قبل ذلك وإنما هو لقطع الأعذار وإلزامِ الحُجة من كل وجه.

﴿من كان يريد﴾ بأعماله التي يعملها سواءٌ كان ترتُّبُ المراد عليها بطريق الجزاءِ كأعمال البِرّ أو بطريق ترتبِ المعلولات على العلل كالأسباب، أو بأعمال الآخرة فالمرادُ بالمريد على الأول الكفرةُ وأكثرُ الفسقة، وعلى الثاني أهلُ الرياء والنفاق والمهاجِرُ للدنيا والمجاهدُ لمحض الغنيمة ﴿العاجلة﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرةَ كما ينبئ عنها الاستمرارُ المستفادُ من زيادة كان هاهنا مع الاقتصار على مطلق الإرادةِ في قسيمه، والمرادُ بالعاجلة الدارُ الدنيا وبإرادتها إرادةُ ما فيها من فنون مطالبِها كقوله تعالى: ﴿ومَن كان يريد حرْثَ الدنيا﴾ [الشورى: ٢٠] ويجوز أن يراد الحياةُ العاجلة كقوله عز وجل: ﴿من كان يريد الحياةَ الدنيا وزينتَها﴾ [هود، الآية ١٥] لكن الأولَ أنسبُ بقوله: ﴿عجلنا له فيها﴾ أي في تلك العاجلةِ فإن الحياةَ واستمرارها من جملة ما عُجِّل له، فالأنسبُ بذلك كلمةُ من كما في قوله تعالى: ﴿ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤته منها﴾ [آل عمران، الآية ١٤٥] ﴿ما نشاء﴾ أي ما نشاء تعجيلَه له من نعيمها لا كلَّ ما يريد ﴿لمن نريد﴾ تعجيلَ ما نشاء له وهو بدلٌ من الضمير في له بإعادة الجارِّ بدلَ البعض، فإنه راجعٌ إلى الموصول المنبئ عن الكثرة، وقرئ[2] لمن يشاء على أن الضميرَ لله سبحانه، وقيل: هو لِمَن فيكون مخصوصًا بمن أراد به ذلك، وهو واحدٌ من الدهماء، وتقييدُ المعجَّل والمعجَّل له بما ذُكر من المشيئة والإرادة لما أن الحِكمةَ التي عليها يدور فلكُ التكوين لا تقتضي وصولَ كلِّ طالبٍ إلى مرامه ولا استيفاءَ كلٍّ واصل لما يطلُبه بتمامه، وأما ما يتراءى من قوله

---

(١) في خ: الخبر.

(٢) قرأ بها: نافع.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٣).

تعالى: ﴿من كان يريد الحياةَ الدنيا وزينتَها نوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخسون﴾ [هود، الآية ١٥] من نيل كلِّ مؤمِّلٍ لجميع آماله ووصولِ كلِّ عاملٍ إلى نتيجة أعمالِه، فقد أُشير إلى تحقيق القولِ فيه في سورة هود بفضل الله تعالى **﴿ثم جعلنا له﴾** مكان ما عجلنا له **﴿جهنم﴾** وما فيها من أصناف العذاب **﴿يصلاها﴾** يدخُلها وهو حالٌ من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئنافٌ **﴿مذمومًا مدحورًا﴾** مطرودًا من رحمة الله تعالى، وقيل: الآية في المنافقين كانوا يُراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضُهم إلا مساهمتَهم في الغنائم ونحوِها، ويأباه ما يقال إن السورةَ مكيةٌ سوى آياتٍ معينة.

﴿ومن أراد﴾ بأعماله **﴿الآخرة﴾** الدارَ الآخرةَ وما فيها من النعيم المقيم **﴿وسعى لها سعيها﴾** أي السعْيَ اللائقَ بها وهو الإتيانُ بما أُمر والانتهاءُ عما نُهيَ لا التقرّبُ بما يخترعون بآرائهم، وفائدةُ اللام اعتبارُ النيةِ والإخلاص **﴿وهو مؤمن﴾** إيمانًا صحيحًا لا يخالطه شيءٌ قادحٌ فيه، وإيرادُ الإيمانِ بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنتِه لما ذُكر في حيِّز الصلة **﴿فأولئك﴾** إشارةٌ إلى الموصولِ بعنوان اتصافِه بما في حيز الصلةِ، وما في ذلك من معنى البعدِ للإشعار بعلو درجتِهم وبُعد منزلتِهم، والجمعيةُ لمراعاة جانب المعنى إيماءً إلى أن الإثابة المفهومةَ من الخبر تقع على وجه الاجتماعِ أي أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدةِ، أعني إرادةَ الآخرةِ والسعيَ الجميلَ لها والإيمانَ **﴿كان سعيهم مشكورًا﴾** مقبولًا عند الله تعالى أحسنَ القَبول مُثابًا عليه، وفي تعليق المشكوريّةِ بالسعْي دون قرينَيْهِ إشعارٌ بأنه العمدةُ فيها.

﴿كلًّا﴾ التنوين عوضٌ عن المضاف إليه أي كلَّ واحد من الفريقين لا الفريقِ الأخير المريد للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط **﴿نمد﴾** أي نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنِفُ مددًا للسالف، وما به الإمدادُ ما عُجّل لأحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلةِ المشارِ إليها بمشكورية السعي، وإنما لم يصرحْ به تعويلًا على ما سبق تصريحًا وتلويحًا واتكالًا على ما لحِق عبارةً وإشارة كما ستقف عليه.

وقوله تعالى: **﴿هؤلاء﴾** بدل من كلًّا **﴿وهؤلاء﴾** عطف عليه أي نُمد هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاءِ المشكورَ سعيُهم، فإن الإشارةَ متعرّضةٌ لذات المشارِ إليه بما له من العنوان لا للذات فقط كالإضمار، ففيه تذكيرٌ لما به الإمدادُ وتعيينٌ للمضاف إليه المحذوفِ دفعًا لتوهّم كونِه أفرادَ الفريقِ الأخير، وتأكيدٌ للقصر المستفادِ من تقديم المفعول وقوله تعالى: **﴿من عطاء ربك﴾** أي من العطاء الواسعِ الذي لا تناهيَ له متعلقٌ بنُمد، ومغْنٍ عن ذكر ما به الإمدادُ ومنبِّهٌ على أن الإمدادَ المذكورَ ليس بطريق

الاستيجابِ بالسعي والعمل بل بمحض التفضل[١] ﴿وما كان عطاء ربك﴾ أي دنيويًا كان أو أخرويًا، وإنما أُظهر إظهارًا لمزيد الاعتناءِ بشأنه وإشعارًا بعلّيته للحكم ﴿محظورًا﴾ ممنوعًا ممن يريده بل هو فائضٌ على مَن قُدّر له بموجب المشيئةِ المبنيةِ على الحكمة وإن وُجد منه ما يقتضي الحظرَ كالكافر وهو في معنى التعليل لشمول الإمدادِ للفريقين، والتعرضُ لعنوان الربوبية في الموضعين للإشعار بمبدئيتها لما ذُكر من الإمداد وعدم الحظر.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ كيف في محل النصبِ بفضّلنا على الحالية والمرادُ توضيحُ ما مر من الإمداد وعدمِ محظوريةِ العطاء بالتنبيه على استحضار مراتبِ أحد العطاءين والاستدلالِ بها على مراتب الآخر، أي انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضَهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة، فمِنْ وضيع ورفيع وضَالعٍ وضليع ومالكٍ ومملوكٍ ومُوسرٍ وصُعلوكٍ تعرِفْ بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ ودرجاتِ تفاضل أهلِها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وللآخرة أكبر﴾ أي هي وما فيها أكبرُ من الدنيا، وقرئ[٢] أكثرُ ﴿درجات وأكبر تفضيلًا﴾ لأن التفاوتَ فيها بالجنة ودرجاتِها العالية التي لا يقادر قدرُها ولا يُكتنه كُنهُها، كيف لا وقد عُبّر عنه[٣] بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر. هذا ويجوز أن يراد بما به الإمدادُ العطايا العاجلةُ فقط ويُحمل القصرُ المذكورُ على دفع توهم اختصاصِها بالفريق الأول، فإن تخصيصَ إرادتهم لها ووصولَهم إليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبةِ بينها وبين الفريق الثاني إرادةً ووصولًا مما يُوهم[٤] اختصاصَها بالأولين، فالمعنى كلُّ واحد من الفريقين نُمِد بالعطايا العاجلة لا مَنْ ذكرنا إرادتَه لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسعِ وما كان عطاؤه الدنيويُّ محظورًا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره، انظر كيف فضلنا في ذلك العطاءِ بعضَ كلٍّ من الفريقين على بعض آخرَ منهما وللآخِرةُ. . الآية. واعتبارُ عدم المحظورية بالنسبة إلى الفريق الأولِ، تحقيقًا لشمول الإمدادِ له كما فعله الجمهور حيث قالوا: لا يمنعه مِن عاصٍ لعصيانه، يقتضي كونَ القصر لدفع توهم اختصاصِ الإمداد الدنيويِّ بالفريق الثاني مع أنه لم يسبِقْ في الكلام ما يوهم ثبوتَه له فضلًا عن إيهام اختصاصِه.

---

(١) في خ: التفضيل.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٤).
(٣) زاد في خ: بالقرآن.
(٤) في ط: توهم.

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

﴿لا تجعل مع الله إلَهًا آخر﴾ الخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام والمرادُ به أمتُه وهو من باب التهييج والإلهاب، أو كلِّ أحد ممن يصلح للخطاب **﴿فتقعد﴾** بالنصب جوابًا للنهي، والقعودُ بمعنى الصيرورة من قولهم: شحذ الشفرةَ حتى قعَدتْ كأنها حَربة، أو بمعنى العجز، مِن قعد عنه أي عجز عنه **﴿مذمومًا مخذولًا﴾** خبران أو حالان أي جامعًا على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخِذلانَ من الله تعالى، وفيه إشعارٌ بأن الموحِّدَ جامعٌ بين المدح والنُّصرة.

من قواعد السلوك الإسلامي

﴿وقضى ربك﴾ أي أمر أمرًا مُبْرمًا، وقرئ[1] وأوصى ربُّك «ووصّى ربك» **﴿أن لا تعبدوا﴾** أي بألا تعبدوا **﴿إلا إياه﴾** على أنّ «أنْ» مصدريةٌ ولا نافيةٌ أو أي لا تعبدوا

(١) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٣).

على أنها مفسرةٌ ولا ناهيةٌ لأن العبادة غايةُ التعظيم فلا تحِقُّ إلا لمن له غايةُ العظمة ونهايةُ الإنعام وهو كالتفصيل للسعي للآخرة ﴿**وبالوالدين**﴾ أي وبأن تُحسِنوا بهما أو وأحسنوا بهما ﴿**إحسانًا**﴾ لأنهما السببُ الظاهرُ للوجود والتعيش ﴿**إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما**﴾ إما مركبةٌ من إن الشرطية وما المزيدةِ لتأكيدها ولذلك دخل الفعلَ نونُ التأكيد، ومعنى عندك في كنفك وكفالتك وتقديمُه على المفعول مع أن حقه التأخرُ عنه للتشويق إلى وروده فإن مدارَ تضاعف الرعايةِ الإحسانُ وأحدُهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعولِ لئلا يطولَ الكلامُ به وبما عُطف عليه. وقرئ[١] يبلغان فأحدُهما بدلٌ من ضمير التثنية وكلاهما عطفٌ عليه ولا سبيل إلى جعل (كلاهما) تأكيدًا للضمير، وتوحيدُ ضمير الخطاب في عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المرادِ فإن المقصودَ نهيُ كلِّ أحد عن تأفيف والديه ونهْرِهما، ولو قوبل الجمعُ بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام ﴿**فلا تقل لهما**﴾ أي لواحد منهما حالتي الانفراد والاجتماع ﴿**أفٍّ**﴾ وهو صوتٌ ينبئ عن تضجر، أو اسمُ فعلٍ هو أتضجر، وقرئ[٢] بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونًا وغيرَ مُنوّن أي لا تتضجرْ بهما تستقذرُ منهما وتستثقل من مُؤَنهما وبهذا النهي يُفهم النهيُ عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النصِّ، وقد خُص بالذكر بعضُه إظهارًا للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿**ولا تنهرهما**﴾ أي لا تزجُرهما عما لا يعجبك بإغلاظ، قيل: النهيُ والنهرُ والنهْمُ أخواتٌ ﴿**وقل لهما**﴾ بدلَ التأفيف والنهر ﴿**قولًا كريمًا**﴾ ذا كرمٍ أو هو وصفٌ له بوصف صاحبِه أي قولًا صادرًا عن كرم ولطفٍ، وهو القولُ الجميلُ الذي يقتضيه حسنُ الأدب ويستدعيه النزولُ على المروءة مثلُ أن يقول: يا أباه ويا أماه، كدأب إبراهيمَ عليه السلام إذ قال لأبيه: يا أبتِ مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوءِ الأدب وديدنُ الدُّعّار. وسئل الفضيلُ بنُ عياض عن

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والمطوعي، والسلمي، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٣٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤٩)، والتيسير للداني (١٣٩)، والحجة لابن خالويه (٢١٦)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٩)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٩)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والتيسير للداني (١٣٩)، والحجة لابن خالويه (٢١٥)، والحجة لأبي زرعة (٣٩٩)، والسبعة لابن مجاهد (٣٧٩)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

بر الوالدين فقال: ألا تقوم إلى خدمتهما عن كسل[١]، وقيل: ألا ترفعَ صوتَك عليهما ولا تنظُرَ إليهما شزْرًا ولا يَرَيا منك مخالفةً في ظاهر ولا باطن وأن تترحّم عليهما ما عاشا وتدعوَ لهما إذا ماتا وتقومَ بخدمة أوِدّائِهما من بعدهما، فعن النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أنْ يصلَ الرجلُ أهلَ ودِّ أبيه**»[٢].

﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ عبارةٌ عن إلانة الجانبِ والتواضعِ والتذلل[٣] لهما، فإن إعزازَهما لا يكون إلا بذلك فكأنه قيل: واخفض لهما جناحَ الذليل[٤] أو جُعل لذلك جَناحٌ كما جَعل لبيدٌ في قوله: [الكامل]

وغَـداةِ ريـحٍ قـد كـشـفْـت وقَـرّةٍ إذ أصبحت بيد الشمالِ زمامُها[٥]

للقَرة زمامًا وللشمال يدًا تشبيهًا له بطائر يخفض جناحَه لأفراخه تربيةً لها وشفقةً عليها، وأما جعلُ خفض الجناحِ عبارةً عن ترك الطيران كما فعله القفالُ فلا يناسب المقام **﴿من الرحمة﴾** من فرْط رحمتِك وعطفِك عليهما ورِقّتك لافتقارهما اليوم إلى مَنْ كان أفقرَ خلق الله تعالى إليهما ولا تكتفِ برحمتك الفانية بل ادعُ الله لهما برحمته الواسعة الباقية **﴿وقل رب ارحمهما﴾** برحمتك الدنيوية والأخرويةِ التي من جملتها الهدايةُ إلى الإسلام فلا ينافي ذلك كفرَهما **﴿كما ربياني﴾** الكاف في محل النصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أي رحمةً مثلَ تربيتهما لي أو مثلَ رحمتهما لي على أن التربيةَ رحمةٌ ويجوز أن يكون لهما الرحمةُ والتربية معًا وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخرُ كما يلوح به التعرّضُ لعنوان الربوبيةِ في مطلع الدعاء كأنه قيل: رب

---

(١) ذكره السلمي في تفسيره (١/ ٣٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٨) كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، برقم (١١/ ٢٥٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ذكر أبو حيان أنه كناية عن التلطف والرفق وأصله: أن الطائر إذا ضم الفرخ إليه بسط جناحه له ثم قبضه على فرخه، وقد أجراها الشيخ أبو السعود على نهج الاستعارة المكنية التخييلية، ومعظم البلاغيين الأقدمين على القول بأن الاستعارة بالكناية هي اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف المرموز إليه بإثبات بعض لوازمه للمشبه. ويمثلون لذلك بهذه الآية الكريمة، وفي تحديد ضابطها خلاف.

ينظر: في هذه القضية: الكشاف (٢/ ٣٩٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٦٦)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٥٥٤)، والتحرير والتنوير (١٣/ ٨٣)، وأسرار البلاغة (٤٣)، والايضاح مع البغية (٣/ ١٥٥)، والمطول (٣٨٢)، ومفتاح العلوم للسكاكي (١٥٧ - ١٦٠)، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (١١٥).

(٤) في خ: الذل.

(٥) ينظر البيت في: ديوانه ص (٢١٥)، وأساس البلاغة (يدي)، ويروى: «قد وزعت» بدل «قد كشفت».

ارحمهما وربِّهما كما رحِماني وربّياني ﴿صغيرًا﴾ ويجوز أن تكون الكافُ للتعليل أي لأجل تربيتهما لي كقوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ [البقرة: ١٩٨] ولقد بالغ عز وجل في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفَع الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونظمَهما في سلك القضاءِ بهما معًا ثم ضيّق الأمرَ في باب مراعاتهما حتى لم يرخِّصْ في أدنى كلمةٍ تُفْلت من[1] المتضجر مع ما له من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، وختمَها بأن جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء مُشْبَهة بتربيتهما. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «**رِضا الله في رضا الوالدين وسخطُه في سخطهما**»[2] وروي (يفعل البارُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل النارَ ويفعل العاقُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل الجنة)[3] وقال رجل لرسول الله ﷺ: إن أبوَيَّ بلغا من الكِبَر أني أَلي منهما ما وَلِيا مني في الصغر فهل قضيتُهما حقهما؟ قال: «**لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبّان بقاءَك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما**»[4] وروي أن شيخًا أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: إن ابني هذا له مالٌ كثير وإنه لا ينفق عليَّ من ماله، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال: إن هذا الشيخَ [قد][5] أنشأ في ابنه أبياتًا ما قُرع سمعٌ بمثلها فاستنشَدَها الشيخَ فقال: [الطويل]

غذَوتُك مولودًا ومُنْتُك يافعًا ... تعلُّ بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلةٌ ضاقتْك بالسُّقم لم أبِتْ ... لسُقمك إلا باكيًا أتململ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرِقْتَ به دوني وعيني تهمُل
فلما بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمل
جعلتَ جزائي غِلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعمُ المتفضّل
فليتك إذْ لم ترْعَ حقَّ أُبوتي ... فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعل[6]

---

(١) زاد في خ: مضجر.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٣١٠) كتاب البر والصلة، باب: من الفضل في بر الوالدين، برقم (١٨٩٩)، وابن حبان (٢/ ١٧٢) برقم (٤٢٩)، والحاكم (٤/ ١٦٨) كتاب البر والصلة، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٧٧) برقم (٧٨٣٠)، من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما بلفظ: رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد، ولفظ البيهقي: رضا الله في رضا الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٦١٦).

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٩٣).

(٥) سقط في خ.

(٦) الأبيات لأمية بن أبي الصلت في ديوانه، ص (٥٧، ٥٨).

فغضب رسولُ الله ﷺ وقال: «**أنتَ ومالُكَ لأبيك**»[(١)].

﴿**ربكم أعلم بما في نفوسكم**﴾ من البر والعقوق ﴿**إن تكونوا صالحين**﴾ قاصدين للصلاح والبرِّ دون العقوقِ والفساد ﴿**فإنه**﴾ تعالى ﴿**كان للأوابين**﴾ أي الرجّاعين إليه تعالى عما فرَط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿**غفورًا**﴾ لما وقع منهم من نوعِ تقصير أو أذيةٍ فعليةٍ أو قولية، وفيه ما لا يخفى من التشديد في الأمر بمراعاة حقوقِهما، ويجوز أن يكون عامًا لكل تائبٍ ويدخُل فيه الجاني على أبويه دخولًا أوليًا ﴿**وآت ذا القربى**﴾ أي ذا القرابةِ ﴿**حقه**﴾ توصيةٌ بالأقارب إثرَ التوصية ببرّ الوالدين، ولعل المرادَ بهم المحارمُ وبحقهم النفقةُ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**والمسكين وابن السبيل**﴾ فإن المأمورَ به في حقهما المواساةُ الماليةُ لا محالة أي وآتِهما حقَّهما مما كان مفترَضًا بمكةَ بمنزلة الزكاة، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسْطِ فإن الكلَّ من التصرفات المالية ﴿**ولا تبذر تبذيرًا**﴾ نهيٌ عن صرف المال إلى من سواهم ممن لا يستحقه فإن التبذيرَ تفريقٌ في غير موضعه مأخوذٌ من تفريق حباتٍ وإلقائِها كيفما كان من غير تعهّدٍ لمواقعه، لا عن الإكثار في صرفه إليهم وإلا لناسبه الإسرافُ الذي هو تجاوزُ الحدِّ في صرفه، وقد نُهي عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تبسُطْها﴾ [الإسراء: ٢٩] وكلاهما مذموم.

﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾ تعليلٌ للنهي عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبَه ملزوزًا في قَرن الشياطين.

والمرادُ بالأخوة **المماثلةُ** التامةُ في كلِّ ما لا خيرَ فيه من صفات السوءِ التي من جملتها التبذيرُ أي كانوا بما فعلوا من التبذير أمثالَ الشياطين، أو **الصداقةُ** والملازمةُ أي كانوا أصدقاءَهم وأتباعَهم فيما ذُكر من التبذير والصرْفِ في المعاصي فإنهم كانوا ينحَرون الإبلَ ويتياسرون عليها ويبذّرون أموالَهم في السمعة وسائرِ ما لا خير فيه من المناهي والملاهي، أو **المقارنةُ** أي قرناءَهم في النار على سبيل الوعيد ﴿**وكان الشيطان لربه كفورًا**﴾ من تتمة التعليل أي مبالِغًا في كفران نعمتِه تعالى لأن شأنه أن يصرِفَ جميع ما أعطاه الله تعالى من القُوى والقدر إلى غير ما خُلقت هي له من أنواع المعاصي والإفسادِ في الأرض وإضلالِ الناس وحملِهم على الكفر بالله وكفرانِ نِعَمه

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٤٠) رقم (٦٥٧٠)، من حديث المنكدر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال جاء رجل إلى النبي ﷺ ... الحديث.
قال السخاوي في المقاصد ص (١٧٤): والمنكدر ضعفوه من قبل حفظه وهو في الأصل صدوق، لكن في السند إليه من لا يعرف. ا هـ.

الفائضةِ عليهم وصرفِها إلى غير ما أمر الله تعالى به، وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذكر من بين سائر أوصافِه القبيحة للإيذان بأن التبذيرَ الذي هو عبارةٌ عن صرف نِعَم الله تعالى إلى غير مصْرِفها من باب الكفرانِ المقابلِ للشكر الذي هو عبارةٌ عن صرفها إلى ما خُلقت هي له. والتعرضُ لوصف الربوبيةِ للإشعار بكمال عُتوِّه فإن كفرانَ نعمةِ الربِّ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها، غايةُ الكُفران ونهايةُ الضلال والطغيان.

﴿وإما تعرض عنهم﴾ أي إن اعتراك أمرٌ اضطَرَّك إلى أن تُعرِض عن أولئك المستحقين ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ أي لفقد رزقٍ من ربك، إقامةٌ للمسبّب مُقام السبب[١] فإن الفقدَ سببٌ للابتغاء ﴿ترجوها﴾ من الله تعالى لتُعطيَهم وكان عليه السلام إذا سُئل شيئًا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياءً فأُمر بتعهّدهم بالقول الجميل لئلا تعتريَهم الوَحشةُ بسكوته عليه السلام، فقيل: ﴿فقل لهم قولًا ميسورًا﴾ سهلًا ليّنًا وعِدْهم وعدًا جميلًا، من يسر الأمر نحوُ سعِد[٢]، أو قل لهم رزَقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاءٌ لهم ييسر عليهم فقرَهم ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ تمثيلان لمنع الشحيحِ وإسرافِ المبذِّرِ زجرًا لهما عنهما وحملًا على ما بينهما من الاقتصاد[٣]: [الطويل]

.... كلا طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ[٤]

---

(١) على كلام الشيخ تكون الآية من قبيل المجاز المرسل وقد مضى الحديث عنه وانظر في المجاز المرسل.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١)، وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠) وما بعدها، والإشارات والتنبيهات (٢٠٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم (٥٣) وما بعدها، والطراز للعلوي (١/ ٦٩ - ٧٣).

(٢) زاد في خ: وقيل.

(٣) يريد أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية، وقد ذكر أبو حيان أن هذه استعارة استعير فيها المحسوس للمعقول، وذلك أن البخل معنى قائم بالإنسان يمنعه من التصرف في ماله فاستعير له الغل الذي هو ضم اليد إلى العنق فامتنع من تصرف يده، وإحالتها حيث تريد، وذكر اليد لأن بها الأخذ والعطاء، واستعير بسط اليد لإذهاب المال، وذلك أن قبض اليد يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها، وطابق في الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى لأن جعل اليد مغلولة هو قبضها وغلها أبلغ في القبض، وقرينتها التخييلية.
ينظر: الكشاف (٢/ ٤٤٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣١)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٦٢٣)، والتحرير والتنوير (١٥/ ٨٤ - ٨٥)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦).

(٤) عجز بيت وصدره:
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ....

=

وحيث كان قبحُ الشحِّ مقارِنًا له معلومًا من أول الأمر رُوعيَ ذلك في التصوير بأقبح الصور، ولمّا كان غائلةُ الإسراف في آخره بُيِّن [قبحُه في أثره][(١)] فقيل: **﴿فتقعد ملومًا﴾** أي فتصيرَ ملومًا عند الله تعالى وعند الناسِ وعند نفسك إذا احتجتَ وندِمْت على ما فعلت **﴿محسورًا﴾** نادمًا أو منقطعًا بك لا شيءَ عندك من حسَره[(٢)] السفر إذا بلغ منه. وما قيل من أنه روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: بينا رسولُ الله ﷺ قاعدٌ إذ أتاه صبيٌّ فقال: إن أمي تستكْسيك دِرعًا فقال عليه السلام: «**من ساعة إلى ساعة فَعُد إلينا**» فذهب إلى أمه فقالت له: قل: إن أمي تستكسيك الدرعَ الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزَع قميصه وأعطاه وقعد عُرْيانًا، وأذّن بلالٌ، وانتظروا فلم يخرُجْ للصلاة فنزلت[(٣)]، فيأباه[(٤)] أن السورة مكيةٌ خلا آياتٍ في آخرها، وكذا ما قيل إنه عليه السلام أعطى الأقرعَ بنَ حابس من الإبل وكذا عُيَينةَ بنَ حصنٍ الفزاريَّ فجاء عباسُ بنُ مِرداس فأنشد يقول: [المتقارب]

أتجعل نهبي ونهبَ العُبَيْـ ... ـد بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مِرداسَ في مجمع
وما كنتُ دون امرئ منهما ... ومَنْ تَضَع اليومَ لا يُرفعِ[(٥)]

فقال عليه السلام: «**يا أبا بكر اقطعْ لسانه عنّي، أعطه مائةً من الإبل**» وكانوا جميعًا من المؤلفة القلوب فنزلت[(٦)].

= وهو في فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٤٠)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٧٣)، وروح المعاني (١٩/ ٤٧)، والبحر المحيط (٦/ ٤٧١)، وفيض القدير (٢/ ٦٤)، ومعجم الأدباء (١/ ٦٣٩)، ويتيمة الدهر (٤/ ٣٨٥).
ويروى صدره هكذا:

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً ....

ينظر: خزانة الأدب (٢/ ١٠٧).

(١) في خ: أثره في قبحه.
(٢) في ط: حسرة.
(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٩٦).
(٤) جواب «وما قيل..».
(٥) تنظر الأبيات في: ديوانه ص (٨٤)، وينظر: البيت الأول في: لسان العرب (نهب)، (عبد)، وتاج العروس (نهب)، (عبد).
وينظر البيت الثاني في: الأغاني (١٤/ ٢٩١)، والإنصاف (٢/ ٤٩٩)، وخزانة الأدب (١/ ١٤٧، ١٤٨، ٢٥٣)، والدرر (١/ ١٠٤)، وسمط اللآلئ ص (٣٣)، وشرح التصريح (٢/ ١١٩)، وشرح المفصل (١/ ٦٨)، والشعر والشعراء (١/ ١٠٧، ٣٠٦، ٢/ ٧٥٢)، ولسان العرب (ردس)، والمقاصد النحوية (٤/ ٣٦٥)، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب (٢/ ٥٤٦، ٥٤٧)، وشرح الأشموني (٢/ ٥٤٣)، ولسان العرب (فوق)، وتاج العروس (فوق).
(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٧٣٧) كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، برقم (١٣٧/ ١٠٦٠) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه بلفظ: =

﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ تعليلٌ لما مر أي يوسّعه على بعض ويضيِّقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئتُه التابعةُ للحِكمة فليس ما يَرْهقُكَ من الإضافة التي تحوِجُك إلى الإعراض عن السائلين أو نفادُ ما في يدك إذا بسطتَها كلَّ البسْطِ إلا لمصلحتك **﴿إنه كان بعباده خبيرًا بصيرًا﴾** تعليلٌ لما سبق أي يعلم سرَّهم وعلَنَهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويجوز أن يراد أن البسطَ والقبضَ من أمر الله العالم بالسرائر والظواهرِ الذي بيده خزائنُ السمواتِ والأرض، وأما العبادُ فعليهم أن يقتصدوا، وأن يراد أنه تعالى يبسُط تارةً ويقبِضُ أخرى فاستنّوا بسنته فلا تقبِضوا كلَّ القبض ولا تبسُطوا كل البسط، وأن يراد أنه تعالى يبسُط ويقدِر حسب مشيئتِه فلا تبسُطوا على من قُدِر عليه رزقُه، وأن يكون تمهيدًا لقوله: **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾** أي مخافةَ فقر، وقرئ[1] بكسر الخاء، كانوا يئِدون بناتِهم مخافةَ الفقر فنُهوا عن ذلك **﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾** لا أنتم فلا تخافوا الفاقةَ بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقِهم وهو ضمانٌ لرزقهم [وتعليلٌ للنهي المذكور بإبطال موجِبه في زعمهم، وتقديمُ ضميرِ الأولاد على المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام][2] للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزقِ أو لأن الباعثَ على القتل هناك الإملاقُ الناجزُ ولذلك قيل: من إملاق وهاهنا الإملاقُ المتوقع، ولذلك قيل: خشيةَ إملاقٍ فكأنه قيل: نرزقُهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَوْنه وإياكم أيضًا رزقًا إلى رزقكم **﴿إن قتلهم كان خطأ كبيرًا﴾** تعليلٌ آخرُ ببيان أن المنهيَّ عنه في نفسه منكرٌ عظيم، والخِطْءُ الذنبُ والإثمُ يقال: خطِئ خِطْأً كأثِم إثمًا، وقرئ بالفتح والسكون[3] وبفتحتين[4] بمعناه كالحِذْر والحذَر، وقيل: بمعنى ضد الصواب،

= أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك. فقال عباس بن مرداس: [المتقارب]

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع
فما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة.

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٧).
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: ابن عامر، والحسن، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٢)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٩)، وتفسير الرازي (٢٠/ ١٩٧).
(٤) قرأ بها: ابن عامر، وهشام، وأبو جعفر، والداجوني، وابن ذكوان. =

وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودًا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك.

﴿**ولا تقربوا الزنا**﴾ بمباشرة مباديه القريبةِ أو البعيدة فضلًا عن مباشرته وإنما نهىٰ عن قُربانه على خلاف ما سبق ولحِق من القتل للمبالغة في النهي عن نفسه لأن قربانه داعٍ إلى مباشرته. وتوسيطُ النهي عنه بين النهي عن قتل الأولادِ والنهي عن قتل النفسِ المحرمة على الإطلاق باعتبار أنه قتلٌ للأولاد لِما أنه تضييعٌ للأنساب[1] فإن من لم يثبُتْ نسبُه ميِّتٌ حكمًا ﴿**إنه كان فاحشة**﴾ فَعلةً ظاهرةَ القبح متجاوزةً عن الحد ﴿**وساء سبيلًا**﴾ أي بئس طريقًا طريقُه، فإنه غصْبُ الأبضاع[2] المؤدّي إلى اختلال أمر الأنسابِ وهيَجانِ الفتن، كيف لا وقد قال النبي عليه السلام: «**إذا زنا العبدُ خرجَ منه الإيمانُ فكانَ على رأسه [كالظُّلّةِ]**[3] **فإذا انقطع رجعَ إليه**»[4] وقال عليه السلام: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[5] وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال عليه السلام: «**إياكم والزنا فإن فيه ستَّ خصال ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة فأما التي في الدنيا فذهابُ البهاء ودوامُ الفقر وقِصَرُ العمر، وأما التي في الآخرة فسخطُ الله تعالى وسوءُ الحساب والخلودُ في النار**»[6].

﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله**﴾ قتْلَها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد ﴿**إلا بالحق**﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفرٍ بعد إيمان، وزِنًا بعد إحصان، وقتلِ نفسٍ معصومةٍ عمدًا، فالاستثناءُ مفرَّغٌ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسببِ[7] الحقِّ أو

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والتيسير للداني (١٣٩، ١٤٠)، والحجة لابن خالويه (٢١٦)، والحجة لأبي زرعة (٤٠٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(١) في خ: للإنسان.

(٢) في خ: الإيضاح.

(٣) في خ: مثل ظله.

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٣٣) كتاب السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (٤٦٩٠)، والحاكم (١/ ٧٢) كتاب الإيمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بروايته وله شاهد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه البخاري (٥/ ٤١٣) كتاب المظالم باب: النهبى بغير إذن صاحبه برقم (٢٤٧٥)، ومسلم (١/ ٧٦) كتاب الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي برقم (١٠٠/ ٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الخرائطي في مساوي الأخلاق (١/ ٤٨٤)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٣) برقم (٦٦٦٨)، والثعلبي في تفسيره (٧/ ٦٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١١١)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٧٩) برقم (٥٤٧٥)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بإسناد ضعيف جدًا.

(٧) في خ: سبب.

ملتبسين أو ملتبسةً بشيء من الأشياء، ويجوز أن يكون نعتًا لمصدر محذوفٍ أي لا تقتُلوها [قتلًا ما إلا][١] قتلًا متلبسًا بالحق ﴿**ومن قتل مظلومًا**﴾ بغير حق يوجب قتله أو يُبيحه للقاتل حتى إنه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل فإن من عليه القصاصُ إذا قتله غيرُ من له القِصاصُ يُقتصّ له، ولا يفيده قولُ الوليِّ: أنا أمرتُه بذلك ما لم يكن الأمرُ ظاهرًا ﴿**فقد جعلنا لوليه**﴾ لمن يلي أمرَه من الوارث أو السلطانِ عند عدم الوارث ﴿**سلطانًا**﴾ تسلّطًا و[استيلاءً][٢] على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايتُه، أو حجةً غالبة ﴿**فلا يسرف**﴾ وقرئ[٣] لا تسرفْ ﴿**في القتل**﴾ أي لا يُسرف الوليُّ في أمر القتل بأن يتجاوز الحدَّ المشروعَ بأن يزيد عليه المُثْلة[٤] أو بأن يقتُل غيرَ القاتل[٥] من أقاربه، أو بأن يقتلَ الاثنين مكانَ الواحد كما يفعله أهلُ الجاهلية أو بأن يقتل القاتلَ في مادة الدّية وقرئ[٦] بصيغة النفي مبالغةً في إفادة معنى النهي ﴿**إنه كان منصورًا**﴾ تعليلٌ للنهي والضميرُ **للولي** على معنى أنه تعالى نصره[٧] بأن أوجب له القِصاصَ أو الديةَ وأمَر الحكامَ بمعونته في استيفاء حقِّه فلا يبْغِ ما وراء حقِّه ولا يستزِدْ عليه ولا يخرُجْ من دائرة أمرِ الناصر، أو **للمقتول** ظلمًا على معنى أنه تعالى نصره بما ذُكر فلا يسرف وليُّه في شأنه أو **للذي** يقتله الوليُّ ظلمًا وإسرافًا، ووجهُ التعليل ظاهرٌ.

وعن مجاهد أن الضميرَ في لا يسرفْ للقاتل الأول ويعضده قراءةُ[٨] فلا تسرفوا والضميران في التعليل عائدان إلى الولي أو[٩] المقتول، فالمرادُ بالإسراف حينئذ

---

(١) سقط في خ. (٢) في خ: ولا سبيلاً.

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وخلف، والأعمش، وزيد بن علي، و-تذيفة، وابن وثاب، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والتيسير للداني (١٤٠)، والحجة لابن خالويه (٢١٧)، والحجة لأبي زرعة (٤٠٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(٤) في خ: القلة. (٥) زاد في خ: أو.

(٦) قرأ بها: أبو مسلم السراج (صاحب الدولة العباسية)، وأبو مسلم العجلي (مولى صاحب الدولة).
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٤٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٠).

(٧) في خ: نصيره.

(٨) قرأ بها: أُبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٨).

(٩) في خ: و.

إسرافُ القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجلِ لا الإسرافُ وتجاوزُ الحد في القتل أي لا يسرف على نفسه في شأن القتل كما في قوله تعالى: ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر، الآية ٥٣].

﴿**ولا تقربوا مال اليتيم**﴾ نهيٌ عن قربانه لما ذكر من المبالغة في النهي عن التعرض له ومن إفضاء ذلك إليه وللتوسل إلى الاستثناء بقوله تعالى: ﴿**إلا بالتي هي أحسن**﴾ أي إلا بالخَصلة والطريقة التي هي أحسنُ الخِصال والطرائق وهي حفظُه واستثماره[١] ﴿**حتى يبلغ أشده**﴾ غايةٌ لجواز التصرفِ على الوجه الأحسن المدلولِ عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط ﴿**وأوفوا بالعهد**﴾ سواءٌ جرى بينكم وبين ربِّكم أو بينكم وبين غيرِكم من الناس، والإيفاءُ بالعهد والوفاءُ به هو القيامُ بمقتضاه والمحافظةُ عليه ولا يكاد يُستعملُ إلا بالباء فرقًا بينه وبين الإيفاء الحسيِّ كـ [إيفاء][٢] الكيل[٣] والوزن ﴿**إن العهد**﴾[٤] أُظهر في مقام الإضمارِ إظهارًا لكمال العنايةِ بشأنه، أو لأن المرادَ مطلقُ العهد المنتظمِ للعهد المعهود ﴿**كان مسئولًا**﴾ أي [مسؤولًا عنه][٥] على حذف الجارِّ وجعْلِ الضمير بعد انقلابه مرفوعًا مستكنًا في اسم المفعولِ كقوله[٦] تعالى: ﴿وذلك يومٌ مشهود﴾ [هود، الآية ١٠٣] [أي: مشهودٌ فيه][٧]، ونظيرُه ما في قوله تعالى: ﴿تلك آياتُ الكتاب الحكيم﴾ [يونس، الآية ١] على أن أصلَه الحكيمُ قائلُه[٨] فحذف المضافُ وجُعل الضمير مستكنًا في الحكيم بعد انقلابه مرفوعًا، ويجوز أن يكون تخييلًا كأنه قيل للعهد: لم[٩] نكثتَ وهلاّ وفِّي بك تبكيتًا للناكث كما يقال للموءودة: بأي ذنبٍ قُتلت.

﴿**وأوفوا الكيل**﴾ أي أتموه ولا تُخسِروه ﴿**إذا كلتم**﴾ [أي وقت][١٠] كيلِكم للمشترين وتقييدُ الأمر بذلك لما أن التطفيفَ هناك يكون وأما وقت الاكتيالِ على الناس فلا حاجة [إلى][١١] الأمر بالتعديل قال تعالى: ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ [المصطفين، الآية ٢] ﴿**وزنوا بالقسطاس**﴾ وهو القرسطون، وقيل: [كلُّ][١٢] ميزان صغيرًا كان أو كبيرًا، روميٌّ معرّب ولا يقدح ذلك في عربية القرآن

---

(١) في خ: واستبقاؤه.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: كالكيل.
(٤) زاد في خ: كان.
(٥) في خ: فيه.
(٦) في خ: لقوله.
(٧) سقط في خ.
(٨) في خ: قابله.
(٩) في خ: ثم.
(١٠) سقط في خ.
(١١) سقط في خ.
(١٢) سقط في خ.

لانتظام المعرَّبات في سلك الكلم العربية وقرئ[(١)] بضم القاف ﴿**المستقيم**﴾ أي العدْلِ السويّ[(٢)] ولعل الاكتفاءَ باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لما أن عند استقامتِه لا يتصور الجَوْرُ غالبًا بخلاف الكيل فإنه كثيرًا ما يقع التطفيفُ مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاءَ بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءَه لا يُتصوَّر بدون تعديل المكيالِ وقد أُمر بتقويمه أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿أوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسط﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿**ذلك**﴾ أي إيفاءُ الكيلِ والوزن بالميزان السوي ﴿**خير**﴾ في الدينا إذ هو أمانةٌ توجب الرغبةَ في معاملته والذكرَ الجميلَ بين الناس ﴿**وأحسن تأويلًا**﴾ عاقبةً، تفعيلٌ من آل إذا رجع والمرادُ ما يؤول إليه ﴿**ولا تقف**﴾ ولا تتبعْ من قفا أثرَه إذا تبِعه.

وقرئ (ولا تقُفْ)[(٣)] من قاف أثرَه أي قفاه، ومنه القافةُ في جمع القائف ﴿**ما ليس لك به علم**﴾ أي لا تكن في[(٤)] اتباع ما لا علمَ لك به من قول أو[(٥)] فعل كمن يتّبعُ مسلكًا لا يدري أنه يوصله إلى مقصِده، واحتج به من منع[(٦)] اتباعَ الظنِّ وجوابُه أن المرادَ بالعلم هو الاعتقادُ[(٧)] الراجحُ المستفادُ من سند قطعيًا كان أو ظنِّيًا واستعمالُه بهذا المعنى مما لا يُنكَر شيوعُه، وقيل: إنه مخصوصٌ بالعقائد.

وقيل: بالرمي وشهادةِ الزورِ ويؤيده قولُه عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قفا مؤمنًا بما ليس فيه حبَسه الله تعالى في رَدْغة[(٨)] الخَبال حتى يأتيَ بالمخرج**»[(٩)]. ومنه قول الكميت: [الوافر]

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والتيسير للداني (١٤٠)، والحجة لابن خالويه (٢١٧)، والحجة لأبي زرعة (٤٠٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(٢) في خ: المستوي.

(٣) قرأ بها: معاذ القارئ.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٩)، والمعاني للفراء (٢/ ١٢٣).

(٤) في خ: من.

(٥) في خ: ولا.

(٦) في خ: بعض.

(٧) في خ: الاعتبار.

(٨) في خ: درغة.

(٩) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٢٩) كتاب الأقضية، باب: فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، برقم (٣٥٩٧) من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- مرفوعًا بلفظ: من قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال».
أخرجه ابن سلام في غريب الحديث (٤/ ٤٠٧) بلفظ المصنف من قول حسان بن عطية.

ولا أرمـي الـبـريءَ بـغـيـر ذنـبٍ ولا أقـفـو الـحـواصِـنَ إن رُمـينـا[١]

﴿**إن السمع والبصر والفؤاد**﴾ وقرئ[٢] بفتح الفاءِ والواو المقلوبةِ من الهمزة عند ضم الفاء ﴿**كل أولئك**﴾ أي كلُّ واحد من تلك الأعضاءِ فأُجريت مُجرى العقلاءِ لما كانت مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على أصحابها. هذا وإن أولاء وإن غلب في العقلاء لكنه من حيث إنه اسمٌ لذا الذي يعُمّ القَبيلين جاء لغيرهم أيضًا قال: [الكامل]

ذُمَّ الـمَـنـازِلَ بـعـد مَـنـزِلَـة الـلِّـوىٰ والـعـيـشَ بـعـدَ أولـئِـكَ الأيـامِ[٣]

﴿**كان عنه مسئولًا**﴾ أي كان كلٌّ واحد من تلك الأعضاء مسؤولًا عن نفسه، على أن اسمَ كان ضميرٌ يرجِعُ إلى كلٌّ وكذا الضميرُ المجرورُ، وقد جُوّز أن يكون الاسمُ ضميرَ القافي[٤] بطريق الالتفات إذ الظاهرُ أن يقال: كنتَ عنه مسؤولًا، وقيل: الجارُّ والمجرور في محل الرفع قد أُسند إليه مسؤولًا معللًا بأن الجارَّ والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ وهو السببُ في منع تقديمِ الفاعلِ وما يقوم مقامَه.

ولكن النحاسَ حكى الإجماعَ على عدم جواز تقديمِ القائم مقامَ الفاعل إذا كان جارًا ومجرورًا، ويجوز أن يكون من باب الحذفِ علىٰ شريطة التفسيرِ، ويحذف الجارّ من المفسر ويعود الضميرُ مستكنًا كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿يومٌ مشهودٌ﴾ [هود، الآية ١٠٣] وجُوّز أن يكون مسؤولًا مسندًا إلى المصدر المدلولِ عليه بالفعل وأن يكون فاعلُه المصدرَ وهو السؤالُ وعنه في محل النصب. وسأل ابن جني أبا علي عن قولهم: فيك يُرغب[٥].

وقال: لا يرتفع بما بعده، فأين المرفوع؟ فقال: المصدرُ أي فيك يُرغب الرغبةُ بمعنى تُفعل الرغبة، كما في قولهم: فلان يُعطي ويمنع أي يفعل الإعطاء والمنع،

---

(١) ينظر البيت في: البحر المحيط (٦/ ٣٢)، والقرطبي (١٠/ ١٦٧)، وروح المعاني (١٥/ ٧٣)، والدر المصون (٤/ ٣٨٩).

(٢) قرأ بها: الجراح العقيلي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢١).

(٣) البيت لجرير في ديوانه ص (٩٩٠)، وتخليص الشواهد ص(١٢٣)، وخزانة الأدب (٥/ ٤٣٠)، وشرح التصريح (١/ ١٢٨)، وشرح شواهد الشافية ص(١٦٧)، وشرح المفصل (٩/ ١٢٩)، ولسان العرب (أولى)، والمقاصد النحوية (١/ ٤٠٨)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (١/ ١٣٤)، وشرح الأشموني (١/ ٦٣)، وشرح ابن عقيل ص (٧٢)، والمقتضب (١/ ١٨٥)، ويروى «الأقوام» مكان «الأيام».

(٤) في خ: التاني، أي الذي يقفو، من قوله «ولا تقفُ ما ليس لك به علم».

(٥) زاد في خ: الرغب.

وجُوز أن يكون اسمُ كان أو فاعله ضميرَ كلٍّ بحذف المضافِ أي كان صاحبه عنه مسؤولًا أو مسؤولًا صاحبُه.

﴿ولا تمش في الأرض﴾ التقييدُ[(١)] لزيادة التقرير[(٢)] والإشعارِ بأن المشيَ عليها مما لا يليق بالمرح ﴿مرحًا﴾ تكبرًا وبطرًا واختيالًا وهو مصدرٌ وقع موقعَ الحال أي ذا مرح أو تمرح مرحًا أو لأجل المرح، وقرئ[(٣)] بالكسر ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ تعليلٌ للنهي، وفيه تهكّم بالمختال وإيذانٌ بأن ذلك مفاخرةٌ مع الأرض وتكبرٌ عليها أي لن تخرِقَ الأرض بدَوْسك وشدة وطأتك، وقرئ بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال﴾ التي هي بعضُ أجزاء الأرض ﴿طولًا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها إذ التكبرُ إنما يكون بكثرة القوة وعِظَم الجثة وكلاهما مفقودٌ، وفيه تعريضٌ بما عليه المختالُ من رفع رأسه ومشيِه على صدور قدميه ﴿كل ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما علم في تضاعيف ذكر الأوامرِ والنواهي من الخِصال الخمس والعشرين ﴿كان سيّئه﴾ الذي نُهي عنه [وهي اثنتا][(٤)] عشرة خَصلة ﴿عند ربك مكروهًا﴾ مبغَضًا غيرَ مَرْضيّ أو غيرَ مراد بالإرادة الأولية[(٥)] لا غيرَ مرادٍ مطلقًا لقيام الأدلةِ القاطعة على أن جميع الأشياء واقعةٌ بإرادته سبحانه وهو تتمةٌ لتعليل الأمور المنهيّ عنها جميعًا، ووصفُ ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعضَ من الكبائر للإيذان بأن مجردَ الكراهة عنده تعالى كافيةٌ في وجوب الانتهاءِ عن ذلك، وتوجيهُ الإشارةِ إلى الكل ثم تعيينُ البعض دون[(٦)] توجيهها إليه ابتداءً لما أن البعض المذكورَ ليس بمذكور جملةً بل على وجه الاختلاطِ، وفيه إشعارٌ بكون ما عداه مرضيًا عنده تعالى وإنما لم يصرح بذلك إيذانًا بالغنى عنه، وقيل: الإضافةُ بيانيةٌ كما في آية الليل وآية النهار، وقرئ[(٧)] سيئةً على أنه خبرُ كان وذلك إشارةٌ إلى ما نُهي[(٨)] عنه من الأمور المذكورة ومكروهًا بدلٌ من سيئه أو صفةٌ لها محمولةٌ على المعنى فإنه بمعنى سيئًا، وقد قرئ[(٩)] به أو مُجرى على موصوف مذكر أي أمرًا

---

(١) في خ: التقرير. (٢) في خ: التعزير.

(٣) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٧)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٩)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٨٩)، وتفسير الرازي (٢٠/ ٢١١).

(٤) في خ: وهو اثنا. (٥) في خ: الأزلية.

(٦) زاد في خ: أن.

(٧) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والتيسير للداني (١٤٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(٨) في خ: سأل. (٩) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٩).

مكروهًا أو مُجرى مَجرى الأسماءِ زال عنه معنى الوصفية، ويجوز كونه حالًا من المستكنّ في كان [أو][(١)] في الظرف على أنه صفةُ سيئه، وقرئ[(٢)] سيئاته، وقرئ[(٣)] شأنُه.

﴿ذلك﴾ أي الذي تقدم من التكاليف المفصلة ﴿مما أوحى إليك ربك﴾ أي بعضٌ منه أو من جنسه ﴿من الحكمة﴾ التي هي علمُ الشرائعِ أو معرفةُ الحق لذاته والعملُ به، أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخُ والفساد. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآياتِ الثمانيَ عشرةَ كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها: ﴿لا تجعلْ مع الله إلَٰهًا آخرَ﴾ قال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظةً﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهي عشرُ آيات في التوراة. ومِنْ إما متعلقةٌ بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائيةٌ، وإما بمحذوف وقع حالًا من الموصول أو من ضميره المحذوفِ في الصلة أي كائنًا من الحِكمة، وإما بدلٌ من الموصول بإعادة الجار.

﴿ولا تجعل مع الله إلَٰهًا آخر﴾ الخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيرُه ممن يتصور منه صدورُ المنهيِّ عنه، وقد كُرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأُ الأمرِ ومنتهاه وأنه رأسُ كل حكمةٍ وملاكُها، ومن عدمه [لم تنفعْه][(٤)] علومُه وحكمته وإن بذّ[(٥)] فيها أساطين الحكماء وحكّ بيافوخه عنان السماء، وقد رتب عليه ما هو عائدُ[(٦)] الإشراك أولًا حيث قيل: فتقعدَ مذمومًا مخذولًا ورُتّب عليه هاهنا نتيجتُه في العقبى فقيل: ﴿فتلقى في جهنم ملومًا﴾ من جهة نفسِك ومن جهة غيرك ﴿مدحورًا﴾ مبعَدًا من رحمة الله تعالى، وفي إيراد الإلقاءِ مبنيًا للمعفول جرْيٌ على سنن الكبرياء وازدراءٌ بالمشرك وجعلٌ له من قبيل خشبةٍ[(٧)] يأخذها آخذٌ بكفه فيطرحها في التنور.

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) سقط في خ.
(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأُبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٨)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٧٨)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٦٢).
(٣) قرأ بها: أبو بكر الصديق.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٠).
(٤) في خ: لا ينفعه.
(٥) في خ: نذ.
(٦) في خ: غاية.
(٧) في خ: خشيته.

فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابًا مَّسۡتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾

﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثًا﴾ خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه، والإصفاءُ بالشيء جعلُه خالصًا، والهمزةُ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يفسرّه المذكورُ، أي أفضّلكم على جنابه فخصّكم بأفضل الأولاد على وجه الخُلوص وآثرَ لذاته أخسَّها وأدناها كما في قوله سبحانه: ﴿ألكم الذكرُ وله الأنثى﴾ [النجم، الآية ٢١] وقوله تعالى: ﴿أم له البناتُ ولكم البنون﴾ [الطور، الآية ٣٩] وقد قصد هاهنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديدُ النكير[١] وتأكيدُه وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام، وإيرادِ الإناث مكانَ البنات إلى كفْرة لهم أخرى وهي وصفُهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخسُّ صفات الحيوان كقوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمن إناثًا﴾ [الزخرف، الآية ١٩] **﴿إنكم لتقولون﴾** بمقتضى مذهبِكم الباطلِ الذي هو إضافةُ الولدِ إليه سبحانه **﴿قولًا عظيمًا﴾** لا يقادَر قدرُه في استتباعِ الإثم وخَرْقِه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحدٌ، حيث يجعلونه تعالى من قبيلِ الأجسامِ المتجانسةِ السريعةِ الزوال وليس كمثله شيءٌ وهو الواحدُ القهارُ الباقي بذاته، ثم تضيفون إليه ما تكرهون من أخس الأولادِ وتفضِّلون

(١) في خ: التنكير.

عليه أنفسَكم بالبنين ثم تصِفون الملائكةَ الذين هم من أشرف الخلائقِ بالأنوثة التي هي أخسُّ أوصاف الحيوانِ، فيا لها من ضَلّة ما أقبحَها وكَفْرةٍ ما أشنعها وأفظعها.

﴿ولقد صرفنا﴾ هذا المعنى وكررناه ﴿في هذا القرآن﴾ على وجوه من التصريف في مواضعَ منه، وإنما ترك الضميرُ تعويلًا على الظهور، وقرئ[١] بالتخفيف ﴿ليذكروا﴾ ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحالِ أن يُعرَض عنهم ويُحكىٰ للسامعين هَناتُهم[٢]. وقرئ[٣] بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر، ويجوز أن يراد بهذا القرآنِ ما نطق ببُطلان مقالتِهم المذكورةِ من الآيات الكريمةِ الواردةِ على أساليب مختلفةٍ، ومعنى التصريفِ فيه جعلُه مكانًا له أي أوقعنا فيه التصريفَ كقوله: [الطويل]

.... يجرح[٤] في عراقيبها نَصْلي[٥]

وقد جُوّز أن يراد به إبطالُ إضافتهم إليه تعالى البناتِ، وأنت تعلم أن إبطالَها من آثار القرآن ونتائجها ﴿وما يزيدهم﴾ أي والحال أنه ما يزيدهم ذلك التصريفُ البالغ ﴿إلا نفورًا﴾ عن الحق وإعراضًا عنه فضلًا عن التذكر المؤدِّي إلى معرفة بُطلانِ ما هم عليه من القبائح.

﴿قل﴾ في إظهار بطلانِ ذلك من جهة أخرى ﴿لو كان معه﴾ تعالى ﴿آلهة كما يقولون﴾ أي المشركون قاطبةً، وقرئ[٦] بالتاء خطابًا لهم من قِبَل النبي عليه الصلاة

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢١).

(٢) في خ: صفاتهم.

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن وثاب، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٣)، والتيسير للداني (١٤٠)، والحجة لابن خالويه (٢١٨)، والحجة لأبي زرعة (٤٠٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨١)، والغيث للصفاقسي (٢٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(٤) في خ: تخرج.

(٥) جزء من عجز بيت لذي الرمة وتمامه:
وإن تَعتذِرْ بالمَحْلِ من ذي ضروعها إلى الضيف ....
والبيت في ديوانه ص (١٥٦)، وأساس البلاغة، ص (٢٩٦) (عذر)، وخزانة الأدب (٢/ ١٢٨)، وشرح المفصل (٢/ ٣٩)، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب (١/ ٢٥١)، ومغني اللبيب (٢/ ٥٢١).

(٦) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٤)، والتيسير للداني (١٤٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨١)، والغيث =

والسلام، والكافُ في محل النصب على أنها نعتٌ لمصدر محذوف أي كونها مشابهًا لما يقولون، والمرادُ[١] بالمشابهة الموافقةُ والمطابقة ﴿إذًا لابتغوا﴾ جوابٌ عن مقالتهم الشنعاءِ وجزاءٌ لـ «لَوْ» أي لطلبوا ﴿إلى ذي العرش﴾ أي إلى من له المُلك والربوبيةُ على الإطلاق ﴿سبيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة كما هو دَيدنُ الملوكِ بعضِهم مع بعض، على طريقة قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء، الآية ٢٢] وقيل: بالتقرب إليه تعالى كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدْعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ﴾ [الإسراء، الآية ٥٧] والأولُ هو الأظهرُ الأنسبُ لقوله: ﴿سبحانه﴾ فإنه صريحٌ في أن المراد بيانُ أنه يلزم مما يقولونه محذورٌ عظيم من حيث لا يحتسبون، وأما ابتغاءُ السبيل إليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمرٌ يعتقدونه رأسًا، أي تنزّه بذاته تنزّهًا حقيقًا به ﴿وتعالى﴾ متباعدًا ﴿عما يقولون﴾ من العظيمة التي هي أن يكون معه آلهةٌ وأن يكون له بناتٌ ﴿علوًا﴾ تعاليًا كقوله تعالى: ﴿والله أنبتَكم من الأرض نباتًا﴾ [نوح، الآية ١٧] ﴿كبيرًا﴾ لا غايةَ وراءه، كيف لا وإنه سبحانه في أقصى غاياتِ الوجود وهو الوجوبُ الذاتيُّ، وما يقولونه من أن له تعالى شركاءَ وأولادًا في أبعد مراتبِ العدمِ أعني الامتناعَ، [لا][٢] لأنه تعالى في أعلى مراتب الوجودِ[٣] لذاته واتخاذُ الولد [من أدنى مراتبِه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤُه كما قيل، فإن ما يقولونه ليس مجردَ اتخاذِ الولد][٤] بل اتخاذِه تعالى له وأن يكون معه آلهةٌ، ولا ريب في أن ذلك ليس بداخل في حد الإمكان فضلًا عن دخولِه تحت الوجود، وكونُه من أدنى مراتب الوجودِ إنما هو بالنسبة إلى من شأنه ذلك.

﴿تسبح﴾ بالفَوقانية، وقرئ[٥] بالتَّحتانية، وقرئ[٦] سبّحت ﴿له السموات السبع

= للصفاقسي (٢٧٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(١) في خ: فالمراد.

(٢) سقط في خ.

(٣) زاد في خ: وهو كونه واجب الوجود.

(٤) سقط في خ.

(٥) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ورويس، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨١)، والغيث للصفاقسي (٢٨٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٨)، والمعاني للفراء (٢/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(٦) قرأ بها: المطوعي، وعبد الله، والأعمش، وطلحة بن مصرف، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤١)، والحجة لأبي زرعة (٤٠٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٨).

والأرض ومن فيهن﴾ من الملائكة والثقلين، على أن المرادَ بالتسبيح معنًى منتظمٌ لما ينطِق به [لسانُ المقال][١] ولسانُ الحال بطريق عمومِ المجاز[٢] **﴿وإن من شيء﴾** من الأشياء حيوانًا كان أو نباتًا أو جمادًا **﴿إلا يسبح﴾** ملتبسًا **﴿بحمده﴾** أي ينزِّهه تعالى بلسان الحالِ عما لا يليق بذاته الأقدسِ من لوازم الإمكانِ ولواحقِ الحدوثِ، إذ ما من موجود إلا وهو بإمكانه وحدوثِه يدل دَلالةً واضحة على أن له صانعًا عليمًا قادرًا حكيمًا واجبًا لذاته قطعًا للسَّلْسلة **﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾** أيها المشركون لإخلالكم[٣] بالنظر الصحيحِ الذي به يفهم ذلك، وقرئ لا يُفَقَّهون على صيغة المبني للمفعول من باب التفعيل **﴿إنه كان حليمًا﴾** ولذلك لم يعاجلْكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجباتها من الإعراض عن التدبر في الدلائل الواضحةِ الدالةِ على التوحيد، والانهماك في الكفر والإشراكِ **﴿غفورًا﴾** لمن تاب منكم.

﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الناطقَ بالتسبيح والتنزيهِ ودعوتَهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ورفضِ الشرك وغيرِ ذلك من الشرائع **﴿جعلنا﴾** بقدرتنا ومشيئتنا المبنيةِ على دواعي الحِكَم الخفية **﴿بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** أُوثر الموصولُ على الضمير ذمًّا لهم بما في حيز الصلة، وإنما خُصَّ بالذكر كفرُهم بالآخرة من بين سائرِ ما كفروا به من التوحيد ونحوِه دَلالةً على أنها مُعظمُ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيدًا لما سينقل عنهم من إنكار البعثِ[٤] واستعجالِه ونحو ذلك **﴿حجابًا﴾** يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرَك الجليلَ، ولذلك اجترأوا على تفوّه العظيمة التي هي قولُهم: ﴿إن تتّبعون إلا رجلًا مسحورًا﴾ [الإسراء، الآية ٤٧] وحَمْلُ الحجاب على ما روي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما، من أنه لما نزلت سورةُ (تبّت) أقبلت العوراءُ أمُّ جميل امرأةُ أبي لهبٍ وفي يدها فِهْرٌ[٥] والنبيُّ عليه الصلاة والسلام قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها قال: يا رسول الله، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك، قال عليه الصلاة والسلام: «**إنها لن تراني**» وقرأ قرآنًا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تَرَ رسولَ الله ﷺ[٦]، مما لا

---

(١) في خ: اللسان.
(٢) في خ: الإنجاز.
(٣) في خ: لأخلاق لكم.
(٤) في خ: البعثة.
(٥) الفهر: الحجر. وحجر ناعم صلب يسحق به الصيدلي الأدوية.
(٦) أخرجه الحميدي (١/ ١٥٣) برقم (٣٢٣)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٧٢) برقم (١٩٥٢٢)، والحاكم (٢/ ٣٩٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٩٥)، والأصبهاني في الدلائل (١/ ٧١)، من حديث أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما.

يقبله الذوقُ السليم ولا يساعده النظمُ الكريم ﴿**مستورًا**﴾ ذا سَتْرٍ كما في قولهم: سيلٌ مفعَمٌ، أو مستورًا عن الحس بمعنى غيرَ حسيٍّ أو مستورًا في نفسه بحجاب آخرَ أو مستورًا كونُه حجابًا حيث لا يدرون أنهم لا يدرون.

﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة**﴾ أغطيةً كثيرة جمع كِنان ﴿**أن يفقهوه**﴾ مفعولٌ لأجله أي كراهةَ أن يفقهوه، أو مفعولٌ لما دل عليه الكلامُ أي منعناهم أن يقِفوا على كُنهه ويعرِفوا أنه من عند الله تعالى ﴿**وفي آذانهم وقرًا**﴾ صمَمًا وثِقلًا مانعًا من سماعه اللائِق به، وهذه تمثيلاتٌ مُعرِبةٌ عن كمال جهلِهم بشؤون النبيِّ عليه الصلاة والسلام وفرطِ نُبوِّ قلوبهم عن فهم القرآنِ الكريم ومجّ أسماعِهم له، جيء بها بيانًا لعدم فقهِهم لتسبيح لسانِ المقالِ إثرَ بيانِ عدمِ فقههم لتسبيح لسانِ الحال، وإيذانًا بأن هذا التسبيحَ من الظهور بحيث لا يُتصَوَّرُ عدمُ فهمِه إلا لمانع قويٍّ يعتري المشاعرَ فيُبطلها، وتنبيهًا على أن حالَهم هذا أقبحُ من حالهم السابق لا حكايةٌ لما قالوا: ﴿قلوبُنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ﴾ [فصلت، الآية ٥] كيف لا وقصدُهم بذلك إنما هو الإخبارُ بما اعتقدوه في حق القرآنِ والنبيِّ عليه الصلاة والسلام جهلًا وكفرًا من اتصافهما بأوصاف مانعةٍ من التصديق والإيمانِ، ككون القرآنِ سحرًا وشِعرًا وأساطيرَ وقِسْ عليه حالَ النبي عليه الصلاة والسلام، لا الإخبارُ بأن هناك أمرًا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائلٌ من قِبلهم. ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام. ﴿**وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده**﴾ واحدًا غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم، وهو مصدرٌ وقع موقعَ الحال، أصلُه يحد وحدَه ﴿**ولوا على أدبارهم**﴾ أيْ هربوا ونفروا ﴿**نفورًا**﴾ أو ولَّوا نافرين.

إفحام الكفار

﴿**نحن أعلم بما يستمعون به**﴾ متلبسين به من اللغو والاستخفافِ والهُزْء بك وبالقرآن، يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بني عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفّقون ويصفِرون ويخلِطون عليه بالأشعار[١] ﴿**إذ يستمعون إليك**﴾ ظرفٌ لأعلمُ وفائدتُه تأكيدُ الوعيدِ بالإخبار بأنه كما يقع الاستماعُ المزبورُ منهم يتعلق به العلم، لا أن العلمَ يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى: ﴿**وإذ هم نجوى**﴾ لكن لا من حيث تعلّقُه بما به الاستماعُ بل بما به التناجي المدلولُ عليه بسياق النظمِ، والمعنى نحن أعلمُ بالذي يستمعون ملتبسين به مما لا خيرَ فيه من

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٦٢٧)

الأمور المذكورةِ وبالذي يتناجَوْن به فيما بينهم، أو الأولُ ظرفٌ ليستمعون والثاني لـ (يتناجَون) والمعنى نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقت استماعِهم من غير تأخيرٍ وبما به التناجي وقت تناجيهم، ونجوى مرفوعٌ على الخبرية بتقدير المضافِ أي ذوو نجوى، أو هو جمعُ نَجيّ كقتلى جمع قتيل أي متناجُون ﴿**إذ يقول الظالمون**﴾ بدل من إذ هم، وفيه دليلٌ على أن ما يتناجَون به غيرُ ما يستمعون به وإنما وُضع الظالمون موضعَ المُضمر إشعارًا بأنهم في ذلك ظالمون مجاوزون للحدّ، أي يقول كلٌّ منهم للآخرين عند تناجيهم: ﴿**إن تتبعون**﴾ ما تتبعون إنْ وُجد منكم الاتباعُ فرضًا أو ما تتبعون باللغو والهزء ﴿**إلا رجلًا مسحورًا**﴾ أي سُحِر فجُنّ أو رجلًا ذا سَحْر أي رئةٍ يتنفس، أي بشرًا مثلَكم.

﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال**﴾ أي مثّلوك بالشاعر والساحر والمجنونِ ﴿**فضلوا**﴾ في جميع ذلك على منهاج المُحاجّة ﴿**فلا يستطيعون سبيلًا**﴾ إلى طعن يمكن أن يقبله أحدٌ فيتهافتون ويخبِطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد، أو إلى سبيل الحقِّ والرشاد، وفيه من الوعيد وتسليةِ الرسول ﷺ ما لا يخفى. ﴿**وقالوا أئذا كنا عظامًا ورفاتًا**﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ لكمال الاستبعادِ والاستنكارِ للبعث بعد ما آل الحالُ إلى هذا المآل لِما بين غضاضةِ الحيِّ ويُبوسة الرميم من التنافي، كأن استحالةَ الأمر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطبُ على التكلم به، والرفاتُ ما بولغ في دقِّه وتفتيته، وقال الفرَّاء: هو التراب، وهو قولُ مجاهدٍ، وقيل: هو الحُطامُ وإذا متمحّضةٌ للظرفية وهو الأظهرُ والعاملُ فيها ما دل عليه قوله تعالى: ﴿**أئنا لمبعوثون**﴾ لا نفسُه، لأن ما بعد إن والهمزةِ واللام لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجعُ للإنكار وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فإنهم منكرِون للإحياء بعد الموت وإن كان البدنُ على حاله، بل لتقوية الإنكارِ للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافيةٍ له، وتكريرُ الهمزة في قولهم: ﴿أئنا﴾ لتأكيد النكيرِ، وتحليةُ الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكارِ لا لإنكار التأكيد كما عسى يُتوَّهم من ظاهر النظمِ، فإن تقديمَ الهمزةَ لاقتضائها الصدارةَ كما في مثل قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ [البقرة، الآية ٧٦] ونظائرِه على رأي الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور، وليس مدارُ إنكارِهم كونَهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونِهم عظامًا ورفاتًا كما يتراءى من ظاهر الجملةِ الاسمية بل كونِهم بعَرَضية ذلك واستعدادِهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعثِ بعد تلك الحالةِ وفيه من الدِلالة على غلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه ﴿**خلقًا جديدًا**﴾ نصْبٌ على المصدر من غير لفظه، أو الحاليةِ على أن الخلق بمعنى المخلوق.

﴿قل﴾ جوابًا لهم وتقريبًا لما استبعدوه ﴿كونوا حجارة أو حديدًا **أو خلقًا**﴾ آخرَ ﴿مما يكبر في صدوركم﴾ أي يعظُم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينةِ والمنافاةِ بينها وبينه، فإنكم مبعوثون ومُعادون لا محالة ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ مع ما بيننا وبين الإعادةِ من مثل هذه المباعدةِ والمباينة ﴿قل﴾ لهم تحقيقًا للحق وإزاحةً للاستبعاد وإرشادًا لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الذي﴾ أي يعيدكم القادرُ العظيم الذي ﴿فطركم﴾ اخترعكم ﴿أول مرة﴾ من غير مثالٍ يحتذيه ولا أسلوبٍ ينتحيه وكنتم ترابًا ما شمّ رائحةَ الحياة، أليس الذي يقدِر على ذلك بقادر على أن يعيدَ العظامَ الباليةَ إلى حالتها المعهودة؟ بلى إنه على كل شيء قدير ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾ أي سيحركونها نحوَك تعجبًا وإنكارًا ﴿ويقولون﴾ استهزاءً ﴿متى هو﴾ أي ما ذكرتَه من الإعادة ﴿قل﴾ لهم ﴿عسى أن يكون﴾ ذلك ﴿قريبًا﴾ نُصب على أنه خبرٌ ليكون أو ظرفٌ على أن كان تامةٌ أي أن يقعَ في زمان قريب، ومحلُّ أن مع ما في حيزها إما نصبٌ على أنه خبرٌ لعسى وهي ناقصة واسمُها ضميرٌ عائد إلى ما عاد إليه هو أي عسى كونُه قريبًا، أو وقوعُه في زمان قريب ﴿يوم يدعوكم﴾ منصوب بفعل مضمر أي اذكروا، أو على أنه بدلٌ من قريبًا على أنه ظرفٌ أو نُصب بـ (يكونَ) تامةً بالاتفاق، أو ناقصةً عند من يجوّز إعمالَ الناقصة في الظروف، أو بضمير المصدرِ المستكنِّ في عسى أو يكون، أعني البعث عند من يجوز إعمالَ ضمير المصدر كما في قول زهير: [الطويل]

وما الحربُ إلا ما علمتمْ وذُقتمُ وما هو عنها بالحديث المُرجّمِ[(١)]

فهو ضميرُ المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار ﴿فتستجيبون﴾ أي يوم يبعثكم فتُبعثون، وقد استُعير لهما الدعاءُ والإجابة إيذانًا بكمال سهولةِ التأتّي وبأن المقصودَ منهما الإحضارُ للمحاسبة والجواب ﴿بحمده﴾ حال من ضمير تستجيبون أي منقادين له حامدين لما فَعل بكم غيرَ مستعصين، أو حامدين له تعالى على كمال قدرتِه عند مشاهدة آثارها ومعاينةِ أحكامها ﴿وتظنون﴾ عطف على تستجيبون أي تظنون عندما ترَوْن من الأمور الهائلة ﴿إن لبثتم﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿إلا قليلًا﴾ كالذي مر على قرية أو ما لبثتم في الدنيا.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص (١٨)، وخزانة الأدب (٣/ ١٠)، والدرر (٥/ ٢٤٤)، وشرح شواهد المغني (١/ ٣٨٤)، ولسان العرب (رجم)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (١٠/ ٤٧٣)، (٨/ ١١٩)، وشرح قطر الندى ص (٢٦٢)، وهمع الهوامع (٢/ ٩٢).

﴿وقل لعبادي﴾ أي المؤمنين ﴿يقولوا﴾ عند محاورتِهم مع المشركين ﴿التي﴾ أي الكلمةَ التي ﴿هي أحسن﴾ ولا يخاشنوهم كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ﴾ [العنكبوت، الآية ٤٦] ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ أي يُفسد ويَهيج الشر والمِراء ويُغري بعضَهم على بعض لتقع بينهم المشاقّةُ والمشارّة والمُعازة والمضارّة، فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العِناد وتمادي الفساد، فهو تعليلٌ للأمر السابق وقرئ[1] بكسر الزاي ﴿إن الشيطان كان﴾ [قدمًا][2] ﴿للإنسان عدوًا مبينًا﴾ ظاهرَ العداوة، وهو تعليلٌ لما سبق من أن الشيطان ينزَغ بينهم. ﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أو إن يشأ يعذبكم﴾ بالإماتة على الكفر، وهذا تفسيرُ التي هي أحسنُ وما بينهما اعتراضٌ، أي قولوا لهم هذه الكلمةَ وما يشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه مما يَهيجهم على الشر، مع أن العاقبَة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلًا﴾ موكولًا إليك أمورُهم تقسِرهم على الإيمان وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا فدارِهم ومُرْ أصحابَك بالمداراة والاحتمال وترك المُحاقّة والمشاقّة وذلك قبل نزول آيةِ السيف، وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه رجلٌ فأُمر بالعفو، وقيل: أفرط أذيةُ المشركين بالمؤمنين فشكَوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسنُ أن يقولوا: يهديكم الله ويرحمكم الله.

﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ وبتفاصيلِ أحوالِهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاءَ والاجتباءَ فيختار منهم لنبوته وولايتِه من يشاء ممن يشاء ممن يستحقه، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكون يتيمُ أبي طالبٍ نبيًا وأن يكون العُراةُ الجَوعىٰ أصحابَه دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديدِ، وذكرُ من في السموات لإبطال قولِهم: لولا أُنزل علينا الملائكةُ، وذكرُ مَن في الأرض لرد قولِهم: ﴿لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف، الآية ٣١] ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ بالفضائل النفسانيةِ والتنّزهِ عن العلائق الجُسمانية لا بكثرة الأموالِ والأتباع ﴿وآتينا داود زبورًا﴾ بيانٌ لحيثية تفضيلِه عليه الصلاة والسلام فإن ذلك إيتاءُ الزبور لا إيتاءُ الملك والسلطنةِ، وفيه إيذانٌ بتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام فإن نعوتَه الجليلةَ وكونَه خاتمَ النبيين مسطورةٌ في الزبور، وأن المرادَ بعباد

---

(١) قرأ بها: طلحة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٣).
(٢) سقط في خ.

الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أن الأرضَ يرثها عباديَ الصالحون﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٥] هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأمته، وتعريفُ الزبور تارة وتنكيرُه أخرى إما لأنه في الأصل فَعولٌ بمعنى المفعول كالحَلوب أو مصدر بمعناه كالقول، وإما لأن المرادَ آتينا داودَ زبورًا من الزُّبُر، أو بعضًا من الزبور فيه ذكرُه عليه الصلاة والسلام، وقرئ[1] بضم الزاي على أنه جمع زِبْر بمعنى مزبور.

﴿**قل ادعوا الذين زعمتم**﴾ أنها آلهةٌ ﴿**من دونه**﴾ تعالى من الملائكة والمسيحِ وعُزيرٍ ﴿**فلا يملكون**﴾ فلا يستطيعون ﴿**كشف الضر عنكم**﴾ بالمرة كالمرض والفقر والقَحطِ ونحو ذلك ﴿**ولا تحويلًا**﴾ أي ولا تحويلَه إلى غيركم ﴿**أولئك الذين يدعون**﴾ أي أولئك الآلهةُ الذين يدعوهم المشركون من المذكورين ﴿**يبتغون**﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿**إلى ربهم**﴾ ومالكِ أمورِهم ﴿**الوسيلة**﴾ القربةَ بالطاعة والعبادة ﴿**أيهم أقرب**﴾ بدلٌ من فاعل (يبتغون) وأيُّ موصولةٌ، أي يبتغي مَنْ هو أقرب إليه تعالى الوسيلةَ فكيف بمن دونه؟ أو ضُمّن الابتغاءُ معنى الحِرص فكأنه قيل: يحرِصون أيُّهم أقربَ إليه تعالى بالطاعة والعبادة ﴿**ويرجون رحمته**﴾ بها ﴿**ويخافون عذابه**﴾ بتركها كدأب سائرِ العباد فأين هم من كشف الضرِّ فضلًا عن الإلٰهية ﴿**إن عذاب ربك كان محذورًا**﴾ حقيقًا بأن يحذرَه كلُّ أحدٍ حتى الملائكةُ والرسلُ عليهم الصلاة والسلام، وهو تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿**ويخافون عذابه**﴾ وتخصيصُه بالتعليل لما أن المقامَ مقامُ التحذيرِ من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بَونًا بعيدًا.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا

---

(١) قرأ بها: حمزة، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٤)، والتيسير للداني (٩٨)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٤)، والكشف للقيسي (١/ ٤٠٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٣).

يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

﴿**وإن من قرية**﴾ بيانٌ لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره إثرَ بيانِ أنه حقيقٌ بالحذر وأن أساطينَ الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك، وكلمةُ إنْ نافيةٌ ومِنْ استغراقيةٌ، والمرادُ بالقرية القريةُ الكافرةُ أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿**إلا نحن مهلكوها**﴾ أي مُخْرِبوها ألبتةَ بالخسف بها أو بإهلاك أهلِها بالمرة لما ارتكبوا من عظائمِ المُوبقات المستوجبةِ لذلك، وفي صيغة الفاعلِ وإن كانت بمعنى المستقبَل ما ليس فيه من الدِلالة على التحقيق والتقرّرِ وإنما قيل: ﴿**قبل يوم القيامة**﴾ لأن الإهلاكَ يومئذ غيرُ مختصٍّ بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبةِ وإنما هو لانقضاء عمرِ الدنيا ﴿**أو معذبوها**﴾ أي معذبو أهلِها على الإسنادِ المجازيِّ ﴿**عذابًا شديدًا**﴾ لا بالقتل والسبْي ونحوِهما من البلايا الدنيويةِ فقط، بل بما لا يُكتنه كُنهُه من فنون العقوبات الأخرويةِ أيضًا حسبما يُفصح عنه إطلاقُ التعذيبِ عما قُيد به الإهلاكُ من قَبْلية يومِ القيامة، كيف لا وكثيرٌ من القرى العاتية العاصيةِ قد أُخّرت عقوبتُها إلى يوم القيامة ﴿**كان ذلك**﴾ الذي ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿**في الكتاب**﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿**مسطورًا**﴾ مكتوبًا لم يغادَرْ منه شيءٌ إلا بُيِّن فيه بكيفياته وأسبابِه الموجبةِ له ووقتِه المضروبِ له. هذا وقد قيل: الهلاكُ للقُرى الصالحة والعذابُ للطالحة، وعن مقاتل: «وجدتُ في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها أما مكةُ فُيْخرِبها[1] الحبشةُ وتهلِك المدينةُ بالجوع والبصرةُ بالغرق والكوفةُ بالتُّرك والجبالُ بالصواعق والرواجف، وأما خراسانُ فهلاكُها ضُروبٌ ثم ذكرها بلدًا بلدًا، وقال الحافظ أبو عمْرو الداني[2] في كتاب الفتن: أنه رُوي عن وهْب بن منبّه أن الجزيرةَ

---

(١) في خ: فتخربها.

(٢) في ط: الدواني.

آمنةٌ من الخراب حتى تخرَبَ أرمينيةُ، وأرمينيةُ آمنةٌ حتى تخرَب مصرُ، ومصرُ آمنةٌ حتى تخرَبَ الكوفةُ ولا تكون الملحمةُ الكبرى حتى تخرَب الكوفةُ، فإذا كانت الملحمةُ الكبرى فُتحت قُسطنطينيةُ على يَديْ رجلٍ من بني هاشم، وخرابُ الأندلس من قِبَل الزَّنْج، وخرابُ إفريقيةَ من قِبَل الأندلس، وخرابُ مصرَ من انقطاع النيلِ واختلافِ الجيوش فيها، وخرابُ العراقِ من الجوع، وخرابُ الكوفة من قِبل عدوٍّ من ورائهم يحصُرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرةً، وخرابُ البصرة من قِبل الغرق، وخرابُ الأَيْلة من قبل عدوٍّ يحصُرهم برًّا وبحرًا، وخرابُ الرّيّ من الديلم، وخرابُ خراسانَ من قبل التّبْت، وخرابُ التبت من قبل الصّين، وخرابُ الهندِ واليمن من قبل الجرَاد والسلطان، وخرابُ مكةَ من الحبشة، وخرابُ المدينة من الجوع»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**آخرُ قريةٍ من قرى الإسلام خرابًا المدينةُ**»[2] وقد أخرجه العمري من هذا الوجه. وأنت خبيرٌ بأن تعميمَ القريةِ لا يساعده السباقُ ولا السياق.

انقضاء عصر الخوارق

﴿**وما منعنا أن نرسل بالآياتِ**﴾ أي الآياتِ التي اقترحتها قريشٌ من إحياء الموتى وقلبِ الصَّفا ذهبًا ونحوِ ذلك ﴿**إلا أن كذب بها الأولون**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأشياء أي وما منعنا من إرسالها شيءٌ من الأشياء إلا تكذيبُ الأولين بها حين جاءتهم باقتراحهم، وعدمُ إرساله تعالى بها وإن كان بمشيئته المبنيةِ على الحِكَم البالغةِ لا لمنع مانعٍ عن ذلك من التكذيب أو غيرِه لاستحالة العجزِ عليه تعالى، لكنّ تكذيبَهم المذكورَ بواسطة استتباعِه لاستئصالِهم بحُكم السنة الإلٰهية واستلزامِه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراكِ في العتوّ والعناد وإفضائِه إلى أن يحِل بهم مثلُ ما حل بهم بحكم الشِرْكة في الجريرة، لمّا كان منافيًا لإرسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيبِ المستدعي للاستئصال المخالفِ لما جرى به قلمُ القضاءِ من تأخير عقوباتِ هذه الأمةِ إلى الآخرة لحِكَم باهرة من جملتها ما يُتوَّهم من إيمان بعض أعقابِهم، عَبّر عن تلك المنافاةِ بالمنع على نهج الاستعارةِ إيذانًا بتعاضد مبادي الإرسالِ لا كما زعَموا من عدم إرادتِه تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات، وهو السرُّ في

---

(١) ينظر: السنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني (٤/ ٨٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٢٠) كتاب المناقب، باب: فضل المدينة، برقم (٣٩١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

إيثار الإرسالِ على الإيتاء لما فيه من الإشعار بتداعي الآياتِ إلى النزول لولا أن تُمسكها يدُ التقدير، وإسناد هذا المنعِ إلى تكذيب الأولين لا إلى عمله تعالى بما سيكون من الآخرين كما في قوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم مُعرضون﴾ [الأنفال: ٢٣] لإقامة الحجةِ عليهم بإبراز الأُنموذج وللإيذان بأن مدارَ عدم الإجابةِ إلى إيتاء مقترحِهم ليس إلا صنيعَهم **﴿وآتينا ثمود الناقة﴾** عطفٌ على ما يُفصح عنه النظمُ الكريمُ كأنه قيل: وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرةِ فكذبوها، وآتينا باقتراحهم ثمودَ الناقةَ **﴿مبصرة﴾** على صيغة الفاعل، أي بَيّنةً ذاتَ إبصارٍ، أو بصائرَ يدركها الناسُ أو أُسند إليها حالُ من يشاهدها مجازًا، أو جاعلتَهم ذوي بصائرَ من أبصره جعله بصيرًا، وقرئ[1] على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد[2] وهي نصبٌ على الحالية، وقرئ[3] بالرفع على أنها خبرُ مبتدأ محذوف.

﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ظالمين أي لم يكتفوا بمجرد الكفرِ بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقْر، أو ظلموا أنفسَهم وعرّضوها للهلاك بسبب عقرِها، ولعل تخصيصَها بالذكر لما أن ثمودَ عربٌ مثلُهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه من حيث يشاهدون آثارَ هلاكِهم ورودًا[4] وصُدورًا، أو لأنها من جهة أنها حيوانٌ أُخرج من الحجر أوضحُ دليلٍ على تحقق مضمونِ قوله تعالى: ﴿قل كونوا حجارةً أو حديدًا﴾ [الإسراء: ٥٠] **﴿وما نرسل بالآيات﴾** المقترَحة **﴿إلا تخويفًا﴾** لمن أُرسلت هي عليهم مما يعقُبها من العذاب المستأصِل كالطليعة له، وحيث لم يخافوا ذلك فُعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الإعراب، ويجوز أن تكون حالًا من ضمير ظلموا أي فظلموا بها ولم يخافوا عاقبتَه والحالُ أنا ما نُرسل بالآيات التي هي من جملتها إلا تخويفًا من العذاب الذي يعقُبها فنزل بهم ما نزل.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ أي علمًا كما نقله الإمامُ الثعلبيُّ عن ابن

---

(١) ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٤٨)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣).

(٢) قرأ بها: قتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٤٨)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٢٦).

(٣) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥٣).

(٤) في خ: وردوا.

عباس رضي الله عنهما فلا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم الماضيةِ والمستقبلة من الكفر والتكذيبِ، وفي قوله تعالى: ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾ إلى آخر الآية تنبيهٌ على تحققها بالاستدلال عليها بما صدَر عنهم عند مجيءِ بعض الآياتِ لاشتراك الكلِّ في كونها أمورًا خارقةً للعادات منزّلةً من جانب الله على النبي عليه الصلاة والسلام، فتكذيبُهم لبعضها مستلزمٌ لتكذيب الباقي كما أن تكذيبَ الآخرين بغير المقترَحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترَحة، والمرادُ بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلةَ المِعراج من عجائب الأرضِ والسماءِ حسبما ذُكر في فاتحة السورةِ الكريمة، والتعبيرُ عن ذلك بالرؤيا إما لأنه لا فرقَ بينها وبين الرؤيةِ، أو لأنها وقعت بالليل، أو لأن الكفرةَ قالوا: لعلها رؤيا، أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عِيانًا، مع كونها آيةً عظيمةً وأيةَ آيةٍ حقيقةٍ بألا يتلعثم في تصديقها أحدٌ ممن له أدنى بصيرةٍ، إلا فتنةً افتُتن بها الناسُ حتى ارتد بعضهم ﴿**والشجرة الملعونة في القرآن**﴾ عطف على الرؤيا، والمرادُ بلعنها فيه لعنُ طاعمِها على الإسناد المجازيِّ أو إبعادُها عن الرحمة فإنها تنبُت في أصل الجحيم في أبعدِ مكان من الرحمة، أي وما جعلناها إلا فتنةً لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا: إن محمدًا يزعُم أن الجحيمَ يحرُق الحجارةَ، ثم يقول: «**ينبُت فيها الشجرُ**»، ولقد ضلوا في ذلك ضلالًا بعيدًا حيث كابروا قضيةَ عقولهم فإنهم يرَوْن النعامةَ تبتلع الجمْرَ وقِطعَ الحديد المحمّاةَ فلا تضرّها، ويشاهدون المناديلَ المتخَذةَ من وبْر السمندر تُلقى في النار فلا تؤثر فيها ويرَون أن في كل شجر نارًا، وقرئ[1] بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل: والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك.

﴿**ونخوفهم**﴾ بذلك وبنظائرها[2] من الآيات فإن الكلَّ للتخويف، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرارِ فما يزيدهم التخويفُ ﴿**إلا طغيانًا كبيرًا**﴾ متجاوزًا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، وفُعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبةِ العامة لهذه الأمةِ إلى الطامة الكبرى. هذا هو الذي يستدعيه النظمُ الكريمُ وقد حمل أكثرُ المفسرين الإحاطةَ على الإحاطة بالقدرة تسليةً لرسول الله ﷺ عما عسى يعتريه من عدم الإجابةِ إلى إنزال الآياتِ التي اقترحوها لأن إنزالها ليس بمصلحة من نوع حزنٍ من طعْن

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥١)، والبحر المحيط (٦/ ٥٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٦).

(٢) في خ: نظائرها.

الكفرةِ حيث كانوا يقولون: لو كنتَ رسولًا حقًا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيرُه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكأنه قيل: اذكر وقتَ قولِنا لك: إن ربك اللطيفَ بك قد أحاط بالناس فهم في قبضة قدرتِه لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفَظُك منهم فلا تهتمَّ بهم وامضِ لما أمرتُك به من تبليغ الرسالةِ، ألا ترى أن الرؤيا التي أريناك من قبلُ جعلناها فتنةً للناس مُورثةً للشبهة مع أنها ما أورثت ضَعفًا لأمرك وفتورًا في حالك، وقد فُسر الإحاطةُ بإهلاك قريشٍ يوم بدر، وإنما عبر عنه بالماضي مع كونه منتظَرًا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿سيُهزَم الجمعُ ويولّون الدبُر﴾ [القمر، الآية ٤٥] وقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشَرون إلى جهنم﴾ [آل عمران، الآية ١٢] وغيرُ ذلك جريًا على عادته سبحانه في أخباره، وأُوّلت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام في المنام من مصارعهم. لما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماءَ بدرٍ قال: «**والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم .وهو يومئ إلى الأرض، هذا مصرَعُ فلان وهذا مصرعُ فلان**»[1] فتسامعت به قريش فاستسخروا منه، وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكةَ وأخبر به أصحابَه فتوجه إليها فصده المشركون عامَ الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنيًا بأنه يجوز أن يكون الوحيُ بإهلاكهم، وكذا الرؤيا واقعًا بمكة وذكرُ الرؤيا وتعيينُ المَصارعِ واقعَين بعد الهجرة. وأنت خبيرٌ بأنه يلزم منه أن يكون افتتانُ الناسِ بذلك واقعًا بعد الهجرة وأن يكون ازديادُهم طغيانًا متوقعًا غيرَ واقعٍ عند نزول الآية، وقد قيل: الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام في وقعة بدر من مضمون قوله تعالى: ﴿إذ يُريكَهم الله في منامك قليلًا ولو أراكهم كثيرًا لفشِلْتم﴾ [الأنفال: ٤٣] ولا ريب في أن تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جُعلت فتنة للناس.

نجاة المؤمنين من إبليس

﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ تذكيرٌ لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعةِ من غير تردد وتحقيقٍ لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدْعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويرجون رحمتَه ويخافون عذابَه إن عذاب ربِّك كان محذورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] ويُعلم من حال الملائكةِ وحالِ غيرهم من عيسى وعُزيرٍ عليهما السلام في الطاعة وابتغاءِ الوسيلة ورجاءِ الرحمة ومخافةِ

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٣/٣) كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة بدر، برقم (١٧٧٩/٨٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العذاب، ومن حال إبليسَ حالُ من يعاند الحقَّ ويخالف الأمرَ، أي واذكر وقت قولِنا لهم: ﴿اسجدوا لآدم﴾ تحيةً وتكريمًا لما قاله من الفضائل المستوجِبة لذلك ﴿فسجدوا﴾ له من غير تلعثم امتثالًا للأمر وأداءً لحقه عليه الصلاة والسلام ﴿إلا إبليس﴾ وكان داخلًا في زُمرتهم مندرجًا تحت الأمرِ بالسجود ﴿قال﴾ أي عندما وُبِّخ بقوله عز سلطانه: ﴿يا إبليسُ ما لك ألا تكونَ مع الساجدين﴾ [الحجر، الآية ٣٢] وقولِه: ﴿ما منعك أن لا تسجُدَ إذْ أمرتُك﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿ما منعك أن تسجُدَ لما خلقتُ بيديَّ﴾ [الحجر: ٥٦] كما أشير إليه في سورة الحِجر ﴿أأسجُد﴾ وأنا مخلوقٌ من العنصر العالي ﴿لمن خلقت طينًا﴾ نُصب على نزعِ الخافضِ أي من طين، أو حالٌ من الراجع إلى الموصول أي خلقتَه وهو طينٌ، أو من نفس الموصول أي أأسجُد له وأصلُه طينٌ؟ والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل إنكارِه بما في حيز الصلة.

﴿قال﴾ أي إبليسُ لكن لا عَقيبَ كلامِه المحكي بل بعد الإنظارِ المترتب على استنظاره المتفرِّع على الأمر بخروجه من بين الملأ الأعلى باللعن المؤبّدِ، وإنما لم يصرّح بذلك اكتفاءً بما ذكر في مواضعَ أُخَرَ، فإن توسيطَ (قال) بين كلامَيْ اللعين للإيذان بعدمِ اتصالِ الثاني بالأول وعدم ابتنائِه عليه بل على غيره كما في قوله تعالى: ﴿قال ومَنْ يقنَطُ من رحمة ربه إلا الضالون﴾ [الحجر، الآية ٥٦] ﴿أرأيتكَ هذا الذي كرّمت عليّ﴾ الكافُ لتأكيد الخطابِ لا محل لها من الإعراب وهذا مفعولٌ أولٌ والموصولُ صفتُه، والثاني محذوفٌ لدِلالة الصلةِ عليه أي أخبِرني عن هذا الذي كرّمته عليّ بأن أمرْتَني بالسجود له لِمَ كَرَّمْتَه عليّ؟ وقيل: هذا مبتدأٌ حُذف عنه حرفُ الاستفهام والموصولُ مع صلته خبرُه ومقصودُه الاستصغارُ والاستحقارُ، أي أخبرْني أهذا مَنْ كرَّمته عليّ؟ وقيل: معنى أرأيتَك أتأمّلت كأن المتكلّم ينبّه المخاطَب على استحضار ما يخاطبه به عَقيبه ﴿لئن أخرتن﴾ حيًا ﴿إلى يوم القيامة﴾ كلامٌ مبتدأٌ واللامُ موطِّئةٌ للقسم وجوابُه قوله: ﴿لأحتنكن ذريته﴾ أي لأستأصِلَنّهم، من قولهم: احتنَك الجرادُ الأرضَ إذا جرَد ما عليها أكلًا، أو لأقودنّهم حيث ما شئتُ ولأستولِينّ عليهم استيلاءً قويًا، من قولهم: حنَكْتَ الدابةَ واحتنكتَها إذا جعلتَ في حنَكها الأسفلِ حبلًا تقودُها به، وهذا كقوله: ﴿لأُزيننّ لهم في الأرض ولأُغوينّهم أجمعين﴾ [الحجر: ٣٩] وإنما عَلِم تسنّي ذلك المطلبِ له تلقّيًا من جهة الملائكةِ عليهم الصلاة والسلام أو استنباطًا من قولهم: ﴿أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويسفِكُ الدماءَ﴾ [البقرة: ٣٠] أو توسّمًا من خَلْقه ﴿إلا قليلًا﴾ منهم وهم المخْلصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿**قال اذهب**﴾ أي امضِ لشأنك الذي اخترتَه وهو طردٌ له وتخليةٌ بينه وبين ما سوّلت له نفسه ﴿**فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم**﴾ أي جزاؤُك وجزاؤهم فغُلّب المخاطَبُ على الغائب رعايةً لحق المتبوعية ﴿**جزاء موفورًا**﴾ أي جزاءً مكملًا من قولهم: فِرْ لصاحبك عِرضَه فِرَةً، أي وفّر، وهو نصب على أنه مصدرٌ مؤكّدٌ لما في قوله: ﴿جهنمَ جزاؤُكم﴾ من معنى تجازون أو الفعلِ المقدّر أو حالٌ موطئةٌ لقوله موفورًا ﴿**واستفزز**﴾ أي استخفَّ ﴿**من استطعت منهم**﴾ أن تستفِزّه ﴿**بصوتك**﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿**وأجلب عليهم**﴾ أي صِحْ عليهم من الجَلَبة وهي الصياح ﴿**بخيلك ورَجِلك**﴾ أي بأعوانك وأنصارِك من راكب وراجل من أهل العبث والفساد. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهدٌ وقتادةُ: إن له خيلًا ورَجِلًا من الجن والإنس فما كان من راكب يقاتل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليسَ، وما كان من راجل يقاتل في معصية الله تعالى فهو من رَجِل إبليس. والخيلُ الخيّالةُ[(١)] ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**يا خيلَ الله اركبي**»[(٢)] والرّجْلُ اسمُ جمعٍ للراجل كالصحْب والركْب، وقرئ بكسر الجيم وهي قراءةُ حفصٍ على أنه فَعِلٌ بمعنى فاعل كتعِب وتاعب، وبضمة مثلُ حدِثٌ وحدُثٌ وندِسٌ وندُسٌ ونظائرِهما أي جمع الراجل ليطابق الخيل، وقرئ (رجالِك)[(٣)] و(رُجّالك)[(٤)] ويجوز أن يكون استفزازُه بصوته وإجلابه بخيله ورَجْلِه تمثيلًا لتسلّطه على من يُغويه[(٥)] فكأنه مِغوارٌ أوقع على قوم فصوّت بهم صوتًا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجْلَبَ عليهم بجُنده من خيّالة ورَجّالَة حتى استأصلهم ﴿**وشاركهم في الأموال**﴾ بحملهم على كسبها وجمعِها من الحرام والتصرفِ فيها على ما لا ينبغي ﴿**والأولاد**﴾ بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة والإشراكِ كتسميتهم بعبد العزّى والتضليلِ بالحمل على الأديان الزائغةِ

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ١١٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قرأ بها: قتادة، وعكرمة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٢)، والبحر المحيط (٦/ ٥٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢١).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٦).

(٥) يريد أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية وقد مضى تحقيق القول فيها.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها، (٣/ ١٦٠)، وأسرار البلاغة للخفاجي (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٢١)، ودلائل الإعجاز (١٠٧)، والمطول (٣٠٦).

والحِرَف الذميمة والأفعالِ القبيحة ﴿**وعدهم**﴾ المواعيدَ الباطلةَ كشفاعة الآلهة والاتكالِ على كرامة الآباءِ وتأخيرِ التوبةِ بتطويل الأمل ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا**﴾ اعتراضٌ لبيان شأنِ مواعيدِه، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقوية معنى الاعتراضِ مع ما فيه من صرفِ الكلامِ عن خطابه وبيانِ شأنه للناس، ومن الإشعار بعلية شيطنتِه للغرور وهو تزيينُ الخطأ بما يوهم أنه صواب.

﴿**إن عبادي**﴾ الإضافةُ للتشريف وهم المخلصون وفيه أن مَنْ تبعه ليس منهم وأن[1] الإضافةَ[2] لثبوت الحكم في قوله تعالى: ﴿**ليس لك عليهم سلطان**﴾ أي تسلّطٌ وقدرةٌ على إغوائهم كقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [النحل: ٩٩] ﴿**وكفى بربك وكيلًا**﴾ لهم يتوكلون عليه ويستمدون به في الخلاص عن إغوائك. والتعرضُ لوصف الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكية المطلقةِ والتصرّفِ الكليِّ مع الإضافة إلى ضمير إبليسَ للإشعار بكيفية كفايتِه تعالى لهم، أعني سلْبَ قدرتِه على إغوائهم.

﴿**ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر**﴾ مبتدأ وخبر والإزجاءُ السوقُ حالًا بعد حال، أي هو القادرُ الحكيمُ الذي يسوق لمنافعكم الفُلك ويُجريها في البحر ﴿**لتبتغوا من فضله**﴾ من رزقه الذي هو فضلٌ من قِبَله أو من الربح الذي هو مُعطيه، ومن مزيدةٌ أو تبعيضيةٌ، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائلُ التوحيد وتمهيدٌ لذكر توحيدِهم عند مِساسِ الضرِّ تكملةً لما مر من قوله تعالى: ﴿فلا يملكون﴾ الآية ﴿**إنه كان بكم**﴾ أزلًا وأبدًا ﴿**رحيمًا**﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهّل عليكم ما يعسُر من مباديه، وهذا تذييلٌ فيه تعليلٌ لما سبق من الإزجاء لابتغاء الفضلِ، وصيغةُ الرحيم للدلالة على أن المرادَ بالرحمة الرحمةُ الدنيويةُ والنعمةُ العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر**﴾ خوفَ الغرقِ فيه ﴿**ضل من تدعون**﴾ أي ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿**إلا إياه**﴾ وحده من غير أن يخطُر ببالكم أحدٌ منهم وتدعوه لكشفه استقلالًا أو اشتراكًا، أو ضل كلُّ مَنْ تدعونه عن إغاثتكم وإنقاذِكم ولم يقدِر على ذلك إلا الله، على الاستثناء المنقطع ﴿**فلما نجاكم**﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿**إلى البر أعرضتم**﴾ عن التوحيد أو اتسعتم في كُفران النعمة ﴿**وكان الإنسان كفورًا**﴾ تعليلٌ لما سبق من الإعراض.

---

(١) في خ: فإن. (٢) زاد في خ: إليه.

﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم ﴿أن يخسف بكم جانب البر﴾ الذي هو مأمنُكم أي يقلِبه ملتبسًا بكم أو بسبب كونِكم فيه، وفي زيادة الجانبِ تنبيهٌ على تساوي الجوانب والجهاتِ بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى وقهرِه وسلطانِه، وقرئ[١] بنون العظمة ﴿أو يرسل عليكم﴾ من فوقكم وقرئ[٢] بالنون ﴿حاصبًا﴾ ريحًا ترمي بالحصباء ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلًا﴾ يحفظكم من ذلك أو يصرِفه عنكم فإنه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ في البحر، أُوثرت كلمةُ في على كلمة إلى المنبئةِ عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه ﴿تارة أخرى﴾ إسنادُ الإعادة إليه تعالى مع أن العَوْدَ إليه باختيارهم باعتبار خلقِ الدواعي الملجئةِ لهم إلى ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كمال شدةِ هولِ ما لاقَوْه في التارة الأولى بحيث لولا الإعادةُ لما عادوا ﴿فيرسل عليكم﴾ وأنتم في البحر وقرئ[٣] بالنون ﴿قاصفًا من الريح﴾ وهي التي لا تمر بشيء إلا كسرَتْه وجعلتْه كالرميم، أو التي لها قصيفٌ وهو الصوتُ الشديد كأنها تتقصّف أي تتكسر ﴿فيغرقكم﴾ بعد كسر فُلْكِكم كما ينبئ عنه عنوانُ القصفِ، وقرئ بالنون[٤] وبالتاء[٥] على الإسناد إلى ضمير الريح ﴿بما كفرتم﴾ بسبب إشراكِكم أو كفرانِكم لنعمة الإنجاء ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا﴾ أي ثائرًا يطالبنا بما فعلنا [انتصارًا منا][٦] ودَرْكًا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ [الشمس، الآية ١٥].

﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرّهم وفاجرِهم أي كرمناهم بالصورة والقامةِ المعتدلةِ والتسلط على ما في الأرض والتمتُّعِ به والتمكُّنِ من الصناعات وغير

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٢)، والتيسير للداني (١٤٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٣)، والغيث للصفاقسي (٢٧٤)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٢٨٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٢).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن.
ينظر: المراجع السابقة.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن.
ينظر: المراجع السابقة.

(٥) قرأ بها: أبو جعفر، ورويس، وشيبة، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٥٠١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).

(٦) سقط في خ.

ذلك مما لا يكاد يُحيط به نِطاقُ العبارة، ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن كلَّ حيوانٍ يتناول طعامَه بفيه إلا الإنسانَ فإنه يرفعه إليه بيده، وما قيل من شِرْكة القرد له في ذلك مبنيٌّ على عدم الفرقِ بين اليد والرجل فإنه متناولٌ له برجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾ على الدوابّ والسفن، من حملْتَه إذا جعلتَ له ما يركبه وليس من المخلوقات شيءٌ كذلك، وقيل: حملناهم فيهما حيث لم نخسِفْ بهم الأرضَ ولم نُغرِقْهم بالماء، وأنت خبيرٌ بأن الأول هو الأنسبُ بالتكريم إذ جميعُ الحيواناتِ كذلك ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي فنون النعمِ وضُروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صُنعِهم.

﴿وفضلناهم﴾ في العلوم والإدراكاتِ بما ركّبنا فيهم من القُوى المدرِكةِ التي بها يتميز الحقُّ من الباطل والحسَنُ من القبيح ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ وهم من عدا الملائكةِ عليهم الصلاة والسلام ﴿تفضيلًا﴾ عظيمًا فحق عليهم أن يشكروا هذه النعمَ ولا يكفروها ويستعملوا قُواهم في تحصيل العقائدِ الحقّةِ ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذي لا يقبله أحدٌ ممن له أدنى تمييزٍ فضلًا عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقولُ المحضةُ، وإنما استُثنيَ جنسُ الملائكة من هذا التفضيلِ لأن علومَهم دائمةٌ عاريةٌ عن الخطأ والخلل، وليس فيه دَلالةٌ على أفضليتهم بالمعنى المتنازَعِ فيه فإن المراد هنا بيانُ التفضيل في أمر مشتركٍ بين جميع أفرادِ البشر صالحِها وطالحِها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضلَ في عِظم الدرجةِ وزيادةِ القُربةِ عند الله سبحانه. إن قيل: أيُّ حاجةٍ إلى تعيين ما فيه التفضيلُ بعد بيانِ ما هو المرادُ بالمفضّلين فإن استثناءَ الملائكةِ عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفرادِ البشرِ عليهم لا يستلزم استثناءَهم من تفضيل بعضِ أفرادِه عليهم قلنا: لا بد من تعيينه ألبتةَ، إذ ليس من الأفراد الفاجرةِ للبشر أحدٌ يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازَعُ فيه أصلًا بل هم أدنى من كل دنيءٍ حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ﴾ [الأعراف ١٧٩] وقولُه تعالى: ﴿إن شر الدوابِّ عند الله الذين كفروا﴾ [الأنفال، الآية ٥٥].

البعث

﴿يوم ندعو﴾ نُصب على المفعولية بإضمار اذكر أو ظرفٌ لما دل عليه قولُه تعالى: ﴿ولا يظلمون﴾ وقرئ[1] بالياء على البناء للفاعل والمفعول[2] ويدعو بقلب الألف

(١) قرأ بها: مجاهد، وزيد، ويعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٩).

(٢) قرأ بها: الحسن.

=

واوًا على لغة من يقول في أفعى أفعو، وقد جوّز كونُ الواو علامةَ الجمعِ كما في قوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى﴾ [الأنبياء، الآية ٣] أو ضميرَه وكلَّ بدلًا منه، والنونُ محذوفةٌ لقلة المبالاةِ بها فإنها ليست إلا علامةَ الرفع وقد يكتفىٰ بتقديره كما في يدعى **﴿كل أناس﴾** من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيلِ، وهذا شروعٌ في بيان تفاوتِ أحوالِهم في الآخرة بحسب أحوالِهم وأعمالهم في الدنيا **﴿بإمامهم﴾** أي بمن ائتمّوا به من نبي أو مقدّم في الدين أو كتاب أو دين؛ وقيل: بكتاب أعمالِهم التي قدموها فيقال: يا أصحابَ كتابِ الخيرِ يا أصحابَ كتابِ الشر، أو يا أهلَ دينِ كذا يا أهلَ كتابِ كذا، وقيل: الإمامُ جمعُ أم كخف وخِفاف، والحكمةُ في دعوتهم بأمهاتهم إجلالُ عيسى عليه السلام وتشريفُ الحسنين رضي الله عنهما والسترُ على أولاد الزنا **﴿فمن أوتي﴾** يومئذ من أولئك المدعوّين **﴿كتابه﴾** صحيفةَ أعماله **﴿بيمينه﴾** إبانةٌ لخطر الكتابِ المُؤْتىٰ وتشريفًا لصاحبه وتبشيرًا له من أول الأمرِ بما في مطاويه **﴿فأولئك﴾** إشارةٌ إلى مَنْ باعتبار معناه إيذانًا بأنهم حزبٌ مجتمعون على شأن جليلٍ، أو إشعارًا بأن قراءتَهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماعِ لا على وجه الانفرادِ كما في حال الإيتاءِ، وما فيه من الدِلالة على البعد للإشعارِ برفعة درجاتِهم أي أولئك المختصون بتلك الكرامةِ التي يُشعِر بها الإيتاءُ المذكور **﴿يقرءون كتابهم﴾** الذي أوتوه على الوجه المبين تبجّحًا بما سُطّر فيه من الحسنات المستتبِعةِ لفنون الكراماتِ **﴿ولا يظلمون﴾** أي لا يُنقصون من أجور أعمالِهم المرتسمةِ في كتبهم بل يؤتَوْنها مضاعَفةً **﴿فتيلًا﴾** أي قدْرَ فتيلٍ وهو القِشرةُ التي في شق النواة أو أدنى شيءٍ فإن الفتيلَ مثلٌ في القِلة والحقارة.

﴿ومن كان﴾ من المدعوّين المذكورين **﴿في هذه﴾** الدنيا التي فُعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل **﴿أعمى﴾** فاقدَ البصيرة لا يهتدي إلى رُشده ولا يعرِف ما أوليناه من نعمة التَكْرِمةِ والتفضيلِ فضلًا عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقُوى فيما خُلِقْن له من العلوم والمعارِف الحَقّة **﴿فهو في الآخرة﴾** التي عُبّر عنها بيومَ ندعو **﴿أعمى﴾** كذلك أي لا يهتدي إلى ما ينجيّه ولا يظفَر بما يُجديه لأن العمَى الأولَ موجبٌ للثاني، وقد جُوّز كونُ الثاني بمعنى التفضيل على أن عماه في الدنيا[(١)]، ولذلك قرأ أبو عمرو[(٢)] الأولَ مُمالًا[(٣)] والثاني مفخمًا

= ينظر: البحر المحيط (٦/ ٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٧).

(١) في خ: الآخرة. (٢) في خ: بكر وعمر.

(٣) قرأ بها أيضًا: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، ويعقوب، وشعبة، وورش. =

﴿وأضل سبيلًا﴾ أي من الأعمى لزوال الاستعدادِ المُمْكنِ وتعطلِ الآلاتِ بالكلية، وهذا بعينه هو الذي أوتي كتابَه بشماله بدِلالة حال ما سبق من الفريق القابلِ له، ولعل العدولَ عن ذكره بذلك العنوانِ مع أنه الذي يستدعيه حسنُ المقابلة حسبما هو الواقعُ في سورة الحاقة وسورةِ الانشقاق للإيذان بالعلة الموجبةِ له كما في قوله تعالى: ﴿وأما إن كان من المكذّبين الضالّين﴾ [الواقعة، الآية ٩٢] بعد قوله تعالى: ﴿فأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ [الواقعة، الآية ٩٠] وللرمز إلى علة حالِ الفريقِ الأول، وقد ذكر في أحد الجانبين المسبّبُ وفي الآخر السببُ، ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلًا على شهادة العقلِ كما في قوله عز وعلا: ﴿وإن يُمْسِسْك الله بضُرّ فلا كاشفَ له إلا هو وإن يُرِدْك بخير فلا رادَّ لفضله﴾ [يونس، الآية ١٠٧].

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٥)، والتيسير للداني (١٤٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٣)، والغيث للصفاقسي (٢٧٥)، والكشف للقيسي (١/ ١٨٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٥٤).

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

عصمة النبي ﷺ

﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ نزلت في ثقيفٍ إذ قالوا للنبي ﷺ: لا ندخُل في أمرك حتى تعطيَنا خِصالًا نفتخر بها على العرب لا نُعشر ولا نُحشر ولا نُجبىٰ في صلاتنا، وكلُّ رِبًا لنا فهو لنا وكلُّ ربًا علينا فهو موضوعٌ عنا، وأن تُمتّعنا باللات سنةً وأن تحرِّم وادينا وَجّ كما حرّمت مكة، فإذا قالت العربُ: لم فعلتَ؟ فقل: إن الله أمرني بذلك، وقيل: في قريش حيث قالوا: [اجعل لنا آيةَ عذابٍ][1] آيةَ رحمةٍ[2] وآيةَ رحمةٍ [آيةَ عذابٍ][3]، أو قالوا: لا نُمكّنك من استلام الحجرِ حتى تُلمّ بآلهتنا، فإنْ مخففةٌ من

---

(١) سقط في خ.
(٢) زاد في خ: آية عذاب.
(٣) سقط في خ.

المشددة وضميرُ الشأنِ الذي هو اسمُها محذوفٌ واللامُ هي الفارقة بينها وبين النافية، أي إن الشأنَ قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين ﴿عن الذي أوحينا إليك﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعْدِنا ووعيدِنا ﴿لتفتريَ علينا غيره﴾ لتتقول علينا غيرَ الذي أوحينا إليك مما اقترحَتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نقل ﴿وإذن لاتخذوك خليلًا﴾ أي لو اتبعت أهواءَهم لكنتَ لهم وليًّا ولخرجتَ من ولايتي.

﴿ولولا أن ثبتناك﴾ على ما أنت عليه من الحق بعِصمتنا لك ﴿لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا﴾ من الركون الذي هو أدنى ميلٍ أي لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميلَ إليهم شيئًا يسيرًا من الميل اليسيرِ لقوة خَدعِهم وشدة احتيالِهم، لكن أدركتْك العصمةُ فمنعَتْك من أن تقرَبَ من أدنى مراتبِ الركونِ إليهم فضلًا عن نفس الركونِ، وهذا صريحٌ في أنه عليه الصلاة والسلام ما همّ بإجابتهم مع قوة الداعي إليها، ودليلٌ على أن العصمةَ بتوفيق الله تعالى وعنايتِه ﴿إذن﴾ لو قاربت أن تركنَ إليهم أدنى رَكْنة ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة ضعفَ ما يُعذَّب به في الدارين بمثل هذا الفعلِ غيرُك لأن خطأَ الخطيرِ[1] خطيرٌ، وكان أصلُ الكلامِ عذابًا ضِعفًا في الممات بمعنى مضاعفًا ثم حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصفةُ مُقامَه ثم أضيفت إضافةَ موصوفِها، وقيل: الضِعف من أسماء العذاب، وقيل: المرادُ بضِعف الحياة عذابُ الآخرة وبضِعف المماتِ عذابُ القبر ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيرًا﴾ يدفع عنك العذابَ ﴿وإن كادوا﴾ الكلامُ فيه كما في الأول أي كاد أهلُ مكة ﴿ليستفزّونك﴾ أي ليُزعِجونك[2] بعداوتهم ومكرِهم ﴿من الأرض﴾ أي الأرضِ التي أنت فيها وهي أرضُ مكة ﴿ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون﴾ بالرفع عطفًا على خبر كاد، وقرئ[3] لا يلبثوا بالنصب بإعمال إذن على أن الجملةَ معطوفةٌ على جملة وإن كادوا ليستفزونك ﴿خلافك﴾ أي بعدك قال: [الكامل]

خلت الديارُ خِلافَهم فكأنما ... بسَطَ الشواطِبُ بينهن حصيرا[4]

---

(١) في خ: الخطر.

(٢) في خ: يزعجوك.

(٣) قرأ بها: أبي، وعبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٤).

(٤) البيت للحارث بن خالد المخزومي في ديوانه ص (٦٣)، ولسان العرب (خلف)، وكتاب العين (٤/ ٢٦٦)، وتاج العروس (خلف)، ولجرير في تهذيب اللغة (١/ ٢٨٢)، وكتاب العين (١/ ١٧٩)، وبلا نسبة في لسان العرب (عقب)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٨٦)، ومجمل اللغة (٣/ ١٥٨)ويروى «عقب الرذاد..» بدل «خلت الديار».

أي لو خرجتَ لا يبقَون بعد خروجِك وقرئ[١] خلفك ﴿إلا قليلًا﴾ إلا زمانًا قليلًا وقد كان كذلك فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرتِه عليه الصلاة والسلام، وقيل: نزلت الآيةُ في اليهود حيث حسدوا مقامَ النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة، فقالوا: الشامُ مقامُ الأنبياءِ عليهم السلام فإن كنت نبيًّا فالحَقْ بها حتى نؤمِنَ بك، فوقع ذلك في قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج مرحلةً فنزلت فرجع ثم قُتل منهم بنو قريظة وأُجليَ بنو النضير [بعدهم] بقليل ﴿سُنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ نُصب على المصدرية أي سنّ الله تعالى سُنةً.. وهي أن يُهلك كلَّ أمة أَخرجت رسولَهم من بين أظهرِهم، فالسنةُ لله تعالى وإضافتُها إلى الرسل لأنها سُنّتْ لأجلهم على ما ينطِق به قوله عز وجل: ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلًا﴾ أي تغيّرًا.

تكليف النبي ﷺ

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ لزوالها كما ينبئ عنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «**أتاني جبريلُ عليه السلام لدُلوك الشمس حين زالت فصلّى بي الظهرَ**»[٢]. واشتقاقُه من الدّلْك لأن من نظر إليها حينئذ يدلك عينه، وقيل: لغروبها من دلَكت الشمس أي غربت، وقيل: أصلُ الدلوك الميلُ فينتظم كِلا المعنيين، واللامُ للتأقيت مِثلُها في قولك: لثلاثٍ خلَوْن ﴿إلى غسق الليل﴾ إلى اجتماع ظلمتِه وهو وقتُ صلاةِ العِشاء، وليس المرادُ إقامتَها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرارِ بل إقامةَ كل صلاةٍ في وقتها الذي عُيِّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام، كما أن أعدادَ ركعاتِ كل صلاةٍ موكولةٍ إلى بيانه عليه السلام، ولعل الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتهىٰ في أوقات الصلواتِ من غير

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، وابن محيصن، واليزيدي، ورويس، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٥)، والتيسير للداني (١٤١)، والحجة لابن خالويه (٢٢٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٣)، والغيث للصفاقسي (٢٧٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ٤٠١) (٥١٨) من طريق أيوب بن عتبة، عن أبي بكر بن أبي عمرو بن حزم، عن عروة بن الزبير عن ابن أبي مسعود الأنصاري، عن أبيه أن جبريل عليه السلام- أتى رسول الله ﷺ حين دلكت الشمس ... وقال: وأيوب بن عتبة ليس بالقوي وأخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٢٥) (٢٢٥٨١) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٢٦٣) (٧٢٤) مطولًا. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨١) لابن مردويه في تفسيره، وعزاه ابن حجر لإسحاق في مسنده. كلهم من طريق يحيى بن سعيد، حدثني أبو بكر بن حزم، عن أبي مسعود الأنصاري.. فذكره وقال ابن حجر: وهذا منقطع. قلت: وذلك؛ لأن أبا بكر لم يسمع من أبي مسعود.

فصل بينها لما أن الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظة فبعضُها متصلٌ ببعض بخلاف أولِ وقتِ العشاءِ والفجرِ، فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدُهما عن الآخر ولذلك فُصل وقتُ الفجر عن سائر الأوقات، وقيل: المرادُ بالصلاة صلاةُ المغرب، والتحديدُ المذكور بيانٌ لمبدئه ومنتهاه واستُدِل به على امتداد وقتِه إلى غروب الشفق، وقوله تعالى: ﴿**وقرآن الفجر**﴾ أي صلاةَ الفجر نُصب عطفًا على مفعول أقم أو على الإغراء قاله الزجّاج، وإنما سُمِّيت قرآنا لأنه رُكنُها كما تُسمّى ركوعًا وسجودًا واستُدل به على الركنية، ولكن لا دِلالةَ له على ذلك لجواز كونِ مدارِ التجوز كونَ القراءة مندوبةً فيها. نعم لو فُسّر بالقراءة في صلاة الفجر لدل الأمرُ بإقامتها على الوجوب فيها نصًا وفيما عداها دِلالةً، ويجوز أن يكون (وقرآنَ الفجر) حثًّا على تطويل القراءةِ في صلاة الفجر ﴿**إن قرآن الفجر**﴾ أظهر في مقام الإضمارِ إبانةً لمزيد الاهتمام به ﴿**كان مشهودًا**﴾ يشهده ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار أو شواهدُ القدرة من تبدُّل الضِياء بالظلمة والانتباهِ بالنوم الذي هو أخو الموتِ، أو يشهده كثيرٌ من المصلين أو من حقه أن يشهَده الجمُّ الغفيرُ فالآيةُ، على تفسير الدُّلوك بالزوال، جامعةٌ للصلوات الخمس، وعلى تفسيره بالغروب لِما عدا الظهرَ والعصر.

﴿**ومن الليل**﴾ قيل: هو نصبٌ على الإغراء أي الزمْ بعضَ الليل، وقيل: لا يكون المُغْرىٰ به حرفًا ولا يجدي نفعًا كونُ معناها التبعيضَ، فإن واو مع ليست اسمًا بالإجماعِ وإن كانت بمعنى الاسم الصريحِ بل هو منصوبٌ على الظرفية بمضمر أي قم بعضَ الليل ﴿**فتهجد به**﴾ أي أزِلْ وألقِ الهجودَ أي النوم فإن صيغةَ التفعّل تجيء للإزالة كالتحرّج والتحنّث والتأثّم ونظائرِها، والضميرُ المجرورُ للقرآن من حيث هو لا بقيد إضافتِه إلى الفجر أو البعضِ المفهوم من قوله تعالى: ﴿ومن الليل﴾، أي تهجد في ذلك البعضِ على أن الباء بمعنى في، وقيل: منصوبٌ بتهجد أي تهجدْ بالقرآن بعضَ الليل على طريقة وإياي فارهبون ﴿**نافلة لك**﴾ فريضةً زائدةً على الصلوات الخمسِ المفروضةِ خاصةً بك دون الأمة ولعله هو الوجهُ في تأخير ذكرِها عن ذكر صلاةِ الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعًا، لكن لا لكونها زيادةً على الفرائض بل لكونها زيادةً له ﷺ في الدرجات على ما قال مجاهد والسدي، فإنه عليه السلام مغفورٌ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعُه زيادةً في درجاته بخلاف من عداه من الأمة فإن تطوعَهم لتكفير ذنوبهم وتدارُكِ الخللِ الواقعِ في فرائضهم، وانتصابُها إما على المصدرية بتقدير تنفّلْ أو بجعل تهجدْ بمعناه أو بجعل نافلةً بمعنى تهجدًا فإن ذلك عبادةٌ زائدةٌ، وإما على الحالية من الضمير الراجعِ إلى القرآن أي حالَ كونها

صلاةً نافلةً، وإما على المفعولية لتهجّدْ إذا جُعل بمعنى صلِّ وجعل الضميرُ المجرور للبعض، أي فصلِّ في ذلك البعضِ نافلةً لك.

﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ الذي يبلّغك إلى كمالك اللائقِ بك من بعد الموت الأكبرِ كما انبعثْتَ من النوم الذي هو الموتُ الأصغرُ بالصلاة والعبادة ﴿مقامًا﴾ نُصب على الظرفية على إضمار فيقيمَك، أو تضمين البعثِ معنى الإقامة إذ لا بد من أن يكون العاملُ في مثل هذا الظرفِ فعلًا فيه معنى الاستقرارِ، ويجوز أن يكون حالًا بتقدير مضافٍ أي يبعثك ذا مَقام ﴿محمودًا﴾ عندك وعند جميعِ الناس، وفيه تهوينٌ لمشقة قيامِ الليل. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**المقامُ المحمودُ هو المقامُ الذي أشفع فيه لأمتي**»[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقامًا يحمَدُك فيه الأولون والآخرون وتُشرف[٢] فيه على جميع الخلائق تسأل فتُعطىٰ وتشفع فتُشفَّع ليس أحدٌ إلا تحت لوائِك. وعن حذيفةَ رضي الله عنه: «**يُجْمَعُ الناسُ في صَعيدٍ واحد فلا تتكلم فيه نفسٌ، فَأَوَّلُ مَدْعُوٍّ محمدٌ ﷺ فيقولُ: «لبّيكَ وسَعْدَيْكَ والشرُّ ليسَ إليكَ والمَهْديُّ من هَدَيْتَ وعبدُكَ بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليكَ تباركتَ وتعاليتَ سبحانك ربَّ البيت**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٣)- كتاب تفسير القرآن (٤٨)- باب «ومن سورة بني إسرائيل» (٣١٣٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨٤) لابن أبي شيبة في مسنده، وابن مردويه في تفسيره كلهم من طريق دواد بن يزيد الزغافري عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ... قال الترمذي: حديث حسن، ودواد الزغافري هو داود الأودي بن يزيد بن عبد الله قلت: وداود بن يزيد هو أبو يزيد الكوفي الأعرج، قال الحافظ في التقريب (١/ ٢٣٥): ضعيف.

(٢) في خ: وترق.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٨١)- كتاب التفسير (١١٢٩٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣-٣٦٤)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٢٢٨-منحة) (٢٨٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣١٩) (٣١٧٤٤)، والبزار كما في كشف الأستار (٤/ ١٦٧) والبيهقي في البعث والنشور (ص١٣٤/ ٢١١)، والطبري في تفسيره (٨/ ١٣٢) (٢٢٦٣١) كلهم من طرق عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان موقوفًا قال: يجمع الناس في صعيد واحد فلا تكلم نفس ...» وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، إنما أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن خراش ليخرجن من النار فقط. ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٠): رواه البزار موقوفًا، ورجاله رجال الصحيح.

وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٣) من طريق ليث بن أبي سليم عن أبي إسحاق به مرفوعًا دون قول حذيفة «فذلك المقام المحمود» وعزاه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٠) للطبراني في الأوسط، وقال: وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ص٣٦٧/ =

﴿وقل رب أدخلني﴾ أي القبرَ ﴿مدْخل صدق﴾ أي إدخالًا مرضيًا ﴿وأخرجني﴾ أي منه عند البعثِ ﴿مُخرج صدق﴾ أي إخراجًا مَرْضيًا ملقيًّا بالكرامة، فهو تلقينٌ للدعاء بما وعده من البعث المقرونِ بالإقامة المعهودةِ التي لا كرامةَ فوقها، وقيل: المرادُ إدخالُ المدينةِ والإخراجُ من مكةَ، وتغييرُ ترتيبِ الوجودِ لكون الإدخالِ هو المقصدُ، وقيل: إدخالُه عليه السلام مكةَ ظاهرًا عليها وإخراجُه منها آمنًا من المشركين، وقيل: إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه سالمًا.

وقيل: إدخالُه فيما حمله من أعباء الرسالةِ وإخراجُه منه مؤديًا حقَّه، وقيل: إدخالُه في كل ما يلابسه من مكان أو أمرٍ وإخراجُه منه، وقرئ مَدخل[1] ومَخرج[2] بالفتح على معنى أدخلني فأدخُلَ دخولًا وأخرجني فأخرُجَ خروجًا كقوله: [الطويل]

وعضةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم تدَعْ   من المال إلا مُسحَتٌ أو مجلَّفُ[3]

أي لم تدَع فلم يبْقَ ﴿واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا﴾ حجةً تنصُرني على من يخالفني أو مُلكًا وعزًا ناصرًا للإسلام مظهِرًا له على الكفر، فأجيبت دعوتُه عليه السلام بقوله عز وعلا: ﴿والله يعصِمُك من الناس﴾ [المائدة، الآية ٦٧] ﴿ألا إن حزبَ الله هم المفلحون﴾ [المجادلة، الآية ٢٢] ﴿ليُظهِرَه على الدين كله﴾ [التوبة، الآية ٣٣] ﴿ليَستخلِفنّهم في الأرض﴾ [النور، الآية ٥٥].

﴿وقل جاء الحق﴾ أي الإسلامُ والوحيُ الثابتُ الراسخ ﴿وزهق الباطل﴾ أي

= رقم ٧٨٩) من طريق حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار عن أبي إسحاق به مرفوعًا.
قال ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٢١٧) سألت أبي عن حديث رواه حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، عن النبي ﷺ فذكره. قال: قال أبي: لا يرفع هذا الحديث إلا عبد الله بن المختار، وموقوفه أصح. قلت: قوله «لا يرفع هذا الحديث إلا عبد الله ابن المختار» فيه نظر؛ لما تقدم من رواية ليث بن أبي سليم، فقد رفعه. وعزاه الحافظ في المطالب العالية (٤/ ٣٨٦-٣٨٧) لمسدد ولابن أبي عمر، وأخرجه أيضًا ابن المنذر، وابن مردويه، والخطيب في المتفق والمفترق كما في الدر (٤/ ٣٥٧).

(١) قرأ بها: الحسن، وقتادة، وأبو حيوة، وحميد، وإبراهيم بن أبي عبلة، وأبو العالية، ونصر بن عاصم. ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والبحر المحيط (٦/ ٧٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦٣).

(٢) قرأ بها: الحسن، وقتادة، وأبو حيوة، وحميد، وإبراهيم بن أبي عبلة، وأبو العالية، ونصر بن عاصم. ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والبحر المحيط (٦/ ٧٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦٣).

(٣) تقدم.

ذهب وهلك الشركُ والكفرُ وتسويلاتُ الشيطان، من زهَق روحُه إذا خرج ﴿إن الباطل﴾ كائنًا ما كان ﴿كان زهوقًا﴾ أي شأنُه أن يكون مضمحلًا غيرَ ثابتٍ وهو عِدةٌ كريمةٌ بإجابة الدعاءِ بالسلطان النصيرِ الذي لُقِّنه. عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه السلام دخل مكةَ يوم الفتح وحول البيت ثلاثُمائةٍ وستون صنمًا فجعل ينكُت بمِخْصَرة كانت بيده في أعينها واحدًا واحدًا ويقول: «**جاء الحقُ وزهق الباطلُ**» فينكبّ لوجهه حتى أَلقَى جميعَها، وبقيَ صنمُ خُزاعةَ فوق الكعبة وكان من صُفْر فقال: «**يا عليُّ ارم به**» فصعِد فرمىٰ به فكسره[1].

﴿**ونَنزل من القرآن**﴾ وقرئ[2] نُنْزل من الإنزال ﴿**ما هو شفاء**﴾ لِما في الصدور من أدواء الرَّيْب وأسقامِ الأوهام ﴿**ورحمةٌ للمؤمنين**﴾ به العالِمين بما في تضاعيفه، أي ما هو في تقويم دينِهم واستصلاحِ نفوسِهم كالدواء الشافي للمرضىٰ، ومن بيانيةٌ قُدِّمت على المبيَّن اعتناءً فإن كلَّ القرآنِ كذلك، وعن النبي عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله**»[3] أو تبعيضيةٌ لكن لا بمعنى أن بعضَه ليس كذلك بل بمعنى إنا ننزل منه في كل نَوْبةٍ ما تستدعي الحكمةُ نزولَه حينئذ، فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقتِه لأحوالهم الداعيةِ إلى نزوله موقعَ الدواءِ الشافي المصادفِ لا بأنه من المرضى المحتاجين إليه بحسب الحالِ من غير تقديمٍ ولا تأخير، فكلُّ بعضٍ منه متصفٌ بالشفاء لكن لا في كل حينٍ بل عند تنزيلِه، وتحقيقُ التبعيضِ باعتبار الشفاءِ الجُسماني كما في الفاتحة وآياتِ الشفاء لا يساعده قوله سبحانه: ﴿**ولا يزيد الظالمين**

---

(١) قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٢٨٧): غريب - أي بهذا اللفظ - وأخرجه البخاري (٥/ ٤١٦) كتاب المظالم، باب: هل تكسر الدنان التي فيها الخمر، أو تخرق الزقاق؟ برقم (٢٤٧٨)، ومسلم (٣/ ١٤٠٨) كتاب الجهاد والسير، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، برقم (٨٧/ ١٧٨١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال:
دخل النبي ﷺ مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُبًا، فجعل يطعنها بعود في يده وجعل يقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ الآية.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والغيث للصفاقسي (٢٧٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).

(٣) عزاه الزيلعي (٢/ ٢٨٨) وابن حجر في تخريج الكشاف للثعلبي. قلت: وذكره الهندي في كنز العمال (١٠/ ٩) (٢٨١٠٦) من حديث أبي هريرة، وعزاه للدراقطني في الأفراد، وله شاهد من حديث رجاء الغنوي عزاه الهندي في الكنز لابن قانع: وقال المناوي في فيض القدير (١/ ٤٩١)-رجاء الغنوي- واسمه منبه بن سعد بن قيس غيلان.. وقد أشار الذهبي في تاريخ الصحابة إلى عدم صحة هذا الخبر. فقال في ترجمة رجاء هذا: له صحبة، نزل بالبصرة وله حديث لا يصح في فضل القرآن.ا.هـ.

إلا خسارًا﴾ أي لا يزيد القرآنُ كلُّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذبين به الواضعين للأشياء في غير مواضعِها، مع كونه في نفسه شفاءً من الأسقام، (إلا خَسارًا) أي: هلاكًا بكفرهم وتكذيبِهم لا نقصانًا كما قيل، فإن ما بهم من داء الكفرِ والضلالِ حقيقٌ بأن يعبّر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعضِ مبادي الأسقامِ فيهم[1] وزيادتِهم في مراتب الهلاك من حيث إنهم كلما جددوا الكفرَ والتكذيبَ بالآيات النازلةِ تدريجًا ازدادوا بذلك هلاكًا، وفيه إيماءٌ إلى أن ما بالمؤمنين من الشُّبَه والشكوك المعتريةِ لهم في أثناء الاهتداءِ والاسترشادِ بمنزلة الأمراضِ، وما بالكفرة من الجهل والعنادِ بمنزلة الموتِ والهلاك، وإسنادُ الزيادة المذكورةِ إلى القرآن مع أنهم هم المُزْدادون في ذلك بسوء صُنعِهم باعتبار كونِه سببًا لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمره حيث يكون مدارًا للشفاء والهلاك.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بالصحة والنعمة **﴿أعرض﴾** عن ذكرنا فضلًا عن القيام بموجب الشكر **﴿ونأىٰ﴾** تباعدَ عن طاعتنا **﴿بجانبه﴾** النأيُ بالجانب أن يَلْويَ عن الشيء عِطفَه ويُوليه عُرضَ وجهِه، فهو تأكيدٌ للإعراض أو عبارةٌ عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين **﴿وإذا مسه الشر﴾** من فقر أو مرض أو نازلةٍ من النوازل، وفي إسناد المِساسِ إلى الشر بعد إسنادِ الإنعامِ إلى ضمير الجلالةِ إيذانٌ بأن الخيرَ مرادٌ بالذات والشرَّ ليس كذلك **﴿كان يئوسًا﴾** شديدَ اليأس من رَوْحنا، وهذا وصف للجنس باعتبار بعضِ أفرادِه ممن هو على هذه الصفةِ، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وإذا مسه الشرُّ فذو دعاءٍ عريض﴾ [فصلت، الآية ٥١] ونظائرُه، فإن ذلك شأنُ بعضٍ آخرين منهم، وقيل: أريد به الوليدُ بنُ المغيرة وقرئ[2] (ناء) إما على القلب كما يقال: راءَ في رأى وإما على أنه بمعنى نهض **﴿قل كل﴾** أي كلُّ أحدٍ منكم وممن هو على خلافكم **﴿يعمل﴾** عمله **﴿على شاكلته﴾** طريقتِه التي تشاكل حالَه في الهدى والضلالة أو جوهرِ روحِه وأحوالِه التابعة لمزاج بدنِه **﴿فربكم﴾** الذي برأكم على هذه الطبائِع المتخالفة **﴿أعلم بمن هو أهدى سبيلًا﴾** أي أسدُّ طريقًا وأبينُ مِنهاجًا وقد فُسِّرت الشاكلةُ بالطبيعة والعادةِ والدين.

---

(١) في خ: فهم.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وابن ذكوان، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والإعراب للنحاس (٢/٢٥٦)، والتيسير للداني (١٤١)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٤)، والغيث للصفاقسي (٢٧٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/٣٠٨).

﴿**ويسألونك عن الروح**﴾ الظاهرُ أن السؤالَ كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبّر البدن الإنساني ومبدأُ حياتِه، روي (أن اليهودَ قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهفِ وعن ذي القَرنين وعن الرّوح، فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيٌّ، فبيّن لهم القصتين وأبْهم أمرَ الروح) وهو مُبْهَمٌ في التوراة ﴿**قل الروح**﴾ أُظهر في مقام الإضمارِ إظهارًا لكمال الاعتناءِ بشأنه ﴿**من أمر ربي**﴾ كلمةُ من بيانيةٌ والأمرُ بمعنى الشأنِ والإضافةُ للاختصاص العِلْميِّ لا الإيجاديّ لاشتراك الكلِّ فيه وفيها من تشريف المضافِ ما لا يخفى كما في الإضافة الثانيةِ من تشريف المضافِ إليه، أي هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفيةِ التي لا يكاد يحوم حولها عقولُ البشر.

﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا**﴾ لا يمكن تعلّقُه بأمثال ذلك، روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك. قالوا: نحن مختصّون بهذا الخطابِ قال عليه الصلاة والسلام: «**بل نحن وأنتم**». فقالوا: ما أعجبَ شأنَك، ساعةً تقول: ﴿ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيرًا كثيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وساعةً تقول هذا، فنزلت[1]: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ﴾ الآية [لقمان: ٢٧]، وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولِهم فإن الحكمةَ الإنسانيةَ أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقةُ البشريةُ بل ما نيط به المعاشُ والمعادُ وذلك، بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له من معلوماته سبحانه، قليلٌ يُنال به خيرٌ كثيرٌ في نفسه أو بالنسبة إلى الإنسان أو هو من الإبداعيات الكائنةِ بمحض الأمرِ التكوينيِّ من غير تحصّلٍ من مادة وتولُّدٍ من أصل كأعضاء الجسدِ حتى يمكن تعريفُه ببعض مباديه، ومآلُه أنه من عالم الأمرِ لا من عالم الخَلق وليس هذا من قَبيل قوله سبحانه: ﴿إنما أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كنْ فيكون﴾ [يس: ٨٢] فإن ذلك عبارةٌ عن سرعة التكوينِ سواءٌ كان الكائنُ من عالم الأمرِ أو من عالم الخلقِ، وفيه تنبيهٌ على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرةُ إدراكِ البشر وإنما الممكن هذا القدرُ الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالى: ﴿وما

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٤٣) (٢٢٦٨٧)، من طريق محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ... وأخرجه أيضًا (١٠/ ٢٢١) (٢٨١٤٨) من طريق ابن إسحاق قال: ثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ وأورده ابن كثير (٣/ ٤٥١) عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس به، وعزاه في الدر المنثور (٤/ ٣٦١) لابن مردويه في تفسيره، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٩٠) ذكره الثعلبي في سورة لقمان هكذا من غير سند.

أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾ أي إلا علمًا قليلًا تستفيدونه من طرُق الحواسِّ فإن تعقّلَ المعارفِ النظرية إنما هو من إحساس الجزئياتِ.

ولذلك قيل: من فقد حِسًّا فقد علمًا، ولعل أكثر الأشياءِ لا يدركه الحسُّ ولا شيءٌ من أحواله التي يدور عليها معرفةُ ذاتِه، وأما حملُ ما ذكر على السؤال عن قِدَمه وحدوثه وجعلُ الجوابِ إخبارًا بحدوثه أي كائنٌ بتكوينه حادثٌ بإحداثه بالأمر التكويني، فمع عدم ملاءمتِه لحال السائلين لا يساعده التعرّضُ لبيان قلةِ علمِهم، فإن ما سألوا عنه مما يفي به علمُهم حينئذ وقد أُخبر عنه، وقيل: المرادُ بالروح خلقٌ عظيم رُوحاني أعظمُ من المَلَك، وقيل: جبريلُ عليه السلام، وقيل: القرآنُ، ومعنى من أمر ربي من وحيه وكلامِه لا من كلامِ البشر.

﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ من القرآن الذي هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ومنبَعٌ للعلوم التي أوتيتَها[1] وثبتّناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدتَ تركن إليهم شيئًا قليلًا، وإنما عبّر عنه بالموصول تفخيمًا لشأنه ووصفًا له بما في حيز الصلة ابتداءً وإعلامًا بحاله من أول الأمرِ وبأنه ليس من قبيل كلامِ المخلوقِ، واللامُ موطئةٌ للقسم ولنذهبن جوابُه النائبُ منابَ جزاءِ الشرطِ، وبذلك حَسُنَ حذفُ مفعولِ المشيئةِ، والمرادُ من الذهاب به المحوُ من المصاحف والصدورِ وهو أبلغُ من الإذهاب. عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن أولَ ما تفقِدون من دينكم الأمانةُ وآخرَ ما تفقِدون الصلاةُ وليُصَلّين قومٌ ولا دينَ لهم، وأن هذا القرآنَ تُصبحون يومًا وما فيكم منه شيءٌ، فقال رجلٌ: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتْناه في مصاحفنا نعلّمه أبناءَنا ويعلمه أبناؤُنا أبناءَهم؟ فقال: يسرى عليه ليلًا فيصبح الناسُ منه فقراءَ تُرفع المصاحفُ وينزَعُ ما في القلوب»[2] ﴿ثم لا تجد لك به﴾ أي بالقرآن ﴿علينا وكيلًا﴾ من يتوكل علينا استردادَه مسطورًا محفوظًا ﴿إلا رحمة من ربك﴾ فإنها إن نالتْك لعلها تستردّه عليك، ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطِعًا بمعنى ولكنْ رحمةٌ من ربك تركَتْه غيرَ مذهوبٍ به، فيكون امتنانًا بإبقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبًا في المحافظه على أداء حقوقِه وتحذيرًا من ألا يُقدرَ قدرُه الجليلُ ويفرَّط في القيام بشكره وهو أجلُّ النعم وأعظمُها ﴿إن فضله كان عليك كبيرًا﴾ كإرسالك وإنزالِ الكتابِ عليك وإبقائِه في حفظك وغير ذلك.

---

(١) في ط: أوتيتموها.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٣/ ٣٦٣) برقم (٥٩٨١)، وسعيد بن منصور (٢/ ٣٣٥)، ونعيم بن حماد في الفتن (٢/ ٦٠٣) برقم (١٦٨٥).

﴿قل﴾ للذين لا يعرِفون جلالةَ قدرِ التنزيل ولا يفهمون فخامةَ شأنه الجليل، بل يزعُمون أنه من كلام البشر ﴿**لئن اجتمعت الإنس والجن**﴾ أي اتفقوا ﴿**على أن يأتوا بمثل هذا القرآن**﴾ المنعوتِ بما لا تدركه العقولُ من النعوت الجليلةِ في البلاغة وحسنِ النظم وكمالِ المعنى. وتخصيصُ الثقلين بالذكر لأن المنكِرَ لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لأن غيرَهما قادرٌ على المعارضة ﴿**لا يأتون بمثله**﴾ أوثر الإظهارُ على إيراد الضميرِ الراجع إلى المِثْل المذكورِ احترازًا عن أن يُتوَّهم أن له مِثْلًا معينًا وإيذانًا بأن المرادَ نفيُ الإتيانِ بمثْلٍ ما، أي لا يأتون بكلام مماثلٍ له فيما ذكر من الصفات البديعةِ وفيهم العربُ العاربة أربابُ البراعةِ والبيانِ، وهو جوابٌ للقسم الذي ينبئ عنه اللامُ الموطئةُ وسادٌّ مسدَّ جزاءِ الشرطِ ولولاها لكان جوابًا له بغير جزمٍ لكون الشرط ماضيًا كما في قول زهير: [البسيط]

وإنْ أتــاه خــلــيــلٌ يــومَ مــســألــةٍ يــقــول لا غــائــبٌ مــالــي ولا حــرِمُ[1]

وحيث كان المرادُ بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآنِ مطلقَ الاتفاقِ على ذلك سواءٌ كان التصدِّي للمعارضة من كل واحدٍ منهم على الانفراد، أو من المجموع بأن يتألّبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الأفكارِ وتعاضُدِ الأنظار قيل: ﴿**ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا**﴾ أي [في][2] تحقيق ما يتوخَّوْنه من الإتيان بمثله وهو عطفٌ على مقدّر، أي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضُهم ظهيرًا لبعض ولو كان . . . إلخ، وقد حُذف المعطوفُ عليه حذفًا مطّردًا لدِلالة المعطوفِ عليه دِلالةً واضحةً فإن الإتيانَ بمثله[3] انتفى عند التظاهرِ فلأَنْ ينتفيَ عند عدِمه أولىٰ، وعلى هذه النكتةِ يدور ما في إن ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غيرَ مرة، ومحلُّه النصبُ على الحالية حسبما عُطف عليه، أي لا يأتون بمثله على كل حال مفروضٍ ولو في هذه الحال المنافيةِ لعدم الإتيانِ به فضلًا عن غيرها وفيه حسمٌ لأطماعهم الفارغةِ في رَوْم تبديل بعض آياتِه ببعض، ولا مساغَ لكون الآية تقريرًا لما قبلها من قوله تعالى: ﴿ثم لا تجدُ لك به علينا وكيلًا﴾ [الإسراء ٨٦] كما قيل، لكن لا لِما قيل من أن الإتيانَ بمثله أصعبُ من استرداد عينِه، ونفيُ الشيء إنما يقرره نفيُ ما دونه لا نفيُ ما فوقه فإن أصعبيةَ[4] الاستردادِ بغير أمرِه تعالى من الإتيان بمثله مما لا شُبهةَ فيه بل لأن الجملةَ القسميةَ ليست مَسوقةً إلى النبي ﷺ بل إلى المكابرين من قِبَله عليه السلام ﴿**ولقد صرفنا**﴾

---

(١) تقدم.
(٢) سقط في خ.
(٣) زاد في ط: حيث.
(٤) في خ: أصعبه.

كررنا وردّدنا على أنحاءٍ مختلفةٍ توجب زيادةَ تقريرٍ وبيان [ووَكادةٍ][١] رسوخٍ واطمئنان **﴿للناس في هذا القرآن﴾** المنعوتِ بما ذكر من النعوت الفاضلة **﴿من كل مثل﴾** من كل معنى بديعٍ هو[٢] الحسنُ والغرابةُ واستجلابُ النفسِ كالمَثَل ليتلقَّوْه[٣] بالقبول **﴿فأبى أكثر النّاس﴾** أوثر الإظهارُ على الإضمار تأكيدًا وتوضيحًا **﴿إلا كفورًا﴾** أي إلا جُحودًا، وإنما صح الاستثناءُ من الموجب مع أنه لا يصِح ضربتُ إلا زيدًا لأنه متأوّل بالنفي كأنه قيل: ما قبل أكثرُهم إلا كفورًا، وفيه من المبالغة ما ليس في أبواب الإيمان لأن فيه دِلالةً على أنهم لم يرضَوا بخَصلة سوى الكفورِ من الإيمان والتوقفِ في الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبةَ الإباءِ.

﴿وقالوا﴾ عند ظهور عجزهم ووضوحِ مغلوبيّتِهم بالإعجاز التنزيليّ وغيرِه من المعجزات الباهرةِ متعللين بما لا يمكن في العادة وجودُه ولا تقتضي الحكمةُ وقوعَه من الأمور كما هو دَيدَنُ المبهوتِ المحجوج **﴿لن نؤمن لك حتى تفجر﴾** وقرئ[٤] بالتشديد **﴿لنا من الأرض﴾** أرضِ مكة **﴿ينبوعًا﴾** عينًا لا ينضُب ماؤُها، يفعولٌ من نبع الماءُ كيعْبوب من عبّ الماء إذا زخَر **﴿أو تكون لك جنة﴾** أي بستانٌ تسترُ أشجارُه ما تحتها من العَرْصة **﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾** أي تجريها بقوة **﴿خلالها تفجيرًا﴾** كثيرًا، والمرادُ إما إجراءُ الأنهارِ خلالها عند سقْيها أو إدامةُ إجرائِها كما ينبئ عنه الفاءُ لا ابتداؤه **﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا﴾** جمع كِسْفة كقطعة وقِطَع لفظًا ومعنى، وقرئ[٥] بالسكون كسِدْرة وسِدْر وهي حالٌ من السماء والكاف [في][٦] كما في محل النصبِ على أنه صفةُ مصدرٍ محذوف أي إسقاطًا مماثلًا لما زعمتَ يعنُون بذلك قولَه تعالى: ﴿أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩].

﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا﴾ أي مقابلًا كالعشير والمعاشِر أو كفيلًا يشهد

---

(١) سقط في خ.
(٢) في ط: متوقع.
(٣) في ط: ليبلغوه.
(٤) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وخلف، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٣)، والتيسير للداني (١٤١)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٤)، والغيث للصفاقسي (٢٧٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).
(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٣)، والتيسير للداني (١٤١)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).
(٦) سقط في خ.

بصِحة ما تدعيه، وهو حالٌ من الجلالة وحالُ الملائكةِ محذوفةٌ لدِلالتها عليها أي والملائكةِ قُبَلاءَ[(١)] كما حذف الخبرُ في قوله: [الطويل]

.... فـإنـي وقـيّـارٌ بـهـا لـغـريـبُ[(٢)]

أو جماعةً فيكون حالًا من الملائكة ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ من ذهب وقد قرئ[(٣)] به وأصلُه الزينة ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي في معارجها فحُذف المضافُ، يقال: رقيَ في السُّلّم وفي الدرجة ﴿ولن نؤمن لرقيك﴾ أي لأجل رُقيِّك فيها وحده أو[(٤)] لن نصدق رقيَّك فيها ﴿حتى تنزل﴾ [منها][(٥)] ﴿علينا كتابًا﴾ فيه تصديقُك ﴿نقرؤه﴾ نحن من غير أن يُتلقّى من قِبلك. عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال عبدُاللَّه بنُ أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سُلّمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظُر حتى تأتيَها وتأتَي معك بصك منشورٍ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون أنك كما تقول، وما كانوا يقصِدون بهاتيك الاقتراحاتِ الباطلة إلا العنادَ واللَّجاجَ ولو أنهم أُوتوا أضعافَ ما اقترحوا من الآيات ما زادهم ذلك إلا مكابرةً وإلا فقد كان يكفيهم بعضُ ما شاهدوا من المعجزات التي تخِرُّ لها صُمُّ الجبال.

﴿قل﴾ تعجبًا من شدة شكيمتِهم وتنزيهًا لساحة السُّبحان عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحاتِ الشنيعة التي تكاد السمواتُ يتفطّرن منها أو عن طلبك [ذلك][(٦)] وتنبيهًا على[(٧)] بطلان ما قالوه ﴿سبحان ربي﴾ وقرئ قال سبحان[(٨)] ربي ﴿هل كنت إلا بشرًا﴾ لا ملَكًا حتى يُتصور مني الرقيُّ في السماء ونحوُه ﴿رسولًا﴾ مأمورًا من قبل ربي بتبليغ الرسالةِ من غير أن يكون لي خِيَرةٌ في الأمر كسائر الرسلِ وكانوا لا يأتون قومَهم إلا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حالَ قومِهم ولم يكن أمرُ الآياتِ إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشيء منها، وقولُه بشرًا خبرٌ لكنت و(رسولًا) صفتُه.

---

(١) في ط: قبيلاً.
(٢) تقدم.
(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٨٠)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٣١).
(٤) في خ: و.
(٥) سقط في خ.
(٦) سقط في خ.
(٧) في خ: من.
(٨) قرأ بها: ابن عامر، وابن كثير، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٦)، والتيسير للداني (١٤١)، والحجة لابن خالويه (٢٢١)، والحجة لأبي زرعة (٤١٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٥)، والغيث للصفاقسي (٢٧٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

عوائق الإيمان وعواقبها.

﴿وما منع الناس﴾ أي الذين حُكيت أباطيلُهم ﴿أن يؤمنوا﴾ مفعولٌ ثانٍ لمنع وقوله: ﴿إذ جاءهم الهدى﴾ أي الوحيُ ظرفٌ لمنع أو يؤمنوا أي وما منعهم وقت مجيءِ الوحي المقرونِ بالمعجزاتِ المستدعيةِ للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوّتك أو ما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيءِ ما ذكر ﴿إلا أن قالوا﴾ في محل الرفع على أنه فاعلُ منع أي إلا قولُهم: ﴿أبعث الله بشرًا رسولًا﴾ منكِرين أن يكون رسولُ الله تعالى من جنس البشرِ، وليس المرادُ أن هذا القولَ صدر عن بعضهم فمنع بعضًا آخرَ منهم، بل المانعُ هو الاعتقادُ الشاملُ للكل المستتبعُ لهذا القول منهم، وإنما عبرّ عنه بالقول إيذانًا بأنه مجردُ[1] قولٍ يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهومٌ ومِصْداقٌ، وحصرُ المانعِ من الإيمان فيما ذكر مع أن لهم موانعَ شتّى لِما أنه معظمُها أو لأنه هو المانعُ بحسب الحال، أعني عند سماعِ الجواب بقوله تعالى: ﴿هل كنتُ إلا بشرًا رسولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] إذ هو الذي يتشبّثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهيةِ، وفيه إيذانٌ بكمال عنادِهم حيث يشير إلى أن الجوابَ المذكورَ مع كونه حاسمًا لموادّ شُبَهِهم ملجئًا إلى الإيمان يعكُسون الأمرَ ويجعلونه مانعًا منه.

﴿قل﴾ لهم أولًا من قِبلنا تبيينًا للحكمة وتحقيقًا للحق المُزيحِ للرَّيب ﴿لو كان﴾ أي لو وجد واستقر ﴿في الأرض﴾ بدل البشر ﴿ملائكة يمشون مطمئنين﴾ قارّين فيها من غير أن يعرُجوا في السماء ويعلموا ما يجب أن يُعلم ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا﴾ يهديهم إلى الحق ويُرشِدُهم إلى الخير لتمَكُّنهم من الاجتماع والتلقي منه، وأما عامةُ البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضةِ الملكية فكيف[2] لا وهي منوطةٌ بالتناسب والتجانس، فبعثُ الملكِ إليهم مزاحِمٌ للحكمة التي عليها مبنى التكوينِ والتشريع، وإنما يُبعث الملَك[3] من بينهم إلى الخواصّ المختصين بالنفوس الزكية المؤيَّدين بالقوة القُدسية المتعلقين بكِلا العالَمين الروحاني والجُسماني ليتلقَّوا من جانب ويُلْقوا إلى جانب، وقوله تعالى: ﴿ملكًا﴾ يحتمل أن يكون حالًا من رسولًا وأن يكون موصوفًا به وكذلك بشرًا في قوله تعالى: ﴿أبعث الله بشرًا رسولًا﴾ [الإسراء، الآية ٩٤] [والأولُ أولى][4].

---

(١) في خ: أوَّل.
(٢) في خ: المعارضة للملائكة كيف.
(٣) في خ: المدن.
(٤) سقط في خ.

﴿قل﴾ لهم ثانيًا من جهتك بعد ما قلت لهم من قِبلنا ما قلتَ وبينتَ لهم ما تقضيه الحكمةُ في البعثة ولم يرفعوا إليه رأسًا ﴿كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيدًا﴾ على أني أدّيتُ ما عليّ من مواجب الرسالةِ أكملَ أداءٍ وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعِناد، وتوجيهُ الشهادةِ إلى كونه عليه السلام رسولًا بإظهار المعجزةِ على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى: ﴿بيني وبينكم﴾ وما بعده من التعليل، وإنما لم يقل: بيننا تحقيقًا للمفارقة وإبانةً للمباينة، وشهيدًا إما حالٌ أو تمييزٌ ﴿إنه كان بعباده﴾ من الرسل والمرسَلِ إليهم ﴿خبيرًا بصيرًا﴾ محيطًا بظواهر أحوالِهم وبواطنها[1] فيجازيهم على ذلك وهو تعليلٌ للكفاية[2]، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتهديدٌ للكفار ﴿ومن يهد الله﴾ كلامٌ مبتدأٌ يفصل ما أشار إليه الكلامُ السابق من مجازاة العبادِ إشارةً إجماليةً، أي من يهدِه الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فهو المهتد﴾ إليه وإلى ما يؤدّي إليه من الثواب أو المهتدِ إلى كل مطلوب ﴿ومن يضلل﴾ أي يخلُق فيه الضلالَ بسوء اختيارِه كهؤلاء المعاندين ﴿فلن تجد لهم﴾ أوثر ضميرُ الجماعة اعتبارًا لمعنى (مَنْ) غِبّ ما أوثر في مقابله الإفرادُ نظرًا إلى لفظها تلويحًا بوَحدة طريقِ الحقِّ وقلةِ سالكيه وتعددِ سبلِ الضلال وكثرةِ الضلال ﴿أولياء من دونه﴾ من دون الله تعالى أي أنصارًا يهدونهم إلى طريق الحقِّ أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدنيويةِ والأخروية، أو إلى طريق النجاةِ من العذاب الذي يستدعيه ضلالُهم، على معنى لن تجدَ لأحد منهم وليًّا على ما تقتضيه قضيةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمع من انقسام الآحادِ إلى الآحاد ﴿ونحشرهم﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى التكلم إيذانًا بكمال الاعتناءِ بأمر الحشرِ ﴿يوم القيامة على وجوههم﴾ أو مشيًا، فقد روي أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشِيَهم على وجوههم» ﴿عميًا﴾ حال من الضمير المجرورِ في الحال السابقة ﴿وبكمًا وصمًا﴾ لا يُبصِرون ما يُقِرّ أعينَهم ولا ينطِقون ما يُقبل منهم ولا يسمعون ما يُلذّ مسامعَهم لما قد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبرِ ولا ينطِقون بالحق ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشَروا بعد الحسابِ من الموقف إلى النار مُوفَيْ[3] القُوى والحواسّ وأن يحشروا كذلك[4] ثم يعاد إليهم قواهم وحواسُّهم، فإن إدراكاتِهم بهذه المشاعرِ في بعض المواطنِ مما لا ريب فيه ﴿مأواهم جهنم﴾ إما حالٌ أو استئناف وكذا قوله

(١) في خ: وبواطنهم.
(٢) في خ: الكفاية.
(٣) في خ: عرض.
(٤) في خ: لذلك.

تعالى: ﴿**كلما خبت زدناهم سعيرًا**﴾ أي كلما سكن لهبُها بأن أكلت جلودَهم ولحومَهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النارُ وتحرقه زدناهم توقدًا بأن بدّلناهم جلودًا غيرَها فعادت ملتهبةً ومستعرةً، ولعل ذلك عقوبةٌ لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الفناءِ بتكريرها مرةً بعد أخرى ليرَوها عِيانًا حيث لم يعلموها برهانًا كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿**ذلك**﴾ أي ذلك العذابُ ﴿**جزاؤهم بأنهم**﴾ أي بسبب أنهم ﴿**كفروا بآياتنا**﴾ العقليةِ والنقليةِ الدالةِ على صحة الإعادةِ دَلالةً واضحةً، فذلك مبتدأٌ وجزاؤُهم خبرُه ويجوز أن يكون مبتدأً ثانيًا وبأنهم خبرُه، والجملةُ خبرًا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلًا من ذلك أو بيانًا له والخبرُ هو الظرف ﴿**وقالوا**﴾ منكرين أشدَّ الإنكار ﴿**أئذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا**﴾ إما مصدرٌ مؤكدٌ من غير لفظِه أي لمبعوثون بعثًا جديدًا وإما حالٌ أي مخلوقين مستأنَفين ﴿**أولم يروا**﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿**أن الله الذي خلق السموات والأرض**﴾ من غير مادةٍ مع عظمهما ﴿**قادر على أن يخلق مثلهم**﴾ في الصغر على أن المِثْلَ مقحَمٌ[(١)] والمرادُ بالخلق الإعادةُ كما عبر عنها بذلك حيث قيل: خلقًا جديدًا ﴿**وجعل لهم أجلًا لا ريب فيه**﴾ عطف على أولم يروا فإنه في قوة قد رأوا، والمعنى قد علموا أن من قدَر على خلق السموات والأرضِ فهو قادرٌ على خلق أمثالِهم من الإنس وجعل [لهم][(٢)] ولبعثهم أجلًا محققًا لا ريب فيه هو يومُ القيامة ﴿**فأبى الظالمون**﴾ وُضع موضعَ الضميرِ تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوزِ الحدّ بالمرة ﴿**إلا كفورًا**﴾ أي جحودًا ﴿**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي**﴾ خزائنَ رزقِه التي أفاضها على كافة الموجوداتِ، وأنتم مرتفعٌ بفعل يفسّره المذكورُ كقول حاتم: [السريع]

لـــو ذاتُ سِـــوارٍ لَـــطَـــمـــتْـــنـــي[(٣)]

وفائدة ذلك المبالغةُ والدلالةُ على الاختصاص.

---

(١) في خ: مفخم. (٢) سقط في خ.

(٣) أي لو لطمتني ذات سوار، «لأن» لو طالبة للفعل داخلة عليه، والمعنى لو ظلمني من كان كفؤا لي لهان علي ولكن ظلمني من هو دوني.
وقيل: أراد لو لطمتني حرة فجعل السوار علامة للحرية؛ لأن العرب قلما تلبس الإماء السوار فهو يقول لو كانت اللاطمة حرة لكان أخف علي وهذا كما قال الشاعر:

فـلـو أنـي بـلـيـت بـهـاشـمـيٍّ خـؤلـتـه بـنـو عـبـد الـمـدان
لـهـان عـلـيَّ مـا ألـقـى ولـكـن تـعـالـوا فـانـظـروا بـمـن ابـتـلانـي.

ينظر: الجنى الداني ص (٢٧٩)، ومجمع الأمثال (٢/ ١٢٢)، وجمهرة الأمثال (٢/ ١٦٠)، وفصل المقال (١/ ٣٨١)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٨٢)، والأصول في النحو (١/ ٢٦٩)، والمفصل ص (٤١)، ومغني اللبيب (١/ ٣٥٣)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧١).

﴿إذن لأمسكتم﴾ لبخِلتم ﴿خشية الإنفاق﴾ إذ ليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو يختار النفعَ لنفسه، ولو آثر[1] غيرَه بشيء فإنما يُؤثره لِعوض يفوقه، فإذن[2] هو بخيلٌ بالإضافة إلى جودِ الله سبحانه ﴿وكان الإنسان قتورًا﴾ مبالغًا في البخل لأن مبْنى أمرِه على الحاجة والضِّنّة بما يحتاج إليه وملاحظةِ العِوضِ بما يبذُله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ واضحاتِ الدِلالة على نبوته وصِحّةِ ما جاء به من عند الله وهي العَصا واليدُ والجَرادُ والقُمّل والضفادعُ والدمُ والطوفانُ والسّنونَ ونقصُ الثمرات، وقيل: انفجارُ الماء من الحجر ونتْقُ الطورِ على بني إسرائيلَ وانفلاقُ البحرِ بدل الثلاث الأخيرة، ويأباه أن هذه الثلاثَ لم تكن منزلةً إذ ذاك وأن الأولَين لا تعلقَ لهما بفرعون وإنما أوتيهما بنو إسرائيلَ، وعن صفوانَ بن عسّال أن يهوديًا سألَ النبي عليه الصلاة والسلام عنها فقال: «**ألا تشركوا به شيئًا ولا تسرِقوا ولا تزنوا، ولا تقتُلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحرَوا ولا تأكُلوا الربا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطان ليقتُله ولا تقذِفوا مُحصنةً ولا تفِرّوا من الزحف، وعليكم خاصّةَ اليهودِ ألا تعْدوا في السبت**»[3] فقبّل اليهوديُّ يدَه ورجلَه [عليه السلام، ولا يساعده أيضًا ما ذكر ولعل جوابَه عليه السلام بذلك لما أنه المُهم للسائل وقبولُه لما أنه][4] كان في التوراة مسطورًا، وقد علِم أنه ما علمه رسولُ الله ﷺ إلا من جهة الوحي.

﴿فاسأل بني إسرائيلَ﴾ وقرئ فسَلْ[5] أي فقلنا له: سلْهم من فرعون، وقل[6] له: أرسلْ معيَ بني إسرائيلَ أو سلهم عن إيمانهم أو[7] عن حال دينِهم أو سلْهم أن يعاضدوك، ويؤيده قراءةُ رسولِ[8] الله ﷺ على صيغة الماضي، وقيل: الخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام [أي: فاسألهم عن تلك الآياتِ لتزدادَ يقينًا وطُمَأْنينةً أو

---

(١) في خ: أوثر. (٢) في خ: فإذا.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩)، والترمذي (٥/ ٧٧) كتاب استئذان، باب: قبلة اليد والرجل، برقم (٢٧٣٣)، والنسائي (٧/ ١١١) كتاب تحريم الدم، باب: السحر، والحاكم (١/ ٥٢) كتاب الإيمان، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٦) كتاب قتال أهل البغي، باب ما على من رفع إلى السلطان ما فيه ضرر، من حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٤) سقط في خ.
(٥) قرأ بها: ابن كثير، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ٨٥)، والغيث للصفاقسي (٢٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦٨).
(٦) في خ: وقال. (٧) في خ: و.
(٨) قرأ بها: ابن عباس.

=

ليظهر صِدقُك ﴿إذ جاءهم﴾ متعلق بـ (قلنا) وبـ (سأل) على القراءة المذكورةِ وبآياتنا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كونِ الخطابِ للرسول عليه الصلاة والسلام][1] ﴿فقال له فرعون﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي فأظهرَ عند فرعون ما آتيناه من الآيات البيناتِ وبلّغه ما أُرسل به، فقال له فرعونُ: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحورًا﴾ سُحرْت فتخبّط عقلك.

﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء﴾ يعني الآياتِ التي أظهرها ﴿إلا رب السموات والأرض﴾ خالقُهما ومدبرُهما، والتعرّضُ لربوبيته تعالى لهما للإيذان بأنه لا يقدِر على إيتاء مثلِ هاتيك الآياتِ العظامِ إلا خالقُهما ومدبّرهما ﴿بصائر﴾ حالٌ من الآيات أي بيناتٍ مكشوفاتٍ [تُبصّرك صدقي][2] ولكنك تعاند وتكابر، نحو: ﴿وجحَدوا بها واستيقنتها أنفسُهم﴾ [النمل: ١٤] ومن ضرورة ذلك العلمِ [العلمُ][3] بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانةِ[4] العقلِ فضلًا عن توهم المسحورية، وقرئ علمتُ[5] على صيغة التكلمِ أي لقد علمتُ بيقين أن هذه الآياتِ الباهرةَ أنزلها الله عز سلطانه فكيف يُتوهم أن يحومَ حولي سحر ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا﴾ مصروفًا عن الخير مطبوعًا على الشر، من قولهم: ما ثبَرك عن هذا أي ما صرفك، أو هالكًا ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنه وشتان بينهما، كيف لا وظنُّ فرعونَ إفكٌ مُبينٌ وظنُّه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين.

﴿فأراد﴾ أي فرعون ﴿أن يستفزهم﴾ أي يستخِفَّهم ويُزعجَهم ﴿من الأرض﴾ أرضِ مصرَ أو من الأرض مطلقًا بالقتل كقوله: ﴿سنقتّل أبناءَهم ونستحيي نساءهم﴾ [الأعراف، الآية ١٢٧] ﴿فأغرقناه ومن معه جميعًا﴾ فعكسنا عليه مكرَه واستفززناه وقومَه بالإغراق ﴿وقلنا من بعده﴾ من بعد إغراقِهم ﴿لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ التي أراد أن يستفزّكم منها ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ الكرةُ الآخرةُ أو[6] الحياةُ أو[7]

= ينظر: البحر المحيط (٦/ ٨٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٥٢٨).

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: تبصّر.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: وصافة.
(٥) قرأ بها: الكسائي، والأعمش، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن علي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٧)، والتيسير للداني (١٤١)، والحجة لابن خالويه (٢٢١)، والحجة لأبي زرعة (٤١١)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٥)، والغيث للصفاقسي (٢٧٦)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).
(٦) في خ: و.
(٧) في خ: و.

الساعةُ والدارُ الآخرة أي قيامُ القيامة ﴿**جئنا بكم لفيفًا**﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكُم بينكم ونميز سعداءَكم من أشقيائكم واللفيفُ الجماعاتُ من قبائلَ شتى.

القرآن حق

﴿**وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**﴾ أي وما أنزلنا القرآنَ إلا ملتبسًا بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا ملتبسًا بالحق الذي اشتمل عليه، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظًا وما نزل على الرسول إلا محفوظًا من تخليط الشياطينِ، ولعل المرادَ بيانُ عدم اعتراءِ البطلان له أولَ الأمر وآخرَه ﴿**وما أرسلناك إلا مبشرًا**﴾ للمطيع بالثواب ﴿**ونذيرًا**﴾ للعاصي من العقاب، وهو تحقيقٌ لحقية بعثتِه عليه الصلاة والسلام [إثرَ تحقيقِ حقية][1] إنزالِ القرآن ﴿**وقرآنًا**﴾ منصوب بمضمر يفسّره قوله تعالى: ﴿**فرقناه**﴾ وقرئ بالتشديد[2] دَلالةً على كثرة نجومِه ﴿**لتقرأه على الناس على مكث**﴾ على مَهل وتثبُّتٍ فإنه أيسرُ للحفظ وأعونُ[3] على الفهم، وقرئ بالفتح[4] وهو لغة فيه ﴿**ونزلناه تنزيلًا**﴾ حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات.

﴿**قل**﴾ للذين كفروا ﴿**آمنوا به أو لا تؤمنوا**﴾ فإن إيمانَكم به لا يزيده كمالًا وامتناعَكم لا يورثه نقصًا ﴿**إن الذين أوتوا العلم من قبله**﴾ أي العلماءَ الذين قرأوا الكتبَ السالفةَ من قبل تنزيلِه وعرَفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوةِ وتمكّنوا من التمييز بين الحقِّ والباطلِ والمُحقِّ والمبطلِ ورأوا فيها نعتَك ونعتَ ما أنزل إليك ﴿**إذا يتلى**﴾ أي القرآنُ ﴿**عليهم يخرّون للأذقان**﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿**سجدًا**﴾ تعظيمًا لأمر الله تعالى أو شكرًا لإنجاز ما وعد به في تلك الكتبِ من بعثتك، وتخصيصُ الأذقانِ بالذكر للدلالة على كمال التذللِ إذ حينئذ يتحقق الخُرور عليها، وإيثارُ اللام للدلالة على اختصاص الخُرور بها كما في قوله: [الطويل]

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو (في رواية)، وابن محيصن، وأُبي، وعبد الله، وعلي، وابن عباس، وأبو رجاء، وقتادة، والشعبي، وحميد، وعمرو بن فائد، وزيد بن علي، وعمرو بن ذر، وعكرمة، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٧)، والتبيان للطوسي (٦/ ٥٣٠)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٤٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٣٣).

(٣) في خ: أهون.

(٤) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٣)، والبحر المحيط (٦/ ٨٨)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٤٠) والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٦٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ٦٨).

.... فخرَّ صريعًا لليدين وللفمِ[1]

وهو تعليلٌ لما يفهم من قوله تعالى: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ من عدم المبالاة بذلك أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَنْ هو خيرٌ منكم، ويجوز أن يكون تعليلًا لـ (قُلْ) على سبيل التسليةِ لرسول الله ﷺ كأنه قيل: تسلَّ بإيمان العلماءِ عن إيمان الجهلةِ ولا تكترث بإيمانهم وإعراضِهم ﴿**ويقولون**﴾ في سجودهم ﴿**سبحان ربنا**﴾ عما يفعل الكفرةُ من التكذيب أو عن خُلْف وعده ﴿**إن كان وعد ربنا لمفعولًا**﴾ إن مخففةٌ من المثقّلة، واللامُ فارقةٌ أي إن الشأن هذا.

﴿**ويخرون للأذقان يبكون**﴾ كرر الخُرورَ للأذقان لاختلاف السبب فإن (الأولَ) لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكرِ لإنجاز الوعدِ (والثاني) لِما أثّر فيهم من مواعظ القرآنِ حالَ كونِهم باكين من خشية الله ﴿**ويزيدهم**﴾ أي القرآنُ بسماعهم ﴿**خشوعًا**﴾ كما يزيدهم علمًا ويقينًا بالله تعالى ﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن**﴾ نزل حين سمع المشركون رسولَ الله ﷺ يقول: «**يا الله يا رحمٰنُ**» فقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلٰهين وهو يدعو إلٰهًا آخرَ[2]. وقالت اليهود: إنك لتقل ذكرَ الرحمٰنِ وقد أكثره الله تعالى في التوراة. والمرادُ على الأول هو التسويةُ بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدةٍ وإن اختلف الاعتبارُ والتوحيدُ إنما هو للذات الذي هو المعبودُ، وعلى الثاني أنهما سيّان في حسن الإطلاقِ والإفضاء إلى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى: ﴿**أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾ والدعاءُ بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حُذف أولُهما استغناءً عنه، وأو للتخيير والتنوينُ في أيًا عوضٌ عن المضاف إليه وما مزيدةٌ لتأكيد ما في أي من الإبهام، والضميرُ في له للمسمّى لأن التسميةَ له لا للاسم وكان أصلُ الكلامِ أيًا ما تدعو فهو حسنٌ فوضع موضعَه فله الأسماءُ الحسْنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليلُ عليه، إذ حسنُ جميعِ أسمائِه يستدعي حسنَ ذينك الاسمين وكونُها حُسنى لدلالتها على صفات الكمالِ من الجلال والجمال والإكرام.

---

(١) عجز بيت وصدره:

تناوله بالرمح ثم اتَّنى له ....

والبيت لجابر بن حُنَيٍّ التغلبي في شرح اختيارات المفضل ص (٩٥٥)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٥٦٢)، وللأشعث الكندي في الأزهية ص(٢٨٨)، ولربيعة بن مكدم في الأغاني (١٦/ ٣٢)، ولعصام بن المقشعر في معجم الشعراء ص (٢٧٠)، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص (٥١١)، والجنى الداني ص (١٠١)، ورصف المباني ص (٢٢١)، وشرح الأشموني (٢/ ٢٩١)، ومغني اللبيب (١/ ٢١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٥٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

﴿**ولا تجهر بصلاتك**﴾ أي بقراءة صلاتِك بحيث تُسمع المشركين فإن ذلك يحملهم على السب واللغوِ فيها ﴿**ولا تخافت بها**﴾ أي بقراءتها بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿**وابتغ بين ذلك**﴾ أي بين الجهرِ والمخافتة على الوجه المذكور ﴿**سبيلًا**﴾ أمرًا وسَطًا قصْدًا فإن خيرَ الأمور أوساطُها، والتعبيرُ عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمرٌ يتوجه إليه المتوجهون ويؤُمّه المقتدون ويوصلُهم إلى المطلوب، وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان يخفِت ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر رضي الله عنه كان يجهر بها ويقول: أطرُد الشيطان وأوقظ الوسْنان، فلما نزلت أمرَ رسولُ الله ﷺ أبا بكر أن يرفعَ قليلًا وعمرَ أن يخفِض قليلًا[(١)]، وقيل: المعنى لا تجهَرْ بصلاتك كلِّها ولا تخافت بها بأسرها وابتغِ بين ذلك سبيلًا بالمخافتة نهارًا والجهرِ ليلًا، وقيل: بصلاتك بدعائك وذهب قوم إلى أنها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ادْعوا ربكم تضرّعًا وخُفية﴾ [الأعراف: ٥٥].

﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا**﴾ كما يزعم اليهودُ والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله والملائكةُ بناتُ الله، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿**ولم يكن له شريك في الملك**﴾ أي الألوهيةِ كما يقوله الثنويةُ القائلون بتعدد الآلهة ﴿**ولم يكن له ولي من الذل**﴾ ناصرٌ ومانعٌ منه لاعتزازه، أو لم يوالِ أحدًا من أجل مذلةٍ ليدفعها به، وفي التعرض في أثناء الحمدِ لهذه الصفاتِ الجليلة إيذانٌ بأن المستحقَّ للحمد منْ هذه نعوتُه دون غيره، إذ بذلك يتم الكمالُ والقُدرةُ التامةُ على الإيجاد، وما يتفرّع عليه من إفاضة أنواعِ النعم وما عداه ناقصٌ مملوكٌ نعمته[(٢)] أو منعم عليه، ولذلك عُطف عليه قولُه تعالى: ﴿**وكبره تكبيرًا**﴾ وفيه تنبيهٌ على أن العبدَ وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي أن يعترِف بالقصور في ذلك. رُوي أنه ﷺ كان إذا أفصح الغلامُ من بني عبد المطلب علّمه هذه الآية الكريمة[(٣)].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «**من قرأ سورةَ بني إسرائيلَ فرقّ قلبُه عند ذكرِ الوالدَين كان له قنطارٌ في الجنة**» والقنطارُ ألفُ أوقية ومائتا أوقية[(٤)] [والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت][(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٥٨٦). (٢) في ط: نعمة.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة ص (٣٧٤).

(٤) تقدم تخريجه. (٥) سقط في خ.

سورة الكهف

مكية إلا الآيات ٢٨ ومن آية ٨٣ إلى آية ١٠١ فمدنية
وآياتها مائة وعشر آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ

مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده**﴾ محمد ﷺ ﴿**الكتاب**﴾ أي الكتابَ الكاملَ الغنيَّ عن الوصف بالكمال المعروفِ بذلك من بين الكتبِ، الحقيقَ باختصاص اسم الكتابِ به، وهو عبارةٌ عن جميع القرآنِ أو عن جميع المُنْزَل حينئذ كما مر مرارًا، وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّية ما في حيز الصلةِ لاستحقاق الحمدِ وإيذانٌ بعِظم شأنِ التنزيلِ الجليلِ، كيف لا وعليه يدور فَلَكُ سعادةِ الدارين، وفي التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافًا إلى ضمير الجلالةِ تنبيهٌ على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارجِ العبادةِ وتشريفٌ له أي تشريف وإشعارٌ بأن شأنَ الرسولِ أن يكون عبدًا للمرسِلِ لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام، وتأخيرُ المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديمُ عليه ليتصل به قوله تعالى: ﴿**ولم يجعل له عوجًا**﴾ أي شيئًا من العِوَج بنوع اختلالٍ في النظم وتَنافٍ في المعنى أو انحرافٍ عن الدعوة إلى الحق وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان، وأما قوله تعالى: ﴿لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] مع كون الجبالِ من الأعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يُدرك من العوج بحاسة البصر، بل إنما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمالِ المقاييسِ الهندسيةِ، ولمّا كان ذلك مما لا يُشعَر به بالمشاعر الظاهرةِ عُدّ من قبيل ما في المعاني، وقيل: الفتحُ في اعوجاج المنتصِبِ كالعُود والحائِط، والكسرُ في اعوجاج غيرِه عينًا كان أو معنى.

﴿**قيمًا**﴾ بالمصالح الدينيةِ والدنيويةِ للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار

والتبشيرِ فيكون وصفًا له بالتكميل بعد وصفِه بالكمال، أو على ما قبله من الكتب السماويةِ شاهدًا بصِحتها ومهيمنًا عليها أو متناهيًا في الاستقامة، فيكون تأكيدًا لما دل عليه نفيُ العِوج مع إفادة كونِ ذلك من صفاته الذاتيةِ اللازمةِ له حسبما تنبئ عنه الصيغةُ لا أنه نفى عنه العوج مع كونه من شأنه، وانتصابُه على تقديرِ كونِ الجملةِ المتقدمةِ معطوفةً على الصلة بمضمر ينبئ عنه نفيُ العِوَج تقديرُه جعلَه قيمًا، وأما على تقدير كونها حاليةً فهو على الحالية من الكتاب إذ لا فصلَ حينئذ بين أبعاضِ المعطوفِ عليه بالمعطوف وقرئ[1] قيمًا ﴿**لينذر**﴾ متعلقٌ بأنزل والفاعلُ ضميرُ الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه، والإطلاقُ عن ذكر المفعولِ الأول للإيذان بأن ما سيق له الكلامُ هو المفعولُ الثاني وأن الأولَ ظاهرٌ لا حاجةَ إلى ذكره، أي أنزل الكتابَ لينذر بما فيه الذين كفروا به ﴿**بأسًا**﴾ أي عذابًا ﴿**شديدًا من لدنه**﴾ أي صادرًا من عنده نازلًا من قِبله بمقابلة كفرِهم وتكذيبهم، وقرئ من لدنِه[2] بسكون الدال مع إشمام الضمةِ وكسر النونِ لالتقاء السَاكنين وكسر الهاءِ للإتباع ﴿**ويبشر**﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف[3] ﴿**المؤمنين**﴾ أي المصدقين به ﴿**الذين يعملون الصالحات**﴾ الأعمالَ الصالحةَ التي بيّنت في تضاعيفه، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدد الأعمالِ الصالحة واستمرارِها، وإجراءُ الموصولِ على موصوفه المذكورِ لما أن مدارَ قَبولِ الأعمالِ هو الإيمان ﴿**أن لهم**﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالِهم المذكورة ﴿**أجرًا حسنًا**﴾ هو الجنةُ وما فيها من المثوبات الحُسنى.

﴿**ماكثين**﴾ حال من الضمير المجرور في لهم ﴿**فيه**﴾ أي في ذلك الأجر ﴿**أبدًا**﴾ من غير انتهاء أي خالدين فيه، وهو نصبٌ على الظرفية لماكثين، وتقديمُ الإنذار على التبشير لإظهار كمال العنايةِ بزجر الكفّارِ عما هم عليه مع مراعاة تقديم التخليةِ على التحلية، وتكريرُ الإنذار بقوله تعالى: ﴿**وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا**﴾ متعلقًا بفِرْقة خاصة ممن عمّه الإنذارُ السابقُ من مستحقي البأسِ الشديدِ للإيذان بكمال

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٢).

(٢) قرأ بها: عاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والتيسير للداني (١٤٢)، والحجة لابن خالويه (٢٢١)، والحجة لأبي زرعة (٣١٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٠).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والتيسير للداني (٨٧)، والغيث للصفاقسي (٢٧٧)، وتفسير الرازي (٢١/ ٧٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

فظاعةِ حالِهم لغاية شناعةِ كفرِهم وضلالِهم، أي وينذرَ من بين سائر الكفرةِ هؤلاء المتفوّهين بمثل هاتيك العظيمةِ خاصة وهم كفارُ العرب الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، واليهودُ القائلون: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن الله، وتركُ إجراءِ الموصولِ على الموصوف كما فُعل في قوله تعالى: ﴿ويبشر المؤمنين﴾ [الكهف: ٢] للإيذان بكفاية ما في حيز الصلةِ في الكفر على أقبح الوجوه، وإيثارُ صيغةِ الماضي في الصلة للدِلالة على تحقق صدورِ تلك الكلمةِ القبيحة عنهم فيما سبق. وجعلُ المفعولِ المحذوفِ فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة يؤدي إلى خروج سائرِ أصنافِ الكفرة عن الإنذار والوعيدِ، وتعميمُ الإنذارِ هناك للمؤمنين أيضًا بحمله على معنى مجردِ الإخبارِ بالخبر الضارِّ من غير اعتبار حُلول المنذَرِ به على المنذَر كما في قوله تعالى: ﴿أنْ أنذر الناسَ وبشّر الذين آمنوا﴾ [يونس: ٢] يُفضي إلى خلوّ النظمِ الكريم عن الدلالة على حلول البأسِ الشديدِ على مَنْ عدا هذه الفرقةِ، ويجوز أن يكون الفاعلُ في الأفعال الثلاثة ضميرَ الكتاب أو ضميرَ الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿**ما لهم به**﴾ أي باتخاذه سبحانه وتعالى ولدًا ﴿**من علم**﴾ مرفوعٌ على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرفِ، ومِن مزيدةٌ لتأكيد النفي والجملةُ حاليةٌ أو مستأنَفةٌ[1] لبيان حالِهم في مقالهم، أي ما لهم بذلك شيءٌ من علم أصلًا لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلومِ أو إمكانِه بل لاستحالته في نفسه ﴿**ولا لآبائهم**﴾ الذين قلدوهم فتاهوا جميعًا في تيه الجهالةِ والضلالةِ أو ما لهم علمٌ بما قالوه أهو صوابٌ أم خطأٌ، بل إنما قالوه رميًا عن عمًى وجهالةٍ من غير فكر ورويّةٍ كما في قوله تعالى: ﴿وخرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علم﴾ [الأنعام: ١٠٠] أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رُتبتِه في الشناعة كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمٰنُ ولدًا لقد جئتم شيئًا إدًّا تكادُ السمواتُ يتفطَّرْن منه﴾ [مريم، الآيات: ٨٨، ٨٩، ٩٠] وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿**كبرت كلمة**﴾ أي عظُمت مقالتُهم هذه في الكفر والافتراءِ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائِه، والفاعلُ في كبُرت إما ضميرُ المقالةِ المدلولِ عليها بقالوا وكلمةً نُصبَ على التمييز أو ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بما بعده من النكرة المنصوبةِ تمييزًا كبئس رجلًا، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ تقديرُه كبُرت هي كلمةً خارجةً من أفواههم، وقرئ (كبْرتْ)[2] بإسكان الباء مع إشمام الضم، وقرئ (كلمةٌ)[3] بالرفع ﴿**تخرج من**

(١) في المخطوط: استئنافية. (٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٢).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، والحسن، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وعيسى =

أفواههم﴾ صفةٌ للكلمة مفيدةٌ لاستعظام اجترائِهم على التفوه بها، وإسنادُ الخروجِ إليها مع أن الخارجَ هو الهواءُ المتكيفُ بكيفية الصوتِ لملابسته بها ﴿إن يقولون﴾ ما يقولون في ذلك الشأنِ ﴿إلا كذبًا﴾ أي إلا قولًا كذبًا لا يكاد يدخُل تحت إمكانِ الصدق أصلًا، والضميران لهم ولآبائهم.

مُثّل حالُه عليه الصلاة والسلام في شدة الوجدِ على إعراض القومِ وتولّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال من يُتوقع منه إهلاكُ نفسِه إثْرَ فواتِ ما يُحِبّه عند مفارقة أحبّتِه تأسفًا على مفارقتهم وتلهفًا على مهاجَرتهم، فقيل على طريقة التمثيلِ حملًا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والإشفاق من ذلك:

﴿فلعلك باخع﴾ أي مُهلكٌ ﴿نفسك على آثارهم﴾ غمًا ووجدًا على فراقهم وقرئ بالإضافة[1] ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أي القرآنِ الذي عبّر عنه في صدر السورةِ بالكتاب، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه، وقرئ بأنْ[2] المفتوحةِ أي لأن لم يؤمنوا، فإعمالُ باخعٌ بحمله على حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضار الصورةِ كما في قوله عز وجل: ﴿باسطٌ ذارعيه﴾ [الكهف: ١٨] ﴿أسفًا﴾ مفعولٌ له لباخعٌ أي لِفَرْط الحزنِ والغضبِ أو حالٌ مما فيه الضمير أي متأسفًا عليهم، ويجوز حملُ النظمِ الكريم على الاستعارة التبعيةِ بجعل التشبيهِ بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتين المنتزَعتين منهما كما في التمثيل، وقد مر تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٧].

﴿إنا جعلنا ما على الأرض﴾ استئنافٌ وتعليلٌ لما في لعل من معنى الإشفاقِ، أي إنا جعلنا ما عليها ممن عدا مَنْ وُجّه إليه التكليفُ من الزخارف حيوانًا كان أو نباتًا أو معدِنًا كقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿زينةً﴾ مفعولٌ ثانٍ للجعل إن حُمل على معنى التصييرِ أو حالٌ إن حمل على معنى الإبداعِ، واللام في ﴿لها﴾ إما متعلقةٌ بزينةً أو بمحذوف هو صفةٌ لها أي كائنةً لها أي ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرًا واستدلالًا، فإن الحياتِ والعقاربَ

= الثقفي، والأعرج، وعمرو بن عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٢٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٤٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٩٣)، (٢/ ٢٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٣٤).

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٩٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٣).
(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٤)، والبحر المحيط (٦/ ٩٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٣).

من حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافِع بل كلُّ حادثٍ داخلٌ تحت الزينة من حيث دَلالتُه على وجود الصانع ووَحدتِه فإن الأزواجَ والأولادَ أيضًا من زينة الحياةِ الدنيا بل أعظمُها ولا يمنع ذلك كونُهم من جملة المكلفين فإنهم من جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينةِ ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء.

﴿لنبلوهم﴾ متعلقٌ بجعلنا أي جعلنا ما جعلنا لنعاملَهم معاملةَ من يختبرهم **﴿أيهم أحسن عملًا﴾** فنجازيهم بالثواب والعقابِ حسبما تبين المحسنُ من المسيء وامتازت طبقاتُ أفرادِ كلٍّ من الفريقين حسب امتيازِ مراتبِ علومِهم المرتبة على أنظارهم وتفاوتِ درجاتِ أعمالِهم المتفرّعةِ على ذلك كما قررناه[1] في مطلع سورة هود.

و(أيُّ) إما استفهاميةٌ مرفوعةٌ بالابتداء وأحسنُ خبرُها والجملةُ في محل النصبِ معلّقةٌ لفعل البلوىٰ لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبتِه كالسؤال والنظرِ، ولذلك أجريَ مَجراه بطريق التمثيلِ أو الاستعارةِ التبعية، وإما موصولةٌ بمعنى الذي وأحسنُ خبر مبتدأ مضمر، والجملةُ صلةٌ لها وهي في حيز النصبِ بدلٌ من مفعول لنبلوَهم والتقديرُ لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملًا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمةُ في أيُّهم للبناء كما في قوله عز وجل: ﴿ثم لننزِعَنّ من كل شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمٰن عِتيًا﴾ [مريم، الآية ٦٩] على أحد الأقوالِ لتحقق شرط البناءِ الذي هو الإضافةُ لفظًا وحذفُ صدرِ الصلةِ وأن تكون للإعراب لأن ما ذكر شرطٌ لجواز البناءِ لا لوجوبه، وحُسنُ العملِ الزهدُ فيها وعدمُ الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأملُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقِها والتمتعُ بها حسبما أذِن له الشرعُ وأداءُ حقوقها والشكرُ لها، لا اتخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراضِ الفاسدة كما يفعله الكفرةُ وأصحابُ الأهواء. وإيرادُ صيغةِ التفضيل مع أن الابتلاء شاملٌ للفريقين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيح أيضًا لا إلى الحسن والأحسنِ فقط للإشعار بأن الغايةَ الأصلية للجعل المذكورِ إنما هو ظهورُ كمال إحسانِ المحسنين على ما حُقّق في تفسير قوله تعالى: ﴿ليبلوَكم أيُّكم أحسن عملًا﴾ [هود، الآية ٧].

﴿وإنا لجاعلون﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمرِ الدنيا **﴿ما عليها﴾** من المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلية وإنما أُظهر في مقام الإضمارِ لزيادة التقريرِ أو لإدراج المكلفين فيه **﴿صعيدًا﴾** مفعولٌ ثانٍ للجعل، والصعيدُ الترابُ أو وجهُ الأرضِ، قال أبو عبيدة:

---

(١) في المخطوط: رأينا.

هو المستوي من الأرض، وقال الزجاجُ: هو الطريقُ الذي لا نبات فيه **﴿جُرزًا﴾** ترابًا لا نباتَ فيه بعد ما كان يَتعجَّب من بهجته النُّظارُ وتتشرف بمشاهدته الأبصارُ، يقال: أرضٌ جرُزٌ لا نباتَ فيها وسَنةٌ جرُزٌ لا مطر فيها. قال الفراء: جُرِزَت الأرضُ فهي مجرُوزة أي ذهب نباتُها بقحط أو جراد، ويقال: جرَزها الجرادُ والشاةُ والإبلُ إذا أكلت ما عليها، وهذه الجملةُ لتكميل ما في السابقة من التعليل، والمعنى لا تحزنْ بما عاينْتَ من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياءِ زينةً لها لنختبرَ أعمالَهم فنجازِيَهم بحسبها وإنا لَمُفْنون جميعَ ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم.

قصة أهل الكهف

﴿أم حسبت﴾ الخطابُ لرسول الله ﷺ والمرادُ إنكارُ حُسبانِ أمّته، و(أم) منقطعةٌ مقدّرة ببل التي هي للانتقال من حديث إلى حديث لا للإبطال، وبهمزة الاستئنافِ عند الجمهور وبـ (بل)[1] وحدها عند غيرِهم أي بل أحسبت **﴿أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا﴾** في بقائهم على الحياة مدةً طويلةً من الدهر **﴿من آياتنا﴾** من بين آياتِنا التي من جملتها ما ذكرناه مِنْ جعْل ما على الأرض زينةً لها للحكمة المشارِ إليها ثم جعلِ ذلك كلِّه صعيدًا جرُزًا كأن لم تغْنَ بالأمس **﴿عجبًا﴾** أي آيةً ذاتَ عجَبٍ وضْعًا له موضعَ المضاف أو وصفًا لذلك بالمصدر مبالغةً، وهو خبرٌ لكانوا ومن آياتنا حالٌ منه، والمعنى أن قصّتَهم وإن كانت خارقةً للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآياتِ التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هي عندها كالنزْر الحقير، والكهفُ الغارُ الواسعُ في الجبل والرقيمُ كلبُهم، قال أمية بن أبي الصَّلت: [الطويل]

وليس بها إلا الرقيمُ مجاورًا ... وصيدُهمُ والقومُ في الكهف هُمَّدُ[2]

وقيل: هو لوحٌ رصاصيٌّ أو حجَري رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهفِ، وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهفُ فهو من رَقْمة الوادي أي جانبِه، وقيل: الجبلُ، وقيل: قريتُهم، وقيل: مكانُهم بين غضبانَ وأيْلةَ دون فلسطين، وقيل: أصحابُ الرقيم آخرون وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغارُ فنجَوْا بذكر كلٍّ منهم أحسنَ عمله على ما فُصِّل في الصحيحين[3].

---

(١) في المخطوط: وبل.
(٢) البيت في ديوانه،ص (٣٧)، والبحر المحيط (٦/ ٩١)، والدر المصون (٤/ ٤٣٥).
(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٠٩) كتاب الإجارة، باب: من استأجر أجيرًا فترك أجره فعمل فيه المستأجر =

﴿إذ أوى﴾ ظرفٌ لعجبًا لا لحسِبتَ أو مفعولٌ لاذكر أي حين التجأ ﴿الفتية﴾ أي أصحابُ الكهف، أوثر الإظهارُ على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوةِ فإنهم كانوا فتيةً من أشراف الرومِ أرادهم دقيانوسُ على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبيّةَ الكهف من فروعِ التجائِهم إلى الكهف فلا يناسب اعتبارُها معهم قبل بيانه ﴿إلى الكهف﴾ بجبلهم للجلوس واتخذوه مأوى ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك﴾ من خزائن رحمتِك الخاصةِ المكنونةِ عن عيون أهلِ العادات، فمن ابتدائيةٌ متعلقةٌ بآتنا أو بمحذوف وقع حالًا من مفعوله الثاني قُدّمت عليه لكونه نكرةً، ولو تأخّرت لكانت صفةً له أي آتنا كائنةً من لدنك ﴿رحمة﴾ خاصةً تستوجب المغفرةَ والرزقَ والأمنَ من الأعداء ﴿وهيّئ لنا من أمرنا﴾ الذي نحن عليه من مهاجَرة الكفارِ والمثابرة على طاعتك، وأصلُ التهيئةِ إحداثُ هيئةِ الشيء، أي أصلحْ ورتّب وأتممْ لنا من أمرنا ﴿رشدًا﴾ إصابةً للطريق الموصلِ إلى المطلوب واهتداءً إليه، وكِلا الجارّين متعلقٌ بـ(هيّئ) لاختلافهما في المعنى، وتقديمُ المجرورَين على المفعول الصريحِ لإظهار الاعتناءِ بهما وإبرازِ الرغبةِ في المؤخر بتقديم أحوالِه فإن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ عما هو من أحواله المرغّبة فيه كما يورث شوقَ السامعِ إلى وروده ينبئ عن كمال رغبةِ المتكلّم واعتنائِه بحصوله لا محالة، وكذا الكلامُ في تقديم قوله تعالى: ﴿من لدنك﴾ على تقدير تعلّقِه بآتنا، وتقديمُ لنا على (من أمرنا) للإيذان من أول الأمرِ بكون المسؤول مرغوبًا فيه لديهم، أو اجعل أمرَنا رشدًا كلَّه على أن من تجريديةٌ مثلُها في قولك: رأيتُ منك أسدًا.

﴿فضربنا على آذانهم﴾ أي أَنَمناهم على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه الإنامةِ الثقيلةِ[١] المانعةِ عن وصول الأصواتِ إلى الآذان بضرب الحجابِ عليها، وتخصيصُ الآذان بالذكر مع اشتراك سائرِ المشاعرِ لها في الحجْب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاجُ إلى الحجب عادة، إذ هي الطريقةُ للتيقظ غالبًا لا سيما عند انفرادِ النائم واعتزالِه عن الخلق، وقيل: الضربُ على الآذان كنايةٌ عن الإنامة الثقيلةِ، وحملُه على تعطيلها كما في قولهم: ضرب الأميرُ على يد الرعيةِ أي منعهم من التصرف مع عدم

= فزاد، برقم (٢٢٧٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة، برقم (١٠٠/ ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

(١) ومن الممكن أن تكون من الكناية، وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.
ينظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٢٦٨).

ملاءمتِه لما سيأتي من البعث لا يدل على النوع مع أنه المرادُ قطعًا، والفاء في فضربنا كما في قوله عز وجل: ﴿فاستجبْنا له﴾ بعد قوله تعالى: ﴿إذ نادى﴾ [الأنبياء: ٧٦] فإن الضربَ المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال والبعثِ وغيرِ ذلك إيتاءُ رحمةٍ لدنيّةٍ خافيةٍ عن أبصار المتمسكين بالأسباب العادية استجابةً لدعوتهم ﴿في الكهف﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سنين﴾ ظرفُ زمان له باعتبار بقائِه لا ابتدائِه ﴿عددًا﴾ أي ذواتَ عدد أو تُعدّ عددًا على أنه مصدرٌ أو معدودةً على أنه بمعنى المفعول، ووصفُ السنين بذلك إما للتكثير وهو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرةِ أو للتقليل وهو الأليقُ بمقام إنكارِ كون القصةِ عجبًا من بين سائر الآياتِ العجيبة فإن مدة لُبثهم كبعض يومٍ عنده عز وجل.

﴿ثم بعثناهم﴾ أي أيقظناهم من تلك النومةِ الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لنعلم﴾ بنون العظمة، وقرئ بالياء[1] مبنيًّا للفاعل بطريق الالتفاتِ، وأيًّا ما كان فهو غايةٌ للبعث لكن لا بجعل العلمِ مجازًا من الإظهار والتمييز، أو بحمله على ما يصِح وقوعُه غايةً للبعث الحادثِ من العلم الحالي الذي يتعلق به الجزاءُ كما في قوله تعالى: ﴿إلا لنعلمَ من يتبعُ الرسولَ ممن ينقلبُ على عقبيه﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقوله تعالى: ﴿وليعلمَ الله الذين آمنوا﴾ [آل عمران، الآية ١٤٠] ونظائرِهما التي يتحقق فيها العلمُ بتحقق متعلقِه قطعًا، فإن تحويلَ القِبلة قد ترتب عليه تحزّبُ الناس إلى متّبِعٍ ومنقلب، وكذا مداولةُ الأيامِ بين الناس ترتب عليه تحزّبُهم إلى الثابت على الإيمانِ والمتزلزلِ فيه وتعلق بكل من الفريقين العلمُ الحالي والإظهارُ والتمييزُ، وأما بعثُ هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقُهم إلى المَحْصيِّ وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الإظهارُ والتمييزُ ويتسنى نظمُ شيء من ذلك في سلك الغاية، وإنما الذي ترتب عليه تفرقُهم إلى مقدِّر تقديرًا غيرَ مصيب ومفوّض إلى العلم الرباني وليس شيءٌ منهما من الإحصاء في شيء بل بحمل النظم الكريم على التمثيل المبنيِّ على جعل العلمِ عبارةً عن الاختبار مجازًا بطريق إطلاقِ اسم المسبَّب على السبب، وليس من ضرورة الاختبارِ صدورُ الفعل المختبَرِ به عن المختبَرِ قطعًا، بل قد يكون لإظهار عجزِه عنه على سنن التكاليفِ التعجيزيةِ كقوله تعالى: ﴿فأتِ بها من المغرب﴾ [البقرة، الآية ٢٥٨] وهو المرادُ هاهنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملةَ من يختبرهم.

﴿أي الحزبين﴾ أي الفريقين المختلفَين في مدة لُبثهم بالتقدير والتفويض كما

---

(١) قرأ بها: الزهري.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٠٣).

سيأتي ﴿أحصى﴾ أي أضبط ﴿لما لبثوا﴾ أي للبثهم ﴿أمدًا﴾ أي غايةً فيظهر لهم عجزُهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفوا حالَهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانِهم وأديانِهم فيزدادوا يقينًا بكمال قدرتِه وعلمِه ويستبصروا به أمرَ البعث ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانِهم وآيةً بينة لكفارهم، وقد اقتُصر هاهنا من تلك الغايات الجليلةِ على ذكر مبدئِها الصادرِ عنه عز وجل وفيما سيأتي على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدّي إليها، وهذا أولى من تصوير التمثيلِ بأن يقال: بعثناهم بعْثَ من يريد أن يعلم . . . إلخ حسبما وقع في تفسير قوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ [آل عمران، الآية ١٤٠] على أحد الوجوهِ حيث حُمل على معنى فعلنا ذلك فِعْلَ مَن يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان من غير الثابت، إذ ربما يتوهم منه استلزامُ الإرادةِ لتحقق المراد، فيعود المحذورُ فيصار إلى جعل إرادةِ العلم عبارةً عن الاختبار فاختبر واختر.

هذا وقد قرئ لِيُعْلَمَ مبنيًا[1] للمفعول ومبنيًا[2] للفاعل من الإعلام على أن المفعولَ الأولَ محذوفٌ والجملة المصدرةُ بـ (أي) في موقع المفعولِ الثاني فقط إن جعل العلمُ عِرفانيًا، وفي موقع المفعولين إن جعل يقينيًا أي لِيُعلِمَ الله الناسَ أيَّ الحزبين أحصى . . . إلخ، وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أحدَ الحزبين الفتيةُ والآخرَ الملوكُ الذين تداولوا المدينةَ مُلكًا بعد ملك، وقيل: كلاهما من غيرهم والأولُ هو الأظهر، فإن اللامَ للعهد ولا عهدَ لغيرهم والأمدُ بمعنى المدى كالغاية في قولهم: ابتداءُ الغاية وانتهاءُ الغاية وهو مفعولٌ لأحصى، والجارُّ والمجرور حالٌ منه قدمت عليه لكونه نكرةً. وليس معنى إحصاءِ تلك المدةِ ضبطَها من حيث كميتُها المتصلةُ الذاتيةُ فإنه لا يسمى إحصاءً بل ضبطَها من حيث كميتُها المنفصلةُ العارضةُ لها باعتبار قسمتِها إلى السنينَ وبلوغها من تلك الحيثيةِ إلى مراتبِ الأعداد على ما يرشدك إليه كونُ تلك المدة عبارةً عما سبق من السنين.

ويجوز أن يراد بالأمد معناه الوضعيُّ بتقدير المضافِ أي لزمان لُبثِهم وبدونه أيضًا فإن الُلبثَ عبارةٌ عن الكون المستمرِّ المنطبق على الزمان المذكورِ فباعتبار الامتدادِ العارضِ له بسببه يكون له أمدٌ لا محالة، لكن ليس المرادُ به ما يقع [عليهم][3] غايةً ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرِّ باعتبار كميتِه المتصلةِ العارضةِ له بسبب انطباقِه على

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٠٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٣)، وتفسير الرازي (٢١/ ٨٤).
(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٠٣). (٣) سقط في ط.

الزمان الممتدِّ بالذات وهو آنُ انبعاثِهم من نومهم فإن معرفتَه من تلك الحيثيةِ لا تخفى على أحد ولا تسمّى إحصاءً كما مر، بل باعتبار كميّتِه المنفصلةِ معارضةً له بسبب عروضِها لزمانه المنطبقِ هو عليه باعتبار انقسامِه إلى السنين ووصولِه إلى مرتبة معينةٍ من مراتب العددِ كما حقق في الصورة الأولى، والفرقُ بين الاعتبارين أن ما تعلق به الإحصاءُ في الصورة السابقةِ نفسُ المدة المنقسمةِ إلى السنين فهو مجموعُ ثلاثِمائةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرةِ منتهى تلك المدةِ المنقسمةِ إليها أعني السنةَ التاسعةَ بعد الثلاثِمائةِ، وتعلقُ الإحصاءِ بالأمد بالمعنى الأول ظاهرٌ، وأما تعلقُه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامِه لما تحته من مراتب العددِ واشتمالِه عليها. هذا تقديرُ كون «ما» في قوله تعالى: ﴿لما لبثوا﴾ مصدريةً ويجوز أن تكون موصولةً حُذف عائدُها من الصلة أي للذي لبثوا فيه من الزمان الذي عبّر عنه فيما قبل بسنينَ عددًا، فالأمدُ بمعناه الوضعيّ على ما تحققْتَه، وقيل: اللامُ مزيدةٌ والموصولُ مفعولٌ وأمدًا نصبٌ على التميز، وأما ما قيل من أنّ أحصى اسمُ تفضيل لأنه الموافقُ لما وقع في سائر الآيات الكريمةِ نحوُ: ﴿أيهم أحسنُ عملًا﴾ [الكهف: ٧] ﴿أيُّهم أقربُ لكم نفعًا﴾ [النساء: ١١] إلى غير ذلك مما لا يحصى ولأن كونَه فعلًا ماضيًا يُشعر بأن غايةَ البعث هو العلمُ بالإحصاء المتقدمِ على البعث لا بالإحصاء المتأخرِ عنه وليس كذلك، وادعاءُ أن مجيءَ أفعلِ التفضيلِ من المزيد عليه غيرُ قياسي مدفوعٌ بأنه عند سيبويهِ قياسٌ مطلقًا، وعند ابن[1] عصفورٍ فيما ليست همزتُه للنقل ولا ريب في أن ما نحن فيه من ذلك القبيلِ، وامتناعُ عمله إنما هو في غير التمييز من المعمولات، وأما أن التمييزَ يجب كونُه فاعلًا في المعنى فلمانعٍ أن يمنعَه بصحة أن يقال: أيُّهم أحفظُ لهذا الشعر وزنًا أو تقطيعًا، أو يقال: إن العاملَ في أمدًا فعلٌ محذوفٌ يدل عليه المذكورُ أي يُحصي لما لبثوا أمدًا كما في قوله: [الطويل]

.... وأضرَبَ منا بالسيوف (القوانسا)[2][3]

---

(١) زاد في المخطوط: أبي.

(٢) في المخطوط: القوانصا.

(٣) عجز بيت وصدره:

أَكَـدَّ وأَحْـمـى لـلـحـقـيـقـة مـنـهـمُ ....

البيت للعباس بن مرداس في ديوانه ص (٦٩)، والأصمعيات ص (٢٠٥)، وحماسة البحتري ص (٤٨)، وخزانة الأدب (٨/ ٣١٩)، وشرح التصريح (١/ ٣٣٩)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (٤٤١)، ولسان العرب (قنس)، ونوادر أبي زيد ص (٥٩)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (١/ ٣٤٤)، وأمالي ابن الحاجب (١/ ٤٦٠)، وخزانة الأدب (٧/ ١٠)، وشرح الأشموني (١/ ٢٩١)، ومغني اللبيب (٢/ ٦١٨).

وحديثُ الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوعٌ بما أشير إليه من فائدة الموافقةِ للنظائر، فمع ما فيه من الاعتسافِ والخللِ بمعزل من السَّداد لأن مؤداه أن يكون المقصودُ بالاختبار إظهارَ أفضلِ الحزبين وتمييزَه عن الأدنى مع تحقق أصلِ الإحصاء فيهما، ومن البيّن أن لا تحقُّقَ له أصلًا وأن المقصودَ بالاختبار إظهارُ عجزِ الكلِّ عنه رأسًا فهو فعل ماضٍ قطعًا، وتوهُم إيذانِه بأن غايةَ البعثِ هو العلمُ بالإحصاء المتقدمِ عليه مردودٌ بأن صيغةَ الماضي باعتبار حالِ الحكايةِ والله تعالى أعلم.

﴿**نحن نقص عليك**﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجمل فيما سلف من قوله تعالى: ﴿إذ أوى الفتية﴾ إلخ، أي نحن نخبرك بتفاصيل أخبارِهم وقد مر بيانُ اشتقاقِه في مطلع سورة يوسفَ عليه السلام ﴿**نبأهم**﴾ النبأُ الخبرُ الذي له شأنٌ وخطرٌ ﴿**بالحق**﴾ إما صفةٌ لمصدر محذوف أو حالٌ من ضمير نقصّ أو من (نبأَهم) أو صفةٌ له على رأي من يرى حذفَ الموصولِ مع بعض صلتِه، أي نقصّ قَصصًا ملتبسًا بالحق أو نقصّه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسًا به أو نبأهم الملتبسَ به، ونبأهم حسبما ذكره محمدُ بن إسحاقَ بنِ يسار أنه مرَج[1] أهلُ الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا وطغت ملوكُهم فعبدوا الأصنامَ وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ في ذلك وعتا عتوًّا كبيرًا دقيانوس فإنه غلا فيه غلوًّا شديدًا فجاس خلالَ الديار والبلاد بالعبث والفسادِ وقتل مَنْ خالفه من المتمسكين بدين المسيحِ عليه السلام، وكان يتبع الناسَ فيخيّرهم بين القتل وعبادةِ الأوثانِ فمن رغِب في الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياةَ الأبديةَ قتله وقطع آرابه[2] وعلقها في سور المدينةِ وأبوابِها، فلما رأى الفتيةُ ذلك وكانوا عظماءَ أهلِ مدينتهم، وقيل: كانوا من خواصّ الملك، قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء.

فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوانُ الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيّرهم بين القتل وبين عبادةِ الأوثان، فقالوا: إن لنا إلٰهًا ملأ السمواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروتُه لن ندعوَ من دونه أحدًا، ولن نُقرّ بما تدعونا إليه إبدًا فاقضِ ما أنت قاضٍ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرةِ وأخرجهم من عنده وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنِه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا في أمرهم فإن تبِعوه وإلا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين، فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدين والالتجاء إلى

---

(١) مَرَج (بفتح الراء) في حديثه: كذب وزاد فيه. ومرج الأمر (بكسر الراء): التبس واختلط. ومرج الدين: اختلط. والأصل المعنى هو القلق والاضطراب أو الخلط.

(٢) أي قطع أعضاءه: الأرب العضو. ومنه: قطّعه إرباً إرباً، أي: عضوًا عضوًا.

الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئًا فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي فأوَوا إلى الكهف فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار وفوّضوا أمرَ نفقتِهم إلى يمليخا، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابَه الحِسانَ ويلبس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتحسس ما فيها من الأخبار ويعود إلى أصحابه، فلبِثوا على ذلك إلى أن قدم الجبارُ المدينةَ فطلبهم وأحضر آباءَهم فاعتذروا بأنهم عصَوْهم ونهبوا أموالَهم وبذروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل، فلما رأى يمليخا ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليلٌ من الزاد فأخبرهم بما شهده من الهول ففزِعوا إلى الله عز وجل وخرّوا له سُجّدًا ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتُهم عند رؤوسهم، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِله فوجدوهم قد دخلوا الكهفَ فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحدٌ أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعًا قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدَرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعًا وعطشًا وليكن كهفُهم قبرًا لهم، ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم[(١)] ﴿إنهم فتية﴾ استئنافٌ تحقيقيٌّ مبني على تقدير السؤالِ من قبل المخاطَب، والفتيةُ جمعُ قلة للفتى كالصبية للصبي ﴿آمنوا بربهم﴾ أوثر الالتفاتُ للإشعار بعلّية وصفِ الربوبية لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيُحكى عنهم ﴿وزدناهم هدى﴾ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسنِه، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى ما عليه سبكُ النظمِ سباقًا وسياقًا من التكلم.

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قويناها حتى اقتحموا مضايقَ الصبر على هجر الأهلِ والأوطانِ والنعيم والإخوانِ، واجترأوا على الصدْع بالحق من غير خوف، وحذِروا الردَّ على دقيانوسَ الجبار ﴿إذ قاموا﴾ منصوبٌ بربطنا والمرادُ بقيامهم انتصابُهم لإظهار شعارِ الدين، قال مجاهد: خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعادٍ، فقال أكبرُهم: إني لأجد في نفسي شيئًا أن ربي ربُّ السمواتِ والأرض، فقالوا: نحن أيضًا كذلك فقاموا جميعًا ﴿فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ ضمّنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضي بمقتضاها فإن ربوبيتَه عز وجل لهما تقتضي ربوبيتَه لما فيهما أيَّ اقتضاءٍ، وقيل: المراد قيامُهم بين يدي الجبارِ من غير مبالاةٍ به حين عاتبهم على

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٦٠٦) من طريق ابن إسحاق.

ترك عبادةِ الأصنام، فحينئذ يكون ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿هؤلاء﴾ إلخ، منقطعًا عما قبله صادرًا عنهم بعد خروجِهم من عنده.

﴿**لن ندعوا**﴾ لن نعبدَ أبدًا ﴿**من دونه إلٰهًا**﴾ معبودًا آخرَ لا استقلالًا ولا اشتراكًا، والعدولُ عن أن يقال: ربًّا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامَهم آلهةً وللإشعار بأن مدارَ العبادة وصفُ الألوهية وللإيذان بأن ربوبيتَه تعالى بطريق الألوهيةِ لا بطريق المالكية المجازية ﴿**لقد قلنا إذًا شططًا**﴾ أي قولًا ذا شططٍ أي تجاوزَ عن الحد أو قولًا هو عينُ الشطط، على أنه وُصفَ بالمصدر مبالغةً ثم اقتُصر على الوصف مبالغةً على مبالغة، وحيث كانت العبادةُ مستلزِمةً للقول لما أنها لا تَعرَى عن الاعتراف بألوهية المعبودِ والتضرّعِ إليه قيل: لقد قلنا، وإذًا جوابٌ وجزاءٌ أي لو دعَونا من دونه إلٰهًا والله لقد قلنا قولًا خارجًا عن حد العقولِ مُفْرِطًا في الظلم.

﴿**هؤلاء**﴾ هو مبتدأ وفي اسم الإشارةِ تحقيرٌ لهم ﴿**قومنا**﴾ عطفُ بيانٍ له ﴿**اتخذوا من دونه آلهة**﴾ خبرُه وفيه معنى الإنكار ﴿**لولا يأتون**﴾ تخصيصٌ فيه معنى الإنكارِ والتعجيزِ أي هلا يأتون ﴿**عليهم**﴾ على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذِهم لها آلهةً ﴿**بسلطان بين**﴾ بحجة ظاهرةِ الدلالةِ على مُدّعاهم وهو تبكيتٌ لهم وإلقامُ حجرٍ ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا**﴾ بنسبة الشريكِ إليه تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، والمعنى أنه أظلمُ من كل ظالمٍ، وإن كان سبكُ النظمِ على إنكار الأظلميةِ من غير تعرضٍ لإنكار المساواة كما مر تحقيقه في سورة هود.

﴿**وإذ اعتزلتموهم**﴾ أي فارقتموهم في الاعتقاد أو أردتم الاعتزالَ الجُسمانيَّ ﴿**وما يعبدون إلا الله**﴾ عطفٌ على الضمير المنصوبِ وما موصولةٌ أو مصدريةٌ، أي إذِ اعتزلتموهم ومعبودِيهم إلا الله أو وعبادتَهم إلا عبادةَ الله وعلى التقديرين فالاستثناءُ متصلٌ على تقدير كونِهم مشركين كأهل مكةَ، ومنقطعٌ على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان، ويجوز كونُ ما نافيةً على أنه إخبارٌ من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترضٌ بين إذْ وجوابِه ﴿**فأْوُوا**﴾ أي التجِئوا ﴿**إلى الكهف**﴾ قال[١] الفراء: هو جوابُ إذ[٢]، كما تقول: إذْ[٣] فعلتَ فافعل كذا، وقيل: هو دليلٌ على جوابه أي إذ اعتزلتموهم [اعتزالًا اعتقاديا فاعتزلوهم][٤] اعتزالًا جُسمانيًا، أو[٥] إذا أردتم اعتزالَهم فافعلوا

---

(١) في المخطوط: عن.
(٢) في المخطوط: إذا.
(٣) في المخطوط: إن.
(٤) سقط في المخطوط.
(٥) في المخطوط: و.

ذلك بالالتجاء إلى الكهف **﴿ينشرْ لكم﴾** يبسُطْ لكم ويوسِّعْ عليكم **﴿ربكم﴾** مالكُ أمرِكم **﴿من رحمته﴾** في الدارين **﴿ويهيئ لكم﴾** يسهلْ لكم **﴿من أمركم﴾** الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين **﴿مرفقًا﴾** ما ترتفقون وتنتفعون به، وقرئ بفتح[١] الميم وكسر الفاء مصدرًا كالمرجِع[٢]، وتقديمُ لكم في الموضعين لما[٣] مر مرارًا من الإيذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويقِ إلى وروده.

﴿وترى الشمس﴾ بيانٌ لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرح به إيذانًا بعدم الحاجةِ إليه لظهور جرَيانِهم على موجب الأمرِ به لكونه صادرًا عن رأي صائبٍ وتعويلًا على ما سلف من قوله سبحانه: ﴿إذ أوى الفتيةُ إلى الكهف﴾ وما لحق من إضافة الكهفِ إليهم وكونِهم في فجوة منه، والخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلُح للخطاب، وليس المرادُ به الإخبارَ بوقوع الرؤيةِ تحقيقًا بل الإنباءُ بكون الكهفِ بحيث لو رأيته ترى الشمس **﴿إذا طلعت تزاور﴾** أي تتزاوَر وتتنحّى بحذف إحدى التاءين، وقرئ بإدغام[٤] التاء في الزاي، وتزورّ[٥] كتحمرّ، وتزْوارّ[٦] كتحمار وتَزْوَئِرْ[٧]، وكلها من الزَّوَر وهو الميل **﴿عن كهفهم﴾** الذي أووا إليه فالإفاضة لأدنى ملابسة **﴿ذات اليمين﴾** أي جهةَ ذاتِ يمين الكهفِ عند توجه

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وحميد، وابن سعدان، والأعشى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والتيسير للداني (١٤٢)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٣٩)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٧)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

(٢) في المخطوط: كالرجع.

(٣) في المخطوط: فيما.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والتيسير للداني (١٤٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

(٥) قرأ بها: ابن عامر، ويعقوب، وابن أبي إسحاق، وقتادة، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والتيسير للداني (١٤٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٨)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

(٦) قرأ بها: عاصم الجحدري، وأبو رجاء، وابن أبي عبلة، وأيوب السختياني، وجابر.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٦٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٣٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٥)، والمعاني للفراء (٢/ ١٣٦).

(٧) في المخطوط: تزوير، وقرأ بها: ابن مسعود، وأبو المتوكل.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والبحر المحيط (٦/ ١٠٨).

الداخلِ إلى قعره أي جانبه الذي يلي المغرِبَ فلا يقع عليهم شعاعُها فيؤذيهم ﴿وإذا غربت﴾ أي تراها عند غروبها ﴿تقرضهم﴾ أي تقطَعهم من القطيعة والصَّرْم ولا تقربهم ﴿ذات الشمال﴾ أي جهةَ ذاتِ شمال الكهف أي جانبه الذي يلي المشرِق، وكان [ذلك][١] بتصريف الله سبحانه على منهاج خرقِ العادةِ كرامةً لهم، وقوله تعالى: ﴿وهم في فجوة منه﴾ جملةٌ حالية مبينةٌ لكون ذلك أمرًا بديعًا أي تراها [تميل عنهم][٢] يمينًا وشمالًا ولا تحوم[٣] حولهم مع أنهم في متّسع من الكهف معرَّضٍ لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يدُ التقدير.

﴿ذلك﴾ أي ما صنع الله بهم من تزاوُر الشمسِ وقَرْضِها حالتي الطلوعِ والغروب مع كونهم في موقع شعاعِها ﴿من آيات الله﴾ العجيبةِ الدالةِ على كمال علمِه وقدرتِه وحقية التوحيدِ وكرامةِ أهله عنده سبحانه وتعالى. وهذا قبل أن سد دقيانوسُ بابَ الكهف شماليًا مستقبلَ بناتِ نْعشٍ، وأقربُ المشارقِ والمغاربِ إلى محاذاته رأسُ مشرِق السرَطان ومغربه، والشمسُ إذا كان مدارُها[٤] مدارَه تطلُع مائلةً عنه مقابلةً لجانبه الأيمنِ وهو الذي يلي المغربَ، وتغرُب محاذيةً لجانبه الأيسرِ فيقع شعاعُها على جنبيه وتحلّل عفونتَه وتعدّل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادَهم ويُبْلي ثيابَهم، ولعل ميلَ الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاورَ على كهفهم والقرضَ على أنفسهم، فذلك حينئذ إشارةٌ إلى إيوائهم إلى كهف هذا شأنُه، وأما جعلُه إشارةً إلى حفظ الله سبحانه إياهم في ذلك الكهفِ تلك المدةَ الطويلةَ أو إلى إطلاعه سبحانه لرسوله ﷺ على أخبارهم فلا يساعده إيرادُه في تضاعيف القصة ﴿من يهد الله﴾ إلى الحق بالتوفيق له ﴿فهو المهتد﴾ الذي أصاب الفلاحَ، والمرادُ إما الثناءُ عليهم والشهادةُ لهم بإصابة المطلوبِ والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمةِ وتهيئةِ المرافق، أو التنبيهُ على أن أمثالَ هذه الآيةِ كثيرةٌ ولكن المنتفعَ بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿ومن يضلل﴾ أي يخلق فيه الضلالَ لصرف اختيارِه إليه ﴿فلن تجد له﴾ أبدًا وإن بالغتَ في التتبع والاستقصاء ﴿وليًا﴾ ناصرًا ﴿مرشدًا﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجودِه في نفسه، لا لأنك لا تجده مع وجوده أو إمكانه.

﴿وتحسبهم﴾ بفتح السين وقرئ بكسرها[٥] أيضًا، والخطابُ فيه كما سبق

---

(١) سقط في المخطوط.
(٢) في المخطوط: عنهم تميل ميلاً.
(٣) في المخطوط: يحوم.
(٤) في : مقدارها.
(٥) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، والحسن، وعكرمة.
ينظر: الغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٥).

﴿أيقاظًا﴾ جمع يَقِظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظانُ، ومدارُ الحسبانِ انفتاحُ عيونِهم على هيئة الناظرِ، وقيل: كثرةُ تقلّبهم، ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿ونقلبهم﴾ ﴿وهم رقود﴾ أي نيام، وهو تقريرٌ لما لم يُذْكَر فيما سلف اعتمادًا على ذكره السابقِ من الضرب على آذانهم ﴿ونقلبهم﴾ في رقدتهم ﴿ذات اليمين﴾ نصبٌ على الظرفية أي جهةً تلي أَيمانهم ﴿وذات الشمال﴾ أي جهةً تلي شمالَهم[١] كي لا تأكلَ الأرضُ ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو لم يقلّبوا لأكلتْهم الأرضُ، قيل: لهم تقليبتان في السنة. وقيل: تقليبةٌ واحدةٌ يوم عاشوراءَ، وقيل: في كل تسع سنين، وقرئ يقلبهم[٢] على الإسناد إلى ضمير الجلالة، وتقَلُّبَهم[٣] على المصدر[٤] منصوبًا بمضمر ينبئ عنه وتحسبهم أي وترى تقلّبَهم ﴿وكلبهم﴾ قيل: هو كلبٌ مروا به فتبعهم فطردوه مرارًا فلم يرجِع فأنطقه الله تعالى فقال: لا تخشَوا جانبي فإني أحب أحباءَ[٥] الله تعالى فناموا حتى أحرُسَكم، وقيل: هو كلبُ راعٍ قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبُهم[٦] [إذ][٧] الظاهرُ لحوقُه بهم، وقيل: هو كلبُ صيد أحدِهم أو زرعِه أو غنمِه، واختلف في لونه فقيل: كان أنمرَ، وقيل: أصفرَ، وقيل: أصهبَ، وقيل: غير ذلك، وقيل: كان اسمُه قطمير، وقيل: ريان[٨]، وقيل: تتوه، وقيل: قطمور، وقيل: ثور[٩]. قال خالدُ بنُ مَعْدان: ليس في الجنة من الدواب إلا كلبُ أصحابِ الكهف وحمارُ بلعم، وقيل: لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدًا ﴿باسط ذارعيه﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ولذلك أُعمل اسمُ الفاعل وعند الكسائي، وهشام، وأبي جعفر، من البصريين يجوز إعمالُه مطلقًا، والذراعُ من المرفق إلى رأس الأُصبَعِ الوسطى ﴿بالوصيد﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿لو اطلعت عليهم﴾ أي لو عاينتَهم وشاهدتَهم، وأصلُ الاطّلاع الإشرافُ على الشيء بالمعاينة

---

(١) في المخطوط: شمائلهم.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٥).
(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والبحر المحيط (٦/ ١٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٥٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٦).
(٤) في المخطوط: المصدرية.
(٥) في المخطوط: أحباب.
(٦) قرأ بها: أبو جعفر الصادق.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٥).
(٧) سقط في المخطوط.
(٨) في المخطوط: زبان.
(٩) في المخطوط: تود.

والمشاهدة، وقرئ بضم[(١)] الواو.

﴿لوليت منهم فرارًا﴾ هربًا مما شاهدتَ منهم، وهو إما نصبٌ على المصدرية من معنى ما قبله إذ التوليةُ والفِرارُ من واد واحدٍ وإما على الحالية بجعل المصدرِ بمعنى الفاعل أي فارًّا، أو بجعل الفاعلِ مصدرًا مبالغة كما في قوله: [البسيط]

.... فإنما هيَ إقبالٌ وإدبارُ[(٢)]

وإما على أنه مفعولٌ له ﴿ولملئت منهم رعبًا﴾ وقرئ بضم[(٣)] العين أي خوفًا يملأ [الصدرَ ويُرعِبه][(٤)]، وهو إما مفعولٌ ثانٍ أو تمييز، وذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئةِ كانت أعينُهم مفتّحةً كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم، وقيل: لطول أظفارِهم وشعورِهم ولا يساعده قولُهم: ﴿لبثنا يومًا أو بعضَ يوم﴾ [الكهف:١٩] وقوله: ﴿ولا يُشعِرَن بكم أحدًا﴾ [الكعف:١٩] فإن الظاهرَ من ذلك عدمُ اختلافِ أحوالِهم في أنفسهم، وقيل: لعِظم أجرامِهم، ولعل تأخيرَ هذا عن ذكر التوليةِ للإيذان باستقلال كلٍّ منهما في الترتب على الاطلاع، إذ لو رُوعيَ ترتيبُ الوجودِ لتبادر إلى الفهم ترتبُ المجموعِ من حيث هو عليه وللإشعار بعدم زوالِ الرعبِ بالفرار كما هو المعتادُ. وعن معاوية (لما غزا الروم فمرّ بالكهف، قال: لو كشفتَ لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك قد منع[(٥)] الله تعالى من هو خيرٌ منك حيث قال: ﴿لو اطلعت عليهم﴾ الآية، قال معاوية: لا أنتهي حتى أعلمَ علمَهم، فبعث ناسًا وقال لهم: اذهبوا فانظُروا، ففعلوا فلما دخلوا الكهفَ بعث الله تعالى ريحًا فأحرقتْهم[(٦)]. وقرئ بتشديد[(٧)] اللام

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، والمطوعي، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٦٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والبحر المحيط ١٠٩/٠٦)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٧٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٦) وفي المخطوط: بفتح..

(٢) تقدم.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والتيسير للداني (٩١)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

(٤) في المخطوط: الصدور ويرعبها.

(٥) في المخطوط: سمع.

(٦) ذكره السمرقندي في تفسيره (٢/ ٣٤١).

(٧) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن، وابن عباس، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة.

=

على التكثير وبإبدال الهمزةِ ياءً مع التخفيف[١] والتشديد[٢].

﴿وكذلك بعثناهم﴾ أي كما أنمناهم وحفِظنا أجسادَهم من البِلى والتحلّل آيةً دالةً على كمال قدرتِنا بعثناهم من النوم ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي ليسأل بعضُهم بعضًا فيترتب عليه ما فُصّل من الحِكَم البالغةِ، وجعلُه غايةً للبعث المعلّل فيما سبق بالاختبار من حيث إنه من أحكامه المترتبةِ عليه والاقتصارُ على ذكره لاستتباعه لسائر آثارِه.

﴿قال﴾ استئنافٌ لبيان تساؤلِهم ﴿قائل منهم﴾ هو رئيسُهم واسمُه مكسلمينا[٣] ﴿كم لبثتم﴾ في منامكم، لعله قاله لما رأى من مخالفة حالِهم لما هو المعتادُ في الجملة ﴿قالوا﴾ أي بعضُهم ﴿لبثنا يومًا أو بعض يوم﴾ قيل: إنما قالوه[٤] لأنهم دخلوا الكهفَ غُدوةً وكان انتباهُهم آخرَ النهار، فقالوا: لبثنا يومًا[٥]، فلما رأَوا[٦] أن الشمسَ لم تغرُبْ بعْدُ، قالوا: أو بعضَ يوم، وكان ذلك بناءً على الظن الغالب فلم يُعْزوا إلى الكذب ﴿قالوا﴾ أي بعضٌ آخرُ منهم بما سنح لهم من الأدلة أو بإلهام من الله سبحانه ﴿ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثِكم وإنما يعلمها الله سبحانه، وهذا ردٌّ منهم على الأولين بأجملِ ما يكون من مراعاة حسنِ الأدب وبه يتحقق التحزبُ إلى الحزبين المعهودين فيما سبق، وقد قيل: القائلون جميعُهم ولكن في حالتين، ولا يساعده النظمُ الكريم فإن الاستئنافَ في الحكاية والخطابَ في المحكيّ يقضي بأن الكلامَ جارٍ على منهاج المحاورةِ والمجاوبةِ، وإلا لقيل: ثم قالوا: ربنا أعلمُ بما لبثنا.

﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ قالوه إعراضًا عن التعمق في البحث وإقبالًا على ما يُهمّهم بحسب الحالِ كما ينبئ عنه الفاءُ والورِقُ الفضةُ مضروبةً أو غيرَ مضروبة، ووصفُها باسم الإشارةِ يُشعر بأن القائلَ ناولها بعضَ أصحابه ليشتريَ بها

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٨)، والتيسير للداني (١٤٣)، والحجة لابن خالويه (٢٢٢)، والحجة لأبي زرعة (٤١٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٩)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والأصبهاني، وأبو جعفر، والسوسي، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والبحر المحيط (٦/ ١١٠)، والحجة لابن خالويه (٢٢٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٦).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر، وشيبة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١١٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٥)، والحجة لابن خالويه (٢٢٢).

(٣) في المخطوط: مكسلينا.

(٤) زاد في المخطوط: لما.

(٥) زاد في المخطوط: أو بعض يوم.

(٦) في المخطوط: رأى.

قوتَ يومِهم ذلك، وقرئ بسكون[١] الراء وبإدغام القافِ في الكاف[٢] وبكسر الواو[٣] وبسكون الراء[٤] مع الإدغام، وحملُهم لها دليلٌ على أن التزودَ لا ينافي التوكلَ على الله تعالى ﴿فلينظر أيها﴾ أي أهلِها ﴿أزكى﴾ أحلُّ وأطيبُ أو أكثرُ وأرخصُ ﴿طعامًا فليأتكم برزق منه﴾ أي من ذلك الأزكى طعامًا ﴿وليتلطف﴾ وليتكلّف اللُّطفَ في المعاملة[٥] كي لا يُغبَنَ أو في الاستخفاء لئلا يُعرَف ﴿ولا يشعرن بكم أحدًا﴾ من أهل المدينةِ فإنه يستدعي شيوعَ أخبارِكم أي لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك، فالنهيُ على الأول تأسيسٌ وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطف ﴿إنهم﴾ تعليلٌ لما سبق من الأمر والنهي أي لِيبالِغ في التلطف وعدمِ الإشعار لأنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ أي يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدّر في أيُّها ﴿يرجموكم﴾ إن ثبتُّم على ما أنتم عليه.

﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي يصيِّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهًا، من العَوْد بمعنى الصيْرورة كقوله تعالى: ﴿أو لتعودُنّ في ملّتنا﴾ [الأعراف: ٨٨] وقيل: كانوا أولًا على دينهم، وإيثارُ كلمةِ (في) على كلمة إلى[٦] للدِلالة على الاستقرار الذي هو أشدُّ شيءٍ عندهم كراهةً[٧]، وتقديمُ احتمال [الرجم على احتمال][٨] الإعادةِ لأن الظاهرَ من حالهم هو الثباتُ على الدين المؤدي إليه، وضميرُ الخطاب في المواضع الأربعةِ للمبالغة في حمل المبعوثِ[٩] على الاستخفاء وحثِّ الباقين على الاهتمام

(١) قرأ بها: حمزة، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، والحسن، والأعمش، واليزيدي، ويعقوب، وخلف، وأبو عبيد، وابن سعدان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٨٩)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٠)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٤٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٥).

(٣) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١١١).

(٤) قرأ بها: أبو رجاء، وإسماعيل، وابن محيصن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٦)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٥٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٤)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٠٣).

(٥) في المخطوط: المعادلة.

(٦) في المخطوط: بل.

(٧) في المخطوط: كراهية.

(٨) سقط: في ط.

(٩) في المخطوط: المنعوت.

بالتوصية، فإن إمحاضَ النُّصح أدخلُ في القَبول واهتمامُ الإنسان بشأن نفسِه أكثرُ وأوفر ﴿ولن تفلحوا إذًا﴾ أي إن دخلتم فيها ولو بالكرْه والإلجاء لن تفوزوا بخير ﴿أبدًا﴾ لا في الدنيا ولا الآخرة، وفيه من التشديد في التحذير ما لا يخفى.

﴿وكذلك﴾ أي وكما أَنَمناهم وبعثناهم لما مرّ من ازديادهم في مراتب اليقينِ ﴿أعثرنا﴾ أي أطلعْنا الناسَ ﴿عليهم ليعلموا﴾ أي الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة ﴿أن وعد الله﴾ أي وعدَه بالبعث أو موعودَه الذي هو البعثُ أو أن كلَّ وعدِه أوكُلَّ موعودِه فيدخُل[١] فيه وعدُه بالبعث [أو مبعثُ][٢] الموعودِ دخولًا أوليًا ﴿حق﴾ صادقٌ لا خُلْف فيه أو ثابتٌ لا مردَّ له لأن نومَهم وانتباهَهم كحال من يموت ثم يُبعث ﴿وأن الساعة﴾ أي القيامةَ التي هي عبارةٌ عن وقت بعثِ الخلائقِ جميعًا للحساب والجزاء ﴿لا ريب فيها﴾ لا شك في قيامها فإن من شاهد أنه جل وعلا تَوفّىٰ نفوسَهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثرَ حافظًا أبدانَها من التحلل والتفتّت ثم أرسلها إليها لا يبقىٰ له شائبةُ شك في أن وعدَه تعالى حقٌّ وأنه يبعث مَنْ في القبور فيرد إليهم أرواحَهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالِهم ﴿إذ يتنازعون﴾ ظرف لقوله: أعثرنا قُدّم عليه الغايةُ إظهارًا لكمال العنايةِ بذكرها، لا لقوله: ليعلموا كما قيل لدِلالته على أن التنازعَ يحدُث بعد الإعثار وليس كذلك أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بينهم أمرهم﴾ ليرتفع الخلافُ ويتبينَ الحقُّ، قيل[٣]: المتنازعُ فيه أمرُ دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث فمِن مُقِرّ له وجاحدٍ به وقائلٍ يقول ببعث الأرواحِ دون الأجساد وآخرَ يقول ببعثهما معًا. قيل: كان ملكُ المدينة حينئذ[٤] رجلًا صالحًا مؤمنًا وقد اختلف أهلُ مملكته في البعث حسبما فُصّل فدخل الملكُ بيتَه وأغلق بابه ولبس مِسْحًا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحقَّ فألقى الله عز وجل في نفس رجل من رعيانهم فهدَم ما سد به دقيانوسُ بابَ الكهف ليتخذه حظيرةً لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى. روي أن المبعوثَ لما دخل المدينة أخرج الدرهمَ ليشتريَ به الطعامَ وكان على ضرب دقيانوس، فاتهموه بأنه وجد كنزًا فذهبوا به إلى الملكِ فقصّ عليه القِصة، فقال بعضُهم لبعض: إن آباءَنا أخبرونا بأن فتيةً فرّوا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاءِ، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلّموهم ثم قالت الفتيةُ للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شر الإنسِ والجنّ ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فألقى الملكُ عليهم ثيابَه

---

(١) في المخطوط: ويدخل.
(٢) في المخطوط: والبعث.
(٣) في المخطوط: قبل.
(٤) في المخطوط: يومئذ.

وجعل لكل[١] منهم تابوتًا من ذهب، فرآهم في المنام كارهين الذهب فجعلها من الساج[٢] وبنى على باب الكهف مسجدًا، وقيل: لما انتهَوْا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانَكم حتى أدخُل أولًا لئلا يفزَعوا، فدخل فعمِيَ عليهم المدخلُ فبنَوا ثمةَ مسجدًا. وقيل: المتنازع فيه أمرُ الفتية قبل بعثهم أي أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرَهم وما جرى بينهم وبين دقيانوسَ من الأحوال والأهوالِ ويتلقَّوْن ذلك من الأساطير وأفواهِ الرجال، وعلى التقديرين فالفاء في قوله عز وجل: ﴿**فقالوا**﴾ فصيحةٌ أي أعثرناهم[٣] عليهم فرَأَوا فماتوا فقالوا أي قال بعضهم: ﴿**ابنوا عليهم**﴾ أي على باب كهفِهم ﴿**بنيانًا**﴾ لئلا يتطرقَ إليهم الناسُ ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها وقوله تعالى: ﴿**ربهم أعلم بهم**﴾ من كلام المتنازِعين كأنهم لما رأَوا عدم اهتدائِهم إلى حقيقة حالِهم من حيث النسب ومن حيث العدو ومن حيث اللُّبثُ في الكهف قالوا ذلك تفويضًا للأمر إلى علاّم الغيوب، أو من كلام الله تعالى ردًّا لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازِعين، وقيل: هو أمرُهم وتدبيرُهم عند وفاتِهم أو شأنُهم في الموت والنومِ حيث اختلفوا في أنهم ماتوا أو ناموا كما في أول مرةٍ فإذْ حينئذ متعلق بقوله تعالى: ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم**﴾ وهم الملِكُ والمسلمون ﴿**لنتخذن عليهم مسجدًا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿فقالوا﴾ معطوفٌ على يتنازعون، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدِلالة على أن هذا القولَ ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازُع، وقيل: متعلقٌ باذكر مضمَرًا، وأما تعلقُه بأعثرنا فيأباه أن إعثارِهم ليس في زمان تنازُعِهم فيما ذكر بل قبلَه، وجعلُ[٤] وقتِ التنازع ممتدًا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ تعسفٌ لا يخفى مع أنه لا مخصَّصَ لإضافته إلى التنازُع وهو مؤخرٌ في الوقوع.

﴿**سيقولون**﴾ الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبيِّ عليه الصلاة والسلام من أهل الكتابِ والمسلمين لكن لا على وجه إسنادِ كلٍّ منها إلى كلهم[٥] بل إلى بعضهم ﴿**ثلاثة رابعهم كلبُهم**﴾ أي هم ثلاثةُ أشخاص رابعُهم أي جاعلُهم أربعةً، بانضمامه إليهم، كلبُهم، قيل: قالته اليهودُ، وقيل: قاله السيد من

---

(١) زاد في المخطوط: واحد.

(٢) الساج: خشب شجرة الساج، وهي ضرب من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً.

(٣) في المخطوط: أعثرنا.

(٤) في المخطوط: وحيت.

(٥) في المخطوط: كلبهم.

نصارى نَجرانَ وكان يعقوبيا، وقرئ ثلاثٌّ[١] بإدغام الثاء [في التاء][٢] **﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾** قيل: قالتْه النصارى أو[٣] العاقبُ منهم وكان نِسْطوريا **﴿رجمًا بالغيب﴾** رميًا بالخبر الخفيِّ الذي لا مُطَّلَعَ عليه أو ظنًّا بالغيب من قولهم: رجَمَ بالظن إذا ظن، وانتصابُه على الحالية من الضمير في الفعلين جميعًا أي راجمين أو على المصدرية منهما فإن الرجْمَ والقولَ واحد، أو من محذوف مستأنَفٍ واقع موقعَ الحال من الضمير في الفعلين معًا أي يرجُمون رجمًا، وعدم إيرادِ السينِ[٤] للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك.

﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي وما فيه مما[٥] يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمِه في سلك الرجْمِ بالغيب، وتغييرُ سبكه بزيادة الواو المفيدةِ لزيادة وكادةِ النسبة فيما بين طرفيها لا بوحي آخرَ كما قيل **﴿قل﴾** تحقيقًا للحق وردًّا [على الأولين][٦] **﴿ربي أعلم﴾** أي أقوى علمًا **﴿بعدتهم﴾** بعددهم **﴿ما يعلمهم﴾** أي ما يعلم عِدّتهم أو ما يعلمهم فضلًا عن العلم بعِدتهم **﴿إلا قليل﴾** من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: حين وقعت الواوُ انقطعت العِدّةُ[٧] وعليه مدارُ قوله رضي الله عنه: أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما[٨] خفيَ عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوةً له في العلم بذلك. وعن علي كرم الله وجهه أنهم سبعةُ نفرٍ أسماؤُهم: يمليخا[٩] ومكشليبنا ومشليبنا، هؤلاء أصحابُ يمينِ الملكِ وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستةَ في أمره، والسابعُ الراعي الذي رافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوسَ واسمه كفيشيططيوش[١٠] **﴿فلا تمار﴾** الفاءُ لتفريع النهي على ما قبله أي إذ قد عرفتَ جهلَ أصحابِ القولين فلا تجادلهم **﴿فيهم﴾** في شأن الفتية **﴿إلا مراء ظاهرًا﴾** قدرَ ما تعرّض له الوحيُ من وصفهم بالرجم بالغيب وعدمِ العلم على الوجه الإجمالي وتفويضِ العلم إلى الله

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٥)، والبحر المحيط (٦/ ١١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٦).

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) في المخطوط: و.

(٤) في المخطوط: السنين.

(٥) في المخطوط: بما.

(٦) في المخطوط: للأولين.

(٧) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٦٦٧).

(٨) في المخطوط: ما.

(٩) في المخطوط: تكتى.

(١٠) في المخطوط: كفيستككيون.

سبحانه من غير تصريحٍ بجهلهم وتفضيحٍ لهم فإنه يُخِلُّ بمكارم الأخلاق.

﴿ولا تستفت فيهم﴾ في شأنهم ﴿منهم﴾ من الخائضين ﴿أحدًا﴾ فإن فيما قُص عليك لمندوحةً عن ذلك مع أنه لا علمَ لهم بذلك. وقال عطاء: إلا قليلٌ من أهل الكتابِ فالضمائرُ الثلاثة في الأفعال الثلاثةِ لهم وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القولِ الثالثِ وفيه محيصٌ عما في الأول من التكلف[1] في جعل أحدِ الأقوالِ المحكية المنظومةِ في سِمْط واحدٍ ناشئًا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه ووضوحٌ في سبب حذف المفعولِ في لا تُمار، والمعنى حينئذ: وإذ قد وقفتَ على أن كلَّهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تجادِلْهم إلا جدالًا ظاهرًا نطَق به الوحيُ المبين من غير تجهيلٍ لجميعهم فإن فيهم مُصيبًا وإن قل، والنهيُ عن الاستفتاء لدفع ما عسى يُتوهم من احتمال جوازِه أو احتمالِ وقوعِه بناءً على إصابة بعضهم، فالمعنى لا ترجِعْ[2] إليهم في شأن الفتيةِ ولا تصدّق القولَ الثالثَ من حيث صدورُه عنهم، بل من حيث التلقّي من الوحي ﴿ولا تقولن لشيء﴾ أي لأجل شيءٍ تعزم عليه ﴿إني فاعل ذلك﴾ الشيءَ ﴿غدًا﴾ أي فيما يُستقبل من الزمان مطلقًا فيدخُل فيه الغدُ دخولًا أوليًّا (فإنه نزل حين قالت اليهودُ لقريش: سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهفِ وذي القرنين، فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال: «ائتوني غدًا أُخبرْكم» ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتى شق عليه وكذّبته قريشٌ). وما قيل من أن المدلولَ بالعبارة[3] هو الغدُ وما بعد ذلك مفهومٌ بطريق دِلالة النصِّ يرده أن ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي، فإن وسعةَ المجالِ دليلُ القدرة فليتأمل ﴿إلا أن يشاء الله﴾ استثناءٌ مفرَّغ من النهي أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا حالَ ملابستِه بمشيئته تعالى على الوجه المعتادِ وهو أن يقال: إن شاء الله أو في وقت من الأوقات إلا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقًا بل مشيئةً إذن، فإن النسيانَ أيضًا بمشيئته تعالى، ولا مساغَ لتعليقه بفاعل لعدم سِدادِ استثناءِ اقترانِ المشيئة بالفعل ومنافاةِ استثناءِ اعتراضها النهي، وقيل: الاستثناءُ جارٍ مَجرى التأبيد، كأنه قيل: لا تقولنّه أبدًا كقوله تعالى: ﴿وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاءَ الله﴾ [الأعراف: ٨٩] ﴿واذكر ربك﴾ بقولك: إن شاء الله متداركًا له ﴿إذا نسيت﴾ إذا فرَط منك نسيانٌ ثم ذكرتَه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ولو بعد سنةٍ ما لم يحنَثْ، ولذلك جوّز تأخيرُ الاستثناءِ،

---

(١) في المخطوط: التكليف.
(٢) في المخطوط: تراجع.
(٣) في المخطوط: العبارة.

وعامةُ الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عَتاقٌ ولم يُعلم صِدقٌ ولا كذِبٌ. قال القرطبيُّ: هذا في تدارُك [التَّبرُّك والتخلُّص][١] عن الإثم، وأما الاستثناءُ [المغيِّر للحكم][٢] فلا يكون إلا متَّصلًا، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربَّك بالتَّسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغةٌ في الحث عليه، أو اذكر ربَّك وعقابَه إذا تركت بعضَ ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارُك، أو اذكره إذا اعتراك النسيانُ ليذكِّرك المنسي، وقد حُمل على أداء الصلاةِ المنْسية عند ذكرِها ﴿وقل عسى أن يهدين ربي﴾ أي يوفقني ﴿لأقرب من هذا﴾ أي لشيء أقربَ وأظهرَ من نبأ أصحابِ الكهفِ من الآيات والدلائل الدالةِ على نبوتي ﴿رشدًا﴾ أي إرشادًا للناس ودلالةً على ذلك، وقد فعل عز وجل ذلك حيث[٣] آتاه من البينات ما هو أعظمُ من ذلك وأبينُ كقصص الأنبياءِ المتباعدِ أيامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلةِ إلى قيام الساعةِ أو لأقربَ رشدًا وأدنىٰ خبرًا من المنسيّ.

﴿ولبثوا في كهفهم﴾ أحياءً مضروبًا على آذانهم ﴿ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعًا﴾ وهي جملةٌ مستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لما أُجمل فيما سلف وأُشير إلى عزة منالِه، وقيل: إنه حكايةُ كلامِ أهلِ الكتابِ فإنهم اختلفوا في مدة لُبثِهم كما اختلفوا في عِدّتهم[٤] فقال بعضهم هكذا وبعضُهم ثلاثمائة.

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: عند أهلِ الكتابِ أنهم لبِثوا ثلاثَمائةِ سنةٍ شمسيةٍ والله تعالى ذكر السنةَ القمريةَ والتفاوتَ بينهما في كل مائة سنةٍ ثلاث سنين فيكون ثلاثَمائةٍ سنين وتسعَ سنين، [وسنينَ][٥] عطفُ بيانٍ (لثلاثمائة)، وقيل: بدلٌ وقرئ[٦] [على الإضافة][٧] وضعًا للجمع موضعَ المفردِ ومما يحسّنه هاهنا أن علامةَ الجمعِ[٨] فيه جبرٌ لما حُذف في الواحد وأن الأصلَ في العدد إضافتُه إلى الجمع.

﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي بالزمان الذي لبثوا فيه. ﴿له غيب السموات

---

(١) في ط: الترك والتحلف.
(٢) في ط: الغير للاسم.
(٣) في ط: حتى.
(٤) في ط: عدائهم.
(٥) سقط في المخطوط.
(٦) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والحسن، والأعمش، وطلحة، ويحيى، وابن أبي ليلى، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٨)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).
(٧) في المخطوط: بالإضافة.
(٨) في المخطوط: الخبر.

والأرض﴾ أي ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلِهما، واللامُ للاختصاص العلميِّ دون التكوينيِّ فإنه غيرُ مختص بالغيب **﴿أبصر به وأسمع﴾** دلّ بصيغة التعجبِ على أن شأنَ علمِه سبحانه بالمبصَرات والمسموعاتِ خارجٌ عما عليه إدراكُ المدرِكين لا يحجُبه شيءٌ ولا يحول[١] دونه حائلٌ ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيفُ والكثيفُ والصغيرُ والكبيرُ [والخفيُّ والجليُّ][٢]، والهاءُ ضميرُ الجلالة، ومحلُّه الرفعُ على الفاعلية والباء مَزيدةٌ [عند سيبويهِ][٣] وكان أصله أبصَرَ أي صار ذا بَصَر، ثم نقل إلى صيغة الأمرِ للإنشاء فبرز الضميرُ لعدم لياقةِ الصيغة له أو لزيادة الباء كما في [كفى][٤] به، والنصبُ على المفعولية عند الأخفشِ والفاعلُ ضميرُ المأمورِ وهو كلُّ أحد، والباءُ مزيدة إن كانت الهمزةُ للتعدية، ومتعدّية إن كانت للصيرورة، ولعل تقديمَ أمرِ إبصارِه تعالى لما أن الذي نحن بصدده من قبيل المبصَرات **﴿ما لهم﴾** لأهل السمواتِ والأرض **﴿من دونه﴾** تعالى **﴿من ولي﴾** يتولى أمورَهم وينصُرهم استقلالًا **﴿ولا يشرك في حكمه﴾** في قضائه أو[٥] في علم الغيب **﴿أحدًا﴾** منهم ولا يجعل له فيه مدخلًا وهو كما ترى أبلغُ في نفي الشريكِ من أن يقال: من ولي ولا شريكٍ، وقرئ على[٦] صيغة نهي[٧] الحاضرِ على أن[٨] الخطابَ لكل أحدٍ.

ولما دل انتظامُ القرآنِ الكريم لقصة أصحابِ الكهف من حيث إنهم بالنسبة إلى النبي ﷺ من المغيبات على أنه وحيٌ معجزٌ أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال: **﴿واتل ما أوحيَ إليك من كتاب ربك﴾** ولا تسمَعْ لقولهم: ائتِ بقرآن غيرِ هذا أو بدِّلْه **﴿لا مبدل لكلماته﴾** لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه **﴿ولن تجد﴾** أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب **﴿من دونه ملتحدًا﴾** ملجأً تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ

---

(١) في المخطوط: يحوم.
(٢) في المخطوط: والجليل والحقير.
(٣) سقط في المخطوط.
(٤) سقط في المخطوط.
(٥) في المخطوط: و.
(٦) قرأ بها: ابن عامر، والمطوعي، والحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري، وأبو حيوة، وزيد، وحميد بن الوزير، ويعقوب، والجعفي، واللؤلؤي، وشعبة، وروح، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨)، والتيسير للداني (١٤٣)، والحجة لابن خالويه (٢٢٣)، والحجة لأبي زرعة (٤١٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٨)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٠).
(٧) في المخطوط: نفي.
(٨) في المخطوط: نفي.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

﴿واصبر نفسك﴾ احبِسها وثبِّتها مصاحِبةً **﴿مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ﴾** أي دائبين على الدعاء في جميع الأوقاتِ، وقيل: في طرفي النهار، وقرئ بالغُدوة[1] على أن إدخال اللام عليها وهي علمٌ في الأغلب على تأويل التنكيرِ بهم، والمرادُ بهم فقراءُ المؤمنين مثلُ صُهيبٍ وعمارٍ وخبابٍ ونحوِهم رضي الله عنهم، وقيل: أصحابُ الصُّفَّة وكانوا نحو سبعِمائة رجل، قيل: إنه قال قومٌ من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحِّ هؤلاء الموالِيَ الذين كأن ريحَهم ريحُ الضأن حتى نجالسَك كما قال قومُ نوحٍ عليه السلام: ﴿أنؤمنُ لك واتبعك الأرذلون﴾ [الشعراء: ١١١] فنزلت.

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، ونصر بن عاصم، ومالك بن دينار، وأبو عبد الرحمن السلمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والتيسير للداني (١٠٢)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والنشر لابن الجزري (٢/٢٥٨).

والتعبيرُ عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيز الصلة من الخَصلة الداعيةِ إلى إدامة الصحبة ﴿يريدون﴾ بدعائهم ذلك ﴿وجهه﴾ حالٌ من المستكنِّ في يدْعون أي مريدين لرضاه تعالى وطاعته.

﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي لا يجاوِزْهم نظرُك إلى غيرهم، مِن عدَاه أي جاوزه، واستعمالُه بعن لتضمينه معنى النبوِّ أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم، من عدَوتُه عن الأمر أي صرفتُه عنه على أن المفعولَ محذوفٌ لظهوره، وقرئ ولا تُعْدِ[(١)] عينيك ولا تُعَدِّ عينيك[(٢)] من الإعداء والتعدية، والمرادُ نهيُه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيِّهم طموحًا إلى زِيّ الأغنياء ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تطلب مجالسةَ الأشراف والأغنياءِ وأصحابِ الدنيا، وهي حالٌ من الكاف على الوجه الأولِ من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثاني منها، وضمير تريد للعينين وإسنادُ الإرادةِ إليه مجازٌ وتوحيدُه للتلازم كما في قوله: [الهزج]

لـمـن زُحْـلـوفـةٌ زُلُّ بـهـا الـعـيـنـان تـنـهـلُّ[(٣)]

ومن المستكنّ في الفعل على القراءتين الأخيرتين ﴿ولا تطع﴾ في تنحية الفقراءِ عن مجالسك ﴿من أغفلنا قلبه﴾ أي جعلناه غافلًا لبطلان استعدادِه للذكر بالمرة أو وجدناه غافلًا، كقولك: أجبَنْتُه وأبخلتُه إذا وجدتُه كذلك أو هو مِنْ أَغفلَ إبِلَه أي لم نسمِّه بالذكر ﴿عن ذكرنا﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراءِ عن مجلسك فإنهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الأوقاتِ، وفيه تنبيهٌ على أن الباعثَ له على ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكُه في الحسيات حتى خفيَ عليه أن الشرفَ بحِلْية النفس لا بزينة الجسد، وقرئ أغفلَنا[(٤)] قلبُه، على إسناد الفعل إلى القلب أي حسِبَنا غافلين عن ذكرنا إياه

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٧)، والبحر المحيط (٦/ ١١٩).

(٢) قرأ بها: الحسن، وعيسى، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٦)، والبحر المحيط (٦/ ١١٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٦٤).

(٣) البيت لامرئ القيس في ملحق ديوانه ص (٤٧٢)، وجمهرة اللغة ص (٥٩)، وخزانة الأدب (٧/ ٥٥٦)، والدرر (١/ ١٥٠)، ولسان العرب (ألل)، وهمع الهوامع (١/ ٥٠)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (٥/ ١٩٧، ٧/ ٥٥٢)، ولسان العرب (زلل)، والمحتسب (٢/ ١٨٠)، وتاج العروس (ألل)، (زلل).

(٤) قرأ بها: عمرو بن فائد، وموسى الأسواري، وعمرو بن عبيد.

=

بالمؤاخذة، من أغفلتُه إذا وجدتُه غافلًا ﴿واتبع هواه وكان أمره فرطًا﴾ ضيَاعًا وهلاكًا أو متقدمًا للحق والصواب نابذًا له وراءَ ظهره، من قولهم: فرسٌ فرُطٌ أي متقدِّمٌ للخيل أو هو بمعنى الإفراط والتفريطِ فإن الغفلةَ عن ذكره سبحانه تؤدّي إلى اتباع الهوىٰ المؤدِّي إلى التجاوز والتباعُدِ عن الحق والصواب، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الإطاعة.

﴿وقل﴾ لأولئك الغافلين المتبعين هواهم ﴿الحق من ربكم﴾ أي ما أوحيَ إليَّ الحقُّ لا غيرُ كائنًا من ربكم أو الحقُّ المعهودُ من جهة ربكم لا من جهتي حتى يُتصور فيه التبديلُ أو يُمكنَ الترددُ في اتباعه.

وقوله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ إما من تمام القولِ المأمورِ به والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما في قوله تعالى: ﴿هذا عطاؤُنا فامنُنْ أو أمسِكْ بغير حساب﴾ [ص: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكوننّ من المُمْتَرين﴾ [البقرة: ١٤٧] أي عَقيبَ تحقق أن ما أوحي إليَّ حقٌّ لا ريب فيه وأن ذلك الحقَّ من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمنَ كسائر المؤمنين ولا يتعللَ بما لا يكاد يصلُح للتعلل ومن شاء أن يكفرَ به فليفعلْ، وفيه من التهديد وإظهارِ الاستغناءِ عن متابعتهم وعدمِ المبالاةِ بهم وبإيمانهم وجودًا وعدمًا ما لا يخفى.

وإما تهديدٌ من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر لا على مضمون المأمورِ به.

والمعنى قل لهم ذلك، وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقَك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفُر به أو يكذِّبَك فيه فليفعل، فقوله تعالى: ﴿إنا أعتدنا﴾ وعيدٌ شديدٌ وتأكيدٌ للتهديد وتعليلٌ لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يُفْهم من ظاهر التخييرِ من عدم المبالاةِ بكفرهم وقلةِ الاهتمامِ بزجرهم عنه، فإن إعدادَ جزائِه من دواعي الإملاءِ والإمهالِ، وعلى الوجه الأول هو تعليلٌ للأمر بما ذكر من التخيير التهديديِّ أي قل لهم ذلك إنا أعتدنا ﴿للظالمين﴾ أي هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه، والتعبيرُ عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئةَ الكفر واختيارَه تجاوزٌ عن الحد ووضعٌ للشيء في غير موضعه ﴿نارًا﴾ عظيمةً عجيبة ﴿أحاط بهم﴾ أي يحيط

= ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٦)، والبحر المحيط (٦/ ١٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٦٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٨).

بهم، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدِلالة على التحقق ﴿سُرادِقها﴾ أي فُسطاطها شُبّه به ما يحيط بهم من النار(١).

وقيل: السرادِقُ الحجرةُ التي تكون حول الفُسطاطِ، وقيل: سرادِقُها دُخانُها، وقيل: حائط من نار ﴿وإن يستغيثوا﴾ من العطش ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ كالحديد المذاب، وقيل: كدُرْدِيِّ الزيت وهو على طريقة قوله: فاعتُبوا بالصَّيْلم(٢) ﴿يشوي الوجوه﴾ إذا قدم ليُشرَب انشوى الوجهُ لحرارته. عن النبي عليه الصلاة والسلام: «هو كعَكَر الزيت فإذا قُرب إليه سقطت فروةُ وجهه»(٣) ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقًا﴾ متكأً، وأصل الارتفاقِ نصبُ المِرْفقِ تحت الخد وأنى ذلك في النار، وإنما هو بمقابلة قوله تعالى: ﴿حسُنت مرتفقًا﴾ [الكهف: ٣١].

عاقبة المؤمنين

﴿إن الذين آمنوا﴾ في محل التعليلِ للحث على الإيمان المنفهِم من التخيير، كأنه قيل: وللذين آمنوا، ولعل تغييرَ سبكه للإيذان بكمال تنافي مآليْ الفريقين أي إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحيَ إليك ﴿وعملوا الصالحات﴾ حسبما بين في تضاعيفه ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملًا﴾ خبرُ إن الأولى هي الثانيةُ مع ما في حيزها والراجعُ محذوفٌ أي من أحسنَ منهم عملًا أو مستغنًى عنه كما في قولك: نعم الرجلُ زيدٌ أو واقعٌ موقعَه الظاهرَ فإن من أحسن عملًا في الحقيقة هو الذي آمن وعمِل الصالحات ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار﴾ استئنافٌ لبيان الأجر، أو هو الخبرُ وما بينهما اعتراضٌ أو هو خبرٌ بعد خبر ﴿يحلَّوْن

(١) والسرادق هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار، وأثبت لها سرادقًا مبالغة في إحاطة دار العذاب بهم، وشأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية.
ينظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٨)، والاستعارة: المثل السائر (٢/ ٨٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم (٣٨٠) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها.

(٢) هو من قول بشر بن أبي خازم:
غضبت تميمٌ أن تُقَتَّل عامرٌ يومُ النِّار فأُعتبوا بالصَّيْلم
قال ابن بري: ويروى: فأعقبوا بالصليم، أي كانت عاقبتهم الصليم. والصليم: الداهية لأنها تصطلم (لسان العرب: صلم).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٩٠) برقم (٣١٦)، وأحمد (٣/ ٧٠)، والترمذي (٤/ ٧٠٤) كتاب صفة جهنم، باب: صفة شراب أهل النار، برقم (٢٥٨١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلم فيه ا.هـ.

فيها من أساور من ذهب﴾ من الأولى ابتدائيةٌ والثانية بيانية صفةٌ لأساور والتنكيرُ للتفخيم وهو جمعُ أَسوِرة أو إسْوار جمع سِوار **﴿ويلبسون ثيابًا خضرًا﴾** خُصت الخُضرة بثيابهم لأنها أحسنُ الألوان وأكثرُها طراوة **﴿من سندس وإستبرق﴾** أي مما رقّ من الديباج وغلُظ، جمعَ بين النوعين للدِلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلَذّ الأعين **﴿متكئين فيها على الأرائك﴾** على السرُر على ما هو شأن المتنعمين **﴿نعم الثواب﴾** ذلك **﴿وحسنت﴾** أي الأرائك **﴿مرتفقًا﴾** أي متكأ.

﴿واضرب لهم﴾ أي للفريقين الكافر والمؤمن **﴿مثلا رجلين﴾** مفعولان لاضربْ أولُهما ثانيهما لأنه المحتاجُ إلى التفصيل والبيان أي اضرب للكافرين والمؤمنين، لا من حيث أحوالُهما المستفادةُ مما ذكر آنفًا من أن للأولين في الآخرة كذا بل من حيث عصيانُ الأولين مع تقلبهم في نعم الله تعالى وطاعةِ الآخرين مع مكابدتهم مشاقَّ الفقر، مثلًا حالَ رجلين مقدرَين أو محققَين هما أخوان من بني إسرائيلَ أو شريكان: كافرٌ اسمُه قطروس ومؤمنٌ اسمه يهوذا اقتسما ثمانيةَ آلافِ دينار فاشترى الكافرُ بنصيبه ضِياعًا وعَقارًا وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارِّ فآل أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى، وقيل: هما أخوان من بني مخزوم كافرٌ هو الأسودُ بن عبد اللَّه بن عبد الأسد زوجُ أم سلمة رضي الله عنها أولًا **﴿جعلنا لأحدهما﴾** وهو الكافر **﴿جنتين﴾** بستانين **﴿من أعناب﴾** من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيانٌ للتمثيل أو صفةٌ لرجلين **﴿وحففناهما بنخل﴾** أي جعلنا النخل محيطةً بهما مؤزَّرًا بها كرومُهما، يقال: حفّه القومُ إذا طافوا به وحففتُه بهم جعلتُهم حافّين حوله فيزيده الباء مفعولًا آخر كقولك: غشّيتُه به **﴿وجعلنا بينهما﴾** وسطهما **﴿زرعًا﴾** ليكون كلٌّ منهما جامعًا للأقوات والفواكهِ متواصلَ العِمارة على الهيئة الرائقةِ والوضعِ الأنيق.

﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ ثمرَها وبلغت مبلغًا صالحًا للأكل، وقرئ بسكون[1] الكاف، وقرئ كلُّ[2] الجنتين آتى أُكُلَه **﴿ولم تظلم منه﴾** لم تنقُص من أُكُلها **﴿شيئًا﴾** كما يعهد ذلك في سائر البساتينِ فإن الثمارَ غالبًا تكثُر في عام وتقِلُّ في آخر، وكذا

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٧٤)، والبحر المحيط (٦/ ١٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٤٣).

بعضُ الأشجارِ يأتي بالثمر في بعض الأعوامِ دون بعض ﴿وفجرنا خلالهما﴾ فيما بين كلٍّ من الجنتين ﴿نهرًا﴾ على حِدَة ليدوم شربُهما ويزيد بهاؤهما، وقرئ بالتخفيف[١] ولعل تأخير ذكر تفجيرِ النهر عن ذكر إيتاءِ الأكلِ مع أن الترتيب الخارجيَّ على العكس للإيذان باستقلال كلٍّ من إيتاء الأكل وتفجيرِ النهر في تكميل محاسنِ الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها، ولو عُكس لانفهم أن المجموعَ خَصلةٌ واحدة بعضُها مترتبٌ على بعض فإن إيتاءَ الأكلِ متفرِّعٌ على السقْي عادةً، وفيه إيماءٌ إلى أن إيتاء الأكلِ لا يتوقف على السقي كقوله تعالى: ﴿يكاد زيتُها يُضيء ولو لم تمسَسْه نارٌ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وكان له﴾ لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ أنواعٌ من المال غيرُ الجنتين، من ثمر ماله إذا كثّره، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو جميعُ المال من الذهب والفضة والحيوانِ وغير ذلك، وقال مجاهد: هو الذهبُ والفضة خاصة ﴿فقال لصاحبه﴾ المؤمن ﴿وهو﴾ أي القائلُ ﴿يحاوره﴾ أي صاحبَه المؤمنَ وإن جاز العكسُ أي يراجعه في الكلام من حار إذا رجع ﴿أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا﴾ حشَمًا وأعوانًا أو أولادًا ذُكورًا لأنهم الذين ينفِرون معه ﴿ودخل جنته﴾ التي شُرحت أحوالُها وعَدَدُها وصفاتُها وهيآتُها، وتوحيدها إما لعدم تعلق الغرَضِ بتعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخولَ يكون في واحدة فواحدة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ ضارٌّ لها بعُجبه وكفره ﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من ذكر دخولِ جنته حالَ ظلمِه لنفسه، كأنه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل قال: ﴿ما أظن أن تبيد هذه﴾ الجنةُ أي تفنىٰ ﴿أبدًا﴾ لطول أملِه وتمادي غفلتِه واغترارِه بمُهلته، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظةِ صاحبِه وتذكيرِه بفناء جنّتيه ونهيِه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ كائنةً فيما سيأتي ﴿ولئن رددت﴾ بالبعث عند قيامها كما تقول ﴿إلى ربي لأجدنّ﴾ يومئذ ﴿خيرًا منها﴾ أي من هذه الجنةِ، وقرئ منهما[٢] أي من الجنتين ﴿منقلبًا﴾ مرجعًا وعاقبةً، ومدارُ هذا الطمعِ واليمينِ الفاجرةِ

---

(١) قرأ بها: الأعمش، وسلام، ويعقوب، وعيسى بن عمر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٦)، والبحر المحيط (٦/ ١٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٤)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٢٥).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وابن محيصن، وابن الزبير، وزيد بن علي، وأبو بحرية، وشيبة، وحميد، وابن مناذر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٨)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٠)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

اعتقادٌ أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامتِه عليه سبحانه ولم يدرِ أن ذلك استدراجٌ.

﴿**قال له صاحبه**﴾ استئناف كما سبق ﴿**وهو يحاوره**﴾ جملةٌ حاليةٌ كما مر فائدتُها التنبيهُ من أول الأمرِ على أن ما يتلوه كلامٌ معتنًى بشأنه مسوقٌ للمحاورة ﴿**أكفرت**﴾ حيث قلت: ما أظن الساعةَ قائمةً ﴿**بالذي خلقك**﴾ أي في ضمن خلقِ أصلِك ﴿**من تراب**﴾ فإن خلْقَ آدمَ عليه السلام منه متضمّنٌ لخلقه منه لِما أن خلقَ كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرتُه الشريفةُ مقصورةً على نفسه، بل كانت أُنموذجًا منطويًا على فطرة سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لجريان آثارِها على الكل، فكان خلْقُه عليه السلام من التراب خَلْقًا للكل منه.

وقيل: خلقَك منه لأنه أصلُ مادتِك إذ به يحصُل الغذاءُ الذي منه تحصل النطفةُ فتدبر ﴿**ثم من نطفة**﴾ هي مادتُك القريبة فالمخلوقُ واحدٌ والمبدأُ متعددٌ ﴿**ثم سواك رجلًا**﴾ أي عَدلك وكمّلك إنسانًا ذكرًا أو صيّرك رجلًا، والتعبيرُ عنه تعالى بالموصول للإشعار بعلية ما حيز الصلة لإنكار الكفرِ والتلويحِ بدليل البعثِ الذي نطق به قولُه عز من قائل: ﴿يأيها الناسُ إن كنتم في رَيبٍ من البعث فإنا خلقْناكم من تراب﴾ ... إلخ [الحجّ: ٥] ﴿**لكنا هو الله ربي**﴾ أصله لكنْ أنا وقد قرئ[1] كذلك فحُذفت الهمزةُ فتلاقت النونان فكان الإدغامُ، و(هو) ضميرُ الشأن وهو مبتدأٌ خبرُه الله ربي وتلك الجملةُ خبرُ أنا والعائدُ منها إليه الضميرُ، وقرئ بإثبات[2] ألفِ أنا في الوصل والوقف جميعًا وفي الوقف خاصة، وقرئ (لكنه)[3] بالهاء و(لكن) بطرح أنا[4] و(لكن أنا لا إلٰه إلا هو ربي)[5]، ومدارُ الاستدراك قوله تعالى: ﴿أكفرت﴾ كأنه قال: أنت كافرٌ

---

(١) قرأ بها: أبي، والحسن، وابن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٧٦)، والحجة لأبي زرعة (٤١٧).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وزيد بن علي، والحسن، والزهري، وأبو بحرية، ويعقوب، وكردم، وورش، وأبو جعفر، ورويس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٦)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩١)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والكشف للقيسي (٢/ ٦١٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٢٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٥).

(٤) قرأ بها: ابن مسعود، وعيسى الثقفي، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٢٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٦٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٩).

(٥) قرأ بها: ابن مسعود. =

لكني مؤمنٌ موحّد ﴿**ولا أشرك بربي أحدًا**﴾ فيه إيذانٌ بأن كفرَه كان بطريق الإشراك.

﴿**ولولا إذ دخلت جنتك قلت**﴾ أي هلا قلت عندما دخلتَها، وتقديمُ الظرف على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القولِ في آن الدخولِ من غير ريث لا للقصر ﴿**ما شاء الله**﴾ أي الأمرُ ما شاء الله أو ما شاء الله كائنٌ على أن ما موصولةٌ مرفوعةُ المحلِّ، أو أيَّ شيء شاء الله كان على أنها شرطيةٌ منصوبةٌ والجوابُ محذوفٌ، والمرادُ تحضيضُه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿**لا قوة إلا بالله**﴾ أي هلا قلت ذلك اعترافًا بعجزك وبأن ما تيسر لك من عِمارتها وتدبيرِ أمرِها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره! عن النبي ﷺ: «**من رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله لم يضُرَّه**»[(١)] ﴿**إن ترن أنا أقل منك مالًا وولدًا**﴾ أنا إما مؤكدٌ لياء المتكلمِ أو ضميرُ فصْلٍ بين مفعولي الرؤيةِ إن جُعلت عِلْميةً، وأقلَّ ثانيهما، وحالٌ إن جُعلت بصَريةً فيكون أنا حينئذ تأكيدًا لا غيرُ لأن شرطَ كونِه ضميرَ فصلٍ توسطُه بين المبتدأ والخبر أو ما أصلُه المبتدأُ والخبر، وقرئ أقلُّ[(٢)] بالرفع خبرًا لأنا والجملةُ مفعولٌ ثانٍ للرؤية أو حالٌ وفي قوله تعالى: ﴿وولدًا﴾ نُصرةٌ لمن فسر النفرَ بالولد ﴿**فعسى ربي أن يؤتين خيرًا من جنتك**﴾ هو جوابُ الشرط والمعنى إن ترنِ أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلِبَ ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزُقني لإيماني جنةً خيرًا من جنتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخْرِب جنتك ﴿**ويرسل عليها حسبانًا**﴾ هو مصدرٌ بمعنى الحِساب كالبُطلان والغفران أي مقدارًا قدره تعالى وحَسَبه، وهو الحكمُ بتخريبها، وقيل: عذابَ حُسبانٍ وهو حسابُ ما كسبت يداه، وقيل: مَراميَ جمعُ حُسبانة وهي الصواعقُ. ومساعدة النظمِ الكريم فيما سيأتي للأولين أكثر ﴿**من السماء فتصبح صعيدًا زلقًا**﴾ مصدر أريد به المفعولُ مبالغةً أي أرضًا ملساء يُزْلَق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات ﴿**أو يصبح**﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فتُصبحَ﴾، وعلى الوجه الثالث على يرسلَ ﴿**ماؤها غورًا**﴾

= ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٥).

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة ص (١٧١) برقم (٢٠٧)، والبزار (٣٠٥٥ - كشف) من طريق أبي بكر الهذلي عن ثمامة عن أنس مرفوعًا وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٩): وأبو بكر ضعيف جدًا.

(٢) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٦)، والبحر المحيط (٦/ ١٢٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤١)، والمعاني للفراء (٢/ ١٤٤).

أي غائرًا في الأرض أُطلق عليه المصدرُ مبالغة ﴿فلن تستطيع﴾ أبدًا ﴿له﴾ أي للماء الغائرِ ﴿طلبًا﴾ فضلًا عن وجدانه وردِّه.

﴿وأحيط بثمره﴾ أُهلك أموالُه المعهودةُ من جنتيه وما فيهما، وأصلُه من إحاطة العدوِّ، وهو عطفٌ على مقدر، كأنه قيل: فوقع بعضُ ما توقع من المحذور وأُهلك أمواله، وإنما حُذف لدِلالة السباقِ والسياقِ عليه كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ ظهرًا لبطن وهو كنايةٌ عن الندم، كأنه قيل: فأصبح يندم[١] ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي في عِمارتها من المال، ولعل تخصيصَ الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما أنه إنما يكون على الأفعال الاختياريةِ ولأن ما أنفق في عِمارتها كان مما يمكن صيانتُه عن طوارق الحدَثانِ وقد صرفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتعَ به، وكان يرى أنه لا تنالها أيدي الردَى، ولذلك قال: ما أظن أن تبيدَ هذه أبدًا، فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاكُ ندم على ما صنع بناءً على الزعم الفاسدِ من إنفاق ما يمكن ادخارُه في مثل هذا الشيءِ السريع الزوال. ﴿وهي﴾ أي الجنةُ من الأعناب المحفوفةِ بنخل ﴿خاوية﴾ ساقطةٌ ﴿على عروشها﴾ أي دعائمها المصنوعةِ للكروم لسقوطها قبل سقوطِها، وتخصيصُ حالها بالذكر دون النخل والزرعِ إما لأنها العُمدةُ وهما من متمماتها، وإما لأن ذكرَ هلاكِها مغنٍ عن ذكر هلاك الباقي لأنها حيث هلكت وهي مُشيَّدةٌ بعروشها فهلاكُ ما عداها بالطريق الأولى، وإما لأن الإنفاقَ في عمارتها أكثرُ، وقيل: أرسل الله تعالى عليها نارًا فأحرقها وغار ماؤُها ﴿ويقول﴾ عطف على يقلّب أو حالٌ من ضميره أي وهو يقول: ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا﴾ كأنه تذكر موعظةَ أخيه وعلم أنه إنما أُتيَ من قِبل شِرْكِه فتمنى لو لم يكن مشركًا فلم يُصبْه ما أصابه. قيل: ويحتمل أن يكون ذلك توبةً من الشرك وندَمًا على ما فرَط منه ﴿ولم تكن له﴾ وقرئ بالياء[٢] التحتانية ﴿فئة ينصرونه﴾ يقدِرون على نصره بدفع

---

(١) وإنما كان كناية عن الندم، لأن تقليب الكف حركة يفعلها المتحسر، وذلك أن يقلبها إلى أعلى، ثم إلى قبالته تحسرًا على ما احترق من المال في إحداث تلك الجنة، ومثله قولهم: قرع السن من الندم. ينظر: الكشاف (٢/ ٤٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ١٣١)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٦)، والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٧)، وهو المعروف عند البلاغيين بالكناية عن الصفة، وفي الكناية: دلائل الإعجاز (٥٨)، وسر الفصاحة (٢٢١)، ومفتاح العلوم (١٨٩)، والإيضاح (٣/ ١٧٣).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، وأيوب، وأبو عبيد، وابن سعدان، وابن جرير، وابن عيسى الأصبهاني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٧)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٢).

الإهلاكِ أو على رد المهلِك أو الإتيانِ بمثله، وجمعُ الضميرِ باعتبار المعنى كما في قوله عز وعلا: ﴿يرَوْنهم مثلَيْهم﴾ [آل عمران: ١٣] ﴿من دون الله﴾ فإنه القادرُ على ذلك وحده ﴿وما كان﴾ في نفسه ﴿منتصرًا﴾ ممتنعًا بقوته عن انتقامه سبحانه ﴿هنالك﴾ في ذلك المقامِ وفي تلك الحال ﴿الولاية لله الحق﴾ أي النُصرة له وحده لا يقدِر عليها أحدٌ فهو تقريرٌ لما قبله، أو ينصُر فيها أولياءَه من المؤمنين على الكفرة كما نصر، بما فعل بالكافر، أخاه المؤمنَ، ويعضُده قوله تعالى: ﴿هو خير ثوابًا وخير عقبًا﴾ أي لأوليائه، وقرئ الوِلاية[(١)] بكسر الواو ومعناها الملكُ والسلطانُ له عز وجل لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه أو لا يُعبد غيرُه كقوله تعالى: ﴿وإذا ركِبوا في الفُلك دعَوُا الله مخلِصين له الدين﴾ [العنكبوت: ٦٥] فيكون تنبيهًا على أن قوله: يا ليتني لم أشرِكْ إلخ، كان عن اضطرار وجزَع عمّا دهاه[(٢)] على أسلوب قوله تعالى: ﴿آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين﴾ [يونس: ٩١] وقيل: هنالك إشارةٌ إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿لِمَن الملكُ اليوم لله الواحدِ القهار﴾ [غافر: ١٦] وقرئ برفع[(٣)] الحقِّ على أنه صفةٌ للولاية وبنصبه على أنه مصدرٌ مؤكد، وقرئ عقُبًا[(٤)] بضم القاف وعُقْبى[(٥)] كرُجعى والكلُّ بمعنى العاقبة.

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ أي واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعةِ زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضرِبوا عن الآخرة صفحًا

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن وثاب، وشيبة، وابن غزوان، وطلحة، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٧٨)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).

(٢) في المخطوط: دها.

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، واليزيدي، وحميد، والأعمش، وابن أبي ليلى، وابن مناذر، وابن عيسى الأصبهاني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠، ٢٩١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٧)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٤) قرأ بها: الكسائي، ونافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٠)، والتيسير للداني (١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٢)، والغيث للصفاقسي (٢٧٩)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٣).

(٥) قرأ بها: عاصم.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٦).

بالمرة، أو بيِّنْ لهم صفتَها العجيبة التي هي في الغرابة كالمثَل ﴿كماء﴾ استئنافٌ لبيان المثَل أي هي كماء ﴿أنزلناه من السماء﴾ ويجوز كونُه مفعولًا ثانيًا لاضْربْ على أنه بمعنى صيّر ﴿فاختلط به﴾ اشتبك بسببه ﴿نبات الأرض﴾ فالتفّ وخالط بعضه بعضًا من كثرته وتكاثفه، أو نجَع الماءُ في النبات حتى روِيَ ورفّ[١]، فمقتضى الظاهرِ حينئذ فاختلط بنبات الأرض، وإيثارُ ما عليه النظمُ الكريمُ عليه للمبالغة في الكثرة فإن كلاًّ من المختلِطَين موصوفٌ بصفة صاحبِه ﴿فأصبح﴾ ذلك النباتُ الملتفُّ إثرَ بهجتها ورفيفِها ﴿هشيمًا﴾ مهشومًا مكسورًا ﴿تذروه الرياح﴾ تفرّقه، وقرئ تُذْريه[٢] من أذراه وتذروه الريحُ[٣]، وليس المشبَّهُ به نفسَ الماء بل هو الهيئةُ المنتزَعةُ من الجملة، وهي حالُ النبات المُنبَتِ بالماء، يكون أخضرَ وارفًا ثم هشيمًا تطيِّره الرياحُ كأن لم يغْنَ بالأمس ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاءُ والإفناءُ ﴿مقتدرًا﴾ قادرًا على الكمال.

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ بيانٌ لشأن ما كانوا يفتخِرون به من محسّنات [الحياة][٤] الدنيا، كما قال الأخُ الكافرُ: أنا أكثرُ منك مالًا وأعزُّ نفرًا إثرَ بيانِ شأن نفسها بما مر من المثَل. وتقديمُ المال على البنين مع كونهم أعزَّ منه كما في الآية المحكية آنفًا وقولِه تعالى: ﴿وأمدَدْناكم بأموال وبنينَ﴾ وغيرِ ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمدادِ وغيرِ ذلك وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات، فإنه زينةٌ ومُمِدٌّ لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين، وأما البنون فزينتُهم وإمدادُهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغَ الأبوّة، ولأن المالَ مناطٌ لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجةَ إليه أمسُّ من الحاجة إليهم، ولأنه أقدرُ منهم في الوجود، ولأنه زينةٌ بدونهم من غير عكس فإن من له بنونَ بلا مال فهو في ضيقِ حالٍ ونكال. وإفرادُ الزينة مع أنها مسنَدةٌ إلى الاثنين لما أنها مصدرٌ في الأصل

---

(١) في المخطوط: وزن.

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وابن عباس.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٧٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٧)، والبحر المحيط (٦/ ١٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٦).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وزيد بن علي، والحسن، والنخعي، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن محيصن، وابن عيسى، وابن جرير، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩١)، والتيسير للداني (٧٨)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) سقط في المخطوط.

أطلق على المفعول مبالغةً كأنهما نفسُ الزينة، والمعنى: إن ما يفتخرون به من المال والبنين شيءٌ يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوالِ وقُربِ الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها. **﴿والباقيات الصالحات﴾** هي أعمالُ الخير، وقيل: هي الصلواتُ الخمسُ، وقيل: سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبرُ، وقيل: كلُّ ما أريد به وجهُ الله تعالى، وعلى كل تقدير يدخُل فيها أعمالُ فقراءِ المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهَه دخولًا أوليًا، أما صلاحُها فظاهرٌ وأما بقاءُ عوائدِها عند فناءِ كلِّ ما تطمح إليه النفسُ من حظوظ الدنيا **﴿خير﴾** أي مما نُعت شأنُه من المال والبنين، وإخراجُ بقاءِ تلك الأعمالِ وصلاحِها مُخرَجَ الصفات المفروغِ عنها، مع أن حقَّهما أن يكونا مقصودَي الإفادةِ لا سيما في مقابلة إثباتِ الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى: ﴿ما عندكم ينفَدُ وما عند الله باقٍ﴾ [النحل، الآية ٩٦]، للإيذان بأن بقاءَها أمرٌ محقّقٌ لا حاجة إلى بيانه بل لفظُ الباقياتِ اسمٌ لها وصفٌ، ولذلك لم يُذكر الموصوفُ وإنما الذي يُحتاج إلى التعرض له خيريتُها **﴿عند ربك﴾** أي في الآخرة وهو بيانٌ لما يظهر فيه آثارُ خيريّتها بمنزلة إضافة الزينةِ إلى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكلِّ في الأصل إذ لا مشاركة لهما في الخيرية في الآخرة **﴿ثوابًا﴾** عائدةً تعود إلى صاحبها **﴿وخير أملًا﴾** حيث ينال بها صاحبُها في الآخرة كلَّ ما كان يؤمله في الدنيا، وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أملٌ يناله، وتكريرُ خيرٌ للإشعار باختلاف حيثيّتي الخيرية والمبالغةِ فيها.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿ويوم نسير الجبال﴾ منصوبٌ بمضمر أي اذكرْ حين نقلَعُها[1] من أماكنها ونسيّرها في الجو على هيئاتها كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ [النمل، الآية ٨٨] أو نسير أجزاءَها بعد أن نجعلها هباءً مُنْبَثًّا، والمرادُ بتذكيره تحذيرُ المشركين مما فيه من الدواهي، وقيل: هو معطوفٌ على ما قبله من قوله تعالى: ﴿عند ربك﴾ [الكهف: ٤٦] أي الباقياتُ الصالحات خيرٌ عند الله ويومَ القيامة. وقرئ تُسيَّر[2] على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريًا على سنن الكِبرياءِ وإيذانًا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيُّنه، وقرئ تَسِير[3] ﴿وترى الأرض﴾ أي جميعَ جوانبها والخطابُ لرسول الله ﷺ أو لكل أحدٍ ممن يتأتّى منه الرؤيةُ، وقرئ تُرَى[4] على صيغة البناء للمفعول ﴿بارزة﴾ أما بروزُ ما تحت الجبال [فظاهرٌ، وأما ما عداه فكانت الجبالُ تحول بينه][5] وبين الناظرِ قبل ذلك، فالآن أضحى قاعًا صفْصفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا ﴿وحشرناهم﴾ جمعناهم إلى الموقف من كل أَوْب. وإيثارُ صيغةِ الماضي بعد نسيّر وتَرى للدِلالة على تحقق الحشْرِ المتفرِّع على البعث الذي

---

(١) في خ: نعلقها.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، وشبل، وقتادة، وعيسى، والزهري، وحميد، وطلحة، واليزيدي، والزبيري، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩١)، والتيسير للداني (١٤٤)، والحجة لابن خالويه (٢٢٥)، والحجة لأبي زرعة (٤١٩)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، ومحبوب، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩١)، والبحر المحيط (٦/ ١٣٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٤١٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٧)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨).

(٤) قرأ بها: عيسى.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٧).

(٥) سقط في المخطوط.

يُنكره المنكرون، وعليه يدورُ أمرُ الجزاءِ وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيًّا وموجَبًا، وقيل: هو للدَّلالة على أن حشْرهم قبل التسيير والبروزِ ليعاينوا تلك الأهوالَ، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك ﴿فلم نغادر﴾ أي لم نترُك ﴿منهم أحدًا﴾ يقال: غادره[1] إذا تركه ومنه الغدْرُ الذي هو تركُ الوفاءِ والغديرُ الذي هو ماءٌ يتركه السيلُ في الأرض الغائرةِ، وقرئ بالياء[2] وبالفوقانية[3] على إسناد الفعل إلى ضمير الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وألقَت ما فيها وتخلّت﴾ [الانشقاق، الآية ٤].

﴿وعرضوا على ربك﴾ شُبّهت حالُهم[4] بحال جندٍ عُرضوا على السلطان[5] ليأمُر فيهم بما يأمُر، وفي الالتفات إلى الغَيبة وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافةِ إلى ضميره عليه السلام من تربية المهابةِ والجَرْي على سَنن الكبرياءِ وإظهار اللطفِ به عليه السلام ما لا يخفى ﴿صفًّا﴾ أي غيرَ متفرِّقين ولا مختلِطين فلا تعرّض فيه لوَحدة الصفّ وتعدّدِه، وقد ورد في الحديث الصحيح: (يجمع الله الأولين والآخِرين في صعيد واحد صُفوفًا)[6] ﴿لقد جئتمونا﴾ على إضمار القولِ على وجه يكون حالًا من ضمير عُرضوا أي مقولًا لهم أو وقلنا لهم، وأما كونُه عاملًا في يومَ نسيّر كما قيل فبعيدٌ من جزالة التنزيل الجليلِ، كيف لا ويلزم منه أن هذا القولَ هو المقصودُ بالأصالة دون سائر القوارعِ مع أنه خاصُّ التعلق بما قبله من العَرض والحشر دون تسييرِ الجبال وبروزِ الأرض ﴿كما خلقناكم﴾ نعتٌ لمصدر مقدّرٍ أي مجيئًا كائنًا كمجيئكم عند خلْقِنا لكم ﴿أول مرة﴾ أو حال من ضمير جئتمونا أي كائنين كما خلقناكم أولَ مرة حُفاةً عُراة غُرْلًا أو ما معكم شيءٌ مما تفتخرون به من الأموال والأنصار كقوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادَى كما خلقناكم أول مرة وتركتم

---

(١) زاد في المخطوط: وأغدره.

(٢) قرأ بها: عاصم، وأبان بن يزيد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٧).

(٣) قرأ بها: عاصم، وأبان بن يزيد، وقتادة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٣٤).

(٤) في المخطوط: حالتهم.

(٥) أي: على نهج الاستعارة وقد مضى الحديث عنها.
ينظر: مفتاح العلوم (٣٨٠) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها، والمثل السائر (٢/ ٨٣) وما بعدها.

(٦) أخرجه البخاري (٧/ ١٥) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ [هود:٢٥ والمؤمنون:٢٣ والعنكبوت:١٤]، برقم (٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤) كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، برقم (٣٢٧/ ١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما خوّلْناكم وراء ظهورِكم﴾ [الأنعام: ٩٤] ﴿**بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدًا**﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من كلام إلى كلام كِلاهما للتوبيخ والتقريعِ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعلَ لكم أبدًا وقتًا نُنْجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه، وأنْ مخففةٌ من المثقلة فُصِل بحرف النفي بينها وبين خبرِها لكونه جملةً فعليةً متصرِّفةً غيرَ دعاءٍ، والظرفُ إما مفعولٌ ثانٍ للجعل وهو بمعنى التصييرِ والأولُ هو موعدًا، أو حال من موعدًا وهو بمعنى الخلق والإبداع ﴿**ووضع الكتاب**﴾ عطف على عُرضوا داخلٌ تحت الأمورِ الهائلة التي أريد تذكيرُها بتذكير وقتِها أُورد فيه ما أورد في أمثاله من صيغة الماضي دَلالةً على التقرر أيضًا، أي وُضع صحائفُ الأعمالِ، وإيثارُ الإفرادِ للاكتفاء بالجنس، والمرادُ بوضعها إما وضعُها في أيدي أصحابِها يمينًا وشمالًا وإما في الميزان ﴿**فترى المجرمين**﴾ قاطبةً فيدخل فيهم الكفرةُ المنكِرون للبعث دخولًا أوليًا ﴿**مشفقين**﴾ خائفين ﴿**مما فيه**﴾ من الجرائم والذنوب ﴿**ويقولون**﴾ عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نقيرًا وقِطْميرًا ﴿**يا ويلتنا**﴾ منادين لهِلَكتهم التي هلكوها من بين الهلَكات مستدْعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هولَ ما لاقَوه، أي يا ويلتَنا احضُري فهذا أوانُ حضورِك ﴿**ما لهذا الكتاب**﴾ أي أيُّ شيء له، وقولُه تعالى: ﴿**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾ أي حواها وضبطَها، جملةٌ حاليةٌ محقِّقةٌ لما في الجملة الاستفهاميةِ من التعجب، أو استئنافيةٌ مبنيةٌ على سؤال نشأ من التعجب، كأنه قيل: ما شأنُه حتى يُتعجَّب منه؟ فقيل: لا يغادر سيئةً صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿**ووجدوا ما عملوا**﴾ في الدنيا من السيئات، أو جزاءَ ما عملوا ﴿**حاضرًا**﴾ مسطورًا عتيدًا ﴿**ولا يظلم ربك أحدًا**﴾ فيكتب ما لم يُعمَل من السيئات أو يزيد في عقابه المستحق فيكون إظهارًا لِمَعْدلة القلمِ الأزلي.

﴿**وإذ قلنا للملائكة**﴾ أي اذكر وقتَ قولنا لهم: ﴿**اسجدوا لآدم**﴾ سجودَ تحيةٍ وتكريم وقد مر تفصيلُه ﴿**فسجدوا**﴾ جميعًا امتثالًا بالأمر ﴿**إلا إبليس**﴾ فإنه لم يسجُد [بل][1] أبى واستكبر وقوله تعالى: ﴿**كان من الجن**﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق مساقَ التعليلِ لما يفيده استثناءُ اللعين من الساجدين، كأنه قيل: ما له لم يسجُد؟ فقيل: كان أصلُه جنيًّا ﴿**ففسق عن أمر ربه**﴾ أي خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاءُ، أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمرِ الله تعالى إذ لولاه لما أبى. والتعرضُ لوصف الربوبيةِ المنافية للفسق لبيان كمالِ قبحِ ما فعله، والمرادُ بتذكير قصّتِه تشديدُ النكيرِ على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالِهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراءِ المؤمنين ببيان

---

(١) سقط في المخطوط.

أن ذلك من صنيع إبليسَ وأنهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**أفتتخذونه**﴾ إلخ، فإن الهمزةَ للإنكار والتعجبِ والفاءَ للتعقيب أي أعَقيبَ علمِكم بصدور تلك القبائحِ عنه تتخذونه ﴿**وذريته**﴾ أي أولادَه وأتباعَه، جعلوا ذريتَه مجازًا. قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدمَ، وقيل: يُدخل ذنبَه في دُبُره فيبيض فتنفلق البيضةُ عن جماعة من الشياطين ﴿**أولياء من دوني**﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي ﴿**وهم**﴾ أي والحال أن إبليسَ وذريته ﴿**لكم عدو**﴾ أي أعداءٌ كما في قوله تعالى: ﴿فإنهم عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين﴾ [الشعراء، الآية ٧٧] وقوله تعالى: ﴿هم العدوُّ﴾ [المنافقون، الآية ٤] وإنما فُعل به ذلك تشبيهًا له بالمصادر نحو القَبول والوُلوع وتقييد الاتخاذِ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكارِ وتشديدِه، فإن مضمونَها مانعٌ من وقوع الاتخاذِ ومنافٍ له قطعًا ﴿**بئس للظالمين**﴾ أي الواضعين للشيء في غير موضعِه ﴿**بدلًا**﴾ من الله سبحانه إبليسُ وذريتُه، وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وضع الظالمين موضعَ الضمير، [من الإيذان][1] بكمال السُخطِ والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلمٌ قبيح، ما لا يخفى ﴿**ما أشهدتهم**﴾ استئنافٌ مَسوق لبيان عدمِ استحقاقِهم للاتخاذ المذكورِ في أنفسهم بعد بيانِ الصوارفِ عن ذلك من خباثة المَحتِد والفسق والعداوة، أي ما أحضَرْتُ إبليسَ وذريتَه ﴿**خلق السموات والأرض**﴾ حيث خلقتُهما قبل خلقِهم ﴿**ولا خلق أنفسهم**﴾ أي ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعض كقوله تعالى: ﴿ولا تقتُلوا أنفسكم﴾ [النساء، الآية ٢٩] هذا ما أجمع عليه الجمهورُ حِذارًا من تفكيك الضميرين ومحافظةً على ظاهر لفظ الأنفس، ولك أن تُرجع الضميرَ الثانيَ إلى الظالمين وتلتزمَ التفكيكَ بناءً على قَوْد المعنى إليه، فإن نفيَ إشهادِ الشياطين خلقَ الذين يتولَّونهم هو الذي يدور عليه إنكارُ اتخاذهم أولياءَ بناء على أن أدنى ما يصحح التوليَ حضورُ الوليِّ خلقَ المُتولّىٰ، وحيث لا حضورَ لا مصحِّحَ للتولي قطعًا، وأما نفيُ إشهادِ بعضِ الشياطينِ خلقَ بعض منهم فليس من مدارية الإنكارِ المذكور في شيء، على أن إشهادَ بعضهم خلقَ بعض إن كان مصحِّحًا لتولي الشاهدِ، بناءً على دِلالته على كماله باعتبار أن له مدخلًا في خلق المشهودِ في الجملة، فهو مُخِلٌّ بتولي المشهودِ بناء على قصوره عمّن شهِد خلقَه فلا يكون نفيُ الإشهادِ المذكورِ متمحّضًا في نفي الكمالِ المصحِّح للتولي عن الكل وهو المناطُ للإنكار المذكور ﴿**وما كنت متخذ المضلين**﴾ أي متّخذَهم، وإنما وُضع موضعَه المظهر ذما لهم وتسجيلًا عليهم

(١) في المخطوط: الإيذان.

بالإضلال وتأكيدًا لما سبق من إنكار اتخاذِهم أولياءَ ﴿عضدًا﴾ أعوانًا في شأن الخلقِ أو في شأن من شؤوني حتى يُتوهّم شِرْكتُهم في التولي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبية، وفيه تهكمٌ بهم وإيذانٌ بكمال ركاكةِ عقولِهم وسخافةِ آرائِهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به، وإيثارُ نفي الإشهاد على نفي شهودِهم ونفي اتخاذِهم أعوانًا على نفي كونهم كذلك للإشعار بأنهم مقهورون تحت قدرتِه تعالى تابعون لمشيئته وإرادتِه فيهم، وأنهم بمعزل من استحقاق الشهودِ والمعونة من تلقاء أنفسِهم من غير إحضارٍ واتخاذ وإنما قُصارى ما يتوهم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغَ بأمر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون، وقيل: الضميرُ للمشركين والمعنى ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما أطلعتُهم على أسرار التكوينِ وما خصَصْتُهم بفضائلَ لا يَحويها غيرُهم حتى يكونوا قدوةً للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعُمون فلا يُلتفت إلى قولهم طمعًا في نُصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضِدَ بالمُضِلّين، ويعضُده القراءةُ بفتح[(١)] التاءِ خطابًا لرسول الله ﷺ، والمعنى ما صح لك الاعتضادُ بهم. ووصفُهم بالإضلال لتعليل نفي الاتخاذِ، وقرئ متّخِذًا[(٢)] المُضلّين على الأصل، وقرئ عُضْدًا[(٣)] بضم العين وسكون الضاد وبفتح[(٤)] وسكون بالتخفيف وبضمتين[(٥)] بالاتباع وبفتحتين[(٦)] على أنه جمع عاضد كرَصَد وراصد.

---

(١) قرأ بها: أبو جعفر، والحسن، والجحدري، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٨٠)، والبحر المحيط (٦/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٢) قرأ بها: علي بن أبي طالب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨).

(٣) قرأ بها: عكرمة، والحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨).

(٤) قرأ بها: عيسى.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٧)، والبحر المحيط (٦/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وهارون القارئ، وشيبة، وخارجة، والخفاف، والحسن.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٨٠)، والبحر المحيط (٦/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨).

(٦) قرأ بها: الحسن، وعيسى بن عمر. =

﴿ويوم يقول﴾ أي الله عز وجل للكافرين توبيخًا وتعجيزًا، [وقرئ بنون[١] العظمة][٢] ﴿نادوا شركائيَ الذين زعمتم﴾ أنهم شفعاؤُكم ليشفعوا لكم، والمرادُ بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى، وقيل: إبليسُ وذرِّيته ﴿فدعَوهم﴾ أي نادَوهم للإغاثة، وفيه بيانٌ لكمال اعتنائِهم بإعانتهم على طريقة الشفاعةِ إذ معلومٌ أن لا طريقَ إلى المدافعة ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك وفي إيراده مع ظهوره تهكمٌ بهم وإيذانٌ بأنهم في الحماقه بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به ﴿وجعلنا بينهم﴾ بين الداعين والمدعوّين ﴿موبقًا﴾ اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ من وبَق وُبوقًا كوثب وثوبًا أو وبِق وبَقًا كفرح فرحًا إذا هلَك أي مهلِكًا يشتركون فيه وهو النارُ، أو عداوةً وهي في الشدة نفسُ الهلاك كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حبُّك كلَفًا ولا بغضُك تلَفًا»[٣]، وقيل: البينُ الوصلُ أي وجعلنا تواصلَهم في الدنيا هلاكًا في الآخرة، ويجوز أن يكون المرادُ بالشركاء الملائكةَ وعزيرًا و[٤] عيسى عليهم السلام ومريمَ، وبالمَوْبق البرزخَ البعيدَ أي جعلنا بينهم أمدًا بعيدًا يُهلِك فيه الأشواطُ لفرْط بُعده لأنهم في قعر جهنمَ وهم في أعلى الجنان ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحًا بإجرامهم وذمًا لهم بذلك ﴿فظنوا﴾ أي فأيقنوا ﴿أنهم مواقعوها﴾ مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا إذ[٥] رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعةَ ﴿ولم يجدوا عنها مصرفًا﴾ انصرافًا أو معدِلًا ينصرفون إليه.

﴿ولقد صرفنا﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرةٍ من النظم ﴿في هذا القرآن للناس﴾ لمصلحتهم ومنفعتِهم ﴿من كل مثل﴾ من جملته ما مر مِن مَثَل الرجلين ومثَل

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩١)، والبحر المحيط (٦/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٣٨).

(١) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وطلحة، ويحيى، وابن أبي ليلى، وابن مقسم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩١)، والتيسير للداني (١٤٤)، والحجة لابن خالويه (٢٢٥)، والحجة لأبي زرعة (٤٢٠)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) أخرجه معمر بن راشد في الجامع كما في مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٨١) برقم (٢٠٢٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٤٤٨) برقم (١٣٢٢)، والطبري في «تهذيب الآثار» (٣/ ٢٨٦)، وابن أبي شيبة في «أخبار المدينة» (١٣١٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٦١) عن عمر بن الخطاب موقوفًا.
ووهم المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٩٦) فقال: لم أقف عليه.

(٤) في المخطوط: أو.

(٥) في المخطوط: أنهم.

الحياةِ الدنيا أو من كل نوعٍ من أنواع المعاني البديعةِ الداعيةِ إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحسنِ واستجلاب النفس كالمثل ليتلقَّوْه بالقَبول فلم يفعلوا ﴿وكان الإنسان﴾ بحسب جِبلَّته ﴿أكثر شيء جدلًا﴾ أي أكثرَ الأشياءِ التي يتأتى منها الجدلُ وهو هاهنا شدةُ الخُصومةِ بالباطل والمماراةِ، من الجدْل الذي هو الفتْلُ، والمجادلةُ الملاواةُ لأن كلاً من المجادِلَين يلتوي على صاحبه، وانتصابُه على التمييز والمعنى أن جدَله أكثرُ من جدَل كلِّ مجادل.

﴿وما منع الناس﴾ أي أهلَ مكةَ الذين حُكيت أباطيلُهم ﴿أن يؤمنوا﴾ من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ﴿إذ جاءهم الهدى﴾ أي القرآنُ العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبةِ له ﴿ويستغفروا ربهم﴾ عما فرَط منهم من أنواع الذنوبِ التي من جملتها مجادلتُهم للحق بالباطل ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ أي إلا طلبُ إتيانِ سُنّتهم أو إلا انتظارُ إتيانِها، أو إلا تقديرُه فحذُف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه وسنتُهم الاستئصالُ ﴿أو يأتيهم العذاب﴾ أي عذابُ الآخرة ﴿قبلًا﴾ أي أنواعًا، جمعُ قَبيل أو عِيانًا كما في قراءة قِبَلًا[1] بكسر القاف وفتح الباء، وقرئ بفتحتين[2] أي مستقبَلًا، يقال: لقِيتُه قُبُلًا وقَبَلًا وقِبَلًا، وانتصابُه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآنُ الكريم من الأمور المستوجبةِ للإيمان بحيث لو لم يكن مثلَ هذه الحكمةِ القوية لما امتنع الناسُ من الإيمان وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفْرِط ﴿وما نرسل المرسلين﴾ إلى الأمم ملتبسين بحال من الأحوال ﴿إلا﴾ حالَ كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ومنذرين﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزاتِ والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهفِ ونحوها تعنّتًا ﴿ليدحضوا به﴾ أي بالجدال ﴿الحقَّ﴾ أي يُزيلوه عن مركزه ويُبْطلوه من إدحاض القدم[3] وهو إزلاقُها، وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿ما أنتم إلا بشرٌ مثلُنا﴾ [يس، الآية ١٥] ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ [المؤمنون، الآية ٢٤] ونحوُهما ﴿واتخذوا آياتي﴾ التي تخِرُّ لها صمُّ الجبال ﴿وما أنذروا﴾ أي أُنذروه من القوارع الناعيةِ عليهم

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وعيسى بن عمر، وخلف، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٨٢)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٤١).

(٣) في المخطوط: القوم.

العقابَ والعذابَ أو إنذارهم ﴿هزوًا﴾ استهزاءً، وقرئ بسكون[1] الزاي وهو ما يستهزأ به ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه﴾ وهو القرآنُ العظيم ﴿فأعرض عنها﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكرْ بها، وهذا السبكُ وإن كان مدلولُه الوضعيُّ نفيَ[2] الأظلمية من غير تعرّضٍ لنفي المساواة في الظلم إلا أن مفهومَه العُرْفيَّ أنه أظلمُ من كل ظالم، وبناءُ الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلمَ من يجادل فيه ويتخذُه هزوًا خارجٌ عن الحد ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ أي عملَه من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاءِ بالحق ولم يتفكر في عاقبتها ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أغطيةً كثيرة جمع كِنان، وهو تعليلٌ لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم ﴿أن يفقهوه﴾ مفعولٌ لما دل عليه الكلام أي منعناهم أن يقفوا على كُنهه، أو مفعولٌ له أي كراهةَ أن يفقهوه ﴿وفي آذانهم﴾ أي جعلنا فيها ﴿وقرًا﴾ ثِقَلًا يمنعهم من استماعه ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدًا﴾ أي فلن يكون منهم اهتداءٌ ألبتةَ مدةَ التكليف، وإذن جزاءٌ للشرط وجوابٌ عن سؤال النبي عليه الصلاة والسلام المدلولِ عليه بكمال عنايتِه بإسلامهم، كأنه قال عليه الصلاة والسلام: «ما لي لا أدعوهم؟» فقيل: إن تدعهم إلخ، وجمعُ الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظِه.

﴿وربك﴾ مبتدأ وقوله تعالى: ﴿الغفور﴾ خبرُه وقوله تعالى: ﴿ذو الرحمة﴾ أي الموصوفُ بها، خبرٌ بعد خبرٍ، وإيرادُ المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرةَ تركُ المضارّ وهو سبحانه قادرٌ على ترك ما لا يتناهى من العذاب، وأما الرحمةُ فهي فعل وإيجادٌ ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى، وتقديمُ الوصف الأولِ لأن التخليةَ قبل التحلية أو لأنه أهمُّ بحسب الحال إذ المقامُ مقامُ بيانِ تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يُعرب عنه قوله عز وجل: ﴿لو يؤاخذهم﴾ أي لو يريد مؤاخذتهم ﴿بما كسبوا﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حُكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من المُوبقات ﴿لعجل لهم العذاب﴾ لاستيجاب أعمالِهم لَذلك، وإيثارُ

---

(١) قرأ بها: حمزة، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢، ٢٩٦)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠، ٢٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨٩).

(٢) في المخطوط: نفس.

المؤاخذةِ المنبئة عن شدة الأخذِ بسرعة على التعذيب والعقوبةِ ونحوهما للإيذان بأن النفيَ المستفادَ من مقدَّم الشرطية متعلقٌ بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها، وإيثارُ[١] صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضيّ لإفادة أن انتفاءَ تعجيلِ العذاب لهم بسبب استمرار عدمِ إرادة المؤاخذة فإن المضارعَ الواقعَ موقعَ الماضي يفيد استمرارَ انتفاءِ الفعل فيما مضى كما حُقق في موضعه ﴿**بل لهم موعد**﴾ اسمُ زمان هو يومُ القيامة، والجملةُ معطوفةٌ على مقدر كأنه قيل: لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتةً ﴿**لن يجدوا**﴾ ألبتةَ ﴿**من دونه موئلًا**﴾ منْجى أو ملجأً، يقال: وأل أي نجا ووأل إليه أي لجأ إليه.

﴿**وتلك القرى**﴾ أي قرى عاد وثمودَ وأضرابِها، وهي مبتدأٌ على تقدير المضافِ [أي][٢] وأهلُ تلك القرى خبرُه قوله تعالى: ﴿**أهلكناهم**﴾ أو مفعولٌ مضمرٌ مفسر به ﴿**لما ظلموا**﴾ أي وقت ظلمِهم كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم من القبائح، وتركُ المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلةَ اللازم أي لما فعلوا الظلم، ولمّا إما حرفٌ كما قال ابنُ عصفور، وإما ظرفٌ استعمل للتعليل وليس المرادُ به الوقتَ المعين الذي عملوا فيه الظلم بل زمانٌ ممتدٌ من ابتداء الظلم إلى آخره ﴿**وجعلنا لمهلكهم**﴾ أي عيّنّا لهلاكهم ﴿**موعدًا**﴾ أي وقتًا معينًا لا محيدَ لهم عن ذلك، وهذا استشهاد على ما فُعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب، وقرئ بضم[٣] الميم وفتح اللامِ أي إهلاكهم وبفتحهما[٤].

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ

---

(١) زاد في المخطوط: المبالغة.

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٧)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

(٤) قرأ بها: عاصم، وحماد، ويحيى، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٨٢)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

موسى وفتاه

﴿وإذ قال موسى﴾ نصب بإضمار فعل، أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لفتاه﴾ وهو يوشعُ بن نونٍ بنِ أفرايمَ بنِ يوسفَ عليه السلام، سُمّي فتاه إذ كان يخدُمه ويتبعه، وقيل: كان يتعلم منه ويسمى التلميذُ فتًى وإن كان شيخًا، ولعل المرادَ بتذكيره، عَقيب بيانِ أن لكل أمة موعدًا، تذكيرُ ما في القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافعِ الجليلة ﴿لا أبرح﴾ من برِح الناقصِ كزال يزال، أي لا أزال أسير فحُذف الخبر اعتمادًا على قرينة الحالِ إذْ كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالًا على ما يعقُبه من قوله: ﴿حتى أبلغ﴾ فإن ذلك غايةٌ تستدع [ذا غاية يؤدّي إليها، ويجوز أن يكون أصلُ الكلام لا يبرَح مسيري حاصلًا حتى أبلُغ فيُحذف المضافُ ويقام المضافُ إليه مُقامَه][1] فينقلب الضمير البارزُ المجرورُ المحلِّ مرفوعًا مستكنًّا، والفعلُ من صيغة الغَيبة إلى التكلم. ويجوز أن يكون من برح التامِّ كزال يزول أي لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿مجمع البحرين﴾ هو ملتقى بحرِ فارس والروم مما يلي المشرِق، وقيل: طَنْجَةُ، وقيل: هما الكر والرس بأرْمِيْنِيَةَ، وقيل: إفْرِيقِيَّة، وقرئ بكسر[2] الميم كمشرق ﴿أو أمضي حقبًا﴾ أسير زمانًا طويلًا أتيقن معه فواتَ المطلب والحُقب الدهرُ أو ثمانون سنة، وكان منشأُ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني إسرائيلَ واستقروا بها بعد هلاكِ القِبْط أمره الله عز وجل أن

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) قرأ بها: الضحاك، وعبد الله بن مسلم.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٨)، والبحر المحيط (٦/ ١٤٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٠)، والمعاني للفراء (٢/ ١٤٨).

يذكّر قومَه النعمةَ فقام فيهم خطيبًا بخطبة بديعةٍ رقت بها القلوبُ وذرَفت العيون، فقالوا له: مَنْ أعلمُ الناس؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه عز وجل فأوحى إليه: «**بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخِضْرُ عليه السلام**». وكان في أيام أفريذون[1] قبل موسى عليه السلام وكان على مقدّمة ذي القرنين وبقي إلى أيام موسى. وقيل: (إن موسى عليه السلام سأل ربه: أيُّ عبادِك أحبُّ إليك؟ قال: «**الذي يذكرُني ولا ينساني**»، قال: فأيُّ عبادك أقضىٰ؟ قال: «**الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى**»، قال: فأيُّ عبادك أعلمُ؟ قال: «**الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمةً تدله على هدى، أو تردّه عن ردًى**»، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلمُ مني فدلَّني عليه، قال: «**أعلمُ منك الخِضْرُ**»، قال: أين أطلبه؟ قال: «**على ساحل البحر عند الصخرة**»، قال: يا رب كيف لي به؟ قال: «**تأخذ حوتًا في مِكْتل[2] فحيثما فقَدته فهو هناك**». فأخذ حوتًا فجعله في مِكتل، فقال لفتاه: إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرني فذهبا يمشيان).

﴿**فلما بلغا**﴾ الفاءُ فصيحة كما أشير إليه ﴿**مجمع بينهما**﴾ أي مجمعَ البحرين، وبينِهما ظرفٌ أضيف إليه اتساعًا أو بمعنى الوصل ﴿**نسيا حوتهما**﴾ الذي جُعل فقدانُه أمارةَ وُجدانِ المطلوب أي نسيا تفقّد أمره وما يكون منه، وقيل: نسي يوشع أن يقدّمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشيء، روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرةُ وعينُ الحياة التي لا يصيب ماؤها ميْتًا إلا حيِيَ وضعا رؤوسَهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوتَ بردُ الماء ورَوحُه عاش، وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام، وقيل: توضأ عليه السلام من تلك العينِ فانتضح الماءُ على الحوت فعاش فوقع في الماء ﴿**فاتخذ سبيله في البحر سربًا**﴾ مسلَكًا كالسرب وهو النفق، قيل: أمسك الله عز وجل جريةَ الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزةً لموسى أو[3] للخضر عليهما السلام، وانتصابُ سَربًا على أنه مفعولٌ ثانٍ [لاتخذ][4] وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ.

﴿**فلما جاوزا**﴾ أي مجمعَ البحرين الذي جُعل موعدًا للملاقاة، قيل: أدلجا وسارا الليلةَ والغدَ إلى الظهر وأُلقي على موسى عليه السلام الجوعُ فعند ذلك ﴿**قال لفتاه آتنا غداءنا**﴾ أي ما نتغدى به وهو الحوتُ كما ينبئ عنه الجواب ﴿**لقد لقينا من سفرنا هذا**﴾ إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزةِ الموعد ﴿**نصبًا**﴾ تعبًا وإعياءً، قيل: لم ينصَبْ

---

(١) في المخطوط: إفريدون.
(٢) المكتل: زنبيل يعمل من الخوص.
(٣) في المخطوط: و.
(٤) سقط في المخطوط.

ولم يجُعْ قبل ذلك، والجملةُ في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء إما باعتبار أن النصَبَ إنما يعتري بسبب الضعفِ الناشئ عن الجوع وإما باعتبار ما في أثناء التغدي من استراحة ما.

﴿قال﴾ أي فتاه عليه السلام: ﴿**أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة**﴾ أي التجأنا إليها وأقمنا عندها. وذكرُ الإواءِ إليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغُ مجمعِ البحرين لزيادة تعيينِ محلِّ الحادثة، فإن المجمَع محلٌ متسعٌ لا يمكن تحقيقُ المرادَ المذكور بنسبة[1] الحادثةِ إليه ولتمهيد العذر فإن الإواءَ إليها والنومَ عندها مما يؤدي إلى النسيان عادة، والرؤيةُ مستعارةٌ للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملةِ، ومرادُه بالاستفهام تعجيبُ موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى، وقد جُعل فقدانُه علامةً لوجدان المطلوب وهذا أسلوبٌ معتادٌ فيما بين الناس، يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويلَه وتعجيبَ صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعُه لا استخبارُه عن ذلك كما قيل، والمفعولُ محذوفٌ اعتمادًا على ما يدل عليه من قوله عز وجل: ﴿**فإني نسيت الحوت**﴾ وفيه تأكيدٌ للتعجيب وتربيةٌ لاستعظام المنسيِّ، وإيقاعُ النسيان على اسم الحوتِ دون ضمير الغَداءِ مع أنه المأمورُ بإتيانه للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نِسيان المسافرِ زادَه في المنزل وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوالِ المتعلقة بالغداء من حيث هو غَداءٌ وطعامٌ، بل من حيث هو حوتٌ كسائر الحِيتان مع زيادة أي نسِيتُ أن أذكر لك أمرَه وما شاهدتُ منه من الأمور العجيبة ﴿**وما أنسانيه إلا الشيطان**﴾ بوسوسته الشاغلةِ عن ذلك وقوله تعالى: ﴿**أن أذكره**﴾ بدلُ اشتمال من الضمير أي ما أنساني أن أذكرَه لك، وفي تعليق[2] الإنساء بضمير الحوتِ أولًا وبذكره [له][3] ثانيًا على طريق الإبدالِ[4] المنبئ عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أن متعلَّقَ النسيان أيضًا ليس نفسَ الحوتِ [بل ذكرُ أمره، وقرئ أن[5] أذكّركه، وإيثارُ أن أذكُرَه على المصدر للمبالغة فإن مدلوله نفسُ الحدث[6] عند وقوعه، والحالُ وإن كانت غريبةً لا يُعهد نسيانُها لكنه لما تعوّد بمشاهدة أمثالِها عند موسى عليه السلام

(١) في المخطوط: بنسبته.
(٢) زاد في المخطوط: الأمر.
(٣) سقط في المخطوط.
(٤) في المخطوط: إبدال.
(٥) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٢).
(٦) سقط في المخطوط.

وألِفَها قل اهتمامه بالمحافظة عليها ﴿**واتخذ سبيله في البحر عجبًا**﴾ بيانٌ لطرف من أمر الحوتِ منبئ عن طرف آخرَ منه، وما بينهما اعتراضٌ قُدم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنه قيل: حَيِيَ واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلًا عجبًا، فـ «عجبًا» ثاني مفعولَي اتخَذ والظرفُ حالٌ من أولهما أو ثانيهما، أو هو المفعولُ الثاني وعجبًا صفةُ مصدرٍ محذوفٍ أي اتخاذًا عجبًا وهو كونُ مسلَكه كالطاق والسرَب، أو مصدرُ فعلٍ محذوف أي أتعجب منه عجبًا، وقد قيل: إنه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك.

﴿**قال**﴾ أي موسى عليه السلام ﴿**ذلك**﴾ الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿**ما كنا نبغ**﴾ وقرئ بإثبات الياء[1]، والضميرُ العائد إلى الموصول محذوفٌ، أصلُه نبغيه أي نطلبه لكونه أمارةً للفوز بالمرام ﴿**فارتدا**﴾ أي رجعا ﴿**على آثارهما**﴾ طريقِهما الذي جاءا منه ﴿**قصصًا**﴾ يقُصان قَصصًا أي يتّبعان آثارَهما اتباعًا أو مقتصّين حتى أتيا الصخرة.

موسى والخضر

﴿**فوجدا عبدًا من عبادنا**﴾ التنكيرُ للتفخيم والإضافةُ للتشريف والجمهور على أنه الخِضْرُ واسُمه بَلْيَا بنُ مَلْكَان، وقيل: اليسع، وقيل: إلياس عليهم الصلاة والسلام ﴿**آتيناه رحمة من عندنا**﴾ هي الوحيُ والنبوةُ كما يُشعِرُ به تنكيرُ الرحمة واختصاصُها بجناب الكبرياء ﴿**وعلمناه من لدنا علمًا**﴾ خاصًا لا يُكتنه كُنهُه ولا يقادر قدرُه وهو علمُ الغيوب ﴿**قال له موسى**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من السباق، كأنه قيل: فماذا جرى بينهما من الكلام؟ فقيل: قال له موسى: ﴿**هل أتبعك على أن تعلمن**﴾ استئذانًا منه في اتّباعه له على وجه التعلم ﴿**مما علمت رشدًا**﴾ أي علمًا ذا رُشدٍ أرشُد به في ديني، والرشدُ إصابةُ الخير، وقرئ بفتحتين[2] وهو مفعولُ (تعلّمنِ)

---

(١) أثبت الياء وصلًا: نافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢)، والتيسير للداني (١٤٧)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩١، ٤٠٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٦).
وأثبتها في الحالين: ابن كثير، ويعقوب.
ينظر: التيسير للداني (١٤٧)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩١، ٤٠٣)، والغيث للصفاقسي (٢٨٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٦).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، والحسن، واليزيدي، والزهري، وأبو بحرية، وابن محيصن، وابن مناذر، وأبو عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٤)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١١).

ومفعول (عُلّمت) محذوفٌ وكلاهما منقولٌ من عِلم المتعدي إلى مفعول واحد، ويجوز كونُه علةً لـ (أتبعُك) أو مصدرًا بإضمار فعله، ولا ينافي نبوتَه وكونَه صاحبَ شريعةٍ أن يتعلم من نبي آخرَ ما لا تعلقَ له بأحكام شريعتِه من أسرار العلوم الخفية، ولقد راعىٰ في سَوق الكلام غايةَ التواضع معه عليهما السلام ﴿**قال**﴾ أي الخِضْر: ﴿**إنك لن تستطيع معي صبرًا**﴾ نفىٰ عنه استطاعةَ الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصِحّ ولا يستقيم وعلله بقوله: ﴿**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا**﴾ إيذانًا بأنه يتولى أمورًا خفيةَ المدارِ[1] مُنْكَرةَ الظواهرِ، والرجلُ الصالح لا سيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها. وفي صحيح البخاري قال: «يا موسى إني على علمٍ من علم الله تعالى علَّمنيه لا تعلَمُه وأنت على علمٍ من علم الله علّمكه الله لا أعلَمه»[2]، وخبرًا تمييز أي لم يحط به خبرك.

﴿**قال**﴾ موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**ستجدني إن شاء الله صابرًا**﴾ معك غيرَ معترضٍ عليك، وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناءِ بالتيمّن ولئلا يُتوهّم تعلُّقُه بالصبر ﴿**ولا أعصي لك أمرًا**﴾ عطف على صابرًا أي ستجدني صابرًا وغيرَ عاصٍ، وفي وعد هذا الوُجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبرِ وتركِ العصيان، أو على ستجدني فلا محلَّ له من الإعراب والأولُ هو الأولى لما عرفته ولظهور تعلقِه بالاستثناء حينئذ، وفيه دليلٌ على أن أفعالَ العبادِ بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿**قال فإن اتبعتني**﴾ أذِن له في الاتّباع بعد اللتيا والتي، والفاءُ لتفريع الشرطيةِ على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة ﴿**فلا تسألني عن شيء**﴾ تشاهده من أفعالي أي لا تفاتحْني بالسؤال عن حكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض ﴿**حتى أحدث لك منه ذكرًا**﴾ أي: حتى أبتدئ ببيانه، وفيه إيذانٌ بأن [كلَّ][3] ما صدر عنه فله حكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ ألبتةَ، وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابعِ مع المتبوع، وقرئ فلا[4] تسألَنّي بالنون المثقلة ﴿**فانطلقا**﴾ أي موسى والخضرُ

---

(١) في المخطوط: الدار.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٩١) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث (٣٤٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧) كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، برقم (١٧٠/ ٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٣) سقط في المخطوط.

(٤) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٢)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٤)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٢).

عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينةَ، وأما يوشعُ فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيلَ، قيل: إنهما مرا بسفينة فكلّما أهلها فعرفوا الخضِرَ فحملوهما بغير نَول[1] ﴿حتى إذا ركبا في السفينة﴾ استعمالُ الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة في مع تجريده عنها في مثل قوله عز وجل: ﴿لتركبوها وزينةً﴾ [النحل: ٨] على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه لِما أشرنا إليه في قوله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها﴾ [هود: ٤١] لا لما قيل: من أن في ركوبها معنى الدخول ﴿خرقها﴾ قيل: خرقها بعد ما لججوا حيث أخذ فأسًا فقلع من ألواحها لوحين مما يلي الماء، فعند ذلك ﴿قال﴾ موسى عليه السلام ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ من الإغراق، وقرئ بالتشديد[2] من التغريق وليغرَقَ أهلُها[3] من الثلاثي ﴿لقد جئت﴾ أتيت وفعلت ﴿شيئًا إمرًا﴾ أي عظيمًا هائلًا من أمرَ الأمرُ إذا عظُم، قيل: الأصل أَمِرًا فخفف ﴿قال﴾ أي الخضِرُ عليه السلام: ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا﴾ تذكيرٌ لما قاله من قبلُ وتحقيقٌ لمضمونه متضمنٌ للإنكار على عدم الوفاء بوعده ﴿قال لا تؤاخذني بما نسيت﴾ بنسياني أو بالذي نسِيتُه أي بشيء نسيتُه وهو وصيتُه بألا يسألَه عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفيةِ الأسبابِ قبلَ بيانه، أراد أنه نسِيَ وصيته ولا مؤاخذةَ على الناسي كما ورد في صحيح البخاريّ[4] من أن الأولَ كان من موسى نسيانًا، أو أَخْرج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسِيَ ليبسُطَ عذرَه في الإنكار، وهو من معاريض الكلام التي يُتقىٰ بها الكذبُ مع التوصل إلى الغرض، أو أراد بالنسيان التركَ أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ولا ترهقني﴾ أي لا تُغشِّني ولا تحمّلني ﴿من أمري﴾ وهو اتباعه إياه ﴿عسرًا﴾ أي لا تعسِّرْ عليّ متابعتك ويسِّرها عليّ بالإغضاء وتركِ المناقشة، وقرئ عُسُرًا[5] بضمتين.

---

(١) النَّوْل: جُعْل السفينة وأجرها. ويمكن استخدامه اليوم للدلالة على الرسم الذي يؤدَّى إلى مصلحة البريد أجرةً لنقل الطرود ونحوها.

(٢) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والبحر المحيط (٦/ ١٤٩).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وزيد بن علي، وطلحة، والأعمش، وابن أبي ليلى، وأبو عبيد، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٥)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٣).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر.

=

﴿فانطلقا﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي فقبِل عذرَه فخرجا من السفينة فانطلقا **﴿حتى إذا لقيا غلامًا فقتله﴾** قيل: كان الغلامُ يلعب مع الغلمان فقتل عُنقَه، وقيل: ضرب برأسه الحائطَ، وقيل: أضجعه فذبحه بالسكين **﴿قال﴾** أي موسى عليه الصلاة والسلام: **﴿أقتلت نفسًا زكية﴾** طاهرةً من الذنوب، وقرئ زاكيةً[1] **﴿بغير نفس﴾** أي بغير قتلِ نفسٍ محرمة؟ وتخصيصُ نفْي هذا المبيحِ بالذكر من بين سائرِ المبيحات من الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصانِ لأنه الأقربُ إلى الوقوع نظرًا إلى حال الغلام، ولعل تغييرَ النظمِ الكريم بجعل ما صدر عن الخضِر عليه الصلاة والسلام هاهنا من جملة الشرطِ، وإبرازِ ما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام في معرض الجزاءِ المقصودِ إفادتُه، مع أن الحقيقَ بذلك إنما هو ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة، لاستشراف النفسِ إلى ورود خبرِها لقلة وقوعِها في نفس الأمر ونُدرة وصولِ خبرها إلى الأذهان، ولذلك روعيت تلك النكتةُ في الشرطية الأولى لما أن صدورَ الخوارقِ منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مَخرجَ العادة، فانصرفت النفسُ عن ترقبّه إلى ترقب أحوالِ موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطِه بموجب وعدِه الأكيدِ عند مشاهدةِ خارقٍ آخرَ، أو يسارع إلى المناقشة كما مر في المرة الأولى؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ولله درُّ شأنِ التنزيل. وأما ما قيل من أن القتلَ أقبحُ والاعتراضَ عليه أدخلُ فكان جديرًا بأن يُجعل عمدةً في الكلام فليس من دفع الشبهةِ في شيء بل هو مؤيدٌ لها، فإن كونَ القتل أقبحَ من مبادي قلة صدورِه عن المؤمن العاقلِ ونُدرةِ وصولِ خبره إلى الأسماع، وذلك مما يستدعي جعلَه مقصودًا بالذات وكونَ الاعتراضِ عليه أدخلَ من موجبات كثرة صدورِه عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضي جعله كذلك **﴿لقد جئت شيئًا نكرًا﴾** قيل: معناه أنكرُ من الأول إذ لا يمكن تدارُكه كما يمكن تدارُكُ الأول بالسدّ ونحوِه، وقيل: الأمرُ أعظمُ من النُّكر لأن قتلَ

= ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٣)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٥٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، واليزيدي، وأبو جعفر، ورويس، وابن محيصن، وابن عباس، والأعرج، وشيبة، وحميد، والزهري، وابن مسلم، وزيد، وابن بكير، ويعقوب، والتمار، وأبو عبيد، وابن جبير الأنطاكي، وخلف، والسلمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والتيسير للداني (١٤٤)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٥)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٦٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٣).

نفس واحدةٍ أهونُ من إغراق أهلِ السفينة.

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿**قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا**﴾ زيد (لك) لزيادة المكافحةِ بالعتاب على رفض الوصيةِ وقلة التثبّتِ والصبرِ لمّا تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتى زاد النكير في المرة الثانية ﴿**قال**﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**إن سألتك عن شيء بعدها**﴾ أي بعد هذه المرة ﴿**فلا تصاحبني**﴾ وقرئ من الإفعال[1] أي: لا تجعلني صاحبك ﴿**قد بلغت من لدني عذرًا**﴾ أي قد أعذرتَ ووجدتَ من قِبلي عُذرًا حيث خالفتُك ثلاثَ مرات. عن النبي ﷺ: «**رحم الله أخي موسى استحْيى فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصرَ أعجبَ الأعاجيب**»[2] وقرئ لدُني[3] بتخفيف النون، وقرئ بسكون[4] الدال كعضْد في عضُد.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وسهل، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والبحر المحيط (٦/ ١٥١)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٤)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٨٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٥٥)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٥٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٥٠) كتاب الفضائل، باب: فضائل الخضر عليه السلام، برقم (١٧٢/ ٢٣٨٠) وفيه: قال رسول الله ﷺ: رحمه الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة. قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا. ولو صبر لرأى العجب... الحديث.

(٣) قرأ بها: نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والتيسير للداني (١٤٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٦)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٣).

(٤) قرأ بها: عاصم، وشعبة. =

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ هي أنطاكيةُ، وقيل: أَيْلةُ وهي أبعدُ أرض الله من السماء، وقيل: هي برقة، وقيل: بلدة بأندلس. عن النبي ﷺ: **«كانوا أهلَ قرية لئاما»**[١] وقيل: شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيفُ ولا يُعرف لابن السبيل حقُّه، وقوله تعالى: ﴿استطعما أهلها﴾ في محل الجرِّ على أنه صفةٌ لقرية، ولعل العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفةً للأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعِهم فإن الإباءَ من الضيافة، وهم أهلُها قاطنون بها، أقبحُ وأشنع. روي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف[٢] من الإضافة، يقال: ضافه إذا كان له ضيفًا وأضافه وضيّفه أنزله وجعله ضيفًا له، وحقيقةُ ضاف مال إليه من ضاف السهمُ عن الغرَض ونظيرُه زاره من الازورار.

﴿فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض﴾ أي يداني أن يسقُط فاستعيرت الإرادةُ للمشارفة للدِلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاضُ الإسراعُ في السقوط وهو انفعالٌ من القضّ، يقال: قَضَضْتُه فانقضّ، ومنه انقضاضُ الطير والكوكبِ لسقوطه بسرعة، وقيل: هو افْعِلالٌ من النقض كاحمرّ من الحُمرة، وقرئ (أن يُنقض)[٣] من النقْض (وأن ينقاضَّ)[٤] من انقاضّت السن إذا انشقت طولًا ﴿فأقامه﴾ قيل: مسحه بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، وقيل: أقامه بعمود عمَده به، قيل: كان سَمكُه[٥] مائةَ ذراع ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرًا﴾ تحريضًا له على أخذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضًا بأنه فضولٌ لما في لو من النفي، كأنه لما رأى الحِرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغالَه بما لا يعنيه لم يتمالك الصبرَ، واتخذ افتعل من تخِذ بمعنى أخذ كاتبع من

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والتيسير للداني (١٤٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٦)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٣).

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٥١) كتاب الفضائل، باب: فضائل الخضر عليه السلام حديث (٢٣٨٠)، وأحمد (٥/ ١١٨)، والنسائي في «التفسير» من حديث أبي بن كعب مرفوعًا.

(٢) قرأ بها: عاصم، وابن محيصن، والمطوعي، وابن الزبير، والحسن، وأبو رجاء، وأبو رزين، والفضل، وأبان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والبحر المحيط (٦/ ١٥١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٥٥).

(٣) قرأ بها: المطوعي، وأُبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٨)، والبحر المحيط (٦/ ١٥٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٨٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣١).

(٤) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٨).

(٥) السَّمْك: القامة من كل شيء.

تبع وليس من الأخذ عند البصريين، وقرئ لَتَخِذْتَ[١] أي لأخذت، وقرئ بإدغام[٢] الذال في التاء **﴿قال﴾** أي الخَضر عليه [الصلاة][٣] والسلام: **﴿هذا فراق بيني وبينك﴾** على إضافة المصدرِ إلى الظرف اتساعًا وقد قرئ على[٤] الأصل، والمشارُ إليه إما نفسُ الفِراق كما في هذا أخوك، أو الوقتُ الحاضرُ أي هذا الوقتُ وقتُ فراق بيني وبينِك، أو السؤالُ الثالث، أي هذا سببُ ذلك الفراقِ حسبما هو الموعودُ **﴿سأنبئك﴾** السين للتأكيد لعدم تراخي التنبئة **﴿بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا﴾** التأويلُ رجْعُ الشيءِ إلى مآله والمرادُ به هاهنا المآلُ والعاقبةُ إذ هو المنبَّأُ به دون التأويل وهو خلاصُ السفينة من اليد العادِيَة، وخلاصُ أبوَي الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسنِ واستخراجُ اليتيمين للكنز، وفي جعل صلةِ الموصول عدمَ استطاعةِ موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال: بتأويل ما فعلتُ أو بتأويل ما رأيتَ ونحوِهما نوعُ تعريضٍ به عليه الصلاة والسلام وعتاب.

﴿أما السفينة﴾ التي خرقتُها **﴿فكانت لمساكين﴾** لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة، وقيل: كانت لعشرة إخوةٍ خمسةٌ منهم زَمْنىٰ[٥] وخمسة **﴿يعملون في البحر﴾** وإسنادُ العمل إلى الكل حينئذ إنما هو بطريق التغليب أو لأن عملَ الوكلاءِ بمنزلة عمل الموكِّلين **﴿فأردت أن أعيبها﴾** أي أجعلها ذاتَ عيب **﴿وكان وراءهم ملك﴾** أي أمامَهم وقد قرئ به[٦] أو خلفَهم وكان رجوعُهم عليه لا محالة واسمه جَلَنْدَى بنُ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، وابن مسعود، وقتادة، وابن بحرية.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٤)، والتيسير للداني (١٤٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٦)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٧٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٤).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن عامر، وشعبة، ورويس، والتمار.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٦٨)، والحجة لابن خالويه (٢٢٨)، والسبعة لابن مجاهد (٣٩٦)، والغيث للصفاقسي (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ١٥، ١٦).

(٣) سقط في المخطوط.

(٤) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٥٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٥).

(٥) الزمنى: جمع زَمِن، وهو الضعيف من مرض مستديم.

(٦) قرأ بها:ابن عباس، وابن جبير.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧١)، وتفسير الطبري (١٦/ ٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٤).

كركر، وقيل: منولة بن جلندى الأزْدي ﴿**يأخذ كل سفينة**﴾ أي صالحةٍ وقد قرئ كذلك[١] ﴿**غصبًا**﴾ من أصحابها وانتصابُه على أنه مصدرٌ مبينٌ لنوع الأخذ، ولعل تفريعَ إرادةِ تعييب السفينةِ على مسكنة أصحابِها قبل بيان خوفِ الغصْب مع أن مدارَها كلا الأمرين، للاعتناء بشأنها إذ هي المحتاجةُ إلى التأويل، وللإيذان بأن الأقوى في المدارية هو الأمرُ الأولُ ولذلك لا يبالي بتخليص سفنِ سائرِ الناس مع تحقق خوفِ الغصبِ في حقهم أيضًا، ولأن في التأخير فصلًا بين السفينة وضميرِها مع توهم رجوعِه إلى الأقرب.

﴿**وأما الغلام**﴾ الذي قتلتُه ﴿**فكان أبواه مؤمنين**﴾ لم يصرح بكفرانه أو بكفره إشعارًا بعدم الحاجة إلى الذكر لظهوره ﴿**فخشينا أن يرهقهما**﴾ فخِفنا أن يغْشَى الوالدَين المؤمنَين ﴿**طغيانًا**﴾ عليهما ﴿**وكفرًا**﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعِه ويُلحق بهما شرا وبلاءً، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانُه وكفره فيجتمَع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافرٌ، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلّهما بضلاله فيرتدّا بسببه، وإنما خشِيَ الخَضِر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمرِه، وقرئ فخاف[٢] ربك أي كره سبحانه كراهةَ مَن خاف سوء عاقبة الأمر فغيّره، ويجوز أن تكون القراءةُ المشهورة على الحكاية بمعنى فكرِهنا كقوله تعالى: ﴿**لأهبَ لك**﴾ [مريم، الآية ١٩] ﴿**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا**﴾ منه بأن يرزُقهما بدلَه ولدًا خيرًا ﴿**منه**﴾ وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ والإضافةِ إليهما ما لا يخفى من الدِلالة على إرادة وصولِ الخير إليهما ﴿**زكاة**﴾ طهارةً من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿**وأقرب رحمًا**﴾ أي رحمةً وعطفًا، قيل: وُلدت لهما جاريةٌ تزوجها نبي فولدت نبيا هدى - أي تعالى - على يده أمةً من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبيا، وقيل: أبدلهما ابنًا مؤمنًا مثلَهما، وقرئ رُحُمًا[٣] بضم الحاء أيضًا وانتصابُه على التمييز مثلُ زكوة.

---

(١) قرأ بها: أبي، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وابن جبير.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٤)، وتفسير الطبري (١٦/ ٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٥).

(٢) قرأ بها: أبي، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٩٨، ٣٩٩)، والمعاني للفراء (٢/ ١٥٧).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو حاتم، وابن عباس، وأبو جعفر، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٤)، والبحر المحيط (٦/ ١٥٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨١)، والكشف للقيسي (٢/ ٧٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٨٥).

﴿**وأما الجدار**﴾ المعهودُ ﴿**فكان لغلامين يتيمين في المدينة**﴾ هي القريةُ المذكورة فيما سبق، ولعل التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوعِ اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالحِ، قيل: اسماهما أصرم [وصريم][(١)] واسمُ المقتول جيسور ﴿**وكان تحته كنز لهما**﴾ من فضة وذهب كما رُوي مرفوعًا. والذمُّ على كنزهما في قوله عز وجل: ﴿والذين يكنِزون الذهبَ والفضّة﴾ [التوبة، الآية ٣٤] لمن لا يؤدي زكاتَهما وسائرَ حقوقهما. وقيل: كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: (عجبْتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزَن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعَب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل، وعجبت لمن يعرِف الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله). وقيل: صحفٌ فيها علم. ﴿**وكان أبوهما صالحًا**﴾ تنبيهٌ على أن سعيَه في ذلك كان لصلاحه، قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء ﴿**فأراد ربك**﴾ أي مالكُك ومدبرُ أمورك، ففي إضافة الربِّ إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيهٌ له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمالِ الانقيادِ والاستسلامِ لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحترازِ عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة ﴿**أن يبلغا أشدهما**﴾ أي حُلُمَهما وكمالَ رأيهما ﴿**ويستخرجا**﴾ بالكلية ﴿**كنزهما**﴾ من تحت الجدار ولولا أني أقمتُه لانقضّ وخرج الكنزُ من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميتِه وضاع ﴿**رحمة من ربك**﴾ مصدرٌ في موقع الحال أي مرحومَين منه عز وجل، أو مفعولٌ له أو مصدرٌ مؤكدٌ لأراد فإن إرادةَ الخير رحمةٌ، وقيل: متعلقٌ بمضمر أي فعلتُ ما فعلتُ من الأمور التي شاهدتَها رحمةً من **ربك**، ويعضُده إضافةُ الرب إلى ضمير المخاطبِ دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا: ﴿**وما فعلته عن أمري**﴾ أي عن رأيي واجتهادي تأكيدًا لذلك ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سلك البيان، وما فيه معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتِها في الفخامة ﴿**تأويل ما لم تسطع**﴾ أي لم تستطع فحُذف التاء للتخفيف ﴿**عليه صبرًا**﴾ من الأمور التي رابتْه أي مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازًا للتنبئة الموعودةِ، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويلُ بمعناه، وعلى كل حالٍ فهو فذلكةٌ لما تقدم، وفي جعل الصلة عينَ ما مر تكريرٌ للنكير وتشديدٌ للعتاب[(٢)].

تنبيه

اختلفوا في حياة الخضر عليه الصلاة والسلام، فقيل: إنه حيٌّ وسببُه أنه كان على

---

(١) سقط في ط.

(٢) في المخطوط: للعقاب.

مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلماتِ أصاب الخضرُ عينَ الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريقَ فعاد، قالوا: وإلياسُ أيضًا في الحياة يلتقيان كلَّ سنة بالموسم، وقيل: إنه ميتٌ لما رُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى العشاءَ ذاتَ ليلة، ثم قال: **«أرأيتكم ليلتَكم هذه فإن رأسَ مائةِ سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ ولو كان الخضرُ حينئذ حيًّا لما عاش بعد مائة عام»**[1]. رُوي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه، قال له: أوصِني، قال: لا تطلب العلمَ لتحدّث به واطلبُه لتعمل به.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٨١) كتاب العلم، باب: السمر في العلم، برقم (١١٦)، ومسلم (٤/ ١٩٦٥) كتاب فضائل الصحابة،باب: قوله ﷺ: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم، برقم (٢١٧/ ٢٥٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

﴿**ويسألونك عن ذي القرنين**﴾ هم اليهودُ سألوه على وجه الامتحانِ، أو سألتْه قريشٌ بتلقينهم، وصيغةُ الاستقبال للدِلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجوابِ وهو ذو القرنين الأكبرُ واسمه (الإسكندرُ بنُ فيلفوس اليوناني)، وقال ابن إسحاق: اسمُه (مَرزُبانُ بنُ مردبةَ[1]) من ولد يافثَ بنِ نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسودَ، وقيل: اسمُه (عبد الله بن الضحاك)، وقيل: (مصعبُ بنُ عبد الله بنِ فينانَ بنِ منصور بنِ عبد الله بن الآزَرِ بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرُبَ بن قحطانَ). وقال السهيلي: قيل: إن اسمه (مَرْزُبانُ بنُ مُدرِكَةَ) ذكره ابن هشام وهو أول التبابِعة. وقيل: إنه أفريذون بنُ النعمانِ الذي قتل الضحاك. وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المسمى بـ«الآثار الباقية عن القرون الخالية» أن ذا القرنين هو أبو كرب سميّ بن عيرين بن أفريقيس الحِمْيري وأن مُلكَه بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها وهو الذي افتخر به التبّعُ اليماني حيث قال: [الكامل]

قد كان ذو القرنين جدّي مسلمًا مَلِكًا علا في الأرض غيرَ مفنَّد[2]
بلغ المشارقَ والمغاربَ يبتغي أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرشد[3]

وجعلَ هذا القولَ أقربَ لأن الأذواءَ كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رُعَين وذي يزَن وذي جَدَن. قال الإمام الرازي: والأولُ هو الأظهرُ لأن من بلغ ملكَه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيلُ الجليلُ إنما هو الإسكندر اليونانيُّ كما تشهد به كتبُ التواريخ. يروى أنه لما مات أبوه جَمع مُلكَ الروم بعد أن كان طوائفَ، ثم قصد ملوكَ العرب وقهرَهم، ثم أمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصرَ فبنى الإسكندرية وسماها باسمه، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيلَ وورد بيتَ المقدس وذبح في مذبحه، ثم انعطف إلى أرمينيةَ وبابِ الأبواب ودان له العراقيون والقِبطُ والبربرُ، ثم توجه نحو دارا بنِ دارا وهزمه مرارًا إلى أن قتله صاحبُ حرسِه، واستولى على ممالك الفرسِ وقصدَ الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديبَ وغيرَها من المدن العظامِ، ثم قصد الصينَ وغزا الأمم البعيدةَ ورجع

---

(١) في المخطوط: مردوية.
(٢) في المخطوط: معتد.
(٣) البيتان لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص (٢٦)، والبيت الثاني في: لسان العرب (ثأط)، وتاج العروس (١٩/ ١٧٥) (ثأط).

إلى خراسانَ[١] وبنى بها مدائنَ كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزورَ ومات، انتهى كلام الإمام.

وروي أن أهلَ النجوم قالوا له: إنك لا تموت إلا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب، وكان يدفِن كنزَ كل بلدةٍ فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعِه، فبلغ بابل فرعَف وسقط عن دابته، فبُسطت له دروعٌ فنام عليها، فآذته الشمس فأظلوه بترس، فنظر فقال: هذه أرض من حديد وسماءٌ من خشب، فأيقن بالموت فمات وهو ابنُ ألفٍ وستمائة سنة، وقيل: ثلاثةِ آلافِ سنة. قال ابن كثير: وهذا غريب. وأغربُ منه: ما قاله ابنُ عساكر من أنه بلغني أنه عاش ستا وثلاثين سنة أو ثنتين وثلاثين سنة، وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فإن ذلك لا ينطبق إلا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره. قلت: وكذا ما ذكره الإمام من قصد بني إسرائيلَ وورودِ بيت المقدس والذبحِ في مذبحه، فإنه مما لا يكاد يتأتى نسبتُه إلى الأول.

واختُلف في نبوته بعد الاتفاق على إسلامه وولايتِه، فقيل: كان نبيًا لقوله تعالى: **﴿إنا مكنا له في الأرض﴾** وظاهر أنه متناولٌ للتمكين في الدين وكمالُه بالنبوة، ولقوله تعالى: **﴿وآتيناه من كل شيء سببًا﴾** ومن جملة الأشياء النبوةُ، ولقوله تعالى: **﴿قلنا يا ذا القرنين﴾** ونحوِ ذلك، وقيل: كان ملكًا لما رُوي أن عمرَ رضي الله عنه سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: اللهم غفرًا أما رضِيتم أن تتسموا بأسماء الملائكة[٢].

قال ابن كثير: والصحيحُ أنه ما كان نبيًا ولا ملكًا وإنما كان ملكًا صالحًا عادلًا ملَك الأقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانتْ له البلادُ، وأنه كان داعيًا إلى الله تعالى سائرًا في الخلق بالمَعْدلة التامة والسلطانِ المؤيَّدِ المنصورِ، وكان الخضر على مقدمة جيشِه بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير، وقد ذكر الأزرقي وغيرُه أنه أسلم على يدَيْ إبراهيمَ الخليلِ عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيلُ عليهم السلام. ورُوي أنه حج ماشيًا فلما سمع إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا، ويقال: إنه أُتيَ بفرس ليركب فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سُخّر له السحاب وطُويَ له الأسباب وبشره إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحابُ تحمله وعساكرَه وجميعَ آلاتِهم

---

(١) في ط: خرسان.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٨٠) بإسناد منقطع.

إذا أرادوا غزوةَ قوم، وقال أبو الطفيل: سُئل عنه عليٌّ كرم الله وجهه أكان نبيا أم مِلكًا؟ فقال: لم يكن نبيا ولا ملكًا لكن كان عبدًا أحب الله فأحبه وناصح لله فناصحه[١] سُخر له السحابُ ومُدّ له الأسباب[٢].

واختلف في وجه تسميته بذي القرنين، فقيل: لأنه[٣] بلغ قَرني الشمس مشرِقَها ومغربَها، وقيل: لأنه ملَك الرومَ وفارسَ، وقيل: الرومَ والتركَ، وقيل: لأنه كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين، وقيل: لأنه كان له ذؤابتان، وقيل: لأنه كانت صفحتا رأسِه من النحاس، وقيل: لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل فضرب بقرنه الأيمنِ فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الأيسرِ فمات ثم بعثه الله تعالى، وقيل: لأنه رأى في منامه أنه صعد الفَلكَ فأخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنه انقرض في عهده قَرنان، وقيل: لأنه سُخّر له النورُ والظلمة فإذا سرَى يهديه النورُ من أمامه وتحوطه الظلمةُ من ورائه، وقيل: لُقّب به لشجاعته. هذا وأما ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير: إنه الإسكندر بنُ فيلبسَ بن مصريمَ بن هُرمُسَ بنِ ميطونَ بنِ رومي بن ليطى بن يونان بن يافثَ بن نونه بن شرخونَ[٤] بن روميةَ بن ثونط بن نوفيلَ بن رومي بن الأصفرِ بن العنرِ بن العيصِ بن إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهما الصلاة والسلام، كذا نسبه ابنُ عساكرَ، المقدونيُّ اليوناني المصريُّ باني الإسكندريةِ الذي يؤرِّخ بأيامه الرومُ، وكان متأخرًا عن الأول بدهر طويلٍ أكثرَ من ألفي سنة، كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة وكان وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوفَ وهو الذي قتل دارا بنَ دارا وأذلّ ملوكَ الفرس ووطِئ أرضهم. ثم قال ابن كثير: وإنما بيّنا هذا لأن كثيرًا من الناس يعتقد أنهما واحدٌ، وأن المذكورَ في القرآن العظيم هو هذا المتأخرُ فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثيرٌ، كيف لا والأولُ كان عبدًا صالحًا مؤمنًا وملكًا عادلًا وزيرُه الخضرُ عليه الصلاة والسلام، وقد قيل: إنه كان نبيا. وأما الثاني فقد كان كافرًا وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوفُ وقد كان ما بينهما من الزمان أكثرَ من ألفي سنة فأين هذا من ذلك؟ انتهى.

قلت: المقدوني نسبة إلى بلدة من بلاد الروم غربيَّ دارِ السلطنة السنية قُسطنطينيةَ المحمية لا زالت مشحونةً بالشعائر الدينية، بينهما من المسافة مسيرةُ خمسةَ عشر يومًا أو نحوِ ذلك عند مدينة سَيروزَ اسمُها بلغة اليونانيين مقدونيا، كانت سريرَ مُلك هذا

---

(١) زاد في المخطوط: و.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٩٣).
(٣) في المخطوط: إنه.
(٤) في المخطوط: سرحون.

الإسكندرِ وهي اليوم بلقَعٌ لا يقيم بها أحد، ولكن فيها علائمُ تحكي كمالَ عِظَمها[(١)] في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكةِ واليها وسلطانِها، ولقد مررتُ بها عند القُفول من بعض المغازي السُّلطانية فعاينتُ فيها من تعاجيب الآثارِ ما فيه عبرةٌ لأولي الأبصار.

﴿قل﴾ لهم في الجواب ﴿سأتلو عليكم﴾ أي سأذكر لكم ﴿منه﴾ أي من ذي القرنين ﴿ذكرًا﴾ أي نبأ متلوًّا، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلوِّ حكايةً عن جهة الله عز وجل، قيل: سأتلو أو سأتلو في شأنه من جهته تعالى ذكرًا أي قرآنًا، والسينُ للتأكيد والدِلالة على التحقيق المناسبِ لمقام تأييدِه عليه الصلاة والسلام وتصديقِه بإنجاز وعدِه، أي لا أترك التلاوةَ ألبتةَ كما في قول من قال: [الطويل]

سأشكر عَمْرًا إن تراخت منيّتي أياديَ لم تُمنَنْ وإن هي جلَّتِ[(٢)]

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل، لأن هذه الآيةَ ما نزلت بانفرادها قبل الوحي بتمام القصة، بل موصولةٌ بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهفِ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**ائتوني غدًا أخبركم**» فأبطأ عليه الوحيُ خمسة عشر يومًا أو أربعين كما ذكر فيما سلف، وقوله عز وجل: ﴿**إنا مكنا له في الأرض**﴾ شروعٌ في تلاوة الذكر المعهودِ حسبما هو الموعودُ، والتمكينُ هاهنا الإقدارُ وتمهيدُ الأسباب، يقال: مكّنه ومكّن له ومعنى الأولِ جعله قادرًا وقويًا، ومعنى الثاني جعل له قدرةً وقوةً، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمل كلٌّ منهما في محل الآخر كما في قوله عز وعلا: ﴿مكنّاهم في الأرض ما لم نمكّنْ لكم﴾ [الأنعام، الآية ٦] أي جعلناهم قادرين من حيث القُوى والأسباب والآلات على أنواع التصرفاتِ فيها، ما لم نجعلْه لكم من القوة والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب، فكأنه قيل: ما لم نمكنْكم فيها أي ما لم نجعلْكم قادرين على ذلك فيها أو مكنّا لهم في الأرض ما لم نمكنْ لكم، وهكذا إذا كان التمكينُ مأخوذًا من المكان بناءً على توهّم ميمِه أصليةً كما أشير إليه في سورة يوسفَ عليه الصلاة والسلام، والمعنى إنا جعلنا له مَكِنَةً وقدرةً على التصرف في الأرض من حيث التدبيرُ والرأيُ والأسبابُ، حيث سُخّر له السحابُ، ومُدّ له في الأسباب، وبُسط له النورُ، وكان الليلُ والنهار عليه سواءً،

---

(١) في المخطوط: عظمتها.

(٢) البيت لعبد الله بن الزبير في ملحق ديوانه ص (١٤٢)، وخزانة الأدب (٢/ ٢٦٥)، ولأبي الأسود الدؤلي أو لمحمد بن سعيد أو لعبد الله بن الزبير في سمط اللآلئ ص (١٦٦)، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص (٤٧٤).

وسُهِّل عليه السيرُ في الأرض، وذُلّلت له طرقها ﴿وآتيناه من كل شيء﴾ أراده من مُهمّات مُلكه ومقاصدِه المتعلقة بسلطانه ﴿سببًا﴾ أي طريقًا يوصله إليه وهو كلُّ ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ﴿فأتبع﴾ بالقطع، أي فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سببًا﴾ يوصله إليه، ولعل قصدَ بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركةِ الشمسية، وقرئ فاتّبع[1] من الافتعال والفرق أن الأولَ فيه معنى الإدراك والإسراعِ دون الثاني.

﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي منتهى الأرضِ من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحدٌ من مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيطِ الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائرُ المسماة بالخالدات التي هي مبدأُ الأطوال على أحد القولين ﴿وجدها﴾ أي الشمس ﴿تغرب في عين حمئة﴾ أي ذاتِ حَمأة وهي الطينُ الأسود من حمِئت البئرُ إذا كثرت حَمأتُها، وقرئ حامية[2] أي حارّة. روي أن معاوية رضي الله عنه قرأ (حامية) وعنده ابن عباس رضي الله عنهما فقال: (حَمِئة)، فقال معاوية لعبد اللّه بن عمرو بن العاص: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمسَ تغرب؟ قال: في ماء وطين.

وروي في تَأْط فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وليس بينهما منافاةٌ قطعية لجواز كون العينِ جامعةً بين الوصفين وكونِ الياء في الثانية منقلبةً عن الهمزة لانكسار ما قبلها. وأما رجوعُ معاوية إلى قول ابن عباس رضي الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضًا مسموعةٌ قطعًا، فلكون قراءةِ ابن عباس رضي الله عنهما قطعيةً في مدلولها وقراءته محتَمَلةً. ولعله لما بلغ ساحلَ المحيط رآها كذلك إذ ليس في مطمح بصره غيرُ الماء كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وجدها تغرب﴾ ﴿ووجد عندها﴾ عند تلك العين ﴿قومًا﴾ قيل: كان لباسُهم جلودَ الوحوش وطعامُهم ما لَفَظه

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٥٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧٤)، والتيسير للداني ص (١٤٥)، والمعاني للفراء (٢/ ١٥٧).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وشعبة، وابن مسعود، وابن عباس، وطلحة بن عبيد الله، وعمرو بن العاص، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، والحسن، ومعاوية، وزيد بن علي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٥٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٤٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٤١١)، والطبري (١٦/ ١١).

البحر، وكانوا كفارًا فخيّره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى: **﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب﴾** بالقتل من أول الأمر **﴿وإما أن تتخذ فيهم حسنًا﴾** أي أمرًا ذا حُسْن على حذف المضافِ أو على طريقةِ إطلاقِ المصدر على موصوفه مبالغةً، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع، ومحلُّ أن مع صلته إما الرفعُ على الابتداء أو الخبرية وإما النصبُ على المفعولية، أي إما تعذيبُك واقعٌ أو إما تفعلُ تعذيبَك وهكذا الحال في الاتخاذ، ومن لم يقل بنبوته قال: كان ذلك الخطابُ بواسطة نبيٍّ في ذلك العصر أو كان ذلك إلهامًا لا وحيًا بعد أن كان ذلك التخييرُ موافقًا لشريعة ذلك النبي **﴿قال﴾** أي ذو القرنين لذلك النبيِّ أو لمن عنده من خواصّه بعد ما تلقّى أمرَه تعالى مختارًا للشق الأخير **﴿أما من ظلم﴾** أي نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشركُ **﴿فسوف نعذبه﴾** بالقتل.

وعن قتادة أنه كان يطبُخ مَنْ كفر في القدور ومن آمن أعطاه وكساه **﴿ثم يرد إلى ربه﴾** في الآخرة **﴿فيعذبه﴾** فيها **﴿عذابًا نكرًا﴾** أي منكرًا[1] فظيعًا وهو عذابُ النار، وفيه دِلالةٌ ظاهرةٌ على أن الخطابَ لم يكن بطريق الوحي إليه وأن مقاولتَه كانت مع النبي أو مع من عنده من أهل مشورتِه **﴿وأما من آمن﴾** بموجب دعوتي **﴿وعمل﴾** عملًا **﴿صالحًا﴾** حسبما يقتضيه الإيمان **﴿فله﴾** في الدارين **﴿جزاء الحسنى﴾** أي فله المثوبةُ الحسنى أو الفِعلةُ الحسنى أو الجنةُ جزاءً، على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لمضمون الجملةِ قُدّم على المبتدأ اعتناءً به، أو منصوب بمضمر أي نجزي بها جزاء، والجملةُ حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبرِ المتقدم عليه أو حال أي مجزيًا بها أو تمييز، وقرئ منصوبًا[2] غيرَ منوّن على أنه سقط تنوينُه لالتقاء الساكنين ومرفوعًا منوّنًا على أنه المبتدأُ والحسنى بدلُه والخبرُ الجارُّ والمجرور.

وقيل: خُيّر بين القتل والأسرِ والجوابُ من باب الأسلوبِ الحكيم لأن الظاهرَ التخييرُ بينهما وهم كفار، فقال: أما الكافرُ فيُراعىٰ في حقه قوةُ الإسلام وأما المؤمنُ فلا يُتعرَّض له إلا بما يحب، ويجوز أن تكون إما وإما للتوزيع دون التخيير أي وليكن شأنُك معهم إما التعذيبَ وإما الإحسانَ فالأول لمن بقيَ على حاله والثاني لمن تاب **﴿وسنقول له من أمرنا﴾** أي مما نأمر به **﴿يسرًا﴾** أي سهلًا متيسرًا غيرَ شاقٍّ وتقديرُه

---

(١) في المخطوط: منظرًا.

(٢) قرأ بها: ابن عباس، ومسروق.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٠).

ذا يُسر، أو أُطلق عليه المصدرُ مبالغةً، وقرئ بضمتين[١] **﴿ثم أتبع سببًا﴾** أي طريقًا راجعًا من مغرب الشمس موصلًا إلى مشرقها **﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾** يعني الموضِعَ الذي تطلع عليه الشمسُ أولًا من معمورة الأرض، وقرئ بفتح[٢] اللام على تقدير مضاف أي مكان طلوعِ الشمس فإنه مصدر، قيل: بلغه في اثنتي عشرة سنة، وقيل: في أقلَّ من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سُخّر له السحابُ وطُويَ له الأسباب **﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا﴾** من اللباس والبناء، قيل: هم الزَّنْج.

وعن كعب: أن أرضَهم لا تُمسك الأبنية وبها أسرابٌ، فإذا طلعت الشمسُ دخلوا الأسرابَ أو البحر، فإذا ارتفع النهارُ خرجوا إلى معايشهم، وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزت الصينَ فسألت عن هؤلاء فقالوا: بينك وبينهم مسيرةُ يومٍ وليلةٍ، فبلغتُهم فإذا أحدُهم يفرُش أُذنه ويلبَس الأخرى ومعي صاحبٌ يعرِف لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظرُ كيف تطلُع الشمس، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغُشيَ عليّ ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدُّهن، فلما طلعت الشمسُ على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرَبًا لهم، فلما ارتفع النهارُ خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضَج لهم، وعن مجاهد: من لا يلبَس الثيابَ من السودان عند مطلع الشمس أكثرُ من جميع أهلِ الأرض **﴿كذلك﴾** أي أمرُ ذي القرنين كما وصفناه لك في رفعة المحلِّ وبسطةِ المُلك، أو أمرُه فيهم كأمره في أهل المغرِب من التخيير والاختيارِ، ويجوز أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوف لوجد أو نجعل أو صفةَ قومٍ، أي على قوم مثلَ ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحُكم، أو سترًا مثلَ سترِكم من اللباس والأكنان والجبال وغيرِ ذلك **﴿وقد أحطنا بما لديه﴾** من الأسباب والعَدد والعُدد **﴿خبرًا﴾** يعني أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علمُ اللطيفِ الخبير. هذا على الوجه الأولِ وأما على الوجوه الباقيةِ فالمرادُ بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل.

﴿ثم أتبع سببًا﴾ أي طريقًا ثالثًا معترِضًا بين المشرق والمغرب آخذًا من الجنوب

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٦٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، والحسن، وعيسى، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٤)، والبحر المحيط (٦/ ١٦١)، وتفسير القرطبي (١١/ ٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٨).

إلى الشمال ﴿حتى إذا بلغ بين السدين﴾ بين الجبلين اللذين سُدّ ما بينهما وهو منقطَعُ أرضِ الترك مما يلي المشرِق، لا جبلا أرمينيةَ وأَذْرْبيجان كما توهم، وقرئ بالضم[١]، قيل: ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح، وانتصاب بين على المفعولية لأنه مبلوغ وهو من الظروف التي تستعمل أسماءً أيضًا كما ارتفع في قوله تعالى: ﴿لقد تقطع بينُكم﴾ [الأنعام: ٩٤] وانجرّ في قوله تعالى: ﴿هذا فراق بيني وبينِك﴾ [الكهف: ٧٨] ﴿وجد من دونهما﴾ أي من ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قومًا﴾ أي أمة من الناس ﴿لا يكادون يفقهون قولًا﴾ لغرابة لغتِهم وقلة فِطنتِهم، وقرئ من باب[٢] الإفعال أي لا يُفهمون السامعَ كلامَهم، واختلفوا في أنهم من أي الأقوام، فقال الضحاك: هم جيلٌ من الترك، وقال السدي: التّركُ سريةٌ من يأجوجَ ومأجوجَ، خرجت فضرب ذو القرنين السدّ فبقيت خارجَه فجميعُ الترك منهم، وعن قتادة: أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلةً منهم وبقيت واحدة فسُمّوا التركَ لأنهم تركوا خارجين.

قال أهل التاريخ: أولادُ نوح عليه السلام ثلاثةٌ: سامٌ وحامٌ ويافثُ، فسامٌ أبو العرب والعجمِ والروم، وحامٌ أبو الحبشةِ والزَّنج والنُّوبة، ويافثُ أبو الترك والخَزَر والصقالبة ويأجوجَ ومأجوج ﴿قالوا﴾ أي بواسطة مترجمِهم أو بالذات على أن يكون فهمُ ذي القرنين كلامَهم وإفهامُ كلامِه إياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب ﴿يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج﴾ قد ذكرنا أنهما من أولاد يافثَ بنِ نوح عليه السلام، وقيل: يأجوجُ من الترك ومأجوجُ من الجيل، واختلف في صفاتهم فقيل: في غاية صِغرِ الجُثة وقِصَر القامة لا يزيد قدُّهم على شبر واحد، وقيل: في نهاية عِظَم الجسم وطولِ القامة تبلغ قدُودهم نحوَ مِائةٍ وعشرين ذراعًا وفيهم من عَرضُه كذلك، وقيل: لهم مخالبُ وأضراسٌ كالسباع وهما اسمانِ أعجميان بدليل منْع الصرفِ، وقيل: عربيان من أجّ الظليمُ إذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم، وقد قرئ

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن أبي ليلي، وابن عيسى الأصبهاني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٤،٢٩٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٤)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧٩)، والتيسير للداني ص (١٤٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٩).

بغير همزةٍ[(١)] ومُنع صرفُهما للتعريف والتأنيث ﴿مفسدون في الأرض﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلافِ الزروع، وقيل: كانوا يخرُجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه ولا يابسًا إلا احتملوه، وقيل: كانوا يأكلون الناسَ أيضًا ﴿فهل نجعل لك خرجًا﴾ أي جُعْلًا من أموالنا، والفاء لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض، وقرئ خَراجا[(٢)] وكلاهما واحد كالنَّول والنوال، وقيل: الخراجُ ما على الأرض والذمة والخَرْجُ المصدر، وقيل: الخرج ما كان على كل رأس والخراجُ ما كان على البلد، وقيل: الخرجُ ما تبرعْتَ به والخراج ما لزِمك أداؤه ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سدًا﴾ وقرئ بالضم[(٣)] ﴿قال ما مكني﴾ بالإدغام وقرئ بالفك[(٤)]، أي ما مكّنني ﴿فيه ربي﴾ وجعلني فيه مكينًا [و][(٥)] قادرًا من المُلك والمال وسائرِ الأسباب ﴿خير﴾ أي مما[(٦)] تريدون أن تبذُلوه إليّ من الخَرْج[(٧)] فلا حاجة بي إليه ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي بفَعَلة وصُنّاع يُحسنون البناءَ والعمل وبآلات لا بد منها في البناء، والفاءُ لتفريع الأمر بالإعانة على خيرية ما مكّنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قَبولِ خَرْجهم ﴿أجعل﴾ جواب للأمر ﴿بينكم وبينهم﴾ تقديمُ إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج، لإظهار كمالِ العناية بمصالحهم

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٣)، والتيسير للداني ص (١٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٢)، والكشف للقيسي (٢/ ٧٦، ٧٧)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٩٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والحسن، والأعمش، وطلحة، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٧٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٥٩).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٥)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٤)، والتيسير للداني ص (١٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٩٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٩٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٦٩).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٤)، والتيسير للداني ص (١٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٧١).

(٥) سقط في المخطوط.

(٦) في المخطوط: ما.

(٧) في المخطوط: الخراج.

كما راعَوْه في قولهم: بيننا وبينهم ﴿ردمًا﴾ أي حاجزًا حصينًا وبرزخًا متينًا وهو أكبرُ من السدّ وأوثقُ، يقال: ثوبٌ مُرَدّم أي فيه رِقاع فوق رِقاعٍ وهذا إسعافٌ بمرامهم فوق ما يرجونه ﴿آتوني زبر الحديد﴾ جمع زُبْرة كغرف في غرفة وهي القطعةُ الكبيرة وهذا لا ينافي ردّ خراجِهم لأن المأمورَ به الإيتاءُ بالثمن أو المناولةُ كما ينبئ عنه القراءة بوصل[1] الهمزة، أي جيئوني بزُبَر الحديد على حذف الباء كما في أمرتك الخيرَ، ولأن إيتاءَ الآلة من قبيل الإعانةِ بالقوة دون الخَراج على العمل، ولعل تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها دون سائرِ الآلات من الصخور والحطبِ ونحوِهما لِما أن الحاجة إليها أمسُّ إذ هي الركنُ في السد ووجودُها [أعزُّ. قيل:][2] حفَر الأساسَ حتى بلغ الماء وجعل الأساسَ من الصخر والنحاس المذابِ والبنيانَ من زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما وكان مائةَ فرسخ وذلك قوله عز قائلًا: ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي أتَوه إياها فأخذ يبني شيئًا فشيئًا حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساويًا لهما في السَّمْك على النهج المحكيِّ، قيل: كان ارتفاعُه مائتي ذارعٍ وعَرضُه خمسين ذراعًا، وقرئ سوّى[3] من التسوية وسُووِيَ[4] على البناء للمجهول ﴿قال﴾ للعَمَلة ﴿انفخوا﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿حتى إذا جعله﴾ أي المنفوخ فيه ﴿نارًا﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة، وإسنادُ الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنه فعل الفَعَلة للتنبيه على أنه العُمدة في ذلك وهم بمنزلة الآلةِ ﴿قال﴾ للذين يتولَّوْن أمرَ النحاس من الإذابة ونحوِهما ﴿آتوني أفرِغْ عليه قطرًا﴾ أي آتوني قِطرًا أي نُحاسًا مذابًا أفرِغْ عليه قطرًا، فحُذف الأول لدِلالة الثاني عليه، وقرئ بالوصل أي جيئوني كأنه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ وإسنادُ الإفراغِ إلى نفسه للسر الذي وقفت عليه آنفًا وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿ساوى﴾ وقولِه تعالى: ﴿أجعلْ﴾.

﴿فما اسطاعوا﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذَرًا عن تلاقي المتقارِبَين، وقرئ

---

(١) قرأ بها:عاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥٩)، والتيسير للداني ص (١٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٩٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٥).

(٢) في المخطوط: أيمن قبل.

(٣) قرأ بها: قتادة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٩).

(٤) قرأ بها: عاصم، وشعبة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٩).

بالإدغام[١] وفيه جمعٌ بين الساكنين على غير حِدَة، وقرئ بقلب السين[٢] صادًا، والفاء فصيحةٌ أي فعلوا ما أُمروا به من إيتاء القِطْر أو الإتيانِ، فأفرغَه عليه، فاختلط والتصق بعضُه ببعض، فصار [جبلًا][٣] صَلْدًا، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا ﴿أن يظهروه﴾ أي يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقبًا﴾ لصلابته وثخانتِه، وهذه معجزةٌ عظيمةٌ لأن تلك الزُبَرَ الكثيرةَ إذا أثرت فيها حرارةُ النار لا يقدر الحيوانُ على أن يحوم حولها فضلًا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثيرَ الحرارةِ العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال فكان ما كان والله على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتبطًا بعضُها ببعض بكلاليب من حديد ونحاسٍ مُذاب في تجاويفها بحيث لم يبق هناك فُرجةٌ أصلًا ﴿قال﴾ أي ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديارِ وغيرهم ﴿هذا﴾ إشارةٌ إلى السد، وقيل: إلى تمكينه من بنائه والفضلُ للمتقدم أي هذا الذي ظهر على يدي وحصل[٤] بمباشرتي من السد الذي شأنُه ما ذكر من المتانة وصعوبةِ المنال ﴿رحمةٌ﴾ أي أثرُ رحمةٍ عظيمة عبر عنه بها مبالغةً ﴿من ربي﴾ على كافة العباد لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذانٌ بأنه ليس من قبيل الآثارِ الحاصلةِ بمباشرة الخلقِ عادةً بل هو إحسانٌ إلٰهي محضٌ وإن ظهر بمباشرتي، والتعرّضُ لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة.

﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يومُ القيامة لا خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل إذ لا يساعده النظمُ الكريم، والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه من خروجهم وخروجِ الدجالِ ونزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوِ ذلك لا دنوُّ وقوعِه فقط كما قيل، فإن بعضَ الأمور التي ستُحكىٰ تقع بعد مجيئِه حتمًا ﴿جعله﴾ أي السدَّ المشارَ إليه مع متانته ورصانتِه، وفيه من الجزالة ما ليس في توجيه الإشارةِ السابقة إلى التمكين المذكور ﴿دكاءَ﴾ أي أرضًا مستويةً، وقرئ دكًا[٥] أي

---

(١) قرأ بها: حمزة، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٥، ٢٩٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ٦٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠١).

(٢) قرأ بها: الأعمشي، وشعبة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٧٢).

(٣) سقط في المخطوط.

(٤) في المخطوط: جعل.

(٥) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ويعقوب، وحفص.

=

مدكوكًا مسوًّى بالأرض، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاعٍ فقد اندك ومنه الجملُ الأدكُّ أي المنبسطُ السنام، وهذا الجعلُ وقت مجيءِ الوعدِ بمجيءِ بعضِ مباديه، وفيه بيانٌ لعظم قدرتِه عز وجل بعد بيان سعةِ رحمته ﴿وكان وعد ربي﴾ أي وعدُه المعهودُ أو كلُّ ما وعده به فيدخُل[١] فيه ذلك دخولًا أوليا ﴿حقا﴾ ثابتًا لا محالةَ واقعًا ألبتة، وهذه الجملةُ تذييلٌ من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطيةِ ومقرِّرٌ [مؤكدٌ][٢] لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي من قصته، وقوله عز وجل: ﴿وتركنا بعضهم﴾ كلامٌ مَسوقٌ من جنابه تعالى معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿جعله دكاء﴾ ومحقِّقٌ لمضمونه أي جعلنا بعضَ الخلائق ﴿يومئذ﴾ أي يوم إذ جاء الوعدُ بمجيء بعضِ مباديه ﴿يموج في بعض﴾ آخرَ منهم يضطربون اضطرابَ أمواجِ البحر[٣] ويختلط إنسُهم وجنُّهم حَيارى من شدة الهول، ولعل ذلك قبل النفخةِ الأولى، أو تركنا بعضَ يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون من السد مزدحمين في البلاد. روي أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابَّه ثم يأكلون الشجرَ ومن ظفِروا به ممن لم يتحصّن منهم من الناس، ولا يقدِرون أن يأتوا مكةَ والمدينة وبيتَ المقدسِ ثم يبعث الله عز وجل نَغَفًا[٤] في أقفائهم فيدخُل آذانَهم فيموتون موتَ نفس واحدة، فيرسل الله تعالى عليهم طيرًا فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطرًا يغسل الأرض ويطهرها من نَتْنهم حتى

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٦)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٨٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٣، ٢٣٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٦٠).

(١) في المخطوط: فدخل.

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) إشارة إلى أن الآية من قبيل الاستعارة التبعية، وقد جاءت في سياق استعارة سابقة في (وتركنا) فالترك: حقيقته مفارقة شيء كان بقربه، ويطلق مجازًا على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة تمثيلاً لحال إلقائه على حاله ثم تغييرها بحال من كان قرب شيء ثم ذهب عنه وقد تكلم العلماء على هذه الاستعارة.

ينظر: الكشاف (٢/ ٤٩٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٥)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٤٧)، والتحرير والتنوير (١٦/ ٤٠)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٨) وما بعدها، والمصباح لابن مالك (٢٨) وما بعدها، وشروح عقد الجمان (٢٦) وما بعدها، وأسرار البلاغة للخفاجي (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٢١)، ودلائل الإعجاز ص (١٠٧)، والمطول لسعد الدين التفتازاني (٣٠٦)، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٩٤).

(٤) في المخطوط: نفقًا وهو دود يكون في أنوف الغنم، والنَّغَف: دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم. أو دود أبيض يكون في النوى. أو دودٌ طوال سود وغبر وخضر تقطع الحرث في بطون الأرض.

يترُكها كالزَّلَفة[١] ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام وقتْل الدجال.

﴿ونفخ في الصور﴾ هي النفخةُ [الثانية][٢] بقضية الفاء في قوله تعالى ﴿فجمعناهم﴾ ولعل عدمَ التعرضِ لذكر النفخةِ الأولى لأنها داهيةٌ[٣] عامةٌ ليس فيها[٤] حالةٌ مختصة[٥] بالكفار، ولئلا يقعَ الفصلُ بين ما يقع منها في النشأة الأولى من الأحوال والأهوالِ، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة، أي جمعنا الخلائقَ بعدما تفرقت أوصالُهم وتمزقت أجسادُهم في صعيد واحدٍ للحساب والجزاء ﴿جمعًا﴾ أي جمعًا عجيبًا لا يُكتنَه كُنهُه ﴿وعرضنا جهنم﴾ [أي][٦] أظهرناها وأبرزناها ﴿يومئذ﴾ أي يومَ إذْ جمعنا الخلائقَ كافة ﴿للكافرين﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرَوْنها ويسمعون لها تغيظًا وزفيرًا ﴿عرضًا﴾ أي عرضًا فظيعًا هائلًا لا يُقادَر قدرُه، وتخصيصُ العَرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمعِ قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة ﴿الذين كانت أعينهم﴾ وهم في الدنيا ﴿في غطاء﴾ كثيف وغشاوةٍ غليظة مُحاطةٍ بذلك من جميع الجوانب ﴿عن ذكري﴾ عن الآيات المؤديةِ لأولي الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيدِ، أو كانت أعينُ بصائِرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم ﴿وكانوا﴾ مع ذلك ﴿لا يستطيعون﴾ لفَرْط تصامِّهم عن الحق وكمالِ عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿سمعًا﴾ استماعًا لذكري وكلامي الحقِّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعيةِ كما أن الأولَ تصويرٌ لتعاميهم عن الآيات المشاهَدةِ بالأبصار، والموصولُ نعتٌ للكافرين أو بدلٌ منه أو بيانٌ جيء به لذمهم بما في حيز الصلةِ [و][٧] للإشعار بعلّيته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنمَ لهم، فإن ذلك إنما هو لعدم استعمالِ مشاعرِهم فيما عَرَض لهم في الدنيا من الآيات وإعراضِهم عنها مع كونها أسبابًا منجِّيةً عما ابتُلوا به في الآخرة.

توبيخ وتهديد وبيان

﴿أفحسب الذين كفروا﴾ أي كفروا [بي][٨] كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿عبادي﴾

---

(١) الزلفة: المرآة أو وجهها، والصخرة الملساء.
(٢) سقط في المخطوط.
(٣) في المخطوط: ذا بينة.
(٤) في المخطوط: لها.
(٥) في المخطوط: حاصلة.
(٦) سقط في المخطوط.
(٧) سقط في المخطوط.
(٨) سقط في المخطوط.

والحُسبان بمعنى الظن وقد قرئ أفظنّ[(١)] والهمزةُ للإنكار والتوبيخِ على معنى إنكارِ الواقعِ واستقباحِه، كما في قولك: أضربتَ أباك؟ لا إنكارِ الوقوعِ، كما في قوله: أأضرِب[(٢)] أبي؟ والفاء للعطف على مقدر يُفصح عنه الصلةُ على توجيه[(٣)] الإنكارِ والتوبيخِ إلى المعطوفَين جميعًا كما إذا قُدّر المعطوفُ عليه في قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ منفيًّا أي لا تسمعون فلا تعقلون لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدّر مُثْبتًا أي أتسمعون فلا تعقلون، والمعنى أكفروا بي مع جلالة شأني فحسِبوا **﴿أن يتخذوا عبادي من دوني﴾** من الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي **﴿أولياء﴾** معبودين ينصُرونهم من بأسي، وما قيل إنها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى: ﴿كانت﴾ . . . إلخ ﴿وكانوا﴾ . . . إلخ، دَلالةً على أن الحُسبانَ ناشئ من التعامي[(٤)] والتصامِّ وأُدخل عليها همزةُ الإنكار ذمًّا على ذم وقطعًا له عن المعطوف عليهما لفظًا لا معنى للإيذان بالاستقلال [المؤكِّد][(٥)] للذم، يأباه تركُ الإضمار والتعرضُ لوصف آخرَ غيرِ التعامي والتصامِّ على أنهما أُخرجا مُخرَجَ الأحوال الجِبِلّية لهم، ولم يذكروا من حيث إنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحُسبانهم ليحسُن تفريعُه عليهما، وأيضًا فإنه دينٌ قديمٌ لا يمكن جعلُه ناشئًا عن تصامّهم عن كلام الله عز وجل، وتخصيصُ الإنكار بحُسبانهم المتأخرِ عن ذلك تعسّفٌ لا يخفى، وما في حيز صلةِ أن سادٌّ مسدَّ مفعولَيْ حسِب كما في قوله تعالى: ﴿وحسِبوا أن لا تكون فتنةٌ﴾ [المائدة: ٧١] أي أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياءَ على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شيء لِما أنه إنما يكون من الجانبين، وهم عليهم الصلاة والسلام منزَّهون عن وَلايتهم بالمرة لقولهم: ﴿سبحانك أنت وليُّنا من دونهم﴾ [سبأ: ٤١] وقيل: مفعولُه الثاني محذوفٌ أي أفحسبوا اتخاذَهم نافعًا لهم[(٦)]، والوجهُ هو الأولُ لأن في هذا تسليمًا لنفس الاتخاذِ واعتدادًا به في الجملة، وقرئ أفحَسْبُ[(٧)] الذين كفروا أي أفحسبُهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياءَ على الابتداء

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٠)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٩٦).

(٢) في المخطوط: أضرب.

(٣) في المخطوط: وجه.

(٤) في المخطوط: التعليم.

(٥) سقط في المخطوط.

(٦) في المخطوط: بأفعالهم.

(٧) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، وزيد بن علي، وعلي بن أبي طالب، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، ونعيم بن ميسرة، وابن أبي ليلى، ويعقوب، وأبو حيوة، والشافعي، ومسعود بن صالح، والأعمشى، وشعبة، وابن عباس. =

والخبرِ، أو الفعلِ والفاعل فإن النعتَ إذا اعتمد الهمزةَ ساوى الفعلَ في العمل، فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع ﴿**إنا أعتدنا جهنم**﴾ أي هيأناها ﴿**للكافرين**﴾ المعهودين، عدلَ عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعارًا بأن ذلك الإعتادَ بسبب كفرهم المتضمّنِ لحسبانهم الباطل ﴿**نزلًا**﴾ أي شيئًا يتمتعون به عند ورودِهم وهو ما يقام للنزيل أي الضيفِ مما حضر من الطعام، وفيه تخطئةٌ لهم في حسبانهم وتهكّمٌ بهم حيث كان اتخاذُهم إياهم أولياءَ من قبيل إعتاد العتادِ[1] وإعدادِ الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم من العُدة والذُّخر جهنمَّ عُدّةً. وفي إيراد النُزُل إيماءٌ إلى أن لهم وراءَ جهنمَ من العذاب ما هو أنموذجٌ له، وقيل: النزلُ موضعُ النزول، ولذلك فسره ابن عباس رضي الله عنهما بالمثوى.

﴿**قل هل ننبئكم**﴾ الخطابُ الثاني للكفرة على وجه التوبيخ والجمعُ في صيغة المتكلم لتعيينه من أول الأمر وللإيذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضًا ﴿**بالأخسرين أعمالًا**﴾ نصبٌ على التمييز والجمعُ للإيذان بتنوعها، وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسها وفي حُسبانهم أيضًا حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابِها ومشاهدةِ آثارِها غِبَّ بيان حالِهم باعتبار أعمالِهم السيئةِ في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم.

﴿**الذين ضل سعيهم**﴾ في إقامة تلك الأعمالِ أي ضاع وبطَل بالكلية ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ متعلقٌ بالسعي لا بالضلال لأن بُطلاَن سعيِهم غيرُ مختصٍّ بالدنيا، قيل: المرادُ بهم أهلُ الكتابين قاله ابن عباس وسعدُ بنُ أبي وقاص ومجاهدٌ رضي الله عنهم[2]، ويدخُل في الأعمال حينئذ ما عمِلوه من الأحكام المنسوخةِ المتعلقةِ بالعبادات، وقيل: الرهابنةُ الذين يحبِسون أنفسَهم في الصوامع ويحمِلونها على الرياضات الشاقّة، ولعله ما يعمهم وغيرَهم من الكفرة، ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ لأنه جوابٌ للسؤال، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الذين . . .إلخ، وجعلُه مجرورًا على أنه نعتٌ للأخسرين أو بدلٌ منه أو منصوبًا، على الذم على أن الجوابَ ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أولئك﴾ الآية، يأباه أن صدوره ليس مُنْبئًا عن خُسران

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٠)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٨٦)، والتيسير للداني (١٦/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٦٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٤).

(١) في المخطوط: المعتاد.

(٢) في : عليهم.

الأعمالِ وضلالِ السعي كما يستدعيه مقامُ الجواب، والتفريعُ الأولُ وإن دل على حبوطها[١] لكنه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدةُ في تحقيق معنى الخسرانِ من الوثوق بترتب الربحِ واعتقاد النفعِ فيما صنعوا على أن التفريعَ الثانيَ مما يقطع ذلك الاحتمالَ رأسًا إذ لا مجال لإدراجه تحت الأمرِ بقضية نونِ العظمة.

﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾ الإحسانُ الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتي، أي يحسَبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائقِ وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها، والجملةُ حالٌ من فاعل ضل أي بطل سعيُهم المذكورُ والحالُ أنهم يحسَبون أنهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو من المضاف إليه لكونه في محل الرفعِ نحوُ قوله تعالى: ﴿إليه مرجعُكم جميعًا﴾ [يونس: ٤] أي بطل سعيُهم والحالُ أنهم إلخ، والفرقُ بينهما أن المقارِنَ لحال حُسبانِهم المذكورِ في الأول ضلالُ سعيهم وفي الثاني نفسُ سعيهم والأولُ أدخلُ في بيان خطئهم.

﴿أولئك﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جنابه تعالى مَسوقٌ لتكميل تعريفِ الأخسرين وتبيينِ سبب خسرانِهم وضلالِ سعيهم وتعيينِهم بحيث ينطبق التعريفُ على المخاطبين غيرُ داخلٍ تحت الأمر، أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المزبورِ ﴿الذين كفروا بآيات ربهم﴾ بدلائله الداعيةِ إلى التوحيد عقلًا ونقلًا، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ لزيادة تقبيحِ حالِهم في الكفر المذكور ﴿ولقائه﴾ بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هي عليه ﴿فحبطت﴾ لذلك ﴿أعمالهم﴾ المعهودةُ حبوطًا كليا ﴿فلا نقيم لهم﴾ أي لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمالِ، وقرئ بالياء[٢] ﴿يوم القيامة وزنا﴾ أي فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارًا واعتبارًا لأن مدارَه الأعمالُ الصالحة وقد حبِطت بالمرة، وحيث كان هذا الازدراءُ من عواقب حبوطِ الأعمال عُطف عليه بطريق التفريع، وأما ما هو من أجزية الكفرِ فسيجيء بعد ذلك، أو لا نضع لأجل وزنِ أعمالِهم ميزانًا لأنه إنما يوضع لأهل الحسناتِ والسيئاتِ من الموحّدين ليتمَّمَ به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتب عليه التكفير أو عدمُه لأن ذلك في الموحدين بطريق الكمية، وأما الكفرُ فإحباطه للحسنات بحسب الكيفيةِ دون الكمية فلا يوضع لهم الميزانُ

(١) في المخطوط: هبوطها.
(٢) قرأ بها: مجاهد، وعبيد بن عمير.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٠)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٠).

قطعًا ﴿**ذلك**﴾ بيانٌ لمآل كفرهم وسائرِ معاصيهم إثرَ بيان مآلِ أعمالِهم المحبَطة بذلك أي: الأمرُ[١] ذلك، وقوله عز وجل: ﴿**جزاؤهم جهنم**﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ له أو ذلك مبتدأٌ والجملةُ خبرُه والعائدُ محذوفٌ، أي جزاؤُهم به أو جزاؤهم [بدلَه وجهنمُ خبرُه أو جزاؤهم][٢] خبرُه وجهنمُ عطفُ بيانٍ للخبر ﴿**بما كفروا**﴾ تصريحٌ بأن ما ذكر جزاءٌ لكفرهم المتضمن لسائر القبائحِ التي أنبأ عنها قوله تعالى: ﴿**واتخذوا آياتي ورسلي هزوًا**﴾ أي مهزوًّا بهما[٣] فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفرِ بالآيات والرسل، بل ارتكبوا[٤] مثلَ تلك العظيمة أيضًا.

﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بيانٌ بطريق الوعدِ لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرةُ إثرَ بيانِ ما لهم بطريق الوعيد، أي آمنوا بآيات ربِّهم ولقائه ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ من الأعمال ﴿**كانت لهم**﴾ [فيما][٥] سبق من حكم الله تعالى ووعدِه، وفيه إيماءٌ إلى أن أثرَ الرحمةِ يصل إليهم بمقتضى الرأفةِ الأزليةِ بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلًا، فإنه بموجب ما حدث من سوء اختيارِهم ﴿**جنات الفردوس**﴾ عن مجاهد: أن الفردوسَ هو البستانُ بالرومية، وقال عكرمة: هو الجنةُ بالحبشية، وقال الضحاك: هو الجنة الملتفّةُ الأشجار، وقيل: هي الجنةُ التي تُنبتُ ضروبًا[٦] من النبات، وقيل: هي الجنةُ من الكرم خاصة، وقيل: ما كان غالبه كَرْمًا، وقال المبرد: هو فيما سمعتُ من العرب للشجر الملتفِّ والأغلب عليه أن يكون من العنب، وعن كعب: أنه ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وعن رسول الله ﷺ: «**في الجنة مائةُ درجةٍ ما بين كلِّ درجةٍ مسيرةُ مائة عام، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهارُ الأربعةُ فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإن فوقه عرشَ الرحمٰن ومنه تفجّر أنهار الجنة**»[٧] ﴿**نزلًا**﴾ خبرُ كانت والجار والمجرور متعلقٌ بمحذوف على أنه حالٌ من نزلًا، أو على أنه بيانٌ أو حالٌ من جنات الفردوس والخبرُ هو الجارُّ والمجرورُ فإن جعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمارُ جناتِ الفردوس نزلًا، أو جُعلت نفسُ الجنّات نزلًا

(١) في المخطوط: الآمر.
(٢) سقط في المخطوط.
(٣) في المخطوط: بها.
(٤) في المخطوط: كذبوا فارتكبوا.
(٥) سقط في المخطوط.
(٦) في المخطوط: ضربًا.
(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦)، والطبري (١٦/ ٣٧)، والضياء (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨) من حديث عبادة بن الصامت، وله شاهد من حديث أبي هريرة، والبخاري (١٥/ ٣٦١) كتاب التوحيد، باب: «وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم»، برقم (٧٤٢٣).

مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذانٌ بأنها عند ما أعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله: «**أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر**» بمنزلة النزلِ بالنسبة إلى الضيافة، وإن جُعل بمعنى المنْزِل فالمعنى ظاهر **﴿خالدين فيها﴾** نصب على الحالية **﴿لا يبغون عنها حولًا﴾** مصدرٌ كالعِوج[(١)] والصِّغر، أي لا يطلبون تحوّلًا عنها إذ لا يُتصوّر أن يكون شيءٌ أعزَّ عندهم وأرفعَ منها حتى تُنازِعَهم إليه أنفسُهم وتطمَح نحوه أبصارُهم، ويجوز أن يراد نفيُ التحول وتأكيدُ الخلود، والجملة حالٌ من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالًا متداخِلةً **﴿قل لو كان البحر﴾** أي جنسُ البحر **﴿مدادًا﴾** وهو ما تُمِدُّ به الدواةُ من الحبر **﴿لكلمات ربي﴾** لتحرير كلماتِ علمِه وحكمتِه التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعيةِ إلى التوحيد المحذّرة من الإشراك **﴿لنفد البحر﴾** مع كثرته ولم يبقَ منه شيء لتناهيه **﴿قبل أن تنفد﴾** وقرئ بالياء[(٢)] والمعنى من غير أن تنفد **﴿كلمات ربي﴾** لعدم تناهيها فلا دِلالةَ للكلام على نفادها بعد نفادِ البحرِ، وفي إضافة الكلماتِ إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضافِ وتشريفِ المضاف إليه ما لا يخفى، وإظهارُ البحر والكلماتِ في موضع الإضمارِ لزيادة التقرير **﴿ولو جئنا﴾** كلامٌ من جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقّن جيء به لتحقيق مضمونِه وتصديقِ مدلولِه مع زيادة مبالغةٍ وتأكيد، والواوُ لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفةِ المقابلةِ لها المحذوفة لدِلالة المذكورةِ عليها دَلالةً واضحة، أي لنفد البحرُ من غير نفادِ كلماته تعالى [لو لم][(٣)] نجئ بمثله مددًا ولو جئنا، بقدرتنا الباهرة **﴿بمثله مددًا﴾** عونًا وزيادةً لأن مجموعَ المتناهيَيْن متناهٍ، بل مجموعُ ما يدخل تحت الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهيًا لقيام الأدلةِ القاطعة على تناهي الأبعادِ، وقرئ مدَدًا[(٤)] جمع مُدّة وهي ما يستمدّه الكاتبُ، وقرئ مِدادًا[(٥)].

---

(١) في المخطوط: كالعود.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعمرو بن عبيد، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٦)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٨٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٣)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٩٧).

(٣) في المخطوط: ولن.

(٤) قرأ بها: الأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠١).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وحفص، وابن محيصن، والمطوعي، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، =

﴿قل﴾ لهم بعد ما بينْتَ لهم شأن كلماتِه تعالى: **﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾** لا أدّعي الإحاطةَ بكلماته التامة **﴿يوحى إلي﴾** من تلك الكلماتِ **﴿أنما إلٰهكم إلٰه واحد﴾** لا شريكَ له في الخلق ولا في سائر أحكامِ الألوهيةِ، وإنما تميزْتُ عنكم بذلك **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾** الرجاءُ توقعُ وصولِ الخير في المستقبل، والمرادُ بلقائه تعالى كرامتُه، وإدخالُ الماضي على المستقبل للدِلالة على أن اللائقَ بحال المؤمن الاستمرارُ والاستدامةُ على رجاء اللقاءِ، أي فمن استمر على رجاء كرامتِه تعالى **﴿فليعمل﴾** لتحصيل تلك الطِّلْبَةِ العزيزة **﴿عملًا صالحًا﴾** في نفسه لائقًا بذلك المرجوِّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات **﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾** إشراكًا جليًا كما فعله الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًّا كما يفعله أهلُ الرياء ومَنْ يطلبُ به أجرًا، وإيثارُ وضعِ المُظهَرِ موضعَ المُضمر في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبيةِ لزيادة التقريرِ، وللإشعار بعلية العنوانِ للأمر والنهي ووجوبِ الامتثالِ فعلًا وتركًا. روي أن جُندُبَ بنَ زهير رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: إني لأعمل العملَ لله تعالى فإذا[1] اطّلع عليه سرّني[2]، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله لا يقبل ما شورِك فيه**» فنزلت تصديقًا له[3]. وروي أنه ﷺ قال له: «**لك أجران أجرُ السرِّ وأجرُ العلانية**»[4] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به. وعنه عليه السلام: «**اتقوا الشركَ الأصغرَ**»، قيل: وما الشركُ الأصغرُ؟ قال: «**الرياء**»[5].

عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورةَ الكهفِ من آخرها كانت له نورًا من قَرْنه إلى**

= والأعمش، وسليمان التيمي، وحميد، والحسن، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٦)، والبحر المحيط (٦/ ١٦٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ٦٨)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٤٩٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٤٠٠).

(١) في المخطوط: فماذا.
(٢) في المخطوط: يسرني.
(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٢) بغير إسناد عن ابن عباس.
(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٩٤) كتاب الزهد، باب: عمل السر، برقم (٢٣٨٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٢) كتاب الزهد، باب: الثناء الحسن، برقم (٤٢٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
(٥) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢٠٣) من حديث العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ:
قال رسول الله ﷺ: اتقوا الشرك الأصغر. قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء يوم يجازي الله الناس بأعمالهم».

قدمه، ومن قرأها كلَّها كانت له نورًا من الأرض إلى السماء»[(١)]. وعنه ﷺ: **«من قرأ**[(٢)] **عند مضجعه: ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلُكم يوحىٰ إلي﴾ ...إلخ، كان له مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكةَ، حشْوُ ذلك النورِ ملائكةٌ يصلّون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعُه بمكةَ كان له نورًا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمورِ، حشوُ ذلك النورِ ملائكةٌ يصلون عليه حتى يستيقظ»**[(٣)] [الحمد لله سبحانه على نعمه العِظام][(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٩٧) برقم (٤٤٣) بإسناد ضعيف من حديث سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) في المخطوط: قرأها.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) سقط في المخطوط.

سورة مريم

عليها السلام

مكية إلا آية السجدة، وهي ثمانٍ وتسعون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي

عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

﴿**كهيعص**﴾ بإمالة الهاءِ والياء[(١)] وإظهار الدال[(٢)]، وقرئ[(٣)] بفتح الهاء وإمالةِ الياء وبتفخيمهما[(٤)] وبإخفاء النونِ قبل الصادِ لتقاربهما[(٥)]، وقد سلف أن ما لا تكون من هذه الفواتح مفردةً ولا موازِنةً لمفرد فطريقُ التلفظ بها الحكايةُ فقط ساكنةَ الأعجاز على الوقف، سواءٌ جعلت أسماءً للسور أو مسرودةً على نمط التعديد، وإن

(١) قرأ بها: الكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وشعبة، والدوري، ويحيى، والعليمي، والعبسي، واليزيدي، والمفضل، والوليد بن أسلم، والزهري، وابن جرير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٠).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٧)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٠)، والتيسير للداني ص (١٤٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٦)، والنشر لابن الجزري (١/ ٤٢٥).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، وأبو عمرو، وعاصم، وهشام، وخلف، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٦).

(٤) قرأ بها: الحسن.
ينظر: تفسير القرطبي (١١/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٧٨).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن عامر، وابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٠)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٦).

لزمها التقاءُ الساكنين لكونه مغتفرًا في باب الوقف قطعًا فحق هذه الفاتحة الكريمةِ أن يوقف عليها جريًا على الأصل، وقرئ[1] بإدغام الدال فيما بعدها لتقاربهما في المخرج، فإن جُعلت اسمًا للسورة على ما عليه إطباقُ الأكثر فمحلُّه الرفعُ، إما على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والتقديرُ هذا كهيعص أي مسمًّى به وإنما صحت الإشارةُ إليه مع عدم جرَيانِ ذكرِه لأنه باعتبار كونِه على جناح الذكر صار في حكم الحاضِر المشاهَدِ، كما يقال: هذا ما اشترى فلان، أو على أنه مبتدأٌ خبرُه[2]: ﴿**ذكر رحمة ربك**﴾ أي المسمّى به ذكرُ رحمة إلخ، فإن ذكرَها لمّا كان مطلَعَ السورةِ الكريمة ومعظَمَ ما انطوت هي عليه جُعلت كأنها نفسُ ذكرها، والأولُ هو الأولى لأن ما يجعل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المخاطبِ، وإذ لا علمَ بالتسمية من قبل فحقُّها الإخبارُ بها كما في الوجه الأول، وإن جُعلت مسرودةً على نمط التعديدِ حسبما جنَح إليه أهلُ التحقيقِ فذكرُ إلخ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ هو ما ينبئ عنه تعديدُ الحروف كأنه قيل: المؤلَّفُ من جنس هذه الحروف المبسوطةِ مرادًا به السورةُ ذكرُ الرحمة إلخ، وقيل: هو مبتدأٌ قد حُذف خبرُه أي فيما يتلى عليك ذكرُها، وقرئ[3] ﴿ذكَّر رحمةَ ربك﴾ على صيغة الماضي من التذكير أي هذا المتلوُّ ذكرها، وقرئ ذكِّرْ على صيغة الأمر، والتعرضُ لوصف الربوبية المنْبئةِ عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن تنزيلَ السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميلٌ له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿**عبده**﴾ مفعولٌ لرحمة ربك على أنها مفعولٌ لما أضيف إليها، وقيل: للذكر على أنه مصدرٌ أضيف إلى فاعله على الاتساع، ومعنى ذكرِ الرحمةِ بلوغُها وإصابتُها، كما يقال: ذكرني معروفُ فلان أي بلغني، وقوله عز وعلا: ﴿**زكريا**﴾ بدل منه أو عطف بيان له ﴿**إذ نادى ربه نداء خفيًّا**﴾ ظرفٌ لرحمة ربك، وقيل: لذِكرُ على أنه مضافٌ إلى فاعله اتساعًا لا على الوجه الأولِ لفساد المعنى، وقيل: هو بدلُ اشتمالٍ من زكريا كما في قوله: ﴿واذكر في الكتاب مريمَ إذ انتبذتْ﴾

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، ونافع، وحمزة، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٩٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ١٧).

(٢) زاد في المطبوع: البشارة بيحيى.

(٣) قرأ بها الحسن، ويحيى بن يعمر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥٦٢)، والدر المصون (٤/ ٤٨٩)، (١١/ ٥٢).

[مريم: ١٦] ولقد راعىٰ عليه الصلاة والسلام حسنَ الأدب في إخفاء دعائِه، فإنه مع كونه بالنسبة إليه عز وجل كالجهر أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولدِ لتوقّفه على مبادئ لا يليق به تعاطيها في أوان الكِبَر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم، وقيل: كان ذلك منه عليه السلام لضَعف الهرم، قالوا: كان سنُّه حينئذ ستين، وقيل: خمسًا وستين، وقيل: سبعين، وقيل: خمسًا وسبعين، وقيل: أكثرَ منها كما مر في سورة آل عِمرانَ.

﴿قال﴾ جملةٌ مفسِّرةٌ لنادى لا محلَّ لها من الإعراب ﴿رب إني وهن العظم مني﴾ إسنادُ الوهن إلى العظم لِما أنه عمادُ البدن ودِعامُ الجسد فإذا أصابه الضَّعفُ والرخاوة أصاب كلَّه، أو لأنه أشدُّ أجزائه صلابةً وقِوامًا وأقلُّها تأثرًا من العلل فإذا وهَن كان ما وراءه أوهنَ، وإفرادُه للقصد إلى الجنس المنبئ عن شمول الوهْنِ لكل فردٍ من أفراده، ومنّي متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من العظم، وقرئ[١] وهِن بكسر الهاء وبضمها[٢] أيضًا، وتأكيدُ الجملة لإبراز كمال الاعتناءِ بتحقيق مضمونها.

﴿واشتعل الرأس شيبًا﴾ شبّه عليه الصلاة والسلام الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظ النار، وانتشارَه في الشعر وفُشوَّه فيه وأخذَه منه كلَّ مأخذ باشتعالها، ثم أخرجه مُخرجَ الاستعارة[٣] ثم أَسند الاشتعالَ إلى محل الشعرِ ومنبتِه، وأخرجه مُخرج التمييز وأطلق الرأسَ اكتفاءً بما قيّد به العظمَ، وفيه من فنون البلاغة وكمالِ الجزالةِ ما لا يخفى، حيث كان الأصلُ اشتعل شيبُ رأسي فأسند الاشتعالَ إلى الرأس كما ذُكر لإفادة شمولِه لكلها، فإن وِزانَه بالنسبة إلى الأصل وزانُ اشتعل بيتُه نارًا بالنسبة إلى اشتعل النارُ في بيته.

---

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٧٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٧٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨٠).

(٣) نالت هذه الاستعارة من الشيخ عبد القاهر شرحًا كثيرًا كشف به عن ذخائرها وأسرارها، وعند ابن عاشور: أنه شبه عموم الشيب شعر رأسه، أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود تشبيهًا مركبًا تمثيليا، وقال الزمخشري بعد تحليلها: فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة.
ينظر: دلائل الإعجاز ت: شاكر (١٠٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٠٣)، والخطيب القزويني في الإيضاح (٣/ ١٣١)، والكشاف (٢/ ٥٠٢)، والتحرير والتنوير ١٦/ ٦٤، والبحر المحيط (٦/ ١٧٠)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٥١).

ولزيادة تقريرِه بالإجمال أولًا والتفصيلِ ثانيًا ولمزيد تفخيمِه بالتنكير.

وقرئ[١] بإدغام السينِ في الشين ﴿ولم أكن بدعائك رب شقيًا﴾ أي ولم أكن بدعائي إياك خائبًا في وقت من أوقات هذا العمُر الطويلِ، بل كلما دعوتُك استجبتَ لي، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها أو حالٌ من ضمير المتكلم إذِ المعنى واشتعل الرأسُ شيبًا، وهذا توسلٌ منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كلِّ دعوة إثرَ تمهيدِ ما يستدعي الرحمةَ ويستجلب الرأفةَ من كِبَر السّنِّ وضَعفِ الحال، فإنه تعالى بعد ما عوّد عبدَه بالإجابة دهرًا طويلًا لا يكاد يُخيّبه أبدًا لا سيما عند اضطرارِه وشدة افتقارِه، والتعرضُ في الموضوعين لوصف الربوبيةِ المنْبئة عن إضافة ما فيه صلاحُ المربوبِ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطُه بين كان وخبرها لتحريك سلسلةِ الإجابةِ بالمبالغة في التضرّع، ولذلك قيل: إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤُه فليدعُ الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاتِه.

﴿وإني خفت المواليَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إني وهن العظمُ﴾ مترتبٌ مضمونُه على مضمونه فإن ضَعفَ القُوى وكِبَر السنِّ من مبادئ خوفه عليه السلام مِمّن يلي أمرَه بعد موته، ومواليه بنو عمه وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ فخاف ألا يُحسِنوا خلافتَه في أمته ويبدّلوا عليهم دينَهم، وقوله: ﴿من ورائي﴾ أي بعد موتي متعلقٌ بمحذوف ينساق إليه الذهنُ، أي فِعلَ الموالي من بعدي أو جَوْرَ الموالي وقد قرئ[٢] كذلك، أو بما في الموالي من معنى الوِلاية، أي خِفتُ الذين يلون الأمرَ من ورائي لا بخِفْتُ لفساد المعنى، وقرئ[٣] ورايَ [بالقصر][٤] وفتح الياء، وقرئ[٥] خفّت الموالي من ورائي أي قلوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدين بعدي، أو خفّت الموالي

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: الغيث للصفاقسي ص (٢٨٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨٠).

(٢) قرأ بها الزهري.
ينظر: المحتسب (٢/ ٣٧)، والقرطبي (١١/ ٥٣)، والبحر (٦/ ١٦٥)، والدر المصون (٤/ ٤٩١).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وشبل.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦١)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٧٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨١).

(٤) سقط في المخطوط.

(٥) قرأ بها: عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وسعيد بن العاص، وابن يعمر، وابن جبير، وعلي بن الحسين.

=

القادرون على إقامة مراسمِ الملة ومصالحِ الأمة من خفَّ القومُ أي ارتحلوا مسرعين أي درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم من به تَقَوٍّ واعتضادٌ، فالظرفُ حينئذ متعلقٌ بِخفَّتْ ﴿وكانت امرأتي عاقرًا﴾ أي لا تلد من حينِ شبابها.

﴿فهب لي من لدنك﴾ كلا الجارّين متعلقٌ بهب لاختلاف معنييهما، فاللام صلةٌ له ومِنْ لابتداء الغاية مجازًا، وتقديمُ الأول لكون مدلولِه أهمَّ عنده ويجوز تعلّقُ الثاني بمحذوف وقع حالًا من المفعول، ولدن في الأصل ظرفٌ بمعنى أولِ غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرهما من الذوات، وقد مر تفصيلُه في أوائل سورة آل عمران، أي أعطِني من محض فضلِك الواسع وقدرتِك الباهرةِ بطريق الاختراعِ لا بواسطة الأسباب العادية ﴿وليًّا﴾ أي ولدًا من صُلَبي، وتأخيرُه عن الجارَّين لإظهار كمالِ الاعتناءِ بكون الهبةِ له على ذلك الوجه البديعِ مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفةً له فعند ورودِه لها يتمكن عندها فضلُ تمكنٍ، ولأن فيه نوعَ طولٍ بما بعده من الوصف فتأخيرُهما عن الكل أو توسيطُهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظمِ الكريم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما ذكرَه عليه الصلاة والسلام من كِبَر السنِّ وضَعف القُوى وعقرِ[1] المرأة موجبٌ لانقطاع رجائِه عليه السلام عن حصول الولدِ بتوسط الأسبابِ العادية واستيهابِه على الوجه الخارقِ للعادة، ولا يقدح في ذلك أن يكون هنا داعٍ آخرُ إلى الإقبال على الدعاء المذكورِ من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرةِ في حق مريمَ كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ الآية [آل عمران، الآية ٣٨]، وعدمُ ذكرِه هاهنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدمَ ذكر مقدمةِ الدعاء هناك للاكتفاء بذكره هاهنا، فإن الاكتفاءَ بما ذكر في موطن عما تُرك في موطن آخرَ من النكت التنزيلية، وقوله تعالى: ﴿يرثني﴾ صفةٌ لـ (وليًّا)، وقرئ[2] هو وما عطف عليه بالجزم جوابًا للدعاء،

= ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٠٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٠)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٧٧)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٧).

(١) في المخطوط: عقرة.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، واليزيدي، والشنبوذي، ويحيى بن يعمر، ويحيى بن وثاب، والأعمش، والزهري، وطلحة، وقتادة، وابن محيصن، وابن عيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٠، و٦١)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩١)، وتفسير القرطبي (١١/ ٨١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٧)، والمعاني للفراء (٢/ ١٦١).

أي يرثني من حيث العلم والدين والنبوة فإن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام لا يورِّثون المالَ، قال ﷺ: **«نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نورَث، ما تركنا صدقةٌ»**[1]، وقيل: يرثني الحُبورة وكان عليه السلام حبْرًا.

﴿**ويرث من آل يعقوب**﴾ يقال: ورِثه وورِث منه لغتان، وآلُ الرجل خاصّته الذين يؤُول إليه أمرُهم للقرابة أو الصُّحبة أو الموافقة في الدين، وكانت زوجةُ زكريا أختَ أمِّ مريمَ، أي ويرث منهم الملكَ، قيل: هو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام، وقال الكلبي ومقاتل: هو يعقوبُ بنُ ماثانَ أخو عمرانَ بنِ ماثان من نسل سليمانَ عليه السلام، وكان آلُ يعقوب أخوالَ يحيى بنِ زكريا، قال الكلبي: كان بنو ماثانَ رؤوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم، وكان زكريا رئيسَ الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولدُه حبورتَه ويرثَ من بني ماثان ملكَهم، وقرئ (ويرث وارثَ آلِ يعقوب) على أنه حالٌ من المستكن في يرثني، وقرئ (أُوَ يْرِثٌ من آل يعقوب)[2] بالتصغير ففيه إيماءٌ إلى وراثته عليه السلام لما يرثه في حالة صِغَره، وقرئ (وارثٌ من آل يعقوب)[3] على أنه فاعلُ يرثني على طريقة التجريد أي يرثني به وارثٌ، وقيل: من للتبعيض إذ لم يكن كلُّ آل يعقوبَ عليه السلام أنبياءَ ولا علماءَ ﴿**واجعله رب رضيًا**﴾ مرضيًا عندك قولًا وفعلًا، وتوسيطُ ربِّ بين مفعولي اجعله للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه.

﴿**يا زكريا**﴾ على إرادة القولِ أي قال تعالى: ﴿**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى**﴾ لكن لا بأن يخاطِبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات، بل بواسطة الملَك على أن يحكيَ له عليه الصلاة والسلام هذه العبارةَ عنه عز وجل على نهج قوله تعالى: ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، وقد مر تحقيقُه في سورة آل عمران، وهذا جوابٌ لندائه عليه الصلاة والسلام ووعدٌ بإجابة دعائِه، لكن لا كما

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٥) كتاب فرض الخمس، باب: فرض الخمس، برقم (٣٠٩٣)، ومسلم (٣/ ١٣٨٠) كتاب الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا فهو صدقة، برقم (٥٢/ ١٧٥٩)، من حديث أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها.

(٢) قرأ بها: مجاهد، والجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٣)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨١).

(٣) قرأ بها: الجحدري، وعلي، وابن عباس، وابن يعمر، وأبو حرب بن أبي الأسود، والحسن، وقتادة، وأبو نهيك، وجعفر بن محمد.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦١)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨١).

هو المتبادرُ من قوله تعالى: ﴿فاستجبْنا له ووهبْنا له يحيى﴾ [الأنبياء: ٩٠] إلخ، بل بعضًا حسبما تقتضيه المشيئةُ الإلٰهيةُ المبنية على الحِكَم البالغة فإن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا مستجابي الدعوةِ لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعواتِ، ألا يرى إلى دعوة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام في حق أبيه وإلى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال: «**وسألته أن لا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعض فمنعنيها**»[1] وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبَه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه، فاستجيب دعاؤُه في الأول دون الثاني حيث قتل قبلَ موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهورُ، وقيل: بقي بعده برهةً فلا إشكال حينئذ، وفي تعيين اسمِه عليه الصلاة والسلام تأكيدٌ للوعد وتشريفٌ له عليه الصلاة والسلام، وفي تخصيصه به عليه السلام حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿**لم نجعل له من قبل سميًا**﴾ أي شريكًا له في الاسم حيث لم يُسمَّ أحدٌ قبله بـ (يحيى)، مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له عليه الصلاة والسلام، فإن التسميةَ بالأسامي البديعة الممتازة عن أسماء سائرِ الناس تنويهٌ بالمسمّى لا محالة، وقيل: سميًا شبيهًا في الفضل والكمالِ كما في قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سميًّا﴾ [مريم: ٦٥] فإن المتشاركين في الوصف بمنزلة المتشاركين في الاسم، قالوا: لم يكن له عليه الصلاة والسلام مِثْلٌ في أنه لم يعصِ الله تعالى ولم يهُمَّ بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر وأنه كان حَصورًا، فيكون هذا إجمالًا لما نزل بعده من قوله تعالى: ﴿مصدّقًا بكلمة من الله وسيدًا وحَصورًا ونبيًا من الصالحين﴾ [آل عمران: ٣٩] والأظهرُ أنه اسمٌ أعجميٌّ وإن كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمرَ ويَعيشَ، قيل: سمي به لأنه حيِيَ به رحِمُ أمِّه أو حيِيَ دينُ الله تعالى بدعوته.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كأنه قيل: فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ: فقيل: قال: ﴿**رب**﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابِه تعالى إليه بتوسط الملَك، للمبالغة في التضرع، والمناجاة والجِدِّ في التبتل إليه تعالى، والاحترازِ عما عسى يُوهم خطابُه للملك من توهُّم أن علمَه تعالى بما يصدُر عنه متوقِّفٌ على توسطه، كما أن علمَ البشرِ بما يصدر عنه سبحانه متوقِّفٌ على ذلك في عامة الأوقات.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٠٨، ١٠٩)، والترمذي (٤/ ٤٥، ٤٦) كتاب الفتن، باب: ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته حديث (٢١٧٥)، والنسائي (٣/ ٢١٦) كتاب قيام الليل، باب: إحياء الليل، حديث (١٦٣٧)، وابن حبان (٧٢٣٦)، والطبراني في الكبير (٣٦٢١ - ٣٦٢٤)، والمزي في تهذيب الكمال (١٤/ ٤٤٨) من حديث حبان بن الأرت وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان.

﴿أنىٰ يكون لي غلام﴾ كلمة أنىٰ بمعنى كيف أو من أين، وكان إما تامةٌ وأنىٰ واللام متعلقتان بها وتقديمُ الجار على الفاعل لما مر مرارًا من الاعتناء بما قدم والتشويقِ إلى ما أُخّر، أي كيف أو من أين يحدث لي غلامٌ؟ ويجوز أن تتعلق اللامُ بمحذوف وقع حال من غلامٌ إذ لو تأخر لكان صفةً له أي أنىٰ يحدث كائنًا لي غلام، أو ناقصةٌ اسمُها ظاهرٌ وخبرُها إما أنىٰ ولي متعلقٌ بمحذوف كما مر، أو هو الخبر وأنىٰ نصبٌ على الظرفية، وقوله تعالى: ﴿وكانت امرأتي عاقرًا﴾ حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى: ﴿وقد بلغت من الكبر عتيًا﴾ حالٌ منه مؤكدةٌ للاستبعاد إثرَ تأكيد، أي كانت امرأتي عاقرًا لم تلِدْ في شبابها وشبابي فكيف وهي الآن عجوزٌ؟! وقد بلغتُ أنا من أجل كِبَر السنِّ جساوة وقحولًا[١] في المفاصل والعِظام، أو بلغتُ من مدارج الكِبَر ومراتبه ما يسمى عِتيًّا من عتا يعتو وأصله عُتُوٌ كقعود فاستُثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم قلبت الثانية أيضًا لاجتماع الواو والياء وسبْقِ إحداهما بالسكون وكُسرت العينُ إتباعًا لها لما بعدها، وقرئ[٢] بضمها.

ولعل البداءة هاهنا بذكر حال امرأتِه على عكس ما في سورة آل عمرانَ لِما أنه قد ذُكر حالُه في تضاعيف دعائِه وإنما المذكورُ هاهنا بلوغُه أقصى مراتبِ الكِبَر تتمةً لما ذكر قبل، وأما هنالك فلم يسبِقْ في الدعاء ذكرُ حاله فلذلك قدّمه على ذكر حال امرأتِه لِما أن المسارعةَ إلى بيان قصورِ شأنه أنسبُ، وإنما قاله عليه الصلاة والسلام، مع سبق دعائِه بذلك وقوةِ يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدتِه للشواهد المذكورة في سورة آلِ عمران، استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجبًا منها واعتدادًا بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنه من محضِ لطفِ الله عز وعلا وفضله مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلةِ عادة لا استبعادًا له. وقيل: إنما قاله ليُجابَ بما أجيب به فيزدادَ المؤمنون إيقانًا ويرتدعَ المبطلون، وقيل: كان ذلك بطريق الاستبعادِ حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستون سنة وكان قد نسِيَ دعاءه، وهو بعيد.

﴿قال﴾ استئناف كما مر مبنيٌّ على سؤال نشأ مما سلف، والكافُ في قوله تعالى:

---

(١) الجساوة: اليباس والصلابة والخشونة. والقحول: يباس الجلد والجدب.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٠٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦١)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٥، ٢٠٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٤).

﴿كذلك قال ربك﴾ مقحمةٌ كما في: مثلُك لا يبخل محلُّها إما النصبُ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌ لقال الثاني؛ وذلك إشارةٌ إلى مصدره الذي هو عبارةٌ عن الوعد السابقِ لا إلى قول آخرَ شُبِّه هذا به، وقد مر تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقولُه تعالى: ﴿هو علي هين﴾ جملةٌ مقرِّرةٌ للوعد المذكورِ دالةٌ على إنجازه داخلةٌ في حيز قال الأول، كأنه قيل: قال الله عز وجل مثلَ ذلك القولِ البديع، قلت: أي مثلَ ذلك الوعدِ الخارقِ للعادة وعدتُ وهو علي خاصةً هيِّنٌ وإن كان في العادة مستحيلًا، وقرئ[1] وهو علي هينٌ فالجملة حينئذ حالٌ من ربك والياء عبارةٌ عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراضٌ، وعلى كل حالٍ فهي مؤكدةٌ ومقرِّرةٌ لما قبلها، ثم أُخرج القولُ الثاني مُخرجَ الالتفات جريًا على سنن الكبرياء لتربية المهابةِ وإدخال الروعةِ، كقول الخلفاء: أميرُ المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم، ثم أُسند إلى اسم الربِّ المضاف إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تشريفًا له وإشعارًا بعلة الحُكم، فإن تذكيرَ جرَيانِ أحكام ربوبيتِه تعالى عليه - عليه الصلاة والسلام - من إيجاده من العدم وتصريفِه[2] في أَطوار الخلقِ من حال إلى حال شيئًا فشيئًا إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به، مما يقلَع أساسَ استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعودِ ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالة، ثم التُفت من ضمير الغائبِ العائدِ إلى الرب إلى ياء العظمةِ إيذانًا بأن مدارَ كونه هيّنًا عليه سبحانه هو القدرةُ الذاتيةُ لا ربوبيتُه تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدًا لما يعقُبه.

وقيل: ذلك إشارةٌ إلى مبهم يفسّره قولُه تعالى: ﴿هو علي هين﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمرَ أن دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ مصبحين﴾ [الحجر، الآية ٦٦] ولا يخرج هذا الوجهُ على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسِّر والمفسَّر.

وإما الرفع على أنه مبتدأ محذوفٌ وذلك إشارةٌ إلى ما تقدم من وعده تعالى، أي قال عز وعلا: «الأمرُ كما وعدتُ» وهو واقعٌ لا محالة، وقوله تعالى: ﴿قال ربك﴾ إلخ، استئنافٌ مقرِّر لمضمونه والجملةُ المحكية على القراءة الثانية معطوفةٌ على المحكية الأولى، أو حالٌ من المستكن في الجار والمجرور أيا ما كان، فتوسيطُ قال بينهما مُشعرٌ بمزيد الاعتناءِ بكل منهما والكلامُ في إسناد القولِ إلى الرب ثم الالتفاتِ إلى التكلم كالذي مر آنفًا، وقيل: ذلك إشارةٌ إلى ما قاله زكريا عليه الصلاة والسلام،

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٧٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٤)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٨٩).

(٢) في المخطوط: وتصويره.

أي قال تعالى: «الأمرُ كما قلت» تصديقًا له فيما حكاه من الحالة المباينةِ للولادة في نفسه وفي امرأته، وقوله تعالى: ﴿قال ربك﴾ إلخ، استئنافٌ مَسوقٌ لإزالة استبعادِه بعد تقريره، أي قال تعالى: «هو مع بعده في نفسه عليّ هيّنٌ» والقراءة الثانية أَدخلُ في إفادة هذا المعنى على أن الواو للعطف.

وأما جعلُها للحال فمُخِلٌّ بسداد المعنى لأن مآلَه تقريرُ صعوبته حال سهولتِه عليه تعالى مع أن المقصودَ بيانُ سهولتِه عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه، وقوله تعالى: **﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا﴾** جملةٌ مستأنَفةٌ مقررة لما قبلها، والمرادُ به ابتداءُ خلق البشرِ إذ هو الواقعُ إثرَ العدم المحضِ لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالدِ المعتادِ، وإنما لم يُنسَبْ ذلك إلى آدمَ عليه الصلاة والسلام وهو المخلوقُ من العدم حقيقةً بأن يقال: وقد خلقتُ أباك أو آدمَ من قبل ولم يك شيئًا مع كفايته في إزالة الاستبعادِ بقياس حالِ ما بُشّر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاجِ وتوضيح منهاجِ القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه عليه الصلاة والسلام من العدم، إذ لم تكن فطرتُه البديعةُ مقصورةً على نفسه بل كانت أنموذجًا منطويًا على فطرة سائر آحادِ الجنس انطواءً إجماليا مستتبعًا لجريان آثارِها على الكل، فكان إبداعُه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه إبداعًا لكل أحد من فروعه كذلك، ولمّا كان خَلقُه عليه الصلاة والسلام على هذا النمطِ الساري إلى جميع أفراد ذريته أبدعَ من أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه كما هو المفهومُ من نسبة الخلقِ المذكور إليه وأدلَّ على عظم قدرتِه تعالى وكمال علمِه وحكمتِه، وكان عدمُ زكريا حينئذ أظهرَ عنده وأجلى وكان حالُه أولى بأن يكون معيار الحال ما بشر به نُسب الخلقُ المذكور إليه، كما نسب الخَلقُ والتصويرُ إلى المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾ [الأعراف: ١١] توفيةً لمقام الامتنان حقَّه، فكأنه قيل: وقد خلقتُك من قبل في تضاعيف خلقِ آدمِ ولم تكن إذ ذاك شيئًا أصلًا بل عدمًا بحتًا ونفيًا صِرْفًا. هذا وأما حملُ الشيء على المَعتدِّ به أي ولم تكن شيئًا معتدا به فيأباه المقام ويردّه نظمُ الكلام، وقرئ[1]: «خلقناك».

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامةً تدلني على تحقق المسؤولِ ووقوعِ الحبَل، ولم يكن هذا السؤالُ منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البِشارة وتحقيقِها كما قيل فإن

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وطلحة، وابن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٠٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٧)، والتيسير للداني ص (١٤٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٤).

ذلك مما لا يليق بمنصِب الرسالة، وإنما كان ذلك لتعريف وقت العُلوق حيث كانت البشارةُ مطلقةً عن تعيينه وهو أمرٌ خفيٌّ لا يوقف عليه، فأراد أن يُطلعَه الله تعالى عليه ليتلقي تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثِها ولا يؤخّرَه إلى أن تظهر ظهورًا معتادًا، وقد مرت الإشارةُ في تفسير سورة آل عمران إلى أن هذا السؤالَ ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة بُرهة من الزمان، لما روي أن يحيى كان أكبرَ من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين، ولا ريب في أن دعاءَ زكريا عليه الصلاة والسلام كان في صِغَر مريمَ لقوله تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربَّه﴾ [آل عمران: ٣٨] وهي إنما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهي بنتُ عشرِ سنين أو بنتُ ثلاثَ عشْرةَ سنةً، والجعلُ إبداعيٌّ واللامُ متعلقة به وتقديمُها على المفعول به لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخَّر، أو بمحذوف وقع حالًا من آيةً إذ لو تأخر لكان صفةً لها، وقيل: بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين أولُهما آيةً وثانيهما الظرفُ، وتقديمُه لأنه لا مسوِّغَ لكون آيةً مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديمِ الظرف فلا يتغير حالُهما بعد ورودِ الناسخ.

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس﴾ أي لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناسِ مع القدرة على الذكر والتسبيح ﴿ثلاث ليال﴾ مع أيامهن للتصريح بها في سورة آل عمران ﴿سويا﴾ حال من فاعل تكلم مفيدٌ لكون انتفاءِ التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أي [تُمنع][1] الكلامَ فلا تطيق به حال كونك سويَّ الخلق سليمَ الجوارحِ ما بك شائبةُ بَكَم ولا خَرَس ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي من المصلّى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحرابِ ينتظرونه أن يفتح لهم البابَ فيدخلوه ويصلّوا إذْ خرج عليهم متغيِّرًا لونُه فأنكروه وقالوا: ما لك؟ ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أومأ[2] إليهم لقوله تعالى: ﴿إلا رَمْزًا﴾، وقيل: كتب على الأرض وأنْ في قوله تعالى: ﴿أن سبحوا﴾ إما مفسرةٌ لأوحىٰ أو مصدريةٌ والمعنى أن صلّوا أو بأن صلوا ﴿بكرة وعشيًا﴾ هما ظرفا زمانٍ للتسبيح.

عن أبي العالية: أن المرادَ بهما صلاةُ الفجر وصلاةُ العصر، أو نزِّهوا ربكم طرفي النهار ولعله كان مأمورًا بأن يسبِّح شكرًا ويأمرَ قومه بذلك.

﴿يا يحيى﴾ استئناف طُويَ قبله جملٌ كثيرةٌ مسارعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعدِ الكريم أي قلنا: يا يحيى ﴿خذ الكتاب﴾ التوراةَ ﴿بقوة﴾ أي بجد واستظهار بالتوفيق ﴿وآتيناه الحكم صبيًا﴾.

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) في المخطوط: أومى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الحكمُ النبوةُ استنبأه وهو ابنُ ثلاثِ سنين.

وقيل: الحُكمُ الحِكمةُ وفهمُ التوراة والفقهُ في الدين.

روي أنه دعاه الصبيانُ إلى اللعب، فقال: ما لِلَّعب خُلقنا ﴿وحنانًا من لدنا﴾ عطف على الحُكم وتنوينُه للتفخيم وهو التحنّنُ والاشتياق، ومن متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً له مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية دون الفخامة الإضافيةِ، أي وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه كائنة من جنابنا أو رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه[١] وغيرِهما ﴿وزكاة﴾ أي طهارةً من الذنوب أو صدقةً تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس ﴿وكان تقيًا﴾ مطيعًا متجنبًا عن المعاصي ﴿وبرًّا بوالديه﴾ عطف على تقيا أي: بارًّا بهما لطيفًا بهما محسنًا إليهما ﴿ولم يكن جبارًا عصيًا﴾ متكبرًا عاقًّا لهما أو عاصيًا لربه ﴿وسلام عليه﴾ من الله عز وجل ﴿يوم ولد﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم ﴿ويوم يموت﴾ من عذاب القبر ﴿ويوم يبعث حيًّا﴾ من هول القيامةِ وعذاب النار.

مولد عيسى

﴿واذكر في الكتاب﴾ كلامٌ مستأنَفٌ خوطب به النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - وأُمر بذكر قصة مريمَ إثرَ قصةِ زكريا لما بينهما من كمال الاشتباكِ، والمرادُ بالكتاب السورةُ الكريمة لا القرآنُ إذ هي التي صُدّرت بقصة زكريا المستتبعةِ لذكر قصتها وقصصِ الأنبياء المذكورين فيها أي واذكر للناس ﴿مريم﴾ أي نَبأَها فإن الذكرَ لا يتعلق بالأعيان وقوله تعالى: ﴿إذ انتبذت﴾ ظرف لذلك المضافِ لكن لا على أن يكون المأمورُ به ذكرَ نبئها عند انتباذِها فقط، بل كلَّ ما عُطف عليه وحُكيَ بعده بطريق الاستئنافِ، داخلٌ في حيز الظرف متممٌ للنبأ.

وقيل: بدلُ اشتمال من مريم على أن المراد بها نبؤُها فإن الظروفَ مشتملةٌ على ما فيها، وقيل: بدلُ الكل على أن المرادَ بالظرف ما وقع فيه، وقيل: إذ بمعنى [أن][٢] المصدرية كما في قولك: أكرمتك إذ لم تكرمني أي لأن لم تكرمني فهو بدلُ اشتمالٍ لا محالة وقوله تعالى: ﴿من أهلها﴾ متعلق بـ (انتبذت) وقوله: ﴿مكانًا شرقيًّا﴾ مفعولٌ له باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيانِ المترتبِ وجودًا واعتبارًا على أصل معناه العاملِ في الجار والمجرور، وهو السرُّ في تأخيره عنه أي اعتزلت وانفردت

---

(١) زاد في المخطوط: ونحوهما.

(٢) سقط في المخطوط.

منهم وأتت مكانًا شرقيًا من بيت المقدِس أو من دارها لتتخلّى هنالك للعبادة، وقيل: قعدت في مشرفة لتغتسل من الحيض محتجبةً بحائط أو بشيء يستُرها وذلك قوله تعالى: ﴿**فاتخذت من دونهم حجابًا**﴾ وكان موضعُها المسجدَ فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها وإذا طهُرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاها الملَكُ عليه الصلاة والسلام في صورة آدميٍّ شابّ أمردَ وضيءِ الوجه جعْدِ الشعر وذلك قوله تعالى: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا**﴾ أي جبريلَ عليه الصلاة والسلام عبّر عنه بذلك توفيةً للمقام حقَّه، وقرئ[1] بفتح الراء لكونه سببًا لما فيه روحُ العباد الذي هو عُدّةُ المقربين في قوله تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين فرَوْحٌ ورَيْحانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] ﴿**فتمثل لها بشرًا سويًا**﴾ سويَّ الخلقِ كاملَ البُنية لم يفقِدْ من حِسان نعوتِ الآدمية شيئًا، وقيل: تمثل في صورة تِرْبٍ لها اسمُه يوسفُ من خدم بيتِ المقدس وذلك لتستأنسَ بكلامه وتتلقّى منه ما يُلقىٰ إليها من كلماته تعالى؛ إذ لو بدا لها على الصورة الملَكيةِ لنفرَتْ منه ولم تستطع مفاوضتَه.

وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتِها فتنحدر نطفتُها إلى رحمها فمع مخالفته لمقام بيانِ آثارِ القدرة الخارقةِ للعادة يكذبه قوله تعالى: ﴿**قالت إني أعوذ بالرحمٰن منك**﴾ فإنه شاهدٌ عدْلٌ بأنه لم يخطُر ببالها شائبةُ ميل ما إليه فضلًا عما ذُكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتبِ الميل والشهوة، نعم كان تمثيلُه على ذلك الحسنِ الفائقِ والجمالِ الرائقِ لابتلائها وسبْر عِفّتها، ولقد ظهر منها من الورع والعَفافِ ما لا غايةَ وراءه، وذكرُه تعالى بعنوان الرحمانيةِ للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلابِ آثارِ الرحمةِ الخاصة التي هي العصمةُ مما دهِمَها وقوله تعالى: ﴿**إن كنت تقيا**﴾ أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدلالة السياقِ عليه أي فإني عائذةٌ به أو فتعوّذْ بتعوذي أو فلا تتعرّضْ لي.

﴿**قال إنما أنا رسول ربك**﴾ يريد عليه الصلاة والسلام أني لست ممن يُتوقّع منه ما توهّمتِ من الشر، وإنما أنا رسولُ ربك الذي استعذتِ به ﴿**لأهب لك غلامًا**﴾ أي لأكون سببًا في هبته بالنفخ في الدِّرْع، ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء[2]، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة، وسهل.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٥)، وتفسير الرازي (٢١/ ١٩٦).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وقالون، وورش، ويعقوب، والحسن، واليزيدي، وابن مسعود، وشيبة، وأبو الحسن، وأبو بحرية، والزهري، وابن مناذر.
=

وتسليتِها والإشعارِ بعلة الحكم، فإن هبةَ الغلام لها من أحكام تربيتها، وفي بعض المصاحفِ أمرَني أن أهبَ لك غلامًا ﴿زكيا﴾ طَاهرًا من الذنوب أو ناميًا على الخير أي مترقيًا من سن إلى سن على الخير والصلاح ﴿قالت أنىٰ يكون لي غلام﴾ كما وصفت ﴿ولم يمسسني بشر﴾ أي والحال أنه لم يباشرْني بالنكاح رجلٌ، وإنما قيل بشرٌ مبالغةً في بيان تنزُّهها من مبادئ الولادة ﴿ولم أك بغيا﴾ عطف على لم يمسَسْني داخلٌ معه في حكم الحالية مفصِحٌ عن كون المساس عبارةً عن المباشرة بالنكاح أي ولم أكن فاجرةً تبغي الرجالَ، وهي فَعولٌ بمعنى الفاعل أصلها بغوي فأدغمت الواوُ بعد قلبها ياء في الياء وكسرت الغين للياء، وقيل: هي[1] فعيل بمعنى الفاعل، وإلا لقيل: بَغُوٌّ كما يقال: فلان نَهُوٌّ عن المنكر، وإنما [لم][2] تلحَقْه التاءُ لأنها من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أي يبغيها الرجالُ للفجور بها ﴿قال﴾ أي الملَكُ تقريرًا لمقالته وتحقيقًا لها ﴿كذلك﴾ أي الأمرُ كما قلتُ لك، وقوله تعالى: ﴿قال ربك﴾ إلخ، استئنافٌ مقرِّر له أي قال ربك الذي أرسلني إليك: ﴿هو﴾ أي ما ذكرتُ لك من هبة الغلام من غير أن يمسَّك بشرٌ أصلًا ﴿عليّ﴾ خاصة ﴿هين﴾ وإن كان مستحيلًا عادة لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائطِ، وقوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ إما علةٌ لمعلَّلٍ محذوف أي ولنجعل وهْبَ الغلام آيةً لهم وبرهانًا يستدلون به على كمال قدرتِنا نفعلُ ذلك، أو معطوفٌ على علة أخرى مضمَرةٍ أي لنبين به عِظَمَ قدرتِنا ولنجعله آية إلخ، والواو على الأول اعتراضيةٌ والالتفاتُ إلى نون العظمة لإظهار كمالِ الجلالةِ ﴿ورحمة﴾ عظيمةً كائنة ﴿منا﴾ عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بإرشاده. ﴿وكان﴾ ذلك ﴿أمرًا مقضيا﴾ مُحكمًا قد تعلق به قضاؤنا الأزليُّ أو قُدّر[3] وسُطّر في اللوح لا بد من جريانه عليك ألبتةَ، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يقضىٰ ويُفعلَ لتضمنّه حِكَمًا بالغة.

﴿فحملته﴾ بأن نفخ جبريلُ - عليه الصلاة والسلام - في دِرعها فدخلت النفخةُ في جوفها، قيل: إنه عليه الصلاة والسلام رفع دِرعَها فنفخ في جيبه فحمَلت، وقيل: نفخ عن بُعد فوصل الريحُ إليها فحملت في الحال، وقيل: إن النفخةَ كانت في فيها

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٠٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦١)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٤).

(١) في المخطوط: أي.

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) في المخطوط: قَدَّره.

وكانت مدةُ حملها سبعةَ أشهر، وقيل: ثمانيةً، ولم يعِشْ مولود وُضع لثمانية أشهر غيرُه، وقيل: تسعةَ أشهرٍ، وقيل: ثلاثَ ساعات، وقيل: ساعة كما حملت وضعتْه وسنُّها حينئذ ثلاثَ عشْرةَ سنةً، وقيل: عشرُ سنين وقد حاضت حيضتين ﴿**فانتبذت به**﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها كما في قوله: [الوافر]

.... تدوس بنا الجماجمَ والتّريبا[١]

فالجارُّ والمجرور في حيز النصب على الحالية أي فانتبذت ملتبسةً به ﴿**مكانًا قصيا**﴾ بعيدًا من أهلها وراء الجبل، وقيل: أقصى الدارِ وهو الأنسبُ لقِصرَ مدة الحمل ﴿**فأجاءها المخاض**﴾ أي فألجأها وهو في الأصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل في غيره كآتى في أعطى، وقرئ[٢] المِخاض بكسر الميم وكلاهما مصدرُ مخِضَت المرأةُ إذا تحرك الولدُ في بطنها للخروج ﴿**إلى جذع النخلة**﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الوِلادة وهو ما بين العِرْق والغصن، وكانت نخلةً يابسةً لا رأس لها ولا خُضرة وكان الوقت شتاءً، والتعريفُ إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثمةَ غيرُها وكانت كالمتعالم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليُريَها من آياته ما يسكّن رَوْعتها ويطعمها الرُّطَبَ الذي هو خُرْسةُ النُّفَساءِ الموافقةُ لها ﴿**قالت يا ليتني مت**﴾ بكسر الميم من مات يمات كـ (خِفت)، وقرئ[٣] بضمها من مات يموت ﴿**قبل هذا**﴾ أي هذا الوقتِ الذي لقِيتُ فيه ما لقِيت، وإنما قالته مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام من الوعد الكريم، استحياءً من الناس وخوفًا من لائمتهم، أو حِذارًا من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها، أو جريًا على سَنن الصالحين عند اشتدادِ الأمر عليهم، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تِبْنةً من الأرض فقال: «يا ليتنى هذه التبنةُ ولم أكن شيئًا»[٤]، وعن بلال أنه قال: «ليت بلالًا لم تلده

---

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره:
فمرت غير نافرة عليهم ....
ينظر: ديوانه (١/ ٢٦٥)، والبحر المحيط (١/ ٣٥٥)، والدر المصون (١/ ٢٢١)، والكشاف (/ ٣٨٨).

(٢) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦١)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٦)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٣).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٧٩) برقم (٢٣٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٩٨) رقم (٣٤٤٨٠)، وابن =

أمُّه»[(١)] ﴿وكنت نسيًا﴾ أي شيئًا تافهًا شأنُه أن يُنسى ولا يُعتدَّ به أصلًا، وقرئ[(٢)] بالكسر، قيل: هما لغتان في ذلك كالوتر، وقيل: هو بالكسر اسمٌ لما يُنسى كالنِّقْض اسمٌ لما يُنقض وبالفتح مصدرٌ سُمِّي به المفعولُ مبالغةً، وقرئ[(٣)] بهما مهموزًا من نسأتُ اللبن إذا صببتُ عليه الماء فصار مستهلَكًا فيه، وقرئ نسًا كعصًا ﴿منسيا﴾ لا يخطُر ببال أحد من الناس وهو نعتٌ للمبالغة، وقرئ[(٤)] بكسر الميم إتباعًا له بالسين.

﴿فناداها﴾ أي جبريلُ عليه السلام ﴿من تحتها﴾ قيل: إنه كان يقبل الولد، وقيل: من تحتها أي من مكان أسفلَ منها تحت الأكمة، وقيل: من تحت النخلة، وقيل: ناداها عيسى عليه السلام، وقرئ[(٥)] فخاطبها مَنْ تحتَها بفتح الميم ﴿أن لا تحزني﴾ أي لا تحزني، على أن «أنْ» مفسرةٌ، أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أي بمكان أسفل منك، وقيل: تحت أمرِك إنْ أمرْتِ بالجري أُجريَ وأن أمرت بالإمساك أُمسِك ﴿سريا﴾ [أي][(٦)] نهرًا صغيرًا حسبما روي مرفوعًا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن جبريلَ عليه السلام ضرب برجله الأرضَ فظهرت عينُ ماء عذبٍ فجرى جدْولًا»[(٧)]. وقيل: فعله عيسى عليه السلام.

وقيل: كان هناك نهر يابسٌ أجرى الله عز وجل فيه الماءَ حينئذ كما فعل مثلَه بالنخلة، فإنها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ورق فضلًا عن الثمر وكان الوقت شتاءً، فجعل الله لها إذ ذاك رأسًا وخُوصًا وثمرًا، وقيل: كان هناك ماءٌ جارٍ. والأول

= سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٣٦٠).

(١) أخرجه أبو نعيم الفضل بن دكين في كتاب الصلاة ص (١٧١) برقم (٢٢١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٠١) برقم (٢٣٠٧).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٠٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦١)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٠٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٧).

(٣) قرأ بها: محمد بن كعب القرظي، ونوف الأعرابي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٣).

(٤) قرأ بها: الأعمش، وأبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٦)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٣).

(٥) قرأ بها: زر، وعلقمة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧).

(٦) سقط في المخطوط.

(٧) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢١١).

هو الموافقُ لمقام بيان ظهورِ الخوارق والمتبادرُ من النظم الكريم، وقيل: سريًا أي سيدًا نبيا رفيعَ الشأن جليلًا وهو عيسى عليه السلام، فالتنوينُ للتفخيم والجملةُ للتعليل لانتفاء الحزْنِ المفهوم من النهي عنه، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيدِ التعليل وتكميلِ التسلية.

﴿**وهزي**﴾ هزُّ الشيء تحريكُه إلى الجهات المتقابلة تحريكًا عنيفًا متدارِكًا، والمرادُ هاهنا ما كان منه بطريق الجذبِ والدفعِ لقوله تعالى: ﴿**إليك**﴾ أي إلى جهتك والباء في قوله عز وعلا: ﴿**بجذع النخلة**﴾ صلةٌ للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم﴾ [البقرة: ١٩٥] إلخ، قال الفراء: تقول العرب: هَزّه وهزّ بِه وأخذ الخطامَ وأخذ بالخطام، أو لإلصاق الفعل بمدخولها أي افعلي الهزَّ بجذعها ﴿**تساقط**﴾ أي تُسقِطِ النخلة ﴿**عليك**﴾ إسقاطًا متواترًا حسب تواترِ الهزِّ، وقرئ[١] تُسقِطْ ويُسقِط[٢] من الإسقاط بالتاء والياء، وتتساقطْ[٣] بإظهار التاءين، وتَساقطْ[٤] بطرح الثانية، وتسّاقَطْ[٥] بإدغامها في السين، ويَسّاقط[٦] بالياء كذلك، وتسقُطْ ويسقُطْ[٧] من

(١) قرأ بها: مسروق بن الأجدع، وأبو حيوة، وأبو نهيك.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣١٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٤، ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧).

(٢) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٤، ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧).

(٣) قرأ بها: أبو السمال.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٤، ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٦).

(٤) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وطلحة، وابن وثاب، ومسروق بن الأجدع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣١٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٠٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، والكسائي، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وشعبة، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣١٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٠٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥).

(٦) قرأ بها: عاصم، والكسائي، وحماد، وبصير، وشعبة، وشعيب، ويحيى، ويعقوب، والبراء بن عازب، والأعمش، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨، ٢٩٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣١٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٤، ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ =

السقوط على أن التاء في الكل للنخلة والياء للجذع.

وقوله تعالى: ﴿رطبًا﴾ على القراءات الأُوَل مفعولٌ وعلى الست البواقي تمييزٌ، وقوله تعالى: ﴿جنيا﴾ صفةٌ له وهو ما قُطع قبل يَبْسه فعيل بمعنى مفعول، أي رطبًا مجنيا أي صالحًا للاجتناء، وقيل: بمعنى فاعل أي طريًا طيبًا، وقرئ[١] جِنيًّا بكسر الجيم للإتباع ﴿فكلي واشربي﴾ أي ذلك الرطبَ وماءَ السَّريِّ أو من الرطب وعصيرِه ﴿وقري عينًا﴾ وطِيبي نفسًا وارفضي عنها ما أحزنك وأهمك، فإنه تعالى قد نزّه ساحتَك عما اختلج في صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصريةِ والمركباتِ النباتية ما يخرِق العاداتِ التكوينيةَ ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرِك.

وقرئ[٢] وقِرّي بكسر القاف وهي لغة نجد واشتقاقُه من القرار، فإن العينَ إذا رأت ما يسرّ النفسَ سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من القَرّ فإن دمعةَ السرور باردةٌ ودمعةَ الحُزن حارة، ولذلك يقال: قُرّة العين وسُخْنةُ العين للمحبوب والمكروه ﴿فإما ترين من البشر أحدًا﴾ أي آدميًا كائنًا مَنْ كان، وقرئ[٣] تَرئِنّ على لغة من يقول: لبّأتُ بالحج لما بين الهمزة والياءِ من التآخي ﴿فقولي﴾ له إن استنطقك ﴿إني نذرت للرحمٰن صومًا﴾ أي صمتًا وقد قرئ[٤] كذلك، أو صيامًا وكان صيامُهم بالسكوت ﴿فلن أكلم اليوم إنسيًا﴾ أي بعد أن أخبرتُكم بنذري وإنما أكلم الملائكةَ وأناجي ربي، وقيل: أُمِرت بأن تخبرَ بنذرها بالإشارة وهو الأظهرُ، قال الفراء: العربُ تسمِّي

= ٥٠٧)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٨).

(٧) قرأ بهما: أبو حيوة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٠٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٤، ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٦).

(١) قرأ بها: طلحة بن سليمان.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤١).

(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٩٦)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٦).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤٢)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٦).

(٤) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٥)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٠٦).

كلَّ ما وصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصَل ما لم يؤكَّد بالمصدر، فإذا أُكّد لم يكن إلا حقيقةَ الكلام، وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلةِ السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنه نصٌّ قاطعٌ في قطع الطعن.

﴿**فأتت به قومها**﴾ أي جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهرت من نفاسها ﴿**تحمله**﴾ أي حاملةً له ﴿**قالوا**﴾ مؤنبين لها ﴿**يا مريم لقد جئت**﴾ أي فعلت ﴿**شيئًا فريًا**﴾ أي عظيمًا بديعًا منكرًا من فرَى الجلدَ أي قطعه، أو جئتِ مجيئًا عجيبًا عبر عنه بالشيء تحقيقًا للاستغراب ﴿**يا أخت هارون**﴾ استئنافٌ لتجديد التعييرِ وتأكيدِ التوبيخ عنَوا به هارونَ النبيَّ عليه السلام، وكانت مِن أعقاب مَن كان معه في طبقة الأخوة، وقيل: كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة، وقيل: هو رجلٌ صالح أو طالح كان في زمانهم شبّهوها به، أي كنت عندنا مثله في الصلاح أو شتموها به ﴿**ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا**﴾ تقريرٌ لكون ما جاءت به فِريًا منكرًا وتنبيهٌ على أن ارتكابَ الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ ﴿**فأشارت إليه**﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أنْ كلّموه، والظاهر أنها حينئذ بينت نذرَها وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أُمرت، ففيه دَلالةٌ على أن المأمورَ به بيانُ نذرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما مما لا عهدَ به ﴿**قالوا**﴾ منكرين لجوابها ﴿**كيف نكلم من كان في المهد صبيا**﴾ ولم نعهَد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل، وقيل: (كان) لإيقاع مضمونِ الجملة في زمان ماضٍ مبهمٍ صالحٍ لقريبه وبعيده، وهو هاهنا لقريبه خاصة بدليل أنه مَسوقٌ للتعجب، وقيل: هي زائدةٌ والظرفُ صلة مَنْ وصبيًا حال من المستكنّ فيه أو هي تامة أو دائمة كما في قوله تعالى: ﴿وكان الله عليمًا حكيمًا﴾ [النساء، الآية ١٧].

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم، كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿**إني عبد الله**﴾ أنطقه الله عز وجل بذلك آثرَ ذي أثيرٍ تحقيقًا للحق وردًّا على من يزعُم ربوبيته، قيل: كان المستنطِقُ لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام، وعن السدي رضي الله عنه: «لما أشارت إليه غضِبوا وقالوا: لَسُخرَيتُها بنا أشدُّ علينا مما فعلت»[١]، وروي أنه عليه السلام كان يرضَع فلما سمع ذلك ترك الرَّضاعَ وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته فقال ما قال إلخ، وقيل: كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان ﴿**آتاني الكتاب**﴾ أي الإنجيلَ ﴿**وجعلني نبيًا وجعلني**﴾ مع ذلك ﴿**مباركًا**﴾

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٧).

نفّاعًا معلِّمًا للخير، والتعبيرُ بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتومِ أو بجعل ما في شرف الوقوعِ لا محالة واقعًا، وقيل: أكمله الله عقلًا واستنبأه طفلًا ﴿أينما كنت﴾ أي حيثما كنت ﴿وأوصاني بالصلاة﴾ أي أمرني بها أمرًا مؤكدًا ﴿والزكاة﴾ زكاةِ المال إن ملكتُه أو بتطهير النفسِ عن الرذائل ﴿ما دمت حيًّا﴾ في الدنيا.

﴿وبرا بوالدتي﴾ عطفٌ على مباركًا أي جعلني بارًّا بها، وقرئ[1] بالكسر على أنه مصدرٌ وصف به مبالغةً، أو منصوبٌ بمضمر دل عليه أوصاني، أي وكلفني بَرًّا، ويؤيده القراءةُ بالكسر والجر عطفًا على الصلاة والزكاة والتنكيرُ للتفخيم ﴿ولم يجعلني جبارًا شقيا﴾ عنيدًا لله تعالى لفَرْط تكبّره ﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا﴾ كما هو على يحيى، على أن التعريفَ للعهد والأظهرُ أنه للجنس والتعريضِ باللعن على أعدائه، فإن إثباتَ جنسِ السلام لنفسه تعريضٌ بإثبات ضدِّه لأضداده كما في قوله تعالى: ﴿والسلامُ على من اتبع الهدى﴾ [طه: ٤٧] فإنه تعريضٌ بأن العذابَ على من كذّب وتولى.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى من فُصّلت نعوتُه الجليلةُ، وما فيه من معنى البُعد للدِّلالة على علو مرتبتِه وبُعد منزلتِه وامتيازِه بتلك المناقبِ الحميدةِ عن غيره ونزولِه منزلةَ المشاهَد المحسوس ﴿عيسى ابن مريم﴾ لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم، فيما يزعُمونه، على الوجه الأبلغِ والمنهاج البرهانيِّ حيث جعله موصوفًا بأضداد ما يصفونه ﴿قولَ الحق﴾ بالنصب على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لقال: إني عبد الله إلخ، وقوله تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وقرئ[2] بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هو قولُ الحق الذي لا ريب فيه، والإضافةُ للبيان والضميرُ للكلام السابق لتمام القصة، وقيل: صفةُ عيسى أو بدلُه أو خبرٌ ثانٍ ومعناه كلمةُ الله،

---

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو جعفر، وأبو نهيك، وأبو مجلز.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٧، ١٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٨)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥١٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤٢).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣١٥)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١١٠)، والتيسير للداني ص (٤٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥).

وقرئ[1] قالُ الحقِّ و(قول الحق)[2] فإن القَول والقُول والقال في معنى واحد **﴿الذي فيه يمترون﴾** أي يشكون أو يتنازعون، فيقول اليهودُ: ساحرٌ، والنصارى: ابنُ الله، وقرئ[3] بتاء الخطاب.

﴿ما كان لله﴾ أي ما صح وما استقام له تعالى **﴿أن يتخذ من ولد سبحانه﴾** تكذيبٌ للنصارى وتنزيهٌ له تعالى عما بَهتوه وقوله تعالى: **﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾** تبكيتٌ لهم ببيان أن شأنه تعالى، إذا قضى أمرًا من الأمور، أن يعلّق به إرادتَه فيكونَ حينئذ بلا تأخير، فَمْن هذا شأنُه كيف يُتوهّم أن يكون له ولد! وقرئ[4] فيكونَ بالنصب على الجواب وقوله تعالى: **﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾** من تمام كلامِ عيسى عليه السلام، قيل: هو عطف على قوله: ﴿إني عبد الله﴾ داخلٌ تحت القولِ وقدَ قرئ[5] بغير واو، وقرئ[6] بفتح الهمزة على حذف اللام أي ولأنه تعالى ربي وربُّكم فاعبُدوه كقوله تعالى: ﴿وأن المساجدَ لله فلا تدعُوا مع الله أحدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقيل: معطوفٌ على الصلاة **﴿هذا﴾** أي الذي ذكرتُه من التوحيد **﴿صراط مستقيم﴾** لا يضِلُّ سالكُه والفاء في قوله تعالى: **﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾** لترتيب ما بعدها

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود، والأعمش.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢١٧).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢١٧).

(٣) قرأ بها: نافع، والكسائي، والمطوعي، وعلي بن أبي طالب، وداود بن أبي هند، والسلمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٩) ، والبحر المحيط (٦/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٩).

(٤) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣١٥)، والتيسير للداني ص (٧٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٤٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥).

(٥) قرأ بها: أبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ١٨٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١١٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٩)، والكشف للقيسي (٢/ ٨٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢١٩).

(٦) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس، وابن محيصن، والحسن، واليزيدي، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٩٩)، والسبعة لابن مجاهد (٤١٠).

على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعِهم بجعلهم ما يوجب الاتفاقَ منشأً للاختلاف، فإن ما حُكي من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصًا قاطعةً في كونه عبدَه تعالى ورسولَه قد اختلفت اليهودُ والنصارى بالتفريط والإفراط، أو فرق النصارى، فقالت النُّسطوريةُ: هو ابنُ الله، وقالت اليعقوبيةُ: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعِد إلى السماء تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقالت الملكانية: هو عبدُ الله ونبيُّه.

﴿**فويل للذين كفروا**﴾ وهم المختلفون عبّر عنهم بالموصول إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلة الحُكم ﴿**من مشهد يوم عظيم**﴾ أي من شهود يومٍ عظيمِ الهول والحساب والجزاء وهو يومُ القيامة، أو من وقت شهودِه أو من مكانِ الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو أن يشهد عليهم الملائكةُ والأنبياءُ عليهم السلام وألسنتُهم وآذانُهم وأيديهم وأرجلُهم وسائرُ آرابِهم[1] بالكفر والفسوق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها، وقيل: هو ما شهِدوا به في حق عيسى وأمِّه عليهما السلام.

﴿**أسمع بهم وأبصر**﴾ تعجّبٌ من حِدّة سمعِهم وأبصارِهم يومئذ، ومعناه أن أسماعَهم وأبصارهم ﴿**يوم يأتوننا**﴾ للحساب والجزاء أي يوم القيامة جديرٌ بأن يُتعجَّب منها بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا، أو تهديدٌ بما سيسمعون ويُبصرون يومئذ، وقيل: أُمر بأن يُسمِعَهم ويُبصرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه، والجارُّ والمجرورُ على الأول في موقع الرفعِ وعلى الثاني في حيز النصب ﴿**لكن الظالمون اليوم**﴾ أي في الدنيا ﴿**في ضلال مبين**﴾ لا تُدرك غايتُه حيث أغفلوا الاستماعَ والنظرَ بالكلية، ووضعُ الظالمين موضعَ الضمير للإيذان بأنهم في ذلك ظالمون لأنفسهم ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ أي يوم يتحسر الناسُ قاطبةً، أما المسيءُ فعلى إساءته وأما المحسنُ فعلى قلة إحسانِه ﴿**إذ قضي الأمر**﴾ أي فُرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار.

روي أن النبي ﷺ سئل عن ذلك، فقال: «**حين يجاء بالموت على صورة كبشٍ أملحَ فيذبح والفريقان ينظرون، فينادي المنادي يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت ويا أهلَ النار خلود فلا موت، فيزداد أهلُ الجنة فرحًا إلى فرح وأهلُ النار غمًّا إلى غم**»[2] وإذ بدلٌ من يومَ الحسرة أو ظرفٌ للحسرة فإن المصدرَ المعرّفَ باللام يعمل في المفعول

---

(١) أي: سائر أعضائهم.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٣٥٥) كتاب التفسير، باب: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ [مريم: ٣٩]، برقم (٤٧٣٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٤٠/ ٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الصريح عند بعضِهم فكيف بالظرف ﴿وهم في غفلة﴾ أي عما يُفعل بهم في الآخرة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿في ضلال مبين﴾ أي مستقرون في ذلك وهم في تينك الحالتين، وما بينهما اعتراضٌ، أو من مفعول أنذِرْهم أي أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين فيكون حالًا متضمنةً لمعنى التعليل ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلكٌ ولا مَلِك، أو نتوفى الأرضَ ومن عليها بالإفناء والإهلاك توَفيَ الوارثِ لإرثه ﴿وإلينا يرجعون﴾ أي يُردّون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالًا أو اشتراكًا.

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

إبراهيم وأبوه

﴿واذكر﴾ عطف على أنذِرْهم ﴿في الكتاب﴾ أي في السورة أو في القرآن

﴿إبراهيم﴾ أي اتلُ على الناس قصته وبلِّغها إياهم كقوله تعالى: ﴿واتلُ عليهم نبأ إبراهيم﴾ [الشعراء: ٦٩] فإنهم ينتمون إليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يُقلِعون عما هم فيه من القبائح ﴿إنه كان صديقًا﴾ ملازمًا للصدق في كل ما يأتي ويذر، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به غيوبَ الله تعالى وآياتِه وكتبَه ورسلَه، والجملةُ استئنافٌ مسَوقٌ لتعليل موجبِ الأمر فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعي ذكرِه ﴿نبيًا﴾ خبرٌ آخرُ لكان مقيدٌ للأول مخصِّصٌ له كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿من النبيين والصديقين﴾ الآية [النساء: ٦٩]، أي كان جامعًا بين الصدّيقية والنبوة ولعل هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهم تخصيصِ الصدّيقية بالنبوة فإن كلَّ نبيٍّ صديقٌ ﴿إذ قال﴾ بدلُ اشتمالٍ من إبراهيمَ وما بينهما اعتراضٌ مقررٌ لما قبله أو متعلق بكان أو بنبيا، وتعليقُ الذكر بالأوقات مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث قد مر سرُّه مرارًا، أي كان جامعًا بين الأثرتين حين قال ﴿لأبيه﴾ آزرَ متلطفًا في الدعوة مستميلًا له ﴿يا أبت﴾ أي يا أبي فإن التاء عوضٌ عن ياء الإضافة ولذلك لا يجتمعان، وقد قيل: يا أبتا لكون الألف بدلًا من الياء ﴿لم تعبد ما لا يسمع﴾ ثناءَك عليه عند عبادتِك له وجؤارِك إليه ﴿ولا يبصر﴾ خضوعَك وخشوعَك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر شيئًا من المسموعات والمُبصَرات فيدخُل في ذلك ما ذكر دخولًا أوليا ﴿ولا يغني﴾ أي لا يقدر على أن يغنيَ ﴿عنك شيئًا﴾ في جلب نفعٍ أو دفع ضُرّ، ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسنَ منهاجٍ [وأقومَ سبيل][1]، واحتج بحسن أدبٍ وخلقٍ جميل لئلا يركبَ متنَ المكابرة والعنادَ ولا يُنكّبَ بالكلية عن مَحَجّة الرشاد، حيث طَلب منه علةَ عبادتِه لِما يستخفّ به عقلُ كل عاقل من عالم وجاهلٍ ويأبى الركونَ إليه، فضلًا عن عبادته التي هي الغايةُ القاصية من التعظيم مع أنها لا تحِقّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام: الخالقِ الرازقِ المحيي المميتِ المثيبِ المعاقب، ونبّه على أن العاقل يجب أن يفعل كلَّ ما يفعل لداعيةٍ صحيحة وغرضٍ صحيح، والشيءُ لو كان حيا مميّزًا سميعًا بصيرًا قادرًا على النفع والضرِّ مطيقًا بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكِنًا، لاستنكف العقلُ السليمُ عن عبادته، وإن كان أشرفَ الخلائق لما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقيادِ للقدرة القاهرةِ الواجبة، فما ظنُّك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الإحياءِ عينٌ ولا أثرٌ ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديَه إلى الحق المبين، لِما أنه لم يكن محظوظًا من العلم الإلٰهي مستقلًا

---

(١) سقط في المخطوط.

بالنظر السويّ مصدّرًا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف [حيث][(١)] قال:

﴿**يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك**﴾ ولم يسِمْ أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه ولا نفسَه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل أبرز نفسه في صورة رفيقٍ له أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿**فاتبعني أهدك طراطًا سويا**﴾ أي مستقيمًا موصلًا إلى أسنى المطالب منجيًا عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب، ثم ثبّطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كلُّ عاقل ببيانِ أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلبٌ لضرر عظيم، فإنه في الحقيقة عبادةُ الشيطان لِما أنه الآمرُ به فقال: ﴿**يا أبت لا تعبد الشيطان**﴾ فإن عبادتك للأصنام عبادةٌ له إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها.

وقوله: ﴿**إن الشيطان كان للرحمن عصيا**﴾ تعليلٌ لموجب النهي وتأكيدٌ له ببيان أنه مستعصٍ على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم، ولا ريب في أن المطيعَ للعاصي عاصٍ وكلٌّ مَن هو عاصٍ حقيقٌ بأن يسترد منه النعم وينتقم منه، والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقريرِ، والاقتصارُ على ذكر عصيانه من بين سائر جناياتِه لأنه مِلاكُها أو لأنه نتيجةُ معاداتِه لآدمَ عليه السلام وذريته، فتذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرضُ لعنوان الرحمانية لإظهار كمالِ شناعة عصيانِه وقوله: ﴿**يا أبت إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمٰن**﴾ تحذيرٌ من سوء عاقبةِ ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤُه بما ابتُليَ به معبودُه من العذاب الفظيع، وكلمةُ مِن متعلقةٌ بمضمر وقع صفةً للعذاب مؤكدةٌ لما أفاده التنكيرُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، وإظهارُ الرحمٰنِ للإشعار بأن وصفَ الرحمانية لا يدفع حلولَ العذاب كما في قوله عز وجل: ﴿ما غرّك بربك الكريم﴾ [الانفطار: ٦] ﴿**فتكون للشيطان وليًّا**﴾ أي قرينًا له في اللعن المخلّد، وذكرُ الخوف للمجاملة وإبرازِ الاعتناء بأمره ﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبةَ القَبولِ؟ فقيل: قال مُصرًّا على عِناده: ﴿**أراغب أنت على آلهتي يا إبراهيم**﴾ أي أمُعرضٌ ومنصرفٌ أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب، كأن الرغبةَ عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلًا عن ترغيب الغير عنها وقوله: ﴿**لئن لم تنته لأرجمنك**﴾ تهديدٌ وتحذير عما كان عليه من العِظة والتذكير أي والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهي عن عبادتهم لأرجُمنك

---

(١) سقط في المخطوط.

بالحجارة، وقيل: باللسان ﴿**واهجرني**﴾ أي فاحذَرْني واتركني ﴿**مليًّا**﴾ أي زمانًا طويلًا أو مليًا بالذهاب مطيقًا به.

﴿**قال**﴾ استئناف كما سلف ﴿**سلام عليك**﴾ توديعٌ ومُتارَكةٌ على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه بعدُ ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن ﴿**سأستغفر لك ربي**﴾ أي أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوح به تعليلُ قوله تعالى: ﴿واغفر لأبي﴾ بقوله تعالى: ﴿إنه كان من الضالين﴾ [الشعراء: ٨٦] والاستغفارُ بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه وإنما المحظورُ استدعاءُ المغفرة له مع بقائه على الكفر فإنه مما لا مساغَ له عقلًا ولا نقلًا، وأما الاستغفارُ له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضيةُ العقل وإنما الذي يمنعه السمعُ، ألا يرى إلى أنه عليه السلام قال لعمه أبي طالب: لا أزال أستغفر لك ما لم أُنهَ عنه فنزل قوله تعالى: ﴿ما كان للنبيّ والذين آمنوا أنْ يستغفروا للمشركين﴾ [التوبة: ١١٣]، والاشتباه في أن هذا الوعدَ من إبراهيمَ عليه السلام، وكذا قولُه: لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله: ﴿واغفر لأبي﴾ الآية، إنما كان قبل انقطاعِ رجائِه عن إيمانه لعدم تبيّن أمرِه لقوله تعالى: ﴿فلما تبيّن له أنه عدوٌّ لله تبرّأ منه﴾ [التوبة: ١١٤] كما مر في تفسير سورة التوبة، واستثناؤه عما يُؤْتسىٰ به في قوله تعالى: ﴿إلا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفِرنّ لك﴾ [الممتحنة: ٤] لا يقدح في جوازه لكن لا لأن ذلك كان قبل ورودِ النهي أو لموعِدة وعدها إياه كما قيل، لِما أن النهيَ إنما ورد في شأن الاستغفارِ بعد تبيّن الأمرِ وقد كان استغفارُه عليه السلام قبل التبيُّن فلم يتناولْه النهيُ أصلًا، وأن الوعدَ بالمحظور لا يرفع حظرَه بل لأن المرادَ بما يؤتسى به ما يجب الائتساءُ به حتمًا لوجود الوعيدِ على الإعراض عنه بقوله تعالى:

﴿لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخِر ومن يتولَّ فإن الله هو الغنيُّ الحميد﴾ [الحديد: ٢٤] فاستثناؤه عن ذلك إنما يفيد عدمَ وجوبِ استدعاء الإيمان للكافر المرجوِّ إيمانُه لا سيما وقد انقطع ذلك عند ورودِ الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحدٌ من العقلاء، وأما عدمُ جوازه قبل تبيّن الأمرِ فلا دِلالةَ للاستثناء عليه قطعًا، وتوجيهُ الاستثناءِ إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفارِ بقوله: ﴿واغفر لأبي﴾ الآية، لأنها كانت هي الحاملةَ له عليه السلام عليه، وتخصيصُ تلك العِدَة بالذكر دون ما وقع هاهنا لورودها على نهج التأكيدِ القسَميّ، وأما جعلُ الاستغفارِ دائرًا عليها وترتيبُ التبرُّؤ على تبيّن الأمرِ فقد مر تحقيقُه في تفسير سورة التوبة. وقوله: ﴿**إنه كان بي حفيًا**﴾ أي بليغًا في البِرّ والإلطاف تعليلٌ

لمضمون ما قبله ﴿وأعتزلكم﴾ أي أتباعد عنك وعن قومك ﴿وما تدعون من دون الله﴾ بالمهاجَرة بديني حيث لم تؤثّرْ فيكم نصائحي.

﴿وأدعو ربي﴾ أعبدُه وحده، وقد جُوّز أن يراد به دعاؤُه المذكورُ في تفسير سورةِ الشعراء، ولا يبعد أن يُرادَ به استدعاءُ الولد أيضًا بقوله: ﴿ربِّ هبْ لي من الصالحين﴾ [الصافات: ١٠٠] حسبما يساعده السباق والسياق ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾ أي خائبًا ضائعَ السعي، وفيه تعريضٌ بشقائهم في عبادة آلهتِهم، وفي تصدير الكلام بـ (عسى) من إظهار التواضعِ ومراعاة حسنِ الأدب والتنبيهِ على حقيقة الحقِّ من أن الإجابةَ والإثابةَ بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوبِ، وأن العبرةَ الخاتمة وذلك من الغيوب المختصّةِ بالعليم الخبير ما لا يخفى.

﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ بدلَ مَنْ فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عَقيبَ المهاجرة فإن المشهورَ أن الموهوبَ حينئذ إسماعيلُ عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فبشّرناه بغلام حليم﴾ [الصافات، الآية ١٠١] إثرَ دعائِه بقولِه: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ ولعل ترتيبَ هِبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمالِ عِظَم النّعم التي أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة مَن اعتزلهم من الأهل والأقرباء فإنهما شجرتا الأنبياء لهما أولادٌ وأحفادٌ أُولو شأنٍ خطير وذوو عددٍ كثير. هذا وقد روي أنه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولًا حَرّان وتزوج بسارةَ وولدت له إسحاقَ ووُلد لإسحاقَ يعقوبُ والأولُ هو الأقربُ الأظهر ﴿وكلا﴾ أي كلَّ واحد منهما أو منهم وهو مفعولٌ أولٌ لقوله تعالى: ﴿جعلنا نبيا﴾ لا بعضَهم دون بعض ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ هي النبوةُ، وذكرُها بعد ذكر جعلِهم نبيا للإيذان بأنها من باب الرحمةِ، وقيل: هي المالُ والأولادُ وما بُسط لهم من سَعة الرزقِ، وقيل: هو الكتابُ والأظهر أنها عامةٌ لكل خير ديني ودنيويٍّ أُوتوه مما لم يُؤتَه أحدٌ من العالمين ﴿جعلنا لهم لسان صدق عليا﴾ يفتخر بهم الناسُ ويثنون عليهم استجابةً لدعوته بقوله: ﴿واجعل لي لسانَ صِدقٍ في الآخرين﴾ [الشعراء: ٨٤] والمرادُ باللسان ما يوجد به من الكلام[1] ولسانُ العرب لغتُهم، وإضافتُه إلى الصدق

(١) إشارة إلى أن الآية من قبيل المجاز المرسل بعلاقة الآلية حيث ذكر الآلة وأراد أثرها وقد مضى الحديث عن المجاز المرسل.
ينظر: في حده وعلاقاته. شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠)، وأسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، والإتقان للسيوطي (٢/ ٣٦) وما بعدها، والصناعتين (١٥٠) وما بعدها، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد =

ووصفُه بالعلو للدلالة على أنهم أحِقّاءُ بما يثنون عليهم وأن محامِدَهم لا تخفى على تباعد الأعصارِ وتبدُّل الدول وتحوُّل المِلل والنحَل.

﴿واذكر في الكتاب موسى﴾ قُدّم ذكرُه على ذكر إسماعيلَ لئلا ينفصِل عن يعقوبَ عليهما السلام ﴿إنه كان مخلصًا﴾ موحّدًا أخلصَ عبادتِه عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهَه لله تعالى وأخلص نفسَه عما سواه، وقرئ[1] مخلَصًا على أن الله تعالى أخلصه ﴿وكان رسولًا نبيًا﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قُدّم رسولًا مع كونه أخلصَ وأعلى ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ الطورُ جبلٌ بين مصرَ ومدْيَنَ، والأيمنُ صفةٌ للجانب أي ناديناه من ناحيته اليُمنى من اليمين وهي التي تلي يمينَ موسى عليه السلام، أو من جانبه الميمونِ من اليُمن ومعنى ندائِه منه أنْ تمثّل له الكلامُ من تلك الجهة ﴿وقربناه نجيا﴾ تقريبَ تشريفٍ، مُثّل حالُه عليه السلام بحال من قرّبه الملِكُ لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيًا أي مناجيًا حالٌ من أحد الضميرين في ناديناه أو قربناه، وقيل: مرتفعًا لما روي أنه عليه السلام رُفع في السموات حتى سمع صَريفَ القلم ﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ أي من أجل رحمتِنا ورأفتِنا [له][2] أو بعضِ رحمتنا ﴿أخاه﴾ أي معاضَدةَ أخيه ومؤازرَتَه إجابةً لدعوته بقوله: ﴿واجعلْ لي وزيرًا من أهلي هارونَ أخي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠] لا نفسَه لأنه كان أكبرَ منه عليهما السلام، وهو على الأول مفعولٌ لوهبنا وعلى الثاني بدلٌ وقوله تعالى: ﴿هارون﴾ عطف بيان له وقوله تعالى: ﴿نبيا﴾ حال منه.

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل﴾ فُصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناءِ بأمره بإيراده مستقلًا وقوله تعالى: ﴿﴿إنه كان صادق الوعد﴾ تعليلٌ لموجب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرتِه به وناهيك أنه وعَدَ الصبرَ على

= السلام (٢٨)، والإشارات والتنبيهات للجرجاني (٢٠٣)، والمطول (٣٥٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي (٥٣) وما بعدها، والخصائص لابن جني (٢/ ٤٤٢ - ٤٤٦)، والإحكام للآمدي (١/ ٤٦) وما بعدها، والفوائد (١٠) وما بعدها، والطراز (١/ ٦٩ - ٧٣)، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع (١٧٨، ١٧٩)، والحاشية الجديدة (١/ ٣٥١).

(١) قرأ (مخلِصًا): ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٩)، والبحر المحيط (٦/ ١٨٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١١٨)، والتيسير للداني ص (١٤٩)، وتفسير الطبري (١٦/ ٧١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٣)، والكشف للقيسي (٢/ ٨٩).

(٢) سقط في المخطوط.

الذبح بقوله: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات: ١٠٢] فوفّى ﴿**وكان رسولًا نبيا**﴾ فيه دِلالةٌ على أن الرسولَ لا يجب أن يكون صاحبَ شريعةٍ، فإن أولادَ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام كانوا على شريعته ﴿**وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة**﴾ اشتغالًا بالأهم وهو أن يُقْبل الرجلُ بالتكميل على نفسه مَنْ هو أقربُ الناس إليه قال تعالى: ﴿وأنذرْ عشيرتَك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وأمُرْ أهلَك بالصلاة﴾ [طٰه: ١٣٢] ﴿قوُا أنفسَكم وأهليكم نارًا﴾ [التحريم: ٦] وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوةٌ يؤتسىٰ بهم، وقيل: أهلُه أمتُه فإن الأنبياءَ عليهم السلام آباءُ الأمم ﴿**وكان عند ربه مرضيًا**﴾ لاتصافه بالنعوت الجليلةِ التي من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة.

﴿**واذكر في الكتاب إدريس**﴾ وهو سِبطُ شيْثٍ وجدُّ أبي نوحٍ فإنه نوحُ بنُ لمك بن متوشلح بنِ أُخنوخ وهو إدريسُ عليه السلام، واشتقاقُه من الدَّرس يرده منعُ صرفِه. نعم لا يبعُد أن يكون معناه في تلك اللغة قريبًا من ذلك فلُقّب به لكثرة دراسته.

روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفةً وأنه أولُ من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ﴿**إنه كان صديقًا**﴾ ملازمًا للصدق في جميع أحوالِه ﴿**نبيا**﴾ خبرٌ آخرُ لـ (كان) مخصّصٌ للأول، إذ ليس كلُّ صدّيق نبيا ﴿**ورفعناه مكانًا عليا**﴾ هو شرفُ النبوة والزُّلفى عند الله عز وجل، وقيل: علوُّ الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرَك﴾ [الشرح: ٤]. وقيل: الجنة، وقيل: السماءُ السادسةُ أو الرابعة.

روي عن كعب وغيره في سبب رفعِ إدريسَ عليه السلام أنه سُئل ذاتَ يوم في حاجة فأصابه وهَجُ الشمس، فقال: يا رب إني قد مشَيتُ فيها يومًا وقد أصابني منها ما أصابني، فكيف من يحمِلها مسيرةَ خمسِمائة عام في يوم واحد؟ اللهم خففْ عنه من ثِقَلها وحرِّها، فلما أصبح المَلَك وجد من خفة الشمس وحرِّها ما لا يُعرف، فقال: يارب ما الذي قضيت فيه؟ قال: «**إن عبدي إدريسَ سألني أن أخففَ عنك حَملَها وحرَّها فأجبتُه**» قال: يا رب اجعل بيني وبينه خُلّةً، فأذِن الله تعالى له فرفعه إلى السماء.

﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة المذكورة وما فيه من معنى البُعد للإشارة بعلوّ رُتَبهم وبُعد منزلتِهم في الفضل وهو مبتدأٌ.

وقوله تعالى: ﴿**الذين أنعم الله عليهم**﴾ صفتُه أي أنعم عليهم بفنون النِعَم الدينيةِ والدنيويةِ حسبما أشير إليه مجملًا وقوله تعالى: ﴿**من النبيين**﴾ بيان للموصول وقوله تعالى: ﴿**من ذرية آدم**﴾ بدلٌ منه بإعادة الجارِّ ويجوز أن تكون كلمةُ (من) فيه للتبعيض لأن المنعَمَ عليهم أعمُّ من الأنبياء وأخصُّ من الذرية.

﴿ومن حملنا مع نوح﴾ أي ومن ذرية مَنْ حملنا معه خصوصًا وهم مَنْ عدا إدريسَ عليه السلام، فإن إبراهيمَ كان من ذرية سامِ بنِ نوح ﴿**ومن ذرية إبراهيم**﴾ وهم الباقون ﴿**وإسرائيل**﴾ عطفٌ على إبراهيمَ أي ومن ذرية إسرائيلَ وكان منهم موسى وهارونُ وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وفيه دليلٌ على أن أولادَ البناتِ من الذرية ﴿**وممن هدينا واجتبينا**﴾ أي ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة.

وقوله تعالى: ﴿**إذا تتلى عليهم آيات الرحمٰن خروا سجدًا وبكيا**﴾ خبرٌ لـ (أولئك) ويجوز أن يكون الخبرُ هو الموصولُ، وهذا استئنافًا مَسوقًا لبيان خشيتِهم من الله تعالى وإخباتِهم له مع ما لهم من علوّ الرتبة وسمُوّ الطبقة في شرف النسَب وكمالِ النفس والزُلفى من الله عز سلطانه، وسجّدًا وبُكيا حالان من ضمير خروا أي ساجدين باكين.

عن النبي ﷺ: «**اتلوا القرآن وابكُوا فإن لم تبكُوا فتباكوا**»[1] والبُكِيُّ جمع باكٍ كالسُّجّد جمع ساجد، وأصله بُكُويٌ فاجتمعت الواوُ والياء وسُبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواوُ ياء وأُدغمت الياءُ في الياء، وحُرّكت الكافُ بالكسر المجانس للباء، وقرئ (يُتلى)[2] بالياء التحتانيةِ لأن التأنيثَ غيرُ حقيقي، وقرئ (بِكِيًّا)[3] بكسر الباء للإتباع، قالوا: ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليق بآياتها فهنا يقول: **اللهمّ اجعلني من عبادك المنعَمِ عليهم المهديّين الساجدين لك الباكين عند تلاوةِ آياتِك**، وفي آية الإسراء يقول: **اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك**، وفي آيةِ تنزيلُ السجدةُ يقول: **اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبّحين بحمدك وأعوذُ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك**.

﴿**فخلف من بعدهم خلف**﴾ يقال: لعَقِب الخير خلفٌ بفتح اللام ولعقِب الشرِّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٤) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: حسن الصوت بالقرآن، برقم (١٣٣٧)، والبزار (٤/ ٦٩) برقم (١٢٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٦٢) برقم (٢٠٥١) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها: حمزة، وقتيبة، وورش، وعبد الله بن مسعود، وشيبة، وأبو جعفر، وشبل بن عباد، وأبو حيوة، وعبد الله بن أحمد العجلي، وابن ذكوان.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٠٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٤).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعبد الله بن مسعود، ويحيى، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٠٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٦)، والتيسير للداني ص (١٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والكشف للقيسي (٢/ ٨٤)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٣).

خلْفٌ بالسكون أي فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوءٍ ﴿أضاعوا الصلاة﴾ وقرئ الصلواتِ[(١)] [أي][(٢)] تركوها أو أخّروها عن وقتها ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من شرب الخمر واستحلالِ نكاحِ الأختِ من الأب والانهماكِ في فنون المعاصي. وعن علي رضي الله عنه: هم منْ بنى المشيَّد وركب المنظور ولبس المشهور ﴿فسوف يلقون غيًا﴾ أي شرًا فإن كلَّ شر عند العرب غيٌّ وكل خير رشادٌ كقوله: [الطويل]

فمن يلقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرَه ومن يغْوِ لا يعدَمْ على الغي لائما[(٣)]

وعن الضحاك جزاءَ غيٍّ كقوله تعالى: ﴿يلْقَ أثامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أو غيا عن طريق الجنة، وقيل: «غَيٌّ وادٍ في جهنمَ تستعيذ منه أوديتُها» وقوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا﴾ يدل على أن الآيةَ في حق الكفرة ﴿فأولئك﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البُعد لما مرّ مرارًا، أي فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمانِ والعمل الصالح ﴿يدخلون الجنة﴾ بموجب الوعدِ المحتوم وقرئ[(٤)] يُدْخَلون على البناء للمفعول.

﴿ولا يظلمون شيئًا﴾ أي لا يُنقَصون من جزاء أعمالِهم شيئًا، أو لا ينقصون شيئًا من النقص، وفيه تنبيهٌ على أن كفرَهم السابقَ لا يضرهم ولا ينقُص أجورَهم ﴿جنات عدن﴾ بدلٌ من الجنةَ بدلَ البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراضٌ أو نصبٌ على المدح، وقرئ[(٥)] بالرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هي أو تلك جنات الخ. أو مبتدأ خبرُه التي وعد إلخ، وقرئ[(٦)] جنة عدْنَ نصبًا ورفعًا[(٧)]، وعدْنُ علمٌ لمعنى العَدْن

---

(١) قرأ بها: الحسن، وعبد الله بن مسعود، وأبو رزين العقيلي، والضحاك، وابن مقسم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٤).

(٢) سقط في المخطوط. (٣) تقدم.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠١)، والتيسير للداني ص (٩٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٥).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، والشنبوذي والحسن، وعيسى بن عمر، والأعمش، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٨).

(٦) قرأ بها: المطوعي، والحسن، وابن حيي، وعلي بن صالح، والأعمش، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠١).

(٧) قرأ بها: حمزة، واليماني، وإسحاق الأزرق، والحسن.

=

وهو الإقامةُ كما أن فيْنةَ وسحرَ وأمسَ فيمن لم يصرِفها أعلامٌ لمعاني الفينةِ وهي الساعة التي أنت فيها والسحر والأمس فجرى لذلك مجرى العدْن، أو هو علمٌ لأرض الجنة خاصةً ولولا ذلك لما ساغ إبدالُ ما أضيف إليه من الجنة بلا وصفٍ عند غير البصريين ولا صفةٍ بقوله تعالى: ﴿**التي وعد الرحمٰن عباده**﴾ وجعلُه بدلًا منه خلافُ الظاهر فإن الموصولَ في حكم المشتقّ وقد نصّوا على أن البدَل بالمشتق ضعيفٌ، والتعرضُ لعنوان الرحمة للإيذان بأن وعدَها وإنجازَه لكمال سَعةِ رحمته والباء في قوله تعالى: ﴿**بالغيب**﴾ متعلقةٌ بمضمر هو حالٌ من المضمر العائدِ إلى الجنات أو من عباده، أي وعدها إياهم ملتبسةً أو ملتبسين بالغيب، أي غائبةً عنهم غيرَ حاضرة أو غائبين عنها لا يرَوْنها وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار، أو بمضمر هو سببُ الوعدِ أي وعدها إياهم بسبب إيمانِهم.

﴿**إنه كان وعده**﴾ أي موعدُه كائنًا ما كان فيدخل فيه الجناتُ الموعودةُ دخولًا أوليا، ولما كانت هي مثابةً يُرجَع إليها قيل: ﴿**مأتيا**﴾ أي يأتيه مَنْ وُعِد له لا محالة بغير خُلْف، وقيل: هو مفعولٌ بمعنى فاعل، وقيل: مأتيًا أي مفعولًا مُنجَزًا من أتى إليه إحسانًا أي فعَلَه ﴿**لا يسمعون فيها لغوًا**﴾ أي فضولَ كلام لا طائلَ تحته وهو كنايةٌ عن عدم صدورِ اللغوِ من أهلها، وفيه تنبيهٌ على أن اللغوَ مماً ينبغي أن يُجتنَب عنه في هذه الدارِ ما أمكن ﴿**إلا سلامًا**﴾ استثناءٌ منقطِعٌ أي لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو متصلٌ بطريق التعليقِ بالمُحال أي لا يسمعون لغوًا ما إلا سلامًا فحيث استحال كونُ السلامِ لغوًا استحال سماعُهم له بالكلية كما في قوله: [الطويل]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم ... بهنّ فُلولٌ من قراع الكتائبِ[1]

أو على أن معناه الدعاءُ بالسلامة وهم أغنياءُ عنه فهو من باب اللغو ظاهرًا وإنما فائدتُه الإكرامُ وقوله تعالى: ﴿**ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا**﴾ واردٌ على عادة المتنعّمين في هذه الدار، وقيل: المرادُ دوامُ رزقِهم وورودِه وإلا فليس فيها بكرةٌ ولا عشيٌّ.

﴿**تلك الجنة**﴾ مبتدأٌ وخبرٌ جيء به لتعظيم شأنِ الجنةِ وتعيينِ أهلِها، فإن ما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِها وعلوِّ رتبتها ﴿**التي نورث**﴾ أي

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠١، ٢٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٥).

(١) تقدم.

نورثها ﴿من عبادنا من كان تقيًا﴾ أي نُبقيها عليهم بتقواهم ونمتّعهم بها كما نُبقي على الوارث مالَ مُورِّثه ونمتّعه به، والوِراثةُ أقوى ما يستعمل في التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث إنها لا تُعقَبُ بفسخ ولا استرجاعٍ ولا إبطالٍ، وقيل: يُورَّث المتقون من الجنة المساكنَ التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادةً في كرامتهم، وقرئ[1] نورّث بالتشديد.

﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ (حكايةٌ لقول جبريلَ حين استبطأه رسولُ الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهفِ وذي القرنين والروح، فلم يدرِ كيف يجيب ورجا أن يوحىٰ إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يومًا أو خمسةَ عشرَ فشق ذلك عليه مشقةً شديدة، وقال المشركون: وَدَّعَه ربُّه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك) وأنزل الله عز وجل هذه الآيةَ وسورةَ الضحى، والتنزّل النزولُ على مَهل لأنه مطاوعٌ للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزولِ كما يطلق التنزيلُ على الإنزال، والمعنى وما ننزِل وقتًا غَبَّ وقتٍ إلا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمتُه، وقرئ[2] وما يَتنزَّل بالياء والضمير للوحي ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان ولا نتنزّل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته.

﴿وما كان ربك نسيا﴾ أي تاركًا لك يعني أن عدمَ النزول لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغةٍ فيه، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعِه إياك كما زعمَتِ الكفرة، وفي إعادة اسمِ الربّ المُعربِ عن التبليغ إلى الكمال اللائقِ مضافًا إلى ضميره عليه السلام من تشريفه والإشعارِ بعلة الحكم ما لا يخفى، وقيل: أولُ الآية حكايةُ قولِ المتقين حين يدخُلون الجنة مخاطِبًا بعضُهم بعضًا بطريق التبجّح والابتهاج، والمعنى وما نتنزّل الجنةَ إلا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالكُ الأمورِ كلِّها سالِفها ومُترَقَّبِها وحاضرِها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضلِه.

وقوله تعالى: ﴿وما كان ربك نسيا﴾ تقريرٌ لقولهم من جهة الله تعالى أي وما كان ناسيًا لأعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى: ﴿رب السموات

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، والأعرج، ورويس، والمطوعي، وقتادة، وحميد، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٨).

(٢) قرأ بها: الأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٦).

والأرض وما بينهما﴾ بيانٌ لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن مَن بيده ملكوتُ السموات والأرض وما بينهما كيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحتِه سبحانه الغفلةُ والنسيانُ؟ وهو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أو بدلٌ من ربك، والفاء في قوله تعالى: **﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾** لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى ربَّ السمواتِ والأرض وما بينهما.

وقيل: من كونه تعالى غيرَ تارك له عليه السلام أو غيرَ ناس لأعمال العاملين، والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبية الكاملةِ فاعبده إلخ، فإن إيجابَ معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفتَ أنه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمالَ العاملين كائنًا مَنْ كان فأقبِلْ على عبادته واصطبرْ على مشاقّها ولا تحزن بإبطاء الوحي وهُزْءِ الكفرةِ، فإنه [يراقبك ويراعيك][1] ويلطُف بك في الدنيا والآخرة. وتعديةُ الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما في قوله تعالى: ﴿واصطبرْ عليها﴾ [طٰه، الآية ١٣٢] لتضمينه معنى الثباتِ للعبادة فيما تورِد عليه من الشدائد والمشاقّ، كقولك للمبارز: اصطبرْ لِقَرنك أي اثبُت له فيما يورِد عليك من شدائده **﴿هل تعلم له سميا﴾** السمِيُّ الشريكُ في الاسم والظاهرُ أن يراد به هاهنا الشريكُ في اسم خاص قد عُبِّرَ عنه تعالى بذلك وهو ربُّ السموات والأرض وما بينهما، والمرادُ بإنكار العلم ونفيه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، فالجملةُ تقريرٌ لما أفاده الفاء من علّية ربوبيته العامةِ لوجوب عبادتِه بل لوجوب تخصّصها به تعالى ببيان استقلالِه عز وجل بذلك الاسمِ وانتفاءِ إطلاقِه على الغير بالكلية حقًا أو باطلًا.

وقيل: المرادُ هو الشريكُ في الاسم الجليلِ فإن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسمّوا الصنم بالجلالة أصلًا، وقيل: هو الشريكُ في اسم الإلٰه والمرادُ بالتسمية التسميةُ على الحق، فالمعنى هل تعلم شيئًا يسمى بالاستحقاق إلٰهًا؟ وأما التسميةُ على الباطل فهي كلا تسميةٍ، فتقريرُ الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين من الإشعار باستحقاق العبادةِ فتدبر.

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا

(١) سقط في المخطوط.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

إنكار البعث

﴿ويقول الإنسان﴾ المرادُ به إما الجنسُ بأسره وإسنادُ القول إلى الكل لوجود القولِ فيما بينهم وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانًا وإنما القاتلُ واحدٌ منهم، وإما البعضُ المعهودُ منهم وهم الكفرةُ أو أُبيُّ بنُ خلف فإنه أخذ عظامًا باليةً ففتّها وقال: يزعُم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال، أي يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿أئذا ما مت لسوف أخرج حيًا﴾ أي أُبعث من الأرض، أو من حال الموت، وتقديمُ الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لما أن المنكرَ كونُ ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دل عليه أُخرجُ لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهي هاهنا مخلَصةٌ للتوكيد مجرّدةٌ عن معنى الحال، كما خلَصت الهمزةُ واللامُ للتعويض في يا الله فساغ اقترانُها بحرف الاستقبال، وقرئ[1] إذا ما مِتّ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

---

(١) قرأ بها: ابن ذكوان، والصوري، وابن الأخرم، والأخفش.

=

﴿أولا يذكر الإنسان﴾ من الذكر الذي يراد به التفكرُ، والإظهارُ في موقع الإضمار لزيادة التقريرِ والإشعارِ بأن الإنسانيةَ من دواعي التفكرِ فيما جرى عليه من شئون التكوينِ المُنْجِية بالقلع عن القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان، والهمزةُ للإنكار التوبيخيِّ والواوُ لعطف الجملة المنفيةِ على مقدّر يدلُّ عليه يقول، أي أيقول ذلك ولا يذكر ﴿أنا خلقناه من قبل﴾ أي من قبلِ الحالة التي هو فيها وهي حالةُ بقائِه ﴿ولم يك شيئًا﴾ أي والحالُ أنه لم يكن حينئذ شيئًا أصلًا، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالةِ المنافيةِ للخلق بالكلية مع كونه أبعدَ من الوقوع فلأَنْ نَبعثَه بجمع الموادِّ المتفرِّقة وإيجادِ مثلِ ما كان فيها من الأعراض أَوْلى وأظهرُ، فما له لا يذكُره فيقعَ فيما يقع فيه من النكير! وقرئ (يذّكّر)[1] و(يتذكر)[2] على الأصل.

﴿فوربك﴾ إقسامُه باسمه، عزّت أسماؤه مضافًا إلى ضميره عليه السلام، لتحقيق الأمرِ بالإشعار بعلّيته وتفخيم شأنِه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلتِه ﴿لنحشرنهم﴾ لنجمعَن القائلين بالسَّوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم من الأرض أحياءً، ففيه إثباتٌ للبعث بالطريق البرهانيّ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كأنه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن التصريح به، وإنما المحتاجُ إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال ﴿والشياطين﴾ معطوفٌ على الضمير المنصوبِ أو مفعول معه. روي أن الكفرةَ يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تُغْويهم، كلٌّ منهم مع شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مختصًا بهم لكن ساغ نسبتُه إلى الجنس باعتبار أنهم لما حُشروا وفيهم الكفرةُ مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعًا كما ساغ نسبةُ القولِ إلى المحكيّ إليه مع كون القائل بعضَ أفراده.

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٦)، والتيسير للداني ص (١٤٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٥،٢٨٦)، والكشف للقيسي (٢/ ٩٠)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

(١) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٢١)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٧)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٢٤)، والتيسير للداني ص (١٤٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٣١)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٢٢).

(٢) قرأ بها: أبيّ.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٢)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥١٨)، والمعاني للفراء (٢/ ١٧١).

﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾ ليرى السعداءُ ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غِبطةً وسرورًا وينالَ الأشقياءُ ما ادخّروا لِمَعادهم عُدّةً ويزدادوا غيظًا من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتِهم بهم، والجِثيُّ جمع جاثٍ من جثا إذا قعد على ركبتيه، وأصلُه (جُثُوٌّ) بواوين فاستُثقل اجتماعُهما بعد ضمتين فكسرت الثاءُ للتخفيف فانقلبت الواوُ ياءً وأُدغمت فيها الياء الأولى وكُسرت الجيم إتباعًا لما بعدها وقرئ[1] بضمها، ونصبُه على الحالية من الضمير البارز أي لنُحضرنهم حول جهنم جاثين على رُكَبهم لما يدهَمُهم من هول المطلَعِ أو لأنه من توابع التواقُفِ للحساب قبل التواصُل إلى الثواب والعقاب، فإن أهلَ الموقف جاثون كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وترى كلَّ أمةٍ جاثية﴾ [الجاثية، الآية ٢٨] على ما هو المعتادُ في مواقف التقاول، وإن كان المرادُ بالإنسان الكفرةَ فلعلهم يساقون من الموقف إلى شاطئ جهنم جُثاةً إهانةً بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة.

﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ أي من كل أمةٍ شايعت دينًا من الأديان ﴿أيهم أشد على الرحمٰن عتيًا﴾ أي مَنْ كان منهم أعصى وأعتى فنطرَحهم فيها، وفي ذكر الأشدّ تنبيهٌ على أنه تعالى يعفو عن بعضٍ من أهل العصيان. وعلى تقدير تفسير الإنسانِ بالكفرة فالمعنى إنا نميز من كل طائفةٍ منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو نُدخل كلاًّ منهم طبقتَه اللائقةَ به. وأيُّهم مبنيٌّ على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يُبنى كسائر الموصولاتِ لكنه أُعرب حملًا على كلٍ وبعضٍ للزوم الإضافة، وإذا حُذف صدرُ صلتِه زاد نقصُه فعاد إلى حقه، وهو منصوبُ المحل بـ (ننزعنّ) ولذلك قرئ[2] منصوبًا، ومرفوعٌ عند غيره بالابتداء على أنه استفهاميٌّ وخبرُه أشدُّ والجملةُ محكيةٌ، والتقديرُ لننزعَنّ من كل شيعةٍ الذين يقال لهم أيُّهم أشدُّ، أو مُعلّقٌ عنها لـ (ننزعن) لتضمّنه معنى التمييزِ اللازمِ للعلم، أو مستأنفةٌ والفعل واقعٌ على كل شيعة كقوله تعالى: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ [مريم، الآية ٥٠] وعلى البيان فيتعلق بمحذوف كأنّ سائلًا قال: على مَنْ عتَوا؟ فقيل: على

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٩٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٣).

(٢) قرأ بها: هارون، ومعاذ بن مسلم الهراء، وطلحة بن مصرف، والأعرج، وزائدة، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٣)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٢٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٣٣).

الرحمٰن، أو متعلقٌ بأفعل وكذا الباءُ في قوله تعالى ﴿**ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِليًّا**﴾ أي هم أولى بالنار وهم المنتزَعون، ويجوز أن يراد بهم وبأشدِّهم عِتيًّا رؤساءُ الشِيَع فإن عذابَهم مضاعفٌ لضلالهم وإضلالهم، والصِّليُّ كالعِتيّ صيغةً وإعلالًا وقرئ[1] بضم الصاد.

﴿**وإن منكم**﴾ التفاتٌ لإظهار مزيدِ الاعتناءِ بمضمون الكلام، وقيل: هو خطابٌ للناس من غير التفاتٍ إلى المذكور، ويؤيد الأولَ أنه قرئ[2] وإن منهم أي منكم أيها الإنسانُ ﴿**إلا واردها**﴾ أي واصلُها وحاضرٌ دونها يمرّ بها المؤمنون وهي خامدةٌ وتنهار بغيرهم.

وعن جابر أنه ﷺ سئل عنه فقال: «**إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ قال بعضُهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرِدَ النار؟ فيقال لهم: قد وردتُموها وهي خامدةٌ**»[3] وأما قولُه تعالى: ﴿أولئك عنها مُبْعَدون﴾ [الأنبياء: ١٠١] فالمرادُ الإبعادُ عن عذابها، وقيل: ورودُها الجوازُ على الصراط الممدودِ عليها ﴿**كان**﴾ أي ورودُهم إياها ﴿**على ربك حتمًا مقضيًّا**﴾ أي أمرًا محتومًا أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لا بد من وقوعه ألبتةَ، وقيل: أقسم عليه.

﴿**ثم ننجي الذين اتقوا**﴾ الكفرَ والمعاصيَ مما كانوا عليه من حال الجُثُوّ على الركب على الوجه الذي سلف فيُساقون إلى الجنة، وقرئ[4] نُنْجي بالتخفيف

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٩٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٠٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٣٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٠٣).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وعكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٣٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٠).

(٣) لم أقف عليه من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ١٢٢) برقم (٤٠٧)، وابن السدي في الزهد (١/ ١٦٦) برقم (٢٣١)، وابن جرير الطبري (١٨/ ٢٣٠)، من قول خالد بن معدان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة ألم يعدنا ربنا الورود على النار، قال: قد مررتم عليها وهي خامدة.

(٤) قرأ بها: الكسائي، ويعقوب، ويحيى، وزيد، والأعمش، وابن محيصن، وروح، وعاصم الجحدري، ومعاوية بن قرة، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٠)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٢٤).

(ويُنَجِّي)[١]، (وينجَّى)[٢] على البناء للمفعول، وقرئ (ثَمَّهْ نُنجّي)[٣] بفتح الثاء أي هناك ننجيهم ﴿ونذر الظالمين﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثيًا﴾ منهارًا[٤] بهم كما كانوا، قيل: فيه دليلٌ على أن المراد بالورود الجثُوُّ حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرةَ بعد تجاثيهم حولها ويُلقى الفجرةُ فيها على هيئاتهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ الآية إلى آخرها حكايةٌ لما قالوا عند سماعِ الآياتِ الناعية عليهم فظاعةَ حالِهم ووخامةَ مآلِهم، أي وإذا تتلى على المشركين ﴿آياتنا﴾ التي من جملتها هاتيك الآياتُ الناطقةُ بحسن حالِ المؤمنين وسوءِ حال الكفرةِ وقوله تعالى: ﴿بينات﴾ أي مِرتّلاتِ الألفاظ مبيَّناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بيِّناتِ الإعجاز، حالٌ مؤكدةٌ من آياتنا.

﴿قال الذين كفروا﴾ أي قالوا، ووضعُ الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادّين له، أو قال الذين مَرَدوا منهم على الكفر ومرَنوا على العتوّ والعِناد وهم النضْرُ بنُ الحارثِ وأتباعُه الفجرةُ واللام في قوله تعالى: ﴿للذين آمنوا﴾ للتبليغ كما في مثل قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيُّهم﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقيل: لامُ الأجْل كما في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبَقونا إليه﴾ [الأحقاف: ١١] أي قالوا لأجلهم وفي حقهم، والأولُ هو الأولى لأن قَبولَهم ليس في حق المؤمنين فقط كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿أي الفريقين﴾ أيُّ المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا: أينا ﴿خير﴾ نحن أو أنتم ﴿مقامًا﴾ أي مكانًا، وقرئ[٥] بضم الميم أي موضِعَ إقامةٍ ومنزلٍ ﴿وأحسن نديًا﴾ أي مجلِسًا ومجتمَعًا. يروى أنهم كانوا يرجّلون شعورَهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرةِ ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أن خيريّتَهم حالًا وأحسنيّتَهم مآلًا مما لا يقبل الإنكارَ وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزُلْفاهم عنده، إذ هو العيارُ[٦]

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٠).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٠)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٤٤).

(٣) قرأ بها: ابن أبي ليلى.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤١).

(٤) في المخطوط: منهارٌ.

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو حاتم، وابن محيصن، وحميد، والجعفي، وشبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٢٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤٢).

(٦) في المخطوط: المعيار.

على الفضل والنقصانِ والرفعة والضِّعة وأن من ضرورته هوانَ المؤمنين عليه تعالى لقصور حظِّهم العاجلِ، وما هذا القياسُ العقيمُ والرأيُ السقيم إلا لكونهم جهَلةً لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا وذلك مبلغُهم من العلم فرُدَّ عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثًا ورئيًا﴾ أي كثيرًا من القرون التي كانت أفضلَ منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعادٍ وثمودَ وأضرابِهم من الأمم العاتيةِ قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنه قيل: فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك (فكم) مفعولُ أهلكنا و(من قرن) بيانٌ لإبهامها، وأهلُ كل عصرٍ قَرنٌ لمن بعدهم لأنهم يتقدّمونهم، مأخوذٌ من قَرْن الدابة وهو مقدّمها وقوله تعالى: ﴿هم أحسن أثاثًا﴾ في حيز النصبِ على أنه صفةٌ لِكم وأثاثًا تمييزُ النسبة وهو متاعُ البيت، وقيل: هو ما جدّ منه، والخُرْثيُّ ما لُبس منه ورثّ والرِئْيُ المنظرُ، فِعْلٌ من الرؤية لما يُرَى، كالطِّحْن لما يُطحَن، وقرئ (رِيًا)[1] على قلب الهمزة ياءً وإدغامِها أو على أنه من الرِّيّ وهو النعمةُ والتُّرفةُ، وقرئ (ريئًا)[2] على القلب و(رِيَا)[3] بحذف الهمزة و(زِيًّا)[4] بالزاي المعجمة من الزَّيّ وهو الجمعُ فإنه عبارةٌ عن المحاسن المجموعة.

﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمٰن مدًا﴾ لما بيّن عاقبةَ أمرِ الأمم المهلَكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظِ العاجلة أمر رسول الله ﷺ بأن يجيب هؤلاء المفتخِرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآلِ أمر الفريقين، إما على وجه

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، والأعشى، وقالون، وابن ذكوان، وأبو جعفر، والزهري، وشيبة، وطلحة، وأيوب، وابن سعدان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦).

(٢) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والأعمش، وحميد.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢١).

(٣) قرأ بها: ابن عباس، وطلحة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١١)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٢٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٤٣).

(٤) قرأ بها: ابن عباس، وابن جبير، ويزيد البربري، والأعسم المكي، والأعمش، وأبو ظبيان، وسفيان.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١١)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٢٦)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٥٢٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٧١).

كليٍّ متناولٍ لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللَّذة الفانية المبتهجين بها على أن (مَن) على عمومها، وإما على وجه خاصٍّ بهم على أنهم عبارةٌ عنهم ووصفُهم بالتمكن لذمهم والإشعارِ بعلة الحُكم، أي مَنْ كان مستقرًا في الضلالة مغمورًا بالجهل والغَفلةِ عن عواقب الأمورِ فليمدُد له الرحمٰنُ أي يمُدّ له ويُمهِله بطول العمُرِ وإعطاءِ المال والتمكينِ من التصرفات، وإخراجُه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحِكمة لقطع المعاذير كما ينبئ عنه قوله عز وجل: ﴿أولم نعمِّرْكم ما يتذكرُ فيه مَنْ تذكر﴾ [فاطر: ٣٧] أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى: ﴿إنما نُملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقيل: المرادُ به الدعاءُ بالمد والتنفيس، واعتبارُ الاستقرارِ في الضلال لما أن المد لا يكون إلا للمُصِرّين عليها إذ رُبَّ ضالٍّ يهديه الله عز وجل، والتعرضُ لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية، وقوله تعالى: ﴿**حتى إذا رأوا ما يوعدون**﴾ غايةٌ للمدّ الممتدِّ لا لقول المفتخِرين كما قيل، إذ ليس فيه امتدادٌ بحسب الذات وهو ظاهرٌ ولا استمرارٌ بحسب التكرار لوقوعه في حيّز جوابِ إذا، وجمعُ الضمير في الفعلين باعتبار معنى مَنْ كما أن الإفرادَ في الضميرين الأولين باعتبار لفظِها وقوله تعالى: ﴿**إما العذاب وإما الساعة**﴾ تفصيلٌ للموعود بدلٌ منه على سبيل البدل فإنه إما العذابُ الدنيويُّ بغلَبة المسلمين واستيلائِهم عليهم وتعذيبهم إياهم قتلًا وأسْرًا، وإما يومُ القيامة وما لهم فيه من الخزي والنَّكال على منع الخلوّ دون منع الجمعِ، فإن العذابَ الأخرويَّ لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى: ﴿**فسيعلمون**﴾ جوابُ الشرط والجملةُ محكيةٌ بعد حتى، أي حتى إذا عاينوا ما يوعَدون من العذاب الدنيويِّ أو الأخرويِّ فقط فسيعلمون حينئذ ﴿**من هو شر مكانًا**﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمرَ على عكس ما كانوا يقدّرونه فيعلمون أنهم شرٌّ مكانًا لا خيرٌ مقامًا ﴿**وأضعف جندًا**﴾ أي فئةً وأنصارًا لا أحسنُ ندِيًا كما كانوا يدّعونه، وليس المرادُ أن له ثمّةَ جندًا ضعفاءَ كلا ﴿ولم تكن له فئةٌ ينصُرونه من دون الله وما كان منتصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣] وإنما ذُكر ذلك ردًا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانًا من الأعيان وأنصارًا من الأخيار ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل.

﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حال المهتدين إثرَ بيانِ حال الضالين، وقيل: عطفٌ على فليمدُدْ لأنه في معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل: مَن كان في الضلالة يمُده الله ويزيد المهتدين هدايةً كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدَوا زادهم هدى﴾ [محمد، الآية ١٧] وقيل: عطفٌ على الشرطية المحكية بعد القول كأنه

لما بين أن إمهالَ الكافر وتمتيعَه بالحياة ليس لفضله عقّب ذلك ببيان أن قصورَ حظّ المؤمنِ منها ليس لنقصه، بل لأنه تعالى أراد به ما هو خيرٌ من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**والباقيات الصالحات خير**﴾ على تقديرَي الاستئنافِ والعطف كلامٌ مستأنفٌ وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمالِ المهتدين غيرُ داخل في حيز الكلام الملقّن لقوله تعالى: ﴿**عند ربك**﴾ أي الطاعات التي تبقى فوائدُها وتدوم عوائدُها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس، وما قيل من قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خيرٌ عند الله تعالى، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه عليه السلام ﴿**ثوابًا**﴾ أي عائدةً مما يَتمتّع به الكفرةُ من النعم المُخدَجةِ[1] الفانية التي يفتخرون بها لا سيما ومآلُها النعيمُ المقيمُ، ومآلُ هذه الحسرةِ السرمدية والعذاب الأليم كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿**وخير مردًا**﴾ أي مرجعًا وعاقبةً، وتكريرُ الخيرِ لمزيد الاعتناءِ ببيان الخيريةِ وتأكيدٌ لها وفي التفصيل، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيريّةٌ في العاقبة، تهكّمٌ بهم.

العاصي وخباب

﴿**أفرأيت الذي كفر بآياتنا**﴾ أي بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث، نزلت في العاصي بنِ وائلٍ كان لخبّابِ بنِ الأرتّ عليه مالٌ فاقتضاه فقال: لا، حتى تكفرَ بمحمد، قال: لا والله لا أكفرُ به حيًا ولا ميّتًا ولا حين بُعِثتُ، قال: فإذا بُعثتَ جئني فيكونُ لي ثمّةَ مالٌ وولدٌ فأعطِيَك، وفي رواية قال: لا أكفر به حتى يُميتك ثم تُبعثَ، فقال: إني لميِّتٌ ثم مبعوثٌ؟ قال: نعم، قال: دعني حتى أموتَ وأُبعث فسأُوتىٰ مالًا وولدًا فأقضيَك فنزلت. فالهمزةُ للتعجيب من حاله والإيذانِ بأنها من الغرابة والشناعةِ بحيث يجب أن تُرى ويُقضَى منها العجب، ومن فرّق بين ألم ترَ وأرأيتَ بعد بيان اشتراكِهما في الاستعمال لقصد التعجيبِ بأن الأولَ يعلّق بنفس المتعجبِ منه، فيقال: ألم ترَ إلى الذي صنع كذا بمعنى انظُرْ إليه فتعجبْ من حاله، والثاني يعلّق بمثل المتعجَّب منه، فيقال: أرأيتَ مثْلَ الذي صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يُرى له مِثْلٌ فقد حفِظ شيئًا وغابت عنه أشياءُ، وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل: ﴿أرأيت الذي يكذّب بالدّين﴾ [الماعون: ١] والفاءُ للعطف على مقدّر يقتضيه المقام أي أنظَرْتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرةِ التي حقُّها أن يؤمِنَ بها كلُّ من يشاهدها.

﴿**وقال**﴾ مستهزئًا بها مصدّرًا لكلامه باليمين الفاجرةِ: والله ﴿**لأوتين**﴾ في الآخرة

---

(١) نعمة مخدجة: ناقصة. ولعل نقصها متأتٍّ من كونها فانية.

﴿مالًا وولدًا﴾ أي انظر إليه فتعجّبْ من حالته البديعةِ وجُرْأتِه الشنيعة، هذا هو الذي يستدعيه جزالةُ النظمِ الكريم وقد قيل: إن (أفرأيت) بمعنى أخبِرْ والفاءُ على أصلها والمعنى أخبِرْ بقصة هذا الكافرِ عقيبَ حديثِ أولئك الذين قالوا: ﴿أيُّ الفريقين خيرٌ مقامًا﴾ [مريم: ٧٣] الآية.

وأنت خبيرٌ بأن المشهورَ استعمالُ أرأيت في معنى أخبرني بطريق الاستفهام جاريًا على أصله أو مُخْرَجًا إلى ما يناسبه من المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره، وقرئ(١) وُلْدًا على أنه جمع وَلد كأُسْد جمعُ أسد أو على لغة فيه كالعُرْب والعَرَب وقوله تعالى: ﴿اطّلع الغيب﴾ ردٌّ لكلمته الشنعاء وإظهارٌ لبطلانها إثرَ ما أشير إليه من التعجب منها، أي قد بلغ من عظمة الشأنِ إلى أن قد ارتقى إلى علم الغيب الذي يستأثر به العليمُ الخبير حتى ادعىٰ أن يُؤتىٰ في الآخرة مالًا وولدًا وأقسم عليه ﴿أم اتخذ عند الرحمٰن عهدًا﴾ بذلك فإنه لا يُتوصَّل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين، والتعرضُ لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمةِ لإيتاء ما يدّعيه، وقيل: العهدُ كلمةُ الشهادة، وقيل: العملُ الصالح فإن وعدَه تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراةٌ مع اللعين بحسب منطوقِ مقالِه كما أن كلامَه مع خبّاب كان كذلك.

وقوله تعالى: ﴿كلا﴾ ردعٌ له عن التفوّه بتلك العظيمةِ وتنبيهٌ على خطْأته ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي سنُظهر أنا كتبنا قوله، كقوله: [الطويل]

إذا ما انتسبْنا لم تلِدْني لئيمةٌ ....(٢)

أي يتبينُ أني لم تلدني لئيمة، أو سننتقم منه انتقامَ مَنْ كتب جريمةَ الجاني وحفِظها عليه، فإن نفسَ الكَتْبة لا تكاد تتأخر عن القول، كقوله عز وعلا: ﴿ما يلفِظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد﴾ [ق: ١٨] فمعنى الأولِ تنزيلُ إظهارِ الشيءِ الخفيِّ منزلةَ

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن عيسى الأصبهاني، والمغيرة، وإبراهيم، ويحيى بن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣٠)، والتيسير للداني ص (١٤٩، ١٥٠)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦).

(٢) صدر بيت وعجزه:

.... ولم تجدي من أَنْ تقرّي بها بُدَّا

والبيت لزائد بن صعصعة الفقعسي في حاشية الأمير على المغني (١/ ٢٥)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص (٢٠٥)، وشرح شذور الذهب ص (٤٤٠)، وشرح شواهد المغني ص (٨٩)، ومغني اللبيب ص (٢٦).

إحداثِ الأمرِ المعدومِ بجامعِ أن كلاً منهما إخراجٌ من الكمُون إلى البروز فيكون استعارةً تبعيةً مبنيةً على تشبيه إظهارِ الكتابةِ على رءوس الأشهاد بإحداثها، ومدارُ الثاني تسميةُ الشيء باسم سببِه[1] فإن كتابةَ جريمةِ المجرمِ سببٌ لعقوبته قطعًا ﴿ونمد له من العذاب مدًّا﴾ مكانَ ما يدّعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أي نطوّل له من العذاب ما يستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكُفره وافترائِه على الله سبحانه وتعالى واستهزائِه بآياته العِظام، ولذلك أُكّد بالمصدر دَلالةً على فرط الغضب.

﴿ونرثه﴾ بموته ﴿ما يقول﴾ أي مسمًّى ما يقول ومصداقَه وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، وفيه إيذانٌ بأنه ليس لما يقوله مصداقٌ موجودٌ سوى ما ذكر أي ننزِع عنه ما آتيناه ﴿ويأتينا﴾ يوم القيامة ﴿فردًا﴾ لا يصحبه مالٌ ولا ولدٌ كان له في الدنيا فضلًا أن يُؤتىٰ ثمةَ زائدًا.

وقيل: نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة ونعطيه ما يستحقه ويأباه معنى الإرث، وقيل: المرادُ بما يقول نفسُ القول المذكور لا مسمّاه، والمعنى إنما يقول هذا القولَ ما دام حيا فإذا قبضناه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه، وأنت خبير بأن ذلك مبنيٌّ على أن صدورَ القول المذكورِ عنه بطريق الاعتقادِ وأنه مستمرٌّ على التفوّه به راجٍ لوقوع مضمونِه، ولا ريب في أن ذلك مستحيلٌ ممن كفر بالبعث وإنما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليقِ أداءِ دَيْنه بالمُحال.

﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ حكايةٌ لجناية عامةٍ للكل مستتبِعةٌ لضدّ ما يرجُون ترتّبه عليها إثرَ حكاية مقالةِ الكافرِ المعهودِ واستتباعِها لنقيض مضمونِها، أي اتخذوا الأصنامَ آلهةً متجاوزين الله تعالى ﴿ليكونوا لهم عزًا﴾ أي ليُعزَّزوا بهم بأن يكونوا لهم وصلةً إليه عز وجل وشفعاءَ عنده.

﴿كلا﴾ ردعٌ لهم عن ذلك الاعتقادِ وإنكارٌ لوقوع ما علّقوا به أطماعَهم الفارغة ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أي ستجحد الآلهةُ بعبادتهم لها بأن يُنطِقَها الله تعالى وتقولَ: ما عبدتمونا، أو سينكر الكفرةُ حين شاهدوا سوءَ عاقبة كفرهم عبادتَهم لها كما في قوله تعالى: ﴿والله ربّنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] ومعنى قوله تعالى: ﴿ويكونون عليهم ضدًا﴾ على الأول تكون الآلهةُ التي كانوا يرجون أن تكون عِزًا

---

(١) إشارة إلى أن الآية من الممكن أن تكون استعارة تبعية باعتبار، وأن تكون مجازًا مرسلاً باعتبار آخر. ينظر: الاستعارة الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣١) وما بعدها وراجع في المجاز المرسل شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها والمطول (٣٥٣) وما بعدها والمفتاح (٥٣).

ضدًّا للعز أي ذلًا وهُوانًا، أو تكون عونًا عليهم وآلةً لعذابهم حيث تُجعل وَقودَ النار وحصَبَ جهنم، أو حيث كانت عبادتُهم لها سببًا لعذابهم، وإطلاقُ الضدِّ على العَون لما أن عَونَ الرجل يُضادُّ عدوَّه وينافيه بإعانته له عليه، وعلى الثاني يكون الكفرةُ ضدًّا وأعداءً للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبُدونها.

وتوحيدُ الضدِّ لوَحدة المعنى الذي عليه تدور مُضادّتُهم فإنهم بذلك كشيء واحدٍ كما في قوله عليه السلام: «**وهم يدٌ على مَنْ سواهم**»[(١)] وقرئ[(٢)] كَلاً بفتح الكاف والتنوين على قلب الألفِ نونًا في الوقف قلْبَ ألفِ الإطلاق في قوله: [الوافر]

أقِلِّي اللومَ عاذِلَ والعِتابَنْ وقولي إن أصبتُ لقد أصابنْ[(٣)]

أو على معنى كَلَّ هذا الرأيُ كلاً، وقرئ[(٤)] كلاّ على إضمار فعل يفسّره ما بعده أي سيجحدون، كلاّ سيكفرون... إلخ.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢/ ٣٧)، وأحمد (٢/ ٢١١)، وأبو داود (٣/ ١٨٣) كتاب الجهاد، باب: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢/ ٨٩٥) كتاب الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم حديث (٢٦٨٥)، وابن الجارود في المنتقى (٧٧١)، والبيهقي (٨/ ٢٩) كتاب الجنايات، باب: فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٣٢)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٨٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٩/ ٤٣٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

(٢) قرأ بها: أبو نهيك.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤٨، ١٤٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٤)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٥٠).

(٣) البيت لجرير في ديوانه ص(٨١٣)، وخزانة الأدب (١/ ٦٩، ٣٣٨)، (٣/ ١٥١)، والخصائص (٢/ ٦)، والدرر (٥/ ١٧٦)، (٦/ ٢٣٣)، (٣٠٩)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٣٤٩)، وسر صناعة الإعراب ص(٤٧١، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٣، ٥٠١، ٥٠٣، ٥١٣، ٦٧٧، ٧٢٦)، وشرح الأشموني (١/ ١٢)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٧٦٢)، وشرح المفصل (٩/ ٢٩)، والكتاب (٤/ ٢٠٥، ٢٠٨)، والمقاصد النحوية (١/ ٩١)، وهمع الهوامع (٢/ ٨٠، ٢١٢)، وبلا نسبة في الإنصاف ص(٦٥٥)، وجواهر الأدب (١٣٩، ١٤١) وأوضح المسالك (١/ ١٦)، وخزانة الأدب (٧/ ٤٣٢، ١١/ ٣٧٤)، ورصف المباني (٢٩، ٣٥٣)، وشرح ابن عقيل (١٧)، وشرح عمدة الحافظ (٩٨)، وشرح المفصل (٤/ ١٥، ١٤٥، ٧/ ٩)، ولسان العرب (خنا)، والمنصف (١/ ٢٢٤، ٢/ ٧٠)، ونوادر أبي زيد ص(١٢٧).

(٤) قرأ بها: أبو نهيك.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣١)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٤٨)، وتفسير الرازي (٢١/ ٢٥٠).

تسلية للنبي ﷺ

﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ مما نطَقت به الآياتُ الكريمةُ السالفةُ وحكتْه عن هؤلاء الكفرةِ الغُواة والمَرَدةِ العُتاةِ من فنون القبائِح من الأقاويل والأفاعيلِ، والتمادي في الغي، والانهماكِ في الضلال، والإفراطِ في العِناد، والتصميمِ على الكفر من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم، والإجماعِ على مدافعة الحقّ بعد اتضاحِه وانتفاءِ الشك عنه بالكلية، وتنبيهٌ على أن جميعَ ذلك منهم بإضلال الشياطينِ وإغوائِهم لا لأن مسوِّغًا ما في الجملة، ومعنى إرسالِ الشياطينِ عليهم إما تسليطُهم عليهم وتمكينُهم من إضلالهم وإما تقييضُهم لهم، وليس المرادُ تعجيبَه عليه السلام من إرسالهم عليهم كما يوهمه تعليقُ الرؤية به، بل مما ذُكر من أحوال الكفرةِ من حيث كونُها من آثار إغواءِ الشياطينِ كما ينبئ عنه قوله تعالى: **﴿تؤزهم أزًّا﴾** فإنه إما حالٌ مقدّرةٌ من الشياطين أو استئنافٌ وقع جوابًا عما نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا يفعل الشياطينُ بهم حينئذ؟ فقيل: تؤزّهم أي تُغريهم وتُهيّجهم على المعاصي تهييجًا شديدًا بأنواع الوساوسِ والتسويلات، فإن الأزَّ والهزّ والاستفزازَ أخواتٌ معناها شدةُ الإزعاج **﴿فلا تعجل عليهم﴾** أي بأن يُهلَكوا حسبما تقتضيه جناياتُهم ويَبيدوا عن آخرهم وتطهُرَ الأرض من فساداتهم، والفاء للإشعار بكون ما قبلها مَظِنّةً لوقوع المنهيِّ محوجةً إلى النهي كما في قوله تعالى: ﴿إن هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يُخرِجَنّكما من الجنة﴾ [مريم: ٨٤].

وقوله تعالى: **﴿إنما نعد لهم عدًا﴾** تعليلٌ لموجب النهي ببيان اقترابِ هلاكهم أي لا تستعجلْ بهلاكهم فإنه لم يبقَ لهم إلا أيامٌ وأنفاسٌ نعدّها عدًا **﴿يوم نحشر المتقين﴾** منصوبٌ على الظرفية بفعل مؤخّرٍ قد حُذف للإشعار بضيق العبارةِ عن حصره وشرحِه لكمال فظاعةِ ما يقع فيه من الطامّة والدواهي العامة، كأنه قيل: يوم نحشر المتقين أي نجمعهم **﴿إلى الرحمٰن﴾** إلى ربهم الذي يغمرُهم برحمته الواسعة **﴿وفدًا﴾** وافدين عليه كما يفد الوفودُ على الملوك منتظِرين لكرامتهم وإنعامِهم **﴿ونسوق المجرمين﴾** كما تُساق البهائم **﴿إلى جهنم وردًا﴾** عِطاشًا فإن مَنْ يرد الماءَ لا يورِدُه إلا العطشُ، أو كالدوابّ التي ترِد الماءَ نفعل بالفريقين من الأفعال ما لا يخفى ببيانه نطاقُ المقال، وقيل: منصوبٌ على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبيُّ ﷺ، أي اذكر لهم بطريق الترغيبِ والترهيبِ يوم نحشر إلخ، وقيل: على الظرفية لقوله تعالى: **﴿لا يملكون الشفاعة﴾** والذي يقتضيه مقامُ التهويلِ وتستدعيه جزالةُ التنزيل أن ينتصبَ بأحد الوجهين الأولَين ويكونُ هذا استئنافًا مبينًا لبعض ما فيه من الأمور الدالةِ على هوله، وضميرُه

عائدًا إلى العباد المدلولِ عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما، وقيل: إلى المتقين خاصة، وقيل: إلى المجرمين من الكفرة وأهلِ الإسلام، والشفاعةُ على الأولين مصدرٌ من المبنيّ للفاعل وعلى الثالث ينبغي أن تكون مصدرًا من المبنيّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿**إلا من اتخذ عند الرحمٰن عهدًا**﴾ على الأول استثناءٌ متصلٌ مِن لا يملكون، ومحلُّ المستثنى إما الرفعُ على البدل أو النصبُ على أصول الاستثناءِ والمعنى لا يملك العبادُ أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعَدّ له بالتحلّي بالإيمان والتقوى أو من أُمر بذلك، من قولهم: عهد الأميرُ إلى فلان بكذا إذا أمرَه به، فيكون ترغيبًا للناس في تحصيل الإيمانِ والتقوى المؤدِّي إلى نيل هذه الرتبةِ، وعلى الثاني استثناءٌ من الشفاعة على حذف المضافِ والمستثنى منصوبٌ على البدل أو على أصل الاستثناءِ، أي لا يملك المتقون الشفاعةَ إلا شفاعةَ من اتخذ العهد بالإسلام فيكون ترغيبًا في الإسلام، وعلى الثالث استثناءٌ مِنْ لا يملكون أيضًا والمستثنى مرفوعٌ على البدل أو منصوبٌ على الأصل والمعنى لا يملك المجرمون أن يَشفع لهم إلا مَنْ كان منهم مسلمًا.

﴿**وقالوا اتخذ الرحمٰن ولدًا**﴾ حكايةٌ لجناية اليهودِ والنصارى ومن يزعُم من العرب أن الملائكةَ بناتُ الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرًا إثرَ حكاية عبَدةِ الأصنام بطريق عطفِ القصة على القصة وقوله تعالى: ﴿**لقد جئتم شيئًا إدًا**﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلةِ وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفاتِ المنبئ عن كمال السخطِ وشدةِ الغضب المُفصِح عن غاية التشنيعِ والتقبيحِ، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحةِ والجهل والجراءة، والإدُّ بالكسر والفتح العظيمُ المنكر، والإدّةُ الشدةُ وأدَّني الأمرُ وآدَني أثقلني وعظُم عليّ، أي فعلتم أمرًا منكرًا شديدًا لا يقادَر قدرُه، فإن جاء وأتى يستعملان في معنى فعَلَ فيُعدَّيان تعدِيتَه وقوله تعالى: ﴿**تكاد السموات**﴾ إلخ، صفةٌ لـ(إدًّا) أو استئنافٌ لبيان عِظم شأنه في الشدة والهول، وقرئ (يكاد)[1] بالتذكير ﴿**يتفطرن منه**﴾ يتشقّقن مرةً بعد أخرى من عِظم ذلك الأمر، وقرئ (ينفطرْن)[2]

(١) قرأ بها: نافع، والكسائي، وأبو حيوة، والأعمش، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠١)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣٣)، والتيسير للداني ص (١٥٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، وعاصم، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب، وخلف، واليزيدي، والشنبوذي، وأبو بحرية، والزهري، وطلحة، وحميد، وأبو عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٢٨)، والإملاء للعكبري (٢/ =

والأولُ أبلغُ لأن تفعّل مطاوِعُ فعّل، وانفعلَ مطاوعُ فَعَل ولأن أصل التفعّل التكلف.

﴿وتنشق الأرض﴾ أي وتكاد تنشقّ الأرض ﴿وتخِر الجبال﴾ أي تسقُط وتتهدم، وقوله تعالى: ﴿هدًّا﴾ مصدرٌ مؤكّدٌ لمحذوف هو حالٌ من الجبال أي تُهدّ هدًّا أو مصدرٌ من المبنيّ للمفعول مؤكّدٌ لـ (تخِرُّ) على غير المصدر لأنه حينئذ بمعنى التهدّم والخرُور، كأنه قيل: وتخِرّ الجبال خرورًا أو مصدرٌ بمعنى المفعول منصوبٌ على الحالية أي مهدودةً، أو مفعول له أي لأنها تُهَدّ، وهذا تقريرٌ لكونه إدًّا والمعنى أن هَولَ تلك الكلمةِ الشنعاءِ وعِظمَها بحيث لو تَصوّرتْ بصورة محسوسة لم تُطِقْ بها هاتيك الأجرامُ العِظامُ وتفتتت من شدتها أو أن فظاعتَها [في استجلاب][1] الغضَبِ واستيجابِ السَّخَط بحيث لولا حِلْمُه تعالى لخُرِّب العالمُ وبُدِّدت قوائمُه غضبًا على من تفوه بها ﴿أن دعوا للرحمٰن ولدًا﴾ منصوبٌ على حذف اللام المتعلقةِ بـ (تكاد) أو مجرورٌ بإضمارها، أي تكاد السموات يتفطرّن والأرضُ تنشق والجبالُ تخِرّ لأَن دعَوا له سبحانه ولدًا، وقيل: اللامُ متعلقةٌ بـ (هدًّا)، وقيل: الجملةُ بدلٌ من الضمير المجرورِ في منه كما في قوله: [الطويل]

.... على جوده لضنّ بالماء حاتِمُ[2]

وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي الموجبُ لذلك أنْ دعوا إلخ، وقيل: فاعلُ هدًّا أي هدّها دُعاءُ الولد، والأولُ هو الأولى ودعَوا من دعا بمعنى سمَّى المتعدّي إلى مفعولين، وقد اقتُصر على ثانيهما ليتناولَ كل ما دُعيَ له ولدًا، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعُه ادّعى إلى فلان أي انتسب إليه وقوله تعالى: ﴿وما ينبغي للرحمٰن أن يتخذ ولدًا﴾ حالٌ من فاعل قالوا أو دعَوا، مقرّرةٌ لبطلان مقالتهم واستحالةِ تحقق مضمونها، أي قالوا: اتخذ الرحمٰنُ ولدًا أو أنْ دَعوا للرحمٰن ولدًا، والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذُ الولد ولا يُتطلب له لو طُلب مثلًا لاستحالته في نفسه، ووضعُ الرحمٰن موضع الضمير للإشعار بعلة الحُكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمةٌ أو مُنعَمٌ عليه، فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأُ النعمِ ومولى أصولِها وفروعِها حتى يتوهَّم أن يتخذه ولدًا؟ وقد صرح له قومٌ به عز قائلًا:

﴿إن كل من في السموات والأرض﴾ أي ما منهم أحدٌ من الملائكة والثقلين ﴿إلا

= ٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢١٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٦)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٤٥).

(١) في خ: شدة. (٢) تقدم.

آتى الرحمٰن عبدًا﴾ إلا وهو مملوكٌ له يأوي إليه بالعبودية والانقيادِ، وقرئ (آتِ الرحمٰنَ)[١] على الأصل **﴿لقد أحصاهم﴾** أي حصَرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحدٌ من حِيطة علمِه وقبضة قدرتِه وملكوتِه **﴿وعدهم عدًّا﴾** أي عد أشخاصَهم وأنفاسَهم وأفعالَهم وكلُّ شيء عنده بمقدار **﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا﴾** أي كلُّ واحدٍ منهم آتٍ إياه تعالى منفردًا من الأتباع والأنصار، وفي صيغة الفاعلِ من الدِلالة على إتيانهم كذلك ألبتةَ ما ليس في صيغة المضارعِ لو قيل: يأتيه، فإذا كان شأنُه تعالى وشأنُهم كما ذكر فأنى يُتوهم احتمالُ أن يتخذ شيئًا منهم ولدًا!!

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ لما فُصّلت قبائحُ أحوالِ الكفرة عُقّب ذلك بذكر محاسنِ أحوالِ المؤمنين **﴿سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا﴾** أي سيُحدث لهم في القلوب مودّةً من غير تعرضٍ منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعملِ الصالحِ، والتعرضُ لعنوان الرحمانيةِ لِما أن الموعودَ من آثارها. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا أحبّ الله عبدًا يقول لجبريلَ عليه السلام: إني أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فيُحِبّه جبريلُ ثم ينادي في أهل السماء: إن الله أحب فلانًا فأحِبُّوه، فيحبه أهلُ السماء ثم يوضع له المحبةُ في الأرض**»[٢]. والسينُ لأن السورةَ مكيةٌ وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الإسلامُ، أو لأن الموعودَ في القيامة حين تُعرض حسناتُهم على رءوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغِلّ الذي كان في الدنيا، ولعل إفرادَ هذا بالوعد من بين ما سيُؤْتَون يوم القيامة من الكرامات السنية لِما أن الكفرةَ سيقع بينهم يومئذ تباغضٌ وتضادٌّ وتقاطُعٌ وتلاعن **﴿فإنما يسرناه﴾** أي القرآنَ **﴿بلسانك﴾** بأن أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على، وقيل: ضُمّن التيسيرُ معنى الإنزالِ أي يسرنا القرآنَ منزِلين له بلغتك، والفاءُ لتعليل أمرٍ ينساق إليه النظمُ الكريم، كأنه قيل بعد إيحاءِ السورةِ الكريمة: بلِّغْ هذا المنزلَ أو بشر به وأنذر فإنما يسرناه بلسانك العربي المبين.

﴿لتبشر به المتقين﴾ أي الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهي **﴿وتنذر به قومًا لدًّا﴾** لا يؤمنون به لجَاجًا وعِنادًا، واللُّد جمعُ الألد وهو الشديدُ

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود، ويعقوب، وأبو حيوة، وابن الزبير، وطلحة، وأبو بحرية، وابن أبي عبلة. ينظر: مختصر البديع، ص (٨٦)، وتفسير الألوسي (١٦/ ١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٤٧) كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة عليهم السلام، برقم (٣٢٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠) كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، برقم (١٥٧/ ٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الخصومة اللَّجوجُ المعانِدُ وقوله تعالى: ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن**﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ في ضمن وعيدِ الكفرة بالإهلاك وحثٌّ له عليه الصلاة والسلام على الإنذار، أي قَرْنًا كثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى: ﴿**هل تحس منهم من أحد**﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، أي هل تشعُر بأحد منهم وترى ﴿**أو تسمع لهم ركزًا**﴾ أي صوتًا خفيفًا، وأصلُ الرِكْز هو الخفاءُ ومنه رَكَز الرمحَ إذا غَيَّب طرفه في الأرض، والرِّكازُ المالُ المدفونُ المخفيُّ، والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يُرى منهم أحدٌ ولا يسمع منهم صوتٌ خفيّ.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريمَ أُعطِي عشرَ حسناتٍ بعدد من كذّب زكريا وصدّق به ويحيى وعيسى وسائرَ الأنبياءِ المذكورين فيها، وبعدد مَنْ دعا الله تعالى في الدنيا ومن لم يدْع الله تعالى»[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

سورة طه

مكية إلا آيتي ١٣٠ و١٣١ فمدنيتان وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ
طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن
يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ
مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ
أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ
أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي
كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا
كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ
مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ
ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ
وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا
وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ
إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ
﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾
فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ
ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ
أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ
إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ
وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ
مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي
ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾
وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ
وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ

وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

﴿طه﴾ فخّمهما قالونُ وابنُ كثير وابنُ عامر وحفصٌ ويعقوبُ على الأصل، والطاءَ وحده[1] أبو عمْرو وورْشٌ لاستعلائه وأمالَهما[2] الباقون، وهو من الفواتح التي يُصدّر بها السورُ الكريمةُ وعليه جمهورُ المتْقنين. وقيل: معناه يا رجلُ وهو مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهدٍ وسعيدِ بنِ جُبير وقَتادةَ وعِكرِمةَ والكلبي، إلا أنه عند سعيدٍ على اللغة النبْطية وعند قتادة على السُّريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبي على لغة عكّ، وقيل: عُكْل وهي لغة يمانيةٌ، قالوا: إن صح فلعل أصلَه

(١) وفخمها: الأزرق، والأصبهاني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣٩)، والتيسير للداني ص (١٥٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦٨)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٠).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، وشعبة، والأعمش، وعبدالله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣٩)، والتيسير للداني ص (١٥٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١).

يا هذا فتصرّفوا فيه بقلب الياء طاءً وحذفِ ذا من هذا، وما استُشهد به من قول الشاعر: [البسيط]

إن السَّفاهَةَ طٰهٰ في خلائِقِكُمْ لا قدّس الله أخلاقَ الملاعينِ[١]

ليس بنص في ذلك لجواز كونِه قسمًا كما في حم لا يُنْصرون، وقد جوز أن يكون الأصلُ طَأْها بصيغة الأمر من الوطء فقُلبت الهمزةُ في يطأُ ألفًا لانفتاح ما قبلها كما في قول مَنْ قال: [الكامل]

.... لا هَناك المرتُع[٢]

وها ضميرُ الأرض على أنه خطابٌ لرسول الله ﷺ بأن يطأ الأرضَ بقدميه لمّا كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه مبالغةً في المجاهدة، ولكن يأباه كتابتُهما على صورة الحرف، كما تأبى التفسيرَ بـ (يا) رجلُ فإن الكتابةَ على صورة الحرف مع كون التلفظِ بخلافه من خصائص حروفِ المُعجم، وقرئ (طَهْ)[٣] إما على أن أصلَه طَأْ فقلبت همزتُه هاءً كما في أمثال هَرَقتَ أو قلبت الهمزة في يطأُ ألفًا كما مر، ثم بُني منه الأمر وألحق به هاءُ السكت وإما على أنه اكتُفي في التلفظ بشطْري الاسمين وأُقيما مُقامَهما في الدِلالة على المسمَّيين فكأنهما اسماهما الدالان عليها.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل قولُ من قال: أو اكتفىٰ بشطري الكلمتين وعبّر عنهما باسمهما وإلا فالشطران لم يذكرا من حيث إنهما مسمَّيان لاسمَيهما لا يقعان معبَّرًا عنهما، بل من حيث إنهما جزءان لهما قد[٤] اكتُفِيَ بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع

---

(١) البيت ليزيد بن المهلهل في تفسير الطبري (١٦/ ١٠٣)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١٠/ ٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٢٤).

(٢) جزء من عجز بيت وتمامه:
راحت بمسلمة البغال عشية: فارعي فزارة.....
والبيت للفرزدق في ديوانه (١/ ٤٠٨)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٩٤)، وشرح شواهد الشافية ص٣٣٥، وشرح المفصل (٩/ ١١١)، والكتاب (٣/ ٥٥٤)، وكتاب العين (٢/ ٦٨)، والمقتضب (١/ ١٦٧)، ولعبد الرحمن بن حسان في ديوانه ص ٣١، وبلا نسبة في الخصائص (٣/ ١٥٢)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ١٧٩)، والممتع في التصريف ص (٤٠٥).

(٣) قرأ بها: الحسن، وعكرمة، وأبو حنيفة، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٥) والبحر المحيط (٦/ ٢٢٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٣٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦٧)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢).

(٤) في خ: وقد.

التلفظُ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية في الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآنِ للاسمين، ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقامَ الاسمين وإنما الجملة على معنى أنه اكتُفي في الكتابة بشطري الكلمتين [أي الاسمين فعبّر عنهما أي عن الشطرين من حيث هما مسمَّيان بهما من حيث هما قائمان مقامَ الاسمين، وأما حملُه على معنى أنه اكتُفي في الكتابة بشطري الكلمتين][١] يعني طا على تقديري كونِه أمرًا وكونِه حرفَ نداء، وها على تقديري كونِها كنايةً عن الأرض وكونِها حرفَ تنبيهٍ وعُدل عن ذينك الشطرين في التلفظ باسمهما فبيّن البُطلانُ كيف و(طا) و(ها) على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين، بل الأولُ أمرٌ أو حرفُ نداء والثاني ضميرُ الأرض أو حرفُ تنبيهٍ، على أن كتابةَ صورةِ الحرف والتلفظَ بغيره من خواصّ حروفِ المعجم كما مر، فالحق ما سلف من أنها من الفواتح إما مسرودةٌ على نمط التعديدِ بأحد الوجهين المذكورين في مطلع سورة البقرة فلا محلَّ لها من الإعراب.

وكذا ما بعدها من قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فإنه استئنافٌ مَسوقٌ لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، فإن الشقاءَ شائعٌ في ذلك المعنى ومنه (أشقى من رائض مُهْرٍ)[٢] أي ما أنزلناه عليك لتتعبَ بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العُتاةِ ومحاورة الطغاةِ وفرْطِ التأسّف على كفرهم به والتحسرّ على أن يؤمنوا كقوله عز وجل: ﴿فلعلك باخعٌ نفسَك على آثارهم﴾ [الكهف: ٦]، بل للتبليغ والتذكير وقد فعلتَ فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك، أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة في المجاهدة [في العبادة][٣]، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه، فقال له جبريلُ عليه السلام: أَبْقِ على نفسك فإن لها عليك حقًا[٤]، أي ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسِك وحملِها على الرياضات الشاقةِ والشدائدِ الفادحة وما بُعثت إلا بالحنيفية السمحة، وقيل: إن أبا جهل والنضْرَ بنَ الحارث قالا لرسول الله ﷺ: إنك شقيٌّ حيث تركت دينَ آبائك وإن القرآنَ نزل عليك لتشقى به، فرُدّ ذلك بأنا ما

---

(١) سقط في خ.

(٢) أي أتعب منه ولم يزل في شقاء من امرأته في تعب.
ذكر هذا المثل الزمخشري في الكشاف (٣/ ٥٢)، وأساس البلاغة (١/ ٣٣٥)، وفيض القدير (٢/ ١١٨).

(٣) سقط في خ.

(٤) لم أقف عليه.

أنزلناه عليك لِما قالوا، والأولُ هو الأنسبُ كما يشهد به الاستثناء الآتي.

هذا، وإما اسمٌ للقرآن محلُّه الرفعُ على أنه مبتدأٌ وما بعده خبرُه، والقرآنُ ظاهرٌ أوقع موقعَ العائد إلى المبتدأ كأنه قيل: القرآنُ ما أنزلناه عليك لتشقى، أو النصبُ على إضمار فعلِ القسم أو الجرُّ بتقدير حرفِه وما بعده جوابُه، وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسمًا للسورة أيضًا بخلاف الوجهِ الأول فإنه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مَقامَه، فإن القرآنَ صادقٌ على الصورة لا محالة إما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدْرُ المشترَكُ بين الكل والبعض، أو باعتبار الاندراجِ إن أريد به الكلُّ، [بل][1] لأن نفيَ كونِ إنزالِه للشقاء يستدعي سبقَ وقوعِ الشقاء مترتبًا على إنزاله قطعًا إما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعْم الكفرةِ كما لو أريد به ضدُّ السعادة.

ولا ريب في أن ذلك إنما يُتصور في إنزال ما أُنزل من قبل، وأما إنزالُ السورةِ الكريمة فليس مما يمكن ترتيب الشقاءِ السابق عليه حتى يُتصدّى لنفيه عنه. أما باعتبار الاتحادِ فظاهرٌ وأما باعتبار الاندارجِ فلأن مآلَه أن يقال: هذه السورةُ ما أنزلنا القرآنَ المشتمِلَ عليها لتشقى، ولا يخفى أنَ جعْلَها مُخبَرًا عنها مع أنه لا دخلَ لإنزالها[2] في الشقاء السابق أصلًا مما لا يليق بشأن التنزيلِ الجليل وقوله تعالى: ﴿إلا تذكرة﴾ نُصب على أنه مفعولٌ له لـ (أنزلنا) لكن [لا][3] من حيث إنه معللٌ بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآنَ لتتعب بتبليغه إلا تذكرةً. . الآية، كقولك: ما ضربتُك للتأديب إلا إشفاقًا، لما [أنه][4] يجب في أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسةٌ بالسببية والمسبَّبية حتمًا كما في المثال المذكور، وفي قولك: ما شافهتُك بالسوء لتتأذّى إلا زجرًا لغيرك فإن التأديبَ في الأول مسبَّبٌ عن الإشفاق والتأذّي في الثاني سببٌ لزجر الغير.

وقد عرفت ما بين الشقاءِ والتذكرةِ من التنافي ولا يُجدي أن يراد به التعبُ في الجملة المجامِعُ للتذكرة لظهور أن الملابسةَ بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكانَ إلا تذكرةً: إلا تكثيرًا لثوابك فإن الأجر بقدر التعب، ولا من حيث إنه بدلٌ من محل لتشقى كما في قوله تعالى: ﴿ما فعلوه إلا قليلٌ﴾ [النساء: ٦٦] لوجوب المجانسةِ بين البدلين وقد عرفتَ حالَهما، بل من حيث إنه

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: لإنزاله.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ

معطوفٌ عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراكِ المستفادِ من الاستثناء المنقطعِ، كأنه قيل: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتتعب في تبليغه ولكن تذكرةً ﴿**لمن يخشى**﴾ وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلًا لفاعل الفعل المعلّل، أي لمن شأنُه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثرَ بالإنذار لرقة قلبه ولينِ عَريكتِه أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف، وتخصيصُها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها.

وقوله تعالى: ﴿**تنزيلًا**﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لمضمر مستأنفٌ مقرّر لما قبله، أي نُزّل تنزيلًا أو لما تفيده الجملةُ الاستثنائيةُ فإنها متضمِّنةٌ لأن يقال: أنزلناه للتذكرة والأولُ هو الأنسبُ بما بعده من الالتفات أو منصوبٌ على المدح والاختصاص، وقيل: هو منصوبٌ بـ (يخشى) على المفعولية أي يخشى تنزيلًا من الله تعالى.

وأنت خبير بأن تعليقَ الخشيةِ والخوفِ ونظائرِهما بمطلق التنزيلِ غيرُ معهودٍ، نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائرِه كما في قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزَّلَ عليهم سورةٌ تنبِّئهم بما في قلوبهم﴾ [التوبة: ٦٤]، وقيل: هو بدلٌ من تذكرةً لكن لا على أنه مفعولٌ له لـ (أنزلنا) إذ لا يعلل الشيءُ بنفسه ولا بنوعه، بل على أنه مصدرٌ بمعنى الفاعل واقعٌ موقعَ الحال من الكاف في عليك أو من القرآن، ولا مساغَ له إلا بأن يكون قيدًا لـ (أنزلنا) بعد تقيّده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف، وقرئ[1] تنزيلٌ على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومِنْ في قوله تعالى: ﴿**ممن خلق الأرض والسموات العلى**﴾ متعلقةٌ بـ (تنزيلًا) أو بمضمر هو صفةٌ له مؤكدةٌ لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، ونسبةُ التنزيلِ إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامتِه تعالى بحسب الصفات والأفعال إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق الإبهامِ، ثم التفسيرِ لزيادة تحقيق وتقريرٍ، وتخصيصُ خلقِهما بالذكر مع أن المراد خلقُهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ [طٰه، الآية ٦]، لأصالتهما واستتباعِهما لما عداهما، وتقديمُ الأرض لكونه أقربَ إلى الحس وأظهرَ عنده، ووصفُ السمواتِ بالعُلا، وهو جمعُ العليا تأنيثُ الأعلى، لتأكيد الفخامةِ مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وكل ذلك إلى قوله تعالى: ﴿له الأسماءُ الحسنى﴾ [طٰه، الآية

---

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٢٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٩).

٨] مَسوقٌ لتعظيم شأنِ المنزِّل عز وجل المستتبعِ لتعظيم شأنِ المنزَّل الداعي إلى تربية المهابةِ، وإدخالِ الروعةِ المؤديةِ إلى استنزال المتمرّدين عن رتبة العتوِّ والطُّغيان واستمالِتهم نحو الخشية المُفْضِية إلى التذكرة والإيمان.

﴿**الرحمٰن**﴾ رُفع على المدح أي هو الرحمٰنُ وقد عرفت في صدر سورةِ البقرة أن المرفوعَ مدحًا في حكم الصفةِ الجاريةِ على ما قبله وإن لم يكن تابعًا له في الإعراب، ولذلك التزموا حذفَ المبتدأ ليكون في صورة متعلّق من متعلقاته وقد قرئ[١] بالجر على أنه صفةٌ صريحةٌ للموصول، وما قيل من أن الأسماءَ الناقصةَ لا يوصف منها إلا الذي وحده مذهب الكوفيين، وأيا ما كان فوصفُه بالرحمانية إثرَ وصفِه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقَهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى: ﴿ربِّ السمواتِ والأرض وما بينهما الرحمٰنِ﴾ [النبأ: ٣٧] للإيذان بأن ربوبيتَه تعالى بطريق الرحمةِ، وفيه إشارةٌ إلى أن تنزيلَ القرآنِ أيضًا من أحكام رحمتِه تعالى كما ينبّئ عنه قوله تعالى: ﴿الرحمٰنُ علّم القرآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢].

أو رفع على الابتداء واللامُ للعهد والإشارةِ إلى الموصول، والخبرُ قوله تعالى: ﴿**على العرش استوى**﴾ وجعلُ الرحمة عنوانَ الموضوع الذي شأنُه أن يكون معلومَ الثُبوت للموضوع عند المخاطَب للإيذان بأن ذلك أمرٌ بيّن لا سُتْرَةَ به غنيٌّ عن الإخبار به صريحًا، وعلى متعلقةٌ باستوى قدِّمت عليه لمراعاة الفواصِل، والجارُّ والمجرور على الأول خبرُ مبتدأ محذوفٍ كما في قراءة الجرِّ وقد جُوِّز أن يكون خبرًا بعد خبر، والاستواءُ على العرش مجازٌ[٢] عن المُلك والسلطان ومتفرِّعٌ على الكناية فيمن يجوّز عليه القعودَ على السرير، يقال: استوى فلانٌ على سرير الملك يراد به مَلَك وإن لم يقعُدْ على السرير أصلًا، والمرادُ بيانُ تعلقِ إرادتِه الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبيرِ أمرها وقوله تعالى: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلولِ فيهما ﴿**وما بينهما**﴾ من الموجودات الكائنة في الجو دائمًا كالهواء والسحاب أو أكثريا[٣] كالطير، أي له وحده دون غيرِه لا شِرْكةً ولا استقلالًا كلُّ ما

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٢٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٩)، والمعاني للأخفش (٢/ ٤٠٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٥).
(٢) تقدم بيان مذهب أهل السنة والجماعة في هذا من قبل.
(٣) في خ: الثريا.

ذكر مُلكًا وتصرفًا وإحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا ﴿وما تحت الثرى﴾ أي ما وراءَ التراب، وذكرُه مع دخوله تحت ما في الأرض لزيادة التقريرِ، روي عن محمد بن كعب أنه قال: ما تحت الأرضينَ السبعِ، وعن السدّي أن الثرى هو الصخرةُ التي عليها الأرضُ السابعة.

﴿وإن تجهر بالقول﴾ بيانٌ لإحاطة علمِه تعالى بجميع الأشياء إثرَ بيانِ سعةِ سلطنتِه وشمولِ قدرتِه لجميع الكائنات، أي وإن تجهَرْ بذكره تعالى ودعائِه فاعلم أنه تعالى غنيٌّ عن جهرك ﴿فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي ما أسرَرْته إلى غيرك وشيئًا أخفى من ذلك وهو ما أخطَرْته ببالك من غير أن تتفوّه به أصلًا، أو ما أسرَرْتَه لنفسك وأخفىٰ منه وهو ما ستُسِرُّه فيما سيأتي، وتنكيرُه للمبالغة في الخفاء، وهذا إما نهيٌ عن الجهر كقوله تعالى: ﴿واذكُرْ ربَّك في نفسك تضرّعًا وخِيفة ودون الجهْرِ من القول﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وإما ارشادٌ للعباد إلى أن الجهرَ ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخرَ من تصوير النفسِ بالذكر، وتثبيتِه فيها، ومنْعِها[١] من الاشتغال بغيره، وقطعِ الوسوسةِ عنها، وهضمِها بالتضرّع والجُؤار.

وقوله تعالى: ﴿الله﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان [أن][٢] ما ذُكر من صفات الكمالِ موصوفُها ذلك المعبودُ بالحق، أي ذلك المنعوتُ بما ذكر من النعوت الجليلةِ الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿لا إلٰه إلا هو﴾ تحقيقٌ للحق وتصريحٌ بما تضمّنه ما قبله من اختصاص الألوهيةِ به سبحانه، فإن ما أُسند إليه تعالى من خلق جميعِ الموجوداتِ والرحمانيةِ والمالكيةِ للكل والعلمِ الشاملِ مما يقتضيه اقتضاءً بينًا، وقوله تعالى: ﴿له الأسماء الحسنى﴾ بيانٌ لكون ما ذكرَ من الخالقية والرحمانيةِ والمالكيةِ والعالَمية أسماءَه وصفاتِه من غير تعددٍ في ذاته تعالى، فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبيَّ عليه الصلاة والسلام يقول: «يا الله يا رحمٰنُ» قالوا: ينهانا أن نعبُدَ إلٰهينِ وهو يدعو إلٰهًا آخرَ[٣]. والحُسنى تأنيثُ الأحسن يوصف به الواحدةُ المؤنثةُ والجمعُ من

---

(١) في خ: منعه.
(٢) سقط في خ.
(٣) تقدم تخريجه.

المذكر والمؤنث كـ (مآربُ أخرى)، وآياتِنا الكبرى.

موسى والشجرة

﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير أمر التوحيدِ الذي إليه انتهى مَساقُ الحديث وبيانِ أنه أمرٌ مستمرّ فيما بين الأنبياء كابرًا عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له: ﴿إنني أنا الله لا إلٰه إلا أنا﴾ [طه: ١٤] وبه ختَم عليه الصلاة والسلام مقالَه حيث قال: ﴿إنما إلٰهُكم الله الذي لا إلٰه إلا هو﴾ [طه: ٩٨] وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبيِّ عليه الصلاة والسلام في الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباءِ النبوة والصبرِ على مقاساة الخطوبِ في تبليغ أحكامِ الرسالة، فيأباه أن مساقَ النظمِ الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاقِّ.

وقوله تعالى: ﴿إذ رأى نارًا﴾ ظرفٌ للحديث، وقيل: لمضمر مؤخّر أي حين رأى نارًا كان كيتَ وكيت، وقيل: مفعولٌ لمضمر مقدّم أي اذكرْ وقتَ رؤيته نارًا.

روي أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبًا عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمّه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام، فلما وافىٰ واديَ طُوًى وهو الجانبُ الغربيُّ من الطور وُلد له وَلَدٌ في ليلة مظلمةٍ شاتية مُثلجة وكانت ليلةَ الجمعة وقد ضل الطريقَ وتفرّقت ماشيتُه ولا ماءَ عنده، وقَدَح فصَلَد زندُه، فبينما هو في ذلك إذ رأى نارًا على يسار الطريق من جانب الطور ﴿فقال لأهله امكثوا﴾ أي أقيموا مكانَكم، أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتْبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب إلى النار كما هو المعتادُ، لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخرَ فإنه مما لا يخطُر بالبال، والخطابُ للمرأة والولدِ والخادمِ، وقيل: لها وحدها والجمعُ إما لظاهر لفظ الأهلِ أو للتفخيم كما في قول مَنْ قال: [الطويل]

وإن شئتِ حرمتُ النساءَ سواكمُ ....[1]

﴿إني آنست نارًا﴾ أي أبصرتُها إبصارًا بيّنًا لا شُبهةَ فيه، وقيل: الإيناسُ خاصٌّ

---

(١) تقدم.

بإبصار ما يؤنَس به والجملةُ تعليلٌ للأمر أو المأمورِ به ﴿لعلي آتيكم منها﴾ أي أجيئكم من النار ﴿بقبس﴾ أي بشُعلة مقتبَسةٍ من معظم النارِ وهي المُرادةُ بالجذوة في سورة القَصص وبالشهاب القبسُ ﴿أو أجد على النار هدى﴾ هاديًا يدلني على الطريق على أنه مصدرٌ سمّي به الفاعلُ مبالغةً، أو حُذف منه المضافُ أي ذا هدايةٍ، أو على أنه إذا وُجد الهادي فقد وجد الهُدى، وقيل: هاديًا يهديني إلى أبواب الدين فإن أفكارَ الأبرارِ معمورةٌ بالهمّة الدينية في عامة أحوالِهم لا يشغَلهم عنها شاغلٌ، والأولُ هو الأظهرُ لأن مساقَ النظمِ الكريم لتسلية أهلِه، وقد نُصّ عليه في سورة القَصص حيث قيل: ﴿لعلي آتيكم منها بخبر أو جَذْوة﴾ [القصص: ٢٩]، وكلمةُ أو في الموضعين لمنع الخلوِّ دون منْعِ الجمعِ، ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿على النار﴾ أن أهلَ النارِ يستعلون المكانَ القريب منها أو لأنهم عند الاصطلاءِ يكتنفونها قِياماٍ وقعودًا فيُشرفون عليها.

ولما كان الإتيانُ بهما مترقَّبًا غيرَ محقَّقِ الوقوعِ صُدّر الجملة بكلمة الترجي، وهي إما علةٌ لفعل قد حذف ثقةً بما يدل عليه من الأمر بالمُكث والإخبار بإيناس النارِ وتفاديًا عن التصريح بما يوحشهم، وإما حالٌ من فاعله أي فأذهب إليها لآتيَكم أو كي آتيَكم أو راجيًا أن آتيَكم منها بقبس. . الآية، وقد مر تحقيق ذلك مفصلًا في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الناسُ اعبُدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٢١].

﴿فلما أتاها﴾ أي النارَ التي آنسها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: رأى شجرةً خضراءَ أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نارٌ بيضاءُ تتقدُ كأضْوإ ما يكون، فوقف متعجبًا من شدة ضوئها وشدةِ خُضرة الشجرة فلا النارُ تُغيّر خضرتها ولا كَثرةُ ماء الشجرة تُغيّر ضوءَها. قالوا: النارُ أربعةُ أصنافٍ: صنفٌ يأكل ولا يشرب وهي نارُ الدنيا، وصنفٌ يشرب ولا يأكل وهي نارُ الشجرِ الأخضر، وصنفٌ يأكل ويشرب وهي نار جهنم، وصنفٌ لا يأكل ولا يشرب وهي نارُ موسى عليه الصلاة والسلام، وقالوا: هي أربعةُ أنواعٍ: نوعٌ له نورٌ وإحراقٌ وهي نارُ الدنيا، ونوع لا نورَ له ولا إحراقَ وهي نارُ الأشجار، ونوعٌ له نورٌ بلا إحراقٍ وهي نارُ موسى عليه الصلاة والسلام، ونوعٌ له إحراقٌ بلا نور وهي نارُ جهنم. روي أن الشجرة كانت عَوْسَجةً، وقيل: كانت سَمُرة ﴿نودي يا موسى﴾ أي نودي فقيل: يا موسى ﴿إني أنا ربك﴾ أو عومل النداءُ معاملة

القول لكونه ضربًا منه، وقرئ[(١)] بالفتح أي بأني، وتكريرُ الضمير لتأكيد الدليلِ وتحقيقِ المعرفة وإماطةِ الشبهة. روي أنه لما نودي يا موسى، قال عليه الصلاة والسلام: من المتكلم؟ فقال الله عز وجل: «**أنا ربك**» فوسوس إليه إبليسُ: [لعلك][(٢)] تسمع كلامَ شيطان، فقال: أنا عرفتُ أنه كلامُ الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهاتِ بجميع الأعضاء. قلت: وذلك لأن سماعَ ما ليس من شأنه ذلك من الأعضاء ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس.

وقيل: تلقّى عليه الصلاة والسلام كلامَ رب العزة تلقيًا روحانيًا ثم تمثل ذلك الكلامُ لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة.

﴿**فاخلع نعليك**﴾ أُمر عليه الصلاة والسلام بذلك لأن الحفْوةَ أدخلُ في التواضع وحسنِ الأدب، ولذلك كان السلفُ الصالحون يطوفون بالكعبة حافين، وقيل: ليباشر الواديَ بقدميه تبركًا به، وقيل: لما أن نعليه كانتا من جلد حمارٍ غيرِ مدبوغ، وقيل: معناه فرِّغْ قلبَك من الأهل والمال، والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الأمر وداوعيه وقوله تعالى: ﴿**إنك بالواد المقدس**﴾ تعليلٌ لوجوب الخَلْع المأمور به وبيانٌ لسبب ورودِ الأمر بذلك من شرف البُقعة وقُدْسِها، روي أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي ﴿**طوى**﴾ بضم الطاء غيرُ منوّن[(٣)]، وقرئ منونًا، وقرئ[(٤)] بالكسر منونًا وغيرَ[(٥)]

---

(١) قرأ بها:ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٢)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٤٤)، والتيسير للداني ص (١٥٠)، والغيث للصفاقسي (٢٨٧، ٢٩٢).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٥)، والتيسير للداني ص (١٥٠)، والمعاني للفراء (٢/ ١٧٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٣).

(٤) قرأ بها: الحسن، والأعمش، وأبو حيوة، وابن أبي إسحاق، وأبو السمال، وابن محيصن، وعكرمة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٢)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣١)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٧٥)، والمعاني للفراء (٢/ ١٧٥)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨).

(٥) قرأ بها:أبو عمرو، وأبو زيد.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٥)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣١)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٤٤)، والمعاني للفراء (٢/ ١٧٥)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨).

منّون، فمَنْ نوّنه أوّله بالمكان دون البقعة، وقيل: هو كمثني من الطي مصدرٌ لنوديَ أو المقدس أي نودي نداءين أو قُدّس مرة بعد أخرى ﴿وأنا اخترتك﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة، وقرئ[1] وأنّا اخترناك بالفتح والكسر[2]، والفاء في قوله: ﴿فاستمع﴾ لترتيب الأمرِ أو المأمورِ به على ما قبلها، فإن اختيارَه عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمرِ به، واللام في قوله تعالى: ﴿لما يوحى﴾ متعلقةٌ بـ(فاستمعْ) وما موصولةٌ أو مصدريةٌ، أي فاستمع للذي يوحى إليك أو للوحْيَ لا بـ(اخترتك) كما قيل، لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازُعِ وإعمالِ الأول فلا بد حينئذ من إعادة الضميرِ مع الثاني بل لأن قوله تعالى: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ بدلٌ من (لما يوحى) ولا ريب في أن اختيارَه عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحي فقط.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فاعبدني﴾ لترتيب المأمورِ به على ما قبلها فإن اختصاصَ الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيصِ العبادةِ به عز وجل.

﴿وأقم الصلاة﴾ خُصت الصلاةُ بالذكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفضلها وإنافتِها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبودِ وشُغل القلبِ واللسانِ بذكره، وذلك قوله تعالى: ﴿لذكري﴾ أي لتذكُرني فإن ذِكْري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادةِ والصلاة، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار، أو لذكري خاصةً لا تشوبُه بذكر غيري، أو لإخلاص ذكري وابتغاءِ وجهي لا تُرائي بها ولا تقصِدُ بها غرضًا آخرَ، أو لتكون ذاكرًا لي غيرَ ناس، وقيل: لذكري إياها وأمْري بها في الكتب، أو لأنْ أذكُرَك بالمدح والثناء، وقيل: لأوقات ذكري وهي مواقيتُ الصلاة، أو لذِكْر صلاتي لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من

---

(١) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٠٢، ٣٠٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٥)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣١)، والسبعة لابن مجاهد (٧/ ٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٧).

(٢) قرأ بها: السلمي، وابن هرمز، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٣١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٠).

نام عن صلاة أو نسِيَها فليصلِّها إذا ذكرها»[١] **لأن الله تعالى يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾**. وقرئ (لِذِكْرىٰ)[٢] بألف التأنيثِ و(للذكرى)[٣] معرفًا و(للذكْر)[٤] بالتعريف والتذكير.

وقوله تعالى: ﴿إن الساعة آتية﴾ تعليلٌ لوجوب العبادة وإقامةِ الصلاة أي كائنةٌ لا محالة، وإنما عُبّر عن ذلك بالإتيان تحقيقًا لحصولها بإبرازها في معرِض أمرٍ محققٍ متوجِّهٍ نحو المخاطبين ﴿أكاد أخفيها﴾ أي لا أظهرها، بأن أقول: إنها آتيةٌ، ولولا أن ما في الإخبار بذلك من اللطف وقطعِ الأعذار لما فعلتُ، أو أكاد أظهرُها بإيقاعها من أخفاه إذا أظهره بسلب خفائِه، ويؤيده القراءةُ[٥] بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره، وقيل: أخفاه من الأضداد يجيء بمعنى الإظهار والسَّترِ.

وقوله تعالى: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ متعلقٌ بـ (آتيةٌ)، وما بينهما اعتراضٌ أو بـ (أخفيها) على المعنى الأخير، وما مصدرية أي لتُجزى كلُّ نفس بسعيها في تحصيل ما ذُكر من الأمور المأمور بها، وتخصيصُه في معرِض الغاية لإتيانها مع أنه لجزاء كلِّ نفس بما صدر عنها سواءٌ كان سعيًا فيما ذكر، أو تقاعدًا عنه بالمرة، أو سعيًا في تحصيل ما يُضادّه للإيذان بأن المرادَ بالذات من إتيانها هو الإثابةُ بالعبادة، وأما العقابُ بتركها فمن مُقتَضَيات سوءِ اختيارِ العصاة وبأن[٦] المأمورَ به في قوة الوجوبِ والساعةَ في شدة الهول والفظاعة بحيث يوجِبان على كل نفسٍ أن تسعى في

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٦٨) كتاب مواقيت الصلاة، باب: من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، برقم (٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة، برقم (٦٨٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها: السلمي، والشعبي، وأبو رجاء.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٤)، والبحر المحيط (٢/ ٢٣٢).

(٣) قرأ بها: السلمي، والنخعي، وأبو رجاء.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٢).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٣٢).

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وعاصم، وأبو الدرداء، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وحميد، وقتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٥)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٤٧)، والمعاني للفراء (٢/ ١٧٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٢).

(٦) في خ: وما في.

الامتثال بالأمر وتجِدَّ في تحصيل ما ينجّيها من الطاعات، و[حينئذ][١] تحترز عن اقتراف ما يُرديها من المعاصي، وعليه مدارُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرضَ في ستة أيامٍ وكان عرشُه على الماء ليبلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملًا﴾ [هود: ٧] فإن الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيح [أيضًا][٢] لا إلى الحسن والأحسَن فقط قد عُلّق بالأخيرين، لما ذكر من أن المقصودَ الأصليَّ من إبداع تلك البدائعِ على ذلك النمط الرائعِ إنما هو ظهورُ كمالِ إحسانِ المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقةِ وأكملِ الأنحاءِ اللائقةِ يوجب العملَ بموجبه بحيث لا يحيد أحدٌ عن سَننه المستبين، بل يهتدي كلُّ فرد إلى ما يرشد إليه من مطلق الإيمان والطاعة، وإنما التفاوتُ بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعفِ، وأما الإعراض عن ذلك والوقوعُ في مهاوي الضلال فبمعزل من الوقوع فضلًا عن أن ينتظم في سلك الغايةِ لذلك الصنعِ البديع، وإنما هو عملٌ يصدُر عن عامله بسوء اختيارِه من غير مصحِّحٍ له[٣] أو مسوِّغ. هذا ويجوز أن يُراد بالسعي مطلقُ العمل.

﴿**فلا يصدنك عنها**﴾ أي عن ذكر الساعةِ ومراقبتِها، وقيل: عن تصديقها والأولُ هو الأليقُ بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وإن كان النهيُ بطريق التهييجِ والإلهاب، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على قوله تعالى: ﴿**من لا يؤمن بها**﴾ لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدّم والتشويقِ إلى المؤخّر فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفةً له فيتمكن عند ورودِه لها فضلُ تمكّنٍ، ولأن في المؤخر نوعَ طولٍ ربما يُخِلُّ تقديمُه بجزالة النظمِ الكريم، وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للكافرين عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه في الحقيقة نهيٌ له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، فإن النهيَ عن أسباب الشيءِ ومباديه المؤديةِ إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني وإبطالٌ للسببية من أصلها كما في قوله تعالى: ﴿ولا يجرِمنّكم﴾ [المائدة: ٢ و٨] . . . إلخ، فإن صدَّ الكافر حيث كان سببًا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهيُ عنه نهيًا بأصله وموجِبه وإبطالًا له بالكلية، ويجوز أن

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: و.

=

يكون من باب النهي عن المسبَّب وإرادةِ النهي عن السبب على أن يراد نهيُه عليه الصلاة والسلام عن إظهار لينِ الجانبِ للكفرة، فإن ذلك سببٌ لصدّهم إياه عليه الصلاة والسلام كما في قوله: لا أُرَينّك هاهنا، فإن المراد به نهيُ المخاطب عن الحضور لديه الموجبِ لرؤيته.

﴿**واتبع هواه**﴾ أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية ﴿**فتردى**﴾ أي فتهلِكَ فإن الإغفالَ عنها وعن تحصيل ما ينجّي عن أهوالها مستتبعٌ للهلاك لا محالة، وهو في محل النصبِ على جواب النهي أو في محلّ الرفعِ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي فأنت ترْدىٰ.

﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾ شروعٌ في حكاية ما كُلف به عليه الصلاة والسلام من الأمور المتعلقةِ بالخلق إثرَ حكايةِ ما أُمر به من الشئون الخاصة بنفسه، فـ (ما) استفهاميةٌ في حيز الرفعِ بالابتداء وتلك خبرُه أو بالعكس وهو أدخلُ بحسب المعنى وأوفقُ بالجواب، وبيمينك متعلقٌ بمضمر وقع حالًا أي وما تلك قارّةً أو مأخوذةً بيمينك، والعاملُ معنى الإشارة كما في قوله عز وعلا: ﴿وهذا بعلي شيخًا﴾ [هود: ٧٢] وقيل: تلك موصولةٌ أي ما التي هي بيمينك وأيا ما كان فالاستفهامُ إيقاظٌ وتنبيهٌ له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب، وتكريرُ النداء لزيادة التأنيسِ والتنبيه ﴿**قال هي عصاي**﴾ نسبها إلى نفسه تحقيقًا لوجه كونِها بيمينه وتمهيدًا لما يعقُبه من الأفاعيل المنسوبةِ إليه عليه الصلاة والسلام، وقرئ (عَصَيَّ)[١] على لغة هذيل ﴿**أتوكأ عليها**﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياءِ أو الوقوفِ على رأس القطيع ﴿**وأهش بها**﴾ أي أخبِط بها الورقَ وأُسقطه ﴿**على غنمي**﴾ وقرئ (أهِشّ)[٢] بكسر الهاء وكلاهما من هشّ الخبزُ يهش إذا انكسر لهشاشته، وقرئ[٣] بالسين غيرِ المعجمة

---

(١) قرأ بها: الجحدري، وابن أبي إسحاق.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٨٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٣)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٦).

(٢) قرأ بها: النخعي، وأبو البرهسم.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٨٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٠).

(٣) قرأ بها: عكرمة، والحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٣٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٨٧)، =

وهو زجرُ الغنم وتعديتُه بـ (على) لتضمين معنى الإنحاءِ والإقبال، أي أزجُرها مُنْحِيًا ومُقبلًا عليها.

﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي حاجاتٌ أخرى من هذا الباب مثلُ ما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلّق بها أدواته من القوس والكِنانة والحِلاب ونحوِها، وإذا كان في البرية ركَزها وعرض الزنذين على شعبتيها وألقى عليها الكِساء واستظل به، وإذا قصُر الرِّشاءُ وصله بها، وإذا تعرضت لغنمه السباعُ قاتل بها، قيل: ومن جملة المآرِبِ أنها كانت ذاتَ شعبتين ومِحْجَن فإذا طال الغصنُ حناه بالمحجن[1] وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين، وكأنه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصودَ من السؤال بيانُ حقيقتها وتفصيلُ منافعِها بطريق الاستقصاءِ حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقةِ وبدت منها خواصُّ بديعةٌ علم أنها آياتٌ باهرة ومعجزاتٌ قاهرة أحدثها الله تعالى، وليست من الخواصّ المترتبةِ عليها، فذكر حقيقتَها ومنافعَها على التفصيل والإجمال على معنى أنها من جنس العِصِيّ مستتبِعةٌ لمنافعِ بناتِ جنسِها ليطابقَ جوابُه الغرضَ الذي فهمه من سؤال العليم الخبير.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه الذهنُ، كأنه قيل: فماذا قال عز وجل؟ فقيل: قال: ﴿ألقها يا موسى﴾ لترى من شأنها ما لم يخطُر على بالك من الأمور، وتكرارُ النداءِ لتأكيد التنبيه ﴿فألقاها﴾ على الأرض ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ رُوي أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حيةً صفراءَ في غِلَظ العصا ثم انتفخت وعظُمت، فلذلك شُبّهت بالجانّ تارةً وسميت ثُعبانًا أخرى[2] وعبّر عنها

= والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٧).

(١) في خ: بالمحجز.

(٢) يحاول الشيخ أبو السعود التوفيق بين آي الذكر الحكيم، وقد وقع ذلك في خمسة مواضع من الذكر الحكيم ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ [الأعراف: ١٠٧] ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ [طه: ٢٠] ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ [الشعراء: ٣٢] ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ [النمل: ١٠] ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ [القصص: ٣١]، وكثير من العلماء قد عد آيتي النمل والقصص تشبيهًا، ولم يعد الآيات الأخرى من التشبيه والأولى أن تعد هذه الآيات من التشبيهات وذلك لما يلي:

١- ما ذهب إليه كثير من أهل العلم.

٢- أن الله ذكر انقلابها بالتشبيه الصريح في آيتين فتقاس بقية المواضع عليها.

=

هاهنا بالاسم العامّ للحالين.

وقيل: قد انقلبت من أول الأمر ثعبانًا وهو الأليقُ بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل: ﴿فإذا هي ثعبانٌ مبين﴾ [الأعراف: ١٠٧. والشعراء: ٣٢] وإنما شبهت بالجان في الجلادة وسُرعة الحركةِ لا في صِغَر الجُثة.

وقوله تعالى: ﴿تسعى﴾ إما صفةٌ لحيّةٌ أو خبرٌ ثان عند من يجوز كونَه جملة ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿خذها ولا تخف﴾ [عن ابن عباس رضي الله عنهما: انقلبت ثعبانًا ذكَرًا يبتلع كلَّ شيء من الصخر والشجَر، فلما رآه كذلك خاف ونفَر][١]، وما يملك البشرُ عند مشاهدةِ الأهوال والمخاوفِ من الفزع والنّفار، وفي عطف النهي على الأمر إشعارٌ بأن عدمَ المنهيّ عنه مقصودٌ لذاته لا لتحقيق المأموريةِ فقط.

وقوله تعالى: ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ مع كونه استئنافًا مسوقًا لتعليل الامتثال بالأمر والنهي فإن إعادتَها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها، وعدمِ الخوفِ منها عِدَةٌ كريمةٌ بإظهار معجزةٍ أخرى على يده عليه الصلاة والسلام، وإيذانٌ بكونها مسخَّرةً له عليه الصلاة والسلام ليكون على طُمَأْنينة من أمره ولا يعتريه شائبةُ تَزلزُلٍ عند مُحاجّة فرعون، أي سنعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التي هي الهيئةُ العَصَوية. قيل: بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدمِ الخوف إلى حيث

= ٣- أن العصا مع كونها معجزة، ومع اعتبار القلب حقيقيًّا إلا أنها لم تغادر معها أصلها، فهي تكون في صورة الثعبان وليس جوهرها ثعبانًا، وقد ذكر الشريف المرتضى أن هذا الاختلاف راجع لاختلاف الأحوال، ونقل جوابين للمفسرين:
أحدهما: أنه تعالى إنما شبهها بالثعبان في إحدى الآيتين لعظم خلقها وكبر جسمها وهول منظرها، وشبهها في الآية الأخرى بالجان لسرعة حركتها ونشاطها وخفتها.
ثانيهما: أنه تعالى لم يرد بذكر الجان في الآية الأخرى الحية، وإنما أراد أحد الجن، فكأنه تعالى أخبر بأن العصا صارت ثعبانًا في الخلق وعظم الجسم، وكانت مع ذلك كأحد الجن في هول المنظر وإفزاعها لمن شاهدها.
ثم ذكر جوابًا آخر أسنده لنفسه، وهو أن العصا لما انقلبت حية صارت أولاً بصفة الجان وعلى صورته، ثم صارت بصفة الثعبان على تدرج.
ينظر: أمالي المرتضى المسمى بدرر الفوائد وغرر القلائد (٢/ ٢٥، ٢٦)، ومسائل الرازي وأجوبتها (٣٠٤)، والكشاف (٢/ ١٠١)، والبيضاوي (٢/ ١٤٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٨٧)، والتحرير والتنوير (٢/ ١١٢)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لتاج القراء الكرماني (١٥٦).

(١) سقط في خ.

كان يُدخل يدَه في فمها ويأخذ بلَحْيَيها. والسِّيرةُ فِعْلةٌ من السير تجوز بها للطريقة والهيئة، وانتصابُها على نزع الجارِّ أي إلى سيرتها، أو على أنّ أعاد منقولٌ من عاده بمعنى عاد إليه، أو على الظرفية أي سنعيدها في طريقها، أو على تقدير فعلها وإيقاعِها حالًا من المفعول أي سنعيدها عصًا كما كانت من قبل تسير سيرتَها الأولى، أي سائرةً سيرتَها الأولى فتنتفعَ بها كما كنت تنتفع من قبل.

﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أُمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعدما أخذ الحيةَ وانقلبت عصًا كما كانت أي أدخلها تحت عضُدِك فإن جناحَيْ الإنسانِ جنباه كما أن جناحيَ العسكر ناحيتاه مستعارٌ من جناحي الطائرِ، وقد سُمّيا جناحين لأنه يجنَحُهما أي يُميلهما عند الطيران.

وقوله تعالى: **﴿تخرج﴾** جوابُ الأمر وقوله تعالى: **﴿بيضاء﴾** حالٌ من الضمير فيه وقوله تعالى: **﴿من غير سوء﴾** متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من الضمير في بيضاء أي[1] كائنةً من غير عيب وقبح، كنّي به عن البرص كما كنّي بالسوأة عن العورة لما أن الطِباعَ تعافه وتنفِر منه، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان[2] آدمَ[3] فأخرج يده من مُدرّعته بيضاءَ لها شُعاعٌ كشعاع الشمس تُغشّي البصرَ **﴿آية أخرى﴾** أي معجزةً أخرى غيرَ العصا وانتصابُها على الحالية إما من الضمير في تخرجْ على أنها بدلٌ من الحال الأولى، وإما من الضمير في بيضاءَ.

وقيل: من الضمير في الجار والمجرور، وقيل: هي منصوبةٌ بفعل مضمرٍ نحوُ خذْ أو دونك وقوله تعالى: **﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾** متعلقٌ بمضمر ينساق إليه النظمُ الكريم، كأنه قيل: فعلنا ما فعلنا من الأمر والإظهارِ لنُريَك بذلك بعضَ آياتنا الكبرى، على أن الكبرى صفةٌ لآياتنا أو نريَك بذلك من آياتنا ما هي كُبرى على أن الكبرى مفعولٌ ثانٍ لنُريَك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعولِ، وأيا ما كان فالآيةُ الكبرى عبارةٌ عن العصا واليدِ جميعًا، وأما تعلقُه بما دل عليه آيةٌ أي دلّلنا بها لنريك إلخ، أو بقوله تعالى: ﴿واضمُم﴾ أو بقوله: ﴿تخرج﴾ أو بما قُدّر من

(١) في خ: أو.
(٢) زاد في ط: رأى.
(٣) أي كان أسمر اللون.

نحو خذ ودونك كما قال بكلٍ من ذلك قائل، فيؤدّي إلى عَراء آيةِ العصا عن وصف الكِبَر فتدبر.

﴿**اذهب إلى فرعون**﴾ تخلّصٌ إلى ما هو المقصودُ من تمهيد المقدمات السالفةِ فُصل عما قبله من الأوامر إيذانًا بأصالته، أي اذهبْ إليه بما رأيتَه من الآيات الكبرى وادْعُه إلى عبادتي وحذّره نَقِمتي.

وقوله تعالى: ﴿**إنه طغى**﴾ تعليلٌ للأمر أو لوجوب المأمورِ به أي جاوز الحدَّ في التكبر والعتوّ والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ينساق إليه الذهنُ، كأنه قيل: فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أُمر بهذا الأمر الخطيرِ والخطبِ العسير؟ فقيل قال مستعينًا بربه عز وجل: ﴿**رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري**﴾ لما أُمر بما أمر به من الخطب الجليلِ تضرّع إلى ربه عز وجل وأظهر عجْزَه بقوله: ويضيق صدري ولا ينطلق لساني، وسأله تعالى أن يوسعّ صدرَه ويفسَحَ قلبه ويجعله عليمًا بشئون الحق وأحوالِ الخلقِ حليمًا حَمولًا يستقبل ما عسى يرِدُ عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبرِ وحسن الثبات ويتلقّاها بصدر فسيحٍ وجأش رابط، وأن يسّهل عليه مع ذلك أمرَه الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمُها وأصعبُ الخطوب وأهولُها بتوفيق الأسبابِ ورفع الموانعِ، وفي زيادة كلمة (لي) مع انتظام الكلامِ [بدونها][1] تأكيدٌ لطلب الشرحِ والتيسير بإبهام المشروحِ والميسّر أولًا وتفسيرِهما ثانيًا، وفي تقديمها وتكريرِها إظهارُ مزيدِ اعتناءٍ بشأن كل من المطلوبَيْن وفضلِ اهتمامٍ باستدعاء حصولهما له واختصاصِهما به ﴿**واحلل عقدة من لساني**﴾ روي أنه كانَ في لسانه عليه الصلاة والسلام رُتّةٌ[2] من جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أن فرعون حمله ذاتَ يوم فأخذ لحيتَه فنتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله، فقالت آسيةُ: إنه صبيٌّ لا يفرق بين الجمر والياقوت فأُحضِرا بين يديه فأخذ الجمرةَ فوضعها في فيه، قيل: واحترقت يده فاجتهد فرعونُ في علاجها فلم تبرأ. ثم لما دعاه قال: إلى أي ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عَجزْتَ عنه، واختلف في زوال العُقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله

(١) سقط في خ.
(٢) الرتَّة: العجمة في اللسان، وهي اللثغة والتردُّد في النطق.

تعالى: ﴿قد أوتيتَ سؤلك﴾ [طه: ٣٦] ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى: ﴿هو أفصح مني﴾ [القصص: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿ولا يكاد يُبين﴾ [الزخرف: ٥٢] وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حلَّ عُقدة لسانه بالكلية بل حلَّ عقدةٍ تمنع الإفهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله: ﴿من لساني﴾ أي عقدةً كائنة من عُقَد لساني وجعل قوله تعالى: ﴿يفقهوا قولي﴾ جوابَ الأمر وغرضًا من الدعاء، فبحلّها في الجملة يتحقق إيتاءُ سؤلِه عليه الصلاة والسلام، والحقُّ أن ما ذكر لا يدل على بقائها في الجملة أما قوله تعالى: ﴿هو أفصحُ مني﴾ [القصص: ٣٤] فلأنه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاءِ الحلِّ كما ستعرفه على أن أفصحيّتَه منه عليهما الصلاة والسلام لا تستدعي[١] عدمَ البقاءِ [لما][٢] أن الأفصحيةَ توجب ثبوتَ أصلِ الفصاحة في المفضول أيضًا وذلك منافٍ للعقدة رأسًا، وأما قوله تعالى: ﴿ولا يكاد يبين﴾ فمن باب غلوِّ اللعين في العتوّ والطغيان وإلا لدل على عدم زوالِها أصلًا، وتنكيرُها إنما يفيد قِلتها في نفسها لا قِلَّتها باعتبار كونِها بعضًا من الكثير، وتعلقُ كلمة مِنْ في قوله تعالى: ﴿من لساني﴾ بمحذوف هو صفةٌ لها ليس بمقطوع به، بل الظاهرُ تعلُّقها بنفس الفعل فإن المحلولَ إذا كان متعلقًا بشيء ومتصلًا به فكما يتعلق الحلُّ به يتعلق بذلك الشيء أيضًا باعتبار إزالتِه عنه أو ابتداءِ حصوله منه.

﴿**واجعل لي وزيرًا من أهلي * هارون أخي**﴾ أي موازرًا يعاونني في تحمّل أعباء ما كُلّفتُه، على أن اشتقاقَه من الوِزْر الذي هو الثِقَلُ أو ملجأً أعتصمُ برأيه على أنه من الوَزَر وهو الملجأ، وقيل: أصله أَزير من الأزْر بمعنى القوة فعيل بمعنى فاعل كالشعير والجليسِ قُلبت همزتُه واوًا كقلبها في مُوازِر، ونصبُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لاجْعل قُدّم على الأول الذي هو قوله تعالى: ﴿هارونَ﴾ اعتناءً بشأن الوزارة، ولي صلةٌ للجعل أو متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من وزيرًا إذ هو صفةٌ له في الأصل ومن أهلي إما صفةٌ لوزيرًا أو صلةٌ لاجعل، وقيل: مفعولاه: لي وزيرًا وهارونَ عطفُ بيانٍ للوزير ومن أهلي كما مر من الوجهين، وأخي في الوجهين بدلٌ من هارونَ أو عطفُ بيان آخرَ، وقيل: هما وزيرًا من أهلي ولي تبيينٌ كما في قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفُوًا أحدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] ورُدّ بأن شرطَ المفعولين في باب النواسخِ صحةُ انعقاد

---

(١) في خ: بل تستدعي.
(٢) سقط في خ.

الجملةِ الاسمية ولا مساغَ لجعل وزيرًا مبتدأً ويُخبر عنه بما بعده ﴿اشدد به أزري وأَشرِكه في أمري﴾ كلاهما على صيغة الدعاءِ أي أحكِمْ به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالةِ حتى نتعاونَ على أدائها كما ينبغي، وفصلُ الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصالِ بينهما فإن شدَّ الأزر عبارةٌ عن جعله وزيرًا، وأما الإشراكُ في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسّطَ بينهما العاطف.

﴿كي نسبحك كثيرًا * ونذكرك كثيرًا﴾ غايةٌ للأدعية الثلاثةِ الأخيرة فإن فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثِرًا لفعل الآخر ومضاعفًا له بسبب انضمامِه إليه مكثرٌ له في نفسه أيضًا بسبب تقويتِه وتأييدِه، إذ ليس المرادُ بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلَوات حتى لا يتفاوت حالُه عند التعدد والانفرادِ، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداءِ الرسالة ودعوةِ المَرَدة العُتاة إلى الحق، وذلك مما لا ريب في اختلاف حالِه في حالتي التعددِ والانفراد فإن كلاً منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحقِّ ما لا يكاد يصدر عنه مثلُه [في][1] حال الانفراد. وكثيرًا في الموضعين نعتٌ لمصدر محذوف أو زمانٍ محذوف أي ننزّهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من جملتها ما يدّعيه فرعونُ الطاغيةُ ويقبَلُه منه فئتُه الباغية من ادّعاء الشِرْكةِ في الألوهية، ونصفُك بما يليق بك من صفات الكمالِ ونعوتِ الجمالِ والجلالِ تنزيهًا كثيرًا أو زمانًا كثيرًا من جملته زمانُ دعوةِ فرعون وأوانُ المُحاجّة معه. وأما ما قيل من أن المعنى كي نصليَ لك كثيرًا ونحمَدَك ونُثنيَ عليك فلا يساعده المقام ﴿إنك كنت بنا بصيرًا﴾ أي عالمًا بأحوالنا وبأن ما دعوتُك به مما يُصلحنا ويفيدنا في تحقيق ما كُلّفتُه من إقامة مراسمِ الرسالةِ وبأن هارونَ نِعمَ الرِّدْءُ في أداء ما أُمرت به، والباءُ متعلقة ببصيرًا قُدّمت عليه لمراعاة الفواصل.

﴿قال قد أوتيت سؤلك﴾ أي أُعطيتَ سُؤْلك، فُعْلٌ بمعنى مفعول كالخبز والأُكْل بمعنى المخبوز والمأكول، والإيتاءُ عبارةٌ عن تعلق إرادتِه تعالى بوقوع تلك المطالبِ وحصولِها له عليه السلام ألبتة وتقديرِه إياها حتمًا، فكلُّها حاصلةٌ له عليه السلام وإن كان وقوعُ بعضها بالفعل مترقبًا بعدُ كتيسير الأمر وشدِّ الأزْر، وباعتباره قيل: سنشُدّ

---

(١) سقط في خ.

عضُدَك بأخيك، وقولُه تعالى: ﴿**يا موسى**﴾ تشريفٌ له عليه السلام بشرف الخِطاب إثرَ تشريفِه بشرف قَبول الدعاء.

موسى في طفولته

وقوله تعالى: ﴿**ولقد مننا عليك**﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوق لتقرير ما قبله وزيادةِ توطينِ نفس موسى عليه السلام بالقبولِ ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعمِ التامة من غير سابقةِ دعاءٍ منه وطلبٍ فلأَن يُنعِم عليه بمثلها وهو طالبٌ له وداعٍ أَوْلى وأحرى، وتصديرُه بالقسم لكمال الاعتناءِ بذلك أي وبالله لقد أنعمنا ﴿**مرة أخرى**﴾ أي في وقت غيرِ هذا الوقت لا أن ذلك مؤخّرٌ عن هذا فإن أخرى تأنيثُ آخَرَ بمعنى غير، والمرةُ في الأصل اسمٌ للمرور الواحدِ ثم أُطلق على كل فَعْلة واحدةٍ من الفَعَلات متعديةً كانت أو لازمة، ثم شاع في كل فرد واحدٍ من أفراد ما لَه أفرادٌ متجددةٌ متعددة فصار علمًا في ذلك حتى جُعل معيارًا لما في معناه من سائر الأشياء، فقيل: هذا بناء المرة، ويقرب منها الكرّةُ والتارَةُ والدفعةُ والمراد بها هاهنا الوقتُ الممتدُّ الذي وقع فيه ما سيأتي ذكرُه من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى: ﴿**إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى**﴾ ظرفٌ لمننّا والمرادُ بالإيحاء إما الإيحاءُ على لسان نبيٍّ في وقتها كقوله تعالى: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين...﴾ [المائدة: ١١١]، وإما الإيحاءُ بواسطة الملَك لا على وجه النبّوة كما أوحيَ إلى مريم، وإما الإلهامُ كما في قوله تعالى: ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل﴾ [النحل: ٦٧] وإما الإراءةُ في المنام والمرادُ بما يوحى ما سيأتي من الأمر بقذفه في التابوت وقذْفِه في البحر، أُبهم أولًا تهويلًا له وتفخيمًا لشأنه ثم فُسّر ليكون أقرَّ عند النفسِ، وقيل: معناه ما ينبغي أن يوحىٰ ولا يُخَلَّ به لعِظم شأنه وفرْطِ الاهتمام به، وقيل: ما لا يُعلم إلا بالوحي وفيه أنه لا يلائم المعنيين الأخيرين للوحي إذ لا تفخيمَ لشأنه في أن يكون مما لا يُعلم إلا بالإلهام أو بالإراءة في المنام. وأنْ في قوله تعالى: ﴿**أن اقذفيه في التابوت**﴾ مفسِّرةٌ لأن الوحيَ من باب القول أو مصدريةٌ حُذف منها الباء، أي بأن اقذفيه ومعنى القذْفِ هاهنا الوضعُ وأما في قوله تعالى: ﴿**فاقذفيه في اليم**﴾ فالإلقاءُ، وهذا التفصيلُ هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿فإذا خِفتِ عليه فألقيه في اليم﴾ [القصص: ٧] لا القذفُ بلا تابوت

﴿**فليلقه اليم بالساحل**﴾ لما كان إلقاءُ البحرِ إياه بالساحل أمرًا واجبَ الوقوع لتعلق الإرادةِ الربانية به جُعل البحرُ كأنه ذو تمييزٍ مطيعٍ أُمر بذلك وأُخرج الجوابُ مُخرجَ الأمر والضمائرُ كلُّها لموسى عليه الصلاة والسلام، والمقذوفُ في البحر والمُلقى بالساحل وإن كان هو التابوتَ أصالةً لكنْ لما كان المقصودُ بالذات ما فيه جُعل التابوتُ تبعًا له في ذلك.

﴿**يأخذه عدو لي وعدو له**﴾ جوابٌ للأمر بالإلقاء، وتكريرُ العدو للمبالغة والتصريحِ بالأمر والإشعارِ بأن عداوتَه له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضرُه، بل تؤدي إلى المحبة فإن الأمرَ بما هو سبب للهلاك صورةً من قذفه في البحر ووقوعِه في يد عدو الله تعالى وعدوِّه مشعرٌ بأن هناك لُطفًا خفيًا مندرجًا تحت قهرٍ صوريّ، وقيل: الأولُ باعتبار الواقعِ والثاني باعتبار المتوقَّع وليس المرادُ بالساحل نفسَ الشاطئ بل ما يقابل الوسطَ وهو ما يلي الساحلَ من البحر بحيث يجري ماؤه إلى نهر فرعون، لما روي أنها جَعلتْ في التابوت قُطنًا ووضعتْه فيه ثم قيّرتْه[1] وألقتْه في اليم وكان يشرَع منه إلى بستان فرعون نهرٌ صغير فدفعه الماءُ إليه فأتى به إلى بِرْكة في البستان، وكان فرعونُ جالسًا ثمّةَ مع آسيةَ بنتِ مُزاحِم فأمر به فأُخرج ففُتح فإذا هو صبيٌّ أصبحُ الناس وجهًا، فأحبه عدوُّ الله حبا شديدًا لا يكاد يتمالك الصبرَ عنه وذلك قوله تعالى: ﴿**وألقيت عليك محبة مني**﴾ كلمةُ مِنْ متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لمحبةً مؤكدةٌ لما في تنكيرها من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافية، أي محبةً عظيمة كائنةً مني قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبِر عنك من رآك ولذلك أحبك عدوُّ الله وآلُه. وقيل: هي متعلقةٌ بألقيت أي أحببتُك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوبُ [لا محالة][2].

وقوله تعالى: ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ متعلقٌ بألقيتُ معطوفٌ على علة له مُضمَرةٍ، أي ليتعطّف عليك ولتَرْبىٰ بالحنوّ والشفقة بمراقبتي وحِفظي، أو بمضمر مؤخّرٍ هو عبارةٌ عما قبله من إلقاء المحبةِ، والجملةُ مبتدَأةٌ أي ولتصنع على عيني فعلتُ ذلك،

---

(١) أي طلته بالقار، وهو الزفت.

(٢) سقط في خ.

وقرئ (ولِتُصْنعْ) على صيغة الأمر بسكون اللام[1] وكسرها[2] وقرئ بفتح التاء والنصب[3] أي وليكونَ عملُك على عين مني لئلا يخالَفَ به عن أمري.

﴿إذ تمشي أختك﴾ ظرفٌ لتُصنعَ على أن المراد به وقتٌ وقع فيه مشيُها إلى بيت فرعونَ وما ترتب عليه من القول والرجْعِ إلى أمها وتربيتِها له بالبر والحُنوّ وهو المِصداق لقوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾ إذ لا شفقةَ أعظمُ من شفقة الأم وصنعُها على موجب مراعاتِه تعالى، وقيل: هو بدلٌ من إذ أوحينا على أن المراد به زمانٌ متّسعٌ متباعدُ الأطراف وهو الأنسب بما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فنجّيناك من الغم...﴾ [طٰه: ٤٠] إلخ، فإن جميع ذلك من المنن الإلٰهيةِ ولا تعلق لشيء منها بالصنع المذكور، وأما كونُه ظرفًا لألقيت كما جُوّز فربما يوهم أن إلقاءَ المحبة لم يحصُل قبل ذلك، ولا ريب في أن معظمَ آثارِ إلقائِها ظهر عند فتحِ التابوت ﴿فتقول﴾ أي لفرعون وآسيةَ حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعةً يقبل ثديَها وكان لا يقبل ثديًا، وصيغةُ المضارعِ في الفعلين لحكاية الحالِ الماضية ﴿هل أدلكم على من يكفله﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربّيه وذلك إنما يكون بقَبوله ثديَها.

يروى أنه فشا الخبر بمصر أن آلَ فرعون أخذوا غلامًا من النيل لا يرتضع ثديَ امرأة واضطُروا إلى تتبّع النساء، فخرجت أختُه مريمُ لتعرِف خبرَه فجاءتهم متنكّرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا، فجاءت بأمه فقبِل ثديَها، فالفاء قوله تعالى: ﴿فرجعناك إلى أمك﴾ فصيحةٌ معربةٌ عن محذوف قبلها يُعطَف عليه ما بعدها، أي فقالوا: دُلّينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك إليها ﴿كي تقر عينها﴾ بلقائك ﴿ولا تحزن﴾ أي يطرأَ عليها الحزنُ بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوالُ الحزن مقدمٌ على السرور المعبَّر عنه بقُرّة العين فإن التخليةَ متقدمةٌ على التحلية، وقيل: ولا تحزنَ أنت بفقد

---

(١) قرأ بها: أبو جعفر، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٣)، والبحر المحيط (٦/ ٢٤٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٩٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٨٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥١).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٦).

(٣) قرأ بها: الحسن، وأبو نهيك.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٤٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٩).

إشفاقها ﴿وقتلت نفسًا﴾ هي نفس القِبْطيّ الذي استغاثه الإسرائيليُّ عليه.

﴿فنجيناك من الغم﴾ أي غمِّ قتلِه خوفًا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعونَ بالإنجاء منه بالمهاجَرة إلى مدين ﴿وفتناك فتونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاءً أو فتونًا من الابتلاء على أنه جمعُ فتن، أو فتنة على ترك الاعتداء بالتاء كحُجوز في حجزة وبُدور في بَدْرة أي خلّصناك مرة بعد أخرى وهو إجمالُ ما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقةِ الأُلاّف[1] والمشْي راجلًا وفقْدِ الزاد، وقد روي أن سعيدَ بنَ جبير سأل عنه ابنَ عباس رضي الله عنهما، فقال: خلّصناك من محنة بعد محنة ولد في عام كان يُقتل فيه الوِلْدانُ فهذه فتنةٌ يا ابنَ جبير، وألقتْه أمُّه في البحر وهمّ فرعونُ بقتله وقتلَ قِبْطيا وآجَرَ نفسه عشر سنين وضلّ الطريقَ وتفرّقت غنمُه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كلِّ واحدةٍ: فهذه فتنةٌ يا ابنَ جبير. ولكن الذي يقتضيه النظمُ الكريم أن لا تُعدَّ إجارةُ نفسه وما بعدها من تلك الفُتون ضرورةَ أن المرادَ بها ما وقع قبل وصولِه عليه السلام إلى مدينَ بقضية الفاء في قوله تعالى: ﴿فلبث سنين في أهل مدين﴾ إذ لا ريب في أن الإجارةَ المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصولِ إليهم، وقد أشير بذكر لُبثه عليه السلام فيهم دون وصولِه إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنينَ العشْر من فنون الشدائد والمكاره التى كلٌّ واحد منها فتنةٌ وأيُّ فتنة.

ومدينُ بلدةُ شعيبٍ عليه الصلاة والسلام على ثماني مراحلَ من مصرَ ﴿ثم جئت﴾ إلى المكان الذي أُونس فيه النارُ ووقع فيه النداءُ والجُؤار، وفي كلمة التراخي إيذانٌ بأن مجيئَه عليه السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرُّقِ الغنم في الليلة المظلمةِ الشاتية وغيرِ ذلك ﴿على قدر﴾ أي تقديرٍ قدّرتُه لأن أكلّمَك وأستنبئَك في وقت قد عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدَرِ غيرَ مستقدِمٍ ولا مستأخِر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحىٰ فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأسُ أربعين سنةً وقوله تعالى: ﴿يا موسى﴾ تشريفٌ له عليه الصلاة والسلام وتنبيهٌ على انتهاء الحكايةِ التي هي تفصيلُ المرةِ الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكيةِ أولًا.

---

(١) في خ: الإلف.

موسى وهارون

وقوله تعالى: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ تذكيرٌ لقوله تعالى: ﴿أنا اخترتُك﴾ وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيّدًا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكيرِ المِنن السابغةِ تأكيدًا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرِها اللاحقة، وهذا تمثيلٌ لما خوّله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملِكِ بعضَ خواصّه واصطناعِه لنفسه وترشيحِه لبعض أمورِه الجليلة، والعدولُ عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وفتناك﴾ ونظيرَيه السابقين - تمهيدٌ لإفراد لفظِ النفسِ اللائقِ بالمقام فإنه أدخلُ في تحقيق معنى الاصطناعِ والاستخلاص، أي اصطفيتُك برسالاتي وبكلامي.

وقوله تعالى: ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ أي وليذهبْ أخوك حسبما استدعيتَ، استئنافٌ مَسوق لبيان ما هو المقصودُ بالاصطناع ﴿بآياتي﴾ أي بمعجزاتي التي أرَيتُكَها من اليد والعصا فإنهما وإن كانتا اثنتين لكن في كل منهما آياتٌ شتى كما في قوله تعالى: ﴿فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فإن انقلاب العصا حيوانًا آيةٌ، وكونَها ثعبانًا عظيمًا لا يقادَر قدرُه آيةٌ آخرى، وسرعةَ حركتِه مع عِظم جِرْمه آيةٌ أخرى، وكونَه مع ذلك مسخرًا له عليه السلام بحيث كان يُدخل يده في فمه فلا يضره آيةٌ أخرى، ثم انقلابُها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليدُ فإن بياضها في نفسه آيةٌ وشعاعَها آيةٌ، ثم رجوعُها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى.

والباء للمصاحبة لا للتعدية إذ المراد ذهابُهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسّكين بها في إجراء أحكامِ الرسالة وإكمالِ أمر الدعوة لا مجردُ إذهابِها وإيصالها إليه ﴿ولا تنيا﴾ لا تفتُرا ولا تقصّرا، وقرئ (لا تِنيا)[1] بكسر التاء للاتباع ﴿في ذكري﴾ أي بما يليق بي من الصفات الجليلةِ والأفعال الجميلة عند تبليغِ رسالتي والدعاءِ إليّ، وقيل: المعنى لا تنيا في تبليغ رسالتي فإن الذكرَ يقع على جميع العبادات وهو أجلُّها وأعظمُها، وقيل: لا تنسَياني حيثما تقلبتما واستمِدّا بذكري العونَ والتأييدَ واعلما أن أمرًا من الأمور لا يتأتى ولا يتسنّى إلا بذكري.

﴿اذهبا إلى فرعون﴾ جمعهما في صيغة أمر الحاضرِ مع غَيبة هارون إذ ذاك

---

(١) قرأ بها:ابن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٤٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٨)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٥٧).

للتغليب، وكذا الحالُ في صيغة النهي.

روي أنه أوحي إلى هارونَ وهو بمصر أن يتلقّى موسى عليهما السلام، وقيل: سمِع بإقباله فتلقاه **﴿إنه طغى﴾** تعليلٌ لموجب الأمر والفاء في قوله تعالى: **﴿فقولا له قولًا لينًا﴾** لترتيب ما بعدها على طغيانه فإن تليينَ القولِ مما يكسِر سَوْرَةَ عنادِ العُتاة ويُلين عريكةَ الطغاة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُعنّفا في قولكما(١)، وقيل: القولُ اللين مثل: ﴿هل لك إلى أن تزكّى * وأهدِيَك إلى ربك﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فإنها دعوةٌ في صورة عَرْض ومَشورة، ويرده ما سيجيء من قوله تعالى: ﴿فقولا إنا رسولا ربِّك﴾ [طه: ٤٧]، وقيل: كنِّياه وكان له ثلاثُ كُنًى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرّة، وقيل: عِداه شبابًا لا يهرَم ويبقى له لذةُ المطعم والمشرب والمنكِح ومُلكًا لا يزول إلا بالموت، وقرئ (لَيْنا) **﴿لعله يتذكر﴾** بما بلغتُماه من ذكري ويرغب فيما رغّبتماه فيه **﴿أو يخشى﴾** عقابي، ومحلُّ الجملة النصبُ على الحال من ضمير التثنية، أي فقولا له قولًا لينًا راجيين أن يتذكر أو يخشى، وكلمةُ أو لمنع الخلوّ أي باشِرا الأمرَ مباشرةَ مَنْ يرجو ويطمع في أن يُثمر عملُه ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصى وُسْعه. وجدوىٰ إرسالِهما إليه مع العلم بحاله إلزامُ الحجة وقطعُ المعذرة.

﴿قالا ربنا﴾ أُسند القولُ إليهما مع أن القائلَ حقيقةً هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليبِ إيذانًا بأصالته في كل قولٍ وفعلٍ وتبعيّةِ هارونَ عليه السلام له في كل ما يأتي ويذر، ويجوز أن يكون هارونُ قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحَكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزولِ الآية كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسُلُ كلوا من الطيبات﴾ [المؤمنين: ٥١] فإن هذا الخطابَ قد حُكي لنا بصيغة الجمع مع أن كلاً من المخاطَبين لم يخاطَب إلا بطريق الانفرادِ ضرورةَ استحالةِ اجتماعِهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب **﴿إننا نخاف أن يفرُط علينا﴾** أي يعجَلَ علينا بالعقوبة ولا يصبِرَ إلى إتمام الدعوةِ وإظهارِ المعجزة من فرَط إذا تقدّم ومنه الفارِطُ

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢٤٥).

وفرسٌ فارِطٌ يسبِق الخيلَ، وقرئ (يُفرِطَ)[١] من أفرطه إذا حمله على العجلة، أي نخاف أن يحمِله حاملٌ من الاستكبار أو الخوف على المُلك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب ﴿أو أن يطغى﴾ أي يزداد طغيانًا إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جراءتِه[٢] وقساوته، وإطلاقُه من حسن الأدب، وإظهارُ كلمة أن مع سَداد المعنى بدونه لإظهار كمالِ الاعتناء بالأمرِ والإشعارِ بتحقق الخوفِ من كل منهما.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبني على السؤال الناشئ من النظم الكريم، ولعل الفعل أسند إلى ضمير الغَيبة للإشعار بانتقال الكلام من مَساق إلى مساقٍ آخرَ، فإن ما قبله من الأفعال الواردةِ على صيغة التكلم حكايةٌ لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿قلنا لا تخَفْ إنك أنت الأعلى﴾ [طه: ٦٨] فإن ما قبله أيضًا واردٌ بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ، كأنه قيل: فماذا قال لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه؟ فقيل: قال: ﴿لا تخافا﴾ ما توهمتما من الأمرين وقوله تعالى: ﴿إنني معكما﴾ تعليلٌ لموجب النهي ومزيدُ تسليةٍ لهما، والمرادُ بالمعية كمالُ الحفظ والنُّصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أسمع وأرى﴾ أي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعلٍ فأفعلُ في كل حال ما يليق بها من دفع ضُرّ وشر وجلب نفعٍ وخير. ويجوز أن لا يُقدَّر شيءٌ، على معنى أنني حافظُكما سميعًا بصيرًا والحافظُ الناصرُ إذا كان كذلك فقد تم وبلغت النُّصرةُ غايتها ﴿فأتياه﴾ أُمِرا بإتيانه الذي هو عبارةٌ عن الوصول إليه بعد ما أمرا بالذهاب إليه فلا تكرار، وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليلِه بما بعده ﴿فقولا إنا رسولا ربك﴾ أُمرا بذلك تحقيقًا للحق من أول الأمر ليعرِف الطاغيةُ شأنَهما ويبني جوابه عليه، وكذا التعرّضُ لربوبيته تعالى له.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن كونَهما رسوليْ ربِّه مما يوجب إرسالَهم معهما، والمرادُ بالإرسال إطلاقُهم من الأسر والقسر وإخراجُهم من تحت يدِه العاديةِ لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ولا تعذبهم﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت مَلَكَة القِبْط يستخدمونهم في الأعمال الصعبة الفادحة من

(١) قرأ بها: ابن محيصن، والزعفراني، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٤٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٨).

(٢) في خ: جرأته.

الحفر ونقْلِ الأحجار وغيرهما من الأمور الشاقةِ، ويقتُلون ذكورَ أولادِهم عامًا دون عام ويستخدمون نساءَهم، وتوسيطُ حكمِ الإرسال بين بيان رسالتِهما وبين ذكرِ المجيء بآية دالةٍ على صحتها لإظهار الاعتناءِ به مع ما فيه من تهوين الأمرِ على فرعون، فإن إرسالَهم معهما من غير تعرّض لنفسه وقومِه بفنون التكاليف الشاقةِ كما هو حكمُ الرسالة عادةً ليس مما يشُقّ عليه كلَّ المشقة، ولأن في بيان مجيءِ الآية نوعَ طُولٍ كما ترى، فتأخيرُ ذلك عنه مُخِلٌّ بتجاوب أطرافِ النظم الكريم، وأما ما قيل من أن ذلك دليلٌ على أن تخليصَ المؤمنين من الكفرة أهمُّ من دعوتهم إلى الإيمان فكلاّ.

﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ تقريرٌ لما تضمنه الكلامُ السابق من دعوى الرسالةِ وتعليلٌ لوجوب الإرسالِ، فإن مجيئَهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتَهما ويُقرِّها ويوجب الامتثالَ بأمرهما، وإظهارُ اسمِ الربِّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطبِ لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل، وتوحيدُ الآيةِ مع تعدّدها لأن المرادَ إثباتُ الدعوى ببرهانها لا بيانُ تعدّد الحجةِ وكذلك قوله تعالى: ﴿قد جئتكم ببينة﴾ [الأعراف: ١٠٥] وقولُه تعالى: ﴿أو لو جئتُك بشيءٍ مبين﴾ [الشعراء: ٣٠] وأما قوله تعالى: ﴿فأتِ بآية إن كنتَ من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٥٤] فالظاهرُ أن المرادَ بها آيةٌ من الآيات ﴿والسلام﴾ المستتبعُ لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكةِ وغيرهم من المسلمين ﴿على من اتبع الهدى﴾ بتصديق آياتِ الله تعالى الهاديةِ إلى الحق، وفيه من ترغيبه في اتباعهما على ألطف وجهٍ ما لا يخفىٰ.

﴿إنا قد أوحي إلينا﴾ من جهة ربنا ﴿أن العذاب﴾ الدنيويَّ والأخروي ﴿على من كذب﴾ أي بآياته تعالى ﴿وتولى﴾ أي أعرض عن قَبولها، وفيه من التلطيف في الوعيد حيث لم يصرَّحْ بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه.

﴿قال﴾ أي فرعون بعد ما أتياه وبلَّغاه ما أُمرا به، وإنما طُوي ذكرُه للإيجاز والإشعارِ بأنهما كما أُمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير تلعثم، وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ لم يُضِف الربَّ إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى: ﴿إنا رسولا ربِّك﴾ وقوله تعالى: ﴿قد

جئناك بآية من ربك﴾ لغاية عتوّه ونهاية طُغيانه بل أضافه إليهما لما أن المرسِلَ لا بد أن يكون ربا للرسول، أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا: ﴿إنا رسولُ ربِّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٦] كما وقع في سورة الشعراءِ، والاقتصارُ هاهنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصودُ والفاءُ لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولَيْ ربِّهما، أي إذا كنتما رسولَي ربِّكما فأخبِراني مَنْ ربُّكما الذي أرسلكما، وتخصيصُ النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطابِ إليهما لما أنه الأصلُ في الرسالة وهارونُ وزيرُه، وأما ما قيل من أن ذلك لأنه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رُتّةً فأراد أن يُفحِمه فيردُّه ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيانِ القاطعِ لذلك الطمعِ الفارغ، وأما قوله: ﴿ولا يكاد يُبين﴾ فمن غلوّه في الخُبث والدعارة كما مر

﴿**قال**﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام مجيبًا له: ﴿**ربنا**﴾ إما مبتدأٌ وقوله تعالى: ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه**﴾ خبرُه أو هو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والموصولُ صفتُه، وأيا ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسَهما فقط حسبما أراد اللعينُ بل جميعَ المخلوقاتِ تحقيقًا للحق وردا عليه كما يُفصح عنه ما في حيز الصلة، أي هو ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيء من الأشياء خلقَه أي صورتَه وشكلَه اللائقَ بما نيط به من الخواصّ والمنافِع، أو أعطى مخلوقاتِه كلَّ شيء تحتاج هي إليه وترتفق به، وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به، أو أعطى كلَّ حيوان نظيرَه في الخلق والصورة حيث زوّج الحصانَ بالحِجْر والبعيرَ بالناقة والرجلَ بالمرأة ولم يزوِّج شيئًا من ذلك بخلاف جنسِه، وقرئ (خَلَقه)[1] على صيغة الماضي على أن الجملة صفةٌ للمضاف أو المضافِ إليه، وحَذفُ المفعولِ الثاني إما للاقتصار على الأول أي كلَّ شيء خلقه الله تعالى لم يحرِمْه من عطائه وإنعامِه، أو للاختصار من كونه منويًا مدلولًا عليه بقرينة الحالِ أي أعطى كلَّ شيء خلقه الله تعالى ما يحتاج إليه.

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وعبدالله بن مسعود، وأبو نهيك، وابن أبي إسحاق، والأعمش، والحسن، ونصير، وابن نوح، وقتيبة، وسلام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٣٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٤٧)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٥٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢).

﴿ثم هدى﴾ أي إلى طريق الانتفاعِ والارتفاق بما أعطاه وعرّفه كيف يَتوصّل إلى بقائه وكماله إما اختيارًا كما في الحيوانات أو طبعًا كما في الجمادات والقُوى الطبيعية النباتية والحيوانية، ولمّا كان الخلقُ الذي هو عبارةٌ عن تركيب الأجزاءِ وتسويةِ الأجسام متقدمًا على الهداية التي هي عبارةٌ عن إيداع القُوى المحرِّكةِ والمدْرِكة في تلك الأجسامِ وُسِّط بينهما كلمةُ التراخي، ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابَه على نمط رائقٍ وأسلوب لائقٍ حيث بين أنه تعالى عالمٌ قادرٌ بالذات خالقٌ لجميع الأشياء مُنعِمٌ عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضلِ، وضمّنه أن إرسالَه تعالى إياه إلى الطاغية من جملة هداياته سبحانه إياه بعد أن هداه إلى الحق بالهدايات التكوينيةِ حيث ركّب فيه العقلَ وسائرَ المشاعرِ والآلاتِ الظاهرةِ والباطنة.

﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ لما شاهد اللعينُ ما نظمه عليه الصلاة والسلام في سلك الاستدلالِ من البرهان النيّر على الطراز الرائع خاف أن يُظهر للناس حقّيةَ مقالاتِه عليه الصلاة والسلام وبُطلانَ خرافات نفسِه ظهورًا بيّنًا فأراد أن يصرِفه عليه الصلاة والسلام عن سَننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلّق لها بالرسالات من الحكايات، ويشغَلَه عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوعُ غفلةٍ فيتسلق بذلك إلى أن يدّعيَ بين يدي قومه نوعَ معرفة، فقال: ما حالُ القرونِ الماضية والأممِ الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصّلة؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام: بأن العلمَ بأحوالهم مفصّلةً مما لا ملابسة له بمنصِب الرسالة وإنما علمُها عند الله عز وجل، وأما ما قيل من أنه سأله عن حال مَنْ خلا من القرون وعن شقاء من شقيَ منهم وسعادةِ من سعِد فيأباه قوله تعالى: ﴿قال علمها عند ربي﴾ فإن معناه أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما أنا عبدٌ لا أعلم منها إلا ما علّمنيه من الأمور المتعلقة بما أُرسلت به، ولو كان المسئول عنه ما ذكر من الشقاوة [والسعادةِ][1] لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلِم ومن تولى فقد عُذّب حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿والسلام...﴾ الآيتين ﴿في كتاب﴾ أي مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظِ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلًا لتمكنه وتقرّره في علم الله عز وجل بما استحفظه العالَم، وقيده بالكَتَبة

(١) سقط في خ.

كما يلوح به قوله تعالى ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ أي لا يُخطِئ ابتداءً ولا يذهب علمه بقاءً بل هو ثابتٌ أبدًا فإنهما مُحالان عليه سبحانه، وهو على الأول لبيان أن إثباتَه في اللوح ليس لحاجته تعالى إليه في العلم به ابتداءً أو بقاءً، وإظهارُ ربي في موقع الإظمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقريرِ والإشعار بعلة الحُكم فإن الربوبيةَ مما يقتضي عدمَ الضلالِ والنسيانِ حتمًا، ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقري بديعٍ حيث كشف عن حقيقة الحقِّ حجابَها مع أنه لم يخرُجْ عما كان بصدده من بيان شئونِه تعالى ثم تخلّص إليه حيث قال بطريق الحكايةِ عن الله عز وجل لما سيأتي من الالتفات: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدًا﴾ على أن الموصولَ إما مرفوعٌ على المدح أو منصوبٌ عليه أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي جعلها لكم كالمهد تتمهدونها[1] أو ذاتَ مهدٍ وهو مصدرٌ سُمّي به المفعولُ، وقرئ (مِهادًا)[2] وهو اسمٌ لما يُمْهد كالفِراش أو جمعُ مهد أي جعل كلَّ موضع منها مهدًا لكل واحد منكم ﴿وسلك لكم فيها سبلًا﴾ أي جعل لكم طرقًا ووسّطها بين الجبال والأودية والبراري تسلُكونها من قُطْر إلى قطر لتقضُوا منها مآربَكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها.

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ هو المطر ﴿فأخرجنا به﴾ أي بذلك الماءِ وهو عطفٌ على أنزل داخلٌ تحت الحكاية، وإنما التُفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرةِ والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مُطاعٍ عظيم الشأن تنقاد لأمره وتُذعِن لمشيئته الأشياءُ المختلفة [كما في قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفًا ألوانُها﴾][3] [فاطر: ٢٧] كما في قولِه تعالى: ﴿أم مَنْ خلق السمواتِ والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتْنا به حدائقَ ذاتَ بهجة﴾ [النمل: ٦٠] خلا أن ما قبل الالتفاتِ هناك صريحُ كلامِه تعالى

---

(١) إشارة إلى أن الآية من قبيل التشبيه البليغ المحذوف الأداة والوجه.
ينظر: في الفرق بين التشبيه والاستعارة شروح التلخيص (٣/ ٢٩٨) وما بعدها، ومراتب التشبيه شروح التلخيص (٣/ ٤٧١).

(٢) قرأ بها:ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وأبو جعفر، وأبو عبيدة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٥١)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٥٧)، والتيسير للداني ص (١٥١)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٠٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٨).

(٣) سقط في المخطوط.

وأما هاهنا فحكايةٌ عنه تعالى وجَعْلُ قوله تعالى: ﴿فأخرجنا به﴾ هو المحكي مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوّت حينئذ الالتفاتَ لعدم اتحادِ المتكلم ﴿أزوجًا﴾ أصنافًا سميت بذلك لازدواجها واقترانِ بعضِها ببعض ﴿من نبات﴾ بيانٌ أو صفةٌ لأزواجًا أي كائنة من نبات وكذا قوله تعالى: ﴿شتى﴾ أي متفرقة جمعُ شتيت، ويجوز أن يكون صفةً لنبات لما أنه في الأصل مصدرٌ يستوي فيه الواحد والجمع، يعني أنها شتّى مختلفةٌ في الطعم والرائحة والشكل والنفع، بعضُها صالحٌ للناس على اختلاف وجوهِ الصلاح وبعضُها للبهائم، فإن من تمام نعمته تعالى أن أرزاقَ عبادِه لما كان تحصّلها بعمل الأنعامِ جعل علَفها مما يفضُل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعامًا لهم، وقوله تعالى: ﴿كلوا وارعَوا أنعامكم﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أي أخرجنا منها أصنافَ النباتِ قائلين: كلوا وارعَوا أنعامَكم أي معدّيها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك ﴿إن في ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من شئونه تعالى وأفعاله، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو رتبتِه وبُعْدِ منزلته في الكمال، والتنكيرُ في قوله تعالى: ﴿لآيات﴾ للتفخيم كما وكيفًا أي: لآياتٍ كثيرةً جليلةً واضحةَ الدلالة على شئون الله تعالى في ذاته وصفاتِه وأفعاله، وعلى صحة نبوةِ موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ﴿لأولي النهى﴾ جمع نُهْية سمّي بها العقلُ لنهيه عن اتباع الباطلِ وارتكاب القبائح كما سمّي بالعقل والحِجْر لعقله وحَجْره عن ذلك، أي لذوي العقولِ الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما يدّعيه الطاغية ويقبله منه فئتُه الباغية، وتخصيصُ كونها آياتٍ بهم مع أنها آياتٌ للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها ﴿منها خلقناكم﴾ أي في ضمن خلقِ أبيكم آدمَ عليه الصلاة والسلام منها فإن كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من خلقه عليه الصلاة والسلام إذ لم تكن فطرتُه البديعةُ مقصورةً على نفسه عليه الصلاة والسلام، بل كانت أنموذَجًا منطويًا على فطرة سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجماليا مستتبِعًا لجَريان آثارِهما على الكل فكان خلقُه عليه الصلاة والسلام منها خلقًا للكل منها.

وقيل: المعنى خلقنا أبدانَكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولّدة من الأرض بوسائطَ، وقيل: إن الملَك الموكلَ بالرحِم يأخذ من تربة المكان الذي يُدفن فيه المولود فيبدّدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿وفيها نعيدكم﴾ بالإماتة

وتفريقِ الأجزاء، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديدِ فيها ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ بتأليف أجزائِكم المتفتّتة المختلطةِ بالتراب على الهيئة السابقةِ وردِّ الأرواح إليها، وكونُ هذا الإخراجِ تارةً أخرى باعتبار أن خلقَهم من الأرض إخراجٌ لهم منها وإن لم يكن على نهج التارةِ الثانيةِ، والتارة في الأصل اسمٌ للتَّوْر الواحد وهو الجرَيانُ ثم أطلق على كل فَعْلة واحدة من الفَعَلات المتجددة كما مر في المرة.

﴿ولقد أريناه﴾ حكايةٌ إجماليةٌ لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعونَ إثرَ حكايةِ ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نَعمائِه الداعيةِ له إلى قَبول الحقِّ والانقيادِ له، وتصديرُها بالقسم لإبراز كمالِ العنايةِ بمضمونها وإسنادُ الإراءةِ إلى نون العظمةِ نظرًا إلى الحقيقة لا إلى موسى نظرًا إلى الظاهر لتهويل أمرِ الآياتِ وتفخيمِ شأنها وإظهار كمالِ شناعةِ اللعين وتماديه في المكابرة والعناد، أي وبالله لقد بصّرنا فرعونَ أو عرّفناه ﴿آياتنا﴾ حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إن كنت جئتَ بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين * فألقىٰ عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين * ونزَع يده فإذا هي بيضاءُ للناظرين﴾ [الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨] وصيغةُ الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمورِ التي كلٌّ منها آيةٌ بينةٌ لقوم يعقلون حسبما بين في تفسير قوله تعالى: ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ [طه: ٤٢] وقد ظهر عند فرعونَ أمورٌ أُخَرُ كلٌّ واحد منها داهيةٌ دهياءُ، فإنه روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلب ثعبانًا أشعَرَ فاغرًا فاه بين لحييه ثمانون ذراعًا وضَع لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سور القصر وتوجه نحوَ فرعون، فهرب وأحدث وانهزم الناسُ مزدحِمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا من قومه، فصاح فرعونُ: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا، وروي أنها انقلبت حيةً فارتفعت في السماء قدرَ ميلٍ ثم انحطت مُقبلةً نحو فرعون وجعلت تقول: يا موسى مُرْني بما شئت، [ويقول][1] فرعون: أنشدك إلخ، ونزع يدَه من جيبه فإذا هي بيضاءُ بياضًا نورانيا خارجًا عن حدود العادات قد غلب شعاعُه شعاعَ الشمس يجتمع عليه النظّارة تعجبًا من أمره، ففي تضاعيف كلٍّ من الآيتين آياتٌ

(١) سقط في خ.

جمّةٌ لكنها لما كانت غيرَ مذكورةٍ صراحة أُكدتْ بقوله تعالى: ﴿كلها﴾ كأنه قيل: أريناه آيتَيْنا بجميع مُستتبَعاتِهما وتفاصيلِهما قصدًا إلى بيان إنه لم يبقَ له في ذلك عذرٌ ما ولا مساغَ لعد بقية الآياتِ التسعِ منها لما أنها إما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرةَ على مهل في نحو من عشرين سنةً كما مر في تفسير سورة الأعراف، ولا ريب في أن أمرَ السحرةِ مترقَّبٌ بعد، وأبعدُ من ذلك أن يُعدَّ منها ما جُعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلْق البحرِ وما ظهر بعد مهلِكِه من الآيات الظاهرةِ لبني إسرائيل، من نتْق الجبل والحجر سواءٌ أريد به الحجرُ الذي فرَّ بثوبه أو الذي انفجرت منه العيون، وكذا أن يُعدّ منها الآياتُ الظاهرةُ على يد الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام بناءً على أن حكايتَه عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون في حكم إظهارِها بين يديه وإراءتِه إياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام، فإن حكايتَه عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون مما لم يجْرِ ذكرُه هاهنا على أن ما سيأتي من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدي للمعارضة بالمثل يأباه إباءً بيّنًا، وينطِق بأن المرادَ بها ما ذكرناه قطعًا ولولا ذلك لجاز جعلُ ما فصله عليه الصلاة والسلام، من أفعاله تعالى الدالةِ على اختصاصه بالربوبية وأحكامِها، من جملة الآيات ﴿فكذب﴾ موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردّد وتأخُّر مع ما شاهده في يده من الشواهد الناطقةِ بصدقه جحودًا وعِنادًا ﴿وأبى﴾ الإيمانَ والطاعةَ لعتوّه واستكبارِه، وقيل: كذب بالآيات جميعًا وأبى أن يقبل شيئًا منها أو أبى قَبولَ الحق وقوله تعالى:

﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية تكذيبه وإبائِه، والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه وادعاءِ أنه أمرٌ مُحال، والمجيءُ إما على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له، أي أجئتنا من مكانك الذي كنتَ فيه بعد ما غِبت عنا، أو أقبلت علينا لتُخرِجنا من مصرَ بما أظهرْته من السحر فإن ذلك مما لا يصدُر عن العاقل لكونه من باب محاولة المُحال، وإنما قاله لحمل قومِه على غاية المقْت لموسى عليه الصلاة والسلام بإبراز أن مرادَه عليه الصلاة والسلام ليس مجردَ إنجاءِ بني إسرائيلَ من أيديهم بل إخراجُ القِبط من وطنهم وحيازةُ أموالِهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجّهَ إلى اتباعه أحدٌ ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمي ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرًا لتجسيرهم على

المقابلة ثم ادّعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ الفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللامُ جوابُ قسمٍ محذوف كأنه، قيل: إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثلِ سحرِك ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدًا﴾ أي وعدًا كما ينبئ عنه وصفُه بقوله تعالى: ﴿لا نخلفه﴾ فإنه المناسبُ لا المكانُ والزمانُ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿نحن ولا أنت﴾ وإنما فوّض اللعينُ أمرَ الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب وضيقِ المجال وإظهارِ الجلادة وإراءة أنه متمكّنٌ من تهيئة أسباب المعارضةِ وترتيبِ آلاتِ المغالبة طال الأمدُ أم قصُر، كما أن تقديمَ ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيطَ كلمةِ النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلافِ وأن عدم إخلافِه لا يوجب عدم إخلافه عليه الصلاة والسلام، ولذلك أُكّد النفيُ بتكرير حرفِه، وانتصابُ ﴿مكانًا سوى﴾ بفعل يدل عليه المصدرُ لا به فإنه موصوفٌ أو بأنه بدلٌ من موعدًا على تقدير مكان مضاف إليه فحينئذ تكون مطابقةُ الجواب في قوله تعالى: ﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدلّ على مكان مشتهرٍ باجتماع الناس فيه يومئذ، أو بإضمار مثلَ مكانِ موعدِكم مكانَ يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدُكم وعدُ يوم الزينة، وقرئ (يومَ)[1] بالنصب وهو ظاهرٌ في أن المراد به المصدرُ، ومعنى (سُوى) مُنتصَفًا تستوي مسافته إلينا وإليك وهو في النعت كقولهم: قوم عدى في الشذوذ وقرئ بكسر السين[2]. وقيل: يومُ الزينة يومُ عاشوراءَ أو يومُ النَّيْروز أو يومُ عيد كان لهم في كل عام وإنما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لإظهار كمالِ قوتِه وكونِه على ثقة من أمره وعدمِ مبالاته بهم لما أن ذلك اليومَ وقتُ ظهورِ غاية شوكتِهم، وليكون ظهورُ الحق وزهوقُ الباطلِ في يوم مشهود على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضرٍ وبادٍ ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ عطفٌ على (يومُ)

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، والمطوعي، وقتادة، والحسن، والأعمش، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والجحدري، وهبيرة، والزعفراني، والسلمي، وعيسى، والثقفي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٣).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢١٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٨).

أو (الزينةِ)، وقرئ على البناء للفاعل[١] بالتاء على خطاب فرعونَ وبالياء[٢] على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم.

موسى والسحرة

﴿فتولى فرعون﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿فجمع كيده﴾ أي ما يكاد به من السحرة وأدواتِهم ﴿ثم أتى﴾ أي الموعدَ ومعه ما جمعه من كيده، وفي كلمة التراخي إيماءٌ إلى أنه لم يسارعْ إليه بل أتاه بعد لأْيٍ وتلعثم وقوله تعالى: ﴿قال لهم موسى...﴾ إلخ، بطريق الاستئنافِ المبنيِّ على السؤال يقضي بأن المترقَّبَ من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاجَ إلى السؤال والبيانِ ليس إلا ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام، وأما إتيانُه أولًا فأمرٌ محققٌ غنيٌّ عن التصريح به كأنه قيل: فماذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند إتيانِ فرعونَ بمن جمعه من السحرة؟ فقيل: قال لهم بطريق النصيحة: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا﴾ بأن تدْعوا آياتِه التي ستظهر على يدي سِحرًا كما فعل فرعون ﴿فيسحتكم﴾ أي يستأصلكم بسببه ﴿بعذاب﴾ هائل لا يقادَر قدرُه، وقرئ (يَسحَتُكم)[٣] من الثلاثي على لغة أهلِ الحجاز، والإسحاتُ لغةُ بني تميم ونجد ﴿وقد خاب من افترى﴾ أي على الله كائنًا من كان بأي وجهٍ كان فيدخل فيه الافتراءُ المنهيُّ عنه دخولًا أوليا، وقد خاب فرعونُ المفتري فلا تكونوا مثلَه في الخَيبة، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها ﴿فتنازعوا﴾ أي السحرةُ حين سمعوا كلامَه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أمرهم﴾ الذي أريد منهم مِنْ مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا ﴿بينهم﴾ في كيفية المعارضةِ وتجاذبوا أهدابَ القول في ذلك ﴿وأسروا

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود، والجحدري، وأبو نهيك، وأبو عمران الجوني، وعمرو بن فايد، وأبو بكرة. ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٥٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢١٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٢)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٧٣).

(٢) قرأ بها:ابن مسعود، والجحدري، وأبو نهيك، وأبو عمران الجوني، وعمرو بن فائد. ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٥٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢١٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٤).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، ورويس، وأبو جعفر، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٠).

﴿النجوى﴾ أي من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقِفَ عليه فيدافعَه وكان نجواهم ما نطَق به قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ أي بطريق التناجي والإسرار:

﴿إن هذان لساحران﴾ إلخ، فإنه تفسيرٌ له ونتيجةٌ لتنازعهم وخلاصةُ ما استقرت عليه آراؤُهم بعد التناظرِ والتشاور، وإنْ مخففةٌ من إنّ قد أهملت عن العمل واللامُ فارقةٌ، وقرئ بتشديد نون (هذان)[1]، وقيل: هي نافيةٌ واللامُ بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران، وقرئ (إنّ)[2] بالتشديد وهذان اسمُها على لغة بلحارث بن كعب فإنهم يُعربون التثنيةَ تقديرًا، وقيل: اسمُها ضميرُ الشأن المحذوفُ وهذان لساحران خبرُها، وقيل: إن بمعنى نعم وما بعدها جملةٌ من مبتدأ وخبر وفيهما أن اللامَ لا تدخُل خبرَ المبتدأ، وقيل: أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكدَ باللام لا يليق به الحذفُ، وقرئ (إن هذين لساحران)[3] وهي قراءةٌ واضحة ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم﴾ أي أرض مصرَ بالاستيلاء عليها ﴿بسحرهما﴾ الذي أظهراه من قبل ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضلُ المذاهب وأمثلُها بإظهار مذهبهما وإعلاءِ دينهما يريدون به ما كان عليه قومُ فرعون لا طريقةَ السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه دينًا، وقيل: أرادوا أهلَ طريقتكم وهم بنو إسرائيلَ لقول موسى عليه الصلاة والسلام: أرسل معنا بني إسرائيلَ وكانوا أربابَ علمٍ فيما بينهم،

---

(١) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٤)، والبحر المحيط (٦/ ٢٥٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٠)، والمعاني للفراء (٢/ ١٨٣)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٧٤).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف، والشنبوذي، والحسن، وشيبة، والأعمش، وطلحة، وحميد، وأيوب، وأبو عبيد، وأبو حاتم، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير، وابن جبير الأنطاكي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٠٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤٣).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، واليزيدي، والمطوعي، والحسن، وسعيد بن جبير، والجحدري، وإبراهيم النخعي، وعيسى بن عمر، وعائشة، والأعمش، وابن عبيد، ويونس، وعثمان، وابن الزبير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٥٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦١)، والتيسير للداني ص (١٥١)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢١٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٥٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٨٣)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٧٤).

ويأباه أن إخراجَهم من أرضهم إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكنًا وتصرفًا فكيف يتصور حينئذ نقلُ بني إسرائيلَ إلى الشام؟ وحملُ الإخراج على إخراج بني إسرائيلَ منها مع بقاء قومِ فرعون على حالهم مما يجب تنزيهُ التنزيلِ عن أمثاله على أن هذه المقالةَ منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمامِ بالمناصبة فلا بد أن يكون الإنذارُ والتحذيرُ بأشد المكاره وأشقِّها عليهم، ولا ريب في أن إخراجَ بني إسرائيلَ من بينهم والذهابَ بهم إلى الشام وهم آمنون في ديارهم ليس فيه كثيرُ محذورٍ، وقيل: الطريقةُ اسمٌ لوجوه القوم وأشرافِهم لما أنهم قُدوةٌ لغيرهم ولا يخفى أن تخصيصَ الإذهاب بهم مما لا مزيةَ فيه.

وقوله تعالى: ﴿**فأجمعوا كيدكم**﴾ تصريحٌ بالمطلوب إثرَ تمهيدِ المقدّمات والفاءُ فصيحةٌ، [أي][1] إذا كان الأمرُ كما ذُكر من كونهما ساحرَين يريدان بكم ما ذُكر من الإخراج والإذهاب فأجمعوا كيدَكم واجعلوه مُجمَعًا عليه بحيث لا يتخلّف عنه واحدٌ منكم وارمُوا عن قوس واحدةٍ، وقرئ (فاجْمَعوا)[2] من الجمع ويعضدُه قوله تعالى: ﴿فجَمع كيده﴾ [طه: ٦٠] [أي فاجمعوا][3] أدوات سحركم ورتّبوها كما ينبغي ﴿**ثم ائتوا صفًا**﴾ أي مصطفّين، أُمروا بذلك لأنه أهْيبُ في صدور الرائين وأدخلُ في استجلاب الرهبة من المشاهِدين، قيل: كانوا سبعين ألفًا مع كل منهم حبلٌ وعصًا وأقبلوا عليه إقبالةً واحدة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا اثنان من القِبط والباقي من بني إسرائيلَ، وقيل: تِسعَمائة: ثلاثُمائةٍ من الفرس، وثلاثُمائةٍ من الروم، وثلاثمائة من الإسكندرية، وقيل: خمسةَ عشرَ ألفًا، وقيل: بضعةً وثلاثين ألفًا والله أعلم.

ولعل الموعدَ كان مكانًا متسعًا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر في

---

(١) سقط في خ.
(٢) قرأ بها: أبو عمرو، واليزيدي، والزهري، وابن محيصن، ويعقوب، وأبو حاتم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٥٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦١)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٣٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٠)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٥٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٩).
(٣) سقط في خ.

قُطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم في قُطر آخرَ منه، ثم أُمروا بأن يأتوا وسَطَه على الوجه المذكور، وقد فُسّر الصفُّ بالمصلّى لاجتماع الناسِ فيه في الأعياد والصلواتِ ووجهُ صِحّتِه أن يكون علمًا لموضع معّينٍ من المكان الموعود، وأما إرادةُ مصلًّى من المصلَّيات بعد تعين المكان الموعودِ فلا مساغ لها قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من قِبلهم مؤكدٌ لما قبله من الأمرين، أي قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب: ما وعدهم فرعونُ من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قال نعم وإنكم لمن المقرّبين﴾ [الأعراف: ٢١٤] وبمن غلب: أنفسَهم جميعًا على طريقة قولهم: ﴿بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ [الشعراء: ٤٤] أو مَنْ غلب منهم حثًا لهم على بذل المجهودِ في المغالبة، هذا هو اللائقُ بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم، وقد قيل: كان نجواهم أن قالوا حين سمِعوا مقالةَ موسى عليه الصلاة والسلام: ما هذا بقول ساحر، وقيل: كان ذلك أن قالوا: إن غَلَبنا موسى اتّبعناه، وقيل: كان ذلك قولَهم: إن كان ساحرًا فسنغلِبه وإن كان من السماء فله أمرٌ، فيكون إسرارُهم حينئذ من فرعون ومَلئِه ويُحمل قولُهم: إن هذان لساحران إلخ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورةِ ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازُعِ والتناظُر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبَوْا إلا المناصبةَ للمعارضة، وأما جعلُ ضمير قالوا لفرعون وملَئِه، على أنهم قالوا ذلك للسحرة ردًا لهم عن الاختلاف وأمروهم بالإجماع والإزماعِ، وإظهارِ الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفافِ، فمُخِلٌّ بجزالة النظمِ الكريم كما يشهد به الذوقُ السليم.

﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ناشئ من حكاية ما جرى بين السحرة من المقارنة، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿يا موسى﴾ وإنما لم يتعرض لإجماعهم وإتيانِهم بطريق الاصطفافِ إشعارًا بظهور أمرِهما وغناهما عن البيان ﴿إما أن تلقي﴾ أي ما تُلقيه أولًا على أن المفعولَ محذوفٌ لظهوره أو تفعل الإلقاءَ أولًا على أن الفعلَ منزّلٌ منزلةَ اللازم ﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾ ما يُلقيه أو أولَ من يفعل الإلقاءَ، خيّروه عليه الصلاة والسلام بما ذُكر مراعاةً للأدب لِما رأَوا منه عليه الصلاة والسلام ما رأَوا من مخايل الخيرِ ورزانةِ الرأْي وإظهارًا للجلادة بإراءة أنه لا يختلف حالُهم بالتقديم والتأخير، وأنْ مع ما في حيزها

منصوبٌ بفعل مضمر أو مرفوعٌ بخبرية مبتدأ محذوفٍ أي اخترْ إلقاءَك أولًا أو إلقاءَنا، أو الأمرُ إما إلقاؤُك أو إلقاؤنا ﴿قال﴾ استئنافٌ كما سلف ناشئ من حكاية تخييرِ السحرةِ إياه عليه الصلاة والسلام، كأنه قيل: فماذا قال عليه الصلاة والسلام؟ فقيل: قال: ﴿بل القوا﴾ أنتم أولًا مقابلةً للأدب بأحسنَ مِنْ أدبهم حيث بتّ القولَ بإلقائهم أولًا، وإظهارًا لعدم المبالاةِ بسحرهم ومساعدةً لما أوهموا من الميل إلى البدء وليبْرِزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جُهدِهم ويستنفدوا قُصارى وُسعِهم، ثم يظهر الله عز وجل سلطانَه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لمّا علم أن ما سيظهر بيده سيلقَف ما يصنعون من مكايد السحر.

﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ الفاءُ فصيحة معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى: ﴿أن اضْرب بعصاك البحرَ فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فألقَوا فإذا حبالُهم، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنها أيضًا ظرفيةٌ تستدعي متعلَّقًا ينصِبها وجملةً تضاف إليها، ولكنها خُصت بكون متعلَّقِها فعلَ المفاجأة والجملةُ ابتدائيةٌ، والمعنى فألقَوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يُخيَّل إليه سعيُ حبالِهم وعِصِيِّهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطّخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمسُ اضطربت واهتزت فخُيل إليه أنها تتحرك، وقرئ (تُخيِّل)[1] بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعِصِيّ وإبدالِ (أنها تسعى) منه بدلَ اشتمالٍ، وقرئ (يُخيِّل) بإسناده إليه تعالى، وقرئ (تَخَيَّل)[2] بحذف إحدى التاءين من تتخيل ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ أي أضمر فيها بعضَ خوفٍ من مفاجأته بمقتضى البشريةِ المجبولةِ على النفْرة من الحيّات والاحترازِ من ضررها المعتاد من اللسْع ونحوِه، وقيل: من أن يخالج الناسَ شكٌّ فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه، وتأخيرُ الفاعل لمراعاة الفواصل.

﴿قلنا لا تخف﴾ أي ما توهمتَ ﴿إنك أنت الأعلى﴾ تعليلٌ لما يوجبه النهيُ من الانتهاء عن الخوف وتقريرٌ لغلبته على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كما يُعرب عنه الاستئنافُ،

---

(١) قرأ بها: أبو السمال، والحسن، وعيسى الثقفي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٥٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٢).
(٢) قرأ بها: أبو السمال.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٥٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٢)

وحرفُ التحقيق وتكريرُ الضمير وتعريفُ الخبر ولفظُ العلوّ المنبىءِ على الغلَبة الظاهرة وصيغةُ التفضيل.

﴿وألق ما في يمينك﴾ أي عصاك كما وقع في سورة الأعراف، وإنما أُوثر الإبهامُ تهويلًا لأمرها وتفخيمًا لشأنها وإيذانًا بأنها ليست من جنس العِصِيِّ المعهودة المستتبعةِ للآثار المعتادة، بل خارجةٌ عن حدود سائرِ أفراد الجنسِ مبهمةُ الكُنْهِ مستتبِعةٌ لآثار غريبةٍ. وعدمُ مراعاة هذه النُّكتةِ عند حكايةِ الأمرِ في موضع آخرَ لا يستدعي عدمَ مراعاتها عند وقوع المحكيّ. هذا وحملُ الإبهامِ على التحقير، بأن يراد لا تُبالِ بكثرة حبالِهم وعصيِّهم وألقِ العُوَيدَ الذي في يدك فإنه بقدرة الله تعالى يلقَفها مع وَحدته وكثرتها وصِغره وعِظَمها، يأباه ظهورُ حالها فيما مر مرتين، على أن ذلك المعنى إنما يليق بما لو فعلتْ العصا ما فعلتْ وهي على هيئتها الأصليةِ وقد كان منها ما كان وقوله تعالى: ﴿تلقف ما صنعوا﴾ بالجزم جوابًا للأمر من لقِفه إذا ابتلعه والتقمه بسرعة، والتأنيثُ لكون (ما) عبارةً عن العصا أي تبتلع ما صنعوه من الحبال والعِصِيّ التي خُيّل إليك سعيُها وخِفّتُها، والتعبيرُ عنها بما صنعوا للتحقير والإيذانِ بالتمويه والتزوير، وقرئ (تَلَقّف)[1] بتشديد القاف وإسقاطِ إحدى التاءين من تتلقف، وقرئ بالرفع[2] على الحال أو الاستئنافِ والجملةُ الأمرية معطوفةٌ على النهي متمّمةٌ بما في حيزها لتعليل موجبِهِ ببيان كيفيةِ غلبتِه عليه الصلاة والسلام وعلوِّه، فإن ابتلاعَ عصاه لأباطيلهم التي منها أوجسَ في نفسه ما أوجس مما يقلَع مادّته بالكلية، وهذا كما ترى صريحٌ في أن خوفَه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشكِّ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وقنبل، وشعبة، والنبال.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦٥)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٥٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٠).

(٢) قرأ بها: حمزة والكسائي، وخلف، والأعمش، وأبو بحرية، وطلحة، وابن أبي ليلى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦٥)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢١).

للناس وعدمِ اتّباعِهم له عليه الصلاة السلام وإلا لعُلّل بما يُزيله من الوعد بما يوجب إيمانَهم واتباعَهم له عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿إنما صنعوا﴾ إلخ، تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿تلقف ما صنعوا﴾ وما إما موصولةٌ أو موصوفةٌ أي إن الذي صنعوه أو إن شيئًا صنعوه ﴿كيدُ ساحرٍ﴾ بالرفع على أنه خبرٌ لـ (أن) أي كيدُ جنسِ الساحر، وتنكيرُه للتوسل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير، وقرئ بالنصب[١] على أنه مفعولُ (صنعوا) و(ما) كافةٌ، وقرئ (كيدُ سحرٍ)[٢] على أن الإضافةَ للبيان كما في علمُ فقهٍ أو على معنى ذي سحر أو على تسمية الساحر سحرًا مبالغةً.

وقوله تعالى: ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أي هذا الجنسُ ﴿حيث أتى﴾ أي حيث كان وأين أقبل، من تمام التعليل، وعدمُ التعرض لشأن العصا وكونِها معجزةً إلٰهيةً مع ما في ذلك من تقوية التعليلِ للإيذان بظهور أمرِها، والفاء في قوله تعالى:

﴿فألقى السحرة سجدًا﴾ كما سلف فصيحةٌ معربةٌ عن محذوفَين ينساق إليهما النظمُ الكريم غنيّين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردّدِ موسى عليه السلام في الامتثال بالأمر واستحالةِ عدمِ وقوعِ اللقْف الموعود، أي فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف (فألقى السحرةُ سجّدًا) لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وإنما هي آيةٌ من آيات الله عز وجل.

روي أن رئيسَهم قال: كنا نغلِب الناسَ وكانت الآلاتُ تبقى علينا، فلو كان هذا سحرًا فأين ما ألقَيناه من الآلاتِ؟ فاستَدلّ بتغير أحوال الأجسامِ على الصانع القادرِ العالِم، وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالتِه لا جرم،

---

(١) قرأ بها: مجاهد، وحميد، وزيد بن علي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٥)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٨٥).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وأبو بحرية، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي، وابن جرير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٦٥)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٠)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٢٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢١).

ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتَوا بما هو غايةُ الخضوعِ، قيل: لم يرفعوا رءوسَهم حتى رأَوا الجنةَ والنارَ والثوابَ والعقاب، وعن عِكرمة لما خرّوا سجدًا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلَهم في الجنة[1] ولا ينافيه قولهم: ﴿إنا آمنا بربنا ليغفِرَ لنا خطايانا﴾ [طه: ٧٣] إلخ، لأن كونَ تلك المنازلِ منازلَهم باعتبار صدورِ هذا القول [عنهم][2] ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر غيرَ مرة ﴿آمنا برب هرون وموسى﴾ تأخيرُ موسى عند حكاية كلامِهم لرعاية الفواصل وقد جُوّز أن يكون ترتيبُ كلامهم أيضًا هكذا، إما لِكِبَر سنِّ هارون عليه الصلاة والسلام وإما للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطلِ من جهة فرعونَ وقومِه، حيث كان فرعونُ ربّىٰ موسى عليه الصلاة والسلام في صِغَره فلو قدّموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعينُ وقومُه من أول الأمر أن مرادَهم فرعونُ.

﴿قال﴾ أي فرعونُ للسحرة: ﴿آمنتم له﴾ أي لموسى عليه الصلاة والسلام، واللامُ لتضمين الفعلِ معنى الاتباعِ، وقرئ على[3] الاستفهام التوبيخي ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أي من غير أن آذنَ لكم في الإيمان له كما في قوله تعالى: ﴿لنفد البحرُ قبل أن تنفَدَ كلماتُ ربي﴾ [الكهف: ١٠٩] لا أن إذنَه لهم في ذلك واقعٌ بعده أو متوقَّع ﴿إنه﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ﴿لكبيركم﴾ أي في فنكم وأعلمُكم به وأستاذكُم ﴿الذي علمكم السحر﴾ فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلّمكم شيئًا دون شيء فلذلك غلبكم، وهذه شُبهةٌ زوّرها اللعينُ وألقاها على قومه وأراهم أن أمرَ الإيمان منوطٌ بإذنه فلما كان إيمانُهم بغير إذنه لم يكن معتدًّا به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام، فلا عبرةَ بما أظهره كما لا عبرةَ بما أظهروه وذلك لِما اعتراه من الخوف من اقتداء الناسِ بالسحرة في الإيمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكّد حيث قال: ﴿فلأقطعن﴾ أي فوالله لأُقطعن ﴿أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي اليدَ اليمنى والرجلَ اليسرى، ومن ابتدائيةٌ كأن القطعَ ابتداءٌ من مخالفة العضو، فإن المبتدِئ من

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٣/ ٧٧).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والبزي.
ينظر: الحجة لأبي زرعة (٢٩٣، ٤٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩١).

المعروض مبتدِئ من العارض أيضًا، وهي مع مجرورها في حيّز النصبِ على الحالية أي لأقطعنّها مختلفاتٍ، وتعيينُ تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعِه لا محالة بتعيين كيفيتِه المعهودة في باب السياسة لا لأنها أفظعُ من غيرها ﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾ أي عليها، وإيثارُ كلمةِ (في) للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا تشبيهًا لاستمرارهم عليها[1] باستقرار المظروفِ المشتملِ عليه، قالوا: وهو أولُ من صَلَب، وصيغةُ التفعيل في الفعلَين للتكثير وقد قرئا[2] بالتخفيف ﴿**ولتعلمن أينا**﴾ يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله: آمنتم له قبل أن آذَنَ لكم، واللامُ مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا إما لقصد توضيعِ موسى عليه الصلاة والسلام والهُزْءِ به لأنه لم يكن من التعذيب في شيء، وإما لإراءة أن إيمانَهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينةِ البرهان بل كان عن خوف من قِبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاعَ عصاه لحبالهم وعِصِيهم فخافوا على أنفسهم أيضًا، وقيل: يريد به ربَّ موسى الذي آمنوا به بقولهم: آمنا برب هارون وموسى ﴿**أشد عذابًا وأبقى**﴾ أي أدوم.

﴿**قالوا**﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿**لن نؤثرك**﴾ لن نختارك بالإيمان والاتّباع ﴿**على ما جاءنا**﴾ من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿**من البينات**﴾ من المعجزات الظاهرة فإن ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملًا على معجزات جمّة كما مر تحقيقه فيما سلف، فإنهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائِقها ﴿**والذي**

---

(١) يشير الشيخ إلى أن في الآية استعارة في الحرف، وفي إجرائها آراء: فالخطيب القزويني يعد الاستعارة في الحروف استعارة تبعية تصريحية ويجريها في متعلقاتها من مجروراتها، والجمهور على أن متعلقات الحروف هي معانيها الكلية، وابن يعقوب المغربي على أن الاستعارة في الحرف استعارة مكنية وذلك مبني على تشبيه مدخول الحرف بما حقه أن يدخل عليه تشبيهًا مصغرًا في النفس ثم تستعير المشبه به للمشبه ثم تحذف المشبه به وترمز إليه بشيء من لوازمه.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها.

(٢) «فَلأَقْطَعَنَّ» قرأ بها: ابن محيصن، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٨٧).
«ولأَصْلِبَنَّكُم» قرأ بها: ابن محيصن، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٨٧).

فطرنا﴾ أي خلقنا وسائرَ المخلوقات وهو عطفٌ على ما جاءنا وتأخيرُه لأن ما في ضمنه آيةٌ عقليةٌ نظرية وما شاهدوه آيةٌ حسيةٌ ظاهرة، وإيرادُه تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للإشعار بعلة الحُكم فإن خالقيتَه لهم وكونَ فرعونَ من جملة مخلوقاتِه مما يوجب عدَم إيثارِهم له عليه سبحانه وتعالى، وهذا جوابٌ منهم لتوبيخ فرعونَ بقوله: ﴿آمنتم له قبل أن آذَن لكم﴾ [طه: ٧١]، وقيل: هو قسَمٌ محذوفُ الجواب لدِلالة المذكورِ عليه أي وحقِّ الذي فطرنا لا نؤثرك إلخ، ولا مساغَ لكون المذكورِ جوابًا له عند من يجوّز تقديمَ الجواب أيضًا لما أن القسمَ لا يجاب بلن إلا على شذوذ، وقوله تعالى: **﴿فاقض ما أنت قاض﴾** جوابٌ عن تهديده بقوله: لأقطعن إلخ، أي فاصنع ما أنت صانعُه أو فاحكم به.

وقوله تعالى: **﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾** مع ما بعده تعليلٌ لعدم المبالاة المستفادِ مما سبق من الأمر بالقضاء، أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الحياةِ الدنيا فحسبُ، وما لنا من رغبة في عذْبها ولا رهبةٍ من عذابها **﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾** التي اقترفنا فيها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة، لا ليمتّعنا بتلك الحياةِ الفانية حتى نتأثرَ بما أوعدتَنا به من القطع والصلب.

وقوله تعالى: **﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾** عطفٌ على (خطايانا) أي ويغفر لنا السحرَ الذي عمِلناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرِك إيانا من المدائن القاصية، خصّوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارًا لغاية نفرتِهم عنه ورغبتهم في مغفرته، وذكرُ الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرَد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوعُ اعتذارٍ لاستجلاب المغفرةِ، وقيل: أرادوا الإكراهَ على تعلم السحر حيث روي أن رؤساءَهم كانوا اثنين وسبعين: اثنان منهم من القِبط والباقي من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وقيل: إنه أكرههم على المعارضة حيث روي أنهم قالوا لفرعون: أرِنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرُسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر فإن الساحرَ إذا نام بطل سحرُه، فأبى إلا أن يعارضوه ويأباه تصدّيهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يُعرب عنه قولُهم: ﴿أئنّ لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين﴾ [الشعراء: ٤١] وقولهم: ﴿بعزة فرعونَ إنا لنحن الغالبون﴾ [الشعراء: ٤٤] **﴿والله خير﴾** أي في حد ذاتِه وهو ناظرٌ إلى قولهم: والذي فطرنا

﴿**وأبقى**﴾ أي جزاءً، ثوابًا كان أو عذابًا أو خيرٌ ثوابًا وأبقى عذابًا.

وقوله تعالى: ﴿**إنه**﴾ إلى آخر الشرطيتين تعليلٌ من جهتهم لكونه تعالى خيرًا وأبقى جزاءً وتحقيقٌ له وإبطالٌ لما ادّعاه فرعون، وتصديرُهما بضمير الشأنِ للتنبيه على فخامة مضمونِهما لأن مناطَ وضْع الضميرِ موضعَه ادّعاءُ شهرتِه المغْنيةِ عن ذكره مع ما فيه من زيادة التقريرِ فإن الضميرَ لا يفهم منه من أول الأمرِ إلا شأنٌ مبهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهنُ مترقِّبًا لما يعقُبه فيتمكن عند وروده له فضلُ تمكن، كأنه قيل: إن الشأنَ الخطيرَ هذا أي قوله تعالى: ﴿**من يأت ربه مجرمًا**﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي ﴿**فإن له جهنم لا يموت فيها**﴾ فينتهيَ عذابُه وهذا تحقيقٌ لكون عذابه أبقى ﴿**ولا يحيا**﴾ حياةً ينتفع بها ﴿**ومن يأته مؤمنًا**﴾ به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التي من جملتها ما شاهدناه ﴿**قد عمل الصالحات**﴾ الصالحةُ كالحسنة جاريةٌ مجرى الاسم ولذلك لا تُذكر غالبًا مع الموصوف وهي كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقلِ والنقل ﴿**فأولئك**﴾ إشارةٌ إلى مَنْ والجمعُ باعتبار معناها كما أن الإفراد في الفعلين السابقين باعتبار لفظِها، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعلوّ درجتِهم وبُعد منزلتِهم، أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿**لهم**﴾ بسبب إيمانِهم وأعمالِهم الصالحة ﴿**الدرجات العلى**﴾ أي المنازلُ الرفيعةُ، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبارِ الإيمان المجرد عن العمل الصالحِ في استتباع الثوابِ، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوزُ بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقًا وهل التشاجرُ إلا فيه؟! ﴿**جنات عدن**﴾ بدلٌ من الدرجات العلى أو بيان، وقد مر أنّ عدْنًا علمٌ لمعنى الإقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى: ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ حال من الجنات وقوله تعالى ﴿**خالدين فيها**﴾ حالٌ من الضمير في لهم والعاملُ معنى الاستقرارِ أو الإشارةِ ﴿**وذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذُكر من الدرجات العُلى، ومعنى البُعد لما مر من التفخيم ﴿**جزاء من تزكى**﴾ أي تطهر من دنس الكفرِ والمعاصي بما ذكر من الإيمان والأعمالِ الصالحة، وهذا تحقيقٌ لكون ثوابِه تعالى أبقى، وتقديمُ ذكرِ حال المجرمِ للمسارعة إلي بيان أشدّية عذابِه ودوامِه ردًا على ما ادعاه فرعونُ بقوله: ﴿أيُّنا أشدُّ عذابًا وأبقى﴾ [طه: ٧١]. هذا وقد قيل: هذه الآياتُ الثلاثُ ابتداءُ كلامٍ من الله عز وجل، قالوا: ليس في القرآن أن فرعونَ فعل بأولئك

المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبُت في الأخبار.

نجاة موسى

﴿ولقد أوحينا إلى موسى﴾ حكايةٌ إجماليةٌ لما انتهى إليه أمرُ فرعونَ وقومِه، وقد طُويَ في البين ذِكرُ ما جرى عليهم من الآيات المفصّلات الظاهرةِ على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرةَ في نحو من عشرين سنةً حسبما فُصّل في سورة الأعراف، وتصديرُها بالقسم لإبراز كمالِ العناية بمضمونها وأنْ في قوله: ﴿أن أسر بعبادي﴾ إما مفسرةٌ لأن الوحيَ فيه معنى القول أو مصدريةٌ حذف عنها الجارُّ، والتعبيرُ عنهم بعنوان كونِهم عبادًا له تعالى لإظهار المرحمةِ والاعتناءِ بأمرهم والتنبيهِ على غاية قُبح صنيعِ فرعونَ بهم حيث استعبدهم وهم عبادُه عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل، أي وبالله لقد أوحينا إليه عليه الصلاة والسلام أنْ أسرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم من مَلَكة فرعونَ، أي سِرْ بهم من مصرَ ليلًا ﴿فاضرب لهم﴾ أي فاجعل أو فاتخذْ لهم ﴿طريقًا في البحر يبسًا﴾ أي يابسًا على أنه مصدرٌ وصف به الفاعلُ مبالغةً، وقرئ (يَبْسًا)[1] وهو إما مخففٌ منه أو وصفٌ كصعب، أو جمعُ يابس كصحْب، وُصف الواحد للمبالغة أو لتعدّده حسبَ تعدّدِ الأسباط ﴿لا تخاف دركًا﴾ حالٌ من المأمور أي آمِنًا من أن يُدركَكم العدوُّ أو صفةٌ أخرى لطريقًا والعائدُ محذوفٌ، وقرئ (لا تخَفْ)[2] جوابًا للأمر ﴿ولا تخشى﴾ عطف على لا تخاف داخلٌ في حكمه أي ولا تخشى الغرقَ، وعلى قراءة الجزم استئنافٌ أي وأنت لا تخشى أو عطفٌ عليه والألفُ للإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿وتظنّون بالله الظنونا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وتقديمُ نفي الخوفِ المذكورِ للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيمِ حيث قالوا: إنا لمدرَكون.

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٤)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٩٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وابن أبي ليلى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٥١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٠)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٢٨)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢١).

﴿فأتبعهم فرعونُ بجنوده﴾ أي تبِعهم ومعه جنودُه حتى لحِقوهم، يقال: أتْبعتُهم أي تبِعتُهم وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتهم، ويؤيده أنه قرئ (فاتّبعهم)[1] من الافتعال، وقيل: المعنى أتْبعهم فرعونُ نفسَه فحذف المفعولُ الثاني، وقيل: الباءُ زائدةٌ والمعنى فأتبعهم فرعونُ جنودَه أي ساقهم خلفهم، وأيا ما كان فالفاءُ فصيحةٌ مُعرِبة عن مُضمر قد طُوي ذكرُه ثقةً بغاية ظهورِه وإيذانًا بكمال مسارعةِ موسى عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بالأمر، أي ففعل ما أُمر به من الإسراء بهم وضرْب الطريقِ وسلوكِه فأتبعهم فرعونُ وجنودُه برا وبحرا.

روي أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أولَ الليل وكانوا ستَّمائةٍ وسبعين ألفًا، فأخبر فرعونُ بذلك فاتّبعهم بعساكره وكانت مقدمتُه سبعَمائة ألفٍ فقفى أثرهم فلحِقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحرَ فانفلق على اثني عشر فرقًا كلُّ فِرقٍ كالطود العظيم، فعبَر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبِعهم فرعونُ بجنوده ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أي علاهم منه وغمرَهم ما غمرهم من الأمر الهائلِ الذي لا يقادَر قدرُه ولا يُبلغ كُنهُه، وقيل: غشِيهم ما سُمِعَت قِصتُه وليس بذاك، فإن مدارَ التهويلِ والتفخيمِ خروجُه عن حدود الفهم والوصفِ لا سماعُ قصتِه، وقرئ (فغشّاهم من اليم ما غشاهم)[2] أي غطاهم ما غطاهم، والفاعلُ هو الله عز وعلا أو ما غشاهم، وقيل: فرعونُ لأنه الذي ورّطهم للهلاك ويأباه الإظهارُ في قوله تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ أي سلك مسلَكًا أداهم إلى الخَيبة والخُسران في الدين والدنيا معًا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائلِ الدنيويّ المتصل بالعذاب الخالدِ الأخروي.

وقوله تعالى: ﴿وما هدى﴾ أي ما أرشدهم قطُّ إلى طريق موصلٍ إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية، تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له إذ رُبّ مضِل قد يُرشد من يُضِلّه

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٢).

(٢) قرأ بها: المطوعي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٧)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٩٣).

إلى بعض مطالبِه، وفيه نوعُ تهكمٍ به في قوله: ﴿وما أَهديكم إلا سبيلَ الرشاد﴾ [غافر: ٢٩] فإن نفيَ الهدايةِ عن شخص مُشعرٌ بكونه ممن يُتصور منه الهداية في الجملة وذلك إنما يُتصور في حقه بطريق التهكم، وحملُ الإضلالِ والهداية على ما يختص بالديني منهما يأباه مقامُ بيانِ سَوْقه بجنوده إلى مساق الهلاكِ الدنيوي، وجعلُهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاءِ منه مما لا يقبله العقل السليم.

إنعام على بني إسرائيل

﴿**يا بني إسرائيل**﴾ حكايةٌ لما خاطبهم الله تعالى بعد إغراقِ فرعونَ وقومِه وإنجائِهم منهم لكن لا عَقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعمِ الدينية والدنيوية ما أفاض، وقيل: هو إنشاءُ خطابٍ للذين كانوا منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد منّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبَعًا، ويردُّه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وما أعجلَك﴾ [طه: ٨٣] الآية، ضرورةَ استحالةِ حملِه على الإنشاء، فالوجهُ هو الحكايةُ بتقدير (قلنا) عطفًا على أوحينا، أي وقلنا: يا بني إسرائيل ﴿**قد أنجيناكم من عدوكم**﴾ فرعونَ وقومِه حيث كانوا يبغونكم الغوائلَ ويسومونكم سوءَ العذاب يذبّحون أبناءَكم ويستحيون نساءكم، وقرئ (نجيناكم)[١] و(أنجيتُكم)[٢] ﴿**وواعدناكم جانب الطور الأيمنَ**﴾ بالنصب على أنه صفةٌ للمضاف، وقرئ بالجرّ[٣] للجوار أي واعدناكم بواسطة نبيِّكم إتيانَ جانبِه الأيمنِ نظرًا إلى السالك من مصرَ إلى الشام، أي إتيانَ موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وإنزالَ التوراة عليه، ونُسبت المواعيدُ إليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرًا إلى ملابستها إياهم وسِراية منفعتِها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقَّه كما في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾ [الأعراف: ١١] حيث نسَب الخلقَ والتصويرَ إلى

---

(١) قرأ بها: حميد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٦٤).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٠)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٢).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٧)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٩٦).

المخاطبين مع أن المخلوقَ المصوّر بالذات هو آدمُ عليه الصلاة والسلام، وقرئ (واعدتُكم)[١] (ووعدناكم)[٢] ﴿**ونزلنا عليكم المن والسلوى**﴾ أي الترنجبين والسمان حيث كان ينزل عليهم المنُّ وهو في التيه مثلَ الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاعٌ، ويبعث الجنوبُ عليهم السمان فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مرارًا ﴿**كلوا**﴾ جملةٌ مستأنفة مَسوقة لبيان إباحة ما ذكر لهم وإتمامًا للنعمة عليهم ﴿**من طيبات ما رزقناكم**﴾ أي من لذائذه أو من حلالاته، وقرئ (رزقتكم)[٣]، وفي البدء بنعمة الإنجاءِ ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظمِ ولطفِ الترتيب ما لا يخفى ﴿**ولا تطغوا فيه**﴾ أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدّي لما حُدّ لكم فيه كالسرَف والبطَر والمنع من المستحِق ﴿**فيحلَّ عليكم غضبي**﴾ جواب للنهي أي فتلزمَكم عقوبتي وتجبَ لكم، من حلّ الدَّينُ إذا وجب أداؤه.

﴿**ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾ أي تردّى وهلك، وقيل: وقع في الهاوية، وقرئ (فيحُلَّ)[٤] بضم الحاء من حل يحُل إذا نزل ﴿**وإني لغفار لمن تاب**﴾ من الشرك والمعاصي التي من جملتها الطغيانُ فيما ذكر ﴿**وآمن**﴾ بما يجب الإيمان به ﴿**وعمل صالحًا**﴾ أي عملًا صالحًا مستقيمًا عند الشرع والعقلِ، وفيه ترغيبٌ لمن

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٠)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٣)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٩٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٠)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩١)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

(٤) قرأ بها: الكسائي، والشنبوذي، وقتادة، وأبو حيوة، والأعمش، وطلحة، ويحيى بن وثاب، والفراء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٢)، والتيسير للداني ص (١٥٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٣٠)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٢).

وقع منه الطغيانُ فيما ذكر وحثٌّ على التوبة والإيمان وقوله تعالى: ﴿ثم اهتدى﴾ أي استقام على الهدى إشارةٌ إلى أن من لم يستمرَّ عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخي الرتبي.

﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ حكايةٌ لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداءِ موافاته الميقاتَ بموجب المواعدةِ المذكورة، أي قلنا له: أيُّ شيءٍ أعجلك منفردًا عن قومك؟ وهذا كما ترى سؤالٌ عن سبب تقدمه على النقباء مَسوقٌ لإنكار انفرادِه عنهم لما في ذلك بحسب الظاهر من مخايل إغفالهم وعدمِ الاعتداد بهم مع كونه مأمورًا باستصحابهم وإحضارِهم معه، لا لإنكاره نفسَ العجلة الصادرةِ عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصةً منافية للحزم اللائقِ بأولي العزم، ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفي الانفرادِ المنافي للاستصحاب والمعية حيث ﴿قال هم أولاء على أثري﴾ يعني إنهم معي وإنما سبقتهم بخُطًا يسيرة ظننتُ أنها لا تُخِل بالمعية ولا تقدح في الاستصحاب، فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقةِ أصلًا، وبعد ما ذكرَ عليه الصلاة والسلام أن تقدّمَه ذلك ليس لأمر منكر ذكَر أنه لأمر مَرضيّ حيث قال: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ عنّي بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء بعهدك، وزيادةُ ربِّ لمزيد الضراعةِ والابتهال رغبةً في قَبول العذر ﴿قال﴾ استئنافٌ مبني على سؤال نشأ من حكاية اعتذارِه عليه الصلاة والسلام وهو السرُّ في وروده على صيغة الغائبِ، لا أنه التفاتٌ من التكلم إلى الغَيبة لما أن المقدرَ فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم، كأنه قيل من جهة السامعين: فماذا قال له ربه حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿فإنا قد فتنا قومك من بعدك﴾ أي ابتليناهم بعبادة العِجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلّفهم مع هارونَ عليه الصلاة والسلام، وكانوا ستَّمائة ألفٍ ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشرَ ألفًا، والفاءُ لترتيب الإخبار بما ذكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجَلته لكن لا لأن الإخبارَ بها سببٌ موجبٌ للإخبار به، بل لما بينهما من المناسبة المصحِّحة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث إن مدارَ الابتلاءِ المذكور عجَلةُ القوم، فإنه روي أنهم أقاموا على ما وصّى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلةً بعد ذهابه فحسَبوها مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العدةَ وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عينٌ ولا أثر.

﴿وأضلهم السامري﴾ حيث كان هو المدبرَ في الفتنة فقال لهم: إنما أخلفَ موسى عليه الصلاة والسلام ميعادَكم لما معكم من حُلِيّ القوم وهو حرامٌ عليكم فكان من أمر العجل ما كان، فإخبارُه تعالى بوقوع هذه الفتنةِ عند قدومِه عليه الصلاة والسلام إما باعتبار تحققِها في علمه تعالى ومشيئتِه، وإما بطريق التعبيرِ عن المتوقَّع بالواقع كما في قوله تعالى: ﴿ونادى أصحابُ الجنة﴾ [الأعراف: ٤٤] ونظائرِه، أو لأن السامريَّ كان قد عزم على إيقاع الفتنةِ عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدّى لترتيب مبانيها وتمهيدِ مباديها فكانت الفتنةُ واقعةً عند الإخبار بها، وقرئ[1] وأضلُّهم السامريُّ على صيغة التفضيلِ أي أشدُّهم ضلالًا لأنه ضالٌّ ومُضلٌّ، والسامريُّ منسوبٌ إلى قبيلة من بني إسرائيلَ يقال لها السامرة، وقيل: كان عِلْجًا من كَرْمان، وقيل: من أهل باجرما واسمُه موسى بنُ ظفر وكان منافقًا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر ﴿فرجع موسى إلى قومه﴾ عند رجوعِه المعهود أي بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة لا عَقيبَ الإخبار بالفتنة، فسببيةُ ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوعِ المستفاد من قوله تعالى: ﴿غضبان أسِفًا﴾ لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلةً عليه حقيقةً فإن كونَ الرجوعِ بعد تمام الأربعين أمرٌ مقرّرٌ مشهورٌ لا يذهب الوهمُ إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلتَ: شايعتُ الحُجاجَ ودعوتُ لهم بالسلامة فرجعوا سالمين، فإن أحدًا لا يرتاب في أن المراد رجوعُهم المعتادُ لا رجوعُهم إثرَ الدعاء وأن سببيةَ الدعاءِ باعتبار وصفِ السلامة لا باعتبار نفس الرجوعِ، والأسِفُ: الشديدُ الغضب، وقيل: الحزين ﴿قال﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ناشئ من حكاية رجوعِه كذلك، كأنه قيل: فماذا فَعل بهم؟ فقيل: قال: ﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا﴾ بأن يُعطيَكم التوارةَ فيها ما فيها من النور والهدى، والهمزةُ لإنكار عدم الوعدِ ونفيه وتقريرِ وجودِه على أبلغ وجه وآكَدِه، أي وعَدكم بحيث لا سبيلَ لكم إلى إنكاره، والفاء في قوله تعالى: ﴿أفطال عليكم العهد﴾ أي الزمان للعطف على مقدر والهمزةُ لإنكار المعطوفِ ونفيه فقط، أي أوعدكم ذلك فطال زمانُ الإنجاز فأخطأتم بسببه ﴿أم أردتم أن يحل﴾ أي يجبَ ﴿عليكم غضب﴾ شديدٌ لا يقادر قدرُه كائنٌ ﴿من

---

(١) قرأ بها: أبو معاذ.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٦٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٤٩).

ربكم﴾ أي من مالك أمرِكم على الإطلاق **﴿فأخلفتم موعدي﴾** أي وعْدَكم إياي بالثبات على ما أمرتُكم به إلى أن أرجِع من الميقات على إضافة المصدرِ إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيحِ حالِهم، فإن إخلافَهم الوعدَ الجاريَ فيما بينهم وبينه عليه السلام، من حيث إضافتُه إليه عليه السلام، أشنعُ منه من حيث إضافتُه إليهم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على كل واحد من شِقَّي الترديد على سبيل البدلِ، كأنه قيل: أنسيتم الوعدَ بطول العهد فأخلفتموه خطأً أم أردتم حلولَ الغضب عليكم فأخلفتموه عمْدًا؟ وأما جعلُ الموعدِ مضافًا إلى فاعله وحملُ إخلافه على معنى وجدانِ الخلُف فيه، أي فوجدتم الخُلفَ في موعدي لكم بالعَود بعد الأربعين فمما لا يساعده السباقُ ولا السياق أصلًا.

﴿قالوا ما أخلفنا موعدك﴾ أي وعدَنا إياك الثباتَ على ما أمرتَنا به، وإيثارُه على أن يقال: موعدَنا على إضافة المصدرِ إلى فاعله لما مر آنفًا **﴿بملكنا﴾** أي بأن ملَكنا أمورَنا يعنون أنا لو خُلّينا وأمورَنا ولم يسوّل لنا السامريُّ ما سوله مع مساعدة بعضِ الأحوالِ لما أخلفناه، وقرئ (بمِلْكنا)[١] بكسر الميم وضمِّها[٢] والكلُّ لغاتٌ في مصدر ملَكتُ الشيءَ **﴿ولكنا حملنا أوزارًا من زينة القوم﴾** استدراكٌ عما سبق واعتذارٌ عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ، وقرئ[٣] حَمَلنا بالتخفيف أي حمَلْنا أحمالًا من حُليِّ القِبْط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصرَ باسم العُرس، وقيل: كانوا

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٤)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والحسن، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وقعنب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٤)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٣٤)، والحجة لابن خالويه، ص (٢٤٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٢).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٥)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٣).

استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردّوها إليهم عند الخروجِ مخافةَ أن يقفوا على أمرهم، وقيل: هي ما ألقاه البحرُ على الساحل بعد إغراقهم فأخذوها، ولعل تسميتهم لها أوزارًا لأنها تبعاتٌ وآثامٌ حيث لم تكن الغنائمُ تحِلّ حينئذ ﴿فقذفناها﴾ أي في النار رجاءً للخلاص عن ذنبها ﴿فكذلك﴾ أي فمثل ذلك القذف ﴿ألقى السامري﴾ أي ما كان معه منها وقد كان أراهم أنه أيضًا يُلقي ما كان معه من الحُليّ فقالوا ما قالوا على زعمهم، وإنما كان الذي ألقاه التربةَ التي أخذها من أثر الرسولِ كما سيأتي، روي أنه قال لهم: إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من الأوزار فالرأي أن نحفِرَ حفيرةً ونسجر فيها نارًا ونقذفَ فيها كلَّ ما معنا ففعلوا ﴿فأخرج﴾ أي السامريُّ ﴿لهم﴾ للقائلين ﴿عجلًا﴾ من تلك الحُلِيّ المُذابة، وتأخيرُه مع كونه مفعولًا صريحًا عن الجار والمجرور لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم فإن قوله تعالى ﴿جسدًا﴾ أي جُثةً ذا دم ولحمٍ، أو جسدًا من ذهب لا روحَ له بدلٌ منه وقوله تعالى: ﴿له خوار﴾ أي صوتُ عجلٍ، نعتٌ له ﴿فقالوا﴾ أي السامريُّ ومن افتُتن به أولَ ما رآه ﴿هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسي﴾ أي غفَل عنه وذهب يطلُبه في الطور، وهذا حكايةٌ لنتيجة فتنةِ السامريّ فعلًا وقولًا[1] من جهته تعالى قصدًا إلى زيادة تقريرِها، ثم ترتيبِ الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل: فأخرج لنا، والحملُ على أن عدولَهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الإخراجَ والقولَ المذكورَيْن للكل لا للعَبَدة فقط خلافُ الظاهر مع أنه مُخلٌّ باعتذارهم، فإن مخالفةَ بعضهم للسامري وعدَم افتتانِهم [بتسويله مع كون الإخراجِ والخطاب لهم مما يهوّن مخالفتَه للمعتذرين، فافتتانهم][2] بعد ذلك أعظمُ جنايةً وأكثر شناعةً.

وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبُدوا العجلَ وأن نسبة الإخلافِ فيما بيننا بأمر كنا نملِكه، بل تمكنت الشبهةُ في قلوب العبَدةِ حيث فعل السامريُّ ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال، فلم نقدِرْ على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافةَ ازديادِ الفتنة فيقضي بفساده سباق النظمِ الكريم وسياقه.

---

(١) في ط: وقول.
(٢) سقط في خ.

وقوله تعالى: **﴿أفلا يرون﴾** إلخ، إنكار وتقبيحٌ من جهته تعالى لحال الضالّين والمُضلّين جميعًا وتسفيةٌ لهم فيما أقدموا عليه من المنكَر الذي لا يشتبه بطلانُه واستحالتُه على أحد وهو اتخاذُه إلٰهًا، والفاءُ للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون **﴿ألا يرجع إليهم قولًا﴾** أي أنه لا يرجِعُ إليهم كلامًا ولا يرد عليهم جوابًا، فكيف يتوهّمون أنه إلٰهٌ؟ وقرئ (يرجع)[1] بالنصب، قالوا: فالرؤية حينئذ بصريةٌ فإن أن الناصبةَ لا تقع بعد أفعالِ اليقين أي ألا ينظرون فلا يُبصرون عدمَ رجْعِه إليهم قولًا من الأقوال، وتعليقُ الإبصار بما ذُكر مع كونه أمرًا عدميًا للتنبيه على كمال ظهورِه المستدعي لمزيد تشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم، وقوله تعالى: **﴿ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا﴾** عطف على لا يرجعُ داخلٌ معه في حيز الرؤية، أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفعَ عنهم ضرًّا أو يجلُبَ لهم نفعًا، أو لا يقدر على أن يضرَّهم إن لم يعبدوه أو ينفعَهم إن عبدوه **﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾** جملةٌ قسميةٌ مؤكدة لما قبلها من الإنكار والتشنيع ببيان عُتوِّهم واستعصائِهم على الرسول إثرَ بيانِ مكابرتهم لقضية العقولِ، أي وبالله لقد نصح لهم هارونُ ونبّههم على كُنه الأمرِ من قبل رجوعِ موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وخطابِه إياهم بما ذكر من المقالات، وقيل: من قبل قولِ السامري كأنه عليه السلام أو وما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتانَ به فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم: **﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾** أي أُوقِعتم في الفتنة بالعجل أو أُضللتم به على توجيه القصر المستفادِ من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدّعيه القومُ، لا إلى قيده المذكورِ بالقياس إلى قيد آخرَ على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الإرشاد إلى الحق، لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى: **﴿وإن ربكم الرحمٰن﴾** بكسر إن عطفًا على إنما، إرشادٌ لهم إلى الحق إثرَ زجرهم عن الباطل، والتعرّضُ لعنوان الربوبيةِ والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق كما أن التعرضَ لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل، أي إن ربكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمٰنُ لا غيرُ، والفاء في قوله تعالى: **﴿فاتبعوني﴾** لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين، أي إذا كان الأمرُ كذلك فاتبعوني

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة، والزعفراني، وابن صبيح، وأبان، والشافعي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٠٤).

في الثبات على الدين ﴿وأطيعوا أمري﴾ هذا واترُكوا عبادةَ ما عرفتم شأنه.

﴿قالوا﴾ في جواب هارون عليه الصلاة والسلام ﴿لن نبرح عليه﴾ على العجل وعبادته ﴿عاكفين﴾ مقيمين ﴿حتى يرجع إلينا موسى﴾ جعلوا رجوعَه عليه السلام إليهم غايةً لعُكوفهم على عبادة العجلِ لكن لا على طريق الوعدِ بتركها عند رجوعِه عليه السلام بل بطريق التعللِ والتسويفِ، وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجِع بشيء مبين تعويلًا على مقالة السامريّ.

روي أنهم لما قالوه اعتزلهم هارونُ عليه السلام في اثني عشر ألفًا وهم الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياحَ وكانوا يرقُصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوتُ الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا.

وقوله تعالى: ﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهارون عليه السلام، كأنه قيل: فماذا قال موسى لهارون عليهما السلام حين سمع جوابهم له؟ وهل رضيَ بسكوته بعد ما شاهد منهم [ما شاهد؟][1] فقيل: قال له وهو مغتاظٌ قد أخذ بلحيته ورأسه.

غضب موسى

﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالةِ الشنعاء ﴿أن لا تتبعنِ﴾ أي أن تتّبعَني، على أن لا مزيدةٌ وهو مفعولٌ ثانٍ لـ (منعك) وهو عامل في إذ، أيْ أيُّ شيءٍ منعك حين رؤيتِك لضلالهم من أن تتبعني في الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به، وقيل: المعنى ما حملك على ألا تتبعني، فإن المنع عن الشيء مستلزمٌ للحمل على مقابله، وقيل: ما منعك أن تلحقَني وتُخبرَني بضلالهم فتكونَ مفارقتُك مزْجرةً لهم، وفيه أن نصائحَ هارونَ عليه السلام حيث لم تزجُرْهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجُرَهم مفارقتُه إياهم عنه أولى، والاعتذارُ بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوعَ موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل عن حيز القبول، كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى رجوعه عليه السلام ﴿أفعصيت أمري﴾ أي بالصلابة في الدين والمحاماةِ

(١) سقط في خ.

عليه فإن قوله له عليهما السلام: اخلُفني متضمنٌ للأمر بهما حتمًا، فإن الخلافةَ لا تتحقق [إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلِفُ][1] [لو كان حاضرًا، والهمزة للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي ألم تتبعني أو خالفتني فعصيت أمري][2] **﴿قال يا ابن أم﴾** خَصّ الأمَّ بالإضافة استعطافًا لحقها وترقيقًا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهورَ على أنهما كان شقيقين **﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾** أي ولا بشعر رأسي، روي أنه عليه السلام أخذ شعرَ رأسِه بيمينه ولحيتَه بشماله من شدة غيظِه وفرْطِ غضبِه لله، وكان عليه السلام حديدًا متصلّبًا في كل شيء فلم يتمالكْ حين رآهم يعبدون العجلَ ففعل ما فعل وقوله تعالى: **﴿إني خشيت﴾** إلخ، استئنافٌ سيق لتعليل موجبِ النهي ببيان الداعي إلى ترك المقاتلةِ وتحقيقِ أنه غيرُ عاصٍ لأمره بل ممتثلٌ به، أي إني خشيتُ لو قاتلت بعضَهم ببعض وتفانَوا وتفرقوا **﴿أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾** برأيك مع كونهم أبناءَ واحدٍ كما ينبئ عنه ذكرُهم بذلك العنوان دون القوم ونحوِه، وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتالُ من التفريق الذي لا يرُجى بعده الاجتماعُ **﴿ولم ترقب قولي﴾** يريد به قولَه عليه السلام: اخلُفني في قومي وأصلح إلخ، يعني إني رأيت أن الإصلاحَ في حفظ الدَّهْماءِ والمداراةِ معهم إلى أن ترجِع إليهم فلذلك استأنيتُك لتكون أنت المتدارِكَ للأمر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا في غاية القوةِ ونحن على القلة والضّعف كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إن القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿قال﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفسادِ إلى السامري واعتذارِ هارونَ عليه السلام، كأنه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حُكي من الاعتذارين واستقرارِ الفتنة على السامري؟ فقيل: قال موبخًا له: هذا شأنُهم **﴿فما خطبك يا سامري﴾** أي ما شأنُك وما مطلوبُك مما فعلت، خاطبه عليه السلام بذلك ليُظهر للناس بُطلانَ كيدِه باعترافه ويفعلَ به وبما

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في ط.

صنعه من العقاب ما يكون نكالًا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم ﴿**قال**﴾ أي السامريُّ مجيبًا له عليه السلام: ﴿**بصرت بما لم يبصروا به**﴾ بضم الصاد فيهما، وقرئ بكسرها[١] في الأول وفتحِها[٢] في الثاني، وقرئ بالتاء[٣] على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومِه، أي علمتُ ما لم يعلمْه القوم وفطِنت لما لم يفطَنوا له أو رأيت ما لم يرَوه، وهو الأنسب بما سيأتي من قوله: ﴿وكذلك سوّلت لي نفسي﴾ لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاءَ علمٍ ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأةٌ عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاءِ رؤيةِ ما لم يرَه عليه السلام فإنها مما يقع بحسب ما يتفق، وقد كان رأى أن جبريلَ عليه السلام جاء راكبَ فرسٍ وكان كلما رفع الفرسُ يديه أو رجليه على الطريق اليَبَس يخرج من تحته النباتُ في الحال، فعرف أن له شأنًا فأخذ من موطئه حفنةً وذلك قوله تعالى: ﴿**فقبضتُ قبضة من أثر الرسول**﴾ وقرئ (من أثر فرسِ الرسولِ)[٤] أي من تربة موطِئ فرسِ الملَك الذي أُرسل إليك ليذهبَ بك إلى الطور، ولعل ذكرَه بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقِفْ عليه القومُ من الأسرار الإلٰهية تأكيدًا لما صدّر به مقالتَه والتنبيهِ على وقت أخْذِ ما أخذه[٥]، والقبضةُ المرّةُ من القبض أُطلقت على المقبوض مرةً، وقرئ بضم

---

(١) قرأ بها: المطوعي، والأعمش، وأبو السمال.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١١٠).

(٢) قرأ بها: المطوعي، والأعمش، وأبو السمال.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١١٠).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي،وخلف، والأعمش، وأبو بحرية، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن مناذر، وابن سعدان، وقعنب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٩)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩١)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٤، ٢٥).

(٤) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١).

(٥) في خ: أخذوه.

القاف[١] وهو اسمُ المقبوض كالغُرفة والمُضغة، وقرئ (فقبصْت قبصة)[٢] بالصاد المهملة والأول للأخذ بجميع الكف والثاني بأطراف الأصابع، ونحوُهما الخضْمُ والقضم ﴿فنبذتها﴾ أي في الحُليّ المُذابة فكان ما كان ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أي ما فعلتُه من القبض والنبذ فقوله تعالى: ﴿وكذلك﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ المذكور بعده، ومحلُّ كذلك في الأصل النصبُ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌّ أي نعتٌ لمصدر محذوف والتقديرُ سولت لي نفسي تسويلًا كائنًا مثلَ ذلك التسويلِ فقُدّم على الفعل لإفادة القصر واعتُبرت الكافُ مقحمةً لإفادة تأكيدِ ما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامة فصار نفسَ المصدرِ المؤكّدِ لا نعتًا له، أي ذلك التزيينَ البديعَ زينت لي نفسي ما فعلتُه، لا تزيينًا أدنى منه ولذلك فعلتُه وحاصلُ جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحضر اتباعِ هوى النفسِ الأمارة بالسوء وإغوائِها لا بشيء آخرَ من البرهان العقليّ أو الإلهامِ الإلٰهي.

فعند ذلك ﴿قال﴾ عليه السلام ﴿فاذهب﴾ أي من بين الناس وقوله تعالى: ﴿فإن لك في الحياة﴾ إلخ، تعليلٌ لموجب الأمرِ و(في) متعلقةٌ بالاستقرار في لك أي ثابتٌ لك في الحياة أو بمحذوف وقع حالًا من الكاف والعاملُ معنى الاستقرار في الظرف المذكورِ لاعتماده على ما [هو][٣] مبتدأٌ معنى لا بقوله تعالى: ﴿أن تقول لا مساس﴾ لِمَكان أن أي ثابت لك كائنًا في الحياة أي مدةَ حياتك أن تفارقَهم مفارقةً كلية، لكن لا بحسب الاختيارِ بموجب التكليفِ بل بحسب الاضطرارِ المُلجِئ إليها، وذلك أنه تعالى رماه بداء عُقام[٤] لا يكاد يمَسّ أحدًا أو يمَسّه أحدٌ كائنًا من كان إلا حُمَّ من ساعته حُمّى شديدةً، فتحامى الناسَ وتحامَوْه وكان يصيح بأقصى طَوقه: لا مِساس

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١١٠).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبي، وابن الزبير، وحميد، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٨٠)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٤، ٢٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٥).

(٣) سقط في ط.

(٤) داءٌ عُقام: لا يُبرأ منه.

وحُرِّم عليهم ملاقاتُه ومواجهتُه ومكالمتُه ومبايعتُه وغيرُها مما يُعتاد جرَيانُه فيما بين الناسِ من المعاملات، وصار فيما بين الناس أوحشَ من القاتل اللاجىء إلى الحَرم ومن الوحش النافِر في البرية، ويقال: إن قومَه باقٍ فيهم تلك الحالةُ إلى اليوم، وقرئ (لا مَساسِ)[١] كفَجارِ وهو علمٌ للمسّة، ولعل السرَّ في مقابلة جنايتِه بتلك العقوبةِ خاصة ما بينهما من مناسبة التضادّ فإنه لما أنشأ الفتنةَ بما كانت ملابستُه سببًا لحياة المَوات عوقب بما يُضادُّه حيث جُعلت ملابستُه سببًا للحمّى التي هي من أسباب موتِ الأحياء.

﴿وإن لك موعدًا﴾ أي في الآخرة ﴿لن تخلفه﴾ أي لن يُخلفَك الله ذلك الوعدَ بل ينجزه لك ألبتةَ بعد ما عاقبك في الدنيا، وقرئ بكسر اللام[٢] والأظهر أنه من أخلفتُ الموعدَ[٣] أي وجدتُه خلفًا، وقرئ بالنون على حكاية قوله عز وجل: ﴿وانظر إلى إلٰهك الذي ظلت عليه عاكفًا﴾ أي ظلِلْتَ مقيمًا على عبادته فحُذفت اللامُ الأولى تخفيفًا، وقرئ بكسر الظاءِ[٤] بنقل حركةِ اللام إليها ﴿لنحرقنه﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي بالنار ويؤيده قراءةُ (لنُحْرِقنه)[٥] من الإحراق، وقيل: بالمِبْرد على أنه مبالغةٌ في

---

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو حيوة، وقعنب، وابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٦)، والمعاني للفراء (٢/ ١٩٠).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، والأعمش، وقتادة، وأبو نهيك، ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٥٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٧٩)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٤٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥١)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٥).

(٣) في خ: المواعد.

(٤) قرأ بها: ابن مسعود، وقتادة، والأعمش، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وابن يعمر، والمطوعي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٥٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٦)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٣)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٤٢)، والمعاني للفراء (١/ ١٩٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١١٢)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٦).

(٥) قرأ بها: أبو جعفر، وابن جماز، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء الكلبي، وابن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٥٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٦)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٢).

حرق إذا بُرد بالمِبرَد ويعضده قراءة (لَنَحْرُقنه)[١].

﴿ثم لننسفنه﴾ أي لنُذْرِينّه، وقرئ بضم السين[٢] ﴿في اليم﴾ رمادًا أو مُبْرَدًا كأنه هباءٌ ﴿نسفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عينٌ ولا أثرٌ ولقد فعل عليه السلام ذلك كلَّه حينئذ كما يشهد به الأمرُ بالنظر، وإنما لم يصرح به تنبيهًا على كمال ظهورِه واستحالةِ الخُلْف في وعده المؤكّدِ باليمين.

﴿إنما إلٰهكم الله﴾ استئناف مَسوقٌ لتحقيق الحقِّ إثرَ إبطالِ الباطل بتلوين الخطابِ وتوجيهِه إلى الكل، أي إنما معبودُكم المستحقُّ للعبادة الله ﴿الذي لا إلٰه﴾ في الوجود لشيء من الأشياء ﴿إلا هو﴾ وحده من غير أن يشاركَه شيءٌ من الأشياء بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكامُ الألوهية، وقرئ (الله لا إلٰه إلا هو الرحمٰنُ ربُّ العرش)[٣].

وقوله تعالى: ﴿وسع كل شيء علمًا﴾ أي وسع علمُه كلَّ ما من شأنه أن يُعلم بدلٌ من الصلة، كأنه قيل: إنما إلٰهكم الله الذي وسع كلَّ شيءٍ علمًا لا غيرُه كائنًا ما كان فيدخل فيه العِجْلُ دخولا أوليا، وقرئ (وسّع)[٤] بالتشديد فيكون انتصابُ (عِلْمًا) على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعلٌ حقيقةً، وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولًا أول، كأنه قيل: وسِع علمُه كلَّ شيء وبه تم حديثُ موسى عليه السلام المذكورُ لتقرير أمر التوحيدِ حسبما نطقت به خاتمتُه.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ

---

(١) قرأ بها: أبو جعفر، وابن وردان، والأعمش، وعلي، وابن عباس، وحميد، وعمرو بن فايد، وابن محيصن، وأشهب العقيلي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٥٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٨٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٢).

(٢) قرأ بها: عيسى، وأبو رجاء.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٢).

(٣) قرأ بها: طلحة.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٢).

(٤) قرأ بها: مجاهد، وقتادة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٥٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٥٨).

يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ
وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞
وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ
إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا
﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ
لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا
تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ
وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ
وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا
بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ
أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

وقوله تعالى: **﴿كذلك نقص عليك﴾** كلامٌ مستأنف خوطب به النبيُّ عليه السلام

بطريق الوعدِ الجميل بتنزيل أمثالِ ما مر من أنباء الأممِ السالفة، وكذلك إشارةٌ إلى اقتصاص حديثِ موسى عليه السلام، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو رتبتِه وبُعدِ منزلتِه في الفضل، ومحلُّ الكاف النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر مقدّر أي نقص عليك ﴿**من أنباء ما قد سبق**﴾ من الحوادث الماضيةِ الجارية على الأمم الخاليةِ قصًّا مثلَ ذلك القَصِّ المارِّ، والتقديمُ للقصر المفيدِ لزيادة التعيين، ومن في قوله تعالى: ﴿من أنباء﴾ في حيز النصب إما على أنه مفعولُ نقُصّ باعتبار مضمرٍ فيه وإما على أنه متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ للمفعول كما في قوله تعالى: ﴿ومنا دون ذلك﴾ [الجن: ١١] أي جمْعٌ دون ذلك، والمعنى نقصّ عليك بعضَ أنباءِ ما قد سبق [أو بعضًا كائنًا من أنباء ما قد سبق](١)، وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول﴾ [البقرة: ٨] إلخ، وتأخيرُه عن عليك لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أي مثلَ ذلك القصِّ البديعِ الذي سمِعتَه نقصّ عليك ما ذكر من الأنباء لا قصًّا ناقصًا عنه تبصِرةً لك وتوقيرًا لعلمك وتكثيرًا لمعجزاتك وتذكيرًا للمستبصرين من أمتك.

﴿**وقد آتيناك من لدنا ذكرًا**﴾ أي كتابًا منطويًا على الأقاصيص والأخبارِ حقيقًا بالتفكر والاعتبار، وكلمةُ مِنْ متعلقةٌ بآتيناك وتنكيرُ ذكرًا للتفخيم وتأخيرُه عن الجارّ والمجرور لما أن مرجِعَ الإفادةِ في الجملة كونُ المُؤْتىٰ من لدنه تعالى ذكرًا عظيمًا وقرآنًا كريمًا جامعًا لكل كمالٍ، لا كونُ ذلك الذي مر مُؤْتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طولٍ بما بعده من الصفة، فتقديمُه يذهب برونق النظمِ الكريم ﴿**من أعرض عنه**﴾ عن ذلك الذكرِ العظيم الشأنِ المستتبع لسعادة الدارين، وقيل: عن الله عز وجل، ومَنْ إما شرطيةٌ أو موصولةٌ وأيا ما كانت فالجملةُ صفةٌ لذكرًا ﴿**فإنه**﴾ أي المعرِضُ عنه ﴿**يحمل يوم القيامة وزرًا**﴾ أي عقوبةً ثقيلةً فادحة على كفره وسائرِ ذنوبه، وتسميتُها وِزرًا إما لتشبيهها، في ثِقلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها، بالحِمْل الذي يفدَح الحاملَ وينقُض ظهرَه، أو لأنها جزاءُ الوِزْر وهو الإثمُ والأولُ هو الأنسبُ بما سيأتي من تسميتها حِملًا.

---

(١) سقط في خ.

وقوله تعالى: ﴿خالدين فيه﴾ أي في الوزر أو في احتماله المستمرِّ، حالٌ من المستكنّ في يحملُ والجمعُ بالنظر إلى معنى مَنْ لما أن الخلودَ في النار مما يتحقق حالَ اجتماعِ أهلِها كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثةِ بالنظر إلى لفظها ﴿وساء لهم يوم القيامة حملًا﴾ أي بئس لهم ففيه ضميرٌ مبهمٌ يفسّره حِمْلًا والمخصوصُ بالذم محذوفٌ، أي ساء حملًا وِزرُهم واللامُ للبيان كما في هيتَ لك كأنه لما قيل: [ساء، قيل][1]: لمن يقال هذا؟ فأجيب: لهم، وإعادةُ يوم القيامة لزيادة التقريرِ وتهويلِ الأمر.

من أهوال البعث

﴿يوم ينفخ في الصور﴾ بدلٌ من يوم القيامة أو منصوبٌ بإضمار اذكُر أو ظرفٌ لمضمر قد حُذف للإيذان بضيق العبارةِ عن حصره وبيانِه حسبما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿يوم نحشُر المتقين إلى الرحمٰن وَفدًا﴾ [مريم: ٨٥] وقرئ (ننفخ)[2] بالنون على إسناد النفخِ إلى الآمرِ به تعظيمًا له، وبالياء المفتوحة[3] على أن ضميره لله عز وجل أو لإسرافيلَ عليه السلام وإن لم يجْرِ ذكرُه لشهرته ﴿ونحشر المجرمين يومئذ﴾ أي يوم إذ يُنفخ في الصور، وذكرُه صريحًا مع تعيّن أن الحشرَ لا يكون إلا يومئذ للتهويل، وقرئ[4] ويُحشَر المجرمون ﴿زرقًا﴾ أي حالَ كونهم زُرْقَ العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزُّرقةَ أسوأُ ألوانِ العين وأبغضُها إلى العرب فإن الرومَ الذين كانوا أعدى عدوِّهم زُرقٌ، ولذلك

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وابن محيصن، وحميد، وابن أبي إسحاق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٨٣)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ١٥٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٣).

(٣) قرأ بها: ابن هرمز.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٤)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١١٤).

(٤) قرأ بها: الحسن، وطلحة بن مصرف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والبحر المحيط (٦/ ٢٧٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٣).

قالوا في صفة العدو: أسودُ الكِبد وأصهبُ السِّبال[١] وأزرقُ العين، أو عُميًا لأن حدَقةَ الأعمى تزرقّ.

وقوله تعالى: ﴿**يتخافتون بينهم**﴾ أي يخفِضون أصواتَهم ويُخفونها لما يملأ صدورَهم من الرعب والهول، استئنافٌ ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ، أو حالٌ أخرى من المجرمين أي يقول بعضُهم لبعض بطريق المخافتة: ﴿**إن لبثتم**﴾ أي ما لبثتم في الدنيا ﴿**إلا عشرًا**﴾ أي عشرَ ليالٍ استقصارًا لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدةَ الآخرة لتأسفهم عليها لمّا عاينوا الشدائدَ وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطارِ واتّباعِ الشهوات، أو في القبر وهو الأنسبُ بحالهم فإنهم حين يشاهدون البعثَ الذي كانوا يُنكِرونه في الدنيا ويعُدّونه من قبيل المُحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافًا به وتحقيقًا لسرعة وقوعِه، كأنهم قالوا: قد بُعثتم وما لبثتم في القبر إلا مدةً يسيرة، وإلا فحالُهم أفظعُ من أن تمكّنهم من الاشتغال بتذكر أيامِ النعمة والسرورِ واستقصارِها والتأسف عليها ﴿**نحن أعلم بما يقولون**﴾ وهو مدةُ لبثهم ﴿**إذ يقول أمثلهم طريقة**﴾ أي أعدلُهم رأيًا أو عملًا ﴿**إن لبثتم إلا يومًا**﴾ ونسبةُ هذا القولِ إلى أمثلهم استرجاحٌ منه تعالى له لكن لا لكونه أقربَ إلى الصدق، بل لكونه أدلَّ على شدة الهول.

﴿**ويسألونك عن الجبال**﴾ أي عن مآل أمرِها وقد سأل عنه رجل من ثقيف، وقيل: مشركو مكةَ على طريق الاستهزاء ﴿**فقل ينسفها ربي نسفًا**﴾ أي يجعلها كالرمل ثم يُرسل عليها الرياحَ فتُفرّقها والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين ﴿**فيذرها**﴾ الضميرُ إما للجبال باعتبار أجزائِها السافلةِ الباقيةِ بعد النسفِ وهي مقارُّها ومراكزُها، أي فيذر ما انبسط منها وساوى سطحُه سطوحَ سائرِ أجزاءِ الأرض بعد نسفِ ما نتأ منها ونشَز، وإما للأرض المدلول عليها بقرينة الحالِ لأنها الباقيةُ بعد نسفِ الجبال، وعلى التقديرين يذر الكلَّ ﴿**قاعًا صفصفًا**﴾ لأن الجبالَ إذا سُوّيت وجُعل سطحُها مساويًا لسطوح سائر أجزاءِ الأرض فقد جُعل الكلُّ سطحًا واحدًا، والقاعُ قيل: السهلُ، وقيل: المنكشفُ من الأرض، وقيل: المستوي الصُّلْبُ منها، وقيل: ما لا نباتَ فيه ولا بناء، والصفْصفُ الأرضُ المستويةُ الملساءُ كأن أجزاءَه صفٌّ واحد من كل جهة،

---

(١) في خ: اللسان.

وانتصابُ قاعًا على الحالية من الضمير المنصوبِ أو هو مفعولٌ ثانٍ ليذر على تضمين معنى التصييرِ وصفصفًا إما حالٌ ثانية أو بدلٌ من المفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿لا ترى فيها﴾ أي في مقارّ الجبال أو في الأرض على ما مر من التفصيل **﴿عوجًا﴾** بكسر العين أي اعوجاجًا ما، كأنه لغاية خفائِه من قبيل ما في المعاني أي لا تدركه إن تأملْتَ بالمقاييس الهندسية **﴿ولا أمتًا﴾** أي نتُوءًا يسيرًا استئنافٌ مبينٌ لكيفية ما سبق من القاع الصفْصَف أو حالٌ أخرى أو صفة لقاعًا، والخطابُ لكل أحدٍ ممن تتأتى منه الرؤيةُ، وتقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول الصريحِ لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول ربما يُخلُّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظم الكريم **﴿يومئذ﴾** أي يومَ إذْ نُسفت الجبالُ على إضافة اليوم إلى وقت النسْفِ وهو ظرفٌ لقوله تعالى: **﴿يتبعون الداعيَ﴾** وقيل: بدلٌ من يومَ القيامة وليس بذاك أي يتبع الناسُ داعيَ الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيلُ عليه السلام يدعو الناسَ عند النفخةِ الثانية قائمًا على صخرة بيتِ المقدس، ويقول: أيتها العِظامُ النخِرةُ والأوصالُ المتفرّقةُ واللحومُ المتمزّقة قومي إلى عَرْض الرحمٰن، فيُقبلون من كل أَوبٍ إلى صَوْبه **﴿لا عوج له﴾** لا يعوَجّ له مدعوٌّ ولا يعدِل عنه.

﴿وخشعت الأصوات للرحمٰن﴾ أي خضعت لهيبته **﴿فلا تسمع إلا همسًا﴾** أي صوتًا خفيا ومنه الهميسُ لصوت أخفافِ الإبل، وقد فُسر الهمْسُ بخفق أقدامِهم ونقلِها إلى المحشر **﴿يومئذ﴾** أي يوم إذ يقع ما ذُكر من الأمور الهائلةِ **﴿لا تنفع الشفاعة﴾** من الشفعاء أحدًا **﴿إلا من أذن له الرحمٰن﴾** أن يشفع له **﴿ورضي له قولًا﴾** أي ورضيَ لأجله قولَ الشافع في شأنه أو رضي قوله لأجله وفي شأنه، وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وإنْ فُرِضَ صدورُها عن الشفعاء المتصدّين للشفاعة للناس كقوله تعالى: ﴿فما تنفعُهم شفاعةُ الشافعين﴾ [المدثر: ٤٨] فالاستثناءُ كما ترى من أعم المفاعيل، وأما كونُه استثناءً من[1] الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعةُ إلا شفاعةَ من أذِن له الرحمٰنُ أن يشفع لغيره كما جوزوه، فلا سبيل إليه لِما أن حُكم الشفاعةِ

(١) في خ: من أعم.

ممن لم يؤذَنْ له أن[1] يملِكَها ولا تصدرُ هي عنه أصلًا كما في قوله تعالى: ﴿لا يملكون الشفاعةَ إلا من اتخذ عند الرحمٰنِ عهدًا﴾ [مريم: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارْتَضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] فالإخبارُ عنها بمجرد عدم نفعِها للمشفوع له ربما يوهم إمكانَ صدورِها عمن لم يؤذَنْ له مع إخلاله بمقتضى مقامِ تهويل اليوم، وأما قوله تعالى: ﴿ولا يُقبلُ منها شفاعةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] فمعناه عدمُ الإذنِ في الشفاعة لا عدمُ قبولها بعد وقوعها ﴿**يعلم ما بين أيديهم**﴾ أي ما تقدمهم من الأحوال، وقيل: من أمر الدنيا ﴿**وما خلفهم**﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه، وقيل: من أمر الآخرة ﴿**ولا يحيطون به علمًا**﴾ أي لا تحيط علومُهم بمعلوماته تعالى، وقيل: بذاته أي من حيث اتصافُه بصفات الكمالِ التي من جملتها العلمُ الشاملُ، وقيل: الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعهما فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيلَ ما علموا منه.

﴿**وعنت الوجوه للحي القيوم**﴾ أي ذلت وخضعت خضوعَ العُناة أي الأُسارى في يد الملكِ القهارِ ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى: ﴿سيئت وجوهُ الذين كفروا﴾ [الملك: ٢٧] ويؤيده قوله تعالى: ﴿**وقد خاب من حمل ظلمًا**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: خسِر من أشرك بالله ولم يتُب، وهو استئنافٌ لبيان ما لأجله عنت وجوهُهم، أو اعتراضٌ، كأنه قيل: خابوا وخسِروا، وقيل: حالٌ من الوجوه ومَنْ عبارةٌ عنها مغنيةٌ عن ضميرها، وقيل: الوجوهُ على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلمًا فقوله تعالى: ﴿**ومن يعمل من الصالحات**﴾ إلخ، قسيمٌ لقوله: ﴿وقد خاب من حمل ظلمًا﴾ لا لقوله تعالى: ﴿وعنت الوجوه﴾ إلخ، كما أنه كذلك على الوجه الأول أي ومن يعملْ بعضَ الصالحات أو بعضًا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين في تفسير قوله تعالى: ﴿من أنباء ما قد سبق﴾ [طه: ٩٩].

﴿**وهو مؤمن**﴾ فإن الإيمان شرطٌ في صحة الطاعاتِ وقَبول الحسنات ﴿**فلا يخاف ظلمًا**﴾ أي منْعَ ثوابٍ مستحَقٍ بموجب الوعد ﴿**ولا هضمًا**﴾ ولا كسْرًا منه بنَقْص، أو

---

(١) في ط: ألا.

لا يخاف جزاءَ ظلمٍ وهضْمٍ إذ لم يصدُر عنه ظلمٌ ولا هضمٌ حتى يخافَهما، وقرئ[١] فلا يخَفْ على النهي.

﴿وكذلك﴾ عطفٌ على ﴿كذلك نقصُّ﴾ وذلك إشارةٌ إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنةِ للوعيد المنبئةِ عما سيقع من أحوال القيامةِ وأهوالِها أي مثلَ ذلك الإنزال ﴿أنزلناه﴾ أي القرآنَ كلَّه، وإضمارُه من غير سبق ذكرِه للإيذان بنباهة شأنِه وكونِه مركوزًا في العقول حاضرًا في الأذهان ﴿قرآنًا عربيا﴾ ليفهمه العربُ ويقفوا على ما فيه من النظم المعجزِ الدالِّ على كونه خارجًا عن طوق البشر نازلًا من عند خلاّق القُوى والقدر ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أي كررنا فيه بعضَ الوعيد أو بعضًا من الوعيد حسبما أشير إليه آنفًا ﴿لعلهم يتقون﴾ أي كي يتقوا الكفرَ والمعاصيَ بالفعل ﴿أو يحدث لهم ذكرًا﴾ اتعاظًا واعتبارًا مؤديًا بالآخرة إلى الاتقاء ﴿فتعالى الله﴾ استعظامٌ له تعالى ولشئونه التي يُصرِّف عليها عبادَه من الأوامر والنواهي والوعدِ والوعيد وغيرِ ذلك، أي ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاتِه وأفعالِه وأحواله ﴿الملك﴾ النافذُ أمرُه الحقيقيُّ بأن يُرجى وعدُه ويُخشَى وعيدُه ﴿الحق﴾ في ملكوته وألوهيتِه لذاته، أو الثابتُ في ذاته وصفاته.

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك﴾ أي يتِمَّ ﴿وحيه﴾ كان رسولُ الله ﷺ إذا ألْقَى إليه [جبريل عليهما][٢] السلام الوحيَ يتبعه عند تلفُّظِ كل حرفٍ وكل كلمةٍ لكمال اعتنائِه بالتلقّي والحِفظ فنُهيَ عن ذلك إثرَ ذكرِ الإنزال بطريق الاستطرادِ لِما أن استقرارَ الألفاظِ في الأذهان تابعٌ لاستقرار معانيها فيها، وربما يَشغَل التلفظُ بكلمة عن سماع ما بعدها، وأُمر باستفاضة العلمِ واستزادتِه منه تعالى فقيل:

﴿وقل﴾ أي في نفسك ﴿رب زدني علمًا﴾ أي سل الله عز وجل زيادةَ العلمِ فإنه الموصلُ إلى طِلْبتك دون الاستعجالِ، وقيل: إنه نهُي عن تبليغ ما كان مجملًا قبل أن

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، ومجاهد، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٨١)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٨٦)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٤٩)، والحجة لابن خالويه (٢٤٧، ٢٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٤).
(٢) سقط في ط.

يأتيَ بيانُه وليس بذاك، فإن تبليغَ المُجملِ وتلاوتَه قبل البيان مما لا ريب في صحته ومشروعيّتِه.

آدم والعهد

﴿**ولقد عهدنا إلى آدم**﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لتقرير ما سبق من تصريف الوعيدِ في القرآن وبيانِ أن أساسَ بني آدمَ على العصيان، وعِرْقُه راسخٌ في النسيان مع ما فيه من إنجاز الموعودِ في قوله تعالى: ﴿**كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق**﴾ [طه: ٩٩] يقال: عَهِدِ إليه الملكُ وعزم عليه وأوعز إليه وتقدّم إليه إذا أمره ووصاه، والمعهودُ محذوفٌ يدل عليه ما بعده واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي وأُقسِم أي وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصّيناه ﴿**من قبل**﴾ أي من قبلِ هذا الزمانِ ﴿**فنسي**﴾ أي العهدَ ولم يعتنِ به حتى غفلَ عنه أو تركَه تركَ المنْسيِّ عنه.

وقرئ[١] فنُسِّيَ أي نسّاه الشيطان ﴿**ولم نجد له عزمًا**﴾ تصميمَ[٢] رأيٍ وثباتَ قدم في الأمور إذ لو كان كذلك لما أزله الشيطانُ ولَما استطاع أن يغُرّه وقد كان [ذلك][٣] منه عليه السلام في بدء أمره من قبل أن يجرّب الأمورَ ويتولّى حارَّها وقارَّها ويذوقَ شَرْيَها[٤] وأَرْيَها. عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**لو وُزنت أحلامُ بني آدمَ بحِلْم آدمَ لرجح حِلْمُه[٥] وقد قال الله تعالى: ﴿ولم نجدْ له عزْمًا﴾**». وقيل: عزمًا على الذنب فإنه أخطأ ولم يتعمّد.

وقوله تعالى: ﴿ولم نجْد﴾ إن كان من الوجود العلميّ فـ (له عزمًا) مفعولاه قُدّم الثاني على الأول لكونه ظرفًا، وإن كان من الوجود المقابلِ للعدم وهو الأنسبُ، لأن مصبَّ الفائدةِ هو المفعولُ وليس في الإخبار بكون العزْم المعدومِ له مزيدُ مزيةٍ، فـ(له) متعلقٌ به قُدّم على مفعوله لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر، أو بمحذوف هو حالٌ من مفعوله المنَكّر، كأنه قيل: ولم نصادِفْ له عزمًا وقوله

---

(١) قرأ بها: اليماني، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٨٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٥)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٢٤).

(٢) في خ: تعميم.

(٣) سقط في خ.

(٤) في خ: شرها.

(٥) أخرجه مجاهد في تفسيره (١/ ٤٠٤)، والطبري (١٨/ ٣٨٤).

تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ شروعٌ في بيان المعهودِ وكيفيةِ ظهور نسيانِه وفُقدانِ عزمِه، وإذ منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام، أي واذكر وقتَ قولِنا لهم، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث بالطريق البرهاني [لما مر مرارًا من المبالغة في إيجاب ذكرِها][1] فإن الوقتَ مشتملٌ على تفاصيل الأمورِ الواقعةِ فيه، فالأمرُ بذكره أمرٌ بذكر تفاصيلِ ما وقع فيه بالطريق البرهانيِّ، ولأن الوقتَ مشتملٌ على أعيان الحوادثِ فإذا ذكر صارت الحوادثُ كأنها موجودةٌ في ذهن المخاطَبِ بوجود ذاتها العينيةِ، أي اذكر ما وقع في ذلك الوقتِ منا ومنه حتى يتبينَ لك نسيانُه وفقدانُ عزمِه ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ قد سبق الكلامُ فيه مرارًا ﴿أبىٰ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ وقعت جوابًا عن سؤال نشأ عن الأخبار بعدم سجودِه، كأنه قيل: ما بالُه لم يسجُدْ؟ فقيل: أبىٰ واستكبر، ومفعول أبىٰ إما محذوفٌ أي أبىٰ السجودَ كما في قوله تعالى: ﴿أبىٰ أن يكونَ مع الساجدين﴾ [الحجر: ٣١] أو غيرُ مَنْويٍّ رأسًا بتنزيله منزلةَ اللام أي فعل الإباءَ وأظهره ﴿فقلنا﴾ عَقيبَ ذلك اعتناءً بنُصحه ﴿يا آدم إن هذا﴾ الذي رأيتَ ما فعل ﴿عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما﴾ أي لا يكونَنّ سببًا لإخراجكما ﴿من الجنة﴾ والمرادُ نهيُهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطانُ إلى إخراجهما منها بالطريق البرهاني، كما في قولك: لا أُرينّك هاهنا، والفاءُ لترتيب موجبِ النهى على عداوته لهما أو على الإخبار بها[2] ﴿فتشقى﴾ جوابٌ للنهي، وإسنادُ الشقاء إليه خاصةً بعد تعليقِ الإخراجِ الموجبِ له بهما معًا لأصالته في الأمور واستلزامِ شقائِه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وقيل: المرادُ بالشقاء التعبُ في تحصيل مبادي المعاشِ وذلك من وظائف الرجال ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ تعليلٌ لما يوجبه النهيُ فإن اجتماعَ أسبابِ الراحة فيها مما يوجب المبالغةَ في الاهتمام بتحصيل مبادي البقاءِ فيها، والجِدّ في الانتهاء عما يؤدّي إلى الخروج عنها. والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعّمًا بفنون النعم من المآكل والمشاربِ وتمتعًا بأصناف الملابسِ البهية والمساكنِ المرْضيةِ، مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: لها.

يخفى، إلى ما ذكر من نفْي نقائِضها التي هي الجوعُ والعطشُ والعُرْي والضُحِيّ لتذكير تلك الأمورِ المنْكرة، والتنبيهِ على ما فيها من أنواع الشِّقوةِ التي حذّره عنها ليبالغَ في التحامي عن السبب المؤدي إليها، على أن الترغيبَ قد حصل بما سوّغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثني من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنةَ وكُلا منها رَغَدًا حيث شئتما﴾ [الأعراف: ١٩] وقد طُوي ذكرُه هاهنا اكتفاءً بما ذكر في موضع آخرَ واقتصارًا على ما ذكر من الترغيب المتضمّنِ للترهيب، ومعنى ﴿ألا تجوعَ فيها﴾ إلخ، ألا يصيبَه شيء من الأمور الأربعة أصلًا فإن الشِبعَ والرِّيَّ والكسوة والسكن قد تحصُل بعد عروض أضدادِها بإعواز الطعام والشرابِ واللباس والمسكنِ وليس الأمر فيها كذلك، بل كلُّ ما وقع فيها شهوةٌ وميلٌ إلى شيء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة، ووجهُ إفرادِه عليه السلام بما ذكر ما مر آنفًا، وفصلُ الظمأ عن الجوع في الذكر مع تجانُسهما وتقارنِهما في الذكر عادةً وكذا حالُ العُرْي والضَّحْو المتجانسين، لتوفية مقامِ الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أن نفيَ كلٍّ واحد من تلك الأمور نعمةٌ على حيالها، ولو جمع بين الجوعِ والظمأ لربما تُوهم أن نفيَهما نعمةٌ واحدةٌ، وكذا الحال في الجمع بين العُرْي والضَّحْو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقريرِ بالتنبيه على أن نفيَ كل واحد من الأمور المذكورة مقصودٌ بالذات مذكورٌ بالأصالة لا أن نفيَ بعضِها مذكورٌ بطريق الاستطرادِ والتبعية لنفي بعضٍ آخرَ كما عسى يُتوهم لو جمع بين كلٍّ من المتجانسين، وقرئ (إنك)[1] بالكسر والجمهورُ على الفتح بالعطف على أن لا تجوع، وصحةُ وقوعِ الجملة المصدّرةِ بأن المفتوحة اسمًا للمكسورة المشاركة لها في إفادة التحقيقِ مع امتناع وقوعِها خبرًا لها لما أن المحذورَ اجتماعُ حرفي التحقيق في مادة واحدة ولا اجتماعَ فيما نحن فيه لاختلاف مناطِ التحقيقِ فيما في حيزهما، بخلاف ما لو وقعت خبرًا لها فإن اتحادَ المناطِ حينئذ مما لا ريب فيه

---

(١) قرأ بها: نافع، وعاصم، وشعبة، وحفص، وشيبة، وابن سعدان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٦٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٨٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٨٩)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ٢٨٤)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٢).

بيانُه أن كل واحدةٍ من المكسورة والمفتوحة موضوعةٌ لتحقيق مضمونِ الجملة الخبريةِ المنعقدةِ من اسمها وخبرِها، ولا يخفى أن مرجِعَ خبريّتها ما فيها من الحُكم الإيجابي أو السلبيِّ وأن مناطَ ذلك الحكمِ خبرُها لا اسمُها، فمدلولُ كلٍّ منهما تحقيقُ ثبوتِ خبرِها لاسمها لا ثبوتِ اسمِها في نفسه، فاللازمُ من وقوع الجملةِ المصدرةِ بالفتحة اسمًا للمكسورة تحقيقُ ثبوتِ خبرها لتلك الجملةِ المؤولة بالمصدر، وأما تحقيقُ ثبوتِها في نفسها فهو مدلولُ المفتوحةِ حتمًا فلم يلزَم اجتماعُ حرفي التحقيق في مادة واحدة قطعًا، وإنما لم يجوّزوا أن يقال: إن زيدًا قائم، حتى مع اختلاف المناطِ بل شرطوا الفصلَ بالخبر كقولنا: إن عندي أن زيدًا قائم للتجافي عن صورة الاجتماعِ، والواوُ العاطفة وإن كانت نائبةً عن المكسورة التي يمتنع دخولُها على المفتوحة بلا فصلٍ وقائمةً مقامَها في إفضاء معناها وإجزاءِ[1] أحكامِها على مدخولها، لكنها حيث لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماعُ حرفي التحقيقِ أصلًا، فالمعنى إن لك عدمَ الجوعِ وعدمَ العُري وعدَم الظمأ خلا أنه لم يُقتصَر على بيان أن الثابتَ له عليه السلام عدمُ الظمأ والضَّحْو مطلقًا كما فُعل مثلُه في المعطوف عليه بل قُصد بيانُ أن الثابتَ له عليه السلام تحقيقُ عدمِهما فوُضِع موضعَ الحرفِ المصدريّ المحض أنَّ المفيدةُ له، كأنه قيل: إن لك فيها عدمَ ظمئك على التحقيق.

﴿**فوسوس إليه الشيطان**﴾ أي أنهى إليه وسوسته أو أسرها إليه ﴿**قال**﴾ إما بدلٌ من وسوس أو استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنه قيل: فماذا قال في وسوسته؟ فقيل: قال: ﴿**يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد**﴾ أيْ شجرةٍ مَنْ أكل منها خلّد ولم يمُت أصلًا سواءٌ كان عن حاله أو بأن يكون ملَكًا لقوله تعالى: ﴿إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ [الأعراف: ٢٠] ﴿**وملك لا يبلى**﴾ أي لا يزول ولا يختلّ بوجه من الوجوه ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: عَريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجُهما ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾ قد مر تفسيره في سورة الأعراف ﴿**وعصى آدم ربه**﴾ بما ذكر

---

(١) في خ: إجراء.

من أكل الشجرة ﴿فغوى﴾ ضل عن مطلوبه الذي هو الخلودُ أو المأمورُ به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدوّ، وقرئ (فغوي)[1] من غوي الفصيل إذا اتخم من اللبن، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلّتِه تعظيمٌ لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها ﴿ثم اجتباه ربه﴾ أي اصطفاه وقرّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيقِ لها، من اجتبى الشيءَ بمعنى جباه لنفسه أي جمعه، كقوله: اجتمعتُه أو من جبىٰ إليّ كذا فاجتبيته مثل جليتُ على العروس فأجليتُها، وأصلُ الكلمة الجمعُ وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيدُ تشريفٍ له عليه السلام ﴿فتاب عليه﴾ أي قبِل توبتَه حين تاب هو وزوجتُه قائلين: ﴿ربنا ظلمنا أنفسَنا وإن لم تغفِرْ لنا وترحمْنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣] وإفرادُه عليه السلام بالاجتباء وقَبولِ التوبة قد مرّ وجهُه ﴿وهدى﴾ أي إلى الثبات على التوبة والتمسكِ بأسباب العصمة ﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ من الإخبار بأنه تعالى قبِل توبته وهداه، كأنه قيل: فماذا أمره تعالى بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجته: ﴿اهبطا منها جميعًا﴾ أي انزِلا من الجنة إلى الأرض.

وقوله تعالى: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ حالٌ من ضمير المخاطب في اهبِطا والجمعُ لما أنهما أصلُ الذرية ومنشأُ الأولاد، أي مُتعادِين في أمر المعاشِ كما عليه الناسُ من التجاذُب والتحارُب ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ من كتاب ورسول ﴿فمن اتبع هدايَ﴾ وُضع الظاهرُ موضعَ المضمرِ مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعِه ﴿فلا يضل﴾ في الدنيا ﴿ولا يشقى﴾ في الآخرة.

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أي عن الهدى الذاكرِ لي والداعي إليّ ﴿فإن له﴾ في الدنيا ﴿معيشة ضنكًا﴾ ضيقًا، مصدرٌ وصف به ولذلك يستوي فيه المذكرُ والمؤنثُ، وقرئ (ضنكىٰ)[2] كسَكْرى وذلك لأن مجامعَ همتِه ومطامحَ نظرِه مقصورةٌ على أعراض الدنيا وهو متهالكٌ على ازديادها وخائفٌ على انتقاصها بخلاف المؤمنِ الطالبِ للآخرة، مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال تعالى:

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي (١٦/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٨٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٥٨)، والكشف للقيسي (٢/ ٥٥٨).

﴿وضُربت عليهم الذلةُ والمسكنة﴾ [البقرة: ٦١] وقال تعالى: ﴿ولو أن أهلَ القُرى آمنوا واتقَوا لفتحْنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال تعالى: ﴿ولو أنَّ أهلَ الكتاب آمنوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦] وقيل: هو الضَّريعُ والزقومُ في النار، وقيل: عذاب القبر ﴿ونحشره﴾ وقرئ بسكون الهاء[١] على لفظ الوقفِ وبالجزم[٢] عطفًا على محل (فإن له معيشةً ضنكًا) لأنه جواب الشرط ﴿يوم القيامة أعمى﴾ فاقدَ البصر كما في قوله تعالى: ﴿ونحشُرهم يوم القيامة على وجوههم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] لا أعمى عن الحجة كما قيل ﴿قال﴾ استئنافٌ كما مر ﴿رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا﴾ أي في الدنيا، وقرئ[٣] أعمى بالإمالة في الموضعين وفي الأول فقط لكونه جديرًا بالتغيير لكونه رأسَ الآية ومحلَّ الوقف ﴿قال كذلك﴾ أي مثلَ ذلك فعلتَ أنت ثم فسره بقوله تعالى: ﴿أتتك آياتنا﴾ واضحةً نيِّرةً بحيث لا تخفى على أحد ﴿فنسيتها﴾ أي عَمِيتَ عنها وتركتها ترْكَ المنسيِّ الذي لا يُذكر أصلًا ﴿وكذلك﴾ ومثلَ ذلك النسيانِ الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿اليوم تنسى﴾ تترك في العمى جزاءً وفاقًا لكن لا أبدًا كما قيل بل إلى ما شاء الله، ثم يزيله عنه فيرى أهوالَ القيامة ويشاهد مقعدَه في النار ويكون ذلك له عذابًا فوق العذاب، وكذا البَكَم والصمَمُ يزيلهما الله تعالى عنهم ﴿أسمع بهم وأبصِرْ يوم يأتوننا﴾ [مريم: ٣٨]. ﴿وكذلك﴾ أي مثلَ ذلك الجزاءِ الموافقِ للجناية ﴿نجزي من أسرف﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بل كذبها وأعرض عنها ﴿ولعذاب الآخرة﴾ على الإطلاق أو عذابُ النار ﴿أشد وأبقى﴾ أي من ضنْك العيشِ أو منه ومن الحشر على العمى.

توبيخ الكفار وتسلية النبي ﷺ

﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لتقرير ما قبله

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٨).

(٢) قرأ بها: أبان بن تغلب.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٠)، والبحر المحيط (٦/ ٢٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٣٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٠).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وورش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٢).

من قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي﴾ [طه: ١٢٧] الآية، والهمزةُ للإنكارالتوبيخي والفاءُ للعطف على مقدر يقتضيه المقام، واستعمالُ الهداية باللام إما لتنزيلها منزلةَ اللام فلا حاجةَ إلى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعولُ محذوفٌ، وأيا ما كان فالفاعلُ هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ، والمعنى أغَفلوا فلم يَفعل الهدايةَ لهم أو فلم يبين لهم مآلَ أمرِهم كثرةُ إهلاكنا للقرون الأولى وقد مر في قوله عز وجل: ﴿أو لم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقيل: الفاعلُ الضميرُ العائد إلى الله عز وجل ويؤيده القراءةُ بنون العظمة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿كم أهلكنا﴾ إلخ، إما معلِّقٌ للفعل سادٌّ مسدَّ مفعولِه أو مفسّرٌ لمفعوله المحذوف هكذا قيل، والأوجهُ ألا يُلاحَظ مفعولٌ كأنه قيل: أفلم يفعلِ الله تعالى لهم الهدايةَ؟ ثم قيل بطريق الالتفاتِ: كم أهلكنا إلخ بيانًا لتلك الهدايةِ، و(من القرون) في محل النصبِ على أنه وصفٌ لممُيِّزكَم أي كم قرنًا كائنًا من القرون.

وقوله تعالى: ﴿يمشون في مساكنهم﴾ حالٌ من القرون أو من مفعول أهلكْنا، أي أهلكناهم وهم في حال أمنٍ وتقلّبٍ في ديارهم أو من الضمير في لهم مؤكدٌ للإنكار والعاملُ يهد، والمعنى أفلم يهد لهم إهلاكُنا للقرون السالفة من أصحاب الحِجْر وثمودَ وقُريّات قوم لوطٍ حالَ كونهم ماشين في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكِهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا لئلا يحِلَّ بهم مثلُ ما حل بأولئك، وقرئ[(٢)] يُمشَّوْن على البناء للمفعول أي يمكثون على المشي ﴿إن في ذلك﴾ تعليلٌ للإنكار وتقريرٌ للهداية مع عدم اهتدائِهم، وذلك إشارةٌ إلى مضمون قوله تعالى: ﴿كم أهلكنا﴾ إلخ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببُعْد منزلتِه وعلوِّ شأنه في بابه ﴿لآيات﴾ كثيرةً عظيمةً واضحاتِ الهداية ظاهراتِ الدلالة على الحق، فإذن هو هادٍ وأيُّما هادٍ ويجوز أن تكون كلمةُ في تجريدية فافهم.

﴿لأولي النهى﴾ لذوي العقولِ الناهيةِ عن القبائح التي من أقبحها ما يتعاطاه كفارُ

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، والسلمي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٨٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٦٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٨).

(٢) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٨٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٨).

مكّة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغيرِ ذلك من فنون المعاصي، وفيه دلالةٌ على أن مضمونَ الجملة هو الفاعلُ لا المفعول.

وقوله تعالى: ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك**﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حِكمة عدمِ وقوعِ ما يُشعر به قوله تعالى: ﴿أفلم يهد لهم﴾ الآية، من أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب القرونَ المهلَكة، أي ولولا الكلمةُ السابقةُ وهي العِدَةُ بتأخير عذابِ هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحةٍ تستدعيه ﴿**لكان**﴾ عقابُ جناياتِهم ﴿**لزامًا**﴾ أي لازمًا لهؤلاء الكفرةِ بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعةً لزومُ ما نزل بأولئك الغابرين، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تلويحٌ بأن هذا التأخيرَ لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبَهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣].

واللِّزامُ إما مصدرٌ لازمٌ وُصِف به مبالغةً وإما فِعالٌ بمعنى مِفْعل، جُعل آلةَ اللزوم لفَرْط لزومه كما يقال: لِزازُ خصم ﴿**وأجل مسمًّى**﴾ عطف على (كلمةٌ) أي ولولا أجلٌ مسمًّى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يومُ القيامة ويومُ بدر لما تأخر عذابُهم أصلًا، وفصلُه عما عطف عليه للمسارعة إلى بيان جوابِ لولا وللإشعار باستقلال كلٍّ منهما بنفي لزومِ العذابِ ومراعاةِ فواصلِ الآيةِ الكريمةِ، وقد جوّز عطفُه على المستكن في لكان العائدِ إلى الأخذ العاجلِ المفهومِ من السياق تنزيلًا للفصل بالخبر منزلةَ التأكيد، أي لكان الأخذُ العاجلُ وأجلٌ مسمى لازمَين لهم كدأب عادٍ وثمودَ وأضرابِهم ولم ينفرد الأجلُ المسمى دون الأخذِ العاجل.

﴿**فاصبر على ما يقولون**﴾ أي إذا كان الأمرُ على ما ذكر من أن تأخيرَ عذابِهم ليس بإهمال بل إمهالٍ وأنه لازمٌ لهم ألبتةَ، فاصبِرْ على ما يقولون من كلمات الكفرِ فإن علمه عليه السلام بأنهم معذبون لا محالة مما يسلّيه ويحمِلُه على الصبر.

﴿**وسبح**﴾ ملتبسًا ﴿**بحمد ربك**﴾ أي صلِّ وأنت حامدٌ لربك الذي يبلّغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقِه، أو نزِّهه تعالى عما ينسُبونه إليه مما لا يليق بشأنه الرفيعِ حامدًا له على ما ميّزك بالهدى معترفًا بأنه مولى النّعم كلِّها، والأولُ هو الأظهرُ المناسبُ لقوله تعالى: ﴿**قبل طلوع الشمس**﴾ إلخ، فإن توقيت التنزيه غيرُ معهودٍ فالمرادُ

صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعني صلاتي الظهرِ والعصر لأنهما قبل غروبِها بعد زوالها، وجمعُهما لمناسبة قوله تعالى: ﴿قبل طلوعِ الشمس﴾ وقبل صلاة العصر.

﴿ومن آناء الليل﴾ أي من ساعاته جمع إِنًى بالكسر والقصر، وآناء بالفتح والمد ﴿فسبح﴾ أي فصلِّ والمرادُ به المغربُ والعشاءُ إيذانًا باختصاصهما بمزيد الفضلِ فإن القلبَ فيهما أجمعُ والنفسَ إلى الاستراحة أميلُ فتكون العبادةُ فيهما أشقَّ، ولذلك قال تعالى: ﴿إن ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وطأً وأقومُ قيلًا﴾ [المزمل: ٦].

﴿وأطراف النهار﴾ تكريرٌ لصلاة الفجر والمغرِب إيذانًا باختصاصهما بمزيد مزيةٍ، ومجيئُه بلفظ الجمعِ لأمن الإلباس كقول من قال: ظَهراهما مثلُ ظهورِ التُّرسين، أو أمرٌ بصلاة الظهر فإنه نهايةُ النصفِ الأول من النهار وبدايةُ النصف الأخيرِ، وجمعُه باعتبار النصفين أو لأن النهارَ جنسٌ أو أمرٌ بالتطوع في أجزاء النهار ﴿لعلك ترضى﴾ متعلقٌ بـ (فسبح) أي في هذه الأوقات رجاءَ أن تنال عنده تعالى ما ترضَى به نفسُك، وقرئ (تُرضَى)[1] على صيغة البناء للمفعول من أرضىٰ أي يُرضيك ربك.

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي لا تُطِلْ نظرَهما بطريق الرغبة والميل ﴿إلى ما متعنا به﴾ من زخارف الدنيا، وقوله تعالى: ﴿أزواجًا منهم﴾ أي أصنافًا من الكَفَرة مفعول متّعنا قُدّم عليه الجارُّ والمجرور للاعتناء به، أو هو حالٌ من الضمير والمفعولُ منهم أي إلى الذي متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضِهم على أنه معنى مِنْ التبعيضية، أو بعضًا منهم على حذف الموصوفِ كما مر مرارًا ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ منصوبٌ بمحذوف يدل عليه متعنا أي أعطينا أو به على تضمين معناه، أو بالبدلية من محل به أو من أزواجًا بتقدير مضافٍ أو بدونه، أو بالذم وهي الزينةُ والبهجةُ، وقرئ (زهَرَةَ)[2] بفتح الهاء

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وعاصم، وشعبة، وأبو حيوة، وطلحة، وأبان، وعصمة، وأبو عمار، وحفص، وأبو زيد، والمفضل، وأبو عبيد، ومحمد بن عيسى الأصبهاني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٨)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٢).

(٢) قرأ بها: يعقوب، والحسن، وأبو حيوة، وأبو البرهسم، وطلحة، وحميد، وسلام، ويعقوب، وسهل، وعيسى، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٨)، والبحر المحيط (٦/ ٢٩١)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٩٨)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٣٦)، =

وهي لغة كالجهَرة في الجهْرة أو جمعُ زاهر، وصفٌ لهم بأنهم زاهِرو الدنيا لتنعُّمهم وبهاءِ زِيِّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهّاد ﴿لنفتنهم فيه﴾ متعلقٌ بمتعنا جيء به للتنفير عنه ببيان سوءِ عاقبتِه مآلًا إثرَ إظهارِ بهجتِه حالًا، أي لنعاملهم معاملةَ من يبتليهم ويختبرُهم فيه أو لنعذّبهم في الآخرة بسببه ﴿ورزق ربك﴾ أي ما ادخر لك في الآخرة أو ما رزقك في الدنيا من النبوة والهدى ﴿خير﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه مع كونه في نفسه أجلَّ ما يتنافس فيه المتنافسون مأمونُ الغائلةِ بخلاف ما منحوه ﴿وأبقى﴾ فإنه لا يكاد ينقطع نفْسُه أو أثرُه أبدًا كما عليه زهرة الدنيا.

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أُمر عليه السلام بأن يأمر أهلَ بيته والتابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أُمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خَصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفتَ أربابِ الثروة ﴿واصطبر عليها﴾ وثابرْ عليها غيرَ مشتغلٍ بأمر المعاش ﴿لا نسألك رزقًا﴾ أي لا نكلّفك أن ترزُقَ نفسَك ولا أهلَك ﴿نحن نرزقك﴾ وإياهم ففرِّغْ بالَك بأمر الآخرة ﴿والعاقبة﴾ الحميدةُ ﴿للتقوى﴾ أي لأهل التقوى، على حذف المضافِ وإقامة المضافِ إليه مُقامَه تنبيهًا على أن مَلاكَ الأمر هو التقوى. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهلَه ضُرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية[1].

﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلةِ التي أُمر عليه السلام بالصبر عليها، أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوةِ أو بآية مما اقترحوها! بلغوا من المكابرة والعِناد إلى حيث لم يعُدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخِرّ لها صُمُّ الجبال من قبيل الآيات حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله تعالى: ﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي التوراةِ والإنجيل وسائرِ الكتبِ السماوية، ردٌّ من جهته جل وعلا لمقالتهم القبيحةِ وتكذيبٌ لهم فيما دسوا تحتها من إنكار مجيءِ الآية بإتيان القرآنِ الكريم الذي هو أمُّ الآياتِ وأُسُّ المعجزات وأعظمُها وأبقاها، لأن حقيقةَ المعجزةِ اختصاصُ مدّعي النبوة بنوع من الأمور الخارقةِ للعادات أيِّ أمرٍ كان، ولا ريب في أن العلم أجلُّ الأمور وأعلاها إذ

= والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٢).

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/ ٢٣٧)، والخازن في لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٢٨٧).

هو أصلُ الأعمال ومبدأ الأفعالِ ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد أميٍّ لم يمارس شيئًا من العلوم ولم يدارس أحدًا من أهلها أصلًا، فأيُّ معجزة تُراد بعدَ ورودِه وأيُّ آية ترام مع وجوده، وفي إيراده بعنوان كونِه بينةَ ما في الصحف الأولى ومن التوراة والإنجيل وسائرِ الكتبِ السماوية، أي شاهدًا بحقية ما فيها من العقائد الحقةِ وأصولِ الأحكام التي أجمعت عليها كافةُ الرسل، وبصحة ما تنطِقُ به من أنباء الأمم من حيث إنه غنيٌّ بإعجازه عما يشهد بحقّيته، حقيقٌ بإثبات حقّيةِ غيرِه، ما لا يخفى من تنويه شأنِه وإنارة برهانِه، ومزيدُ تقريرٍ وتحقيقٍ لإتيانه، وإسنادُ الإتيان إليه مع جعلهم إياه مأتيا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة، والهمزةُ لإنكار الوقوعِ والواوُ للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ، كأنه قيل: ألم يأتهم سائرُ الآياتِ ولم تأتهم خاصةً بينةُ ما في الصحف الأولى؟ تقريرًا لإتيانه وإيذانًا من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكارُه أصلًا وإن اجترأوا على إنكار سائر الآياتِ مكابرةً وعِنادًا، وقرئ (أولم يأتهم)[١] بالياء التحتانية، وقرئ (الصُّحْفِ)[٢] بالسكون تخفيفًا.

وقوله تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب﴾ إلى آخر الآية جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آيةً بينةً لا يمكن إنكارُها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصِل ﴿من قبله﴾ متعلقٌ بـ(أهلكناهم) أو بمحذوف هو صفةٌ لـ (بعذاب) أي بعذاب كائنٍ من قبل إتيانِ البينة أو قبلِ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لقالوا﴾ أي يوم القيامة ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا﴾ في الدنيا ﴿رسولًا﴾ مع كتاب ﴿فنتبع آياتك﴾ التي جاءنا بها ﴿من قبل أن نذل﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ونخزى﴾ بدخول النار اليوم ولكنا لم نُهلكهم قبل إتيانِها فانقطعت معذِرتُهم

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وأبو بحرية، وابن محيصن، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن مناذر، وخلف، وأبو عبيدة، وابن سعدان، وابن عيسى، وابن جُبير الأنطاكي، وابن وردان، وأبو جعفر، وأبو عبيد،وأبو حاتم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٨)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٠٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٢،٣٢٣).

(٢) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٩٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٠).

فعند ذلك قالوا: بلى، قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء.

﴿قل﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كل﴾ أي كلُّ واحدٍ منا ومنكم ﴿متربص﴾ منتظِرٌ لما يؤول إليه أمرُنا وأمرُكم ﴿فتربصوا﴾ وقرئ[١] فتمتعوا ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحابُ الصراط السوي﴾ أي المستقيم، وقرئ[٢] السواءِ أي الوسطِ الجيد، وقرئ[٣] السوءِ و(السُّوءى)[٤] و(السُّوَيِّ)[٥] تصغيرُ السوء ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ومَنْ في الموضعين استفهاميةٌ محلُّها الرفعُ بالابتداء خبرُها ما بعدها، والجملةُ سادةٌ مسدَّ مفعولي العلم أو مفعولِه، ويجوز كونُ الثانية موصولةً بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفةً على محل الجملةِ الاستفهامية المعلَّقِ عنها الفعلُ على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط، وقيل: العائدُ في الأولى محذوفٌ والتقديرُ من هم أصحابُ الصراط.

عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورةَ طٰه أُعطِيَ يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار**»[٦] وقال: «**لا يقرأ أهلُ الجنة من القرآن إلا سورةَ طٰه ويس**»[٧].

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦١).

(٢) قرأ بها: أبو مجلز، وعمران بن حدير.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧١)، والبحر المحيط (٦/ ٢٩٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٠).

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧١)، والبحر المحيط (٦/ ٢٩٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٠).

(٤) قرأ بها: الجحدري، وابن يعمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧١)، والبحر المحيط (٦/ ٢٩٢).

(٥) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧١)، والبحر المحيط (٦/ ٢٩٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦١).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢٣٥).

سورة الأنبياء

مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية

أنعمت بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ

يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

﴿اقترب للناس حسابهم﴾ مناسبةُ هذه الفاتحةِ الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنيةٌ عن البيان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المرادُ بالناس المشركون وهو الذي يُفصح عنه ما بعده، والمرادُ باقتراب حسابِهم اقترابُه في ضمن اقترابِ الساعةِ، وإسنادُ الاقترابِ إليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والأهوالِ الفظيعة لانسياق الكلامِ إلى بيان غفلتِهم عنه وإعراضِهم عما يذكّرهم ذلك، واللامُ متعلقةٌ بالفعل، وتقديمُها على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعةِ فإن نسبةَ الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويُورثهم رَهبةً وانزعاجًا من المقترِب، كما أن تقديمَ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريحِ في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض﴾ [البقرة: ٢٩] لتعجيل المسرّة لما أن بيان كونِ الخلق لأجل المخاطَبين مما يسرّهم ويزيدهم رغبةً فيما خُلق لهم وشوقًا إليه، وجعلها تأكيدًا للإضافة .على أن الأصلَ المتعارفَ فيما بين الأوساط اقترب حسابُ الناس ثم اقترب للناس الحسابُ ثم اقترب للناس حسابُهم، مع أنه تعسفٌ تامٌّ، بمعزل [عما][1] يقتضيه المقامُ وإنما الذي يستدعيه حسنُ النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حسابُ[2] أعمالِهم السيئةِ الموجبة للعقاب، وفي إسناد الاقترابِ المنبئ عن التوجه نحوَهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يُعتبرَ التوجّهُ والإقبالُ من جهتهم نحوه من تفخيم شأنِه وتهويلِ أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيءٍ مقبلٍ عليهم لا

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: صفات.

يزال يطلُبهم ويصيبهم لا محالة، ومعنى اقترابِه لهم تقارُبُه ودُنوُّه منهم بعدَ بُعدِه عنهم فإنه في كل ساعة من ساعات الزمان أقربُ إليهم منه في الساعة السابقة.

هذا وأما الاعتذارُ بأن قربَه بالإضافة إلى ما مضى من الزمان أو بالنسبة إلى الله عز وجل أو باعتبار أن كلَّ آتٍ قريبٌ فلا تعلُّقَ له بما نحن فيه من الاقتراب المستفادِ من صيغة الماضي ولا حاجة إليه في تحقيق أصلِ معناه، [نعم][1] قد يفهم منه عُرفًا كونُه قريبًا في نفسه أيضًا فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأولِ دون الأخيرين، أما الثاني فلا سبيلَ إلى اعتباره هاهنا لأن قربَه بالنسبة إليه تعالى مما لا يُتصوّر فيه التجددُ والتفاوتُ حتمًا، وإنما اعتبارُه في قوله تعالى: ﴿لعل الساعةَ قريبٌ﴾ [الشورى: ١٧] ونظائرِه مما لا دَلالةَ فيه على الحدوث، وأما الثالثُ فلا دِلالةَ فيه على القرب حقيقةً ولو بالنسبة إلى شيء آخر.

﴿**وهم في غفلة**﴾ أي في غفلة تامةٍ منه ساهون عنه بالمرة لا أنهم غيرُ مبالين به مع اعترافهم بإتيانه، بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولِهم أن الأعمالَ لا بد لها من الجزاء ﴿**معرضون**﴾ أي عن الآيات والنذرُ المنبّهة لهم عن سِنَة الغفلة، وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلةُ أمرًا [جِبِليًّا][2] لهم جُعل الخبرُ الأول ظرفًا منبئًا عن الاستقرار بخلاف الإعراض، والجملةُ حالٌ من الناس، وقد جُوّز كونُ الظرف حالًا من المستكن في معرضون.

﴿**ما يأتيهم من ذكر**﴾ من طائفة نازلةٍ من القرآن تذكّرهم ذلك أكملَ تذكيرٍ وتنبّههم عن الغفلة أتمَّ تنبيهٍ، كأنها نفسُ الذكرِ ومن في قوله تعالى: ﴿**من ربهم**﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا متعلقةٌ بـ (يأتيهم) أو بمحذوف هو صفةٌ لذكر، وأيا ما كان ففيه دِلالةٌ على فضله وشرفِه وكمالِ شناعةِ ما فعلوا به، والتعرضُ لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿**محدَثٍ**﴾ بالجر صفةٌ لذكر، وقرئ[3] بالرفع حملًا على محلّه أي محدَثٌ تنزيلُه بحسب اقتضاءِ الحكمةِ.

وقوله تعالى: ﴿**إلا استمعوه**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ محلُّه النصبُ على أنه حالٌ من مفعول

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٩٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٤٠).

يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى: ﴿وهم يلعبون﴾ حالٌ من فاعل استمعوه وقوله تعالى: ﴿لاهية قلوبهم﴾ إما حالٌ أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكرٌ من ربهم محدَثٌ في حال من الأحوال إلا حالَ استماعِهم إياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه، أو لاعبين به حالَ كون قلوبِهم لاهيةً عنه لتناهي غفلتِهم وفرْطِ إعراضِهم عن النظر في الأمور والتفكرِ في العواقب، وقرئ[١] لاهيةٌ بالرفع على أنه خبرٌ بعد خبر.

﴿وأسروا النجوى﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لبيان جنايةٍ خاصة إثرَ حكايةِ جناياتهم المعتادة، والنجوى اسمٌ من التناجي ومعنى إسرارِها، مع أنها لا تكون إلا سرًّا، أنهم بالغوا في إخفائها أو أسروا نفسَ التناجي بحيث لم يشعُر أحدٌ بأنهم متناجون وقوله تعالى: ﴿الذين ظلموا﴾ بدلٌ من واو أسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به، أو هو مبتدأٌ خبرُه أسروا النجوى قُدّم عليه اهتمامًا به، والمعنى هم أسرّوا النجوى فوُضِع الموصولُ موضعَ الضمير تسجيلًا على فعلهم بكونه ظلمًا أو منصوبٌ على الذم وقوله: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ إلخ، في حيّز النصبِ على أنه مفعولٌ لقول مضمرٍ هو جوابٌ عن سؤال نشأ عما قبله، كأنه قيل: ماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل: قالوا هل هذا إلخ، أو بدلٌ من أسرّوا أو معطوفٌ عليه أو على أنه بدلٌ من النجوى، أي أسروا هذا الحديثَ وهل بمعنى النفي والهمزة في قوله تعالى: ﴿أفتأتون السحر﴾ للإنكار والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام.

وقوله تعالى: ﴿وأنتم تبصرون﴾ حال من فاعل تأتون مقرِّرة للإنكار ومؤكدةٌ للاستبعاد، والمعنى ما هذا إلا بشرٌ مثلُكم أي من جنسكم وما أتى به سحرٌ، أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضُرونه على وجه الإذعان والقَبول وأنتم تعاينون أنه سحر! قالوه بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغِ أن الرسولَ لا يكون إلا ملَكًا وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر، وزل عنهم أن إرسالَ البشر إلى عامة البشر هو الذي تقتضيه الحكمةُ التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون، وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيقِ العهدِ وترتيب مبادي الشرِّ والفساد وتمهيدِ مقدمات المكرِ والكيد في

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٢٩٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٤١).

[هدم أمرِ][١] النبوة وإطفاءِ نورِ الدين والله متمٌّ نورَه ولو كره الكافرون.

رأي الكفار في النبي ﷺ

﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ حكايةٌ من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما أوحىٰ إليه [أحوالَهم و][٢] أقوالَهم[٣] بيانًا لظهور أمرِهم وانكشافِ سرِّهم، وإيثارُ القول المنتظمِ للسر والجهر على النهج البرهاني مع ما فيه من الإيذان بأن علمه تعالى للسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوتَ بينهما بالجلاء والخفاء قطعًا كما في علوم الخلقِ، وقرئ[٤]: قل ربي إلخ، وقوله تعالى: ﴿في السماء والأرض﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا من القول أي كائنًا في السماء والأرض وقوله تعالى: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي المبالغُ في العلم بالمسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم، اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبله متضمنٌ للوعيد ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ إضرابٌ من جهته تعالى وانتقالٌ من[٥] حكاية قول آخرَ [مضطربٍ في مسالك البطلان][٦]، أي لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه عليه السلام: هل هذا إلا بشرٌ؟ وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحرٌ، بل قالوا تخاليطُ الأحلام ثم أضربوا عنه.

فقالوا: ﴿بل افتراه﴾ من تلقاء نفسِه من غير أن يكون له أصلٌ أو شبهةُ أصلٍ، ثم قالوا: ﴿بل هو شاعر﴾ وما أتى به شعرٌ يُخيّل إلى السامع معانيَ لا حقيقة لها وهكذا شأنُ المبطِلِ المحجوجِ متحيّرٌ لا يزال يتردد بين باطلٍ وأبطلَ ويتذبذب بين فاسد وأفسدَ، فالإضرابُ الأول كما ترى من جهته تعالى والثاني والثالث من قبلهم وقد قيل: الكلُّ من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم: هو سحرٌ إلى أنه تخاليطُ أحلام، ثم

---

(١) في خ: عدم نور.
(٢) سقط في خ.
(٣) زاد في خ: وأفعالهم.
(٤) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وخلف، وشعبة، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٦٦)، والتيسير للداني ص (١٥٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١١٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٣).
(٥) زاد في خ: قولهم السابق إلى.
(٦) في خ: معطوف في تضارب البرهان.

إلى أنه كلامٌ مفترًى ثم إلى أنه قولُ شاعر، ولا ريب في أنه كان ينبغي حينئذ أن يقال: قالوا: بل أضغاثُ أحلامٍ والاعتذارُ بأن (بل قالوا) مقولٌ لقالوا المضمرِ قبل قوله تعالى: ﴿هل هذا إلا بشرٌ﴾ [الأنبياء: ٣] إلخ، كأنه قيل: وأسروا النجوى قالوا: (هل هذا) إلى قوله: (بل أضغاثُ أحلام)، وإنما صرح بقالوا بعد بل لبُعْد العهد، مما يجب تنزيهُ ساحة التنزيلِ عن أمثاله ﴿فليأتنا بآية﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ يفصح عنه السياقُ، كأنه قيل: وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولًا من الله تعالى فليأتنا بآية ﴿كما أرسل الأولون﴾ أي مثلَ الآية التي أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرِهما حتى نؤمن به، فما موصولةٌ ومحلُّ الكاف الجرُّ على أنها صفةٌ لآية ويجوز أن تكون مصدريةً فالكافُ منصوبةٌ على أنها مصدرٌ تشبيهيٌّ أي نعتٌ لمصدر محذوفٍ، أي فليأتنا بآية إتيانًا كائنًا مثلَ إرسالِ الأولين بها، وصِحّةُ التشبيه من حيث أن الإتيانَ بالآية من فروع الإرسالِ بها أي مثلَ إتيانٍ مترتبٍ على الإرسال، ويجوز أن يحمل النظمُ الكريمُ على أنه أريد كلٌّ واحد من الإتيان والإرسال في كل واحد من طرفي التشبيه[1]، لكنه تُرك في جانب المشبّه ذكرُ الإرسال وفي جانب المشبّهِ به ذكرُ الإتيانِ اكتفاءً بما ذكر في كل موطنٍ عما تُرك في الموطن الآخر حسبما مر في آخر سورة يونسَ عليه السلام.

﴿ما آمنت قبلهم من قرية﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتكذيبهم فيما تنبئ عنه خاتمةُ مقالهم من الوعد الضمنيّ بالإيمان كما أشير إليه، وبيانِ أنهم في اقتراح تلك الآياتِ كالباحث عن حتفه بظِلْفه وأن في ترك الإجابة إليه إبقاءً عليهم، كيف لا ولو أُعطوا ما اقترحوا مع عدم إيمانهم قطعًا لوجب استئصالُهم لجريان سنةِ الله عز وجل في الأمم السالفة، على أن المقترحين إذا أُعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذابُ الاستئصال لا محالة، وقد سبقت كلمةُ الحق منه تعالى أن هذه الأمةَ لا يعذبون بعذاب الاستئصالِ.

فقوله: من قرية أي من أهل قرية في محل الرفعِ على الفاعلية ومن مزيدةٌ لتأكيد العمومِ وقوله تعالى: ﴿أهلكناها﴾ أي بإهلاك أهلِها لعدم إيمانِهم بعد مجيءِ ما

---

(١) يشير الشيخ إلى أن الآية من قبيل التشبيه المرسل المذكور الأداة وقد سبق الحديث عنه في عدة مواطن ويراجع في التشبيه.
ينظر: أسرار البلاغة (١٠٨) وما بعدها.

اقترحوه من الآيات صفةٌ لـ (قرية) والهمزة في قوله تعالى: ﴿أفهم يؤمنون﴾ لإنكار الوقوعِ والفاء للعطف إما على مقدر دخلتْه الهمزةُ فأفادت إنكارَ وقوعِ إيمانِهم ونفيَه عقبَ عدمِ إيمان الأولين، فالمعنى أنه لم تؤمنْ أمةٌ من الأمم المهلَكة عند إعطاءِ ما اقترحوه [من الآيات فلم يؤمنوا، أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوا][١] مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ إما على ما آمنت على أن الفاء متقدمةٌ على الهمزة في الاعتبار مفيدةٌ لترتيب إنكارِ وقوعِ إيمانِهم على عدم إيمانِ الأولين، وإنما قُدّمت عليها الهمزةُ لاقتضائها الصدارةَ كما هو رأيُ الجمهور، وقوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا﴾ جوابٌ لقولهم: هل هذا إلا بشر؟ إلخ، متضمنٌ لردّ ما دسّوا تحت قولهم: كما أُرسل الأولون من التعريض[٢] بعدم كونِه عليه السلام مثلَ أولئك الرسلِ صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، ولذلك قُدّم عليه جوابُ قولهم: فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيزِ فلا بد من المسارعة إلى رده وإبطالِه كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ [هود: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿ما ننزل الملائكةَ إلا بالحق وما كانوا إذًا منظَرين﴾ [الحجر: ٨] ولأن في هذا الجواب نوعَ بسطٍ يُخِل تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظم الكريم، والحقُّ أن ما اتخذوه سببًا للتكذيب موجبٌ للتصديق في الحقيقة لأن مقتضىٰ الحكمةِ أن يُرسلَ إلى البشر البشرُ وإلى الملَك الملَكُ حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملَكًا رسولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] فإن عامةَ البشر بمعزل من استحقاق المفاوضةِ الملَكية لتوقّفها على التناسب بين المُفيض والمستفيض، فبعثُ الملَكِ إليهم مزاحِمٌ للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوينِ والتشريع، وإنما الذي تقتضيه الحكمةُ أن يبعث الملكُ منهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكية المؤيَّدين بالقوة القدسية المتعلّقين بكلا العالَمين الروحانيِّ والجُسماني ليتلقَّوا من جانب ويُلْقوا إلى جانب آخرَ، وقوله تعالى: ﴿نوحي إليهم﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية الإرسالِ وصيغةُ المضارعِ لحكاية الحالِ الماضية المستمرةِ، وحُذف المفعولُ لعدم القصدِ إلى خصوصه، والمعنى وما أرسلنا إلى الأمم قبلَ إرسالك إلى أمتك إلا

(١) سقط في خ.
(٢) في المخطوط: التعرض.

رجالًا مخصوصين من أفراد الجنسِ مستأهلين للاصطفاء والإرسال نوحي إليهم بواسطة الملَك ما نوحي من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار، كما نوحي إليك من غير فرقٍ بينهما في حقيقة الوحي وحقيقةِ مدلولِه حسبما يَحكيه قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٤] كما لا فرقَ بينك وبينهم في البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدْعًا من الرسل وأن ما أُوحيَ إليك ليس مخالفًا لما أوحيَ إليهم فيقولون ما يقولون، وقرئ[1] (يوحىٰ إليهم) بالياء على صيغة المبني للمفعول جريًا على سَنن الكبرياءِ وإيذانًا بتعين الفاعل وقوله تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ [له][2] إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالِهم عن رتبة الاستبعادِ والنكير إثرَ تحقيق الحقِّ على طريقة الخطابِ لرسول الله ﷺ لأنه الحقيقُ بالخطاب في أمثال تلك الحقائقِ الأنيقةِ، وأما الوقوفُ عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوامِّ، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدلالة المذكورِ عليه أي إن كنتم لا تعلمون ما ذُكر فاسألوا أيها الجهلةُ أهلَ الكتاب الواقفين على أحوال الرسلِ السالفةِ عليهم السلام لتزول شبهتُكم.

أُمروا بذلك لأن إخبارَ الجمِّ الغفير يوجب العلمَ لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته عليه السلام ويشاورونهم في أمره عليه السلام، ففيه من الدلالة على كمال وضوحِ الأمر وقوةِ شأنِ النبي عليه السلام ما لا يخفى.

﴿وما جعلناهم جسدًا﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام أُسوةً لسائر أفراد الجنسِ في أحكام الطبيعةِ البشرية إثرَ بيانِ كونهم أسوةً في نفس البشرية، والجسدُ جسمُ الإنسانِ والجنِّ والملائكة، ونصبُه إما على أنه مفعولٌ ثانٍ للجعل لكن لا بمعنى جعلِه

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٩)، والبحر المحيط (٦/ ٢٩٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٠٤)، والتيسير للداني ص (١٣٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٧٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤، ١٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).

(٢) سقط في خ.

جسدًا بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهورُ من معنى التصيير، بل بمعنى جعله كذلك ابتداءً على طريقة قولهم: سبحان من صغّر البعوضَ وكبر الفيل، كما مر في قوله تعالى: ﴿وجعلنا آيةَ النهارِ مُبصرة﴾ [الإسراء: ١٢] وإما حالٌ من[1] الضمير والجعلُ إبداعيٌّ وإفرادُه لإرادة الجنس المنتظمِ للكثير أيضًا، وقيل: بتقدير المضافِ أي ذوي جسدٍ.

وقوله تعالى: **﴿لا يأكلون الطعام﴾** صفةٌ له أي وما جعلناهم جسدًا مستغنيًا عن الأكل والشرب بل محتاجًا إلى ذلك لتحصيل بدَلِ ما يتحلل منه **﴿وما كانوا خالدين﴾** لأن مآلَ التحلّلِ هو الفناءُ لا محالة، وفي إيثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيهٌ على أن عدمَ الخلود مقتضى جِبِلّتِهم التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم﴾ إلخ، لا بالجعل المستأنَف والمرادُ بالخلود إما المكثُ المديدُ كما هو شأنُ الملائكة أو الأبدية وهم معتقدون أنهم لا يموتون، والمعنى جعلناهم أجسادًا متغذّيةً صائرةً إلى الموت بالآخرة على حسب آجالِهم لا ملائكةً ولا أجسادًا مستغنيةً عن الأغذية مصونةً عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلودٌ كخلودهم، فالجملةُ مقرّرةٌ لما قبلها من كون الرسلِ السالفةِ عليهم السلام بشرًا لا ملَكًا مع ما في ذلك من الرد على قولهم: ما لهذا الرسولِ يأكل الطعامَ، وقوله تعالى: **﴿ثم صدقناهم الوعد﴾** عطفٌ على ما يفهم من حكاية وحْيِه تعالى إليهم على الاستمرار التجدّدي كأنه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائِهم **﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾** من المؤمنين وغيرهم ممن تستدعي الحكمةُ إبقاءَه كمن سيؤمن هو أو بعضُ فروعِه بالآخرة، وهو السرُّ في حماية العرب من عذاب الاستئصال **﴿وأهلكنا المسرفين﴾** أي المجاوزين للحدود في الكفر والمعاصي.

﴿لقد أنزلنا إليكم﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتحقيق حقيةِ القرآنِ العظيم الذي ذُكر في صدر السورةِ الكريمةِ إعراضُ الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤُهم به وتسميتُهم تارةً سحرًا وتارة أضغاثَ أحلام وأخرى مفترًى وشعرًا، وبيانُ علوِّ رتبته إثرَ تحقيق رسالتِه ﷺ ببيان أنه كسائر الرسلِ الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد

---

(١) في خ: على.

القسمي إظهارًا لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانًا بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكيرِ[١]، أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشرَ قريش **﴿كتابًا﴾** عظيمَ الشأن نيِّر البرهان وقوله تعالى: **﴿فيه ذكركم﴾** صفةٌ لكتابًا مؤكدةٌ لما أفاده التنكيرُ التفخيميُّ من كونه جليلَ المقدار بأنه جميلُ الآثار مستجلبٌ لهم منافعَ[٢] جليلةً، أي فيه شرفكم وصِيتُكم كقوله تعالى: ﴿وإنه لذِكرٌ لك ولقومك﴾ [الزخرف: ٤٤] وقيل: ما تحتاجون إليه في أمور دينِكم ودنياكم، وقيل: فيه ما تطلُبون به حسن الذكرِ من مكارم الأخلاق، وقيل: فيه موعظتُكم وهو الأنسب بسباق النظمِ الكريم وسياقِه فإن قوله تعالى: **﴿أفلا تعقلون﴾** إنكارٌ توبيخيٌّ فيه بعثٌ لهم على التدبر في أمر الكتابِ والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظِ والزواجر التي من جملتها القوارعُ السابقةُ واللاحقةُ، والفاءُ للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلامُ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمرَ كذلك؟ أو لا تعقلون شيئًا من الأشياء التي من جملتها ما ذكر!

وقوله تعالى: **﴿وكم قصمنا من قرية﴾** نوعُ تفصيل لإجمالِ قوله تعالى: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ وبيانٌ لكيفية إهلاكِهم وسببِه وتنبيهٌ على كثرتهم، وكم خبريةٌ مفيدةٌ للتكثير محلُّها النصبُ على أنها مفعولٌ لقصمنا ومن قرية تمييزٌ، وفي لفظ القصْمِ الذي هو عبارةٌ عن الكسر بإبانة أجزاءِ المكسور وإزالةِ تأليفها بالكلية[٣] من الدلالة على قوة الغضبِ وشدة السُّخط ما لا يخفى.

وقوله تعالى: **﴿كانت ظالمة﴾** في محل الجرِّ على أنها صفةٌ لقرية بتقدير مضافٍ ينبئ عنه الضميرُ الآتي، أي وكثيرًا قصمنا من أهل قريةٍ كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأْبكم **﴿وأنشأنا بعدها﴾** أي بعد إهلاكها **﴿قومًا آخرين﴾** أي ليسوا منهم نسبًا ولا دينًا، ففيه تنبيهٌ على استئصال الأولين وقطعِ دابرهم بالكلية وهو السرُّ في تقديم حكاية إنشاءِ هؤلاء على حكاية مبادي إهلاكِ أولئك بقوله تعالى: **﴿فلما أحسوا**

---

(١) في خ: التكبر.
(٢) في خ: منافع جمة.
(٣) إشارة إلى أن الآية من قبيل الاستعارة.
ينظر: تلخيص المفتاح (٢٩٥)، وعليه مختصر السعد التفتازاني، والإكسير في علم التفسير للطوفي (١٠٩) وما بعدها، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤) وما بعدها، والصناعتين (٢٩٥) وما بعدها، والمثل السائر (٢/ ٨٣)، ومفتاح العلوم (٣٨٠)، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها.

بأسنا﴾ أي أدركوا عذابَنا الشديدَ إدراكًا تاما كأنه إدراكُ المشاهَد المحسوسِ **﴿إذا هم منها يركضون﴾** يهرُبون مسرعين راكضين دوابَّهم أو مُشبَّهين بهم في فرْط الإسراع **﴿لا تركضوا﴾** أي قيل لهم بلسان الحالِ أو بلسان المقالِ من الملَك أو ممن ثمّةَ من المؤمنين بطريق الاستهزاءِ والتوبيخِ: لا تركُضوا **﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾** من التنعم والتلذّذ، والإتراف وإبطارُ النعمة **﴿ومساكنكم﴾** التي كنتم تفخرون[1] بها **﴿لعلكم تسألون﴾** تُقصَدون للسؤال والتشاور والتدبير في المُهمّات والنوازل، أو تُفقدون[2] إذا ريئت مساكنُكم خاليةً وتُسألون أين أصحابُها، أو يسألكم الوافدون نوالَكم على أنهم كانوا أسخياءَ ينفقون أموالَهم رياءً، أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكمًا إلى تهكم.

﴿قالوا﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب **﴿يا ويلنا﴾** أي هلاكَنا **﴿إنا كنا ظالمين﴾** أي مستوجِبين للعذاب، وهذا اعترافٌ منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندمٌ عليه حين لم ينفعْهم ذلك **﴿فما زالت تلك دعواهم﴾** أي فما زالوا يرددون تلك الكلمةَ، وتسميتُها دعوى أي دعوة؛ لأن المُوَلولَ كأنه يدعو الويلَ قائلًا: يا ويل تعالَ فهذا أوانُك **﴿حتى جعلناهم حصيدًا﴾** أي مثلَ الحصيدِ[3] وهو المحصودُ من الزرع والنبت ولذلك لم يُجمع **﴿خامدين﴾** أي ميتين من خمَدت النارُ إذا طَفِئت[4] وهو مع حصيدًا في حيز المفعول الثاني للجعْل، كقولك: جعلتُه حُلْوًا حامضًا، والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيدِ والخمود، أو حالٌ من الضمير المنصوب في جعلناهم أو من المستكنّ في حصيدًا أو صفة لحصيدًا لتعدّده معنًى لأنه

---

(١) في خ: تفتخرون.

(٢) في خ: تنفدون.

(٣) إشارة إلى أن الآية من قبيل التشبيه البليغ المحذوف الأداة والوجه، فقد شبهوا بزرع حصد أي بعد أن كان قائمًا على سوقه خضرًا، فهو يتضمن تشبيههم قبل هلاكهم بزرع في حسن المنظر والطلعة، كما شبه بالزرع في قوله تعالى: ﴿كزرع أخرج شطأه فآزره ...﴾ [الفتح:٢٩] ويقال للناشئ: أنبته الله نباتًا حسنًا، كما قال في آل عمران ﴿وأنبتها نباتا حسنا﴾ [آل عمران:٣٧] فللإشارة إلى المشبهين شبه الهيجة، وشبه الهلك، أوثر تشبيههم حين هلاكهم بالحصيد.
ينظر: التحرير والتنوير (١٧/ ٦٩)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠١)، والكشاف (٢/ ٥٦٥).

(٤) هي استعارة بالكناية وعند ابن عاشور أنهما تشبيهان بليغان،وفي هذه الكلمة وسابقتها خلاف: أمن الاستعارة أم من التشبيه فليراجع في موضعه..
ينظر: الكشاف (٢/ ٥٦٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠١، ٣/ ١٢٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩)، وشروح التلخيص (٤/ ٤٦٤) وما بعدها.

في حكم جعلناهم أمثالَ حصيد.

﴿وما خلقنا السماء والأرض﴾ إشارةٌ إجماليةٌ إلى أن تكوينَ العالم وإبداعَ بني آدمَ مؤسسٌ على قواعد الحِكَم البالغةِ المستتبِعة للغايات الجليلةِ، وتنبيهٌ على أن ما حُكي من العذاب الهائلِ والعقاب النازلِ بأهل القرى من مقتَضيات تلك الحِكَم ومتفرِّعاتها حسبَ اقتضاءِ أعمالِهم إياه، وأن للمخاطَبين المقتدين بآثارهم ذَنوبًا مثلَ ذَنوبهم، أي ما خلقناهما ﴿وما بينهما﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسُها وأفرادُها ولا تحصر أنواعُها وآحادُها على هذا النمط البديعِ والأسلوب المنيعِ خاليةٌ عن الحِكَم والمصالح، وإنما عبّر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل: ﴿لاعبين﴾ لبيان كمالِ تنزّهه تعالى عن الخَلْق الخالي عن الحِكمة بتصويره بصورةِ ما لا يرتاب أحدٌ في استحالة صدورِه عنه سبحانه، بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسببًا لمعاشه ودليلًا يقودُه إلى تحصيل معرفتِنا التي هي الغايةُ القصوى بواسطةِ طاعتِنا وعبادتنا كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام وكان عرشُه على الماء ليبلوَكم أيّكُم أحسنُ عملًا﴾ [هود: ٧] وقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوًا﴾ استئنافٌ مقرّر لما قبله من انتفاء اللعبِ واللهو، أي لو أردنا أن نتخذ ما يُتَلهّى به ويُلعب ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أي من جهة قدرتِنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعةِ والأجرامِ الموضوعة كدَيدن الجبابرةِ في رفع العروش وتحسينها وتسويةِ الفروش وتزيينها، لكن يستحيل إرادتُنا له لمنافاته الحِكمةَ فيستحيل اتخاذُنا له قطعًا وقوله تعالى: ﴿إن كنا فاعلين﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي إن كنا فاعلين لاتخذناه، وقيل: إن نافية أي ما كنا فاعلين [أي لاتخاذ][1] اللهو لعدم إرادتِنا إياه فيكون بيانًا لانتفاء التالي[2] [لانتفاء المقدّم أو لإرادة اتخاذِه فيكون بيانًا لانتفاء المقدّم المستلزِم لانتفاء التالي][3]، وقيل: اللهوُ الولدُ بلغة اليمن، وقيل: الزوجةُ والمرادُ الردُّ على النصارى ولا يخفى بُعدُه ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهوِ بل عن

(١) في خ: لاتخذنا.
(٢) في خ: الثاني.
(٣) سقط في ط.

إرادته، كأنه قيل: لكنا لا نريده بل شأنُنا أن نُغلّب الحقَّ، الذي من جملته الجِدُّ، على الباطل الذي من قبيله اللهوُ، وتخصيصُ شأنِه هذا من بين سائر شئونِه تعالى بالذكر للتخلص إلى ما سيأتي من الوعيد ﴿**فيدمغه**﴾ أي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المَحْكية، وقد استُعير لإيراد الحقِّ على الباطل القذفُ[١] الذي هو الرمْيُ الشديدُ بالجِرم الصُّلْب كالصخرة، وَلمَحْقه للباطل الدمغُ الذي هو كسرُ الشيء الرِّخْوِ الأجوفِ وهو الدِّماغ بحيث يشق غشاءَه المؤدّيَ إلى زُهوق الروحِ تصويرًا له بذلك، وقرئ[٢] فيدمغَه بالنصب وهو ضعيف، وقرئ[٣] فيدمُغه بضم الميم ﴿**فإذا هو زاهق**﴾ أي ذاهبٌ بالكلِّية، وفي إذا الفجائية والجملة الاسميةِ من الدِلالة على كمال المسارعةِ في الذهاب والبُطلان ما لا يخفى فكأنه زاهقٌ من الأصل ﴿**ولكم الويل مما تصفون**﴾ وعيدٌ لقريش بأن لهم أيضًا مثلَ ما لأولئك من العذاب والعقاب، ومن تعليليةٌ متعلقةٌ بالاستقرار الذي تعلق به الخبرُ، أو بمحذوف هو حالٌ من الويل أو من ضميره في الخبر، وما إما مصدريةٌ أو موصولةٌ أو موصوفةٌ أي واستقر لكم الويلُ والهلاكُ من أجل وصفِكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل، أو بالذي تصفونه أو بشيء تصفونه به من الولد أو كائنًا مما تصفونه تعالى به.

﴿**وله من في السموات والأرض**﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاتِه على حكمة بالغةٍ ونظامٍ كامل وأنه تعالى يُحِق الحقَّ ويُزْهق الباطل، أي له تعالى خاصة جميعُ المخلوقات خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا وتصرفًا وإحياءً وإماتةً وتعذيبًا وإثابةً من غير أن يكون لأحد في ذلك دخلٌ ما استقلالًا أو استتباعًا ﴿**ومن عنده**﴾

---

(١) يقول الزمخشري واستعار القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدفعه، وهما استعارتان في القذف، فقد استعير هنا لإيراد ما يزيل ويبطل الشيء من دليل أو زجر أو إعدام أو تكوين ما يقلب، لأن ذلك مثل رمي الجسم المبطل بشيء يأتي عليه ليتلفه أو يشتته، والدمغ: كسر الجسم الصلب الأجوف وهو هنا ترشيح لاستعارة القذف، فالاستعارتان من استعارة المحسوسين للمعقولين.
ينظر: الكشاف (٢/ ٥٦٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٢١)، والفتوحات الإلهية (٣/ ١٢٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٤).

(٢) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٦).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٠٢).

وهم الملائكةُ عليهم السلام، عبّر عنهم بذلك إثرَ ما عبّر عنهم بـ (من في السموات) تنزيلًا لهم، لكرامتهم عليه عز وعلا وزُلْفاهم عنده، منزلةَ المقربين عند الملوكِ بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبرُه ﴿**لا يستكبرون عن عبادته**﴾ أي لا يتعظمون عنها ولا يعدّون أنفسهم كبيرًا ﴿**ولا يستحسرون**﴾ ولا يكِلّون ولا يَعيَوْن، وصيغةُ الاستفعال المنبئةِ عن المبالغة في الحُسور للتنبيه على أن عباداتِهم بثقلها ودوامها حقيقةٌ بأن يُستَحسَرَ منها و[مع][(١)] ذلك لا يستحسرون، [لا][(٢)] لإفادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصلِه في الجملة كما أن نفيَ الظلاّمية في قوله تعالى: ﴿وما أنا بظلاّمٍ للعبيد﴾ [ق: ٢٩] لإفادة كثرةِ الظلم المفروضِ تعلقُّه بالعبيد لا لإفادة نفي المبالغةِ في الظلم مع ثبوت أصلِ الظلم في الجملة، وقيل: من عنده معطوف على من الأولى وإفرادُهم بالذكر مع دخولهم في مَن في السموات والأرض للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وجبريل وميكائيل﴾ [البقرة: ٩٨] فقوله تعالى: ﴿لا يستكبرون﴾ حينئذ حال من الثانية ﴿**يسبحون الليل والنهار**﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات ويعظّمونه ويمجدونه دائمًا، وهو استئنافٌ وقع جوابًا عما نشأ مما قبله، كأنه قيل: ماذا يصنعون في عباداتهم أو كيف يعبدون؟ فقيل: يسبحون إلخ، أو حالٌ من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى: ﴿**لا يفترون**﴾ أي لا يتخلل تسبيحَهم فترةٌ أصلًا بفراغ أو بشغل آخرَ.

﴿**أم اتخذوا آلهة**﴾ حكايةٌ لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الإضرابِ والانتقال من فن إلى فن آخر من التوبيخ إثرَ تحقيق الحقِّ ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبةً تحت ملكوته وقهره وأن عبادَه مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزِّهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها الأندادُ، ومعنى الهمزة في (أم) المنقطعة إنكارُ الوقوع لا إنكار الواقع وقوله تعالى: ﴿**من الأرض**﴾ متعلقٌ باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأيا ما كان فالمرادُ هو التحقيرُ لا التخصيصُ.

وقوله تعالى: ﴿**هم ينشرون**﴾ أي يَبعثون الموتى، صفةٌ لآلهةً وهو الذي يدور عليه الإنكارُ والتجهيلُ والتشنيع لا نفسُ الاتخاذ فإنه واقعٌ لا محالة أي بل أتخذوا

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.

آلهةً من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم يُنشِرون الموتى، كلا، فإن ما اتخذوها آلهةً بمعزل من ذلك وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحًا لكنهم حيث ادَّعَوا لها[١] الإلٰهيةَ فكأنهم ادّعَوا لها الإنشارَ[٢] ضرورةَ أنه من الخصائص الإلٰهية حتمًا، ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينةِ حالهم للإنشار[٣] الموجبةِ لمزيد الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿أفي الله شك﴾ [إبراهيم: ١٠] وقوله تعالى: ﴿أبالله وآياته ورسولِه كنتم تستهزئون﴾ [التوبة: ٦٥] فإن تقديمَ الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينةِ أمرِه تعالى لأن يُشَك فيه ويُستهزأ به، ويجوز أن يُجعلَ ذلك من مستتبعات ادّعائِهم الباطلِ لأن الألوهيةَ مقتضيةٌ للاستقلال بالإبداء والإعادة فحيث ادَّعَوا للأصنام الإلٰهيةَ فكأنهم ادَّعوا لها الاستقلالَ بالإنشار كما أنهم جعلوا بذلك مدّعين لأصل الإنشار.

دلائل التوحيد

﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله﴾ إبطالٌ لتعدد الإلٰه بإقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته، وإيرادُ الجمع لوروده إثرَ إنكار اتخاذِ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلًا في الاستدلال وكذا فرضُ كونِهما فيهما، وإلا بمعنى غير على أنها صفةٌ لآلهة، ولا مساغَ للاستثناء لاستحالة شمولِ ما قبلها وما بعدها وإفضائِه إلى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفسادَ لكونها فيهما بدونه تعالى، ولا للرفع على البدل لأنه متفرّع على الاستثناء ومشروطٌ [بأن يكون][٤] في كلامٍ غيرِ موجب، أي لو كان في السماوات [و][٥] الأرض آلهةٌ غيرُ الله كما هو اعتقادُهم الباطل ﴿لفسدتا﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعًا وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدّم قطعًا ببيان الملازمة أن الإلٰهيةَ مستلزِمةٌ للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييرًا وتبديلًا وإيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه إما بتأثير كل منها وهو محالٌ لاستحالة

---

(١) في خ: إليها.
(٢) في خ: الإنشاء.
(٣) في خ: للإنشاء.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.

وقوعِ المعلولِ المعيّن بعلل متعددة، وإما بتأثير واحدٍ منها فالبواقي بمعزل من الإلٰهية[١] [قطعًا، واعلم أن جعلَ التالي فسادَهما بعد وجودِهما لِما أنه اعتُبر في المقدم تعددُ الآلهةِ فيهما][٢] وإلا فالبرهانُ يقضي باستحالة التعدد على الإطلاق، فإنه لو تعدد الإلٰهُ فإنْ توافقَ الكلُّ في المراد تطاردت عليه القُدَرُ وإن تخالفت تعاوقت[٣] فلا يوجد موجودٌ أصلًا وحيث انتفى التالي تعيّن انتفاءُ المقدّم.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فسبحان الله﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أي فسبحوه سبحانه اللائقَ به ونزّهوه عما لا يليق به من الأمور التي من جملتها أن يكون له شريكٌ في الألوهية، وإيرادُ الجلالة في موضع الإضمارِ للإشعار بعلة الحُكم فإن الألوهيةَ مناطٌ لجميع صفاتِ كماله التي من جملتها تنزّهُه تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة وقوله تعالى: ﴿رب العرش﴾ صفةٌ للاسم الجليل مؤكدةٌ لتنزّهه عز وجل ﴿عما يصفون﴾ متعلق بالتسبيح أي فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهةٌ. ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ استئنافٌ ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزةِ سلطانه القاهرِ بحيث ليس لأحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسألَه عما يفعل من أفعال إثرَ بيانِ أن ليس له شريكٌ في الإلٰهية ﴿وهم﴾ أي العباد ﴿يسألون﴾ عما يفعلون نقيرًا وقطميرًا لأنهم مملوكون له تعالى مستعبَدون ففيه وعيدٌ للكفرة.

﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من إظهار بُطلانِ كون ما اتخذوه آلهةً آلهةً حقيقةً بإظهار خلوّها عن خصائص الإلٰهية التي من جملتها الإنشارُ[٤] وإقامةُ البرهان القاطعِ على استحالة تعدد الإلٰهِ على الإطلاق وتفرّدِه سبحانه بالألوهية إلى إظهار بطلانِ اتخاذِهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاءَ الله عز سلطانُه، وتبكيتُهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيقُ أن جميع الكتب السماويةِ ناطقةٌ بحقية التوحيد وبطلانِ الإشراك.

والهمزةُ لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحِه واستعظامه و(من) متعلقةٌ بـ (اتخذوا)، والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده

---

(١) في خ: الآلهة.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: تفاوتت.
(٤) في خ: الإنشاء.

بالألوهية آلهةً مع ظهور خلوهم عن خواصّ الألوهية بالكلية.

﴿قل﴾ لهم بطريق التبكيتِ وإلقامِ الحجر ﴿هاتوا برهانكم﴾ على ما تدّعونه من جهة العقل والنقلِ فإنه لا صحةَ لقولٍ لا دليلَ عليه في الأمور الدينية لا سيما في مثل هذا الشأنِ الخطير، وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم، من الإشعار بأن لهم برهانًا، ضربٌ من التهكم بهم.

وقوله تعالى: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ إنارةٌ لبرهانه وإشارةٌ إلى أنه مما نطقت به الكتبُ الإلٰهيةُ قاطبةً وشهِدت به ألسنةُ الرسلِ المتقدمة كافةً وزيادةُ تهييجٍ لهم على إقامة البرهان لإظهار كمالِ عجزِهم، أي هذا الوحيُ الواردُ في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطعِ العقليّ ذكرُ[1] أمتي أي عظتُهم وذكرُ الأمم السالفة قد أقمتُه فأقيموا أنتم أيضًا برهانَكم، وقيل: المعنى هذا كتابٌ أُنزل على أمتي وهذا كتابٌ أنزل على أمم الأنبياءِ عليهم السلام من الكتب الثلاثةِ والصحفِ فراجعوها وانظُروا هل في واحد منها غيرُ الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، ففيه تبكيتٌ لهم يتضمن إثباتَ نقيضِ مُدّعاهم.

وقرئ[2] بالتنوين والإعمال كقوله تعالى: ﴿أو إطعامٌ في يوم ذي مَسغبةٍ يتيمًا﴾ [البلد: ١٤] وبه وبمن الجارة على أن (مع) اسمٌ هو ظرف كقبلٍ وبعْدٍ وقوله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ إضرابٌ من جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقن وانتقالٌ من الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهانِ إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المُحاجّة بإظهار حقيقة الحقِّ وبطلانِ الباطل، فإن أكثرهم لا يفهمون الحقَّ ولا يميزون بينه وبين الباطل ﴿فهم﴾ لأجل ذلك ﴿معرضون﴾ أي مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباعِ الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغي والضلال وإن كُرّرت عليهم البينات والحجج، أو معرضون عما ألقي عليهم من البراهين العقلية، وقرئ[3] الحقُّ بالرفع

---

(١) في خ: من أمتي.

(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٩).

(٣) قرأ بها: ابن محيصن، والحسن، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٧٠)، والإملاء للعكبري ص (٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٦)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٨٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٤٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٥٩).

على أنه خبرُ مبتدأ محذوف وسِّط بين السبب والمسببِ تأكيدًا للسببية. وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ استئنافٌ مقررٌ لما أُجملِ فيما قبله من كون التوحيد مما نَطَقت به الكتبُ الإلٰهيةُ وأجمعت عليه الرسلُ عليهم الصلاة والسلام، وقرئَ[1] (يوحىٰ) على صيغة الغائب مبنيا للمفعول، وأيا ما كان فصيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضية استحضارًا لصورة الوحي ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا﴾ حكايةٌ لجناية فريق من المشركين جيء بها لإظهار بُطلانِها وبيانِ تنزّهه تعالى عن ذلك إثرَ بيان تنزّهِه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق وهم حيٌّ من خُزاعَةَ يقولون: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، ونقل الواحدي أن قريشًا [و][2] بعضَ أجناسِ العرب جهينةَ وبني مُلَيح يقولون ذلك. والتعرضُ لعنوان الرحمانية المنبئةِ عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبًا له تعالى نعمةً أو مُنعَمًا عليه لإبراز كمالِ شناعةِ مقالتِهم الباطلةِ ﴿سبحانه﴾ أي تنزّه بالذات تنزّهَه اللائقَ به على أن السُّبحانَ مصدرٌ من سبح أي بَعُد أو أسبّحه تسبيحَه على أنه علمٌ للتسبيح وهو مقولٌ على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحَه.

وقوله تعالى: ﴿بل عباد﴾ إضرابٌ وإبطالٌ لما قالوه، كأنه قيل: ليست الملائكةُ كما قالوا بل هم عبادٌ له تعالى ﴿مكرمون﴾ مقربون عنده، وقرئَ[3] مكرّمون بالتشديد تنبيهٌ على منشأ غلطِ القوم وقوله تعالى: ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ صفةٌ أخرى لعباد منبئةٌ عن كمال طاعتهم وانقيادِهم لأمره تعالى، أي لا يقولون شيئًا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصلُه لا يسبق قولُهم قولَه تعالى، فأسند السبقُ إليه منسوبًا إليه تعالى تنزيلًا لسبق قولِهم قولَه تعالى منزلةَ سبقهم إياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبقِ المعرَّضِ به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى، وجعلُ القول محلًا للسبق وأداةً له ثم أنيب اللامُ عن الإضافة للاختصار والتجافي عن

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٠٩)، والتيسير للداني ص (١٥٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٥٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: عكرمة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٥٩).

التكرار، وقرئ[١] لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبُقه وفيه مزيدُ استهجانٍ للسبق وإشعارٌ بأن من سبق قولُه قولَه تعالى فقد تصدّى لمغالبته تعالى في السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى، وزيادةُ تنزيهٍ لهم عما نُفيَ عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلَبة بعد المغالبة، فأنى يُتوهم صدورُه عنهم ﴿وهم بأمره يعملون﴾ بيانٌ لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثرَ بيانِ تبعيتهم له تعالى في الأقوال، فإن نفيَ سبقِهم له تعالى بالقول عبارةٌ عن تبعيّتهم له تعالى فيه، كأنه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلًا، فالقصرُ المستفادُ من تقديم الجار معتبرٌ بالنسبة إلى غير أمرِه لا إلى أمر غيرِه ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ استئنافٌ وقع تعليلًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده فإنهم لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الأقوال والأعمال لا يزالون يراقبون أحوالَهم فلا يُقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ أن يشفعَ له مهابةً منه تعالى ﴿وهم﴾ مع ذلك ﴿من خشيته﴾ عز وجل ﴿مشفقون﴾ مرتعدون، وأصلُ الخشية الخوفُ مع التعظيم ولذلك خص بها العلماءُ، والإشفاق الخوفُ مع الاعتناء فعند تعديتِه بمن يكون معنى الخوف فيه أظهرَ وعند تعديته بعلى ينعكس الأمر.

﴿ومن يقل منهم﴾ أي من الملائكة الكلامَ فيهم وفي كونهم بمعزل مما قالوا في حقهم ﴿إني إلٰه من دونه﴾ متجاوزٌ إياه تعالى ﴿فذلك﴾ الذي فُرض قولُه فرضَ مُحال ﴿نجزيه جهنم﴾ كسائر المجرمين ولا يغني عنهم ما ذُكر من صفاتهم السنية وأفعالِهم المَرْضية، وفيه من الدلالة على قوة ملكوتِه تعالى وعزة جبروتِه واستحالةِ كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرةُ ما لا يخفى ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ مصدرٌ تشبيهيٌّ مؤكد لمضمون ما قبله أي مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيعِ نجزي الذين يضعون الأشياءَ في غير مواضعها ويتعدَّوْن أطوارَهم، والقصرُ المستفادُ من التقديم معتبرٌ بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أي لا جزاءً أنقصَ منه ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ تجهيلٌ لهم بتقصيرهم في التدبُّر في الآيات التكوينيةِ الدالةِ على استقلاله تعالى بالألوهية وكونِ جميع ما سواه مقهورًا تحت ملكوتِه، والهمزةُ للإنكار والواو للعطف على مقدّر.

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٥٩)

وقرئ[١] بغير واو والرؤيةُ قلبيةٌ، أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أن السموات والأرض كانتا﴾ أي جماعتا السماواتِ والأرضين كما في قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرضَ أن تزولا﴾ [فاطر: ٤١] ﴿رتقًا﴾ الرتْق الضمُّ والالتحامُ والمعنى: إما على حذف المضافِ أو هو بمعنى المفعولِ أي كانتا ذواتيْ رتْقٍ أو مرتوقتين، وقرئ[٢] رتَقًا أي شيئًا رتقًا أي مرتوقًا ﴿ففتقناهما﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية عكرمة والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير: كانتا شيئًا واحدًا ملتزمتين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماءَ إلى حيث هي، وأقرّ الأرض[٣]، وقال كعب: خلق الله تعالى السماواتِ والأرض ملتصقتين[٤] ثم خلق ريحًا فتوسطتها ففتقتْها، وعن الحسن: خلق الله تعالى الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر عليها دخانٌ ملتزق بها ثم أصعدَ الدخانَ وخلق منه السماواتِ وأمسك الفِهرَ في موضعها وبسط منها الأرضَ وذلك قوله تعالى: ﴿كانتا رتقًا ففتقناهما﴾ وقال مجاهد والسدي: كانت السماواتُ مُرتتِقَةً طبقةً واحدة ففتقها فجعلها سبعَ سماوات وكذلك الأرضُ كانت مرتتِقةً طبقةً واحدةً ففتقها فجعلها سبعَ أرضين، وقال ابن عباس في رواية عطاء وعليه أكثرُ المفسرين: إن السماواتِ كانت رتْقًا مستويةً صُلبة لا تمطر والأرضُ رتْقًا لا تُنبت ففتق السماءَ بالمطر والأرضَ بالنبات، فيكون المراد بالسماوات السماءَ الدنيا والجمعُ باعتبار الآفاقِ أو السماواتِ جميعًا على أن لها مدخلًا في الأمطار، وعلمُ الكفرةِ الرتْقَ والفتقَ بهذا المعنى مما لا سِترةَ به وأما بالمعاني الأُوَل فهم وإن لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما إما بطريق النظرِ والتفكر، فإن الفتقَ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، وحميد، وشبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٠)، والتيسير للداني ص (١٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١١٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٣).

(٢) قرأ بها: الحسن، وزيد بن علي، وأبو حيوة، وعيسى الثقفي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٧١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٠)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٤٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦١).

(٣) ينظر تفسير الثعلبي (٦/ ٢٧٤) وما بعدها.

(٤) في خ: ملتزقتين.

عارضٌ مفتقرٌ إلى مؤثر قديم وإما بالاستفسار من العلماء ومطالعةِ الكتب.

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي خلقنا من الماء كلَّ حيوان كقوله تعالى: ﴿والله خلق كلَّ دابةٍ من ماء﴾ وذلك لأنه من أعظم موادِّه أو لفرْط احتياجِه إليه وانتفاعِه به، أو صيرنا كلَّ شيء حي من الماء أي بسبب منه لا بد له من ذلك، وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين في الأصل مبتدأٌ وخبرٌ وحقُّ الخبر عند كونه ظرفًا أن يتقدم على المبتدأ فإن ذلك مصحِّحٌ محْضٌ لا مرجحٌ، وقرئ[1] حيًّا على أنه صفةُ كلَّ أو مفعولٌ ثانٍ والظرفُ كما في الوجه الأول قُدّم على المفعول للاهتمام به والتشويقِ إلى المؤخر **﴿أفلا يؤمنون﴾** إنكار لعدم إيمانِهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتمًا من الآيات الآفاقية والأنفسيةِ الدالةِ على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورةً تحت ملكوته وقدرتِه، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكارُ السابق أي أيعلمون ذلك فلا يؤمنون!

﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي جبالًا ثوابتَ جمعُ راسية من رسا الشيءُ إذا ثبت ورسَخ، ووصفُ جمعِ المذكر بجمع المؤنثِ في غير العقلاءِ مما لا ريب في صحته كقوله تعالى: ﴿أشهرٌ معلوماتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] و﴿أيامًا معدوداتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] **﴿أن تميد بهم﴾** أي كراهةَ أن تتحرك وتضطربَ بهم أو لئلا تميدَ بهم بحذف اللام ولا لعدم الإلباس **﴿وجعلنا فيها﴾** أي في الأرض وتكريرُ الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقَّه أو في الرواسي لأنها المحتاجةُ إلى الطرق **﴿فجاجًا﴾** مسالكَ واسعةً وإنما قدم على قوله تعالى: **﴿سبلًا﴾** وهو وصفٌ له ليصير حالًا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقَها كذلك، أو ليبدل منها سبلًا فيدل ضمنًا على أنه تعالى خلقها ووسّعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد **﴿لعلهم يهتدون﴾** أي إلى مصالحهم ومهمّاتهم **﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظًا﴾** من الوقوع بقدرتنا القاهرةِ أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمعِ بالشهُب **﴿وهم عن آياتها﴾** الدالةِ على وحدانيته تعالى وعلمِه وحكمتِه وقدرتِه وإرادتِه التي

---

(١) قرأ بها: حميد.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٦٥).

بعضُها محسوسٌ وبعضُها معلومٌ بالبحث عنه في علمَي الطبيعة والهيئة ﴿**معرضون**﴾ لا يتدبرون فيها فيبقَون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى: ﴿**وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ اللذين هما آيتاهما بيانٌ لبعض تلك الآياتِ التي هم عنها معرضون بطريق الالتفاتِ الموجب لتأكيد الاعتناءِ بفحوى الكلام، أي هو الذي خلقهن وحده ﴿**كل**﴾ أي كلٌّ واحد منهما على أن التنوينَ عوضٌ عن المضاف إليه ﴿**في فلك يسبحون**﴾ أي يجْرون في سطح الفلك كالسبْح في الماء، والمرادُ بالفَلَك الجنسُ كقولك: كساهم الخليفةُ حُلّةً، والجملة حالٌ من الشمس والقمر وجاز انفرادُهما بها لعدم اللَّبْس، والضميرُ لهما والجمعُ باعتبار المطالعِ.

وجُعل الضميرُ واوَ العقلاء لأن السباحة حالُهم ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**﴾ أي في الدنيا لكونه مخالفًا للحكمة التكوينيةِ والتشريعية ﴿**أفإن مت**﴾ بمقتضى حكمتِنا ﴿**فهم الخالدون**﴾ نزلت حين قالوا: نتربّص به ريبَ المَنون، والفاءُ لتعليق الشرطيةِ بما قبلها والهمزةُ لإنكار مضمونِها بعد تقرّر القاعدةِ الكلية النافية لذلك بالمرة.

والمرادُ بإنكار خلودِهم ونفيه إنكارُ ما هو مدارٌ له وجودًا وعدمًا من شماتتهم بموته عليه السلام، فإن الشماتةَ بما يعتريه أيضًا مما لا ينبغي أن يصدُرَ عن العاقل كأنه قيل: أفإن متَّ فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك، وقوله تعالى: ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ أي ذائقةٌ مرارةَ مفارقتِها جسدَها، برهانٌ على ما أُنكِرَ من خلودهم.

﴿**ونبلوكم**﴾ الخطابُ إما للناس كافة بطريق التلوينِ أو للكفرة بطريق الالتفات أي نعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿**بالشر والخير**﴾ بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أو لا ﴿**فتنة**﴾ مصدرٌ مؤكد (لنبلوكم) من غير لفظِه ﴿**وإلينا ترجعون**﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكًا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو على الأول وعد ووعيدٌ وعلى الثاني وعيدٌ محضٌ وفيه إيماءٌ إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب.

وقرئ[1] يُرجعون بالياء على الالتفات.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣١١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٩).

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ أي المشركون ﴿إن يتخذوك إلا هزوًا﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءًا به على معنى قصرِ معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم إياه هُزوًا، لا على معنى قصرِ اتخاذهم على كونه هزوًا كما هو المتبادرُ، كأنه قيل: ما يفعلون بك إلا اتخاذَك هزوًا وقد مر تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلي﴾ في سورة الأنعام [الآية: ٥٠] ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ على إرادة القولِ أي ويقولون أو قائلين ذلك أي يذكرهم إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وهم بذكر الرحمٰن هم كافرون﴾ في حيز النصبِ على الحالية من ضمير القول المقدرِ والمعنى أنهم يَعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكُرَ آلهتَهم التي لا تضُرّ ولا تنفع بالسوء، والحالُ أنهم بذكر الرحمٰنِ المنْعِم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسلِ وإنزالِ الكتب أو بالقرآن كافرون بذكر الرحمٰن، والضمير الثاني تأكيدٌ لفظيٌّ للأول فوقع الفصلُ بين العامل ومعمولِه بالمؤكد، وبين المؤكِّد والمؤكَّد بالمعمول ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ جُعل لفرْطِ استعجالِه وقلة صبره كأنه مخلوقٌ منه تنزيلًا لما طُبع عليه من الأخلاق منزلةَ ما طبع منه من الأركان إيذانًا بغاية لزومِه له وعدم انفكاكه عنه، ومن عجلته مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُه بالوعيد، روي أنها نزلت في النضْر بن الحارثِ حين استعجل العذابَ

بقوله: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ﴾ [الأنفال، الآية ٣٢]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد بالإنسان آدمُ عليه السلام وأنه حين بلغ الروحُ صدرَه ولم يتبالغْ فيه أراد أن يقوم، وروي أنه لما دخل الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ولما دخل جوفَه اشتهى الطعامَ، وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يومَ الجمعة قبل غروبِ الشمس فأسرعَ في خلقه قبل غيبتِها(١)، فالمعنى خُلق الإنسان خلقًا ناشئًا من عجلٍ فذكرُه لبيان أنه من دواعي عجلته في الأمور، والأظهر أن المرادَ به الجنسُ وإن كان خلقُه عليه السلام ساريًا إلى أولاده، وقيل: العجلُ الطينُ بلغة حِمْير، ولا تقريبَ له هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿**سأريكم آياتي**﴾ تلوينٌ للخطاب وصرفٌ له عن رسول الله ﷺ إلى المستعجِلين بطريق التهديدِ والوعيد، أي سأريكم نِقماتي في الآخرة كعذاب النار وغيره ﴿**فلا تستعجلون**﴾ بالإتيان بها والنهي عما جُبلت عليه نفوسُهم ليُقعِدوها عن مرادها ﴿**ويقولون متى هذا الوعد**﴾ أي وقت مجيء الساعة التي كانوا يوعدون وإنما كانوا يقولونه استعجالًا لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجوابُ لا طلبًا لتعيين وقتِه بطريق الإلزام كما في سورة الملك ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي في وعدكم بأنه يأتينا، والخطابُ للنبيّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآياتِ الكريمةَ المنبئةَ عن مجيء الساعة، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله عليه حسبما حُذف في مثل قوله تعالى: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [الأعراف: الآية، ٧٠] فإن قولهم: متى هذا الوعد استبطاءٌ للموعود وطلبٌ لإتيانه بطريق العجَلة فإن ذلك في قوة الأمرِ بالإتيان عجلةً، كأنه قيل: فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين ﴿**لو يعلم الذين كفروا**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان شدةِ هول ما يستعجلونه وفظاعةِ ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وإيثارُ صيغة المضارعِ في الشرط وإن كان المعنى المُضِيَّ لإفادة استمرارِ عدم العلم فإن المضارعَ المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنص في إفادة انتفاءِ استمرار الفعل بل يفيد استمرارَ انتفائه أيضًا بحسب المقام، كما في قولك: لو تحسن إلي لشكرتك، فإن المعنى أن انتفاءَ الشكر لاستمرار انتفاءِ الإحسان لا لانتفاء استمرارِ الإحسان

(١) ينظر الكشاف للزمخشري (١١٨/٣).

ووضعُ الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على علّة استعجالِهم.

وقوله تعالى: ﴿**حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم**﴾ مفعول يعلم وهو عبارةٌ عن الوقت الموعودِ الذي كانوا يستعجلونه وإضافتُه إلى الجملة الجارية مَجرى الصفة التي حقُّها أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضًا مع إنكار الكفرةِ لذلك للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به وإنما حقُّه الانتظامُ في سلك المسلّمات المفروغ عنها، وجوابُ لو محذوفٌ أي لو لم يستمِرَّ علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد من الحين الذي تحيط بهم النار فيه من كل جانب، وتخصيصُ الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القُدّام والخَلْف لكونهما أشهرَ الجوانب واستلزام الإحاطة بهما الإحاطةَ بالكمال بحيث يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم.

﴿**ولا هم ينصرون**﴾ من جهة الغير في دفعها إلخ، لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون (يعلم) متروكَ المفعول مُنزّلا منزلةَ اللازم، أي لو كان لهم علم لما فعلوه.

وقوله تعالى: ﴿حين﴾ إلخ، استئنافٌ مقرر لجهلهم ومبينٌ لاستمراره إلى ذلك الوقت كأنه قيل: حين يرون ما يرَوْن يعلمون حقيقةَ الحال ﴿**بل تأتيهم**﴾ عطف على لا يكفون أي لا يكفّونها بل تأتيهم أي العدَةُ أو النار أو الساعة ﴿**بغتة فتبهتهم**﴾ أي تغلِبهم أو تحيّرهم، وقرئ[1] الفعلان بالتذكير على أن الضمير لـ (الوعد) أو الحين وكذا الهاء في قوله تعالى: ﴿**فلا يستطيعون ردها**﴾ بتأويل الوعد بالنار أو العِدة والحينِ بالساعة، ويجوز عَودُه إلى النار، وقيل: إلى البغتة أي لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفةَ عين، وفيه تذكيرٌ لإمهالهم في الدنيا ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك**﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزائهم به عليه السلام في ضمن الاستعجال وعِدةٌ ضمنيةٌ بأنه يصيبهم مثلُ ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفةِ عليهم الصلاة والسلام، وتصديرُها بالقسم لزيادة تحقيقِ مضمونها، وتنوينُ الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقةٌ بمحذوف هو صفة له،

---

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣١٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٣).

أي وبالله لقد استُهزئ برسل أولي شأنٍ خطير وذوي عددٍ كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه.

﴿**فحاق**﴾ أي أحاط عَقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يُستعمل إلا في الشر، والحيقُ ما يشتمل على الإنسان من مكروهٍ فَعَله.

وقوله تعالى: ﴿**بالذين سخروا منهم**﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بـ(حاق) وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى: ﴿**ما كانوا به يستهزءون**﴾ للمسارعة إلى بيان لحوقِ الشرّ بهم، وما إما موصولة مفيدةٌ للتهويل والضمير المجرورُ عائدٌ إليها والجار متعلق بالفعل وتقديمُه عليه لرعاية الفواصلِ(١)، أي فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله، وإما مصدريةٌ فالضمير المجرور راجعٌ حينئذ إلى جنسِ الرسول المدلولِ عليه بالجمع كما قالوا، ولعل إيثارَه على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاءُ استهزائهم بكل واحدٍ واحد منهم عليهم السلام لا جزاءُ استهزائهم بكلهم من حيث هو كلٌّ فقط، أي فنزل بهم جزاءُ استهزائهم على وضع السبب موضعَ المسبب إيذانًا بكمال الملابسةِ بينهما أو عينُ استهزائهم إن أريد بذلك العذابُ الأخرويُّ بناء على تجسيم الأعمال الظاهرةِ في هذه النشأة بصور عرضية تبرُز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبةٍ لها في الحسن والقبح وعلى ذلك بني الوزن، وقد مر تفصيلُه في سورة الأعراف وفي قوله تعالى: ﴿إنما بغيُكم على أنفسكم﴾ [يونس: ٢٣] إلى آخرها.

﴿**قل**﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ إثرَ تسليته بما ذكر من مصير أمرِهم إلى الهلاك وأمرٌ له عليه السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت: ﴿**من يكلؤكم**﴾ أي يحفظكم ﴿**بالليل والنهار من الرحمٰن**﴾ أي من بأسه الذي تستحقون نزولَه ليلًا أو نهارًا، وتقديمُ الليل لما أن الدواهيَ أكثرُ فيه وقوعًا وأشدُّ وقعًا، وفي التعرض لعنوان الرحمانيةِ إيذانٌ بأن كالِئَهم ليس إلا رحمتُه العامةُ، وبعد ما أُمر عليه السلام بما ذكر

---

(١) التقديم لرعاية الفواصل مسألة خلافية بين علماء البلاغة سبق الحديث عنها.
ينظر: نقد الشعر لقدامة (١٦٥)، والإتقان للسيوطي (٢/ ١٠٥)، والمثل السائر (٢/ ٢١٢)، ومعاني القرآن للفراء (٣/ ٢٦٠)، وصور البديع وفن الأسجاع (٩٩).

من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالُهم لأنهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم في المَلَوَيْن لحل بهم فنون الآفاتِ، فهم أحقّاءُ بأن يكلفوا الاعترافَ بذلك فيوبخوا على ما هم عليه من الإشراك، أُضرب عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ ببيان أن لهم حالًا أخرى مقتضيةً لصرف الخطابِ عنهم هي أنهم لا يُخطِرون ذكرَه تعالى ببالهم، فضلًا أن يخافوا بأسَه ويعدّوا ما كانوا عليه من الأمن والدعَةِ حفظًا وكَلاءةً حتى يسألوا عن الكالِئ على طريقة قول من قال: [البسيط]

عُوجوا فحيُّوا لنُعمىٰ دِمنةَ الدار[1] ماذا تُحيُّون من نُؤْيٍ وأحجارِ[2]

وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيرادِ اسمِ الرب المضافِ إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوتِه وتدبيره وتربيتِه تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصيةِ من الضلالة والغيّ ما لا يخفى.

وكلمةُ أم في قوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ منقطعةٌ وما فيها من معنى بل للإضراب والانتقالِ عما قبله من بيان أن جهلَهم بحفظه تعالى إياهم لعدم خوفِهم الناشئ عن إعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادِهم الحفظَ إليها، والهمزةُ لإنكار أن يكون لهم آلهةٌ تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهةٌ تمنعهم من العذاب تتجاوز منْعنا أو حفظَنا، أو من عذاب كائنٍ من عندنا فهم معوّلون عليها واثقون بحفظها؟! وفي توجيه الإنكارِ والنفي إلى وجود الآلهةِ الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفةِ بأن يقال: أم تمنعهم آلهتُهم إلخ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلًا عن رتبة المنع ما لا يخفى.

وقوله عز وعلا: ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ استئنافٌ مقرّر لما قبله من الإنكار وموضِّحٌ لبُطلان اعتقادِهم أي هم لا يستطيعون أن ينصُروا أنفسهم ولا يُصحَبون بالنصر من جهتنا، فكيف يتوهم أن ينصُروا غيرهم؟ وقوله تعالى: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ إضرابٌ عما توهموا ببيان

---

(١) دمنة الدار: أثرها.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه، ص (٣١)، وجمهرة أشعار العرب، ص (٩٦).

أن الداعيَ إلى حفظهم تمتيعُنا إياهم بما قدّر لهم من الأعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارُهم فحسِبوا ألا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه، ولذلك عقّب بما يدل على أنه طمعٌ فارغٌ وأمل كاذبٌ حيث قيل: ﴿أفلا يرون﴾ أي ألا ينظرون فلا يرَون ﴿أنا نأتي الأرض﴾ أي أرضَ الكفرة ﴿ننقصها من أطرافها﴾ فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا، وهو تمثيلٌ وتصويرٌ لما يُخْرِبه الله عز وجل من ديارهم على أيدي المسلمين ويُضيفها إلى دار الإسلام ﴿أفهم الغالبون﴾ على رسول الله ﷺ والمؤمنين، والفاء لإنكار ترتيب الغالبيةِ على ما ذكر من نفس أرضِ الكفرةِ بتسليط المسلمين عليها، كأنه قيل: أبعد ظهورِ ما ذكر ورؤيتِهم له يتوهم غلَبَتُهم؟ كما مر في قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ [هود: ١٧] وقولِه تعالى: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياءَ﴾ [الرعد: ١٦] وفي التعريف تعريضٌ بأن المسلمين هم المتعيِّنون للغلَبة المعروفون بها.

﴿قل إنما أنذركم﴾ بعد ما بُيّن من جهته تعالى غايةُ هول ما يستعجله ونهايةُ سوءِ حالهم عند إتيانه ونُعيَ عليهم جهلُهم بذلك وإعراضُهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغيرُ ذلك من مساوئ أحوالهم، أُمر عليه السلام بأن يقول لهم: إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿بالوحي﴾ الصادق الناطقِ بإتيانها وفظاعةِ ما فيها من الأهوال، أي إنما شأني أن أنذرَكم بالإخبار بذلك لا بالإتيان بها فإنه مزاحمٌ للحكمة التكوينية والتشريعية إذ الإيمانُ برهانيٌّ لا عياني، وقوله تعالى: ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ إما من تتمة الكلامِ الملقّن تذييلٌ له بطريق الاعتراض، قد أُمر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخًا وتقريعًا وتسجيلًا عليهم بكمال الجهلِ والعِناد، واللامُ للجنس المنتظمِ للمخاطبين انتظامًا أوليا أو للعهد فوضعُ المظهر موضعَ المضمر للتسجيل عليهم بالتصامّ، وتقييدُ نفي السماعِ بقوله تعالى: ﴿إذا ما ينذرون﴾ مع أن الصمَّ لا يسمعون الكلام إنذارًا كان أو تبشيرًا لبيان كمال شدةِ الصّمَم، كما أن إيثارَ الدعاء الذي هو عبارةٌ عن الصوت والنداءِ على الكلام لذلك فإن الإنذارَ عادة يكون بأصوات عاليةٍ مكررةٍ مقارِنةٍ لهيئات دالةٍ عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صَممُهم في غاية لا غايةَ وراءها، وإما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿بل هم عن ذكر

ربهم معرضون﴾ [الأنبياء: ٤٣] ويؤيده القراءةُ[١] على خطاب النبي عليه الصلاة والسلام من الإسماع بنصب الصمَّ والدعاءَ، كأنه قيل: قل لهم ذلك وأنت بمعزل من إسماعهم، وقرئ[٢] بالياء أيضًا على أن الفاعلَ هو عليه السلام، وقرئ[٣] على البناء للمفعول أي لا يقدر أحدٌ على إسماع الصمِّ.

وقوله تعالى: **﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك﴾** بيان لسرعة تأثرِهم من مجيء نفس العذابِ إثرَ بيان عدمِ تأثرِهم من مجيء خبرِه على نهج التوكيد القسمي، أي وبالله لئن أصابهم أدنى شيءٍ من عذابه تعالى كما ينبئ عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فإن أصلَ النفحِ هبوبُ رائحة الشيء **﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾** ليدْعُنّ على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترِفُنّ عليها بالظلم، وقوله تعالى: **﴿ونضع الموازين القسط﴾** بيانٌ لما سيقع عند إتيانِ ما أُنذروه، أي نقيم الموازينَ العادلةَ التي توزن بها صحائفُ الأعمال، وقيل: وضعُ الموازين تمثيلٌ لإرصاد الحسابِ[٤] السويِّ والجزاء على حسب الأعمال، وقد مر تفصيلُ ما فيه من الكلام في سورة الأعراف، وإفرادُ القسطِ لأنه مصدرٌ وُصفَ به مبالغةً **﴿ليوم القيامة﴾** التي كانوا يستعجلونها أي لجزائه أو لأجل أهلِه أو فيه كما في قولك: جئت لخمسٍ خلَوْن من الشهر.

﴿فلا تظلم نفس﴾ من النفوس **﴿شيئًا﴾** حقا من حقوقها أو شيئًا ما من الظلم، بل يوفى كلُّ ذي حق حقَّه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر، والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين **﴿وإن كان﴾** أي العملُ المدلولُ عليه بوضع الموازين **﴿مثقال حبة من**

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وأحمد بن جبير، والحسن، وابن الصلت، وحفص، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو حيوة، ويحيى بن الحارث.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٧٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣١٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٤٨).

(٢) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣١٥).

(٣) قرأ بها:ابن عامر، وأبو عبد الرحمن السلمي، وابن السميفع.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣١٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٩٢).

(٤) أي استعارة تمثيلية وقد مضى الحديث عنها.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها (٣/ ١٦٠)، وأسرار البلاغة (١/ ٢١٢، ٢٢٢)، والمطول (٣٠٦)، ودلائل الإعجاز (١٠٧)، والإفصاح فيما تضمنه الإيضاح من مباحث المبيان للشيخ الحجار (١٨٠، ١٨١).

خردل﴾ أي مقدارَ حبة كائنةٍ من خردل، أي وإن كان في غاية القِلة والحَقارة فإن حبةَ الخردل مَثَلٌ في الصِغر، وقرئ[١] مثقالُ حبة بالرفع على أن كان تامةٌ **﴿أتينا بها﴾** أي أحضرنا ذلك العملَ المعبَّر عنه بمثقال حبةِ الخردل للوزن، والتأنيث لإضافته إلى الحبة وقرئ[٢] آتينا بها أي جازينا بها من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأةِ لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وقرئ[٣] أثبنا من الثواب وقرئ[٤] جئنا بها **﴿وكفى بنا حاسبين﴾** إذ لا مزيدَ على علمنا وعدْلِنا.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، وزيد بن علي، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣١٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٢٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٤٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٤٨)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٧٧).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وابن أبي إسحاق، والعلاء بن سيابة، وجعفر بن محمد، وابن شريح الأصبهاني، وعكرمة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣١٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٥٠).

(٣) قرأ بها: حميد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣١٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٥).

(٤) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣١٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٥).

وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين﴾ نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ [الأنبياء: ٧ - ٩] وإشارةٌ إلى كيفية إنجائهم وإهلاكِ أعدائهم، وتصديرُه بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناءِ بمضمونه، والمرادُ بالفرقان هو

التوراةُ وكذا بالضياء والذكر، أي وبالله لقد آتيناهما وحيًا ساطعًا وكتابًا جامعًا بين كونه فارقًا بين الحقِّ والباطل وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهلِ والغَواية وذِكْرًا يتعظ به الناسُ، وتخصيصُ المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثارِه أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكامِ، وقيل: الفرقانُ النصرُ، وقيل: فلقُ البحر والأول هو اللائقُ بمساق النظمِ الكريم فإنه لتحقيق أمر القرآن المشاركِ لسائر الكتبِ الإلٰهية لا سيما التوراةِ فيما ذُكر من الصفات، ولأن فلقَ البحر هو الذي اقترح الكفرةُ مثله بقولهم: فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون، وقرئ[1] ضياءً بغير واو على أنه حالٌ من (الفرقان).

وقوله تعالى: ﴿**الذين يخشون ربهم**﴾ أي عذابَه، مجرورُ المحل على أنه صفةٌ مادحة لـ (المتقين) أو بدلٌ أو بيان أو منصوب أو مرفوعٌ على المدح ﴿**بالغيب**﴾ حال من المفعول أي يخشَون عذابه تعالى وهو غائبٌ عنهم غيرُ مشاهد لهم، ففيه تعريضٌ بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهِدوا ما أنذروه، وقيل: من الفاعل ﴿**وهم من الساعة مشفقون**﴾ أي خائفون منها بطريق الاعتناء، وتقديمُ الجار لمراعاة الفواصل وتخصيصُ إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفِهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظمَ المَخُوفاتِ وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون، وإيثارُ الجملة الاسميةِ للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامِه ﴿**وهذا**﴾ أي القرآنُ الكريم أشير إليه بهذا إيذانًا بغاية وضوحِ أمرِه ﴿**ذكر**﴾ يُتذكّر به من تذكر، وُصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقتِه لما [مر][2] في صدر السورةِ الكريمة ﴿**مبارك**﴾ كثيرُ الخير غزيرُ النفع يُتبرّك به ﴿**أنزلناه**﴾ إما صفةٌ ثانية لذكر أو خبر ﴿**أفأنتم له منكرون**﴾ إنكارٌ لإنكارهم بعد ظهورِ كون إنزالِه كإيتاء التوراة، كأنه قيل: أبعد أن علمتم أن شأنَه كشأن التوراة في الإيتاء والإيحاءِ أنتم منكرون لكونه منزّلًا من عندنا؟ فإن ذلك بعد ملاحظةِ حالِ التوراة مما لا مساغَ له أصلًا.

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، وعكرمة، والضحاك.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣١٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٤)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٧٨).

(٢) سقط في خ.

إبراهيم والأصنام

﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده**﴾ أي الرشدَ اللائقَ به وبأمثاله من الرسل الكبارِ وهو الاهتداءُ الكاملُ المستند إلى الهداية الخاصةِ الحاصلةِ بالوحي والاقتدار على إصلاح الأمةِ باستعمال النواميسِ الإلٰهية، وقرئ[١] رَشَدَه وهما [لغتان كالحُزْن والحَزَن ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل إيتاءِ موسى وهارونَ التوراةَ، وتقديمُ ذكر إيتائها لما بينه وبين إنزال القرآن][٢] من الشبه التامّ، وقيل: من قبل استنبائِه أو قبلَ بلوغِه ويأباه المقام ﴿**وكنا به عالمين**﴾ أي بأنه أهلٌ لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالمٌ بالجزئيات مختارٌ في أفعاله ما لا يخفى ﴿**إذ قال لأبيه وقومه**﴾ ظرفٌ لآتينا على أنه وقت متّسعٌ وقع فيه الإيتاءُ وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله، وقيل: مفعولٌ لمضمر مستأنَفٍ وقع تعليلًا لما قبله أي اذكر وقتَ قولِه لهم: ﴿**ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ لتقف على كمال رشدِه وغايةِ فضله، والتِمثالُ اسمٌ لشيء مصنوعٍ مشبَّهٍ بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهلٌ منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بـ (ما) التي يُطلب بها بيانُ الحقيقة، أو شرحُ الاسم كأنه[٣] لا يعرف أنها ماذا مع إحاطته بأن حقيقتها حجرٌ أو شجرٌ اتخذوها معبودًا، وعبّر عن عبادتهم لها بمطلق العكُوف الذي هو عبارةٌ عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض قصدًا إلى تحقيرها وإذلالها وتوبيخًا لهم على إجلالها[٤]، واللام في لها للاختصاص دون التعديةِ وإلا لجيء بكلمة على، والمعنى أنتم فاعلون العكوفَ لها، وقد جُوّز تضمينُ العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين**﴾ أجابوا بذلك لما أن مآلَ سؤاله عليه السلام الاستفسارُ عن سبب عبادتِهم لها كما ينبئ عنه وصفه عليه السلام إياهم بالعكوف لها، كأنه قال: ما هي؟ هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها؟ فلما لم يكن لهم ملجأٌ يعتدّ به التجأوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمي حيث ﴿**قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم**﴾ الذين سنّوا لكم هذه السنةَ

---

(١) قرأ بها: عيسى الثقفي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٥)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٠٨).

(٢) بدل ما بين المعقوفين في خ: لغة.

(٣) في خ: لأنه.

(٤) في خ: إذلالها.

الباطلة ﴿في ضلال﴾ عجيبٍ لا يقادَر قدرُه ﴿مبين﴾ أي ظاهر بيّن بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونُه كذلك، ومعنى كنتم مطلقُ استقرارِهم على الضلال لا استقرارُهم الماضي الحاصلِ قبل زمانِ الخطاب المتناولِ لهم ولآبائهم، أي والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهرٍ لعدم استنادِه إلى دليل [ما][1]، والتقليدُ إنما يجوز فيما يحتمل الحقية[2] في الجملة ﴿قالوا﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادًا لكون[3] ما هم عليه ضلالًا وتعجبًا من تضليله عليه السلام إياهم بطريق التوكيدِ القسمي، وترددًا في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد ﴿أجئتنا بالحق﴾ أي بالجِد ﴿أم أنت من اللاعبين﴾ فتقول ما تقول على وجه المداعبةِ والمزاحِ، وفي إيراد الشِّقِّ الأخير بالجملة الاسميةِ الدالة على الثبات إيذانٌ برُجْحانه عندهم ﴿قال﴾ عليه السلام إضرابًا عما بنَوا عليه مقالتَهم من اعتقاد كونِها أربابًا لهم كما يُفصح عنه قولُهم[4]: ﴿نعبدُ أصنامًا فنظل لها عاكفين﴾ [الشعراء: ٧١]، كأنه قيل: ليس الأمر كذلك ﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ وقيل: هو إضرابٌ عن كونه لاعبًا بإقامة البرهانِ على ما ادّعاه، وضميرُ (هن) للسماوات والأرض، وصَفه تعالى بإيجادهن إثرَ وصفِه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقًا للحق وتنبيهًا على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية، أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يَحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه، ورجْعُ الضمير إلى التماثيل أدخلُ في تضليلهم وأظهرُ في إلزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغني عن التأمل في كون ما يعبُدونه من جملة المخلوقات.

﴿وأنا على ذلكم﴾ الذي ذكرتُه من كون ربكم ربَّ السماوات والأرض فقط دون ما عداه كائنًا ما كان ﴿من الشاهدين﴾ أي العالِمين به على سبيل الحقيقةِ المُبرهنين عليه فإن الشاهدَ على الشيء مَنْ تحققه وحقّقه، وشهادتُه على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وإثباتُه بها، كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه ﴿وتالله﴾ وقرئ[5] بالباء وهو

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: الحقيقة.
(٣) في خ: لكلام يكون.
(٤) في خ: قوله تعالى.
(٥) قرأ بها: معاذ بن جبل، وأحمد بن حنبل.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨٢).

الأصلُ والتاء بدل من الواو التي هي بدل من الأصل وفيها تعجب ﴿لأكيدن أصنامكم﴾ أي لأجتهدنّ في كسرها وفيه إيذانٌ بصعوبة الانتهاز وتوقّفِه على استعمال الحيل وإنما قاله عليه السلام سرًّا، وقيل: سمعه رجل واحد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ من عبادتها إلى عيدكم، وقرئ[١] تَوَلّوا من التولي بحذف إحدى التاءين ويعضُدها قوله تعالى: ﴿فتولّوا عنه مدبرين﴾ [الصافات: ٩٠] .

والفاء في قوله تعالى: ﴿فجعلهم﴾ فصيحةٌ أي فولّوا فجعلهم ﴿جذاذًا﴾ أي قُطاعًا فُعال بمعنى مفعول من الجذّ الذي هو القطعُ كالحُطام من الحطْم الذي هو الكسرُ، وقرئ[٢] بالكسر وهي لغة أو جمعُ جذيذ كخِفاف وخفيف، وقرئ[٣] بالفتح و(جُذُذًا)[٤] جمع جذيذ و(جُذَذًا)[٥] جمع جُذة.

روي أن آزر خرج به في يوم عيدٍ لهم فبدأوا ببيت الأصنام [فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعامًا خرجوا به معهم وقالوا: إلى أن ترجِعَ بركة الآلهة على طعامنا، فذهبوا وبقيَ إبراهيمُ عليه السلام فنظر إلى الأصنام][٦] وكانت سبعين صنمًا مصطفًّا وثمّةَ صنمٌ عظيم مستقبل الباب، وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكلَّ بفأس كانت في يده ولم يبق إلا الكبيرُ وعلّق الفأس في عنقه وذلك قوله تعالى: ﴿إلا كبيرًا لهم﴾ أي للأصنام ﴿لعلهم إليه﴾ أي إلى إبراهيمَ عليه السلام ﴿يرجعون﴾ فيحاجّهم بما سيأتي فيحجّهم ويبكّتهم، وقيل: يرجعون إلى الكبير

---

(١) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨٢).

(٢) قرأ بها: الكسائي، والأعمش، وابن محيصن، وابن مقسم، وأبو حيوة، وحميد، ويحيى بن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٢٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٢٧)، والتيسير للداني ص (١٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٢٩).

(٣) قرأ بها: يحيى بن وثاب.
ينظر: مختصر البديع ص (٩٢).

(٤) قرأ بها: يحيى بن وثاب.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨٣).

(٥) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨٣).

(٦) سقط في خ.

فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبودِ أن يُرجَعَ إليه في المُلمّات، وقيل: يرجِعون إلى الله تعالى وتوحيدِه عند تحقّقهم عجزَ آلهتِهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم ﴿قالوا﴾ أي حين رجعوا من عيدهم ورأَوا ما رأوا ﴿من فعل هذا بآلهتنا﴾ على طريقة الإنكارِ والتوبيخِ والتشنيع، وإنما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا إليها بهؤلاء وهي بين أيديهم مبالغةً في التشنيع.

وقوله تعالى: ﴿إنه لمن الظالمين﴾ استئنافٌ مقرر لما قبله، وقيل: مَنْ موصولةٌ وهذه الجملةُ في حيز الرفع على أنها خبرٌ لها، والمعنى الذي فعل هذا الكسرَ والحطْمَ بآلهتنا إنه معدودٌ من جملة الظَّلَمة إما لجُرأته على إهانتها وهي حقيقةٌ بالإعظام أو لإفراطه في الكسر والحطْمِ وتماديه في الاستهانة بها، أو بتعريض نفسِه للهلكة ﴿قالوا﴾ أي بعضٌ منهم مجيبين للسائلين ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي يَعيبُهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى: ﴿يذْكُرهم﴾ إما مفعولٌ ثانٍ لسمِع لتعلّقه بالعين أو صفةٌ لفتى مصحِّحةٌ لتعلقه به، هذا إذا كان القائلون سمِعوه عليه السلام بالذات يذْكُرهم وإن كانوا قد سمِعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحّح ﴿يقال له إبراهيم﴾ صفةٌ أخرى لـ (فتى) أي يطلق عليه هذا الاسم ﴿قالوا﴾ أي السائلون ﴿فأتوا به على أعين الناس﴾ أي بمرأًى منهم بحيث يكون نصبَ أعينهم في مكان مرتفع لا يكاد يخفى [على أحد][1] ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي يحضُرون عقوبتنا له، وقيل: لعلهم يشهدون أي بفعله أو بقوله ذلك فالضميرُ حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مُبهم أو معهود ﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبني على سؤال نشأ من حكاية قولهم، كأنه قيل: فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك؟ هل أتَوا به أو لا؟ فقيل: أتوا به ثم قالوا: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ اقتصارًا على حكاية مخاطبتِهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانَهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمرٌ محقق غني عن البيان ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ مشيرًا إلى الذي لم يكسِرْه، سلك عليه السلام [مسلكًا][2] تعريضيا يؤديه[3] إلى مقصِده الذي هو إلزامُهم الحجّةَ على ألطف وجهٍ وأحسنِه

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: يؤدي به.

بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب، حيث أبرز الكبيرَ قولًا في معرض المباشِرِ للفعل بإسناده إليه كما أبرزه في ذلك المعرِض فعلًا بجعل الفأس في عنقه، وقد قصد إسنادَه إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنامُ غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفةً مرتّبةً للعبادة من دون الله سبحانه، وكان غيظُ كبيرِها أكبرَ وأشدَّ حسب زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعلَ باعتبار أنه الحاملُ عليه، وقيل: هو حكايةٌ لما يقود إلى تجويزه مذهبُهم كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرُهم فإن من حق من[1] [يعبد][2] ويدْعىٰ إلٰهًا أن يقدِر على ما هو أشدُّ من ذلك.

ويحكى أنه عليه السلام قال: فعله كبيرُهم هذا، غضِبَ أن تُعبدَ معه هذه الصغارُ وهو أكبرُ منها فيكون تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيهَهم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنامَ، وأما ما قيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادرِ عنه إلى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلُغ فيه غرضه من إلزامهم الحجةَ وتبكيتِهم، ومُثِّل لذلك بما لو قال لك [أمي فيما كتبته بخط رشيقٍ وأنت شهيرٌ بحسن الخطِّ][3]: أأنت كتبْتَ؟ كان قصدُك تقريرَ الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل [لا نفيَها عنك وإثباتَها له، فبمعزل من التحقيق لأن خلاصةَ المعنى في المثال المذكور مجردُ تقريرِ الكتابة لنفسك وإدعاءُ ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل][4] وتجهيلِه في السؤال لابتنائه على أن صدورَها عن غيرك محتملٌ عنده مع استحالته عندك، ولا ريب في أن مرادَه عليه السلام من إسناد الكسرِ إلى الصنم ليس مجردَ تقريرِه لنفسه ولا تجهيلَهم في سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم، بل إنما مرادُه عليه السلام توجيهُهم نحو التأملِ في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله: ﴿**فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطِقوا وإنما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون أو يعقِلون مع أن السؤال موقوفٌ على السمع والعقل أيضًا، لما أن نتيجةَ السؤالِ [هو][5] الجوابُ وأن عدم نطقِهم أظهرُ

---

(١) في خ: أن.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.

وتبكيتَهم بذلك أدخلُ، وقد حصل ذلك أولًا حسبما نطق به قوله تعالى:

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي راجعوا عقولَهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضَرّةِ عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسَره بوجه من الوجوه، يستحيل أن يقدر على دفع مضرَّةٍ عن غيره أو جلبِ منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودًا **﴿فقالوا﴾** أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم: **﴿إنكم أنتم الظالمون﴾** أي بهذا السؤالِ لأنه كان على طريقة التوبيخِ المستتبعِ للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام، لا من ظلمتوه بقولكم: إنه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون[١] بعبادتها لا مَنْ كسرها **﴿ثم نكسوا على رءوسهم﴾** أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شبّه عودَهم إلى الباطل بصيرورة أسفلِ الشيءِ أعلاه، وقرئ (نُكّسوا)[٢] بالتشديد و(نكَسوا)[٣] على البناء للفاعل أي نكّسوا أنفسَهم **﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾** على إرادة القول أي قائلين: والله لقد علمت أنْ ليس من شأنهم النطقُ فكيف تأمرُنا بسؤالهم؟ على أن المرادَ استمرارُ نفي النطقِ لا نفيُ استمراره كما تُوهمه صيغةُ المضارع **﴿قال﴾** مبكّتًا لهم **﴿أفتعبدون﴾** أي أتعلمون ذلك فتعبدون **﴿من دون الله﴾** أي متجاوزين عبادتَه تعالى: **﴿ما لا ينفعكم شيئًا﴾** من النفع **﴿ولا يضركم﴾** فإن العلمَ بحاله المنافيةِ للألوهية مما يوجب الاجتنابَ عن عبادته قطعًا **﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾** تضجّرٌ منه عليه الصلاة والسلام من إصرارهم على الباطل البيّن، وإظهارُ الاسم الجليلِ في موضع الإضمارِ لمزيد استقباحِ ما فعلوا.

و(أفّ) صوتُ المتضجِّر ومعناه قُبحًا ونتْنًا واللامُ لبيان المتأفَّفِ له **﴿أفلا تعقلون﴾** أي ألا تتفكرون فلا تعقِلون قبحَ صنيعكم.

﴿قالوا﴾ أي قال بعضُهم لبعض لما عجَزوا عن المُحاجّة وضاقت عليهم الحِيلُ وعيَّت بهم العللُ، وهكذا دَيدنُ المبطِلِ المحجوجِ إذا قرعت شُبهته بالحجة القاطعة وافتُضِح لا يبقى له مفزعٌ إلا المناصبةُ.

---

(١) زاد في خ: بهذا السؤال لأنه كان.

(٢) قرأ بها: هشام، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وابن مقسم، وابن الجارود، والبكراوي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٢٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٧)، وتفسير الرازي (٢٢/ ١٨٦).

(٣) قرأ بها: رضوان بن العبود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٢٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٧).

﴿حرقوه﴾ فإنه أشدُّ العقوبات ﴿وانصروا آلهتكم﴾ بالانتقام لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي للنصر أو لشيء يُعتدّ به، قيل: القائلُ نمرودُ بنُ كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوسٍ[١] بن حام بن نوح، وقيل: رجلٌ من أكراد فارسَ اسمُه هيون، وقيل: هدير خُسِفت به الأرض، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنَوا له حظيرةً بكُوثَى، قرية من قرى الأنباط وذلك قوله تعالى: ﴿قالوا ابنُوا له بنيانًا فألقُوه في الجحيم﴾ [الصافات: ٩٧] فجمعوا له صِلاب الحطب من أصناف الخشبِ مدةَ أربعين يومًا فأوقدوا نارًا عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحدٌ، حتى إن كانت الطير لتمرّ بها وهي في أقصى الجو فتحترق من شدة وهَجِها ولم يكد أحد يحوم حولها. فلم يعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها فأتى إبليسُ وعلمهم عمل المِنْجنيق فعمِلوه، وقيل: صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرضَ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم عَمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولًا فرمَوا به فيها فقال له جبريلُ عليهما السلام: هل لك حاجةٌ؟ قال: أما إليك فلا، قال: فاسأل ربك، قال: حسبي من سؤالي علمُه بحالي، فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرةَ روضةً وذلك قوله تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾ أي كوني ذاتَ بردٍ وسلام أي ابرُدي بردًا غيرَ ضارّ وفيه مبالغات: جعلُ النارِ المسخرةِ لقدرته تعالى مأمورةً[٢] مطاوِعةً وإقامةَ كوني ذاتَ بردٍ مقامَ (ابردي)، ثم حذفُ المضافِ وإقامةُ المضاف إليه مُقامَه، وقيل: نصب (سلامًا) بفعله أي وسلمنا عليه.

روي أن الملائكة أخذوا بضَبْعَي[٣] إبراهيمَ وأقعدوه على الأرض فإذا عينُ ماءٍ عذبٍ وورد أحمرُ ونرجسٌ ولم تحرِق النارُ منه إلا وَثاقه، وروي أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يومًا أو خمسين وقال: ما كنت أطيبَ عيشًا مني إذ كنت فيها.

قال ابن يسار: وبعث الله تعالى ملَكَ الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه، فنظر نمرودُ من صَرْحه فأشرف عليه فرآه جالسًا في روضة مُونِقة ومعه جليسٌ على أحسن ما يكون من الهيئة والنارُ محيطةٌ به، فناداه: يا إبراهيمُ هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم،

---

(١) في خ: كواس.
(٢) في خ: مأخوذة.
(٣) الضَبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها، وهما ضبعان.

قال: فقم فاخرُج، فقام يمشي فخرج منها فاستقبله نمرودُ وعظّمه[١] وقال: مَن الرجلُ الذي رأيته معك؟ قال: ذلك ملَك الظلّ أرسله ربي ليؤنسني، فقال: إني مقرِّبٌ إلى إلٰهك قربانًا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك، فقال عليه السلام: لا يقبل الله منك ما دمت على دينك هذا، قال: لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبح له أربعةَ آلافِ بقرة، فذبحها وكف عن إبراهيم عليه السلام وكان إذ ذاك ابنَ ستَّ عشْرةَ سنة.

وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فإن انقلابَ النار هواء طيبًا وإن لم يكن بدعًا من قدرة الله عز وجل لكن وقوعَ ذلك على هذه الهيئة مما يخرِق العاداتِ، وقيل: كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه في السَّمَنْدل[٢] كما يشعر به ظاهرُ قوله تعالى: ﴿على إبراهيم﴾.

﴿**وأرادوا به كيدًا**﴾ مكرًا عظيمًا في الإضرار به ﴿**فجعلناهم الأخسرين**﴾ أي أخسرَ من كل خاسر حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ برهانًا قاطعًا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل، وموجبًا لارتفاع درجته واستحقاقِهم لأشد العذاب.

﴿**ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾ أي من العراق إلى الشام وبركاته العامة، أن أكثر الأنبياءِ بُعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعُهم التي هي مبادي الكمالات والخيراتِ الدينية والدنيويةِ، وقيل: كثرةُ النعم والخِصْبُ الغالب، روي أنه عليه السلام نزل بِفلَسطين ولوطٌ عليه السلام بالمؤتفكة[٣] وبينهما مسيرةُ يومٍ وليلة.

﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة**﴾ أي عطيةً فهي حالٌ منهما أو ولدَ ولدٍ[٤] أو زيادة على ما سأل وهو إسحاقُ فتختص بيعقوبَ ولا لَبْس فيه للقرينة الظاهرةِ ﴿**وكلاًّ**﴾ أي كلُّ واحدٍ من هؤلاء الأربعة لا بعضُهم دون بعض ﴿**جعلنا صالحين**﴾ بأن وفقناهم

---

(١) في خ: فعظه.
(٢) السمندل: طائر بالهند زعموا أن النار لا تحرقه. وقال بعضهم: إنه معرف سمندور، وهو مركب من سام أي نار، ومن اندرون أي داخل.
(٣) المؤتفكات المذكورة في القرآن الكريم هي مدائن لوط. ولعل المؤتفكة ليست اسماً لمدينة بعينها وإنما هي إشارة إلى واحدة غير محددة من تلك المدن، إذ إن ما ورد بشأنها في معاجم البلدان هو على سبيل التأويل لا التعيين. (انظر على سبيل المثال معجم البلدان لياقوت ٥/ ٢١٩).
(٤) يقال لولد الولد: نافلة لأنه زيادة على الولد.

للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين ﴿**وجعلناهم أئمة**﴾ يقتدى بهم في أمور الدين إجابةً لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿ومن ذريتي﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿**يهدون**﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿**بأمرنا**﴾ لهم بذلك وإرسالِنا إياهم حتى صاروا مكملين ﴿**وأوحينا إليهم فعل الخيرات**﴾ ليحثوّهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العملِ إلى العلم، وأصلُه أن تفعل الخيراتِ ثم فعل الخيرات وكذا قوله تعالى: ﴿**وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**﴾ وهو من عطف الخاصِّ على العام دَلالةً على فضله وإنافتِه وحُذفت تاءُ الإقامة المعوّضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مَقامه ﴿**وكانوا لنا**﴾ خاصة دون غيرنا ﴿**عابدين**﴾ لا يخطر ببالهم غيرُ عبادتنا.

﴿**ولوطًا**﴾ قيل: هو منصوبٌ بمضمر يفسّره قوله تعالى: ﴿**آتيناه**﴾ أي وآتينا لوطًا، وقيل: بـ (اذكُرْ) ﴿**حكمًا**﴾ أي حكمةً أو نبوة أو فصلًا بين الخصوم[1] بالحق ﴿**وعلمًا**﴾ بما ينبغي علمُه للأنبياء عليهم السلام ﴿**ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث**﴾ أي اللّواطةَ، وُصفت بصفة أهلها وأُسندت إليها على حذف المضاف وإقامتها مُقامه كما يُؤذِن به قوله تعالى: ﴿**إنهم كانوا قوم سوء فاسقين**﴾ فإنه كالتعليل له ﴿**وأدخلناه في رحمتنا**﴾ أي في أهل رحمتِنا أو في جنتنا ﴿**إنه من الصالحين**﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

﴿**ونوحًا**﴾ أي اذكر نوحًا أي خبرَه وقوله تعالى: ﴿**إذ نادى**﴾ أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك، ظرف للمضاف[2] أي: اذكر نبأه الواقعَ وقت دعائه ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿**فاستجبنا له**﴾ أي دعاءَه الذي من جملته قولُه: ﴿إني مغلوبٌ فانتصر﴾ [القمر: ١٠] ﴿**فنجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ وهو الطوفانُ، وقيل: أذيّةُ قومِه وأصلُ الكرب الغمُّ الشديد ﴿**ونصرناه**﴾ نصرًا مستتبِعًا للانتقام والانتصار ولذلك قيل: ﴿**من القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ وحملُه على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فإن ظاهرَه يوجب إسنادَ الانتصارِ إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر وقوله تعالى: ﴿**إنهم كانوا قوم سوء**﴾ تعليلٌ لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى: ﴿**فأغرقناهم أجمعين**﴾ فإن الإصرارَ على تكذيب الحقِّ والانهماكَ في الشر والفساد مما يوجب الإهلاكَ قطعًا.

---

(١) في خ: المخصوم.
(٢) زاد في خ: مقدر.

﴿وداودَ وسليمان﴾ إما عطفٌ على نوحًا معمولٌ لعامله وإما لمضمر معطوفٍ على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى: ﴿إذ يحكمان﴾ ظرفٌ للمضاف المقدر وصيغةُ المضارع حكايةٌ للحال الماضيةِ لاستحضار صورتِها، أي اذكر خبرَهما وقت حُكمِهما ﴿في الحرث﴾ أي في [حق][1] الزرعِ [أو][2] الكرم المتدلّي عناقيدُه كما قيل، أو بدلُ اشتمال منهما وقوله تعالى: ﴿إذ نفشت﴾ أي تفرّقت وانتشرت ﴿فيه غنم القوم﴾ ليلًا بلا راعٍ فرَعَتْه وأفسدتْه ظرفٌ للحكم ﴿وكنا لحكمهم﴾ أي لحُكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما، فإن الإضافةَ لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيامِ واختصاصِ الوقوع، وقرئ[3] لحكمهما ﴿شاهدين﴾ حاضرين علمًا والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ للحكم ومفيدٌ لمزيد الاعتناءِ بشأنه ﴿ففهمناها سليمان﴾ عطفٌ على يحكمان فإنه على حكم الماضي، وقرئ[4] فأفهمناها والضميرُ للحكومة أو الفُتيا.

روي أنه دخل على داودَ عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: إن غنَمَ هذا دخلت في حرثي ليلًا فأفسدتْه فقضى له بالغنم فخرجا فمرّا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك، فقال: غيرُ هذا أرفقُ بالفريقين فسمعه داودُ فدعاه، فقال له: بحق النبوةِ والأبوة إلا أخبرتَني بالذي أرفقُ بالفريقين، فقال: أرى أن تُدفع الغنَمُ إلى صاحب الأرض لينتفعَ بدرها[5] ونسلِها وصوفِها، والحرث إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعودَ إلى ما كان ثم يترادّا، فقال: القضاءُ ما قضيتَ وأمضىٰ الحُكْمَ بذلك، والذي عندي أن حكْمَهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فإن قولَ سليمان عليه الصلاة والسلام: [غيرُ هذا أرفقُ بالفريقين، ثم قولُه: أرى أن تُدفع إلخ، صريحٌ في أنه ليس بطريق الوحي وإلا لبتّ القولَ بذلك ولما ناشده داودُ عليهما السلام][6] لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يُظهِره بدءًا وحرُم عليه كتمُه، ومن ضرورته أن يكون القضاءُ

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: و.

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٠٨).

(٤) قرأ بها: عكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٩).

(٥) في ط: بدرورها.

(٦) سقط في خ.

السابقُ أيضًا كذلك ضرورةَ استحالة نقضِ حكم النص بالاجتهاد، بل أقول: والله تعالى أعلم إن رأْيَ سليمان عليه السلام استحسانٌ كما ينبئ عنه قوله: أرفقُ بالفريقين ورأيَ داودَ عليه السلام قياسٌ كما أن العبدَ إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة إلى المجنيِّ عليه أو [يفديه][١] ويبيعُه في ذلك أو يفديه عند الشافعي، وقد روي أنه لم يكن بين قيمة الحرثِ و[٢] قيمة الغنمِ تفاوتٌ، وأما سليمانُ عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاعَ بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول مُلكُ المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى أن يزولَ الضررُ الذي أتاه من قِبله كما قال أصحابُ الشافعيِّ فيمن غصب عبدًا فأبَقَ منه: أنه يضمن القيمةَ فينتفعَ بها المغصوبُ منه بإزاء ما فوّته الغاصبُ من المنافع فإذا ظهر الآبقُ ترادّا وفي قوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ دليلٌ على رجحان قولِه ورجوعِ داودَ عليه السلام إليه مع أن الحكمَ المبنيَّ على الاجتهاد لا يُنقَض باجتهاد آخرَ وإن كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتِنا، على أنه ورد في الأخبار أن داودَ عليه السلام لم يكن بتّ[٣] الحكمَ في ذلك حتى سمع من سليمانَ[٤].

وأما حكمُ المسألةِ في شريعتنا فعند أبي حنيفة رحمه الله لا ضمانَ إن لم يكن معها سائقٌ أو قائد، وعند الشافعي يجب الضمانُ ليلًا لا نهارًا.

وقوله تعالى: ﴿**وكلًّا آتينا حكمًا وعلمًا**﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيصُ سليمانَ عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داودَ عليه السلام حكمًا شرعيا، أي وكلٌّ واحد منهما آتينا حكمًا وعلمًا كثيرًا لا سليمانُ وحده، وهذا إنما يدل على أن خطأَ المجتهدِ لا يقدح في كونه مجتهدًا، وقيل: بل على أن كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ وهو مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ [ولولا النقلُ لاحتمل توافقُهما على أن قوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾][٥] لإظهار ما تفضّل عليه في صِغره فإنه عليه السلام

(١) سقط في خ.
(٢) زاد في خ: وبين.
(٣) في خ: ثبت.
(٤) زاد في خ: ما سمع.
(٥) سقط في خ.

كان حينئذ ابن إحدى [عشْرة][١] سنةً.

﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾ شروعٌ في بيان ما [يختص بكل][٢] منهما من كراماته تعالى إثرَ بيان كرامتِه العامة لهما ﴿يسبحن﴾ أي يقدّسْن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلامَ، وقيل: يسِرْن معه من السباحة وهو حالٌ من الجبال أو استئنافٌ مبين لكيفية التسخيرِ [و(مع) متعلقةٌ بالتسخير][٣]، وقيل: بالتسبيح وهو بعيد.

﴿والطير﴾ عطفٌ على الجبال أو مفعولٌ معه، وقرئ[٤] بالرفع على الابتداء والخبرُ محذوفٌ، أي والطيرُ مسخراتٌ، وقيل: على العطف على الضمير في يسبحن وفيه ضعفٌ لعدم التأكيد والفصلِ.

﴿وكنا فاعلين﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثالَه فليس ذلك ببِدْعٍ منا وإن كان بديعًا عندكم ﴿وعلمناه صنعة لبوس﴾ أي عملَ الدِّرْعِ وهو في الأصل اللباسُ قال قائلهم: [الرجز]

البَسْ لكل حالة لَبوسَها إما نعيمَها وإما بوسَها[٥]

وقيل: كانت صفائح فحلقها وسرَدها[٦] ﴿لكم﴾ متعلقٌ بعلّمنا أو بمحذوف هو صفةُ (لَبوس).

﴿لتحصنكم﴾ أي اللبوسُ بتأويل الدرع، وقرئ[٧] بالتذكير على أن الضمير لداودَ عليه السلام أو للّبوس، وقرئ[٨] بنون العظمة وهو بدلُ اشتمال من (لكم) بإعادة

---

(١) في خ: وعشرين.

(٢) في خ: يخص كلا.

(٣) سقط في خ.

(٤) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣١).

(٥) الرجز لبيهس الفزاري في التنبيه والإيضاح (٢/ ٣٠١)، وتاج العروس (بهنس، لبس، نعم)، وبلا نسبة في لسان العرب (لبس)، وهو من أمثال العرب. انظر أمثال العرب ص (١١١)، وجمهرة الأمثال (١/ ١٩٧)، وخزانة الأدب (٧/ ٢٩٦)، والفاخر ص (٦٢)، والمستقصى (١/ ٣٠٤)، والوسيط في الأمثال، ص (٤٠).

(٦) حلَّقها: جعلها كالحلقة، أو جعلها حلقاً. وسرد الدرع: نسجها فشكَّ طرفي كل حلقتين وسمَّرهما.

(٧) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٠٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٠٠).

(٨) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، وشعبة، ورويس، وأبو حنيفة، والجعفي، ومسعود بن صالح، وهارون، ويونس، والمنقري، وشيبة، وابن أبي إسحاق. =

الجارّ مبينٌ لكيفية الاختصاصِ والمنفعةِ المستفادةِ من لام (لكم).

﴿من بأسكم﴾ قيل: من حرب عدوِّكم، وقيل: من وقع السلاح فيكم **﴿فهل أنتم شاكرون﴾** أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهامِ للمبالغة أو التقريع.

﴿ولسليمان الريح﴾ أي وسخرنا له الريحَ، وإيرادُ اللام هاهنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت، فإن تسخيرَ ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرِها كان بطريق الانقيادِ الكليِّ له والامتثالِ بأمره ونهيِه والمقهوريةِ تحت ملكوتِه، وأما تسخيرُ الجبال والطيرِ لداودَ عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعيةِ له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عز وعلا **﴿عاصفة﴾** حالٌ من الريح والعاملُ فيها الفعلُ المقدرُ، أي وسخرنا له الريحَ حالَ كونِها شديدةَ الهبوبِ من حيث إنها كانت تبعُد بكرسيه في مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى: ﴿غدوُّها شهرٌ ورَواحُها شهر﴾ [سبأ: ١٢] وكانت رُخاءً[١] في نفسها طيبةً، وقيل: كانت رُخاءً تارة وعاصفةً أخرى حسب إرادتِه عليه الصلاة والسلام.

وقرئ[٢] الريحُ بالرفع على الابتداء والخبرُ هو الظرفُ المقدم وعاصفةً حينئذ حال من ضمير المبتدأ في الخبر والعاملُ ما فيه من معنى الاستقرارِ، وقرئ الرياح نصبًا[٣] ورفعًا[٤].

﴿تجري بأمره﴾ بمشيئته حالٌ ثانية أو بدلٌ من الأولى أو حال من ضميرها **﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾** وهي الشام رَواحًا بعد ما سار به منه بكرةً، قال الكلبي:

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٢)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٣٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٠)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٥٦)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٠٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٠٠).

(١) الرُّخاء: الريح اللينة.

(٢) قرأ بها: ابن هرمز، وشعبة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٧٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٣٩)، وتفسير الطبري (١٧/ ٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٠١).

(٣) قرأ بها: أبو جعفر، والحسن، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١١)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٠١).

(٤) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٠١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

كان سليمانُ عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخْرَ[1] إلى الشام وإلى حيث شاء ثم يعود إلى منزله **﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾** فنُجريه حسبما تقتضيه الحِكمة.

﴿ومن الشياطين﴾ أي وسخرنا له من الشياطين **﴿من يغوصون له﴾** في البحار ويستخرجون له من نفائسها، وقيل: مَنْ رُفع على الابتداء وخبرُه ما قبله والأولُ هو الأظهرُ **﴿ويعملون عملًا دون ذلك﴾** أي غير ما ذكر من بناء المدن والقصورِ واختراعِ الصنائعِ الغريبة لقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيلَ﴾ [سبأ: ١٣]، وهؤلاء إما الفرقةُ الأولى أو غيرها لعموم كلمة مَنْ، كأنه قيل: ومَن يعملون وجمعُ الضمير الراجع إليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبُه بقوله تعالى: ﴿ومن الشياطين﴾، روي أن المسخَّر له عليه السلام كفارُهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى: ﴿ومن الشياطين﴾ وقوله تعالى: **﴿وكنا لهم حافظين﴾** أي من أن يزيغوا عن أمره أو يُفسدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم[2]، قيل: وكل بهم جمعًا من الملائكة وجمعًا من مؤمني الجن، وقال الزجاجُ: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عمِلوا وكان دأبُهم أن يفسدوا بالليل ما عمِلوه بالنهار.

﴿وأيوب﴾ الكلام فيه كما مر في قوله تعالى: ﴿وداود وسليمان﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي واذكر خبرَ أيوبَ **﴿إذ نادى ربه أني﴾** أي بأني **﴿مسني الضر﴾** وقرئ[3] بالكسر على إضمار القولِ أو تضمينِ النداء معناه، والضرُّ شائع في كل ضررٍ وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهُزال ونحوهما **﴿وأنت أرحم الراحمين﴾** وصفه تعالى بغاية الرحمةِ بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفًا في السؤال، وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن إسحاقَ استنبأه الله تعالى وكثُر أهلُه وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولادِه بهدم بيت عليهم وذهابِ أمواله والمرضِ في بدنه ثمانيَ عشرةَ سنة، أو ثلاثَ عشرةَ سنة، أو سبعًا وسبعةَ أشهر وسبعة أيام وسبعَ ساعات، روي أن امرأتَه ماخيرَ بنتَ ميشا بنِ يوسفَ عليه السلام أو رحمةَ بنتَ

---

(١) اصطخر: بلدة بفارس.

(٢) الجِبِلَّة: الخِلْقة.

(٣) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٠٩).

أفرايمَ بنِ يوسف قالت له يومًا: لو دعوتَ الله تعالى، فقال: كم كانت مدةُ الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله تعالى أن أدعوَه وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي، وروي أن إبليسَ أتاها على هيئة عظيمة فقال: أنا إلٰهُ الأرضِ فعلتُ بزوجك ما فعلت لأنه تركني وعبدَ إلٰهَ السماء، فلو سجد لي سجدةً لرددتُ عليه وعليك جميعَ ما أخذتُ منكما، وفي رواية: لو سجدتِ لي سجدةً لرَجعتُ المالَ والولد وعافيتُ زوجَك، فرجعت إلى أيوبَ وكان ملْقًى في الكُناسة لا يقرُب منه أحدٌ فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام: كأنك افتُتِنْتِ بقول اللعين لئن عافاني الله عز وجل لأضرِبنّك مائة سَوْط وحرامٌ عليّ أن أذوق بعد هذا شيئًا من طعامك وشرابِك، فطردها فبقيَ طريحًا في الكُناسة لا يحوم حوله أحدٌ من الناس فعند ذلك خر ساجدًا فقال: ربّ إني مسّنيَ الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين، فقيل له: ارفعْ رأسك فقد استُجيب لك، اركُضْ[1] برجلك فركض فنبعتْ من تحته عينُ ماء فاغتسل منها فلم يبقَ في ظاهر بدنه دابةٌ إلا سقطتْ ولا جراحةٌ إلا برِئت، ثم ركض مرة أخرى فنبعت عينٌ أخرى فشرب منها فلم يبقَ في جوفه داءٌ إلا خرج وعاد صحيحًا ورجع إليه شبابُه وجمالُه ثم كُسِيَ حلة وذلك قوله تعالى: ﴿**فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر**﴾ فلما قام جعل يلتفت فلا يري شيئًا مما كان له من الأهل والمالِ إلا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى: ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم**﴾.

وقيل: كان ذلك بأن وُلد له ضِعفُ ما كان، ثم إن امرأتَه قالت في نفسها: هبْ أنه طردني أفأترُكه حتى يموتَ جوعًا وتأكلَه السباع لأرجِعنّ إليه، فلما رجعت ما رأت تلك الكُناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الأمورُ فجعلت تطوفُ حيث كانت الكُناسة وتبكي وهابت صاحبَ الحُلة أن تأتيَه وتسألَ عنه، فأرسل إليها أيوبُ ودعاها فقال: ما تريدين يا أمةَ الله؟ فبكت وقالت: أريد ذلك المُبْتلىٰ الذي كان ملقًى على الكناسة، قال لها: ما كان منك؟ فبكت وقالت: بعْلي، قال: أتعرِفينه إذا رأيتِه؟ قالت: وهل يخفى عليّ؟ فتبسم فقال: أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقتْه ﴿**رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ أي آتيناه ما ذُكر لرحمتنا أيوبَ وتذكرةً لغيره من العابدين ليصبِروا كما

---

(١) اركض برجلك: اضرب برجلك.

صبر فيُثابوا كما أثيب، أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوبُ وذكْرِنا إياهم بالإحسان وعدمِ نسياننا لهم.

﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾ أي واذكرهم، وذو الكِفل: إلياسُ، وقيل: يوشعُ بنُ نون، وقيل: زكريا سُمّي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفُّلٍ منه، أو ضعف عمل أنبياءِ زمانه وثوابه فإن الكفلَ يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضِعْف ﴿كل﴾ أي كل واحد من هؤلاء ﴿من الصابرين﴾ أي على مشاقّ التكاليف وشدائدِ النُّوَب، والجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ من الأمر بذكرهم ﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾ أي في النبوة أو في نعمة الآخرة ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح الكاملِ الذي لا يحوم حوله شائبةُ الفساد وهم الأنبياءُ، فإن صلاحَهم معصومٌ من كَدَر الفساد.

﴿وذا النون﴾ أي واذكر صاحب الحوت وهو يونسُ عليه السلام ﴿إذ ذهب مغاضبًا﴾ أي مراغِمًا لقومه لمّا برِمَ من طول دعوته إياهم وشدةِ شكيمتهم وتمادي إصرارِهم مهاجرًا عنهم قبل أن يؤمر، وقيل: وعدَهم بالعذاب فلم يأتِهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذّبهم فغضِب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجَرة لخوفهم لحوقَ العذاب عندها.

وقرئ[١] مُغضَبًا ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ أي لن نضيّقَ عليه أو لن نقضيَ عليه بالعقوبة من القدر، ويؤيده أنه قرئ[٢] مشددًا أو لن نُعمِل فيه قدرتَنا، وقيل: هو تمثيلٌ لحاله بحال مَنْ يظن أن لن نقدر عليه أي نعامله معاملةَ من يظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه من غير انتظار لأمرنا كما في قوله تعالى: ﴿أيحسَب أن مالَه أخلَده﴾ [الهمزة: ٣] أي نعامله معاملةَ من يحسَب ذلك، وقيل: خطرةٌ شيطانية سبقت إلى

---

(١) قرأ بها: أبو شرف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٣٢).

(٢) قرأ بها: الزهري، وعمر بن عبد العزيز، والماوردي، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢١٥).

وهمه فسُمّيت ظنًّا للمبالغة، وقرئ بالياء مخففًا[(١)] ومثقلًا[(٢)] مبنيًا للمفعول **﴿فنادى﴾** الفاءُ فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقامِ الحوت فنادى **﴿في الظلمات﴾** أي في الظلمة الشديدةِ المتكاثفة أو في ظلمات بطنِ الحوتِ والبحرِ والليل، وقيل: ابتلع حوتَه حوتٌ أكبرُ منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل **﴿أن لا إلٰه إلا أنت﴾** أي بأنه لا إلٰهَ إلا أنت على أنّ أنْ مخففةٌ من أنّ وضميرُ الشأن محذوف، أو أي لا إلٰه إلا أنت على أنها مفسّرة.

﴿سبحانك﴾ أنزهك تنزيهًا لائقًا بك من أن يُعجزك شيءٌ أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب من جهتي **﴿إني كنت من الظالمين﴾** لأنفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة **﴿فاستجبنا له﴾** أي دعاءَه الذي دعاه في ضمن الاعترافِ بالذنب على ألطف وجهٍ وأحسنه. عن رسول الله ﷺ: «**ما من مكروبٍ يدعو بهذا الدعاء إلا استُجيب له**»[(٣)] **﴿ونجيناه من الغم﴾** بأن قذفه الحوتُ إلى الساحل بعد أربع ساعاتٍ كان فيها في بطنه، وقيل: بعد ثلاثة أيام، وقيل: الغمُّ غمُّ الالتقام، وقيل: الخطيئة **﴿وكذلك﴾** أي مثلَ ذلك الإنجاءِ الكامل **﴿ننجي المؤمنين﴾** من غمومٍ دَعَوُا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاءً أدنى منه، وفي الإمام[(٤)] نجّى فلذلك أخفى الجماعةُ النون الثانية فإنها تُخفىٰ مع حروف الفم، وقرئ بتشديد الجيم[(٥)] على أن أصله (نُنجّي)

---

(١) قرأ بها: يعقوب، وابن أبي ليلى، والحسن، وأبو شرف، والكلبي، وحميد بن قيس، وعبد الله بن أبي إسحاق، وابن عباس، وعيسى، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١١)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٤٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٠)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢١٥).

(٢) قرأ بها: علي بن أبي طالب، واليماني، وعبيد بن عمير، وقتادة، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨١)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢١٥).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٥) كتاب الدعاء والتكبير، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بلفظ: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فقال: ألا أخبركم بشيء إذا نزل رجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه. فقيل له: بلى فقال:
دعوة ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

(٤) الإمام هو اسم لمصحف عثمان.

(٥) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وشعبة، وأبو عبيد.

=

فحذفت الثانية كما حذفت التاء في (تَظاهرون) وهي وإن كانت فاءً فخذفُها أوقعُ من حذف حرفِ المضارَعة التي لِمعنًى، ولا يقدح فيه اختلافُ حركتي النونين فإن الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المِثلين مع تعذّر الإدغام وامتناعُ الحذفِ في (تتجافى) لخوف اللَّبس، وقيل: هو ماضٍ مجهولٌ أسند إلى ضمير المصدر وسُكّن آخره تخفيفًا ورُدّ بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور، والماضي لا يسكن آخرُه.

﴿وزكريا﴾ أي واذكر خبره **﴿إذ نادى ربه﴾** وقال: **﴿رب لا تذرني فردًا﴾** أي وحيدًا بلا ولدٍ يرثني **﴿وأنت خير الوارثين﴾** فحسبي أنت إن لم ترزُقني وارثًا **﴿فاستجبنا له﴾** أي دعاءَه **﴿ووهبنا له يحيى﴾** وقد مر بيانُ كيفية الاستجابة والهبة في سورة مريم **﴿وأصلحنا له زوجه﴾** أي أصلحناها للولادة بعد عُقْرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقِها وكانت حَرِدةً.

وقوله تعالى: **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾** تعليل لما فصل من فنون إحسانِه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيراتِ مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير وهو السرُّ في إيثار كلمة (في) على كلمة إلى المُشعرة بخلاف المقصودِ من كونهم خارجين عن أصل الخيراتِ متوجهين إليها كما في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنة﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿ويدعوننا رغبًا ورهبًا﴾ ذوي رغَبٍ ورهَب أو راغبين في الثواب راجين للإجابة أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾** أي مُخْبتين متضرعين أو دائمي الوجَل.

والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافِهم بهذه الخصال الحميدة.

﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي اذكر خبرَ التي أحصنتْه على الإطلاق من الحلال والحرام، والتعبيرُ عنها بالموصول لتفخيم شأنِها وتنزيهها عما زعموه في حقها آثرَ ذي أثيرٍ **﴿فنفخنا فيها﴾** أي أحيينا عيسى في جوفها **﴿من روحنا﴾** من الروح الذي هو من أمرنا.

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٨١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٤٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٠).

وقيل: فعلنا النفخَ فيها من جهة روحنا جبريلَ عليه السلام ﴿وجعلناها وابنها﴾ أي قصتهما أو حالهما ﴿آية للعالمين﴾ فإن مَنْ تأمل حالهما تحقق كمالَ قدرتِه عز وجل، فالمرادُ بالآية ما حصل بهما من الآية التامةِ مع تكاثر آياتِ كلٍّ واحد منهما، وقيل: أريد بالآية الجنسُ الشاملُ لما لكل واحدٍ منهما من الآيات المستقلة، وقيل: المعنى وجعلناها آيةً وابنها آيةً فحذفت الأولى لدِلالة الثانية عليها.

وحدة الدين

﴿إن هذه﴾ أي ملةَ التوحيد والإسلام أشير إليها بهذه تنبيهًا على كمال ظهور أمرِها في الصحة والسَّداد ﴿أمتكم﴾ أي ملتُكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتُراعوا حقوقَها ولا تُخِلّوا بشيء منها والخطابُ للناس قاطبة ﴿أمة واحدة﴾ نصب على الحالية من (أمتُكم) أي غيرَ مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام، إذ لا مشاركةَ لغيرها في صحة الاتباعِ ولا احتمال لتبدّلها وتغيُّرها كفروع الشرائعِ المتبدلة حسب تبدّلِ الأمم والأعصار، وقرئ[1] (أمتَكم) بالنصب على البدلية من اسم إن، (أمةٌ واحدةٌ)[2] بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران ﴿وأنا ربكم﴾ لا إله [لكم][3] غيري ﴿فاعبدون﴾ خاصة لا غيرُ وقوله تعالى:

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٣٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦١).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، وابن أبي إسحاق، والأشهب العقيلي، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والجعفي، وهارون، والزعفراني، وعيسى بن عمر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٠).

(٣) سقط في خ.

زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ التفاتٌ إلى الغَيبة لينعىٰ عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين وجعلِ أمره قِطَعًا مُوَزّعةً وينهى قبائحَ أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافةُ الأنبياء عليهم السلام **﴿كل﴾** أي كلُّ واحدة من الفرق المتقطّعة أو كلُّ واحد من آحاد كلِّ واحدة من تلك الفرق **﴿إلينا راجعون﴾** بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم، وإيرادُ اسمِ الفاعلِ للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى: **﴿فمن يعمل من الصالحات﴾** إلخ، تفصيلٌ للجزاء أي فمن يعملْ بعضَ الصالحات أو بعضًا من الصالحات **﴿وهو مؤمن﴾** بالله ورسله **﴿فلا كفران لسعيه﴾** أي لا حِرمانَ لثواب عملِه ذلك، عبّر عن ذلك بالكفران الذي هو سَتْرُ النعمة وجحودُها لبيان كمال نزاهتِه تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى من القبائح وإبرازِ الإثابة في معرِض الأمور الواجبةِ عليه تعالى، ونفيُ الجنس للمبالغة في التنزيه وعبّر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به **﴿وإنا له﴾** أي لسعيه **﴿كاتبون﴾** أي مُثبّتون في صحائف أعمالِهم لا نغادر من ذلك شيئًا **﴿وحرام على قرية﴾** أي ممتنعٌ على أهلها غيرُ متصوَّر منهم، وقرئ (حِرْمٌ)[1] وهي لغة كالحِل والحلال **﴿أهلكناها﴾** قدّرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وأبو عمرو، والأعمش، وطلحة، وأبو حنيفة، وشعبة، وابن عباس، وعلي، وابن مسعود، ويحيى بن وثاب، والنخعي، وعكرمة، وسعيد ابن جبير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٨٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٤، =

طغيانهم وعتوّهم وقوله تعالى: **﴿أنهم لا يرجعون﴾** في حيز الرفع على أنه مبتدأٌ خبرُه حرامٌ أو فاعل له سادٌّ مسدَّ خبرِه، والجملةُ لتقرير مضمونِ ما قبلها من قوله تعالى: ﴿كل إلينا راجعون﴾ [الأنبياء: ٩٣] وما في أنّ من معنى التحقيق معتبرٌ في النفي المستفادِ من (حرامٌ) لا في المنفي أي ممتنعٌ ألبتةَ عدمُ رجوعِهم إلينا للجزاء، لا أن عدمَ رجوعِهم المحقق ممتنعٌ، وتخصيصُ امتناعِ عدمِ رجوعِهم بالذكر مع شمول الامتناعِ لعدم رجوعِ الكل حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿كلٌّ إلينا راجعون﴾ [الأنبياء: ٣٩] لأنهم المنكِرون للبعث والرجوعِ دون غيرهم، وقيل: ممتنعٌ رجوعُهم إلى التوبة على أن (لا) صلةٌ، وقرئ (إنهم لا يرجِعون)[1] بالكسر على أنه استئنافٌ تعليليٌّ لما قبله فحرامٌ خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي محرمٌ عليها ذلك وهو ما ذكر في الآية السابقة من العمل الصالح المشفوعِ بالإيمان والسعي المشكور، ثم علل بقوله تعالى: ﴿أنهم لا يرجعون﴾ [الروم: ٣٦] عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك؟ ويجوز حملُ المفتوحة أيضًا على هذا المعنى بحذف اللامِ عنها، أي لأنهم لا يرجعون.

وحتى في قوله تعالى: **﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾** إلخ، هي التي يُحكى بعدها الكلامُ وهي على الأول غايةٌ لما يدل عليه ما قبلها، كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامةُ يرجعون إلينا ويقولون: يا ويلنا إلخ، وعلى الثاني غايةٌ للحُرمة أي يستمر امتناعُ رجوعِهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون إليها حين لا تنفعهم التوبةُ، وعلى الثالث غايةٌ لعدم الرجوعِ عن الكفر أي لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع، ويأجوجُ ومأجوجُ قبيلتان من الإنس قالوا: الناسُ عشرةُ أجزاء تسعةٌ منها يأجوجُ ومأجوج، والمرادُ بفتحها فتحُ سدِّها على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه، وقرئ (فتّحت)[2] بالتشديد **﴿وهم﴾** أي يأجوجُ ومأجوجُ، وقيل: الناس **﴿من كل حدب﴾**

= ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٤).

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، وشيبة، وابن وردان، وابن جماز، ورويس. =

أي نشَز من الأرض، وقرئ (جدَث)[(١)] وهو القبر ﴿**ينسلون**﴾ أي يسرعون وأصله مقاربةُ الخَطْو مع الإسراع، وقرئ بضم السين[(٢)] ﴿**واقترب الوعد الحق**﴾ عطف على فُتحت والمرادُ به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحسابِ والجزاء لا النفخةُ الأولى ﴿**فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا**﴾ جوابُ الشرط وإذا للمفاجأة تسدّ مسدّ الفاءِ الجزائية كما في قوله تعالى: ﴿إذا هم يقنطون﴾ [الروم: ٣٦] فإذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط، والضميرُ للقصة أو مبهمٌ يفسره ما بعده ﴿**يا ويلنا**﴾ على تقدير قول وقع حالًا من الموصول، أي يقولون: يا ويلنا تعالَ فهذا أوانُ حضورِك، وقيل: هو الجواب للشرط ﴿**قد كنا في غفلة**﴾ تامة ﴿**من هذا**﴾ الذي دهمنا من البعث والرجوع إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حقٌّ ﴿**بل كنا ظالمين**﴾ إضرابٌ عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة، أي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذُرِ مكذّبين بها، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ خطابٌ لكفار مكةَ وتصريحٌ بمآل أمرهم مع كونه معلومًا مما سبق على وجه الإجمالِ مبالغة في الإنذار وإزاحةِ الاعتذار، وما تعبدون عبارةٌ عن أصنامهم لأنها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة (ما).

وقد روي أن رسول الله ﷺ حين تلا الآيةَ قال له ابن الزِّبَعْرَى[(٣)]: خصمتُك وربِّ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٤٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٣).

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وأبو الصهباء.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) قرأ بها: ابن أبي إسحاق، وأبو السمال.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٤)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٢٢).

(٣) هو: عبد الله بن الزبعرى بن قيس، السهمي القرشي، أبو سعد، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديدًا على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه حسان أبياتًا، فلما بلغته عاد إلى مكة، فأسلم واعتذر، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة. توفي نحو سنة خمس عشرة.
ينظر: الأغاني (١/ ٤)، وإمتاع الأسماع (١/ ٣٩١)، وسمط اللآلئ (٣٨٧، ٨٣٣).

الكعبة أليست اليهودُ عبدوا عُزيرًا والنصارى المسيحَ وبنو مليحٍ الملائكةَ؟ ردّ عليه بقوله عليه السلام: «**ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن ما لما لا يعقل؟**»[(١)].

ولا يعارضه ما روي أنه عليه السلام رده بقوله: «**بل هم عبدوا الشياطينَ التي أمرتْهم بذلك**»[(٢)]، ولا ما روي أن عبدَ اللَّه بن الزِّبعرى قال: هذا شيءٌ لآلهتنا خاصة أو لكل مَنْ عُبد من دون الله، فقال عليه السلام: «**بل لكل من عُبد من دون الله تعالى**»[(٣)] إذ ليس شيءٌ منهما نصا في عموم كلمة ما كما أن الأولَ نصٌّ في خصوصها، وشمولُ حكم النص لا يقتضي شمولَه بطريق العبارة بل يكفي في ذلك شمولُه لهم بطريق دِلالة النصِّ بجامع الشركةِ في المعبودية من دون الله تعالى، فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلولَ النظمِ الكريم بما ذكر، وعدمَ دخول المذكورين في حكمه بطريق العبارةِ بيّن عدم دخولِهم فيه بطريق الدلالة أيضًا تأكيدًا للرد والإلزام وتكريرًا للتبكيت والإفحام، لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمُهم فإن إخراجَ بعضِ المعبودين عن حكم منبئ عن الغضب على العبَدة والمعبودين مما يوهم الرخصةَ في عبادته في الجملة، بل بتحقيق الحقِّ وبيانِ أنهم ليسوا من المعبودية في شيء حتى يُتوهم دخولُهم في الحكم المذكورِ دلالة بموجب شركتهم للأصنام في المعبودية من دون الله تعالى، وإنما معبودُهم الشياطينُ التي أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قولُه تعالى: ﴿سبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبُدون الجنَّ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فهم الداخلون في الحُكم المذكور لإشراكهم الأصنامَ في المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجهُ في التوفيق بين الأخبار المذكورة، وأما تعميمُ كلمةِ ما للعقلاء أيضًا وجعلُ ما سيأتي من قوم تعالى: ﴿إن الذين سبقَتْ لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء: ٩٤] إلخ، بيانًا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباقُ والسياق كما يشهد به الذوقُ السليم.

والحَصَبُ ما يُرمى به ويهيج به النار من حصَبه إذا رماه بالحصْباء، وقرئ بسكون

---

(١) ذكره البيروني في أسنى المطالب ص (٢٤٢) برقم (١٢٢٥) وقال: «ذكر هذا بعض المفسرين، ولم يصح» اهـ.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٦)، وابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٣٦٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٩).

الصاد[1] وصفًا له بالمصدر للمبالغة.

﴿أنتم لها واردون﴾ استئنافٌ أو بدلٌ من حصبُ جهنمَ واللامُ معوّضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودَهم لأجلها والخطابُ لهم ولما يعبدون تغليبًا.

﴿لو كان هؤلاء﴾ أي أصنامُهم ﴿آلهة﴾ كما يزعمون ﴿ما وردوها﴾ وحيث تبين ورودُهم إياها تعين امتناعُ كونها آلهةً بالضرورة، وهذا كما ترى صريحٌ في أن المرادَ بما يعبدون هي الأصنامُ لأن المرادَ إثباتُ نقيضِ ما يدّعونه وهم إنما يدّعون إلٰهية الأصنام لا إلٰهيةَ الشياطين حتى يُحتجَّ بورودها النارَ على عدم آلِهيّتها، وأما ما وقع في الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ما سيق له النظمُ الكريم بطريق العبارة، حيث سأل ابنُ الزِّبَعْرىٰ عن حال سائرِ المعبودين وكان الاقتصارُ على الجواب الأول مما يوهم الرخصةَ في عبادتهم في الجملة لأنهم المعبودون عندهم، أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطينُ وأنهم داخلون في حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزَمَ التدافعُ بين الخبرين ﴿وكل﴾ أي من العبَدة والمعبودين ﴿فيها خالدون﴾ لا خلاصَ لهم عنها ﴿لهم فيها زفير﴾ أي أنينٌ وتنفسٌ شديدٌ وهو مع كونه من أفعال العبَدة أضيف إلى الكل للتغليب، ويجوز أن يكون الضميرُ للعبدة لعدم الإلباس وكذا في قوله تعالى: ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ أي لا يسمع بعضُهم زفيرَ بعض لشدة الهول وفظاعةِ العذاب، وقيل: لا يسمعون ما يسرهم من الكلام.

﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ شروعٌ في بيان حال المؤمنين إثرَ شرح حالِ الكفرة حسبما جرت به سنةُ التنزيل من شفْع الوعد بالوعيد وإيرادِ الترغيب مع الترهيب، أي سبقت لهم منا في التقدير الخَصلةُ الحسنى التي هي أحسنُ الخصال وهي السعادةُ، وقيل: التوفيقُ للطاعة أو سبقت لهم كلمتُنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الأدخلُ الأظهرُ في الحمل عليها لما أن الأولَين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين، فالجملةُ مع ما بعدها تفصيلٌ لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فمن

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، ومحبوب، وابن السميفع، وابن أبي عبلة، وأبو حاتم، وابن عباس. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٠)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٦)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٢٤).

يعملْ من الصالحات وهو مؤمنٌ فلا كفرانَ لسعيه وإنا له كاتبون﴾ [الأنبياء: ٩٤] كما أن ما قبلها من قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون﴾ . . .إلخ، تفصيلٌ لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿وحرام﴾ . . .إلخ ﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتهم وبُعد منزلتِهم في الشرف والفضل، أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل.

﴿**عنها**﴾ أي عن جهنم ﴿**مبعدون**﴾ لأنهم في الجنة وشتان بينها وبين النار، وما روي أن عليًّا رضي الله تعالى عنه خطب يومًا فقرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ وسعدٌ وسعيدٌ وعبدُالرحمٰن بنُ عوف وأبو عبيدةَ بنُ الجراح رضوانُ الله تعالى عنهم أجمعين، ثم أقيمت الصلاةُ فقام يجرّ رداءه ويقول: ﴿**لا يسمعون حسيسها**﴾[1] - ليس بنص في كون الموصول عبارةً عن طائفة مخصوصة، والحسيسُ صوتٌ يُحَسّ به، أي لا يسمعون صوتَها سمعًا ضعيفًا كما هو المعهودُ عند كون المصوِّت بعيدًا وإن كان صوتُه في غاية الشدة، لا أنهم لا يسمعون صوتَها الخفيَّ في نفسه فقط، والجملةُ بدلٌ من مبعَدون أو حال من ضميره مَسوقةٌ للمبالغة في إنقاذهم منها وقوله تعالى: ﴿**وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون**﴾ بيانٌ لفوزهم بالمطالب إثرَ بيان خلاصِهم من المهالك والمعاطب أي دائمون في غاية التنعمَ، وتقديمُ الظرف للقصر والاهتمام به.

وقوله تعالى: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ بيانٌ لنجاتهم من الأفزاع بالكلية بعد بيان نجاتِهم من النار، لأنهم إذا لم يُحزُنْهم أكبرُ الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة.

عن الحسن رضي الله عنه أنه الانصرافُ إلى النار.

وعن الضحاك حتى يطبَقَ على النار، وقيل: حين يُذبح الموتُ في صورة كبشٍ أملحَ[2]، وقيل: النفخةُ الأخيرة لقوله تعالى: ﴿ففزِع من في السموات ومَن في الأرض﴾ [النمل: ٨٧] وليس بذاك فإن الآمنَ من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله: ﴿إلا من شاء الله﴾ لا جميعُ المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة، على أن

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٦/ ٣١١).
(٢) ينظر تفسير الكشاف (٣/ ١٣٧).

الأكثرين على أن ذلك في النفخة الأولى دون الأخيرة كما سيأتي في سورة النمل ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ أي تستقبلهم مهنّئين لهم ﴿هذا يومكم﴾ على إرادة القولِ أي قائلين: هذا اليومُ يومُكم ﴿الذي كنتم توعدون﴾ في الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المَثوبات على الإيمان والطاعات، وهذا كما ترى صريحٌ في أن المرادَ بالذين سبقت لهم الحسنى كافةُ المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحةِ لا مَنْ ذكر من المسيح وعُزيرٍ والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل.

﴿يوم نطوي السماء﴾ بنون العظمة منصوبٌ باذكرْ، وقيل: ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزعُ﴾، وقيل: بـ(تتلقاهم)، وقيل: حالٌ مقدرة من الضمير المحذوفِ في توعدون والطيُّ ضدُّ النشر، وقيل: المحو، وقرئ (يطوى)[١] بالياء والتاء والبناء[٢] للمفعول ﴿كطي السجل﴾ وهي الصحيفة أي طيا كطيّ الطومار[٣]، وقرئ (السَّجْل)[٤] كلفظ الدلو وبالكسر[٥] والسُّجُلّ[٦] على وزن [العُتُلّ وهما][٧] لغتان واللام في قوله

---

(١) قرأ بها: شيبة بن نصاح، ومجاهد، ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٤٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر، وشيبة بن نصاح، والأعرج، والزهري، ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٤٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٢).

(٣) هذا التشبيه في بيان إفناء السماء ضمن تشبيهات متعددة هذا أحدها والتشبيهان في سورة الرحمن وتشبيه في المعارج، وتشبيه في النبأ، وهذا التشبيه من التشبيه التمثيلي لأن الوجه مركب، والوجه الجامع هو إحكام القبضة والتمكن من المطوي والغرض منه بيان حال السماء بعد نفخة الصعقة.
ينظر: جامع البيان للطبري (٢٧/ ٨٢)، والجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا (٢٩٢)، ومفاتيح الغيب (٢٩/ ١١٧)، ونظم الدرر (١٢/ ٤٨٧)، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني (١٣١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٥٧)، وإملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري (٢/ ٥٨٥).

(٤) قرأ بها: الأعمش، وطلحة، وأبو السمال.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٤٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٧).

(٥) قرأ بها: الحسن، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٣١٢).

(٦) قرأ بها: أبو هريرة، وأبو زرعة، ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٣)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٤٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٧).

(٧) في خ: الصل ومنها.

تعالى: ﴿للكتب﴾ متعلقةٌ بمحذوف هو حال من السجلّ أو صفةٌ له على رأي من يجوّز حذفَ الموصولِ مع بعض صلتِه، أي كطي السجل كائنًا للكتب أو الكائن للكتب فإن الكتبَ عبارةٌ عن الصحائف وما كتب فيها فسجلُّها بعضُ أجزائها وبه يتعلق الطيُّ حقيقةً.

وقرئ (للكتاب)[1] وهو إما مصدرٌ واللامُ للتعليل أي كما يُطوى الطومارُ للكتابة أو اسم كالإمام فاللامُ كما ذكر أولًا، وقيل: السجلُّ اسمُ ملَكٍ يطوي كتبَ أعمالِ بني آدمَ إذا رُفعت إليه، وقيل: هو كاتبٌ لرسول الله ﷺ.

﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مثلَ بدئنا إياه في كونها إيجادًا بعد العدم أو جمعًا من الأجزاء المتبدّدة، والمقصودُ بيانُ صِحّةِ الإعادةِ بالقياس على المبدأ لشمول الإمكانِ الذاتي المصحّح[2] للمقدورية وتناولِ القدرة لهما على السواء، وما كافةٌ أو مصدرية و(أولَ) مفعولٌ لبدأنا أو لفعل يفسّره نعيده، أو موصولةٌ والكافُ متعلقةٌ بمحذوف يفسره نعيده أي نعيدُ مثل الذي بدأناه وأولَ خلقٍ ظرفٌ لبدأنا أو حالٌ من ضمير الموصول المحذوف ﴿وعدًا﴾ مصدرٌ مؤكد لفعله ومقرّرٌ لنعيده أو منتصبٌ به لأنه عِدَةٌ بالإعادة ﴿علينا﴾ أي علينا إنجازُه ﴿إنا كنا فاعلين﴾ لما ذكر لا محالة.

﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ هو كتابُ داودَ عليه السلام، وقيل: هو اسمٌ لجنس ما أُنزل على الأنبياء عليهم السلام ﴿من بعد الذكر﴾ أي التوراةِ وقيل: اللوحِ المحفوظ أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داودَ بعد ما كتبنا في التوراة أو كتبنا في جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ أي عامةُ المؤمنين بعد إجلاءِ الكفار، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار الدينِ وإعزازِ أهلِه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المرادَ أرضُ الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وقالوا الحمدُ لله الذي صَدَقنا وعدَه وأورثنا الأرض نتبوّأ من

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٥٠)، والتيسير للداني ص (١٥٥)، وتفسير الطبري (١٧/ ٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٥).

(٢) في خ: الصحيح.

الجنة حيثُ نشاء﴾ [الزمر، الآية ٧٤].

وقيل: الأرضُ المقدسة يرثها أمةُ محمدﷺ ﴿إن في هذا﴾ أي فيما ذكر في السورة الكريمة من الأخبار والمواعظِ البالغة والوعدِ والوعيد والبراهينِ القاطعة الدالة على التوحيد وصحةِ النبوة ﴿لبلاغًا﴾ أي كفايةً أو سببَ بلوغٍ إلى البُغية ﴿لقوم عابدين﴾ أي لقوم همُّهم العبادةُ دون العادة.

﴿وما أرسلناك﴾ بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكامِ وغير ذلك من الأمور التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إلا رحمة للعالمين﴾ هو في حيز النصب على أنه استثناءٌ من أعم العلل أو من أعم الأحوال، أي ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعةِ للعالمين قاطبةً، أو ما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حالَ كونِك رحمةً لهم فإن ما بُعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين ومنشأٌ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يغتنمْ مغانمَ آثارِه فإنما فرَّط في نفسه وحُرمةِ حقه لا أنه تعالى حَرَمه مما يُسعِده.

وقيل: كونُه رحمةً في حق الكفار أمنُهم من الخسف والمسخِ والاستئصال حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذّبَهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] ﴿قل إنما يوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد﴾ أي ما يوحىٰ إليّ إلا أنه لا إلٰهَ لكم إلا إلٰهٌ واحدٌ لأنه المقصودُ الأصليُّ من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرِّعة عليه فإنما الأولى لقصر الحُكم على الشيء كقولك: إنما يقوم زيد أي ما يقوم إلا زيد، والثانيةُ لقصر الشيءِ على الحكم كقولك: إنما زيدٌ قائم أي ليس له إلا صفةُ القيام ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي مخلِصون العبادةَ لله تعالى مخصِّصون لها به تعالى، والفاءُ للدلالة على أن ما قبلها موجبٌ لما بعدها. قالوا: فيه دَلالةٌ على أن صفةَ الوَحْدانية تصحّ أن يكون طريقُها السمعَ ﴿فإن تولوا﴾ عن الإسلام [وعن شرائعه ومباديه و][1] لم يلتفتوا إلى ما يوجبه من الوحي ﴿فقل﴾ لهم ﴿آذنتكم﴾ أي أعلمتُكم ما أُمرت به أو حربي لكم ﴿على سواء﴾ كائنين على سواءٍ في الإعلام به لم أطْوِه عن أحد منكم[2] أو مستوين به أنا وأنتم في العلم بما أعلمتُكم به أو في المعاداة أو إيذانًا على سواء، وقيل:

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: منكما.

أعلمتكم أني على سواء أي عدلٍ واستقامة رأيٍ بالبرهان النيّر ﴿**وإن أدري**﴾ أي ما أدري ﴿**أقريب أم بعيد ما توعدون**﴾ من غلَبة المسلمين وظهورِ الدين أو الحشر مع كونه آتيًا لا محالة ﴿**إنه يعلم الجهر من القول**﴾ أي ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام وتكذيبِ الآياتِ التي من جملتها ما نطق بمجيء الموعود ﴿**ويعلم ما تكتمون**﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرًا وقطميرًا ﴿**وإن أدري لعله فتنة لكم**﴾ أي ما أدري لعل تأخيرَ جزائِكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانكم، أو امتحانٌ لكم لينظُرَ كيف تعملون ﴿**ومتاع إلى حين**﴾ أي وتمتُّعٌ لكم إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئتَه المبنيةُ على الحِكَم البالغةِ ليكون ذلك حجةً عليكم ﴿**قال رب احكم بالحق**﴾ حكايةٌ لدعائه عليه الصلاة والسلام، وقرئ[1] قلْ رب على صيغة الأمر أي اقضِ بيننا وبين أهل مكةَ بالعدل المقتضي لتعجيل العذابِ والتشديد عليهم، وقد استجيب دعاؤُه[2] عليه السلام حيث عُذّبوا ببدر أيَّ تعذيبٍ، وقرئ[3] ربُّ احكم بضم الباء و(ربِّ أحكَمُ)[4] على صيغةِ التفضيل و(ربِّ أَحكم)[5] من الإحكام ﴿**وربنا الرحمٰن**﴾ مبتدأ أي كثيرُ الرحمة على عباده وقوله تعالى: ﴿**المستعان**﴾ أي المطلوبُ منه المعونةُ خبر، أو خبرٌ آخرُ للمبتدأ، وإضافةُ الربِّ فيما سبق إلى ضميره عليه

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، والجحدري. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٨٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٧).

(٢) في خ: دعاه.

(٣) قرأ بها: أبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٨٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٦٩)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٣٣).

(٤) قرأ بها: ابن عباس، وعكرمة، والجحدري، وابن محيصن، والضحاك، وطلحة، ويعقوب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٨٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٥١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٤)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٣٣).

(٥) قرأ بها: الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٤٥)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٥١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٧)، وتفسير الرازي (٢٢/ ٢٣٣).

السلام خاصة لما أن الدعاءَ من الوظائف الخاصةِ به عليه السلام كما أن إضافتَه هاهنا إلى ضمير الجمعِ المنتظمِ للمؤمنين أيضًا لما أن الاستعانةَ من الوظائف العامة لهم ﴿**على ما تصفون**﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون: إن الشوكةَ تكون لهم وإن رايةَ الإسلام تخفُق ثم تركُد وإن المتوعَّد به لو كان حقا لنزل بهم إلى غير ذلك مما لا خيرَ فيه، فاستجاب الله عز وجل دعوةَ رسوله عليه السلام فخيب آمالَهم وغيّر أحوالَهم ونصر أولياءَه عليهم، فأصابهم يومَ بدرٍ ما أصابهم، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبله، وقرئ[١] يصفون بالياء التحتانية.

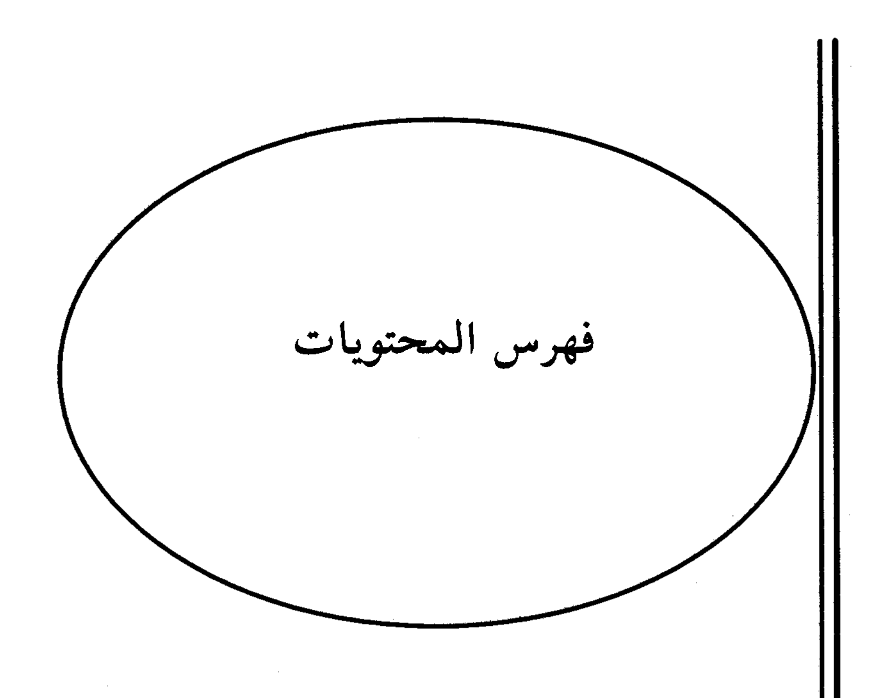
وعن النبي عليه السلام: **«من قرأ «اقترب» حاسبه الله تعالى حسابًا يسيرًا وصافحه وسلم عليه كلُّ نبيٍّ ذُكر اسمُه في القرآن»**[٢].

تم الجزء الخامس

ويليه الجزء السادس وأوله: تفسير سورة الحج.

(١) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وابن ذكوان، والأعمش، وعلي بن أبي طالب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٤٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٥٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٣).

(٢) حديث موضوع وهو جزء من الحديث الطويل في فضائل القرآن سورة سورة وقد تقدم الكلام عليه.



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

تفسير سورة إبراهيم

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة بني اسرائيل

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة مريم عليها السلام

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN

by

Al-qāḍi Abu al-Su^c^ūd al-^c^Imādi

Edited by

Ḫālid Abdul-Ǧani Maḥfūẓ

Volume V

